

الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.







پول سوسمان

Paul Sussman

متاهة أوزيريس

THE LABYRINTH OF OSIRIS

حادثة اختفاء شبه منسية وجريمة
قتل وحشية كانت مجرد بداية

متاهة أوزيريس

THE LABYRINTH OF OSIRIS

متاهة أوزيريس

THE LABYRINTH OF OSIRIS

رواية

تأليف
پول سوسمان
Paul Sussman

ترجمة
حسان البستاني

مراجعة وتحرير
مركز التعريب والبرمجة



الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. S.A.L

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنكليزي
The Labyrinth of Osiris
حقوق الترجمة العربية مرخّص بها قانونياً من الناشر
Atlantic Monthly Press
بمقتضى الاتفاق الخطي الموقّع بينه وبين الدار العربية للعلوم ناشرون، ش.م.ل.

الطبعة الأولى
1434 هـ - 2013 م

ردمك 978-614-01-0639-0



الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: (+961-1) 785107 - 785108 - 786233
ص.ب: 13-5574 شوران - بيروت 2050-1102 - لبنان
فاكس: (+961-1) 786230 - البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (+9611)

الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (+9611)

المحتويات

تمهيد

القسم الأول

القسم الثاني

الخاتمة

تمهيد

الأُقصُر، مصر، الضفة الغربية للنيل، 1931

لو لم يقرر الفتى اختبار موقع جديد لاصطياد الأسماك لَما سمع مطلقاً الفتاة الضريرة من القرية المجاورة أو رأى المِسخ الذي هاجمها.

كان يصطاد في العادة عند لسان مائي صغير وراء حقل القَصَب العملاق، في مكان يقع في اتجاه مَصَبّ النهر حيث ترسو عبّارة النيل داخل الحَوض. في هذه الليلة، وبناءً على معلومة من ابن عمه محمد الذي ادّعى رؤية أسراب من أسماك البلطي الكبيرة تنساق مع التيار في المياه الضَّحلة، قصد الفتى مكاناً يقع قرب مَنبع النهر، ومرّ بحقل القصب البعيد في بَعيرات، وصولاً إلى منحدَر رملي ضيّق تحجبه غَيضة كثّة من أشجار نَخيل الدوم عن الأنظار. لقد اعتراه شعور جيد حيال المكان، وشرع بالصيد على الفور. وما إن اصطدم خُطّاف صنّارته بالماء حتى سمع صوت الفتاة. كان خافتاً ولكنه مسموع. *لا، من فضلك! لا، رجاءً!*

رفع رأسه مُصغياً، وسحب التيار خَيط الصنّارة.

"رجاءً، لا"، سُمع الصوت مجدداً. "أنا خائفة".

ومن ثم سُمع صوت ضَحك؛ ضحكة رجل.

ألقى الفتى صنارة الصيد على الأرض، وتسلّق المرتفع الطيني المحاذي للنهر، ودخل غَيضة النخيل. كان المكان مُظلِماً، وأوراق الشجر الكثيفة تحجب نور القمر باستثناء بعض التسرّبات. كانت جذوع الأشجار غارقة في الظلّ. لقد صدر الصوت من الطرف الجنوبي للغَيضة، فجعل ذلك الاتجاهَ وُجهتَه، وسلك درباً ترابياً ضيّقاً، ومشى بحذَر كي لا يُصدر أي ضجيج ويُزعج الأفاعي السامّة ذات القرون واللدغات المميتة المتربّصة في المكان.

"لا"، سُمع الصوت مجدداً. "أستحلفك بالله. أتوسّل إليك!".

كان هناك مزيد من الضَّحك؛ ضَحكٌ مُغيظ وقاسٍ.

توقف الفتى والتقط حجراً، واستعد للدفاع عن نفسه عند الحاجة، ثم تابع سيره سالكاً الدرب التي تنعطف نحو وسط الغَيضة، وتعود أدراجها نحو الضفة. التقط لَمحات للنيل إلى يساره، وبُقع من الزئبق تتماوج وراء جذوع النخيل، ولكنه لم يتمكن من رؤية الفتاة أو مهاجمها. وعندما بلغ حافة الغَيضة وأصبحت الأشجار متباعدة، تمكن أخيراً من رؤية الاعتداء بوضوح.

ارتسم أمامه درب واسع يمتد من حقل القصب إلى يمينه وصولاً إلى النهر. كانت هناك دراجة نارية، وتمكن من رؤية شخصَين خلفها بوضوح، تحت ضوء القمر الفضّي. أحدهما، وهو الأضخم بنيةً، راكع وظهره باتجاه الفتى. كان يرتدي ملابس غربية؛ سِروالاً، ومعطفاً جلدياً تكسوه طبقة من الغبار بالرغم من دفء الليل، وينتعل جزمة، ويُمسك بفتاة أصغر منه حجماً إلى حدٍّ كبير، وترتدي جلابية سوداء. لم تكن تقاوم كما يبدو، بل تستلقي كما لو أنها متجمّدة، والجسم الضخم للمعتدي عليها يحجب وجهها.

"رجاءً"، قالت متأوّهة، "رجاءً، لا تؤذني".

أراد الفتى أن يصرخ، ولكنه كان خائفاً. فزحف إلى الأمام، وجلس القرفصاء خلف أجَمة من الدِّفلى ممسكاً بالحجر. وتمكن من رؤية الفتاة بشكل ملائم وعرفها. إنها إيمان البَدري، الفتاة الضريرة من منطقة الشيخ عبد القرنة، تلك التي يسخر منها الجميع لأنها تمضي أيامها في المعابد القديمة، مستعينةً بعصاها وملامِسةً الكتابات المنقوشة، بدلاً من القيام بما يتعيّن على الفتيات القيام به؛ أي الغسل والتنظيف والطهو. ويقول الناس إنها قادرة على الفهم باللمس، ويدعونها إيمان المشعوذة، إيمان الحمقاء.

وفي أثناء التحديق من بين أوراق الدِّفلى إلى الرجل الذي كان يُمسك بها بقوة بيديه، أسف الفتى لما تتعرض له من مضايقة؛ عِلماً أن الجميع قاموا بذلك بمن فيهم أشقاؤها.

"أنا خائفة"، كررت. "رجاءً، لا تؤذني".

"لن أؤذيك إذا قمتِ بما أطلبه منك يا صغيرتي".

إنها الكلمات الأولى التي قالها الرجل، أو على الأقل، الأولى التي سمعها الفتى. كان صوته أجَشّ ومبحوحاً وذا نبرة قاسية. وضحك مجدداً، وسحب غطاء رأسها، ومرّر يده على شعرها، فشرعت بالنحيب.

مذعوراً، أدرك الفتى أنه يتعيّن عليه القيام بأمر ما. فأعاد ذراعه إلى الوراء، مقدِّراً المسافة التي تفصله عن الشخصين أمامه، واستعدّ لرمي الحجر على رأس المعتدي.

وقبل أن يتمكن من القيام بذلك، وقف الرجل فجأةً واستدار، وغمر ضوء القمر وجهه.

فشهق الفتى. إنه وجه غول. لم تكن عيناه عيني إنسان، بل مجرد ثقبَين صغيرَين أسودَين، وما من أثر لأنف أو شفتين؛ فقط أسنان كبيرة على نحو غير طبيعي. كانت بشرته شاحبة على نحو شفاف، وخداه غائرَين كما لو أنهما منكمشان اشمئزازاً من الوجه القبيح الذي يشكلان جزءاً منه.

لقد عرفه الفتى لأنه سمع بالشائعات. إنه *هاواغا*، أي أجنبي، وكان يعمل في القبور، ويوجد في وجهه فراغٌ. إنه روح شريرة - كما يقول الناس - تتجوّل في الليل خِلسةً، وتشرب الدماء، وتختفي لأسابيع متتالية في الصحراء لمناجاة الأرواح الشريرة الأخرى. وتجهّم وجه الفتى، مقاوماً رغبته في الصياح.

"احمِني يا الله"، تمتم. "يا أرحم الراحمين، أَبقِه بعيداً".

خشي للحظات أن يكون صوته قد سُمع لأن المِسخ تقدّم خطوة إلى الأمام، وحدّق إلى الأجَمة مباشَرةً، مُميلاً رأسه إلى الأعلى كما لو أنه يُصغي. ومرّت ثوانٍ قليلة؛ ثوانٍ من الاضطراب. وبعد ذلك، توجّه الرجل إلى الدراجة النارية مُطلِقاً ضحكة خشنة مكبوتة كصوت لهاث كلب. ووقفت الضحية على قدمَيها بمشقّة، وكانت لا تزال تنتحب؛ وإن كانت تفعل ذلك بهدوء أكبر.

عندما وصل الرجل إلى الدراجة، أخرج قنينة من جَيب معطفه، ونزع الفلّينة بأسنانه، وتناول جرعة وتجشّأ، ثم تناول جرعة أخرى، ومن ثم أعاد القنينة إلى أحد الجَيبَين فيما كان يخرج شيئاً ما من الجَيب الآخر. لقد تمكن الفتى من رؤية أحزمة وإبزيمات، وافترض أن ما أخرجه غطاء الرأس الحامي. وبدلاً من وضعه على رأسه، هزّ الرجل هذا الشيء وضربه بكفّه، ورفعه إلى وجهه، واضعاً يدَيه وراء رأسه لربط الأحزمة. كان قناعاً، قناعاً جلدياً غطى وجهه من الجبين وحتى الذَّقن، مع ثقوب لعينَيه وفمه. لقد جعله ذلك القناع يبدو أكثر بشاعة من التشوّهات التي صُمِّم لحجبها، وأطلق الفتى شهقة ذُعر منخفضة أخرى. حدّق الرجل نحوه مجدداً

بعينَين بيضاوَين تتحركان بسرعة وراء القناع الجلدي، ملقيتَين نظرات متفحّصة كما لو أنهما تنظران من داخل كهف. وبعد ذلك، استدار، وأمسك بمقود الدراجة ووضع قدمه على دوّاسة التشغيل.

"لا تُخبري أحداً عن هذا الأمر"، قال للفتاة منادياً، ومتحدثاً بالعربية. "هل فهمتِ؟ لا أحد. إنه سرّنا".

ضغط على دوّاسة التشغيل بقدمه، فهدر المحرك. وبرم ذراع التشغيل عدة مرات زائداً سرعة دوران المحرك، ثم انحنى فوق الدراجة، وأدخل يده في إحدى السلتين المثبتتين في الناحية الخلفية للدراجة، وأخرج ما بدا أشبه بعلبة أو كتاب صغير – لم يكن الفتى متأكداً – وعاد إلى الفتاة، وأمسك *بجلابيتها* ودسّ الغرض بين طيّات القماش الأسود. وبعد ذلك، وضع يده وراء رأسها ودفعه في اتجاه رأسه؛ وهو ما أثار اشمئزاز الفتى. حاولت الإفلات منه، محرّكةً رأسها إلى اليمين واليسار، ولهثت اشمئزازاً كما يبدو من ملامسة الجِلد لبشرتها، وذلك قبل أن يدَعها ويعود إلى دراجته. رفع السّنادتَين الأمامية والخلفية بركلة من قدمه، وسحب نظارة واقية، ومرّر ساقه فوق المِقعد، وعشّق ذراع جهاز نقل الحركة، وصرخ للمرة الأخيرة: "سرّنا الصغير!"، وانطلقت دراجته على الدّرب هادرة قبل أن يتوارى عن الأنظار في سحابة من الغبار.

كان الفتى مروَّعاً جداً لدرجة أنه لم يجرؤ على الحراك قبل مضيّ دقائق عدة. ولم يقف على قدمَيه إلا بعد أن خبا صوت المحرّك تماماً وساد السكون الليل مجدداً. كانت الفتاة قد التقطت غطاء رأسها وأعادت ربط شعرها، متمتمة ومُطلقةً أصوات نواح غريبة كان بإمكان الفتى الاعتقاد بأنها ضَحك لو لم يرَ ما حدث لها. أراد التوجّه إليها وطمأنتها بأن كل شيء على ما يُرام، وبأن محنتها قد انتهت، ولكنه شعر بأن خطوته هذه لن تؤدّي إلا إلى مضاعفة خجلها عندما تعلم أن هناك من شاهدهما. لذلك، لازم مكانه مراقباً إيّاها وهي تبحث عن عصاها على العشب، ثم تبدأ بتلمّس طريقها على الدّرب بعيداً عن النهر. ابتعدت خمسين متراً، ومن ثم توقفت فجأةً واستدارت ناظرةً إليه مباشَرةً.

أمسكت *جلابيتها* بيدها وصاحت: "هل هناك أحد؟".

فحبس أنفاسه. نادت مجدداً، وكانت عيناها الكفيفتان مرهَقتَين، ثم تابعت السير. راقبها وهي تغادر حتى انعطفت وتوارت عن ناظريه وسط نبات القصب.

بعد ذلك، عاد أدراجه وسلك الدرب القائم على امتداد النيل، وركض بأقصى سرعة، ناسياً صنارة صيد السمك. كان يعرف تماماً ما يتعيّن عليه القيام به.

بمحركها أحادي الأسطوانة الذي تبلغ سعته 488 سنتمتراً مكعَّباً، وبعلبة تُروس ستورني أرشِر ذات السرعات الثلاث، تتخطى سرعة الرويال إنفيلد موديل جيه ستين مِيلاً في الساعة. لقد بلغت سرعتها سبعين ميلاً في الساعة عندما كان الرجل يقودها على الطرقات الإسفلتية في أوروبا. وهنا في مصر، لم يكن يقودها بسرعة تفوق ثلاثين كيلومتراً في الساعة. ولكن، هذه الليلة مختلفة ومميَّزة. لقد جعله الشراب والنشوة متهوّراً، فرفع السرعة على العدّاد إلى 45 كيلومتراً في الساعة، هادراً في اتجاه الشمال عبر حقول القصب والذُّرة، سار والنيل إلى يمينه، والجبال الطِّيبية المتموّجة والعالية إلى يساره. كان يتناول جرعات من قنينة الشراب بشكل متكرر، ويغنّي لنفسه بنشاز الأغنية نفسها.

الطريق طويل إلى تيبراري،
الطريق طويل جداً.
الطريق طويل إلى تيبراري،
إلى أجمل فتاة أعرفها!
وداعاً، يا بيكاديللي،
وداعاً، يا ساحة ليستر!
الطريق طويل، طويل جداً إلى تيبراري،
ولكن قلبي *هنا* بالذات!

كانت معظم القرى في الضفة الغربية مُقفِرة بسبب خلود سكانها الفلاحين إلى النوم منذ وقت طويل. وكانت منازلهم المصنوعة من آجر طيني مُظلمة وساكنة كالقبور. كانت هناك علامات حياة في إسبا فقط. لقد أحيي مَولد في وقت مبكّر من المساء، وتمهّل عدد قليل من الأشخاص في المغادرة حتى هذا الوقت المتأخر من الليل: عجوزان يجلسان على مِقعد وهما يدخّنان *الشيشة*، ومجموعة من الأطفال يرمون الحجارة على جَمل، وبائع حلوى يكدّ في السير إلى منزله بعربته الفارغة. رفعوا أنظارهم إلى الدراجة النارية في أثناء مرورها بهم، وحدّقوا إلى راكبها بارتياب. وصاح بائع الحلوى في وجهه. ووضع أحد الأطفال سبّابته على جبينه.

فتجاهلهم الرجل – لقد اعتاد هذه الشتائم – وتابع سيره، وطارده قطيع من الكلاب إلى خارج القرية.

"كلاب جرباء!". صاح بعد أن التفت إلى الوراء، وانحنى مكشّراً عن أسنانه.

وصل إلى تقاطع طرق وانعطف يساراً، ثم توجّه إلى الغرب في اتجاه الجبال الطِّيبية مباشَرةً، والناحية الخلفية لجسمه الضخم تتوهّج بلون قصديري تحت ضوء القمر. كانت دروبٌ صغيرة تتقاطع مقابله كأوردة بيضاء، ولا بد من أن يكون العمال القدماء في القبور قد استخدموها لعبور التلال في الألفيات الثلاث الماضية في أثناء توجّههم إلى وادي الملوك. لقد سبق له أن سلك تلك الدروب عدة مرات على مَرّ السنين، مما أثار دهشة علماء الآثار وغربيين آخرين لم يتمكنوا من فهم سبب عدم امتطائه حماراً إذا أراد التمتع بالمناظر. كارتر هو الوحيد الذي كان يفهم السبب في الواقع، حتى إن المصالح التجارية بدأت تستحوذ عليه، ويأخذ منه التملّق كل مأخذ، ويتظاهر بالتصرف بلباقة وبطرائق مُصطنَعة. كان باستطاعة الرجل تحمّل العناد وسَورات الغضب، ولكن ليس التصرف بلباقة وبطرائق مُصطنَعة. لم يكن سوى قبر، حبّاً بالله. كلهم أغبياء. سوف يُثبت لهم ذلك. لقد سبق له أن أثبت لهم ذلك، ولكنهم أغفلوا الأمر.

وصل إلى تماثيل أمنحوتب فأبطأ، ورفع قنينته في اتجاه الوجوه التي أتلفتها العوامل الجوّية ليشرب ساخراً، ثم انطلق مجدداً بسرعة، سالكاً الطريق المتعرّجة شمالاً، قرب المعابد الخرِبة التي تحتضن المومياءات، والقائمة على امتداد أقدام الجبال الطِّيبية. لقد استحال معظمها خليطاً طَيفياً من الكُتل المحطَّمة والآجر الطيني، ويكاد لا يكون بالإمكان تمييزها عن المنظر الطبيعي المحيط. فمعابد حتشبسوت، ورعمسيس الثاني، وسيتي الأول، لا تزال تحتفظ دون سواها بعظَمتها الأصلية، ولا تزال المَحظيات المُسنّات يعُدن بالذاكرة إلى جمالهنّ في سنّ الشباب. وهناك، بالطبع، مدينة هابو وراءه إلى الجنوب، حيث المعبد الكبير لرعمسيس الثالث المفضَّل لديه في كل مصر، وحيث لمح الفتاة الضريرة للمرة الأولى وتغيّر كل شيء.

"سأجعلها مُلكاً لي"، كان قد قال في ذلك الوقت، متجسّساً عليها من وراء عمود. "سنكون معاً إلى الأبد".

وحان الوقت ليكونا معاً، وإلى الأبد. فصورة وجهها المحفورة في مخيّلته، والمنديل الصغير المعطر الذي أخذه معه، هما ما حمله على قضاء كل هذه الأشهر الموحِشة متخفّياً. كان يدعوها جوهرتي *الصغيرة الأكثر تألّقاً من كل ذهب مصر، والأكثر نفاسةً*، وقد أصبحت مُلكاً له. يا لليوم السعيد!

كانت الطريق هنا جيدة وتنبسط صفحتها الترابية وتتراصّ مع حركة المرور الناشطة التي نجمت عن اكتشاف توت عنخ آمون، وزاد سرعة الإنفيلد إلى 50 كيلومتراً في الساعة، فارتفع الغبار وراءه وتماوج. ولم يُبطئ ويتوقف إلا عندما وصل إلى ذراع أبو النجا عند الطرف الشمالي للجبال الطِّيبية؛ مجموعة مبعثَرة من المنازل المبنيّة بالآجر الطيني، وحظائر حيوانات جاثمة على المنحدرات فوق الطريق. كان هناك إلى يساره درب باهت اللون على صورة شريط، يتعرّج إلى داخل التلال في اتجاه وادي الملوك. وفي الأمام مباشَرةً، فيلا من طابق واحد، على أعلى تلّة منخفضة، مصاريعها مُغلَقة وسطحها مقبَّب، وهي مُحاطة بأشجار النخيل والتين متهدلة الأغصان. رفع نظارته الواقية وحدّق بالفيلا، ومن ثم تابع سيره إلى الأعلى، أوقف عمل المحرك عندما وصل إلى الناحية الأمامية للمبنى، ثم خلع النظارة، وأسند الدراجة النارية إلى جذع شجرة نخيل. وبعد أن نفض الغبار عن معطفه وحَزمته، تناول جرعة طويلة أخرى من قنينة الشراب، وتوجّه إلى المدخل، شاقّاً طريقه بشكل متلوٍّ تحت تأثير الشراب.

"كارتر!"، صاح قارعاً الباب بقوة. "كارتر!".

لم يُجب أحد. قرع مجدداً وبقوة، وعاد بعد ذلك خطوتَين إلى الوراء.

"لقد عثرتُ عليها يا كارتر! هل تسمعني؟ لقد عثرتُ عليها!".

كان المبنى ساكناً ومُظلماً، ولا يوجد ضوء وراء المصاريع المغلَقة.

"قلتَ إنها غير موجودة، ولكنها موجودة. إنها تجعل قبرك الصغير يبدو كمنزل دُمية!".

كان هناك سكون تام. تناول ما تبقى من الشراب، ورمى القنينة في الظلام، ومن ثم جاب في الناحية الخارجية للمبنى، متعثّراً في مشيه وقارعاً المصاريع بقوة. وعندما وصل إلى الواجهة الأمامية مجدداً، قرع الباب للمرة الأخيرة – "إنه منزل دُمية كبير جداً، يا كارتر! رافقني لأُريك أمراً مثيراً للإعجاب حقاً!" – قبل أن

يعود إلى دراجته النارية. وسحب نظارته الواقية، وضغط بقوة على دوّاسة التشغيل.

"كان مجرد فتى، يا كارترا!". صاح وسط هدير المحرك. "فتى صغير ثريّ وغبيّ. مَمرّ بطول ثلاثين قدَماً... أربع غرف. لقد عثرتُ على أميال... لن تصدّق ذلك... أميال!".

ولوّح بيده، وقاد نزولاً عبر التلة، مُغفِلاً الصياح المكتوم الصادر من داخل المنزل وراءه: "ابتعد أيها الشاذ، يا وسادة الدبابيس، أيها اليهودي اللعين الثمل!".

توجّه جنوباً سالكاً الطريق التي قدِم عليها. كان مُتعَباً، فقاد ببطء أكبر من دون أن يغنّي. وتوقف قليلاً في دير المدينة للتحقق من كيفية قيام بروير والفرنسي بتدبّر أمورهما في قرية العمال التي تعود للعصور الغابرة - تثير هذه الأمور على الدوام حماسةً أكبر مما تثيره القبور والفراعنة - ومن ثم في مدينة هابو. لقد بدا المعبد رائعاً تحت ضوء القمر، وبدت المدينة فضيّة وساحرة وكأنها ليست من هذا العالم. *إنه مكان للأحلام*، قال في سره، ووقف قرب أول بوابة ضخمة متخيلاً الفتاة وكل الأمور التي سيقوم بها معها. لقد أضحكه واقع أن كارتر والآخرين يعلمون القليل عنه، ويعتقدون أنه من هو عليه، في حين أنه شخص مختلف تماماً. كم ستكون صدمتهم كبيرة عندما يعرفون الحقيقة!

"سأُريكم"، صاح. "سأُريكم كلّكم، أيها الأوغاد المتعجرفون!".

وأطلق ضحكة عالية أشبه بالنُّباح، ومن ثم عاد إلى دراجته النارية، وقاد المسافة القصيرة التي تفصله عن مسكنه في كوم لولاح، مستمتعاً بفكرة النوم للمرة الأولى في الليل بطريقة لائقة، منذ اثني عشر أسبوعاً. ركن الإنفيلد في الزُّقاق الترابي وراء المسكن، وأحنى ظهره لفك حزام السلتين. في هذه الأثناء، دنا منه أحد ما من اليسار. وما إن شرع بالاستدارة حتى التفّت ذراع حول عُنُقه وجذبته بعنف إلى الوراء، وأمسكت به أيدٍ قوية، الكثير من الأيدي، أيدي ثلاثة رجال على الأقل؛ عِلماً أنه لم يتمكن من التحقق من عددهم بسبب الظلام والإرباك.

"ما الذي...".

"أيها الكلب!". هسهس أحدهم. "أيها الكلب، نعرف ما الذي فعلتَه بشقيقتنا، وستدفع الثمن الآن".

وضُرب بشيء ثقيل على مؤخر رأسه، فانهار وتأرجح بشدة، وضُرب مجدداً، فأصبح في ظُلمة دامسة. جرّه المهاجمون إلى خارج الزُّقاق، ووضعوه بجهد في عربة نقل يجرّها حمار، وغطّوه ببساط.

"كم يبعد المكان؟". سأل أحدهم.

"الطريق طويل"، أجاب آخر. "لنذهب".

صعدوا على متن العربة، وضربوا الحمار بالسّوط، فانطلق مجلجلاً في جُنح الليل. تردد وراءهم ما بدا أنه أنين خافت منبعث من تحت البساط يكاد لا يكون مسموعاً بسبب الصخَب الذي تُحدثه العجلات الخشبية.

1972

في اليوم الأخير من شهر عسلهما على ضفتي النيل، كرّم دوغلاس بويرز زوجته ألكسندرا بإعداده مفاجأة لها لن تنساها أبداً؛ وإن لم يكن بالطريقة التي خطط لها.

كانا قد جالا طوال أسبوعين في المناطق الممتدة بين أسوان والأُقصُر نزولاً عند رغبة ألكسندرا في زيارة كل المعابد، والأطلال، وأكوام الآجر الطيني القديم الملوَّث ببيوض الذباب، من دون أن تتسنّى لها الفرصة تقريباً للقيام بما تريد القيام به كالاسترخاء تحت الشمس، وارتشاف الليموناضة، وقراءة رواية رومانسية جيدة.

لقد ثبت أن الأيام الأربعة التي أمضياها في الأُقصُر كانت شاقة؛ بصفة خاصة مع إصرار دوغلاس على الانطلاق عند الفجر لتأمل المواقع قبل وصول مركبات تجرها الخيول محمَّلة بمن وصفهم بأسف بالغوغائيين. لقد ثبت أن ألكسندرا وجدت قبر توت عنخ آمون مثيراً للاهتمام بشكل غامض لأنها سمعت بتوت عنخ آمون، ولكن أي شيء آخر كان شبيهاً بالموت بالنسبة إليها؛ فهو تَتابع غير متناهٍ لمدافن تثير رُهاب الأماكن المُغلَقة، وجدران مكسوّة بحروف هيروغليفية كانت ستُشعرها بالبرودة لو لم تكن حارّة على نحو خانق. ومع دنوّ نهاية شهر العسل، لم تستطع ألكسندرا عدم الشعور بقليل من الارتياح؛ عِلماً أنها لم تكن لتكشف عن مكنونات صدرها قط، لأنهما سيعودان قريباً إلى الحالة الطبيعية أحادية اللون للضواحي في جنوب لندن.

لكن، في ذلك الوقت، قام دوغلاس بأمر غير متوقَّع، أمر ذكّر ألكسندرا بأي نوع من الرجال الذين يراعون مشاعر الآخرين هو، وبسبب زواجها به في المقام الأول.

حصل ذلك في صباحهما الأخير في مصر. وعملاً بتوجيهات دوغلاس، نهضا في وقت أبكر من المعتاد قبل أن يتحوّل الليل إلى فجر، وعبرا النيل. عند الضفة الغربية، كانت في انتظارهما سيارة أُجرة أقلّتهما إلى موقف السيارات أمام معبد حتشبسوت حيث أمضى دوغلاس قبل يومَين فترة بعد الظهر كاملة في أخذ قياسات بواسطة شريط قياس قابل للسحب كان يحمله معه باستمرار. فتخيّلت ألكسندرا أن دوغلاس سيقوم بما اعتاد القيام به هناك، وغاص قلبُها. لكن، بدلاً من دخول المعبد، اصطحبها إلى درب ضيّق يتجه بشكل متعرّج إلى الناحية الخلفية للمعلم الأثري التاريخي. كدّا في السير، وتحوّلت السماء فوقهما إلى لون رمادي باهت، وازداد وادي النيل عمقاً تحتهما. في النهاية، وبعد أكثر من ساعة من السير صعوداً، وشروع ألكسندرا بالتفكير في أن مراقبتها زوجها وهو يقيس كُتلاً من الصخور قد لا تكون أمراً سيّئاً جداً بالرغم من كل شيء، تسلّقا بصعوبة منحدَراً أخيراً في وادي الملوك. وهناك، كانت سلة طعام كبيرة تستخدم في النزهات في انتظارهما.

فسر دوغلاس سبب وجود سلة الطعام بقوله: "لقد أوصلها أحد العاملين في الفندق". ثم فتح السلة وأخرج منها قنية شراب باردة نوعاً ما وقال: "بصدق، أنا مندهش لأن أحداً لم يسرقها".

سكب كأسَين، وأخرج وردة حمراء من السلّة، وركع على إحدى رُكبتَيه أمامها.

وأنشد: "فلتعيشي ملايين السنين، أنتِ يا من تحبين طِيبة وتضعين وجهك في مواجهة ريح الشمال، ناظرةً إلى السعادة".

كان الجو رومانسياً رائعاً، ومختلفاً تماماً عن طبيعة دوغلاس، لدرجة أنها انفجرت بكاءً.

"لا تُقلقنّك التكلفة، يا فتاة العصور الغابرة"، قال محذّراً. "حصلتُ على شراب معفى من الضريبة. إنه منخفض الثمن بشكل لا يصدَّق".

جلسا على صخرة، وارتشفا الشراب، وراقبا شروق الشمس من فوق جبال الصحراء. كان كل شيء صامتاً وساكناً، والنيل يكتسي خُضرةً ضبابية في الأسفل البعيد كما لو أنه نموذج مصغَّر للعالم. وبعد تناولهما طعام الفطور، تبادلا القُبلات،

ومن ثمّ وضّبا سلة الطعام استعداداً للمغادرة، وتركاها في مكانها. قال دوغلاس: "سيأتي أحدهم لأخذها". وشرعا في رحلة العودة على الدرب القائم على الحَيد والممتد على الناحية الخلفية للجبل.

"وفقاً لذلك الشخص في الفندق - أنتِ تعرفينه، روبرت، أيّاً كان اسمه. أقصد ذلك الرجل المتفاخر ذا المِنخَرَين الكبيرَين - إذا بقينا على هذا الدرب، فبإمكاننا الالتفاف حول أعلى الهضبة، والانحدار قرب مدخل وادي الملوك".

حرّك دوغلاس يده بشكل دائري واسع.

"يتطلب الأمر ساعة واحدة تقريباً. وإذا حثثنا الخطى فسنصل بسهولة في الوقت المحدد لتناول الغداء".

لقد استعادت ألكسندرا نشاطها بعد الرحلة المُنهكة، وكانت تشعر بالرغبة في المغامرة - بفضل الشراب جزئياً - عِلماً أن السير مسافات طويلة على أرض وعرة لم يكن من هواياتها، فتبعت زوجها عن كثب. كان الدرب ضيّقاً وصخرياً، وشاقّاً في بعض الأماكن، ولكن دوغلاس دمث الأخلاق كان يمدّ لها يد العون، ووجدت نفسها تمضي وقتاً ممتعاً، وهذا ما أدهشها.

فكرت: "إنها مغامرة حقيقية في الصحراء، أتشوق لأخبر أوليفيا وفلورا!".

ابتعدا أكثر فأكثر في عمق التلال، وأصبح النيل وراءهما وغاب عن ناظرَيهما. وكان المنظر الطبيعي عبارة عن صخور وغبار وسماء بيضاء شاحبة ليس إلا. ومرّت ساعة، ثم تسعون دقيقة، وبالرغم من إحضار دوغلاس كمية إضافية من الطعام والماء في حقيبة الظهر، بدأت ألكسندرا تشعر بالتعَب بعد ساعتَين من السير على الأقدام من دون أن يلوح في الأُفُق المكان المقصود. وبدأت قدماها تؤلمانها، وأصبح الحر غير ملائم، والأسوأ من ذلك أنها كانت بحاجة إلى دخول المِرحاض.

"سأُدير ظهري"، اقترح دوغلاس عندما أعلمته بالوضع.

"لن أقوم بذلك في الهواء الطّلْق"، قالت بغضب، وأصبحت عكِرة المِزاج.

"حبّاً بالله، لن يراك أحد!".

"لن أقوم بذلك في الهواء الطّلق"، كررت، "أريد بعض الخصوصية".

"سيكون علينا التحمّل أو الذهاب إلى هناك. وراء تلك الصخرة الكبيرة. إن هذا أفضل الخيارات المتوافرة، يا فتاة العصور الغابرة".

نظراً لوضعها اليائس، قامت بما اقترحه زوجها، وابتعدت مسافة ثلاثين متـــراً بخطى ثقيلة، وانعطفت وراء جُلمود كبير ناتئ من التربة الصـــحراوية الحَصَـــوية، والذي بدا كحبة فطر ضخمة، حيث الأرض شديدة الانحدار في اتجاه وادٍ صـــغير على صورة قِمع، وكانت هناك فسحة منبسطة وراء الصخرة مباشَرةً تكفيها لرفع فستانها وجلوس القُرفصاء.

"لا تُصغِ"، صاحت.

عند ابتعاد دوغلاس، سُمع وَقع خطواته على الأرض الحَصَوية، وتلا ذلك صوت الصَّفير. وضعت ألكسندرا يدها على الجُلمود لتسند نفسها، وحدّقت بالصخرة بوجه متجهّم، محاولةً الاسترخاء. كان الحجر أصفر مُغبَرّاً، وعليه عدد لا يُحصى ولا يُعَدّ من الخَربَشات غير العادية، وأدركت بعد لحظات أنها لم تكن مجرد خربَشات بـــل بقايـــا مضمحلّة لما بدا أنه نوع من أنواع الكتابة الهيروغليفية. عادت إلى الوراء قليلاً بخطـــى قصيرة متمايلة للحصول على رؤية أفضل، وسِروالها الداخلي ممطوط حول كاحلَيهـــا. كان هناك ما بدا أشبه بأرنب برّي، وخط قصير متعرّج، وذراعان، ورمـــوز أخـــرى تمكنت من تمييزها بسبب الآثار التاريخية المتعددة التي رأتها في الأسبوعَين الأخيرين.

"حبيبـــي"، نادت، مجرجِرةً خطاها إلى الوراء بضـــع بوصـــات، وناســـيةً للحظات إحراجها وحاجتها إلى التبوّل. "أعتقد أنني عثرت...".

ولم تُكمل كلامها، فقد زلّت قدمها فجأةً، وهوت على المنحدَر الحـــادّ وراء الصخرة، فتموّر الحَصى والغبار من حولها، وتخبّطت ســـاقاها بســـبب الشـــريط المطاطي الضاغط لسروالها الداخلي، واصطدمت بأسفل المنحدر، واختبرت شعوراً وجيزاً وغريباً لدى اصطدامها بقوة بكتلة من العساليج والأغصان، ومن ثم سقطت مجدداً في الفراغ هذه المرة، وشعرت بأن دهراً مرّ على سقوطها قبـــل اصـــطدامها بشيء ليّن وفقدانها الوعي.

في الأعلى، سمع دوغلاس زعيق زوجته، وأسرع إلى وراء الجُلمود للتحقق.

"آه يا الله!". صاح نازلاً بصعوبة على المنحدر في اتجاه الهـــوّة في الأســـفل. "ألكسندرا! ألكسندرا!".

انفتحت فجوة عميقة ومستطيلة الشكل تحت قدمَيه محفورة بشكل عمـــودي داخل الصخر الجيري الأبيض، جدرانها ملساء ومزخرَفة بإتقان، ومن الواضح أنهـــا

من صنع الإنسان. في الأسفل، وعلى عمق عشرين قدماً تقريباً، رأى كتلة متشابكة من العساليج والأغصان؛ لا بد أنها كانت تسدّ الفجوة، ولم يرَ أثراً لزوجته. وعندما تلاشى الغبار شيئاً فشيئاً، لمح طيف ذراع، ومن ثم حذاء، وبعد ذلك نقوش الأزهار المطبوعة على فستان زوجته.

"ألكسندرا! آه رجاءً، هل تستطيعين سماعي؟ ألكسندرا!".

وساد صمت طويل ورهيب، أسوأ صمت خبره دوغلاس يوماً، ومن ثم سمِع أنيناً خافتاً.

"آه، شكراً لله! حبيبتي، هل تستطيعين التنفّس؟ هل تشعرين بالألم؟".

وازداد الأنين.

"لا تقلق". وخرج صوت متهدّج من الأسفل. "أنا بخير".

"لا تتحركي! سأُحضر من يساعدك".

"لا، انتظر، دعني...".

وسُمعت طقطقة العساليج.

"هناك... باب من نوع ما".

"ماذا؟".

"هنا في الأسفل. إنه أشبه...".

واشتد صوت الطقطقة.

"أنتِ مصابة بارتجاج في الدماغ يا ألكسندرا. لا تتحركي. سنُخرجك من هناك في الحال!".

"باستطاعتي رؤية غرفة صغيرة. هناك شخص جالس...".

"رجاءً، يا حبيبتي، لقد صدمتِ رأسك، أنت تهذين".

كان الأمر واقعياً جداً بالنسبة إليها، حتى ولو كانت تهذي، لأن ألكسندرا بُورز شرعت بالزعيق على نحو هستيري، ولم يكن بإمكان زوجها تهدئة رَوعها مهما قال أو فعل.

"آه يا الله! أخرجني من هنا، أبعدني عنه. رجاءً، أبعدني عنه قبل أن يؤذيني! آه يا الله، آه يا الله! آه يا الله!".

في الزمن الحاضر

في الواقع، لم يكن باستطاعة أحد الجَزم بالمكان الذي تبدأ منه السلسلة العَرَضية التي انتهت بحادثة اصطدام.

فمن المُحال أن يكون صَنْدل النيل قد ضلّ طريقه، و لم يكن يُفترض بزورق التجذيف الصغير أن يكون في النهر بعد حلول الظلام مع وجود تسرّب فيه وتوافر مِجذاف واحد قابل للاستخدام.

هذه هي تفاصيل الحادث الأكثر وضوحاً، و لم يكن بالإمكان الجزم، فردياً أو جماعياً، بأنّ هذه هي الأسباب. فهناك العديد من العوامل العشوائية الأخرى التي تُحوّل وضعاً خطيراً إلى وضع مأساوي.

ولو لم يبدّل قارب الشرطة الكبير مساره ويأمر الزورق الصغير بالرسو، لَما انتهى الأمر بالزورق الصغير في طريق الصَّندل. ولو لم يشترِ الرَّقيب المسؤول عن الجهة الأمامية من الصندل جهاز راديو جديداً، لَما استغرق في الاستماع إلى مبارة كرة القدم التي تجري في القاهرة، ولأَطلق جهاز الإنذار قبل وقوع الحادث. ولو لم يتم إرجاء عملية تزويد الصَّندل بالوقود من الصهريج الذي يحمل المازوت في بداية الرحلة، لكان قد ابتعد نحو الشمال عندما انطلق الزورق وركابه.

كانت هناك العديد من الحلقات المختلفة، والسلسلة مُبهَمة ومعقّدة؛ لدرجة أنه كان من المستحيل الجزم بوجود سبب واحد، أو تحديد المسؤولية بشكل ثابت لا ريب فيه.

غير أن هناك أمرين يمكن تأكيدهما.

أولاً، قرابة الساعة التاسعة والربع من ليلة واضحة الرؤية وخالية من السُّحُب، وقع حادث مروِّع في النيل على بُعد كيلومتر واحد تقريباً من جنوب الأُقصُر، على مرأى من طاقم قارب الشرطة وعائلة مصرية كانت تستمتع بنزهة تحت ضوء القمر على الضفة الشرقية للنهر.

ثانياً، لن تبقى حياة أولئك الذين تضرروا من جراء الحادث كما كانت قبل وقوعه.

القسم الأول

القدس، بعد تسعة أشهر

المكان مُظلم هنا كما لو أنني داخل كهف، وهذا أمر جيد. هذا يعني أنها لا تستطيع رؤيتي، ولكن ليس بالمعنى الصحيح للكلمة. أنا مجرد خط كفافي طَيفي بالنسبة إليها، كما هو حالها بالنسبة إليّ.

عندما تبعتُها عبر الباب، استدارت ونظرت إليّ مباشَرةً. لقد ظننت للوهلة الأولى أنها ربما تعرف من أكون، حتى ولو كنا وسط ظلام دامس، وأنا أعتمر قُلُنسوتي التي تغطي جزءاً من وجهي. لم يبدُ من نظراتها أنها تعرفني؛ المزيد من الترقّب والأمل. التفتت إلى الأمام على الفور ولم تنظر إليّ مجدداً؛ فقد اعتقدت أنني متعبّدٌ في وقت متأخر من المساء.

ها أنا أراقبها. هناك نوافذ عالية في الجدران وفي القُبّة، ولكنها متسخة على كل حال، والمكان في الخارج مُظلم تقريباً. وكان ضوء خافت منبعث من أحد المصابيح النحاسية المدلاّة من السقف في الطرف البعيد لدار العبادة الكبرى يخفّف من وطأة الظلام في الجِوار. إنها تقف تحت المصباح مباشَرةً إلى حدٍّ ما، وأمام السياج الخشبي المنحوت الذي يفصل المنطقة المركزية عن بقيّة أنحاء دار العبادة. وأنا موجود قرب المدخل، على أحد المقاعد الطويلة القائمة على امتداد الجدران والمزوَّدة بمساند. في الخارج، يصدر المطر أصواتاً لدى اصطدامه ببلاطات الباحة؛ ليس الطقس الذي توقّعتُه، ولكنه مفيد. هذا يعني أنه باستطاعتي البقاء متدثّراً؛ فأنا لا أريد إظهار وجهي لأحد، ليس لها ولا لأي شخص آخر.

فجأةً، تُرفَع الستارة التي تغطي المدخل وتُسدَل. فتنظر حولها، ظنًّا منها أن شخصاً ما قد دخل. وبعد أن تدرك أنه الهواء، تستدير إلى الأمام في اتجاه المزار الموجود وراء المنطقة المركزية والمغطى بأيقونة. هناك حقيبة سفر على السجادة قرب قدمَيها. الحقيبة تُعتبر مشكلة، أم إن الرحمة التي تشير الحقيبة إليها هي

المشكلة؛ إنها تَحدُّ إطاري الزمني. يبدو أنها تنتظر أحدهم، وهذه مشكلة أيضاً. باستطاعتي التعاطي مع مشكلة واحدة، ولكن التعاطي مع مشكلتَين أمر أكثر تعقيداً. ربما عليّ الارتجال. عليّ القيام بذلك قبل الوقت المحدَّد وفقاً للمخطَّط.

ها هي تتوجّه إلى أحد الأعمدة الأربعة العملاقة التي تحمل القُبّة. هناك لوحة تتدلى من العمود، لوحة ضخمة يُحيط بها إطار ثقيل مذهَّب. لا أستطيع رؤية الصورة، ولا أهتمّ بها. أنا أحدّق إليها وأفكر، وأخطط. هل يُفترض بي القيام بذلك قبل الوقت المحدَّد وفقاً للمخطَّط؟ باستطاعتي اشتمام البخور.

تنظر إلى اللوحة، ومن ثم تعود إلى ستار المنطقة المركزية وترفع ذراعها، متفحّصةً ساعتها. باستطاعتي الشعور بمسدس الغلوك في جَيب معطفي، ولكنني قلِق لأن الصوت قد يُسمَع بالرغم من انهمار المطر، وقد يحمل الناس على الفرار. من الأفضل القيام بذلك بالطريقة الأخرى. لماذا لا أُنهي المسألة؟ متى أُنهي المسألة؟ يُفترض بي أن أكتشف ما تعرفه، ولكن بوجود الحقيبة وإمكانية لقائها شخصاً ما...

تجول في المكان مرة أخرى. هناك أبواب في الجدار الجانبي لدار العبادة الكبرى تؤدي إلى ما أعتقد أنها غرف للصلاة، عِلماً أن الظلام الحالك لا يسمح بالتأكد من ذلك. نظرتْ إلى كل منها بالتتابع، وعادت لتنظر في اتجاهي. والناحية الخارجية لأقرب مُصلّى، حيث الأرض مكسوّة بالسجاد، مسيَّجةٌ بفاصل خشبي منخفض. تجلس على مقعد، وتكاد تكون غير مرئية. أُمسك بالسياج المكوّن من أسلاك معدنية، مفكراً بكل الأمور، ومقلّباً الخيارات في رأسي. ليتني لم أكن مضطراً لاستجوابها.

ها هي تعود مجدداً في اتجاهي، فأنكّس رأسي كما لو أنني أتعبّد، مُخفياً وجهي بشكل جيد، ومحدّقاً بيدَيّ المغطاتين بزوج من القفازات. تمرّ بالقرب مني تماماً، وتستدير حول الجدران المكسوّة بالبلاط، ثم تعود إلى المذبح حيث تلقي نظرة أخرى على ساعتها. هل يُفترض بي الاستمرار بتتبّعها للتحقق من الأماكن التي تقصدها؟ أم أُنهي المسألة الآن بينما نحن بمفردنا والفرصة متسنّية لي؟ لا أستطيع اتخاذ القرار المناسب. وتمرّ دقائق قليلة أخرى، فتلتقط حقيبة السفر، وتستدير وتتوجه إلى الباب. وعندما تصبح بجانبي تتوقف.

"*شالوم*".

أبقيتُ نظراتي موجّهة إلى الأرض.

"*أنا مِدابر إيفريت*؟".

فلا أقول شيئاً. إذ لا أريد أن تسمع صوتي. وأشعر بالتوتر فجأةً.

"هل تتكلم الإنكليزية؟".

أستمر بالنظر إلى الأرض، بتوتر شديد.

"هل أنت أرمني؟ لا أريد أن أزعجك، ولكنني أبحث عن...".

فأتخذ القرار، وأقف على قدمَيّ، وأضربها بقوة على أسفل فكّها براحة يدي، فتترنّح إلى الوراء. وحتى في الظلام، باستطاعتي رؤية الدماء تتدفق من فمها؛ الكثير من الدماء، مما يحملني على الاعتقاد بأن الضربة ربما تكون قد جعلتها تقضم طرف لسانها. فأقف وراءها على الفور، وألفّ الزِّراد حول عُنُقها، ثم أشبك مِعصمَيّ وأجذب بقوةٍ الوَصلاتِ المِفصلية الموجودة في كل من طرفَي السلك؛ مدركاً مدى إحكام الخِناق الذي توفره لي، والقوة التي يمكنني ممارستها على قصبتها الهوائية. أركل ساقَيها وأشدّ بأكبر قوة ممكنة، مُعيداً رأسي إلى الوراء، ومُمسكاً بها في أثناء لجوئها إلى المقاومة والخدش ومحاولة الإمساك بالسلك. يدوم الأمر أقل من ثلاثين ثانية، وتفقد قوها. وأستمر بالشدّ لأضمن موها، مسترسلاً في عملي من دون التفكير في إمكانية دخول أحدهم ورؤيته إيانا، فيما السلك ينغرز في لحم عُنُقها. وأُرخي قبضتي عندما أتأكد من موها تماماً، وأضعها على الأرض، شاعراً بفرح كبير.

أتوقف قليلاً لالتقاط أنفاسي - فقد كنت أتنفس بصعوبة - ومن ثم ألفّ السلك بشكل دائري مرتَّب، وأُعيده إلى جيبي، وأُلقي نظرة على الباحة عبر الستارة المُسدَلة على الباب. المطر ينهمر بكثافة، والباحة مُقفِرة. أُفلت الستارة من يدي، وأُخرج مصباح الجَيب، وأوجّه ضوءه على السجادة حول الجثة. هناك عدد قليل من البُقَع التي تكاد تكون غير ملحوظة، ولكن يبدو أن معطفها قد امتص معظم الدم الذي تدفق من فمها؛ وهذا أمر جيد. وها أنا أضغط على جانبَي فكّها السفلي، فاتحاً فمها. لا يزال لسانها سليماً بالرغم من تعرّضه لإصابة كبيرة، وهذا أمر جيد. أبحث في جَيبها وأعثر على منديل. ولكنني أُعيده إلى مكانه لتجنّب المزيد

من الفوضى. بعد ذلك، أوجّه نور المصباح في أرجاء دار العبادة. أنا بحاجة إلى بعض الوقت، ولا يجب أن يعثر عليها أحد. أعرف أين تقيم، وسأتوجّه إلى هناك بعد ذلك، ولكنني الآن بحاجة إلى مكان سرّي. أكره الارتجال، ولكن كل شيء سينتهي بشكل جيد كما آمل.

* * *

ضيّق التحري آري بِن - روي، من شرطة القدس، عينَيه وحدّق إلى الظلام، مراقباً بانتباه محيط الجسد الذي تتم الإشارة إليه لأجله. لقد بدا الأمر كما لو أنه ملتفّ داخل كرة، ولم يكن متأكداً للحظات مما يراه. وشيئاً فشيئاً، اتّضح له الشكل: رأس، جذِع، ذراعان، ساقان. فهز رأسه، وكاد لا يصدّق ما ينظر إليه، وابتسم بعد ذلك، وضغط على يد سارة.

"إنه وسيم".

"لا نعرف بعد إذا كان ذكَراً".

"إنه جميل أيضاً".

ومدّ عُنُقه محدّقاً إلى الصورة غير الواضحة على شاشة الموجات فوق الصوتية. إنه المسح الثالث لسارة - مسحهما الثالث - ولا يزال يناضل منذ 24 أسبوعاً لرؤية الشكل المحدَّد للجنين (عِلماً أنه لم يكرر عويله كما حصل في أثناء المسح الذي جرى في الأسبوع الثاني عشر عندما أشار إلى ما افترض بفخر أنه عُضو ذُكورة كبير جداً، ولكن قيل له إنها في الواقع عظمة الفخذ للجنين).

"هل كل شيء بخير؟". سأل العاملة على جهاز المسح الصوتي. "هل كل شيء في مكانه؟".

"كل شيء يبدو بخير". أكدت الفتاة مزحلِقةً جهاز المسح جيئةً وذهاباً فوق القَطع المكافئ لبَطن سارة الذي دُهن بالهُلام. "ما أنا بحاجة إليه فحسب هو استدارة الجنين لأتمكن من قياس العمود الفِقْري".

وضعت المزيد من الهُلام، ومرّرت الماسح أسفل الصرة، فتضخّمت الصورة على الشاشة وتشوّشت في أثناء بذلها جهدها للحصول على الزاوية التي تريدها.

"الجنين عنيد قليلاً اليوم".

"احزري من أين حصل على ذلك"، قالت سارة.

"أو حصلت"، اعترض بِن - روي.

وواصلت الفتاة ما تقوم به، مُمسكةً الماسح بيد ومستخدمةً لوحة المفاتيح تحت الشاشة بمهارة؛ عازلةً صوراً غير متحركة لأعضاء مختلفة من الجنين، وحاصلةً على كتابات وقياسات.

"نبضات القلب جيدة، تدفق الدم في الرحم جيد، والأطراف ضمن النطاق الطبيعي للنموّ...".

وقاطعها رنين موسيقي. إنها موسيقى *هافا ناجيلا*.

"*لو بي - إميت*، يا آري!". قالت سارة بهمهمات استنكار. "طلبتُ منك أن توقفه عن العمل في أثناء الفحص".

فهزّ بِن - روي كتفَيه معتذراً، وفتح جعبة صغيرة مثبَّتة على حزامه، وأخرج هاتفه المحمول من طراز نوكيا.

"لا يستطيع أبداً فعل ما أطلبه منه"، قالت للفتاة متنهّدةً، وساعيةً وراء دعم أخوي. "ولا حتى لأجل مسح يُجرى لجنينه. إنه منشغل على الدوام، ليلاً ونهاراً".

"أنا شرطي، حبّاً بالله".

"أنت والد حبّاً بالله!".

"حسناً، لن أُجيب. يمكنهم ترك رسالة".

ودلّى بِن - روي الهاتف بيده وتركه يرنّ، وتظاهر بالانحناء إلى الأمام والتحديق إلى الشاشة، فتأفّفت سارة. لقد سبق لها أن اختبرت كل ذلك.

"راقبي"، همست للفتاة.

جلس بِن - روي هناك لخمس ثوانٍ، مستغرِقاً كما يبدو في تأمّل الصورة المُلتقَطة بالموجات فوق الصوتية. ومع استمرار دويّ موسيقى *هافا ناجيلا* بإصرار، شرع بالنقر على الأرض بقدمه، ومن ثم هز ذراعه، وتململ في مقعده بعد ذلك كما لو أنه يشعر برغبة في الحكاك. أخيراً، نظر إلى الهاتف، عاجزاً عن التحكم برد فعله، وتحقق من الرقم الوارد، ووقف على قدمَيه على الفور.

"عليّ تلقّي المكالمة. إنه المركز".

توجّه إلى زاوية الغرفة ووضع الهاتف على أُذُنه متلقّياً الاتصال، فتأففت سارة.

"عشر ثوانٍ"، قالت متنهّدةً، "أنا مندهشة لأنه تمالك نفسه طوال هذه المــدة. إنه طفله بالرغم من كل شيء".

ربّتت الفتاة على ذراع سارة لمواساها، وواصلت الفحص. في الناحية البعيدة للغرفة، كان بِن - روي يُصغي ويتكلم بصوت منخفض. وأنهـى المكالمـة بعـد لحظات قليلة، وأعاد جهاز النوكيا إلى الجعبة الصغيرة في حِزامه.

"آسف يا سارة، عليّ الذهاب. لقد طرأ أمر ما".

"ما الذي طرأ؟ أخبرني، يا آري. ما الأمر الهام إلى هذه الدرجـة والـذي لا يمكنه الانتظار خمس دقائق حتى نُنهي المسح؟".

"أمر ما".

"ماذا؟ أريد أن أعرف".

كان بِن - روي يرتدي سترته.

"لن أدخل معك جدالاً، يا سارة. ليس معك...".

أومأ في اتجاه بطنها المكشوف، وبشرها البرّاقة والزلِقة بسبب الهلام الخـاص بالموجات فوق الصوتية.

"أقدّر مراعاتك"، قالت بغضب، "ولكنني أكون أكثر سعادة لدخول جـدال مماثل معك وأنا على هذه الحال. الآن رجاءً نوّرني، ما الأمر الهام إلى هذه الدرجـة الذي توليه أهمية أكبر من صحة طفلك؟".

"*البوبو* بخير، لقد قالت ذلك للتوّ".

وأشار بِن - روي بيده إلى العاملة التي كانت تحدّق إلى الشاشـة، محاولـةً التركيز على عملها.

"ثلاثون دقيقة، يا آري. هذا كل ما أطلبه منك. أن تنسى أمر الشرطة لمـدة ثلاثين دقيقة، وتمنحنا اهتمامك غير المشتّت. هل ما نطلبه كثير؟".

شعر بِن - روي بأنه يفقد رباطة جأشه لأنه يعلم أنه مُخطئ. ورفع يدَيـه، فاتحاً راحتَيهما، كما لو أنه يطلب من نفسه ومن سارة الهدوء.

"لن أدخل جدالاً معك"، كرر. "طرأ أمر ما، وهم بحاجة إليّ. انتهى الأمـر. سأتصل بك".

انحنى وقبّل رأسها، وألقى نظرة أخيرة على الشاشة ثم عَبَر البـــاب. وعنـــدما خرج إلى الممرّ، سمع صوت سارة وراءه.

"لا يستطيع تجاهل عمله. لهذا السبب عليّ وضع حدّ لذلك. ولا حتى لمـــدة ثلاثين دقيقة. لا يستطيع تجاهل عمله".

وسمع الفتاة تواسيها، وتُغلق الباب بعد ذلك.

لم يحمل له أي أمر في الحياة سعادة أكبر مما حملته له إمكانية أن يصبح والداً، أو درجة مماثلة من الشعور بالذَّنْب؛ فكّر في سره في أثناء ابتعاده.

يطل مستشفى هداسا على قمة جبل المشارف، وقسم مرحلة ما قبل الولادة موجود في أحد الطوابق العليا من المستشفى. وبينما كان بـــن – روي في انتظـــار المصعد الذي سيُقلّه إلى الطابق الأرضي في الأسفل، ألقى نظرةً خارج النافـــذة إلى الشمال؛ عبر تلال الضفة الغربية. لقد تمكّن من تمييز المظهـــر الخـــارجي المنـــتظم لضواحي مستوطنتَي بيسغات آمير وبيسغات زئيف بلونهما البني المائل إلى الرمادي. في مكان أقرب، تقع المساكن الفلسطينية في عناتـــا ومخـــيّم شُـــعفاط للاجـــئين الفلسطينيين، والتي يبدو مظهرها الخارجي نفسه، ولكن بشكل غير منـــتظم. إنـــه منظر طبيعي ينمّ عن بؤس وإهمال في أفضل الأحوال: صفوف قبيحة من المســـاكن المتناثرة وسط رُقَع قبيحة من الصخور والقُمامة على سفوح التلال. لقد بدا ذلـــك اليوم موحِشاً بشكل إيجابـــي؛ بسبب ستائر المطر المنسكبة من سماء رمادية اللون.

نظر مجدداً إلى المصعد، ومن ثم إلى الخارج، متتبّعاً خط الجدار المتعرّج حـــول شُعفاط وعناتا، والذي يفصلهما عن بقية القدس الشرقية. إنه موضوع يحمل سارة بالتأكيد على إلقاء خُطبة صاخبة أكثر من ذاك الصخَب الذي يرافق تحدّثها بقسوة عن عمله في قسم الشرطة. كانت تدعو ذلك "فُحشاً، وتقول إنه عار على أمّتنـــا. باستطاعتنا أيضاً أن نحملهم على ارتداء نجوم صفراء".

كان بن – روي يميل إلى موافقتها، وإن كان لا يستعمل مثل هـــذه التعـــابير المُلهِبة للمشاعر. لقد قلّص الجدارُ الفاصل عددَ الأعمال التفجيرية؛ إنه أمر مؤكد، ولكن بأي ثمن؟ إنه يعرف مالكَ مرأب لتصليح السيارات؛ رجلاً معتدل الســـلوك يقيم في الرام، وقد دأب طوال عشرين عاماً على السير كل صباح مسافة خمســـين متراً من منـــزله إلى مرأبه في الجانب الآخر من الطريق، والعودة كل مساء قاطعـــاً

المسافة نفسها. بُني الجدار بعد ذلك، وانتصبت هناك فجأة ستة أمتار من الإسمنت العمودي تفصله عن مكان عمله. وللوصول إلى مكان عمله الآن، بات عليه الالتفاف حول الجدار، والمرور بنقطة التفتيش في قلنديا؛ فتحوّل اجتياز الطريق الذي كان يتطلب ثلاثين ثانية إلى رحلة تدوم ساعتَين. إنها قصة تكررت على امتداد الجدار الفاصل؛ مزارعون فُصلوا عن حقولهم، وأطفال عن مدارسهم، وعائلات انقسمت. هاجموا من تصفوهم بالإرهابيين بالوسائل كافة، اسحقوا الأوغاد. ولكن، أيعاقب شعب بكامله؟ كم ولّد هذا الأمر من الغضب والكُره؟ ومن تحمّل كل ذلك الغضب والكُره؟

"أهلاً وسهلاً في أرض الميعاد"، تمتم، واستدار حين فُتح باب المِصعد.

في موقف السيارات، دخل سيارته من طراز تويوتا كورولا، وسلك طريق الجامعة العبرية، ماراً بديريك هاشالوم، في اتجاه المدينة القديمة. كانت حركة المرور في الصباح خفيفة، وبلغ باب يافا في غضون عشر دقائق. وما إن عبر الباب حتى وجد نفسه عالقاً في ازدحام يحول دون تحرك السيارات في الاتجاهين. كان المجلس البلدي يطوّر شبكة الطرقات حول برج هيرود، محوّلاً المسلكَين إلى مسلك واحد، وقاطعاً ساحة عمر بن الخطاب والطرف الأبعد لشارع داوود. كانوا قد شرعوا بذلك منذ 18 شهراً، ولا يزال أمامهم عام آخر على الأقل. لقد تمكنت حركة المرور من تخطّي الأمر عادة؛ وإن ببطء شديد. وفي هذا اليوم، كانت هناك شاحنة تقطع الطريق، محاولةً الخروج من شارع بطريركية الروم الكاثوليك.

"*شارا*"، تمتم بِن – روي. "تبّاً".

شرع بالتربيت على المِقود، محدّقاً إلى لوحة إعلانات كبيرة تحمل تصوّر أحد الفنانين لما سيبدو عليه الطريق الجديد، إضافةً إلى شعار: "مؤسسة بارين تفخر برعاية تاريخ القدس المستقبلي". كان يُطلق بُوق سيارته من حين لآخر، مضيفاً المزيد من النشاز إلى النغمات المتنافرة للأبواق الساخطة التي تملأ الأجواء، وأنزل النافذة مرتَين وصاح في وجه سائق الشاحنة: "*هيا، تقدم أيها الغبي!*". كان المطر ينهمر بغزارة؛ متسبباً بتدفق جداول من المياه الموحِلة عبر الشارع.

لقد دام الأمر خمس دقائق، وفقد صبره بعد ذلك. فالتقط صفارة إنذار الشرطة الوامضة الموضوعة على أرضية السيارة أمام مقعد الركاب، ووضعها بقوة

على السطح، وأوصلها بالمقبس، وشغّلها، فابتعدت الشاحنة عن الطريق، ووُضع حد لزحمة المرور، وتمكن بِن - روي من اجتياز مسافة مئة متر والالتفاف عند زاوية قسم شرطة داوود.

قسم الشرطة معروف بصورة عامة بالكيشل؛ وتعني هذه الكلمة السجن بالتركية. وكان القسم سجناً إبّان الحكم العثماني. وهو مكوَّن من مبنَيين طويلَين يتألف كل منهما من طابقَين، ويشغل الجانب الجنوبي للساحة، وتُضفي عليه نوافذه المشبَّكة والمبقَّعة وجدرانُه المبنيّة من كتل حجرية طابع الخِسّة الشديدة. وهناك كيشل آخر في الناصرة، ويُعتبر على نطاق واسع أجمل قسم للشرطة في إسرائيل. لم يكن باستطاعة بِن - روي استخدام هذا النَّعت لوصف مكان عمله.

لقد عرفه الحارس الموجود في المركز الأمني وفتح البوابة الإلكترونية، ملوّحاً له للمرور. قاد عبر المدخل المقنطَر، مروراً بنفق يبلغ طوله عشرين متراً يخترق وسط المبنى، ووصولاً إلى باحة كبيرة في الناحية الخلفية التي يشغل طرفَها الأبعد إسطبلٌ ومنطقة لتدريب الخيول، ويقوم بجانبهما مبنى يوحي بالأمان، ويبدو كما لو أنه مخزن، ولكنه يأوي في الواقع وحدة تفكيك المتفجرات في المدينة. وتشغل بقيّةَ المساحة سياراتٌ وعربات نقل مُقفَلة مركونة. كان عدد قليل من لوحات السيارات خاصًّا بالشرطة - حمراء مع حرف "ميم" لـ ميشتِرِت - أمّا الغالبية العظمى فكانت صفراء مدنية. كانت لدى بِن - روي مجموعة من النوعَين، عِلماً أنه يستخدم اللوحات المدنية بصورة عامة حِرصاً على عدم الكشف عن هويّته كشرطي.

أبطأ سرعته، وانعطف إلى داخل فُسحة قائمة بين دراجتَين ناريّتَين رباعيتي الإطارات من طراز بولاريس رانجر. وفي أثناء ترجّله من السيارة، حمل أحدهم مظلّة فوق رأسه.

"*تودا*، بن - روي. لقد أكسبتَني خمسين شيكِلاً".

وسلّمه رجل مُلتَحٍ ناتئ البطن كوب قهوة تركية. إنه تحرٍّ زميل يدعى يوري بينكاس.

"رآك فِلدمان في زحمة المرور"، قال بصوت أجشّ. "لقد راهنّا على مدى قدرتك على الاحتمال قبل أن تستخدم صفارة الإنذار. كان ظنّي صائباً. خمس دقائق. أنت تصبح صبوراً كلما تقدّمت في السنّ".

"سأتقاسم القهوة معك"، قال بِن - رَوي، متناولاً الكوب ومُقفِلاً السيارة.
"ستقوم بذلك بالتأكيد".
عبرا الباحة، وحمل بينكاس المظلة فوقهما لتقيهما من المطر، في حين كان بِن - روي يرتشف القهوة من كوب فليبي. إنه وغد متهكّم، ولكن زميله أعدّ قهوة جيدة بالتأكيد.
"إذاً، ماذا يحدث؟ قالوا إن هناك جثة".
"في دار العبادة الأرمنية الكبرى. إنهم جميعاً هناك الآن، والرئيس أيضاً".
رفع بِن - روي حاجبَيه، فمن غير المعتاد أن يتدخل الرئيس في هذه المرحلة المبكّرة. "من المحقق؟".
"شاليف".
"أشكر الله على ذلك. في الواقع باستطاعتنا حلّ هذه الجريمة".
وصلا إلى النّفَق المؤدي إلى داخل المجمَّع حيث يوجد إلى يسارهما بناءٌ مُلحَقٌ على امتداد الناحية الخلفية للمبنى الرئيس، وهو عبارة عن مركز مراقبة يحتوي على 300 كاميرا أمنية غير عادية ترصد المدينة القديمة.
"أنا هنا في الداخل"، قال بينكاس. "أراك عندما تعود".
"هل باستطاعتي استعارة المظلة؟".
"لا".
"أنت ستكون في الداخل!".
"قد أخرج".
"*بِن زونا*، يا لك من وغد".
"وغد موضوعي". وضحك بينكاس، وابتسم ابتسامة عريضة. "من الأفضل لك الإسراع. إنهم في انتظارك".
توجّه إلى الأبواب الزجاجية للبناء المُلحَق، واستدار عندما وصل إليها. وفجأةً، ارتسمت الجدّية على وجهه وهو يقول:
"قتلها بسلك معدني. لقد خنق الوغد المرأة المسكينة".
ورمق بِن - روي بنظرة باردة وقاسية، ولم يقل شيئاً. لم يكن بحاجة إلى ذلك لأن نظراته واضحة تماماً: علينا إلقاء القبض على هذا الرجل. واستمرا بالنظر إلى

بعضهما، ومن ثمّ أومأ بينكاس برأسه، وفتح الباب الزجاجي، وتوارى داخل المبنى، فيما تناول بن - روي ما تبقى من القهوة في الكوب.

"أهلاً وسهلاً في أرض الميعاد". تمتم قاضماً كوب الفلين، وقاذفاً إيّاه في اتجاه طارة كرة السلة القائمة عند الطرف البعيد للباحة. لقد سقط على مسافة بعيدة منها.

غوما، جمهورية الكونغو الديمقراطية

رقد جان - ميشال سامبلير على سريره في الفندق، وفكّر في العمل الذي قام به بشكل جيد.

كانا أسبوعين اختباريين. كان مطار غوما قد أُغلِق لمدة قصيرة بعد وصوله إلى البلد بسبب نشاط متجدِّد للثوار، مما حمله على الانتظار في كينشاسا لمدة أسبوع قبل أن يتمكن أخيراً من السفر جوّاً إلى الحدود مع رواندا في الشرق. وتأخر مجدداً لمدة أربعة أيام في أثناء قيام المعاونين بوضع التفاصيل النهائية للاجتماع، وقد تطلّب منهم ذلك قسماً كبيراً من الأشهر الثلاثة التي تسبق اللقاء. أخيراً، حلّقت طائرة سيسنا في اتجاه مَهبطٍ في واليكالي، مما وضعه وجهاً لوجه مع جيزوس نغاندي؛ سفّاح كيفو الذي حوّل عناصر الميليشيا التابعة له أعمال الاغتصاب الجماعي إلى فنّ جميل، والأهم من ذلك أنهم سيطروا على نصف مناجم القصدير والكولتان في هذه الناحية من البلد.

بعد كل الاستعدادات، دام الاجتماع أكثر من ساعة بقليل. فسلّم سامبلير زعيم الميليشيا دفعة أولى بقيمة 500,000 دولار نقداً، تعبيراً عن حُسن النيّة، وجرت مناقشة مستطرِدة حول الحمولات وكيفية نقل المعدن الخام شمالاً عبر الحدود إلى داخل أوغاندا، وأخرج نغاندي بعد ذلك قنّينة واقترح تناول نَخب شراكتهما الجديدة في ميدان الأعمال.

"*ما هذا؟*". سأل سامبلير بالفرنسية متفحّصاً السائل أرجواني اللون المائل للحُمرة في كأسه.

فابتسم نغاندي، وانتابته نوباتٌ من الضَحِك لا تخلو من مؤثرات تعاطي المخدرات.

"*سانغ*"، جاء الجواب. "دماء".

وحافظ سامبلير على رباطة جأشه.

"في فرنسا، نفضّل المصافحة".

ضحك سامبلير لدى استعادته هذه الذكريات، وأشعل سيجارة جيتان، ونفخ حَلقة من الدخان في اتجاه مروحة السقف، وتمدّد مستمتعاً بملمَس ملاءات القطن على جسده العاري. فبالرغم من تخطيه الخمسين من العمر هذا العام، كان يتمتع ببنيةٍ جسدية لرجل أصغر سنّاً بعشر سنوات، لا بل خمس عشرة سنة، وذلك بفضل نظام غذائي حريص وتمارين اليوغا المنتظمة. كان يشعر في الصميم بأنه بخير، وقوي، وذو لياقة بدنية، وواثق بنفسه؛ لا سيما بعد انتهاء الاجتماع وتوجّهه إلى وطنه.

كان من المُفترَض إيكال هذه المهمة إلى شخص أدنى مرتبة وفقاً لهرمية الشركة. لكن، في هذه الحالة، ومع حصول الصينيين على حصة أكبر من الثروة المعدنية في الكونغو، طلب منه مجلس الإدارة إتمام الصفقة بنفسه، على أن يدير الممثلون المحليون كل شيء من هنا؛ فنظراً إلى كونهم أكبر تجار للمعادن في العالم، لا يمكنهم التعاطي علناً مع قاتل متسلسل. وأرادت الشركة ترك انطباع جيد بدءاً بهذا الاتصال الأولي، وكان سامبلير سعيداً بالقيام بذلك؛ ليس لأن الأرباح المحتمَلة ضخمة جداً، بل لأنه يحب خَوض القليل من المغامرة. شقة في الدائرة السابعة، فيلا في الأنتيب، زواج لمدة ثلاثين عاماً، ثلاث بنات؛ إن الحياة مريحة جداً بالنسبة إليه، غير أنه كان يقول في سره أحياناً إنه يحتاج إلى المتعة من حين لآخر. وبأي حال، بوجود الحراس الذين وفّرهم الشركة - خمسة أفراد كانوا سابقاً من مشاة الوحدات الخاصة يعرّضون أجسادهم لأشعة الشمس بجانب بركة السباحة بعد انتهاء الأعمال المُجهدة - لن يكون في خطر.

من وراء باب الحمّام المُقفَل، صدر صوت مياه الاستحمام. نفخ سامبلير حَلقة أخرى من الدخان متذكراً مُتعات الليلة السابقة، ومعتبراً أنه ربما يتوافر له الوقت للحصول على المزيد من المرح واللهو قبل موعد الرحلة الجوية إلى كينشاسا. لم يقتنع قطّ بالمبادئ الأخلاقية، بل إنه لم يتكبّد مطلقاً عناء التفكير في ذلك؛ ولا سيما في أثناء عقده صفقات مع شخص غريب مثل جيزوس نغاندي. فوفقاً للأمم

المتحدة، إنه المسؤول عن إزهاق حياة ربع مليون شخص معظمهم من النساء والأطفال، وهي نسبة كبيرة. وقد يزداد المبلغ الذي يدفعونه له - 5 ملايين دولار في العام - مع سيطرة نغاندي على المناجم. وتلجأ شركات أخرى إلى اعتماد أسلوب تضليلي، فتحصل على الموارد من وسطاء يحصلون بدورهم على هذه المواد من وسطاء آخرين؛ وذلك لإبعاد الشبُهات عنها والبقاء على مسافة آمنة من مصادر المعادن الخام. ويصل عدد التبادلات التجارية إلى عشرة بين المناجم المستغلة في شمال كيفو وأسواق أوروبا وآسيا والولايات المتحدة، ويرتفع سعر الكيلوغرام الواحد بشكل مطّرد مع كل عملية. احصلوا على مواردكم مباشَرةً، كما يفعلون، وستتوافر لكم بسعر زهيد. فالاغتصاب والتشويه والقتل أعمال غير مُستساغة، ولكن المال الذي تقتصده شركته - وبالتالي المال الذي تجنيه - مُستساغ إلى حدٍّ كبير. وبصدق، من يُبالي بما يرتكبه السود في حق بعضهم. فبالرغم من كل شيء، الكونغو بعيدة عن قاعات الاجتماع في باريس.

أنهى تدخين سيجارته، ونهض من السرير، وسدّد ضربة عنيفة وخاطفة وسريعة إلى باب الحمّام في ما يشير إلى استعداده للبدء مجدداً. ومن ثم توجّه إلى الأبواب الفرنسية، وفتح الستائر، ونظر إلى الخارج. ظهر من بعيد جزء كبير من بركان نييراغونغو الذي تنبسط تحته مروج مثلّمة وصولاً إلى بركة السباحة في الفندق حيث تمكّن من تمييز حراسه برفقة شخصين آخرين؛ إنهما ينتميان إلى منظمات غير حكومية ربما، وليسا ممّن يُمضون عطلة بالتأكيد؛ لأن أولئك لا يأتون إلى هنا.

إن المنتمين إلى المنظمات غير الحكومية يُضحكونه، على غرار كل أولئك الأغبياء عديمي النفع، المناهضين للعولمة والشركات الكبيرة، والذين يُدمون القلب. فهم يتفاخرون بأجهزتهم الحضنية وهواتفهم المحمولة، ويغضبون بسبب الاستغلال الغربي لموارد العالم الثالث. فمن دون الكولتان وحجر القصدير، لن تكون هناك أي أجهزة كمبيوتر حضنية أو هواتف محمولة، ومن دون مؤسسات كمؤسساته لن يكون هناك أي كولتان أو حجر قصدير. وكل بريد إلكتروني أو رسالة نصّيّة يرسلونها للمطالبة بالعدل، وكل اتصال هاتفي يُجرونه لتنظيم تجمّع آخر، وكل موقع على الإنترنت يُنشئونه للبكاء على انتهاكات حقوق الإنسان؛ كلها أصبحت

ممكنة بسبب البؤس والاستغلال اللذين يُدينوهما بشدة. الأمر مُضحِك تماماً، أم إنه سيكون كذلك على الأقل إذا تكبّد عناء التفكير فيه مجدداً.

تباطأ صوت المياه في الحمام ثم توقف، فاستدار سامبلير، وألقى نظرة على ساعته الروليكس للتحقق من الوقت المتبقّي لديه. في تلك الأثناء، قُرع الباب.

"تبّاً"، تمتم، ومن ثم قال بصوت أعلى: "لحظة!".

والتقط عن الأرض رداء الاستحمام، وارتداه، وعبَر الغرفة.

"مَن؟".

"خدمة الغرف"، أجاب الصوت.

إنه لم يطلب أي شيء، ولكنه ينزل في الفندق ذي التكلفة الأكثر ارتفاعاً، حيث تُرسل الإدارة باستمرار مشروبات وأزهاراً وحُلويات. لذلك، لم يتردد في فتح القفل ومن ثم الباب.

وُضِع مسدس على صدره. همّ بالتكلم، ولكن المرأة المُمسكة بالسلاح وضعت إصبعها على شفتَيها، أو بالأحرى على شفتَي قناع مارلين مونرو المصنوع من اللاتكس، وأعادت سامبلير إلى داخل الغرفة، وتبعهما ثلاثة أشخاص - ذكران وأُنثى - وأقفلت الأخيرة الباب وثبّتته بالرِّتاج. كان الجميع يضعون أقنعة: أرنولد شوارزنيغر، إلفيس بريسلي، وأنجلينا جولي. لم يكونوا أفارقة؛ هذا ما بدا له من لون أذرعهم وأعناقهم المكشوفة؛ هذا كل ما كشفوا عنه. ولو لم يكن هناك مسدس، لكانت النتيجة هزلية.

"ماذا تريدون؟". سأل محاولاً إبقاء صوته واثقاً. فلم تُجب المرأة التي تحمل المسدس، بل دفعت سامبلير إلى الوراء في اتجاه السرير. وتوجّه ذاك الذي يضع قناع إلفيس بريسلي إلى الستائر المسدَلة بشكل مُحكَم، وفتحها. فيما ركعت أنجلينا جولي على الأرض وفتحت حقيبة السامسونايت التي كانت تحملها، وأخرجت مِنصباً ثلاثي القوائم وكاميرا للتصوير الفيديوي. أما أرنولد شوارزنيغر، وهو رجل قصير القامة، وطويل ونحيف، وذو خُصَل شعر رفيعة وزَلَقة تنتأ من تحت حافة قناعه عند العُنُق، فدنا من طاولة السرير حيث كان يتم شحن جهاز الكمبيوتر ماك بوك الخاص بسامبلير بالكهرباء، ورفع الغطاء وشغّله. وسُمع طنين، ثم تحوّلت الشاشة إلى لون رمادي.

"ماذا...".

ورُفعت يد وصفعت سامبلير على وجهه.

"اخرس".

بدت اللهجة أميركية تخالطها لهجة أخرى. أهي روسية؟ أم إسبانية؟ أم عبرية؟ لم يتمكن سامبلير من التأكد. وأمامه، ثبّتت أنجلينا جولي - وكانت بشرتها أكثر قتامة من صاحبة الاسم - المِنصبَ ثلاثي القوائم، ووضعته وسط الغرفة. ومن ثم، شغّلت الكاميرا، وفتحت مُعيِّن المَنظر، ووجهت العدسة نحو الأسفل لتكون مصوَّبة على وجه الفرنسي مباشَرةً. وظهرت على شاشة الجهاز الحضني صورة سامبلير وعائلته، مشيرةً إلى أن الكمبيوتر صار جاهزاً للعمل.

"كلمة السر"، قال أرنولد شوارزنيغر، وأدار الماك بوك.

فتردد سامبلير. لقد ظنّ للوهلة الأولى أنها عملية سرقة، ولكنهم لم يلمسوا محفظة جَيبه الملقاة على طرف السرير، وأقنعته رغبتهم في ولوج جهازه بوجود أمر إجرامي أكبر من مجرد سرقة عادية. ففي الكمبيوتر الكثير من المعلومات التي لا يريد هو أو شركته...

"كلمة السر"، أمر الرجل مجدداً.

"الآن"، قالت مارلين مونرو بغضب، شاهرةً المسدس وضاغطةً إيّاه بقوة على صدغ سامبلير. متيقّناً من عدم وجود أي خيار آخر أمامه، انحنى إلى الأمام وشرع بالعمل على لوحة المفاتيح. وأدار شوارزنيغر الماك بوك، وأدخل يو أس بي في أحد المقابس، وتحقق من محتويات السواقة الصلبة. لقد شعر سامبلير بخوف حقيقي.

"اسمعوا لا أعرف ما الذي تريدونه مني...".

قوطع كلامه بطقطقة مكتومة صادرة من الحمّام، فشعر الدخلاء بالتوتر، وألقوا نظرات سريعة على بعضهم، وعبّرت تلك التي تحمل المسدس عن استهجانها، وهزّت رأسها كما لو أنها تقول "كان يُفترض بنا التحقق". فوضع شوارزنيغر الكمبيوتر الحضني جانباً، واستلّ مسدس غلوك من الناحية الخلفية لجينزه. وقامت مونرو وجولي بالمِثل، متراجعتَين إلى الوراء ومصوّبتَين على الباب. ودنا الرّجل الذي يضع قناع إلفيس بريسلي من الحمّام والتصق بالجدار بجانب الباب، وتوقف قليلاً، ووجّه نظرةً خاطفة إلى زملائه، ومدّ يده، وأدار المِقبض وفتح الباب.

"آه فِيْ"، تمتمت أنجلينا.

كانت هناك فتاة واقفة في الداخل، عارية، ولا تزال بشرتها السوداء كالأبنوس تتلألأ بقطرات الماء بعد انتهائها من الاستحمام. واستناداً إلى بنيتها الجسدية غير مكتملة النموّ، لم تكن سنّها تتجاوز تسع سنوات أو عشراً. كانت ترتجف، فاتحةً عينَيها على وسعهما من فَرط الخوف.

ساد صمت وجيز ملؤه الدهشة. بعد ذلك، عبرت مارلين مونرو الغرفة بسرعة، ممزّقةً القناع، وكاشفةً عن وجه شاحب وشعر بنّي مائل للحُمرة. تلقّفت منشفة من قضيب التعليق في الحمّام ولفّتها حول جسم الفتاة الصغيرة.

"لا عليكِ"، همست ممسكةً بها. "لا عليكِ. لقد انتهى الأمر".

بقيت على تلك الحال لمدة طويلة، مهدّئةً الفتاة ومطَمئنةً إيّاها، من دون أن يتحرك أحد أو يقول أي كلمة. بعد ذلك، احمرّ خدّاها، وعادت إلى داخل الغرفة بخطى واسعة متوجّهةً نحو سامبلير، وجهت ضربة قوية إلى جانب وجهه بعَقِب مسدسها، فسقط على السرير. صاح ورفع يدَيه للدفاع عن نفسه، وقفزت المرأة الأخرى وأمسكت بذراع رفيقتها، محاولةً كبح جماحها.

"لو، يا دينا!".

غير أنّ الأولى أفلتت ذراعها من قبضة رفيقتها، وضربت سامبلير مجدداً، ثم أمسكته من شعره، وجذبت رأسه إلى الوراء بعنف، وأقحمت فوّهة الغلوك داخل فمه حتى كاد يختنق.

"سأقتلك"، صاحت بوجه أحمر قانٍ، وبخدَّين بلّلتهما الدموع. "سأقتلك، أيها الحيوان الخسيس. سأفجّر رأسك اللعين".

لقد أُصيبت بالهستيريا والجنون، ولم تهدأ إلا عندما دنا منها الرجل الذي يضع قناع إلفيس ووضع ذراعه حولها، مُبعِداً إيّاها بلطف ولكن بحزم. وتحدّث الاثنان بصوت منخفض بلغة لم يفهمها سامبلير؛ عِلماً أنه كان على يقين تقريباً أنها عبرية. وبعد ذلك، أعادت وضع المسدس في الناحية الخلفية لجينزها مرتجفة، وعادت إلى الحمّام، وساعدت الفتاة على ارتداء فستانها الرّث زهريّ اللون المُلقى على مِقعد المِرحاض. أمسكت الفتاةَ الصامتة والمُذعنة بيدها، واقتادتها إلى الباب الرئيس.

أزالت رِتاج الباب وفتحته، ثم أخرجتِ الفتاة قبل أن تعود إلى سامبلير. كان متكوّماً على السرير وهو يئنّ، ورداء الاستحمام المصنوع من قماش المناشف متغضّن حول وسطه، وياقته ملطّخة بالدماء. حدّقت إليه للحظات بوجه عابس من فَرْط الكره والاشمئزاز، ومن ثم بصقت عليه.

"نحن عقوبتك المستحَقة"، قالت قبل أن تخرج من الغرفة وتقفل الباب وراءها.

بعد مغادرتها، ألقى إلفيس بريسلي نظرة سريعة إلى أبواب الحديقة للتأكد من عدم تنبّه حراس سامبلير الشخصيين لحالة الاضطراب، ثم عاد إلى السرير، وأجلس الفرنسيَّ الذي كان خدّه الأيسر متورّماً ومنتفخاً.

"لقد كسرتْ تلك الكلبة فكّي"، تمتم سامبلير واضعاً يده على فكّه.

لم يُجب الرجل، بل عاد خطوتَين إلى الوراء، وصوّب مسدسه إلى رأس سامبلير قائلاً:

"ستنظر إلى الكاميرا، وستذكر اسمك واسم شركتك، ومن ثم ستشرح بالتحديد ما الذي تفعله هنا في أفريقيا".

وأومأ لتشغيل الكاميرا.

"الآن، ابدأ بالكلام أيها الوغد".

القدس

تقع دار العبادة الكبرى لسانت جيمس في قلب الحيّ الأرمني في المدينة، على بُعد مئتَي متر من الكيشل سَيراً على الأقدام، وعلى امتداد طريق بطريركية الأرمن الأرثوذكس المُحاطة بسور مرتفع. في منتصف الطريق إلى مجمّع الأرمن، بدأ المطر ينهمر بغزارة، مما دفع بِن - روي للاحتماء تحت مدخل الفندق الأرمني. فشتم بينكاس لأنه حرمه من مظلته، وأخرج هاتفه المحمول مغتنماً الفرصة للاتصال بسارة والاعتذار منها.

غريب كيف تتخذ الحياة منحى مختلفاً، وكيف لا تجري الأمور كما يتوقّع المرء. فقبل أعوام قليلة كان مرتبطاً، ولكن خطيبته غاليا قُتلت، وسقط عالمه في

هاوية سحيقة. لقد اعتقد أنه دُفن هناك إلى الأبد، ولكن شخصَين أنقذاه بخلاف كل التوقعات، ومنهما سارة.

لقد مضت أربع سنوات جيدة ورائعة على وجودهما معاً، ولا سيما في البداية. كانت غاليا موجودة على الدوام بالطبع، ولكن حياته استمرت مع سارة. لقد شُفي، ولكن ليس على الصعيد الشخصي فقط، فقد عادت مهنته إلى مسارها، ورُقّي إلى منصب كبير التحرين، وحصل على تنويهات بفضل العمل الذي أنجزه في ثلاثة تحقيقات منفصلة، واستعاد حماسته الشديدة للمحافظة على النظام، واستحوذت هذه الفكرة على عقله مجدداً.

هذا ما سبب له المشاكل. فكما يحصل مع أي تحرٍّ في العالم، إن تحقيق التوازن بين فرض القانون والمحافظة على العلاقات أمر عسير. والأصعب بشكل مضاعف هو الجوّ الضاغط في مدينة كالقدس.

لقد طلق كل زملائه، مع وجود استثناءَين فقط، مرة واحدة على الأقل. فالعمل والنساء لا يمكن التوفيق بينهما. كيف يمكنك التخفيف من وطأة إخفاق محتوم لعملية مرتبطة بالمخدرات لأن شريكتك تريد أن تنعم بليلة هانئة أمام التلفاز؟ كيف يمكنك تمثيل قصة حب مليئة بالشغف عندما تكون قد أمضيتَ يومك في إجراء مقابلات مع مغتصب متسلسل؟ كيف يمكنك عدم الرد على الاتصال الهاتفي الذي يطلب منك النظر في مسألة جثة عُثر عليها في دار عبادة، والنظر بدلاً من ذلك إلى صور طفلك الذي لم يولَد بعد؟ أين الحد الفاصل؟ كيف ترسم الحد الفاصل؟

مع غاليا، كانت هناك علاقة غرامية عابرة قبل أشهر قليلة فقط من طلب يدها، و لم تكن المدة كافية ليُلحق ضغطُ العمل الضررَ بعلاقتهما. أما مع سارة فكانت المدة كافية. لقد بذلت قُصارى جهدها لإنجاح علاقتهما، ولكن الأمر الوحيد الذي كان بالإمكان التعاطي معه هو العديد من حفلات العشاء المُلغاة، وقدْر كبير من الانطوائية.

تكررت المواجهات، واتسعت المسافة بينهما أكثر فأكثر، وازداد الاستياء عُمقاً. في النهاية، وضعت حدّاً لذلك، وتصالحا لمدة وجيزة - كانت خلالها أفضل علاقاتهما الجنسية؛ وهذا أمر مثير للسخرية - ولكن عمله شكّل عائقاً للمرة الثانية. وبعد أسبوعَين، طالبت بوقت مستقطَع نهائي.

"أحبك يا آري"، كانت قد قالت له. "ولكن، لا يمكنني العيش مع جزء منك فقط. فأنت لا تكون موجوداً هنا أبداً. وحتى عندما تكون موجوداً، يكون عقلك في مكان آخر. لن ينجح الأمر. أريد المزيد".

انتقلت من شقتهما، وواصل عمله محاولاً إقناع نفسه بأن كل شيء يسير نحو الأفضل.

بعد خمسة أسابيع، اتصلت به لتُعلِمه بأنها حامِل.

"هل هو ابني؟". كان قد سألها.

"لا، إنه ابن مناحيم بيغِن. لقد جمّدتُ عيّنة من سائله المَنَوي قبل أن يموت. إنه ابنك بالطبع، *يا دا - فوك*! أبله!".

لقد خسر حبيبة وكسب طفلاً. غريب كيف تتخذ الحياة منحى مختلفاً.

تحوّل هاتف سارة مباشَرةً إلى صيغة البريد الصوتي. لقد ترك لها رسالة عبّر فيها عن أمله في أن يكون كل شيء قد جرى بشكل جيد، وعن أسفه بسبب مغادرته باكراً، وقال إنه سيتصل لاحقاً. وبعد الانتهاء من توجيه الرسالة الصوتية، انتظر توقف انهمار المطر.

تكون طريق بطريركية الروم الأرثوذكس هادئة عادة. وبإغلاق باب يافا أمام حركة المرور بسبب أشغال الطرقات التي يقوم بها المجلس البلدي، تعيّن على العربات التي تريد الخروج من المدينة القديمة سلوك هذا الطريق في اتجاه باب المغاربة. والنتيجة، دفق غير متناهٍ من السيارات، وسيارات الأُجرة، والحافلات التي تحمل الرقم 38، تسدّ الطريق العام الضيّق وتدفع المشاة في اتجاه الجدران على جانبَي الشارع. ومرّ شخصان ممّن يُعرَفون *بالحاريديم* أمامه بسرعة، مطأطِئَين رأسيهما، وحقيبتاهما البلاستيكيتان ملفوفتان حول قبّعتَيهما من طراز هومبورغ لإبقائهما جافّتَين. ومرّت بعد ذلك مجموعة من السيّاح الذين يرتدون سترات زرقاء واقية من المطر.

في النهاية، تباطأ انهمار وابل المطر، وأكمل بن - روي طريقه. مرّ أمام مشرب بولغورجي، وعبَر نفقاً قصيراً بطول 50 متراً حيث التصق بالجدار قدْر الإمكان ليتجنّب التعرّض للاصطدام من حافلة تحمل الرقم 38. وبعد خروجه من النفق ومروره بمركز ساندروني الفنّي الأرمني، وصل إلى مدخل مقبَّب بطريقة

زُخرُفية، وفوقه حجر نُقشت عليه حروف بالعربية، والأرمنية، واللاتينية: *دير سانت جاك الأرمني*؛ كما جاء في الجزء الوحيد الذي تمكّن بِن - روي من فك رموزه. كان يقف تحته رجلا شرطة نظاميان، وشرطيّان من حرس الحدود ببذلتيهما الرسميّتَين الخضراوَين.

أظهر بِن - روي بطاقة التعريف الخاصة به ودخل، وهذه هي المرة الثانية التي يدخل فيها المكان خلال سنواته السبع التي أمضاها مع شرطة القدس. فالأرمن مجموعة صغيرة ومتعاضدة بشكل عام، ويواجهون متاعب أقل مقارَنةً مع جيرانهم اليهود والمسلمين.

في الداخل، يمتد ممرّ مقبَّب إلى يمينه، ويوجد إلى يساره مكتب البوّاب بواجهته الزجاجية حيث يتحلّق ثلاثة رجال يرتدون معاطف جِلدية ويعتمرون قُلُنسوات مسطَّحة حول مرقاب سي سي تي في، وكانت نافا شوارتز، إحدى خبيرات التصوير في الكيشل، واقفةً وراءهم ومنحنية في اتجاه الشاشة. وعندما رأت بِن - روي، لوّحت له بيدها، مشيرةً إليه بوجوب سلوك الممر ودخول أول باب إلى اليسار، حيث وجد نفسه في باحة صغيرة مرصوفة بالحجارة ومُحاطة بجدران عالية، كما لو أنها باحة سجن. كان مدخل دار العبادة الكبرى في الجهة المقابلة، في الناحية الخلفية لرِواق مسيَّج وممتد، يطوّقه شريط أحمر وأبيض خاص بالشرطة.

كان هناك المزيد من العناصر المرتدين بذلات نظامية واقفين على جانبي الباب - كلهم نظاميون، ولا وجود لشرطة الحدود - وثلاثة أسلحة نارية مصفوفة على أرضية الرصيف الرخامية زهرية اللون: مسدسا جريكو من عيار 9 مليمترات، ومسدس أف أن بلجيكي. لقد لاحظت إحدى الشرطيات على الأرجح التعابير الساخرة على وجهه، لأنها ربّتت بعصاها على اللافتة الموجودة بجانب الباب التي تورد أنواع الأشياء والنشاطات كافة الممنوعة داخل دار العبادة. "لا مسدسات أو أسلحة نارية"، هذا هو الشرط الوحيد من بين الشروط الثمانية الذي أُرفق بكلمة "أبداً".

لم يكن يُفترض بضباط الشرطة ترك أسلحتهم بعيداً عن أنظارهم، ولكن يبدو أن الدبلوماسية قد حققت انتصاراً في هذه الحالة. شك بِن - روي بإمكانية اعتماد

الأسلوب اللطيف نفسه لو كانوا في مكان إسلامي. فالأرمن لم يعتادوا رمي الحجارة أو تسديد الرميات.

أخرج مسدسه الجريكو من قِرابه، ووضعه مع المسدسات الأخرى، وأوقف عمل هاتفه المحمول، وخطا فوق الشريط إلى داخل دار العبادة الكبرى. كانت الرؤية مُعتِمة في الداخل ومُظلِمة؛ رغم فتح الأبواب الخشبية وستائر المدخل. وفي الداخل، ترتفع أربعة أعمدة ضخمة بضخامة جذوع السِّكويّة في اتجاه السقف المقبَّب العالي، وتتدلى من السقف في كل مكان عشرات المصابيح النحاسية بواسطة سلاسل معدنية طويلة، مالئةً المكان كما لو أنها أسطول حربي من سفن فضائية صغيرة. وهناك أيقونات ذهبية وفضيّة، ولوحات زيتية كبيرة اسودّت على مَرّ الزمن، وسجادات سميكة، وبلاطات جدارية زرقاء وبيضاء مزخرَفة بشكل معقَّد توحي بأن المكان مركز تجاري كبير يحتوي على تُحَف أثرية مكدَّسة أكثر من كونه مكاناً للعبادة. وقف للحظات لتحديد وُجهته، متنشّقاً الهواء المفعم برائحة بالبخور، ومراقباً كلباً يقوده شرطي وهما يجوبان المصلَّيات الجانبية إلى يساره، ويتوجهان بعد ذلك إلى أحد المداخل إلى اليمين. انبعث من الغرفة الخلفية تـوهّجُ ومضات آلات التصوير الذي كان مماثلاً لتوهّج الستروبوسكوب، وثرثرات تمّ إسكاتها.

"لطف منك أن تنضم إلينا يا آري".

كان هناك رجل بدين في طَور الصلع واقفاً قرب الباب تماماً، ويوجد على سترة الشرطة الزرقاء التي يرتديها رسم لورقة وتاجَين متماثلين يشير إلى أنه *ميتزاف ميشنه* – القائد موشيه غال، رئيس مركز شرطة داوود. كان نائبه يقف إلى جانبه، الضابط المسؤول إسحق بوم، وكذلك الرقيب أول ليه شاليف؛ وهي امرأة عارمة الصدر، عريضة الرِّدفَين، ترتدي بذلة نظامية زرقاء. أومأت شاليف مرحِّبة، ولكن بوم لم يَقُم بذلك.

"آسف يا سيدي"، قال بِن – روي وهو يقف بجانب شاليف. "لقد أعاقتني حركة المرور في هداسا...".

لوّح غال بيده، رافضاً الاستماع إلى الشرح لأنه غير ضروري.

"هل كل شيء بخير مع الطفل؟".

"يبدو في حال جيدة، شكراً لك يا سيدي".

"أما هي فلا"، قال بوم.

كانوا في غرفة طويلة مكسوّة بالسجاد، وأكثر بساطة وأقل زخرفة من القاعات الأخرى في دار العبادة الشبيهة بكهف علاء الدين. وكان سقفها المقبَّب متشقّقاً وملطَّخاً بالعفَن. وفي أحد أطراف الغرفة كومة من الكراسي القابلة للطيّ، وفي الطرف الآخر طاولة عليها غطاء تُستخدم كمذبح. لقد تم رفع الناحية الأمامية للغطاء، ليكشف عن فسحة تحته. وهناك شخصان يرتديان قفازات معقَّمة، وردائين أبيضين يجوبان المكان حاملين ملقطين صغيرين وأكياساً لالتقاط ما يتم العثور عليه، فيما يقوم شخصان آخران برفع البصمات. كان بيبي كلتزمان، مصوّر صحيفة يارد الروسية، جالساً على ركبتَيه ويتحرك بهمة ونشاط مع آلة تصوير من طراز نيكون دي 700، التي يضيء وميضها المؤخرة الكبيرة للطبيب أفرام شملينغ، الأخصائي في عِلم الأمراض الذي كان منحنياً تحت الطاولة.

لم يكن الهدف من كل هذا النشاط واضحاً بشكل مباشَر. ولم يرَ بن - روي الجثة إلا بعد أن ركع واستند إلى مِرفقَيه، وانحنى جانبياً قليلاً للحصول على رؤية أفضل. إنها أنثى، بدينة، ملقاة على ظهرها. لقد أُضيئت جثتها بمصباح هالوجين تابع للشرطة، وكانت تبدو مُسنّة، أو على الأقلّ كبيرة في السنّ نوعاً ما؛ في أواخر منتصف العمر وفقاً لشعرها الذي أصبح رمادياً، عِلماً أنه يصعب التأكد من ذلك لأن الجثة كانت على بُعد ستة أمتار، ويغطّيها جزئياً ظلّ شملينغ الكبير.

"عثرت عليها إحدى عاملات التنظيف هذا الصباح"، قالت ليه شاليف. "لقد رفعت الغطاء لتكنس الأرض و...".

ومدّت يدها في اتجاه المنطقة الرئيسة من دار العبادة.

"لقد ملأت المكان الملطَّخ بالدماء صراخاً كما يبدو. وفقاً لما أفادت به إحدى فتيات الارتباط التي كانت عائدة إلى منزلها في المجمع".

أومأ بن - روي مراقباً الأخصائي في عِلم الأمراض وهو يجرّ خطاه في المساحة الضيّقة تحت الطاولة، متفحّصاً الجثة. بدا كدب يتفحّص عشاءه؛ هذه هي الصورة غير المستساغة التي تتبادر إلى الذهن عند رؤيته على تلك الحال.

"هل نعرف من تكون؟" سأل.

"لا فكرة لدينا"، أجابت شاليف. "لم نجد أي محفظة جَيب أو بطاقة هوية معها".

"ليست بار ريفايللي بالتأكيد"، قال بوم.

كانت دُعابة رديئة لم يضحك لها أحد. فلم يسبق لأحد أن ضحك لدُعابات بوم. إن الرجل أخرق.

"يعتقد أحد الرجال أنه رآها قادمة قرابة الساعة السابعة من مساء أمس"، أضافت شاليف. "يتم استجوابه الآن. ووجدتها عاملة التنظيف عند الثامنة من صباح اليوم؛ إذاً لدينا إطار زمني تقريبي على الأقل".

"هل هناك أي شيء آخر أكثر تحديداً؟".

"ليس في هذه المرحلة. يتجنب شملينغ إعطاء جواب قاطع في شأن توقعاته".

"هناك مفاجأة"، تمتم غال.

وألقى بن - روي نظرة للحظات إضافية، ومن ثم قال:

"رأيت السي سي تي عند دخولي".

"لديهم عيون في أنحاء المجمَّع كافة"، أكدت شاليف. "إنهم يفرزون الآن المشاهد ذات الصلة بالموضوع، ويقوم بينكاس بتفحّص كاميراتنا في الكيشل. سيظهر رجلنا في أحد الأفلام. سننال من الوغد".

"يذكّرني الأمر *بشيرات* تل أبيب"، قال بوم.

ونظروا كلهم إليه، منتظرين بيت القصيد.

"لم يحدث أي شيء منذ دهور، وها أنتم تحصلون على جريمتين في الوقت نفسه".

تشير الدُّعابة إلى أنه بعد ثلاث سنوات من عدم وقوع أي جريمة قتل داخل أسوار المدينة القديمة، يجد رجال شرطة الكيشل أنفسهم فجأةً، وفي غضون أسبوعين، أمام عمليّتَي قتل. فقبل عشرة أيام، طُعن أحد طلاب *اليشيفا* في المِعى في الناحية السفلية *للواد* في الحيّ المسلم. وها هي الجريمة الثانية.

"لدينا صلات واسعة النطاق"، قال بوم. "ربما علينا طلب مشورة بعض الأشخاص في اليارد الروسي".

"باستطاعتنا القيام بذلك"، زمجر الرئيس ناظراً إلى شاليف التي أومأت. فالعلاقات طبيعية بين مراكز شرطة المدينة، ولا سيما بين الكيشل واليارد الروسي،

ولكن سيكون عليهم تشارك المصوّر الفوتوغرافي التابع ليارد. و لم يكن الرئيس غال يعتزم الاستعانة بمحققيهم أيضاً.

"عليّ العودة"، قال الرئيس مُلقياً نظرة سريعة إلى ساعته. "لديّ لقاء في ساحة سافرا. كم أنا محظوظ!".

أغلق سحّاب سترته حتى العُنُق. وعلى غرار الشارات المميِّزة الـتي يتقلّـدها قائده، كان هناك دبّوس ذهبـي على صورة مينورا على صدره الأيسر: المكافـأة الرئاسية للخدمة المتميِّزة.

"أريد نتيجةً لهذا التحقيق، يا ليه. وبسرعة. إذ ستتناوله الصحافة. اتفقنا؟".

"اتفقنا"، قالت شاليف.

نظر إليها وإلى بِن - روي من تحت حاجبَين كثَّين. وبعد إلقاء نظرة أخيرة في اتجاه الطاولة داخل المنطقة الرئيسة من دار العبادة الكبرى، لوّح لبوم لمتابعة القضية.

"أبقياني على اطّلاع"، صاح من فوق كتفه.

"وأنا أيضاً"، صاح بوم.

ونظر بِن - روي وشاليف إلى بعضهما.

"*مانياك*"، قالا بصوت واحد.

ووقفا لدقائق قليلة يراقبان عناصر جمع الأدلّة وهم يقومون بمهمتهم بطريقـة منهجية، وسأل بِن - روي بعد ذلك عما إذا كان بإمكانه إلقاء نظرة على الجثـة عن قُرب.

"صندوق الملابس موجود هناك"، قالت شاليف مشيرةً إلى صندوق مفتـوح وموضوع على الأرض في الطرف البعيد للغرفة بجانب كومة الكراسـي. فتوجّـه بِن - روي نحوه، وانتعل زوجاً من أغلفة الأحذية، ولبس رداء أبيض وزوجاً مـن القفازات، وعبر الغرفة بعد ذلك، وركع بجانب الطاولة عند المنطقة المركزية مـن دار العبادة.

"أستأذن".

رفع شملينغ إبهامه لبِن - روي بما معناه أنه باستطاعته الاقتراب. كان ينبغـي لآري توخّي الحذر مع شملينغ، فلقد ذاع صيته بحماية مسارح الجرائم المسؤول عنها بشكل مستقبَح.

كان هناك متّسَع للرأس تحت الطاولة يبلغ 70 سنتمتراً تقريباً، وبـــن - روي رجل ذو بنية جسدية ضخمة، وأطراف طويلة، ومنكبَين عريضَين، بخلاف شملينـــغ الذي كان عريض الخصر والرِّدفَين. تحرك آري على أطرافه الأربعة، كاشطاً ظهره بالناحية السفلية للطاولة.

"كان عليهم الحصول على تحرٍّ أصغر حجماً"، قال شملينغ.

"كان عليهم الحصول على قزم لعين"، أجاب بن - روي على الفور لاهثـــاً. ووصل إلى الجثة التي كانت ملقاةً بمحاذاة الجدار، واستند إلى مِرفقَيه. فأبعد شملينغ قدمَيه ليوفر له مساحة إضافية. ولمع وميض آلة تصوير كلتزمان.

كانت الضحية ترتدي معطفاً واقياً من المطر مصنوعاً مـــن قمـــاش القنّـــب الأخضر، وكنـــزة نسائية، وسروالاً فضفاضاً، وتنتعل حذاء مريحاً. وكانت أكـــبر حجماً مما بدت عليه عندما نظر إليها من المدخل. نَهدان كبيران، بطـــن منـــتفخ، فخذان ضخمتان؛ لا بد أنها تزن أكثر من 100 كيلوغرام. كانت عيناها مفتوحتَين جزئياً، وبياض عينيها ملوَّناً بلون بنّي شاحب، وينتأ من فمها منديل تصلّبَ بفعـــل الدماء الجافة؛ وهناك المزيد من الدماء المتكتّلة على ذَقنها، وعُنُقها، وياقة كنـــــزتها الصوفية، ويوجد ثَلْم مُصفَرّ على الناحية السفلية لعُنُقها.

قال شملينغ: "قُتلت خنقاً بآلة معدنية، بواسطة سلك غالباً. لقد استنتجنا ذلك بسبب البراعة في الضغط على العُنُق. علينا نقلها إلى *أبو كبير* لإجراء فحص ملائم، ولكن يبدو الأمر كما لو أن من قتلها يُجيد القيام بعمله. انظر...".

وأشار إلى الخدش الذي أحدثه السلك.

"هناك بعض الكشوط الشبيهة بورق الرّقّ، والقليل من الكشـــوط الخطيـــة الطفيفة، ولكن معالم الاحتقان غير ظاهرة، وهناك نـــزيف محدود مع بُقَع حمـــراء صغيرة".

وأشار إلى نُقَط باهتة مائلة للحُمرة تحت العينَين مباشَرةً.

"كل ذلك يخبرني أن أداة الخنق بقيت في المكان نفسه في أثناء عملية القتل من خلال ممارسة ضغط كبير وثابت. نظراً إلى حجم الضحية، وموتها خَنقاً...".

أشار بإصبعه إلى سلسلة من الخدوش حول العُنُق، حيث أمسكت المرأة بأداة الخنق كما يرجَّح.

"... يتطلب ذلك قوة كبيرة والكثير من المهارة".

لقد ترك هذا الأمر انطباعاً في نفس بن - روي.

"تبّاً لي"، تمتم بن - روي.

"لم يغتصبها، بأي حال".

"عفواً؟".

"ملابسها مرتّبة ولا علامات واضحة تشير إلى حدوث اغتصاب".

أومأ في اتجاه منطقة الأُربيّة لدى الضحية.

"أيّاً يكن دافعه، فأنا أراهن أنه لم يكن جنسياً، أو على الأقل بطريقة مختلفة عن طريقة قيامنا بذلك أنت وأنا".

أجفل بن - روي. لقد تسببت فكرة مشاركة شملينغ في التحقيق بكَرْب مماثل للكَرْب الذي تسببت به الجثة.

"وماذا بشأن المنديل؟" سأل بن - روي.

"مرة أخرى، لا يمكنني قول أي شيء محدَّد حتى أقوم بتشريحها، ولكن هناك بعض الرضوض غير المحدَّدة على الناحية الداخلية للذّقن، مما يحملني على الاعتقاد بأن القاتل ربما يكون قد وجّه لها ضربة إلى هذا المكان وقضمت لسانها. هذا ما حدث بالتحديد قبل الخَنق".

ورفع بن - روي حاجبَيه مستفهماً.

"لا وجود لكمية الدماء التي تشير إلى أن ذلك حدث بعد الخَنق"، شرح شملينغ. "كان لا يزال لديها ضغط في الجهاز".

لقد جعل الأمر يبدو كما لو أن الضحية قطارٌ بخاري من نوع ما.

"التقطت الكلاب البوليسية آثار دماء بين دار العبادة الكبرى وهنا"، أضاف. "لذلك، إنني أجازف في هذه المرحلة بتخمين سلسلة الأحداث: ضربها، خنقها، أقحم منديلاً في فمها، جرّها إلى هنا وخبّأها".

"لو كان باستطاعتك أن تكشف لنا عن هويّته لأقفلنا القضية وعدنا جميعنا إلى منازلنا باكراً".

فضحك شملينغ.

"لقد وصفتُ الجريمة ليس إلا أيها المحقق. ومن واجبك أن تحلّها".

ومضت آلة تصوير كلتزمان مرة أخرى، فرفع بِن - روي ذراعه ومرّرها على جبينه. إن الحرارة مرتفعة تحت مصباح الهالوجين، وبدأ بالتعرّق.

"هل تمانع قيامي بتفتيشها بسرعة؟".

"تفضّل".

جرّ بن - روي خطاه مسافة بضع بوصات إلى الأمام، وتفحّص جيوب الضحية. كان هناك قلمان ورزمة من المناديل الورقية في المعطف، ولكن لا وجود لأي محفظة جَيب، أو مفاتيح، أو بطاقة هوية، أو هاتف محمول؛ لا شيء من الأمور التي يتوقع العثور عليها. وثَبُت أن السروال الفضفاض كان أكثر نَفعاً لأنه عثر في أحد جيوبه على ورقة متغضّنة مستطيلة الشكل، وتبيّن له بعد فحص دقيق أنها قُصاصة ورق لاستمارة مكتبة. "جنرال ريدينغ روم"، تمتم بِن - روي، مكرراً الكلمات المطبوعة بحبر أحمر على امتداد وسط الورقة. ورفعها في اتجاه شمليغ.

"هل تعني لك شيئاً؟".

ألقى الأخصائي في عِلم الأمراض نظرة سريعة على الورقة وهز رأسه. وقام بِن - روي بتقليبها، ومن ثم تناول أحد أكياس العيّنات التابعة لشمليغ، وأسقط الاستمارة داخله. مسح جبينه مجدداً، وألقى نظرة أخرى على الجثة، ثم توجه بعد ذلك نحو الحقيبة الجلدية بنّية اللون الشبيهة بالنقانق، والموجودة وراء قدمَي الضحية.

"هل الحقيبة لها؟". صاح من دون أن يتوجّه بسؤاله إلى شخص محدَّد.

"نفترض ذلك"، أجابت شاليف.

سأل بِن - روي عما إذا كان كلتزمان وعناصر جمع الأدلة قد رفعوا البصمات عنها، وعندما حصل على ردّ بالإيجاب، أمسك المقبض وخرج من تحت الطاولة، زاحفاً وساحباً الحقيبة معه. وقف، ومدّد ساقَيه المتشنّجتَين، ووضع الحقيبة على الطاولة، وفتح السحاب. كانت مليئة بالملابس، ملابس نظيفة، ولكنها متغضّنة كما لو أنها وُضِّبت على عجَل، أم إن شخصاً آخر فعل ذلك في أثناء بحثه في الحقيبة. وخمّن بِن - روي أن الاحتمال الثاني هو الأقرب إلى الواقع. فقلّب محتويات الحقيبة، وأخرج صُدرة كبيرة بيضاء، كبيرة جداً.

"إنها حقيبتها بالتحديد"، صاح ورفعها عالياً.

"واو، باستطاعتك وضع خُصيتَي فيل داخلها"، وضحك كلتزمان، ملتقطاً صورة فوتوغرافية لها.

"رجاءً أيها السادة، أَظهروا القليل من الاحترام لدار العبادة إن لم يكن للضحية".

وقف عند المدخل رجل قصير القامة، ممتلئ الجسم، لحيته بيضاء، مهندَم، يرتدي رداء أسود خاصاً برجال الدين، وينتعل خفّين، ويعتمر قبّعة مخملية دائرية. لقد عرفه بِن - روي بشكل مُبهَم من خلال زيارته السابقة للمجمَّع قبل عامَين. إنه صاحب الغبطة فلان.

"رئيس الأساقفة أرمِن بتروسيان"، قال الرجل ببطء وبصوت أجشّ يكاد لا يكون مسموعاً، كما لو أنه يقرأ أفكاره. "مهنة مروِّعة. مروِّعة".

عبَر الغرفة بمشية حيوية على نحوٍ مفاجئ؛ لأنه في العقد السابع من عمره، هذا إن لم يكن أكبر سنّاً. وعندما وصل إلى المذبح، انحنى وألقى نظرة على ما يوجد تحته، ثمّ قوّم وقفته بعد ذلك، ووضع يدَيه على الطاولة، مطأطئ الرأس.

"كيف تحدث هذه الأمور في مثل هذه الأماكن؟ إنه تدنيس للمكان وأمر لا يمكن فهمه، ويتخطى...".

وتوقف فجأةً عن متابعة كلامه، ووضع يده على جبينه. ساد الصمت، ومن ثم استدار نحو بِن - روي. كانت نظرته حادّة على نحو غير عادي.

"سبق لنا أن التقينا، كما أعتقد".

كان بِن - روي لا يزال يحمل الصُّدرة بيده.

"قبل عامَين"، قال مُعيداً اللباس الداخلي إلى الحقيبة.

"آه، أجل، بالطبع". وأومأ رئيس الأساقفة. "هذا الوقت ليس أفضل وقت بالنسبة إلى شرطة إسرائيل. آمل أن تتمكن في هذه القضية من إظهار المزيد من...".

وصمت قليلاً مختاراً كلماته بعناية قبل أن يتابع:

"... الاتزان".

ثم عاد أدراجه إلى المدخل.

"اعثرْ على من قام بذلك أيّاً يكن"، قال عندما وصل إلى الباب. "أتوسّل إليك، اعثر عليه، اعثر عليه بسرعة قبل أن يتسبب بمزيد من البؤس للعالم".

والتقت نظراته نظرات بِن - روي مرة أخرى، ومن ثم استدار ودخـــل دار العبادة الكبرى.

"هل تعرف من تكون؟". صاح بِن - روي.

كان رئيس الأساقفة قد ابتعد.

"لا أملك أي فكرة"، أجاب من بعيد. "ولكن، ثِق بأنني سأدعو لها. ســأدعو لها من كل قلبــي".

مصر، الصحراء الشرقية

حدّق المفتش يوسف عز الدين خليفة من شرطة الأُقصُر بجاموس الماء الميت، وفمه يغصّ بالذباب، وعيناه تغطيهما طبقة مخاطية ويعوزهما البَريق. *أعرف كيــف تشعر*، قال في سره.

"تطلّب مني الأمر ثلاثة أشهر لإعداد تلك الحفرة المائية"، قال مالك الجاموس. "ثلاثة أشهر من العمل بواسطة رفش فقط، وطورية (مجرفة)، إضافةً إلى تعرّقــي. عشرون متراً في هذا الهُراء...".

وركل الأرض الصخرية.

"والآن، الماء مسمَّم وعديم النفع. يا عفو الله!".

وخرّ على ركبتَيه، رافعاً ذراعَيه إلى السماء. إنها إيماءة مثيرة للشــفقة لرجــل محطَّم. مجدداً، تبادرت الفكرة إلى ذهن خليفة: *أعرف كيف تشعر*. وأيضاً: *ربمــا كان علينا أن نثور، ولكن الحياة لا تزال خدّاعة بالنسبة إلى معظمنا*.

وقف محدِّقاً إلى البركة الموحِلة وإلى الجيفة المستلقية بجانبها، و لم يكن يُســمَع سوى صوت طنين الذباب ونحيب المزارع. بعد ذلك، ســحب علبــة ســجائر كليوباترا، وارتمى جالساً على ردفيه، وعرض على المزارع تناول ســيجارة مــن العلبة. فمسح هذا الأخير فمه بكم جلبابه، وتناول إحدى السجائر.

"شكراً"، تمتم.

"عفواً"، أجاب خليفة، وأشعل سيجارة المزارع وسيجارته. تناول مجّة، ومــن ثم مدّ يده ووضع علبة السجائر في جَيب الرجل.

"احتفظ بها"، قال.

"ليس عليك أن...".

"رجاءً، احتفظ بها. ستُسدي خدمة لرئتَي".

فارتسمت على وجه الرجل ابتسامة واهية.

"شكراً"، قال مجدداً.

"عفواً"، كرر خليفة.

دخّنا بصمت والصحراء تتماوج من حولهما قاحلةً ومغطاةً بحجارة متناثرة. لم يكن الوقت قد تخطى منتصف الصباح بعد، ولكن الحر شديد، والمنظر الطبيعي يتلألأ كما لو أنه يلهث. إنه الحرّ في الأُقصُر، ولكن نسيم النيل يحمل القليل من البرودة. لم يكن هناك أحد، فقط شمس ورمال وحجارة، وأتّون كبير في الهواء الطّلْق حيث الشُّجَيرات الشائكة والأَقاقيا تناضل لأجل البقاء.

"كم دام على وجودك هنا؟". سأل خليفة.

"ثمانية عشر شهراً"، أجاب الرجل متنشّقاً. "كان ابن عمي يقيم على بُعد كيلومترات قليلة عندما أتيت...".

ولوّح بيده في اتجاه الشمال.

"قال لنا إنه باستطاعتنا كسب رزقنا، وإن هناك ماء إذا حفرنا حتى عمق كافٍ؛ إذ يخرج الماء من الجبال...".

ولوّح بيده مجدداً؛ هذه المرة في اتجاه الشرق حيث الصحراء البعيدة والجبل العالي المُبهَم الذي يلوح في الأُفُق خلف غشاء مائل بني اللون. وفي أثناء قيامه بذلك، لاحظ خليفة وشْم رمز النصارى الديني الأخضر الصغير والباهت جداً على الجانب الأعلى ليده، وتحت مَفصِل الإبهام مباشَرةً. كان الرجل قُبطياً.

قال: "تحدث طوفانات سريعة ومدمِّرة، وتتسرّب المياه عبر الصخور وتشكل قنوات عميقة تحت الأرض على امتداد أميال. إذا تمكنتم من الوصول إليها، استطعتم زراعة بعض الذُرة والبرسيم وتربية عدد قليل من الماشية. وهناك مرمر في التلال، وقد حفرتُ لاستخراجه أيضاً، وبعتُه لشخص من *الشعَب*. كان باستطاعتي كسب رِزقي. ولكن الآن...".

نفث دخان سيجارته، وانتحب مرة أخرى. فمدّ خليفة يده وضغط على كتفه، ومن ثم وقف، حامياً عينَيه من سطوع الشمس.

كانت المزرعة تقع قرب وادٍ واسع، وهناك منزل متداعٍ - مصنوع من آجر طينيّ وسقف من ورق النخيل - وحفرة ماء. وعلى مستوى أكثر انخفاضاً، مجموعة من الحقول التي ترويها قنوات متفرّعة من حفرة الماء: حقل ذُرة نامية، حقل برسيم، وحقل ملوخية. كان معاون خليفة، الرقيب محمد ساريا، واقفاً هناك يتفحّص المحاصيل الذابلة. وفي مكان أبعد، يوجد درب ترابي متعرّج عبر التلال في اتجاه وادي النيل القائم إلى الغرب على بُعد أربعين كيلومتراً، وهذا الدرب هو الحبل السرّي النحيل الذي يربط المزرعة بالحضارة.

"نحن من فَرشوت بالأصل"، قال الرجل ساحباً نفَساً عميقاً من سيجارته. "كان علينا الخروج بسبب العنف. إنهم يكرهون النصارى هناك. لم تتدخل الشرطة قط، إنها لا تتدخل إلا إذا كنتَ غنياً. أردت تأمين حياة أفضل لعائلتي، وأطفالي. قدِم ابن عمي إلى هنا منذ سنوات قليلة، وقال إنه لا بأس بالمكان، وإنه ليس هناك من يزعجه، لذلك قدِمنا أيضاً. لا يوجد الكثير هنا، ولكن المكان آمن على الأقل. والآن يريدون إبعادنا من هنا أيضاً. ليساعدْنا الله! ماذا سنفعل؟ رجاءً، يا الله، ساعدنا!".

علا صوت نحيبه، وسقط إلى الأمام، ضاغطاً جبينه على التراب. وعلى بُعد عشرين متراً، كان باستطاعة خليفة رؤية زوجة الرجل وثلاثة أولاد واقفين عند باب منزلهم، وهم يراقبون. كان لديه فتيان وفتاة. هذه العائلة مماثلة لعائلة خليفة. حدّق إليهم، وضاق فمه جزئياً كما لو أنه يحاول إعادة ابتلاع شيء ما. انحنى إلى الأسفل، وساعد الرجل على النهوض، ونفض الغبار عن شعره.

"هل يمكننا الحصول على بعض الشاي؟".

فأومأ المزارع باذلاً قُصارى جهده لاستعادة اتّزانه.

"بالطبع، سامحني. كان يُفترض بي تقديمه لك. أنا لا أفكر بشكل صحيح. تعالَ".

سار في المقدمة نحو المنزل، وتحدّث إلى زوجته فتوارت عن الأنظار داخل المنزل، وجلس الرجلان على مِقعد بموازاة الجدار في ظلال ظُلّة مصنوعة من

الحديد المجدول. وبقي الأولاد في مكانهم حفاة، ومتّسخي الوجـــوه، ومتــــيقظين. وسُمع صليل أوعية، ومن ثم صوت صنبور ماء مفتوح. أصغى خليفة للحظات إلى خرير المياه، وقطّب جبينه بعد ذلك.

"أما زلت تستخدم البئر؟".

"لا، لا"، أجاب المزارع. "مياه البئر للرّي فقط وللجاموس. نضخّ مياهنا من بير هاشفا".

أشار إلى خرطوم مياه أزرق يخرج من الأرض في الجوار ويتجه إلى الناحيـــة الخلفية للمنـــزل.

"للقرية أنبوب رئيس"، شرح. "لقد مدّوه من الأُقصُر، وأدفع لهم لأحصـــل على المياه منه".

"وهؤلاء هم الأشخاص الذين تظنّ أنهم قاموا بهذا الأمر؟".

وأشار إلى الجاموس الميت والمحاصيل المصفرّة.

"هم من قاموا بذلك بالتأكيد. نحن نصارى، وهم مســـلمون. يريـــدون أن نغادر".

"يبدو لي أن هذا يتطلب الكثير من العناء"، قال خليفة مُبعِداً ذبابة عن وجهه. "أقصد اجتياز كل هذه المسافة إلى هنا، وتسميم بئرك وحقولك. باستطاعتهم قطع المياه عنك ليس إلا".

هز الرجل كتفَيه.

"إنهم يكرهوننا. وعندما تكره، يزول كل العناء. وبأي حال، لو قطعوا المـــاء لعثرتُ على مكان آخر للاستسقاء منه، وقد أنقل المـــاء بالقنـــاني إذا اضـــطُررت لذلك. إنهم يعرفونني. أنا لست كسولاً".

أنهى خليفة سيجارته، وداس على عَقِبها بحذائه.

"ألم ترَ أحداً؟ أو تسمع أي شيء؟".

فهزّ الرجل رأسه.

"لا بد أنهم قاموا بالأمر في الليل. لا يمكنك البقاء مستيقظاً طـــوال الوقـــت. حدث ذلك منذ يومين أو ثلاثة أيام. حينذاك، اعتلّت صحة الجاموس".

"ولكن، سيتحسن حاله، أليس كذلك يا أبـــي؟".

صدر هذا السؤال عن الفتاة الصغيرة. فانحنى الرجل فوقها وحملها وأجلسها على ركبتَيه. كانت جميلة، وتبلغ من العمر ثلاث سنوات أو أربعاً. عيناها كبيرتان خضراوان، وشعرها أسود متشابك. غمرها والدها بذراعَيه وهدهدها إلى الأمام والوراء. وتقدّم الفتى الأكبر سنّاً قائلاً:

"لن أدعهم يستولون على مزرعتنا يا أبـي. سأقاتلهم".

ابتسم خليفة، وكان حزيناً أكثر من كونه مسروراً. لقد ذكّره الفتى بابنه علي، ولكن ليس ببنيته الجسدية - إنه طويل جداً، وشعره قصير جداً - بل بتحدّيه وشجاعته الصبيانية. ومدّ يده إلى سجائره، ولكنه تذكّر أنه قدّمها للمزارع. لم يشأ أن يطلب سيجارة لأنه قدّمها له هدية، لذا ضمّ كفّيه إلى بعضهما في حضنه، وأسند ظهره إلى جدار المنزل، مراقباً محمد ساريا وهو يكدّ في السير على الدرب في اتجاههم. كان يرتدي كنزة صوفية فوق قميصه بالرغم من الحر. باستطاعتكم وضع ساريا داخل فُرن، وسيظل يشعر بالبرد. إنه محمد المُسنّ الصالح. فبعض الأمور لا تتغيّر أبداً، وبعض الأشخاص لا يتغيّرون أبداً. هناك عزاء في ذلك.

سُمع صوت أوعية زجاجية، وخرجت زوجة الرجل من المنزل حاملةً صينية عليها ثلاثة أكواب من الشاي، وزُبديات تورشي وترمس، وطبق يحتوي على كعكة زهرية اللون. رحّب خليفة بالشاي، وتناول حفنة من الترمس، ولكنه رفض الكعكة. إنها عائلة فقيرة، ومن الأفضل الاحتفاظ بها للأطفال. وصل ساريا، وجلس بجانبهما مرحِّباً بكوب الشاي، ومدّ يده لتناول الكعكة، ولكن خليفة رمقه بنظراته، فحوّل يده في اتجاه زبديّة التورشي. كانا يفهمان بعضهما. إنه حكيم ويمكن الاعتماد عليه، وعلى المستوى المطلوب؛ ولو لم يكن ساريا برفقته لما تمكّن من تدبّر أمره في تلك الأسابيع الأولى الكابوسية في العمل.

"لن تقوم بأي شيء، أليس كذلك؟". قال المزارع بعد دخول زوجته المنزل، مصطحبةً الأولاد معها. كانت لهجته أقرب إلى الإذعان منه إلى الاتهام؛ لهجة رجل اعتاد سوء المعاملة والتسليم بواقع الأمور لأنه المسار الطبيعي للأحداث. "لن توقفهم".

حرّك خليفة السكّر في كوب الشاي، وارتشف القليل منه متجنّباً الإجابة عن السؤال.

"قال ابن عمي إنه لا يُفترض بـــي إزعاج الشرطة. فهو لم يزعجها".

ورفع خليفة نظره نحوه مندهشاً.

"هل تحصل معه هذه الأمور أيضاً؟".

"قبل ثلاثة أشهر"، قال الرجل. "لقد عمل في تلك المزرعـــة طـــوال أربـــع سنوات، وحوّل الصحراء إلى فردوس. حقول، بئر، حديقة خُضار أُتلفت كلـــها، كما نفق الماعز. فقلت له: *اقصد الشرطة. إنها ليست فَرشوت، سُيصغون إليـــك. سيقومون بأمر ما*. ولكنه لم يلجأ إلى الشرطة، وقال إن القيـــام بـــذلك إضـــاعة للوقت. فانتقل، واصطحب عائلته إلى أسيوط. ذهبت أربع سنوات سُدىً".

بصق المزارع ولزم الصمت، فيما ارتشف خليفة وساريا الشاي. وصدر مـــن ورائهم، من داخل المنـــزل، صوت غناء.

قال ساريا: "أحدهم ذو صوت جميل".

قال الرجل: "إنه ابني، كارم محمود جديد. ربما سيصبح ذات يوم مشـــهوراً ولن تعود لأي من هذه الأمور أهمية".

همهم خليفة وشرب كامل محتويات كوبه، ومن ثم ساد الصمت الذي سرعان ما كسره المزارع بقوله:

"لن أغادر. إنه منـــزلنا. لن يشتّتونا. سأقاتل إذا اضطُررت لذلك".

قال خليفة: "آمل ألا يبلغ الأمر هذا الحد".

نظر الرجل إليه، وسأله بنظرة حادّة محدّقة ومستقصية: "ألديك عائلة وزوجة وأبناء؟".

فأومأ خليفة.

"هل ستحميهم إذا كانوا في خطر، وتقوم بكل ما يتعيّن عليـــك القيـــام به؟".

لم يُجب خليفة.

"هل ستفعل؟". أصرّ الرجل.

"بالتأكيد".

"إذاً، سأقاتل إذا اضطُررت لذلك؛ لحماية عائلتي وأولادي. إنّ حماية العائلـــة أهم واجبات الرجل. ربما أكون فقيراً، ولكنني لا أزال رجلاً".

وقف، فنهض خليفة وساريا أيضاً، منهيَين الشاي، ومُعيــدَين الكــوبَين إلى الصينية. ونادى الرجل، فخرجت زوجته مع الأولاد، ووقف خمستهم عند مدخل المنــزل معاً، شابكين أذرعهم.

كرّر: "لن أدعهم يشتّتوننا".

قال خليفة: "لن يُكرهك أحد على المغادرة، سننــزل إلى القرية ونتحدث إلى العمدة. سنعالج هذه المسألة. سيكون كل شيء بخير".

هز الرجل كتفَيه؛ غير مصدِّق إيّاه كما يبدو.

قال خليفة: "ثِق بــي، سيكونً كل شيء بخير".

نظر خليفة إليهم، مركّزاً على الابن البكر، وشكرهم بعد ذلك على الشاي، ثم غادر وساريا إلى جانبه إلى سيارتهما المتهالكة والمكسوة بالغبار من طراز ديــوو. فتوجّه ساريا إلى باب السائق، وجلس خليفة على مقعد الراكب.

قال ساريا: "سأفعل". ودخل السيارة وضبط المرآة كي يتمكن من النظر إلى العائلة التي كانت لا تزال واقفةً عند المدخل.

"ماذا ستفعل؟".

"سأقوم بكل ما يتعيّن عليّ القيام به لحماية عائلتي، حتى إن خرقتُ القــانون. يا لأولئك الأولاد المساكين!".

أقرّ خليفة: "الحياة صعبة".

أعاد ساريا ضبط المرآة، وشغّل المحرّك.

"تركتُ جنيهات قليلة في الحقل تحت صخرة. سيعثر أحد الأولاد عليها كما آمل".

نظر خليفة إليه.

"أنت! ربما ظنّوا أن شبحاً ما قام بذلك".

ابتسم خليفة.

"أنت تجعل العالم مكاناً أفضل، يا محمد".

فهز ساريا كتفَيه، وعشّق تُروس السيارة.

"على أحدهم القيام بذلك"، قال في أثناء ارتجاجهما على الطريــق الــوعِرة. بجانبه، بحث خليفة عن علبة سجائر احتياطية في صندوق القُفّازات.

بعد انتهاء شملينغ من معاينته الأولية للجثة، وُضعت في كيس، ونُقلت بواسطة سيارة إسعاف هاشفِلا إلى المركز الوطني للطب الشرعي في تل أبيب الذي كان يُعرَف شعبياً *بأبو كبير*. وعادت ليه شاليف وبيبي كلتزمان إلى المركز، فيما بقي بن - روي في مسرح الجريمة لمدة عشرين دقيقة، متفحصاً ملابس المرأة وحقيبتها قبل أن يغادر بدَوره، تاركاً عناصر جمع الأدلة في المكان ليواصلوا عملية رفع البصَمات؛ وهي مهمة ستشغلهم على الأرجح طوال اليوم.

سأل في أثناء مغادرته الغرفة: "هل تريدون أن أرسل لكم بعض الشراب؟".

"حبّاً بالله يا رجل، إنه مسرح جريمة!".

ابتسم بن - روي. لقد عُرف عن عناصر جمع الأدلة أمران: اهتمامهم الهاجسي بالتفاصيل، وافتقارهم الكلّي لأي روح دُعابة.

صاح: "فطائر بالجبن، فلافل".

"اغرب عن وجوهنا!".

ضاحكاً، شق طريقه عبر دار العبادة الكبرى في اتجاه الرِّواق حيث التقط مسدسه الجريكو ووضعه في قِرابه. كان المطر قد توقف عن الهطول، وبدأت الغيوم بالانقشاع والسُّحُب بالتفرق، كاشفةً عن فُسحات زرقاء متفرّقة كما لو أنها قنوات من مياه البحر في جليد القطب الشمالي. حدّق بن - روي إلى السماء، متنشقاً هواء منعشاً. وبعد ذلك، بعد إلقاء نظرة سريعة على ساعته، عاد إلى غرفة المكتب ذات الواجهة الزجاجية عند مدخل المجمَّع. كان الرجال الثلاثة الذين يعتمرون قُلُنسوات مسطَّحة لا يزالون جالسين في الداخل حول مرقاب سي سي تي في، ونافا شوارتز منحنية وراءهم. فأدخل رأسه عبر الباب.

"ما جديد المشاهد المصوَّرة؟".

"لا نزال نتفحّصها"، قالت شوارتز. "لديهم أكثر من ثلاثين كاميرا في مختلف أنحاء المجمّع، لذلك سيتطلب الأمر ساعتَين إضافيّتَين".

دخل بن - روي المكتب، ونظر إلى الشاشة التي كانت تُعرَض عليها نحو عشرة مشاهد لأنحاء متنوعة من المجمّع: باحات، مجازات، أبواب، أدراج، أنفاق؛

مدينة ضمن مدينة، عالم ضمن عالم. وفي أحد المشاهد المصوَّرة ظهرت مجموعة من الشبان بأردية سوداء يعبرون ساحة ضخمة مرصوفة بالحجارة. غابوا عن الأنظار، ثم ظهروا بعد ذلك عند الممرّ المقبَّب أمام المكتب. رفع بِن – روي نظره في أثناء قدومهم في اتجاهه وخروجهم من البوّابة، متوجّهين على الأرجح إلى المدرسة الدينية القائمة وراء بطريركية الأرمن الأرثوذكس.

سأل بعد أن مرّ الجميع: "كم شخصاً يُقيم هنا؟".

"هناك ثلاثمئة أو أربعمئة شخص"، أجاب أحد أولئك الذين يعتمرون قُلُنسوات مسطحة؛ رجل ذو بنية جسدية ضخمة، وذَقن نمت فيه شُعَيرات قاسية، وأطراف أصابع مبقّعة بسبب النيكوتين. "وهناك بضع مئات يُقيمون في الشوارع المحيطة".

"وهل هذا هو الطريق الوحيد للدخول والخروج؟".

هز الرجل رأسه.

"هناك خمس بوّابات، عِلماً أننا لا نستخدم سوى اثنتَين منها. واحدة هناك...".

ولوّح بيده في اتجاه الناحية الجنوبية- الغربية.

"... لتلامذة المدرسة. تكون مفتوحة بين السابعة والرابعة. وهذه البوّابة".

"التي تُقفل...؟".

"عند العاشرة ليلاً بالتحديد. بعد ذلك، لا يستطيع أحد الدخول أو الخروج حتى الصباح".

ألقى بِن – روي نظرة على الباب الخشبي الثقيل المدعَّم بالحديد، ونظر مجدداً إلى الشاشة. عند مدخل دار العبادة الكبرى، كان أحد رجال الشرطة ذوي البذلات النظامية يتحدث إلى رجل دين يرتدي رداء أسود ويعتمر قلنسوة مستدقّة الرأس. لقد بدا الأمر كما لو أنهما يتجادلان، فيما يشير رجل الدين بيدَيه إلى الشريط الأحمر والأبيض الخاص بالشرطة. رجال دين من مختلف الأديان يُلامون بقسوة من الجميع. إنها إحدى مُتع المحافظة على الأمن والنظام في القدس.

سأل: "هل تُقفل دار العبادة عند العاشرة أيضاً؟".

"عادة تفتح أبوابها لأداء الصلوات فقط. من السادسة والنصف وحتى السابعة والنصف صباحاً، ومن الثانية وخمس وأربعين دقيقة وحتى الثالثة وخمس وأربعين دقيقة بعد الظهر".

"عادة؟".

"في الشهر الماضي، وجّه سيادة الرئيس بتروسيان تعليماته بوجوب ترك الأبواب مفتوحة حتى التاسعة والنصف".

فقطّب بن - روي جبينه.

"لماذا؟".

فهز الرجل كتفَيه.

"ليتوافر للراغبين المزيد من الوقت للتعبد".

كانت لهجته خالية من أي تعبير، ولا توحي باستحسان أو استهجان توجيهات رئيس الأساقفة.

حدّق بن - روي إلى الشاشة، مراقباً ظهور رجل دين آخر يعتمر قلنسوة مستدقة الرأس ينضم إلى الجدال أمام باب دار العبادة. وتدخّل المزيد من رجال الشرطة لدعم زميلهم، وبدا الأمر كما لو أن المواجهة تتّجه نحو التفاقم. وتساءل عما إذا كان يُفترض به العودة للمساعدة على التخفيف من حدة التوتر، ولكن انشغالاته العديدة حملته على التخلّي عن الأمر. فطلب من كلاين إحضار المشاهد المصوَّرة إلى الكيشل بأقصى سرعة ممكنة، وغادر المجمَّع في اتجاه المركز، تاركاً عناصر جمع الأدلة يُنجزون عملهم بأفضل طريقة ممكنة. فهذا ما دُرّبوا على القيام به.

لقد خفّت زحمة حركة المرور في محيط بطريركية الأرمن الأرثوذكس كما يبدو بعد توقف هطول المطر، ولم يكد يجتاز مئة متر تقريباً حتى أرغمته شاحنة مقفلة تابعة لشركة بيزيك للاتصالات على الابتعاد عن الطريق وولوج مدخل الفندق الأرمني الذي كان قد احتمى تحت ظلته من قَبل. كان بابه مُقفَلاً آنذاك، ولكنه مفتوح الآن. مرّت شاحنة بيزيك أمامه فعاد إلى الشارع، ولكنه ألقى نظرة سريعة على ساعته، ثم استدار ودخل الفندق. كانت ليه شاليف قد دعت لاجتماع للوحدة عند الحادية عشرة وخمس عشرة دقيقة، مما يمنحه ثلاثين دقيقة يمكنه الاستفادة منها.

في الداخل، كان هناك درج يؤدي إلى مطعم في الطابق السفلي المقبَّب تحت مستوى الشارع تماماً. كان مليئاً بزَخرفات مبعثرة على غرار دار العبادة الكبرى، أرضه مبلَّطة، وجدرانه مغطاة بالرموز الدينية، والمصابيح النحاسية مدلاّة من سقفه.

وهناك خِزانات زجاجية مليئة بمجوهرات مكسوّة بالغبار - قِلادات، أساور، أقراط - ونابي فيل زائفين. وعند أسفل الدرج مشرب صغير كُدِّست على رفوفه صفوف من القناني العادية، إضافةً إلى قنانٍ غير مألوفة على صورة فِيَلة وجِياد وهِررة. وعندما وصل إلى أسفل الدرج، خرج رجل يرتدي جينزاً وتي - شيرت ضيّقة جداً من طراز تومي هيلفيغر، من باب المطبخ الدوّار عند زاوية المطعم.

"هِيه، يا آري"، صاح.

"شالوم، يا جورج".

تصافحا، ورافق الرجل بِن - روي إلى طاولة بجانب كوّة الطلَبات التابعة للمطبخ.

"أتريد قهوة؟".

أومأ بِن - روي، فنقل الرجل الطلب عبر الكوّة. أطلقت امرأة متقدّمة في السن - والدة جورج - ابتسامة تشير إلى مزاجها السيّئ وشرعت بغلي الماء. وجلس جورج على كرسي في الجهة المقابلة لبِن - روي، واضعاً كل رِجل على جانب، وأشعل سيجارة إمبيريال، متجاهلاً لافتة عدم التدخين على الجدار وراءه. إنه امتياز له منذ أن امتلكت عائلته المكان.

لقد احتلّ الفندق وجورج أسلانيان مكانة خاصة في قلب بِن - روي. ففي السابق، تناول وغاليا الطعام هنا في أول موعد لهما. وواصل القدوم إلى الفندق مذاك الحين لشرب القهوة الأرمنية، ولتناول الطعام أيضاً أحياناً أخرى: السُّجُق والكُبّة يسيلان اللُّعاب. وغالباً ما كان هو وسارة يتناولان العشاء هنا. وجد ذلك مُقلِقاً في بادئ الأمر بسبب ارتباط المكان ببعض الذكريات، ولكن قلقه تبدد بعد زيارات قليلة. فالمدينة القديمة تنشّط ذكريات من نوع آخر، ولا يستطيع تجنّب تلك الأماكن. وبطريقة مثيرة للفضول، كان من الملائم له ولسارة أن يأتيا إلى هنا؛ فبالرغم من كل شيء، إنها المرأة الوحيدة التي أحبّها بمقدار حبّه لغاليا، كما أنه أدمن على تناول السُّجُق والكُبّة.

سأله جورج: "أتريد أن تأكل شيئاً ما؟".

كان بِن - روي قد تمكن من تناول فطور سريع فقط، وبدأت معدته تقرقر. ولكن إعداد السُّجُق يتطلّب خمس عشرة دقيقة على الأقل، ولا وقت لديه.

قال: "القهوة تكفي. هل سمعتَ بما حدث في دار العبادة؟".

"كل أرمني في القدس سمع بذلك"، قال جورج ساحباً نفَساً عميقاً من سيجارته. "سمعنا بما حدث قبل أن تعرف الشرطة. نحن مجموعة متكاتفة جداً".

سأل بن - روي: "هل لديك أي معلومات؟".

"مثل: هل أعرف من قام بذلك؟".

"ستكون هذه معلومة مساعدة".

نفث جورج حلقة من الدخان.

"إذا عرفتُ أي شيء فسأعلمك يا آري. لا يوجد أرمني في القدس لن يخبرك إذا عرف شيئاً ما. بل في كل إسرائيل. إن تدنيس دار عبادتنا على هذا النحو...".

وتنهّد وهز رأسه.

"نحن في حالة صدمة. كلنا".

سُمعت طقطقة على الدرج، ونزل رجل قويّ البنية حاملاً صندوقاً كرتونياً مليئاً بما بدا أنها حزم سبانخ. كلّمه جورج باللغة الأرمنية، فوضع الصندوق داخل المطبخ ثم غادر.

"في حالة صدمة"، كرر جورج بعد أن غادر الرجل. "في العام 1967، وفي أثناء المعركة، قُتل أشخاص عندما سقطت قذيفة على المجمّع، ولكن هذا! بالنسبة إلينا، دار العبادة مكان مقدَّس. إنها مركز عالمنا. إنها...".

ووضع يده على قلبه.

"كما لو أن الجريمة قد حدثت في منزلنا، لا بل أسوأ من ذلك. الأمر مروِّع".

بالرغم من قسمات وجهه الصارمة والكئيبة قليلاً، كان جورج بصورة عامة رجلاً طويل البال تقريباً، و لم يسبق لبن - روي أن رآه على هذه الحال.

"أنا في هذا المكان كمن يحاول الوقوف في مياه لا قرار لها. يا جورج *الحاريديم*، والفلسطينيون لديّ خبرة معهم. ولكنني لم أتعامل مع الأرمن من قبل قط؛ باستثناء ذلك الأمر قبل عامَين".

بدا مالك الفندق مُربَكاً.

"أقصد طالبي المدرسة الدينية"، قال بن - روي حاثّاً إيّاه على التذكر.

"آه أجل". وأخذ نفَساً عميقاً آخر من سيجارته. "هذا الوقت ليس أفضل وقت بالنسبة إلى شرطة إسرائيل".

إنها العبارة نفسها التي استخدمها رئيس الأساقفة بتروسيان. ربما أصبح استخدامها معيارياً، فكّر بِن - روي في سرّه، فهي تُضاف إلى الحديث كلما ناقش أحد الأرمن في هذه القضية بالذات؛ حيث يلقى اللوم على السياسيين أكثر منه على رجال الشرطة، كما كان الحال على الدوام. ضعوا السياسيين جانباً فتستقيم الأمور بشكل أفضل.

فما حدث هو أن طالبَين في المدرسة الدينية قادمَين من أرمينيا دخلا عراكاً مع مجموعة من *الحاردي* المراهقين من الحيّ اليهودي. كان فتيان الحاردي قد دأبوا طوال أشهر على البصق على رجال الدين والطلاب الأرمن. وفي هذه الحالة، ردّ الطالبان على الإساءة بالمِثل. وفي عالم يسود فيه الإدراك، يكفي توجيه كلام صارم لأولئك المتورّطين، وتسديد ركلة على مؤخراهم لتنتهي المسألة. ولكن المدينة القديمة ليست عالماً يسود فيه الإدراك. لذا كُسر أنف أحد فتيان الحاردي، وطالب *الفرامِرز* بالثأر، فاستجاب وزير الداخلية. وكانت النتيجة أن طالبي المدرسة الدينية اعتقلا، وسُجنا، ورُحِّلا. كان ذلك رد فعل مُفرطاً ومثيراً للسخرية أثار نقمة كبيرة لدى زملاء الطالبَين الأرمن؛ وهو أمر غير مفاجئ، لأن فتيان الحاردي أفلتوا من العقوبة.

كان بوم الضابطَ المسؤول عن الحادثة آنذاك؛ مما أدى إلى تفاقم الأزمة منذ البداية. ولم يلعب بِن - روي سوى دور ثانوي، مُجرياً مقابلتَين أوّليّتَين، ولكنه لا يزال يشعر بالعار لدى تذكّره هذه الحادثة. فهي، على غرار الجدار الفاصل، والمستوطنات، والعديد من الأمور في هذا البلد، وجداول الأعمال التي توضع في الوزارات ومعابد اليهود - وتتناول المساجد والكنائس - قد جعلت مهمة الشرطي بالغة الصعوبة أحياناً، وفي معظم الأحيان.

"القهوة".

ظهرت المرأة المُسنّة أمامه من كوّة الطلَبات، حاملةً فنجاناً وصحناً بكل يد. فتناولها جورج، ووضعها على الطاولة، وأفرغ مغلّف سكّر صغيراً في فنجانه فيما أفرغ بِن - روي مغلّف السكّر الخاص به في فنجانه أيضاً.

"كما أقول، لم أتعامل كثيراً مع الأرمن"، أوجز مرتشفاً. "وأنا واثق أنك سمعتَ بأنها..."

وأشار إلى عُنُقه للدلالة على أن المرأة قد خنقت.

"إنه رجل مجنون على الأرجح، ولكن علينا النظر في كل الاحتمالات".

لم يقل جورج شيئاً، بل حرّك قهوته ونفث دخان سيجارته.

"هل سمعتَ بأي... لا أعرف... نزاعات مستحكِمة بين الأرمن؟".

لا جواب.

"نزاعات ثأرية؟"، حثّه بن - روي. "أي مشاكل بين رجال الدين والأشخاص الذين يرتادون دار العبادة بانتظام؟ أحقاد، مظالم. أي شيء... خارج عن المألوف".

كان يبذل قُصارى جهده، محاولاً الإمساك بطرف خيط.

"أي شيء يمكنه توجيه مسارنا؟".

رفع جورج فنجان القهوة وارتشف منه، وأطفأ سيجارته في السائل الأسود الموجود في صحن الفنجان.

"اسمع يا آري، لدينا مشاجراتنا الصبيانية على غرار الجميع، ولدينا تفاحاتنا السيّئة؛ مشاغبونا. فرجال الدين لدينا يخوضون جدالات مع رجال الدين الروم الأرثوذكس، وهذا الشخص يكره ذلك الشخص، ويحتال أحدهم على الآخر. هذه الأمور تحدث، نحن بشر. ولكن، دعني أخبرك بما لا يقبل الجدل...".

ورفع نظره نحو بن - روي.

"... لا يوجد أرمني قد يقوم بأمر مماثل مع أرمني آخر، ولا سيما داخل دار عبادتنا. نحن عائلة. نحن نكترث لبعضنا، ونحمي بعضنا بعضاً. وأنا أضمن لك أن من ارتكبوا هذه الجريمة يا آري ليسوا من الأرمن. أضمن لك ذلك".

استدار وكلّم والدته التي أجابته بكلمات غير واضحة قبل أن تخرج وجهها من كوّة الطلَبات قائلة:

"أي أرمني، أي أرمني لن يقوم بذلك".

قطّبت وجهها لبِن - روي ليفهم المغزى، ومن ثمّ عادت لمتابعة طَهوها، وأنهى بِن - روي قهوته.

"حسناً، على الأقل تُضيّق هذه المعلومة نطاق البحث".

سُمع ضجيج أصوات، ونــزل بضعة أشخاص من الشارع على الدرج بخطى ثقيلة؛ إنهم سيّاح مُسنّون أميركيون أو إنكليز يستوضحون عن وُجهتهم من خلال كتيبات إرشاد السيّاح. فانضمّ جورج إلـيهم لإجلاسـهم وتزويـدهم بلـوائح الأطعمة. وانطلقت موسيقى هادئة من جهاز مكبّر الصوت التابع للمطعم من دون أن يتمكن بِن - روي من رؤية الشخص الذي شغّله.

"ألم تسمع أي شيء عن هويّة الضحية؟". سأل بِن - روي جـورج لـدى عودته. "شائعات مسرَّبة؟".

فهز جورج رأسه.

"ليس أرمنياً، إنه أمر مؤكّد. أو على الأقل ليس شخصاً من القدس. الجميـع هنا يعرفون بعضهم بعضاً".

"أهو من خارجِ القدس إذاً؟".

هز جورج كتفيه.

"هذا ممكن".

وأخرج سيجارة أخرى ووضعها في فمه، ومن ثم فكر في الأمر جيداً.

"الشخص الذي يُفترض بك التحدّث إليه هو رئيس الأساقفة بتروسيان. فهو يعرف الجميع هنا، ويعرف كل ما يدور بين أفراد جاليتنا. ليس في القدس فقـط، بل في كل البلد".

"سبق لي أن قابلتُه"، قال بِن - روي، "في دار العبادة الكبرى. قـال إنـه لا يعرف شيئاً".

"حسناً، إذاً هذا هو الجواب عن سؤالك. لدى بتروسيان معلومـات تفـوق المعلومات التي يملكها الأساقفة الآخرون مجتمعين، وجميع الأرمن. لا شيء يحـدث في عالمنا من دون أن يعرف به".

نظر حوله كما لو أنه يريد التأكد من أن لا أحد يُصغي إليه، ومن ثم انحنى إلى الأمام قائلاً:

"ندعوه الأخطبوط. فلديه مِجسّات في كل مكان. إذا لم يكن باستطاعته أن يساعدك...".

رفع يدَيه إلى الأعلى في إشارة يُستعاض بها عن عبارة "فلا أحد يستطيع فعل ذلك". وفي الناحية الأخرى من المطعم، قال أحد السيّاح "مرحباً" ولوّح بلائحة الطعام، مشيراً إلى أنهم باتوا مستعدّين لطلَب الطعام.

"آسف يا آري، عليّ معالجة هذا الأمر".

"ليست هناك مشكلة. يُفترض بي العودة إلى المركز".

وقف بِن - روي وأخرج محفظة جَيبه، فأومأ له جورج كي ينسى أمر دفع الحساب.

"على حساب المطعم".

"سوف تُطلعني على كل ما يصل إلى مسمعيك، أليس كذلك؟".

"بالتأكيد. أبلغ سلامي لسارة، وقل لها إننا نأمل أن يتم كل شيء بخير مع...".

ربّت على بطنه وغادر لتلقّي الطلَب. وصعد بِن - روي الدرج في اتجاه الشارع، مختبراً مزيجاً من الشعور بخيبة الأمل بسبب عدم تمكنه من الحصول على المزيد من المعلومات، والشعور بالذَّنْب؛ وهو الشعور الأكثر وضوحاً لأن الآخرين يفكرون في سارة والطفل أكثر مما يفكر فيهما. فطفله لم يولد بعد، ولكنه يشعر بأنه أسوأ والد في العالم.

يمرّ الطريق نحو بطريركية الأرمن الأرثوذكس - عند منتصفه تقريباً - في نفق، وذلك قبل الوصول إلى مدخل سانت جيمس مباشَرةً. وفي الجدار القائم قرب ذلك النفق نافذة زجاجية مقنطَرة مع قضبان حديدية تتقاطع مع مَصوغات مخرَّمة من النبات المتسلّق الذابل. من ذاك المكان المشرف، راقب آرمن بتروسيان بن - روي وهو يدخل الفندق الأرمني. واستمر بالمراقبة طوال عشرين دقيقة إلى أن خرج التحرّي وسلك الشارع في اتجاه مركز شرطة داوود.

ممسداً لحيته، تابع رئيس الأساقفة تحركات الرجل الطويل الملتحي نوعاً ما في أثناء عبوره الشارع بخطى واسعة، وانعطافه عند الناحية الأبعد لساحة عمر بن الخطاب. ولم يبتعد رئيس الأساقفة عن النافذة إلا عندما غاب عن نظره تماماً، فتوجّه إلى البوابة الرئيسة للمجمّع، وأومأ برأسه للرجال الذين يعتمرون قُلُنسوات مسطَّحة داخل مكتب البوّاب، وطلب من أحدهم الانضمام إليه. ابتعدا أمتاراً قليلة

في الممر المقنطَر المؤدي إلى داخل المجمَّع، وتوقفا بجانب لوحة إعلانات مصنوعة من لبّاد أخضر سميك؛ بمنأى عن مسامع الأشخاص الموجودين في المكتب ورجال الشرطة الإسرائيلية الخمسة الذين يحرسون المكان خارج البوابة. نظر رئيس الأساقفة حوله، ثم انحنى إلى الأمام، وهمس في أُذُن الرجل، فأومأ الرجل، وربّت على سترته الجلدية، وعبَر قوس البوابة بخطى واسعة في اتجاه الشارع.

"ليحمِنا الله"، تمتم رئيس الأساقفة رافعاً يده، ومقبّلاً خاتمه المرصع بحجر الجَمَشْت الكريم. "وليسامحني الله".

مصر - الصحراء الشرقية

تقع قرية بير هاشفا على بُعد سبعة كيلومترات غرب المزرعة لجهة وادي النيل، وتتعنقد منازلها حول تقاطع طريقَين ترابيَّين: أحدهما يتجه من الجبال شرقاً إلى النهر غرباً، والآخر أعرض ويتجه من الشمال إلى الجنوب بموازاة النيل، رابطاً الطريقَين العامَّين 29 و212. وفي أثناء دنوّهما من ذاك التقاطع تحقق خليفة من هاتفه المحمول وطلب من ساريا التوقف.

قال: "يوجد إرسال، عليّ الاتصال بزينَب. لن يدوم الأمر سوى لحظات".

خرج من السيارة ومشى على الحصى، متوقفاً على بُعد عشرة أمتار قرب برميل نفط صدِئ، وطلب الرقم. وفي أثناء انتظاره قيام زوجته بالرد على اتصاله، انحنى والتقط عُبوتَي مشروبات غازية فارغتَين مُلقاتَين على الأرض، ووضعهما على البرميل. فابتسم ساريا الذي كان ينتظر داخل السيارة؛ إذ يُظهر هذا العمل مميِّزات رئيسه. إنه رجل يحب تنظيم الأمور وإبقاءها مرتَّبة وإن كان ذلك وسط الصحراء. لذلك، إنه تحرٍّ جيد، لا بل إنه الأفضل حتى بعد كل ما حدث.

مدّ ساريا يده في اتجاه علبة حبوب الحلوى المنكَّهة بالنعناع الموجودة على لوحة القيادة، وتناول حبة ووضعها في فمه، وأسند ظهره، مراقباً خليفة الذي كان يتحدّث عبر الهاتف. لقد ازداد وزن خليفة بضعة كيلوغرامات مؤخراً، وها هو الآن يبدو هزيلاً بشكل إيجابي، وعظمتا خدَّيه أقل نتوءاً من العادة. لقد تأثّر ساريا بعينَيه اللتين فقدتا بريقهما، وأصبحت الهالتان اللتان تحيطان بهما أكبر وأكثر

قتامة. كان قلِقاً عليه، عِلماً أنه لم يَبُح له بأي شيء. كان يفكر بالعالم الذي يعيش فيه رئيسه.

أمامه، كان خليفة يجوب المكان ذهاباً وإياباً، ملوِّحاً بيده كما لو أنه يقول: "اهدئي، كل شيء بخير". بصق ساريا حبة النعناع، ووضع حبة ثانية في فمه، ومن ثم حبة ثالثة. كان يتناول الحبة الرابعة عندما أنهى خليفة المكالمة الهاتفية أخيراً وعاد إلى السيارة.

سأله: "هل كل شيء بخير؟".

لم يُجب خليفة، بل دخل السيارة وأشعل سيجارة من العلبة التي كان قد عثر عليها بعد مغادرتهما المزرعة. لم يشأ ساريا حثّ رئيسه على الكلام، فإذا أراد رئيسه التكلّم فسيتكلم، وإذا لم يرغب في ذلك فلن يتكلم. شغل المحرّك، وانطلقا إلى القرية التي تبعد مسافة أربعمئة متر خلف مجموعة مبعثَرة من حقول الزيتون وحقول الذُّرة.

كان هناك نحو أربعين منزلاً مبنيّاً بآجر طيني، بالرغم من وجود مبنيَين أكبر حجماً مُشادَين بآجر أحمر؛ رمز الثراء والمكانة الاجتماعية.

توجّه ساريا إلى وسط القرية وتوقف قرب مسجد مطليّ بمحلول الكِلس الأبيض. كانت صلاة الجمعة قد انتهت للتوّ، والرجال يخرجون من الجامع، وينتعلون أحذيتهم، ناظرين شزَراً بسبب سطوع الشمس. قال لهم خليفة *السلام عليكم*، وسأل عن كيفية العثور على العمدة. فسمع تمتمة، وكانت هناك بعض النظرات غير الودّية – في هذه الأماكن النائية، يعامَل الغرباء على الدوام بدرجة معيَّنة من الرّيبة، لا بل أيضاً بعدوانية تامة – وذلك قبل أن يُرشدوهما بحقد إلى أحد المبنيَين الكبيرَين في الطرف الأبعد للكَفْر.

قال ساريا عندما انطلقا: "أنا مبتهج جداً، ربما يُفترض بي إرسال حماتي إلى هنا. وعندها، يمكن لكل هؤلاء أن يشعروا بالشقاء أيضاً".

"لا تقلل أبداً من احترام من هم أكبر سنّاً يا محمد".

"حتى أولئك السمينات المُحِبات لإصدار الأوامر؟".

"لا سيما السمينات المُحِبات لإصدار الأوامر".

نظر خليفة إليه، وعيناه تلمعان، ثمّ وجّه نظره بعد ذلك إلى الأمام.

قال: "احذر، طائر إوزّ".

انحرف ساريا حول الطائر الذي وقف وسط الدرب من دون القيام بأي حركة، وترك السيارة تنطلق ببطء من دون تعشيق تُروس السرعة، وتوقف أمام المنزل المؤلف من طابقَين، والمبنيّ على نحو رديء بأحجار غير مستوية من الآجر المسنَّن، والذي تظهر القضبان الحديدية من زوايا سطحه، ممّا يشير إلى الرغبة في تشييد طابق إضافي قد لا تتوافر الفرص لبنائه. كان الجدار حول الباب مكسوّاً بالمِلاط ومَطليّاً بطريقة غير مُتقَنة – فقد رسمت عليه سيارة، وطائرة، وجمل، ورسم للكَعبة في مكة – مما يشير إلى أن قاطني المبنى قد قاموا بفريضة الحج. إنه رمز آخر للثراء والمكانة الاجتماعية.

لقد انتشر الخبر بسرعة؛ لأن رجلاً مُسنّاً كثير التجاعيد يرتدي جلباباً أبيض ويضع عمامة بيضاء كان في انتظارهما أمام الباب، وهو يحمل بيده شومه. كان يبدو كالجرذ بخدَّيه المكسوَّين بشعيرات قاسية، وبعينَيه الصغيرتَين وأنفه المستدقّ.

"لا يأتي إلى هنا الكثير من رجال الشرطة"، قال في أثناء خروج خليفة وساريا من السيارة، ونظرته المحدّقة تبلغ حدّ العدائية، ولهجته الصعيدية غير واضحة لدرجة أنها تكاد لا تكون مفهومة. "لا يأتي إلى هنا أي شرطي البتة".

لم يكونا قد عرّفا بنفسَيهما بعد، غير أنهما ليسا بحاجة إلى ذلك. فعلى غرار كل مُواطني الدول التي على شاكلة مصر، يكشف المصريون عن رادار فطري يستهدف أولئك المسؤولين عن تطبيق القانون؛ رادار فطري، وكره فطري أيضاً.

"فنحن نعتني بأنفسنا"، أضاف الرجل، ناظراً إليهما شزَراً.

شهر التحرّيان شارتَيهما كما يفرض عليهما الواجب. وساد صمت غير مريح، بينما كان العمدة واقفاً هناك ينظر إلى خليفة وساريا مُداوَرةً. بعد ذلك، تنحنح بصوت مرتفع وبصق على التراب، وتقدّمهما إلى داخل المنزل، منادياً أحدهم لإحضار الشاي لهم.

كان المكان في الداخل بارداً، ومُظلِماً. وكان الأثاث مبعثراً، والأرضية الإسمنتية عارية ومكسوّة بالحصائر. تقدّمهما العمدة عبر ممر، ثم صعدوا عدة درجات، حتى وصلوا إلى سطح المبنى، وهناك شعر الشرطيان مجدداً بحرّ ما قبل الظهيرة. كانت حصيرة مصنوعة من ورقات سعف النخيل الجاف تغطي معظم

المساحة، وهناك ظُلّة في الجانب البعيد مع طاولة وكراس، فتقدّمهما العمدة إليهـا. بدت القرية بأكملها تحتهم مُحاطة بحقول الزيتون، ولكن ساريا اشتبه بأنه تمّ اقتيادهما إلى الأعلى ليس لرؤية المنظر بل لأن العمدة لم يشأ استضافة رجلي الشرطة داخل منزله. فجلسوا، وأشعل خليفة سيجارة، من دون أن يعرض على مُضيفهما العلبة.

"إذاً؟". سأل الرجل مباشَرةً من دون أي تمهيد.

"أريد التحدث إليك عن عائلة عطيّة"، قال خليفة ملوّحاً بسيجارته في اتجاه الشرق حيث المزرعة في التلال. "أظن أنك تعرفها".

فهمهم العمدة.

"النصارى؟! إنهم نصارى مثيرون للمتاعب".

"وكيف ذلك؟".

فهز الرجل كتفَيه متجنّباً الإجابة.

"بلغني أن مياههم غير صالحة للاستخدام. الله يعاقب الكافرين باستمرار".

"يعتقد السيد عطية كما يبدو أن العقوبة تمّت على يدَي شخص ما قريب من المنزل".

"يمكن لعطيّة أن يعتقد ما يحلو له. عندما تَفسد مياه بالغة الجودة فجأةً ومن دون أي سبب، يكون ذلك من صنع الله. هل لديك تفسير آخر؟".

تناول خليفة مجّة من سيجارته وانحنى قائلاً:

"أنت لا تحب النصارى، أليس كذلك؟".

"لا أحد يحب النصارى".

فتح خليفة فمه جزئياً كما لو أنه يريد مخالفته الرأي، ولكنه اعتقد أنه من الأفضل تناول مجّة أخرى.

سأل: "كيف علاقتك مع عائلة عطيّة؟".

"لا علاقة لنا مع عائلة عطيّة. إنها تعتني بنفسها على غرارنا".

"إنهم يضخّون مياه الشرب من شبكتكم".

لم يُبدِ العمدة أي رد فعل حيال هذا الأمر. ولم يكن الأمر مثيراً للدهشة لأن هذا الإجراء اتُّخذ من دون عِلم شركة مياه الأُقصُر، لذا فهو غير قانوني.

سأل خليفة: "كم يدفعون لكم في المقابل؟".

"يدفعون مبلغاً كافياً".

"إنه أكثر من كافٍ، كما أتوقع".

وكشف العمدة عن سخطه.

"هم من أقاموا قربنا. وإذا لم يُعجبهم ذلك فبإمكانهم المغادرة إلى مكان آخر. نحن نقدّم لهم صنيعاً".

لم يقل خليفة شيئاً، بل رمق الرجل ببرودة، وتناول مجّة أخرى من سيجارة كليوباترا. ظهرت شابة عند أعلى الدرج مع صينية شاي، وانتظرت مطأطئة رأسها، حتى قام العمدة بالتلويح لها للقدوم، فوضعت الصينية على الطاولة وغادرت مسرعة. كانت الكَدمة حول عينها اليسرى ظاهرة بوضوح، بالرغم من وضعها وشاح رأسٍ مفكوكاً وإبقائها وجهها نحو الأسفل.

سأل ساريا: "أهي ابنتك؟".

أجاب العمدة: "إنها زوجتي. هل هناك أسئلة أخرى؟ هل تريدان أن تعرفا متى تناولت الغائط في المرة الأخيرة؟".

تبادل التحرّيان نظرات سريعة، وأشار خليفة إلى ساريا بهزةٍ من رأسه تكاد تكون غير مرئيّة كي لا يُبدي أي رد فعل حيال الشتيمة. وسُمع رغاء الجمل في مكان ما في الأسفل.

"من الواضح أن ابن عم السيد عطيّة عانى من مشاكل في الماء أيضاً"، أضاف خليفة. "منذ شهرَين".

"هذا ما بلغني".

"هل تواجه أي مشاكل في مياهك؟".

"ليس في السنوات الأربعين الماضية".

"وقبل ذلك؟".

"قبل ذلك، لم تكن القرية موجودة أصلاً".

أومأ خليفة، وتناول كوب الشاي من الصينية، ثم توجّه إلى حافة السطح، ونظر إلى الحقول. كانت المياه تتدفق على بُعد خمسين متراً من أنبوب إلى خزان إسمنتي كبير، ومنه تجري داخل شبكة من قنوات الرَّي. وبالإضافة إلى حقول الذُّرة

والزيتون والبرتقال والبرسيم، كانت هناك حقول الملوخية، والتوت، والبطيخ أصفر، والتبغ، وما بدا أنه جُوافة؛ فبدا المكان كجزيرة خضراء وسط محيط أصفر شاسع.

قال: "تُبلي بلاءً حسناً هنا".

"نحب أن نعتقد ذلك".

"يوجد الكثير من الماء".

وتمتم العمدة شيئاً ما غير مسموع.

"أخبرني السيد عطيّة أنه ينبع من الجبال".

"هذا ما يقوله الخبراء. نحن نستخدمه فقط. نحن مزارعون، ولسنا...".

وقطّب جبينه باحثاً عن الكلمة الصحيحة.

قال ساريا: "جيولوجيين".

قال العمدة: "أيّاً يكن. إنها مياه جيدة، وهناك مخزون ثابت. عليك أن تنزل إلى عمق كبير للحصول عليها، ولكنها موجودة. هذا كل ما يهمّنا".

سأل خليفة: "ألا تواجه أي مشاكل؟".

"البتّة. لقد سبق لي أن أخبرتك ذلك".

ألقى خليفة نظرة على الحقول لمدة أطول، مرتشفاً الشاي، واستدار بعد ذلك.

"إذاً، لماذا أصبحت مياه السيد عطيّة غير صالحة للاستخدام برأيك؟".

"لقد أجبتُك عن هذا السؤال للتوّ. إنها إرادة الله".

"وهل تظن أن أشخاصاً في القرية فعلوا ذلك؟".

همهم العمدة وأعاد رأسه إلى الوراء، مُطلقاً كتلة كثيفة من البُصاق من السطح إلى الشارع في الأسفل. وكشفت شفتاه عن صفين من الأسنان البنّية غير المستوية كما لو أنها عساليج منقصفة.

قال العمدة موجّهاً نظره إلى خليفة: "لماذا لا تتوقف عن المراوَغة وتقول هذا فحسب؟ أنت تتهمنا بتسميم بئرهم".

"هل قمتم بذلك؟".

"لا، لم نقُم بذلك. لو أردنا إبعادهم عن هذا المكان، فلماذا سنزوّدهم بمياه الشرب؟".

إنها وجهة النظر نفسها التي أبداها خليفة في المزرعة.

"ربما كنت تسعى من خلال ذلك إلى زيادة مواردك"، اقترح خليفة متناولاً آخر مجّة من سيجارته، وناقراً الجِذمة في الاتجاه نفسه الذي سلكه البُصاق. "ربما تضغط عليهم للحصول على المزيد من المال منهم".

أطلق العمدة نخيراً، رافضاً الإصغاء.

"أو إن أحدهم قد قام بذلك من دون معرفتك؟".

"أنا العمدة. لا أحد يقوم بأي شيء في هذه القرية من دون إعلامي. مهما حدث لأولئك الناس، فلا علاقة لنا به. لهم حياتهم ولنا حياتنا. ليست مشكلتهم مشكلتنا. هل هناك أي شيء آخر؟".

في الواقع، لم يكن لديهما ما يضيفانه. طرح خليفة بضعة أسئلة إضافية، اعتبرها ساريا كثيرة، ليُظهرا للزعيم أنهما جادّان في أداء مهمتهما، أكثر من رغبتهما في الحصول على معلومات مفيدة منه. لقد اتّضح أن ابن عم السيد عطيّة تشاجر مع أحد القرويين منذ عامَين بسبب ملكيّة بعض طيور الحمام، ولكن المسألة حُلّت برضى الفريقَين. وإمام القرية قادم من فَرشوت أيضاً؛ على غرار عائلة عطيّة، و لم يكن العمدة يعلم أن علاقة ما تربط الإمام بالعائلة. هذا كل شيء. وبعد تيقّنهما من أن الحديث لن يوصلهما إلى أي نتيجة، ارتشفا ما تبقى من الشاي وأنهيا اللقاء.

"سأراقب كل ما يحصل عن كثَب"، قال خليفة بعد أن أصبحوا في الشارع، ملتفتاً إلى العمدة ورامقاً إيّاه بنظرة قاسية. "مراقبة حثيثة. إذا واجهت عائلة عطيّة مشاكل إضافية، أي مشكلة، فسأعود".

قال العمدة: "خيراً تفعل".

دخلا السيارة، وشغل ساريا المحرك.

قال خليفة وهو ينزل زجاج النافذة: "الأمر غير جدير بالعناء، يعلّمنا القرآن الكريم بصفة خاصة احترام أهل الكتاب".

هز العمدة كتفَيه وبصق ثم قال: "متى احتجنا إلى إمام جديد فسأحرص على الاتصال بك".

نظر إليه خليفة مطولاً، ومن ثم أومأ برأسه للرقيب، وغادرا.

"هل تعتقد أنه يقول الحقيقة؟". سأل ساريا عندما ابتعدا عن القرية، وسلكا الدرب الوعِرة في طريق العودة إلى الأُقصُر.

فهز خليفة كتفَيه.

"الله أعلم. بالنسبة إلى أولئك الأشخاص، يكون الكذب أسلوب حياة في الغالب، وعندما يقولون الحقيقة فهم لا يُدركون ذلك".

سحب علبة السجائر، وفكّر مليّاً، ومن ثم أعادها إلى جَيبه وتناول عِوضاً عن ذلك حبة نعناع من العلبة الموضوعة على لوحة القيادة.

"إنه مُسنّ ماكر صعب العريكة، هذا أمر مؤكّد. لم يكن ليعترف بالحقيقة سواء أكان هناك ما يعترف به أم لا...".

وشبك ذراعَيه أمام صدره، ثم أسند ظهره محدّقاً إلى المنظر الطبيعي المُقفِر.

"هناك من يفتعل كل هذه الأمور"، تمتم لنفسه. "أحدهم يريد إخراجهم من هناك".

لم يتمالك ساريا نفسه عن الابتسام. إنها مجرّد عائلة فقيرة من المزارعين تعاني من مشاكل في الحصول على الماء النظيف وسط الصحراء؛ في منطقة نائية جداً لدرجة أنه لا يمكن معرفة السلطة القضائية التي تملك حق الفصل في شؤونها. لكان أي تحرٍّ آخر في الأُقصُر قد أرجأ النظر في هذه القضية، هذا إذا لم يرمها مباشَرةً في سلة المهمَلات. فقط خليفة هو من نظر فيها بجدّية، مانحاً إيّاها كل اهتمامه كما لو أنها قضية كبرى. إنه أفضل شرطي في الأُقصُر، ولا أحد يستطيع تغيير رأي ساريا.

"أتعرف ما الذي أشعر بالرغبة به"، قال ضاغطاً على المكابح في أثناء اقترابهما من أُخدود عميق في الطريق، "كوب كبير من الكاركاداي المثلَّج".

نظر خليفة إليه، ومن ثم أشاح بنظره قائلاً:

"إنه شراب علي المفضَّل".

لم يكن ساريا واثقاً من كيفية الإجابة، لذا ركّز على القيادة متخطّياً الأُخدود، ومنطلقاً بسرعة بعد ذلك في اتجاه الغرب.

القدس

مكتب الرقيب أول ليه شاليف عبارة عن غرفة ضيّقة، لا نوافذ فيها، تقع في الطابق الأرضي لمركز شرطة داوود. وهذه الغرفة هي إحدى الغرف الست المتماثلة في ممرّ متفرّع من نفقٍ مدخل المركز. عند الساعة الحادية عشرة وعشرين دقيقة، كان يوجد في المكتب ستة من عناصر الشرطة لإيجاز القضية الأساسية، بمن فيهم ليه شاليف الجالسة وراء مكتبها بصفتها المحققة الموكلة بمهمة النظر في القضية، والتي تترأس الاجتماع.

كانت شرطة إسرائيل متفرّدة في تعيين المحققين وفقاً لمعلومات بِن - روي. ففي قوات عسكرية أخرى، يتولّى رجال التحرّي مسؤولية التحقيق الفعلي إضافةً إلى الهراء البيروقراطي المستهلك للوقت والمواكب للأعمال الميدانية: الميزانيات، ملء الاستمارات، وضع التقارير، التنسيق بين الأقسام. ولكن، لقد فُصل الدوران في إسرائيل. ففي حين يتولى رجال التحرّي مهام طرح الأسئلة، وإجراء المقابلات، ونشر المُخبِرين، تتمثل مهمة المحقق في الإشراف على الأمر برمّته وتنسيقه. فالمحقق يكون أول الحاضرين إلى مسرح أي جريمة، ويدير ملف القضية، ويوزّع المهام، ويتحمل عبء الأعمال الكتابية، ويُطلع مكتب النائب العام على كل المستجدات، وعلى المصاعب التي تواجه التحقيق بصفة أساسية. إنه دور هام ولكنه غير محبَّب، ويُعرف لاعبوه بالمحققين المُدركين للهرمية، الذين لا يفوقون رجال التحري في الرُّتبة. كان بعضهم زملاء لبِن - روي، ورجال تحرٍّ أكثر افتقاراً للنُّضج، يملكون حسّاً مُفرطاً بأهميتهم، ويظنون أنه يُفترض بهم أن يكونوا أعلى رُتبة، ولكن بِن - روي لم يكن منزعجاً. كان سعيداً فحسب بالقيام بعمله من دون التعرّض للعرقلة من قِبَل الإداريين المُمِلّين. فالمحقق هو من يدير التحقيق، ولكن التحرّي هو من يحل الجرائم في الواقع.

"حسناً، يا رجال"، قالت شاليف ضاربةً بيدها على الطاولة للحصول على انتباه الجميع. "لنتابع".

لقد استخدمت كلمة *رجال* لأنها المرأة الوحيدة في الغرفة. فبالإضافة إلى بِن - روي، كان هناك يوري بينكاس، وآموس نامير - سِفاردي رمادي الشعر لا

يمتاز فقط بكونه من قضى أطول مدة في الخدمة بين تحرّي الفريق، بل أيضاً الأكثر تذمّراً - والرقيب موشيه بيريز الذي ينسّق أي دعم مطلوب من قِبَل العناصر النظاميين.

كل هؤلاء يعرفون بعضهم بعضاً، وقد عملوا معاً عدة مرات. والشخص الإضافي صبيانيّ المظهر ونحيل، يضع نظارة ذات عدستين مستديرتين، ويعتمر قبّعة زرقاء مُحاكة خاصة بالرجال اليهود، ويجلس في زاوية الغرفة بعيداً عن الآخرين. كان يصغر أعضاء الفريق الآخرين بعشر سنوات، ويدعى دوف زيسكي، ولم يتعرّف إليه بن - روي إلا عندما قدّمته ليه للمجموعة. لقد أصبح مؤهّلاً في الفترة الأخيرة كما يبدو، لشغل منصب تحرٍّ، عِلماً أن سنّه توحي بأنه خرّيج حديث العهد لم يبدأ بحلاقة لحيته إلا مؤخراً.

"أفترض أن الجميع مؤهَّلون للعمل بسرعة على المعطيات الأساسية"، قالت شاليف، "أنثى غير محدَّدة الهوية خنقت في دار العبادة الكبرى الأرمنية".

وأومأت الرؤوس حولها. كان زيسكي قد أخرج من جَيبه دفتر مدوّنات مزركشاً، صُنِع غلافه من فرو الخُلد، وشرع بالكتابة عليه.

"سبق للعاملين في ميدان الأدلة الجنائية أن أرسلوا العيّنات الأولى إلى جبل سكوبس، لذلك سنحصل على شيء ما اليوم كما آمل. والأمر مماثل بالنسبة إلى تشريح الجثة، فقد طلبت من *أبو كبير* تتبّع الأدلة المتوافرة بسرعة".

تمتم آموس نامير: "لا يستطيع أفرام شملينغ تتبّع تبوّله بسرعة".

تجاهلت شاليف التعليق.

"نحن بحاجة إلى معلومات شخصية عن الضحية. إنها أولوية. ونحن بحاجة أيضاً إلى التفكير في حافز القاتل. يبدو أن محفظة جَيب الضحية ومقتنياتها الشخصية مفقودة، فهل هذه جريمة سرقة في المقام الأول؟ هل هناك من يحقد عليها؟ هل صودف أنها تلقّت تبعات غضب المجرم بسبب تواجدها في المكان الخاطئ، والوقت الخاطئ؟".

"أهو حافز ديني؟" سأل بِن - روي. "فقد كانت وسط دار عبادة كبيرة بالرغم من كل شيء؟".

"هذا ممكن"، أجابت شاليف، "ممكن تماماً. في هذه المرحلة كل شيء ممكن. أيّاً يكن رجلنا...".

"أو امرأتنا".

كان ذاك صوتَ زيسكي الهادئ، والمهذّب، والمخنَّث. إنه صوتُ شخص غير سوي يصيح، فكّر بِن - روي في سره. لفت الرجل الأنظار؛ لقد تشاطر زملاؤه هذا التخمين.

"قد يكون القاتل امرأة"، أضاف زيسكي رافعاً نظره عن دفتر المدوّنات. "لا نعرف بعد إذا كان رجلاً. ليس بعد".

وأطلق بينكاس وبيريز ابتسامة رضى عن النفس، وبدا آموس نامير كما لو أنه على وشك الانفجار غضباً.

"ما الذي تتحدث عنه؟ انطلاقاً مما سمعتُه، يفوق وزن الضحية مئتَي كيلوغرام. كيف يمكن لامرأة...".

"هذه وجهة نظر جيدة"، قالت شاليف طالبةً من نامير التزام الهدوء. "في هذه المرحلة، علينا طرح كل الخيارات. إذاً، أيّاً يكن رجلنا أو امرأتنا، فهناك إمكانية قوية لارتكاب جريمة أخرى. علينا التحرك بسرعة أيها السادة. ليس الأمر سهلاً مع اهتمام نصف الفريق بقضية مقتل الطالب، ولكن علينا إنجاح الأمر".

لم يقل أحد أي شيء. فالموارد في الكيشل تتم الاستفادة منها على الدوام إلى أقصى حدّ. إنه واقع الحياة، وقد اعتادوا الأمر.

"هل من جديد بالنسبة إلى الكاميرات الأمنية؟". سأل موشيه بيريز.

كانت هناك أكثر من 300 كاميرا مثبَّتة في مختلف أنحاء المدينة القديمة؛ ممكنةً الشرطة من مراقبة كل شيء يحدث في المدينة التي تبلغ مساحتها كيلومترَين مربَّعين. وكلما ارتُكبت جريمة، أي نوع من الجرائم، تكون الملاذ الأول لأي تحقيق.

"صوّرت الكاميرا الموجودة فوق نفق بطريركية الأرمن الأرثوذكس الضحية قبل الساعة السابعة"، أجاب بينكاس. "كان هناك شخص وراءها، ولكن الصورة بدت غير واضحة بسبب المطر، ولا يمكنكم رؤية أي شيء حتى بعد تكبيرها. ربما يكون ذاك الشخص هو القاتل، وربما لا".

"ماذا عن الكاميرات المثبَّتة عند زاوية البطريركية وباب صهيون؟". قال بيريز.

"يُفترض أن تغطي مدخل المجمَّع".

"إنها بعيدة جداً"، أجاب بينكاس. "لا يمكنك رؤية أي شيء، ولا سيما مع هطول المطر. نحن نحاول معرفة وقت دخول الضحية المدينة القديمة، والمكان الذي دخلت منه، ولكن ذلك يتطلب وقتاً".

سألت شاليف: "ماذا عن كاميرات المجمَّع؟".

"كانوا لا يزالون يعاينون المشاهد المصوَّرة عندما غادرتُ"، قال بِن - روي. "تعتقد نافا أن الأمر يتطلب ساعتَين أُخريَين".

فأومأت شاليف برأسها، متلهّيةً بشريط الشارات على كنزتها الصوفية الزرقاء.

"حسناً، لنتقاسم المهام. يوري، عُد إلى شاشاتنا وجِد ما يمكنك العثور عليه. أريد معرفة كل شيء متوافر عن تحركات الضحية منذ لحظة دخولها المدينة القديمة. وعندما تصل المشاهد المصوَّرة للمجمَّع، باستطاعتك وشوارتز تفحّصها أيضاً. من الرقيب المسؤول عن مهمة المراقبة؟".

قال بينكاس: "تالمون".

"اطلب منه أن يزوّدك باثنين من رجاله. علينا الإسراع في التحقيق".

"لقد طلبتُ منه ذلكن فقال لي إنه ليس لديه عناصر احتياط".

"حسناً، اطلب منه العثور على بعض عناصر الاحتياط؛ وإلا فسيكون عليه القدوم إلى هنا للإجابة عن أسئلتي".

فابتسم بِن - روي. لقد ابتسموا جميعاً. لم تكن ليه شاليف بمستوى بيغال دورفمان بالتأكيد، وهو المحقق في قضية مقتل أحد طلاب اليشيفا، والذي يحتل المرتبة الأولى في التدخل في شؤون الآخرين. ولكن، عندما تكون في مزاج ملائم، باستطاعتها دسّ أنفها في شؤون أفضلهم.

"أنا بحاجة إلى عناصر نظاميين يتنقلون من منزل إلى منزل في المجمَّع وفي كل الحيّ الأرمني"، أضافت. "الكثير من العناصر النظاميين. موشيه؟".

قال بيريز: "سأنطلق".

"كلتزمان يطبع صوراً الآن لتتمكن من اصطحابها معك. يوري، إذا كان باستطاعتك الحصول على صور جيدة من الكاميرات، فستكون مفيدة أيضاً".

فأومأ بينكاس.

"آموس، أنت تنظر في قضايا قديمة ومُثبِطة للعزيمة. لذا، ربما كان بإمكانك العثور على أوجه شبه بينها وبين قضيّتنا الحالية، واطلب من مخبريك القيام بذلك أيضاً".

أومأ نامير برأسه.

"هل لديك علاقة مع أي أرمني؟".

"مع اثنين".

"تحدّث إليهما أيضاً. لا تعرف أبداً، ربما بلغ مسمع أحدهما شيء ما".

"لقد تحدّثت للتوّ إلى أرمني أعرفه"، قال بن - روي، واقترب إلى الأمام. "إنه يملك فندقاً وتبلغ مسمعيه كل الأخبار. قال إنه من المستحيل أن يكون أحد أفراد جاليته قد قام بأمر مماثل".

فكّرت شاليف مليّاً للحظات، ثم قالت أخيراً: "لا نزال بحاجة إلى تغطية كل الجوانب، حتى لو لم يكن حيّهم الأرمني على صلة مباشَرة بالقضية، فلا بد من أن يكون أحدهم على عِلم بشيء ما. ولكنك مُحِقّ، علينا الاحتفاظ بعقل منفتح".

رفعت الكوب عن طاولتها، وارتشفت القليل من القهوة، وترك أحمر الشفاه لطخة حمراء على حافة كوب الفلين. في العادة، لم يكن أحمر شفاه ليه شاليف يعني أي شيء لبن - روي، ولكنه لم يتمالك نفسه هذا الصباح، وتذكّر الدماء المتكتّلة حول فم المرأة.

قال هازّاً رأسه لإزالة الصورة من ذهنه: "أظن أنني سأتولى أمر الضحية".

قالت شاليف: "وهو كذلك. أريد أن أعرف من تكون؟ ومن أين هي؟ وما الذي كانت تفعله في دار العبادة الكبرى؟ كل شيء. وأريد هذه المعلومات في أقرب وقت ممكن".

تناولت رشفة أخرى، ملقية نظرةً في أنحاء الغرفة. كان الجميع صامتين ومستعدّين للمباشرة بمهامهم.

"ماذا عني؟". سأل زيسكي. كان جالساً على كرسيه وقد انحنى إلى الأمام ككلب ينتظر اصطحابه في نزهة، ويداه - الناعمتان والمماثلتان ليدَي فتاة - ممسكتان بدفتر المدوّنات.

"أنا؟". تمتم بينكاس مقلِّداً الصوت المخنَّث للشاب، فرمقته شاليف بنظرة تحذيرية.

"في الوقت الحاضر، اقصُدِ المجمَّع واطرح بعض الأسئلة. يمكنك التحدّث إلى بعض رجال الدين أيضاً. وعرّج على الرجل الذي كان في بيت الحارس ليلة أمس. لقد تقدّم بإفادة، ولكنها غامضة تماماً. عندما تُنهي ذلك، يمكنك العودة إلى هنا ومشاركة آري مهامه".

تمتم بينكاس: "بدون قُبلات".

قال بِن - روي: "تبّاً لك".

فوقفت شاليف.

"حسناً أيها السادة، لنباشر العمل. ستبالغ الصحافة في هذه القضية، لذلك أريد نتائج، وبسرعة".

وصفّقت بيدَيها، فوقفوا جميعاً، واحتكّت قوائم الكراسي بالأرض المشمَّعة بالليونوليوم. وفي أثناء خروجهم إلى الممر، طلبت من بِن - روي العودة، مشيرةً إليه لإغلاق الباب.

قال: "شكراً للصديقة". وجلس مجدداً.

كانت لليه شاليف طريقة خاصة في تكوير قبضة يدها عندما يتم الاستهزاء بها.

"لا تُضِف أي شيء يا آري. أتوقع هذا النوع من الأمور من أشخاص نياندرتاليين مثل بينكاس ونامير، ولكنني كنت آمل أن يكون رد فعلك أفضل".

"ما بالك يا ليه؟ الرجل مخنَّث. ماذا يفعل في مركز أمامي كالكيشل؟".

قالت شاليف مرتمية على كرسيّها: "يذكّرني هذا الأمر بعدد قليل من الأشخاص الذين طرحوا السؤال نفسه عني عندما قدمتُ إلى هنا للمرة الأولى".

صحيح. لقد أدى تعيين محققة في الكيشل - المحققة الوحيدة في كل الكيشل - إلى رفع عدد كبير من الحواجب، ومن بينها حاجبا بِن - روي الذي اعتبر تعيينها "تجميلاً للواجهة، واسترضاءً للفريق المؤيّد للفرص المتساوية".

قال: "الأمر مختلف".

"آه، حقاً؟".

"إنه مكان قاسٍ يتعامل مع أشخاص قساة. باستطاعتكِ التعاطي مع ذلك".

"وهو، ألا يستطيع؟".

"انظري إليه، حبّاً بالله! إنه...".

وضعت شاليف قبضتها على الطاولة قائلة:

"لا تُضِف أي شيء!". كررت. "لديّ امرأة متوفّاة وسط دار عبادة، ويجوب مريض عقلي الشوارع، ولا نملك عدداً كافياً من العناصر، ويقضّ الرئيس غال مضجعي باستمرار. إن التعاطي مع هذا الواقع يكفيني، ولست بحاجة إلى وجود دعوى قضائية على طاولتي بسبب تعرّض أحدهم للمضايقة لأنكم تكرهون... حتى إننا لا نعرف إذا كان...".

"*نوشيه كاريوت*؟".

"تبّاً لك يا آري. ما يقوم به أو لا يقوم به خارج المركز ليس من شأننا. نحن بحاجة الآن إلى أشخاص يعملون معاً على حلّ هذه القضية. كلكم".

وتمتم بِن - روي شيئاً ما.

"ماذا؟".

"لقد عبّرتُ عن وجهة نظري".

"آمل ذلك يا آري. آمل ذلك حقاً لأن الأعباء كثيرة هنا".

وقاوم بِن - روي رغبته في توجيه ملاحظة ساخرة مماثلة لملاحظة زيسكي.

"إنه يحمل شهادات جيدة من لود"، أضافت شاليف، "ومن أكاديمية الشرطة. إنها إحدى أفضل الشهادات التي قرأتُها يوماً. وهو متحمّس. وقد تقدّم بطلب خاص لتحويله إلى هنا ليتمكن من العمل على قضايا شائكة. وبما أن الكيشل لا يشتهر بانفتاحه الفكري، فهذا يدلّ على شجاعته".

ورتّبت شعرها بعناية، دائرةً حول كرسيها.

"وطلب أيضاً أن تتسنّى له فرصة العمل معك".

رفع بِن - روي نظره نحوها متسائلاً:

"ماذا يجري؟".

"ما بالك يا آري؟ لقد قرأ عن قضية شامير، وعن حريق موريستان عندما أنقذتَ تلك الفتاة العربية. إنه يحترمك. الله وحده يعرف السبب، ولكنه يحترمك. امنحِ الفتى فرصة، هلاّ فعلت. امنحه قليلاً من التشجيع".

"حسناً، حسناً"، قال بن - روي رافعاً يدَيه. "نحن صديقان حميمان".

وتوقف قليلاً، ثم أضاف:

"ولكن، ليس بذلك المعنى".

فابتسمت شاليف رُغماً عنها.

"اخرج من هنا، وأحضر لي بعض النتائج".

وقف بن - روي ثم خرج من المكتب.

"ولمعلوماتك"، صاحت، "وفقاً للأكاديمية، كان أحد أفضل طلاب كراف ماغا على الإطلاق. إنه فتى صلب العود. واحرص على الاتصال بسارة! باستطاعتك تخصيص دقيقتَين من وقتك لها حتى وإن كانت هناك قضية قتل".

ولكنه كان قد ابتعد عابراً الممر بخطى واسعة، وما كان لِيُظهِر أي اهتمام حتى لو سمعها.

فانكوفر، كندا

كلما ثمِل دوي ماكابي كان يفكر بدنيز ساندرز في قسم الموارد البشرية. وكلما فكر بدنيز ساندرز كان يحزن ويَحنق عليها بسبب عدم رغبتها في الخروج معه. وكلما حزن وغضب شعر بحاجة غير منطقية للانتقام.

في هذا الوقت - عند الساعة الثانية من بعد منتصف الليل - كان ثمِلاً جداً، وحزيناً وغاضباً جداً، وتملأه الرغبة في الانتقام بصفة خاصة. لهذا السبب، فيما كان يشقّ طريقة متلوّياً على امتداد شارع بورارد بعد سبع ساعات من احتساء الشراب في دونينز آيريش في شارع نِلسون، قرر التوقف عند مكتب دنيز ساندرز والتغوّط على مكتبها.

بدا المخطط مشوَّشاً منذ البداية. فبعد وصوله إلى البرج الإسمنتي لمبنى ديڤول غاز إند بتروليوم، دفع الأبواب الدوّارة ولكنها كانت موصَدة؛ كان يُفترض به أن

يُدرك ذلك لأن الساعة هي الثانية من بعد منتصف الليل. هذا يعني أنه يتعيّن عليه إلقاء التحية على الحراس الليليين لإدخاله، ولكن الحارس ارتاب في أمر دوِي بالرغم من امتلاك هذا الأخير ترخيصَ مرورٍ أمنياً؛ كان يُفترض به أيضاً أن يتوقع ذلك بسبب رائحته الكريهة. فكر دوِي للحظاتٍ في إنقاذ الموقف من خلال التعبير للحارس عن حاجته الشديدة لتوجيه رسالة مُلحّة عبر البريد الإلكتروني. ولكن، عندما قرر الحارس مرافقة دوِي إلى داخل المصعد، سلّم هذا الأخير بأن طاولة دنيز ساندرز ستُفلت من العقاب في هذه المناسبة الخاصة.

ورغبةً منه في الحفاظ على ماء الوجه، استقلّ المصعد إلى قسم تكنولوجيا المعلومات في الطابق السادس، وتوجّه مباشَرةً إلى مكتبه بسبب ملازمة الحارس له، وشغّل جهاز الكومبيوتر.

قال الحارس: "لا بد أن تكون رسالة مُلحّة هذه التي تريد إرسالها عبر البريد الإلكتروني". وكان أكثر بدانة من دوِي.

"أون – هوه"، أجاب دوِي، وقد حرِص على إبقاء المحادثة في حدّها الأدنى لأنه كان يدمج الحروف على نحو سيّئ.

حدث توقف قصير قبل أن تصبح الشاشة زرقاء وتظهر نافذة الولوج. أدخل اسم المستخدم وكلمة المرور – deweysbigcock69 – محاولاً التفكير بشخص ما يمكن أن يوجّه له رسالة عبر البريد الإلكتروني. ولسبب ما، رفض الجهاز التفاصيل التي أدخلها، فحاول مجدَّداً، مفترِضاً أنه أدخل معلومات غير صحيحة، ولكنه واجه النتيجة نفسها.

سأل الحارس الذي كان يقف بمحاذاته بطريقة مزعجة: "هل من مشكلة يا سيدي؟".

"لا مشكلة"، تمتم دوِي محاولاً الولوج للمرة الثالثة من دون جدوى.

فكر مليّاً، ومن ثم أزاح كرسيّه وانحنى إلى الأمام كي يحجب أكبر قدْر ممكن من الشاشة عن نظر الحارس، وأدخل بسرعة اسم المستخدم وكلمة المرور الخاصّين بدنيز ساندرز لأنه أحد الأشخاص الثلاثة في المكتب الذين يحقّ لهم معرفة هذه المعلومات، وهو يلج بريدها الإلكتروني كل يوم ليتحقق مما إذا كانت تراسل كفين سبزنيك ذاك.

كان دوِي قد بدأ يصحو، بعد أن حاول دخول بريدها الإلكتروني من دون جدوى، ثم حاول مجدداً ولوج بريده من دون أن يُفلح في ذلك. عندها، أدخل المعلومات المرتبطة بكفين سبزنيك، والتي كان يعرفها أيضاً. ولكنه أخفق في ولوج بريد سبزنيك الإلكتروني أيضاً؛ ممّا أثار دهشته لأن سبزنيك أحد المديرين الثلاثة.

"هل يمكنك الرجوع إلى الوراء قليلاً؟". قال ملوِّحاً بيده للحارس الذي كانت تفوح منه رائحة توابل كريهة بدأت تثير غيظه. "يحدث أمر ما هنا وأحتاج إلى...".

حكّ رأسه، وحدّق إلى صف الساعات المعلَّقة على الجدار المقابل، والتي تشير كل منها إلى الوقت في أحد مكاتب الشركة البالغ عددها 16 والموزعة في مختلف أنحاء العالم. إنها الثانية واثنتان وعشرون دقيقة في سان دييغو، والرابعة واثنتان وعشرون دقيقة في هيوستن، والخامسة واثنتان وعشرون دقيقة في نيويورك. الوقت لا يزال مبكّراً، أو متأخراً، ليكون الموظفون متواجدين في مكاتبهم؛ يعتمد ذلك على طريقة نظركم للأمور. ولكنها العاشرة واثنتان وعشرون دقيقة في لندن، لحسن الحظ. توقف قليلاً، ومن ثم التقط الهاتف وطلب رقماً، وطلب من مقسّم هاتف لندن أن يَصِله بريشي تافرنر في قسم تكنولوجيا المعلومات، فحصل على بريد صوتي.

"هل تواجه أي مشكلة يا سيدي؟". كرر الحارس، وكان لا يزال بإمكان دوِي اشتمام رائحة التوابل الكريهة التي تفوح منه بالرغم من تراجعه خطوات قليلة إلى الوراء. فلم يُجب دوِي، واتصل برانكفورت، وحصل أيضاً على بريد صوتي. ومن ثم اتصل بمكتبهم في تل أبيب في الشرق، وكان المدير هناك يتناول الغداء.

"ألم يعُد أحد يعمل؟". تمتم متفحّصاً لائحة خطوط الهاتف الفرعية، ثم اتصل بدِلهي حيث تمكّن من التحدث إلى شخص يدعى بارفيند ويتكلم كأحد أولئك الممثلين في الأفلام القديمة بالأسود والأبيض، وقد أخبره أنهم يعانون أيضاً من مشاكل إدارية. وثبُت له أن المكاتب في كوالا لامبور، وهونغ كونغ، وأديلايد تواجه المشاكل نفسها. كان دوِي قد بدأ برؤية الأمور بشكل واضح، فأخرج هاتفه المحمول، وبحث في لائحة أرقام الهاتف عن رقم محدَّد، وطلبه. إنه الرقم الأرضي لرئيسه دايل سبرينغر. وبعد إحدى عشرة رنّة رفع سبرينغر السمّاعة.

"آلو".

كان الصوت أجش وغير واضح كما لو أنه صادر من تحت الماء.

"دايل، دوِي يتكلم. مُنعتُ من ولوج النظام".

"أونه. ماذا؟".

"مُنعتُ من ولوج النظام".

وحدث انقطاع مُربِك عن الكلام:

"حسناً، ما الذي يتعيّن عليّ القيام به حيال ذلك؟ اذهب ونَم على مِقعد في الحديقة العامة. يا الله! ماذا...".

"مُنعتُ من ولوج النظام"، قال دوِي مقاطعاً إيّاه، "أنا في المكتب، وقد مُنعتُ من ولوج النظام على غرار سبزنيك والمديرين في مكاتبنا الأخرى. ولكن ولوج المواقع العادية للموظفين يجري بشكل عادي، كما يبدو. فمواقع المسؤولين الإداريين هي التي لا يمكن ولوجها".

ساد الصمت في الطرف الآخر، ومن ثم سُمع صوت حفيف ملاءات كما لو أن أحدهم ينهض من فراشه. وعندما تكلّم سبرينغر مجدداً بدا مستيقظاً أكثر من ذي قبل.

"تشخيص".

لقد اعتاد رئيسه على الدوام استخدام كلمات أساسية مماثلة. كان يشاهد ستار تريك بكثرة.

قال سبرينغر بصوت أعلى: "تشخيص". وقبل أن يتمكن دوِي من الإجابة تابع سبرينغر كلامه: "تمّ التسلل إلى ملفاتنا".

"يبدو الأمر كذلك بالتأكيد".

"آه! تبّاً".

بعد ذلك، بدأ كل شيء يتحرك بسرعة، بسرعة كبيرة. فقد حضر سبرينغر إلى مكتبه بعد عشرين دقيقة - وأزرار *بيجامته* بادية من تحت سروال الجينز - يتبعه دفق متواصل من المديرين، بمن فيهم آلن كومينز، المدير التنفيذي الأول في ديبوِل. يعمل دوِي في الشركة منذ ثماني سنوات، ولم يسبق له أن دخل غرفة بطول غرفة كومينز. وها هو يجده منحنياً فوق كتفه مباشَرةً، وبشكل مفاجئ.

"أَخرجهم"، صاح بغضب، "أَخرجهم الآن".

"ليس الأمر بهذه السهولة يا سيدي"، قال سبرينغر. "يبـــدو أنهـــم يتمتعـــون بحقوق إدارية حصرية".

"ما الذي يعنيه ذلك؟".

"إنهم عباقرة بشكل أساسي"، قال دوِي الذي ذُهل بصـــفائه الـــذهني بعـــد احتسائه الكثير من الشراب. "إنهم يسيطرون على النظام بأكملـــه. باســـتطاعتهم القيام بما يحلو لهم، والذهاب حيثما يشاءون، والاطّلاع على كل ما يريدون".

"مواقع خاصة؟ بريد إلكتروني؟".

"كل شيء".

"أيمكنهم الاطّلاع على بريدي الإلكتروني؟".

فأومأ دوِي برأسه.

"يا الله!".

"لا بد من أن يكونوا قد تسللوا إلى ملف سام المركزي من خلال أحد أجهزة الوَصْل"، قال سبرينغر الذي بدا شديد التأثر. "وكل ما يتبقى عليهم القيام به هـــو نسخه، وتسيير برنامج للحصول على كلمة المرور...".

بدأ آلن كومينـــز يتنفس بصعوبة شديدة.

"هجوم قاموسي، خوارزمية، جدول قوس قُزَح...".

ضرب كومينـــز الطاولة بقبضته، مُخطئاً بالكاد لوحة مفاتيح دوِي.

"اصمُت! اصمُت وأخرجهم".

"لا يمكننا إخراجهم يا سيدي"، قال دوِي الذي كان يستمتع بما يحدث كما لو أنه مشارك في فيلم سينمائي يعالج قصة خيالية علمية، أو ما شابه. وهو يلعـــب دور البطل. بروس ويليس، لا بل ستيفن سيغال. "إنهم يسيطرون على النظام. كل ما يمكننا القيام به هو إغلاق النظام بأكمله".

"قُم بذلك إذاً!". صاح كومينـــز. "إذا حصلوا على جزء من...".

وكفّ عن الكلام، مُطبِقاً قبضته وفاتحاً إيّاها.

"سيدي، بإغلاق النظام سيتوقف كل موظف في كل مكتب من مكاتب الشركة في كل مدينة عن العمل"، قال سبرينغر. "أي إنه فعلياً ستتوقف الشركة عن العمل".

فشدّ كومينـــز شعره قائلاً وهو يتأوّه:

"سوف نخسر الملايين... الملايين".

أصبح هناك عدد كبير من الأشخاص في المكتب، والذين تجمعوا حول طاولة دوِي، بمن فيهم حارس الأمن الذي تفوح منه رائحة التوابل الكريهة، والذي لازم مكانه من دون أي سبب واضح، ووقف وراء كومينـــز مباشَرةً، واضعاً يده على سلاحه الجانبـــي. ولزم الجميع الصمت.

"سيدي، ماذا أفعل؟". سأل دوِي.

كان كومينـــز لا يزال يشدّ شعره.

"سيدي؟".

مرّت ثوانٍ قليلة أخرى، ومن ثم أطلق المدير التنفيذي الأول في ديبوِل للغـــاز والنفط تنهيدة استياء، وأنـــزل يدَيه قائلاً:

"قُم بذلك. أغلق النظام بأكمله".

مدّ دوِي يده في اتجاه الهاتف. وفي أثناء قيامه بذلك، تحـــوّل لـــون الشاشـــة الموجودة أمامه من الأزرق الباهت إلى الأحمر البرّاق. وحدث توقّف مؤقت، ثم ظهر بعد ذلك دَفق من الحروف البيضاء المتحرّكة كأوراق في مهبّ الريح قبل أن تشكّل خمس كلمات ملأت الشاشة بأكملها: أهلاً وسهلاً بكم في جدول أعمال نمِسيس.

فابتسم دوِي ماكابـــي رغماً عنه. أيّاً يكن الأمر الذي يحدث هنا، فهو أسوأ ممّا كان ينوي القيام به.

القدس

كان تحرّو الكيشل يشغلون مجموعة قذرة من الغرف في الطابق الأرضـــي؛ في الجهة المقابلة للمركز ولمكتب ليه شاليف. لقد اعتادوا شغل الطابق الأول، ولكـــن المركز أُعيد تنظيمه قبل عامَين ووُضعوا هنا، وقد حملهم ذلـــك علـــى الشـــعور بانـــزعاج كبير.

يتم ولوج القسم عبر باب منخفض في الناحية الخلفية للمبنى. توقف بِـــن - روي هناك قليلاً لإجراء اتصال هاتفي آخر بسارة. وتمكن هذه المرة من التحـــدث

إليها. كانت لا تزال مستاءة منه بسبب عدم بقائه في أثناء المسح بالموجات فوق الصوتية؛ عِلماً أنها كانت تشعر باستياء أقل مما كانت عليه في السابق، وتمكّنا من إجراء حديث منطقي وهادئ أحدث فَرقاً، وعَلِم نتيجة لذلك الحديث أن كل شيء يسير بشكل جيد مع الطفل - *البوبو* كما أسمياه - وحُدِّد موعد آخر لإجراء المسح قبل مرحلة الولادة؛ بعد ستة أسابيع. و لم يتكبّد بِن - روي عناء تدوين التاريخ والوقت؛ فسوف تُذكّره سارة بهما مرة واحدة في الأسبوع على الأقل حتى حلول الموعد.

قالت: "ورجاءً، لا تنسَ ما نحن في صدد القيام به غداً".

كان الغد يوم سبت، يوم إجازته، وكان قد وعدها بالقيام برحلة إلى شقتها في ريهافيا - شقتهما - لتزيين غرفة الطفل.

أجاب: "بالطبع، لن أنسى".

"لا أثق كثيراً بكلمة *بالطبع* خاصتك بطريقة ما".

فهمهم بِن - روي، مُقِرّاً بأنه لا يمكن التعويل عليه. وساد الصمت، ثم ما لبثت سارة أن كسرته حين تكلّمت مجدداً؛ ولكن بصوت أكثر رِقّة وحميمية.

"هناك الكثير من الحركة اليوم. يبدو الأمر كما لو أن *البوبو* يقوم *بشقلبات* جانبية".

فابتسم بِن - روي، مُسنِداً ظهره إلى إحدى وحدات تكييف الهواء المثبَّتة في الجدار بجانب باب قسم رجال التحرّي.

قالت: "كانت ملامح الوجه شديدة الوضوح في أثناء عملية المسح: الأنف، العينان. أعتقد أنه سيكون وسيماً جداً، أو إنها ستكون جميلة جداً".

"مهما كان جنس المولود فسيشبه والدته، والشكر لله".

سُمعت همهمة سعيدة في الجانب الآخر، وظن للحظات أنها ستقول شيئاً لطيفاً. ولو قامت بذلك، لبادلها بشيء لطيف. لقد مرت مدة على قيامهما بذلك للمرة الأخيرة. غير أنها طلبت منه الانتباه لنفسه، وعدم نسيان عملية التزيين، والاتصال بها. فحدّق إلى الهاتف وتنهّد. وبالرغم من تظاهره بالصرامة - *سابرا* نموذجي، كما تذكّره شقيقته باستمرار - تبقى الحقيقة أنه يفتقد سارة؛ ليس لأنها تحمل طفله فقط، بل لأنه يتساءل أحياناً عما إذا كان يُفترض بهما المحاولة مرة

أخرى. وخطرت له لفترة قصيرة فكرة مجنونة وعابرة حول شراء بعض الأزهـار، ودخول السيارة، والتوجّه إليها، ومفاجأتها. ولكن هذه الفكـرة لم تـدُم سـوى ثانيتَين. بعد ذلك، وضع هاتفه في الجعبة الصغيرة، هازّاً رأسه كما لو أنه يقول: "لا تكن سخيفاً لعيناً". وتوجّه إلى المكتب.

عندما وصل بِن - روي إلى مكتبه وشغّل جهاز الكمبيوتر، كـان المصـوِّر الفوتوغرافي بيبـي كلتزمان قد أنـزل صوراً للمرأة المتوفّاة على النظام، وهنـاك العشرات منها مُلتقَطة من زوايا متنوعة، والكثير من الصور للوجه. لم تكن جميلـة بالتحديد، ولكنها لم تكن مباراة في فن التصوير الفوتوغرافي. فاختار مـن بينـها صورة واحدة نسخها، ثم وضعها في ملف مستقلّ.

كان هناك شيئان مرتبطان بالقضية على لوحة المفاتيح بدلاً من وجودهمـا على الشاشة لإبهاج المشاهد، أحدهما رسالة قصيرة من دوف زيسكي تحمل رقم هاتفه المحمول - "إذا كنتَ بحاجة إليه" - والآخر كيس من النايلون لحفظ الأدلة يحتوي على قُصاصة ورقِ استمارة المكتبة التي عثر عليها في جَيب بنطال الضحية في دار العبادة الكبرى. واضعاً رسالة زيسكي جانباً، ركز بِـن - روي انتباهـه على الورقة.

لكان أمراً رائعاً لو أنها تحمل معلومات كالتاريخ، والعنوان، واسم الكاتـب، واسم القارئ. كانت الاستمارة فارغة، ولا يمكن استخدامها كطـرف خَـيط في القضية. إنها الشيء الوحيد تقريباً الذي حصلوا عليه في هذه المرحلة، قلّبها بِـن - روي في يده، فيما كان صوت مرشده الأمين، القائد لِفي يتردد في رأسه، كما هو الحال في بداية كل تحقيق. "بناء القضية، يا آري، أشبه بإعداد سلسلة معدنية. تبدأ بجريمة و*إلماعة*، ومن هناك تجمع الحلْقات؛ حلْقة بجانب الأخرى، وإلماعـة بجانـب الأخرى، وتزداد السلسلة طولاً حتى توصلك إلى مرتكب الجريمة الذي تبحث عنه. أَعِدّ سلسلة جيدة فتُعِدّ قضية جيدة".

كانت قصاصة ورقِ استمارة المكتبة هي الحلْقة الأولى في السلسلة. وتسـاءل بِن - روي عما ستؤدي إليه.

سأل حاملاً الورقة: "هل لدى أحدكم أي فكرة عن المكتبة التي تعود لها هذه الاستمارة؟".

كان هناك تحرّيان في الغرفة: يوني زِلبا وشيمونِ لوتزيتش، وكلاهما يعملان على قضية طالب اليشيفا المطعون. لم يسبق للوتزيتش أن قارب مكتبة في حياته. أما زِلبا فكان مولَعاً بالقراءة، لذا دنا من بِن - روي وتناول الورقة منه.

"المكتبة الوطنية"، قال من دون تردد. "في جيفات رام".

فأومأ بِن - روي برأسه، واستعاد قُصاصة الورق، وبحث عن المكتبة في محرّك البحث غوغل، وحصل على رقم الهاتف. وبعد أن تمكن من التحدث إلى شخص ما في قسم خدمة القراء، شرح له الوضع وأرسل له عبر البريد الإلكتروني صوراً للمرأة المتوفّاة، محذّراً الرجل في الجانب الآخر من الخط بأن المنظر مريع. وبعد دقيقتَين، ورده بريد إلكتروني يتضمن الاسم: ريفكا كلينبرغ. إنها إسرائيلية يهودية كما يبدو وليست أميركية بالتأكيد. فدوّن بِن - روي الاسم على عَجَل. لقد حصل على الحلْقة الثانية.

"إنها صحافية"، قال أمين المكتبة المدعوّ آشر بلوم والذي بدا مصدوماً بصفة خاصة؛ ولم يكن ذلك أمراً مفاجئاً نظراً لحالة الجثة. "لقد استخدمت المكتبة عدة مرات. أظن أنها تعمل لصالح هآرتس".

لم يعنِ له الاسم شيئاً لأن بِن - روي كان من قرّاء صحيفة يديعوت أحرونوت. ودوّن معلومة أخرى. الحلْقة الثالثة.

"هل تملك تفاصيل عن هويّتها؟".

تمكن أمين المكتبة من إعطائه عنوان كلينبرغ، وبريدها الإلكتروني، ورقم هاتف منزلها، وتاريخ ولادتها؛ كانت في السابعة والخمسين من عمرها. ولم يكن لديهم رقم هاتفها المحمول؛ "عِلماً أنها كانت تحمل هاتفاً محمولاً. كنا نجد أنفسنا على الدوام مضطرين إلى الطلب منها أن تتوقف عن استخدامه في قاعة المطالَعة". ولا تفاصيل عن أقرب الأنسباء.

سأل بِن - روي: "هل تعرف متى زارت المكتبة للمرة الأخيرة؟".

"كانت هنا في الأسبوع الماضي بالتحديد"، قال الرجل. "رأيتها في قاعة المطالَعة العامة قرب الأجهزة التي تقرأ الميكروفيلم. لا أعرف إن كان أي من زملائي قد رآها بعد ذلك. يمكنني السؤال إن أردت".

قال بِن - روي: "قُم بذلك رجاءً".

خربش للحظات، ومن ثم قال: "هل لديك أي فكرة عما كانت تبحث عنه على الأجهزة التي تقرأ الميكروفيلم؟".

أخبره الرجل أنها كانت تقرأ شيئاً ما من أرشيف الصحف المتوافرة في المكتبة كما يبدو، وهو ما لم يتمكن الرجل من تحديده. إنه أمر مؤسف. فأمور صغيرة مماثلة تؤدي إلى حلّ القضايا. وأعطاه بِن - روي رقم هاتفه المحمول كي يتصل به إذا تبادر إلى ذهنه أي شيء آخر، ثم شكره وأنهى المكالمة. في الممر، كان آموس نامير واقفاً عند جهاز تبريد الماء. فدوّن بِن - روي اسم الضحية والتفاصيل الأخرى على ورقة منفصلة، ثم لوّح له للاقتراب، وسلّمه المعلومات. وفي أثناء قيام نامير بنقل المعلومات إلى بقيّة أعضاء الفريق، اتصل بِن - روي بناتان تيرات، وهو صحافي صديق في هآرتس. كانا قد أدّيا خدمتهما العسكرية معاً وبقيا على اتصال، متبادلَين المعلومات؛ فيمرّر بِن - روي القصة غير المألوفة لتيرات، فيما يزوّد تيرات بِن - روي بمعلومات سرّية كلما توافرت له، وكان يقوم بذلك مرة واحدة على الأقل في الأسبوع. "نحن نحرّر إلا أننا أفضل في قواعد اللغة". اعتاد تيرات أن يُمازح بِن - روي.

"بالتأكيد أعرفها"، قال تيرات عندما نقل له بِن - روي اسم ريفكا كلينبرغ. "كانت تعمل هنا. لماذا تسأل عنها؟".

تردد بِن - روي، فقد كان يعلم أن ليه شاليف والرئيس غال يأملان بمرور القليل من الوقت قبل أن تنشر الصحافة القصة. فالصحافة ستنشر هذه القصة بالتأكيد، وتَصوّر بِن - روي أنه من الأفضل له نقل المعلومات لشخص حساس حيال متطلبات التحقيق. لذا زوّد صديقه برؤوس أقلام تكفي لوضعه في الصورة.

قال تيرات: "كان الأمر محتمَل الحدوث على الدوام كما أفترض، إذ لم تكن ريفكا محبوبة بالتحديد".

"ماذا تعني؟".

"حسناً، كانت صحافية تحقيقية جدّية. وأعني أنها كانت *جدّية* فعلاً. فقد كشفت النقاب عن الكثير من الأمور التي لم يشأ الكثير من الناس كشف النقاب عنها، وبات لديها عدد كبير من الأعداء. أعداء يتمتعون بالنفوذ".

انحنى بِن - روي إلى الأمام وقد أُثير فضوله.

"هل لديك أي أسماء؟".

فأطلق تيرات ضحكة ساخرة وهو يجيب:

"من أين تريدني أن أبدأ؟ هل تتذكر فضيحة العمـولات الخفيّـة المرتبطـة بمِلتزِر؟".

كيف لبِن – روي أن ينسى؟ لقد هيمنت هذه الفضيحة على العناوين الرئيسة قبل سنوات قليلة. فقد كانت لجنة تخطيط تابعة للكنيست تختلس عشرات الملايين من الشيكِلات من ائتلافِ شركاتِ بناء تدعمه روسيا. ووفقاً لمعلوماتـه، كـان رؤساء العصابة يمضون الوقت في ماسياهو.

"أهي من كشفت عن ذلك؟".

"إنها هي بالتأكيد. وأطلقت قوات الجيش النار على القصة. وسرقت حمـاس شرائط الفيديو. وموّل الليكود الفضيحة. كما كشفت عن طعام الأطفال المسـمَّم ذاك في العام... متى حدث ذلـك... 2003. واللائحـة طويلـة. فلسـطينيون، مستوطنون، يمينيون، يساريون، أجهزة أمنية، سياسيون... كانت تـثير الفضـائح كلما تسنّت لها الفرصة. صِدقاً، يذهلني بقاؤها على قيد الحياة طوال هذه المدة".

"هل تعلم بأي تهديدات قتل محدَّدة؟".

أطلق تيرات مجدداً تلك الضحكة الساخرة.

"قبل يومَين فقط. لقد سجّلها مقسِّم الهاتف. أعتقد أنها سجّلت رقماً قياسياً في تلقّي التهديدات بعد التهديد العشرين الذي وردها إثر افتضاح أمـر *تزاديـك* ماكر في ميا شاريم".

نقر بِن – روي على الطاولة بقلمه. كان يأمل في تضييق نطـاق التحقيـق. فانطلاقاً مما يقوله تيرات، يبدو أن نصف إسرائيل والأراضي المحتلة تملـك الحـافز لقتلها.

"قلتَ إنها كانت تعمل في هآرتس".

"أجل، لقد فصلوها منذ عامَين، أو ربما ثلاثة أعوام".

"السبب؟".

"حسناً، كانت بادئ ذي بدء كابوساً مزعجاً ولا يمكن العمل معهـا. فقـد كانت فظّة، ومولَعة بالجدال، وتثور ثائرتها إذا بدّلوا كلمة واحدة مما تكتبه. نحـن

نتحدث عن الصراخ هنا. ولم تكن هناك مشكلة ما دامت تخدم مصالحهم. ولكن في أواخر أيامها...".

"لم تعُد تخدم مصالحهم؟".

"في حالتها، بات الأمر أشبه... بإسعاد المتآمرين".

تردد صدى إشعال قدّاحة في الجهة الأخرى، تلاه صوت استنشاق عميق؛ لا بد أن تيرات قد أشعل إحدى *سجائره الجديدة*.

"ابتكرنا هذه العبارة في مهنتنا"، وأضاف بعد توقف قليل. "*متعقّب الظل*. في الأساس، يبدأ الصحافي بالكشف عن مؤامراتٍ وإخفاءِ الحقائق في كل مكان. والقصة ليست مجرد قصة، فهناك أمر ما وراءها على الدوام، مؤامرة ما، بعض المُكر. من الواضح أنك بحاجة إلى القليل من ذلك إذا أردتَ أن تكون صحافياً جيداً. وصدّقني، كانت ريفكا جيدة تماماً عندما كانت أصغر سنّاً بالتأكيد. ولكن، في حين يميل معظمنا إلى استهلال الاستقصاء لرؤية ما الذي سيوصلنا إليه، كانت ريفكا تبدأ استقصاءها من الافتراض بأنها ستكشف النقاب عن مكيدة مزلزلة، ومن ثمّ تعمد إلى البحث عن الوقائع التي تدعم افتراضها. كانت تبدأ بطرح أفكار غامضة، وتنشر قصصاً مهمة. أعني، كلنا نعرف مدى حُمق ليبرمان، ولكنني لا أستطيع أن أتخيّله مترئساً مؤامرة لتفجير الحرم الشريف".

انطلاقاً من خبرته مع اليمين الإسرائيلي المتطرف، لم يكن بِن - روي واثقاً من هذا الأمر، ولكنه احتفظ برأيه لنفسه.

"على كل حال، قررت القوى أنها أصبحت عائقاً فطردتها. لقد شعرتُ بالأسف لرحيلها. شعر الكثيرون منا بذلك. ربما كانت صعبة المِراس، ولكنها عندما تزاول عملها تكون كصاروخ إكزوسيت. لا أحد يعالج قصة في العمق على غرار ريفكا كلينبرغ. لم تكن تعرف الخوف قط. قد يقول بعضهم إنها شَجاعة انتحارية".

كان بِن - روي يدوّن الملاحظات.

سأل: "أين ذهبتْ بعد مغادرتها؟ هل ذهبت إلى صحيفة أخرى؟".

قال تيرات: "لم يوظّفها أحد. لم تذهب إلى إحدى الصحف الوطنية الكبرى بالتأكيد. إنها عبء كبير. آخر ما سمعتُه عنها هو أنها تعمل لصالح مجلة في يافا تُعنى

بإدارة الحملات. تعرف هذا النوع من الأمور؛ فهي مجلة جديرة بالعناء، اليسار، آلاف النسخات المُباعَة".

"هل لديك اسم؟".

"انتظر قليلاً".

سُمعت ثرثرة في أثناء قيام تيرات بطرح السؤال في مختلف أنحاء المكتب. ومرّت أكثر من دقيقة قبل أن يعود إلى متابعة كلامه.

"تدعى *ضمير أمّة*، مما يحملني على الظن بأن تقديري الشخصي لما يتعلق بالنسخات المُباعة تفاؤليّ قليلاً. يقع مكتب المجلة في ريهوف أولِيْ تزيون".

زوّد بِن - روي بعنوان ورقم هاتف، وباسم محرر المجلة أيضاً: موردخاي يارون.

"وإذا كنت تبحث عن أقرب أنسبائها، فأنا على ثقة تامة بأن هذا النسيب غير موجود. فقد انتحر والداها بتسمم بالغاز؛ وهذا أمر محزن يدعو للسخرية قليلاً نظراً إلى أنهما نجَوَا من الحرب العالمية الثانية. لقد نَشرتْ مقالة عن ذلك، ولهذا السبب ربما كانت شديدة التمسك بالوقائع".

"هل لديها أشقاء أو شقيقات؟ شريك؟".

"لم أسمع بوجود أيّ منهم. أتذكّر أنه كانت لديها هرّة".

وطلب منه بِن - روي إطلاق بعض بالونات الاختبار علّه يتمكن من الحصول على معلومات إضافية. وبعد أن اعتبر أنه بات لديه مقدار كافٍ من المعلومات التي تمكّنه من متابعة التحقيق، قرّر إنهاء المكالمة الهاتفية.

قال: "أَعلمني بأي شيء آخر قد تتوصل إليه".

"وأنتَ أيضاً أَعلمني بأي تطورات مثيرة للاهتمام".

فشكره بِن - روي وأنهى المكالمة. وبعد دقيقة، اتصل به تيرات مجدداً.

"هناك أمر واحد قد يكون أو لا يكون على صلة بالموضوع"، قال. "بعد مغادرة ريفكا بوقت قصير، أتذكّر أنني كنت أتبادل أطراف الحديث مع يوسي بلمان، نائب المحرر، فقال لي إنه من بين كل تهديدات القتل التي تلقّتها، كان هناك تهديدان فقط يُقلِقانها في الواقع. تلقّت هذَين التهديدَين قبل سنوات قليلة، لذلك قد لا تكون هناك على الأرجح أي صلة، ولكن...".

قال بِن – روي: "تابع".

"أحدهما موجَّه من قِبَل مستوطني الخليل. كانت قد نشرت مقالاً عن مجموعة تابعة لهم من الشرطة الأهلية تقوم بإطلاق النار على سيقان أطفال عرب في الليل. فحصلوا على عنوان منزلها، وشرعوا بإرسال حقائب مليئة بطلقات نارية ولحم متعفّن إليها. إنها موطن باروش غولدشتاين، لذلك عليك أخذ هذا النوع من الأمور بجدّية".

كان بِن – روي يدوّن بعض الملاحظات.

"والآخر؟".

"وُجّه إليها بعد فضيحة مِلتزِر مباشَرةً. كان هناك بعض الروس الذين دفعوا الملايين كرشى لقاء حصولهم على مجموعة كبيرة من تعهدات البناء، ولكن ذلك لم يتحقق قط بسبب مقالة ريفكا. إنهم *الروسكايا مافيا*، كما يبدو. وانتشر خبر قيامهم بالتخطيط للتخلص منها، وقد أخافها هذا الأمر كثيراً. حدث ذلك قبل أربع سنوات، فلماذا انتظروا حتى الآن؟ كما قلتُ، قد لا تكون هناك أي صلة، ولكنني أعتقد أن الإشارة إلى ذلك قد تكون جديرة بالعناء بأي حال".

أنهى تيرات المكالمة الهاتفية تاركاً بِن – روي محدقاً إلى الأوراق أمامه. كانت سلسلة الحلْقات تزداد طولاً، وبدا الأمر أكثر تعقيداً.

الأُقصُر

بعد وقت الغداء، عاد خليفة وساريا إلى الأُقصُر ودخلا المدينة من الشرق عبر طريق المطار. وفي أثناء انتظارهما أمام إشارات المرور عند ملتقى شارعَي الكَرنَك والمطهَري، فتح خليفة بابه فجأةً وخرج.

قال: "أراك في المركز، هناك من أريد التحدث إليه".

أغلق الباب بقوة، وعبَر شارع الكرنَك. وبعد خمسين متراً، استدار ودخل ما بدا لساريا أشبه بمتجر حلوى صغير، وخرج بعد دقائق قليلة حاملاً كيساً ورقياً. كان محمد ساريا قد غادر منذ مدة، وتحولت إشارات المرور من الضوء الأحمر إلى الأخضر، ومن ثم إلى الأحمر.

تغيّر *كل شيء*. هذا ما كان خليفة يفكر فيه كلما توجّه إلى وسط المدينة في هذه الأيام. *لم يبقَ أي شيء على حاله*.

لقد تغيّرت مصر بالطبع مع رحيل مبارك وقدوم حكومة جديدة. ولكن الأُقصُر كانت قد بدأت تحوّلَها الخاص قبل مدة طويلة من قيام ثورة كانون الثاني/يناير بتحويل مظهر السياسة الوطنية. فالمدينة التي كانت ذات مرة خليطاً عشوائياً من مبانٍ مكسوّة بالغبار وشوارع تغصّ بحركة المرور بسبب سوء التخطيط المديني - أو بالأحرى غياب التخطيط - شهد مظهرُها الخارجي إصلاحات راديكالية في السنوات القليلة الماضية. لقد أراد محافظ المنطقة إضفاء طابع عصري عليها، وهذا ما حصل عليه من دون اللجوء إلى عصر النفقات. فوُسّعت الطرقات، وثُبّتت أنظمة متطورة لتنظيم حركة المرور، وسُوّيت مبانٍ قديمة بالأرض وأُنشئت مبانٍ جديدة مكانها. لقد هُدم القصر الشتوي الجديد الضخم زهري اللون والمؤلف من ثماني طبقات، ورُصف ميدان *أبو الحجاج*، وأُعيد تصميم متنزّه الكرنَك الرَّحب، وخُفِّض كورنيش النيل بأكمله إلى مستوى النهر وحُوِّل إلى منطقة للمشاة.

والأكثر إثارة من كل شيء إزالةُ مبانٍ من رقعة مستديرة وواسعة من المدينة بين الكرنَك في الشمال ومعبد الأُقصُر في الجنوب - على امتداد ثلاثة كيلومترات تقريباً - ممّا كشف عن الجادّة الاحتفالية التي تقوم على جانبَيها تماثيل *أبو الهول*، والتي كانت تصل المعابد ببعضها في الأزمنة الغابرة. ومن المباني العديدة التي تمّت التضحية بها لإفراغ هذه الرقعة الواسعة مبنيان يحملان لخليفة معاني خاصة: المركز القديم للشرطة بجانب معبد الأُقصُر، والمجمّع السكني الإسمنتي أغبر اللون حيث كانت عائلته تقيم.

لم يكن فقدان المركز ذا أهمية كبيرة بالنسبة إليه. فبالرغم من كل شيء، لقد قام ببعض الأعمال غير السارة هناك. ومن جهة ثانية، كان فقدانه منزله مدعاةً لتعاسة غامرة. ستة عشر عاماً من الذكريات والزمالات، والضحك والدموع، والفرح والألم هُدمت كلها كي تتمكن مجموعة من الغربيين مفرطي الوزن من التقاط صور فوتوغرافية لمشهد جميل. لقد أحب خليفة على الدوام آثار بلده، ولو لم تحمله الحاجة إلى المال على دخول سلك الشرطة لانتهى به الأمر بالتأكيد بالعمل

في مصلحة الآثار الفنية القديمة. وها هو يشعر، وللمرة الأولى في حياته، بالاستياء من تلك الآثار. آلاف الأشخاص أُجبروا على مغادرة موطنهم، وقُلبت آلاف الحيوات رأساً على عقِب، ولكن لأي سبب؟ بسبب صف من تماثيل *أبو الهول* المستخرَجة بطريقة غير ملائمة، ونصفها نسخ إسمنتية طبق الأصل. إنه جنون؛ جنون السلطة. وكما هو الحال على الدوام في مصر - وفي كل مكان - أولئك الذين لا يتمتعون بأي نفوذ يدفعون الثمن.

استدار سالكاً شارع توت عنخ آمون الضيّق الذي تقوم على جانبه دار عبادة سانت مريم للأقباط الأرثوذكس، والذي ينتهي عند مساحة ترابية واسعة مليئة بقُمامة مبعثَرة. وتمتد جادّة *أبو الهول* مسافة طويلة إلى اليمين واليسار كما لو أنها جرح بعمق ستة أمتار يخترق قلب المدينة، أو حفرة خلّفها تحطّم طائرة ضخمة. والمساحة الترابية إحدى النقاط العديدة على امتداد الجادّة التي لم يتم تنقيبها بعد، ممّا يجعل منها جسراً أرضياً لعبور الأُخدود. توجّه خليفة إلى شارع أهمِس، ومرّ بجانب مبنى متداعٍ ذي طلاء متقشّر، ومصاريع محطَّمة، ورمز نصارى قبطيّ فوق بابه. وهناك لافتة على الجدار كُتب عليها: "جمعية السامري الصالح للأطفال المعوقين". فصعد الدرَجات الأمامية ودخل المبنى.

في الداخل، كان هناك فتى يجلس في الرَّدهة على دراجة نارية من طراز دايون. ساقاه طويلتان نحيلتان، وظهره مُحدَودب، وهو يتأرجح إلى الأمام والوراء مُزمجراً كصوت المحرك. فمدّ خليفة يده إلى داخل كيسه الورقي، وأخرج لوح شوكولاته، وسلّمه إيّاه.

"أبحث عن دميانا"، قال. "دميانا بركات".

تأمّل الفتى لوح الشوكولاته، ومن ثم انزلق عن الدراجة النارية من دون أن يقول أي كلمة، وأمسك بيد خليفة واصطحبه عبر باب إلى داخل غرفة جلوس كبيرة. كان هناك المزيد من الأولاد؛ بعضهم يجلسون على كراسٍ مدَولَبة، وبعضهم الآخر على الأرض، فيما تمدد آخرون بفتور همّة على الأرائك وهم يشاهدون رسوماً متحركة على شاشة تلفاز قديم بالأسود والأبيض. وهناك شاب جالس إلى طاولة يُطعم طفلاً لم تكن لديه ذراعان.

"هل يمكنني أن أساعدك؟".

"أبحث عن دميانا".

"إنها هناك في الداخل". وأومأ الشاب في اتجاه باب في الجانب البعيد للغرفة.

أعطاه خليفة الكيس الورقي، وطلب منه توزيع محتوياته على الأولاد، ثم توجّه إلى الباب، وكان الفتى محدودب الظهر لا يزال ممسكاً بيده. دفع خليفة الباب المفتوح جزئياً بعد أن قرعه. وكانت هناك امرأة نحيلة، رمادية الشعر، تضع حول عُنُقها قلادة ذهبية يتدلى منها رمز النصارى الديني، وتجلس مُسندةً مِرفقَيها إلى طاولة كبيرة عليها أغراض مبعثَرة، ورأسها بين يدَيها. فرفعت نظرها، وبدت عيناها حمراوَين وراء نظارتها ذات الإطار الذهبي.

"يوسف"، قالت مُرغِمةً نفسها على الابتسام. "يا لهذه المفاجأة الجميلة!".

"هل هذا وقت سيِّئ؟".

"في الوقت الحاضر، الوقت سيِّئ على الدوام. ادخل، ادخل".

رفعت نظارتها، ومسحت عينَيها، وتوجهت نحو خليفة. ودخل الفتى معه.

"حِلمي، لماذا لا تخرج وتلعب على دراجتك النارية".

تشبّث الفتى بيد خليفه، وأُرغمت المرأة على الالتفاف وراء الطاولة لفصل يده عن يد خليفة بلطف.

"هيا أيها الفتى الصالح. اذهب وقُم بمغامرة ما".

وقبّلت يده واصطحبته إلى غرفة الجلوس، ثم أغلقت الباب وراءه.

"ماذا أعطيتَه؟". سألت فيما كانت تعود لتجلس وراء الطاولة.

"لوح شوكولاته".

فابتسمت.

"إنه يحب الأشخاص الذين يعطونه أشياء، ويتعلّق بهم. رجاءً، اجلس. هل نُحضر لك شاياً؟ قهوة؟".

"أنا بخير، شكراً"، قال خليفة، واضعاً الكرسي أمام الطاولة. "آسف على تطفّلي".

"لا تكن سخيفاً. تُسعدني رؤيتك. تُسعدني رؤيتك على الدوام. مرّ وقت طويل".

تعود معرفة خليفة بدميانا إلى زمن بعيد. فإحدى أولى قضاياه بعد تعيينه في الأُقصُر وانتقاله من مسقط رأسه الجيزة، تناولت المجموعة القبطية في المدينة، وتمّ اختيار دميانا لتكون صلة الوصل بينهم. فبالإضافة إلى إدارتها شؤون جمعية *السامري الصالح* وست منظمات خيرية أخرى، ترأست المجلس البلدي، وحررت صحيفة صغيرة متعلقة بالمجموعة. ولو كانت لدى أيّ شخص آخر معرفة مستفيضة ومعمَّقة بالعالَم القبطي أكثر من دميانا بركات، لالتقاه خليفة.

"كيف حال زينَب؟". سألت.

"بخير"، أجاب. "أفضل بكثير. إنها...".

وتردد غير واثق مما إذا كان باستطاعته إضافة أي شيء آخر. لم يكن يفكر بأي شيء آخر كما يبدو، فاكتفى بالإيماء برأسه وغيّر الموضوع.

"هل من جديد عن دار العبادة؟".

"ما زلنا نناضل، عِلماً أن النتيجة محتومة. السؤال هو متى، وليس إذا".

فعلى غرار منزل خليفة القديم، ومركز الشرطة القديم، والعديد من المباني الأخرى، حُدِّد موعد لهدم دار عبادة سانت مريم من أجل جادّة *أبو الهول*.

"على الأقل، هذا المكان آمن"، قال.

"ليس لمدة طويلة".

ورفعت ورقة.

"رسالة من مكتب المحافظ. إنهم يخفّضون التمويل إلى النصف، ويمكن القول إنهم يقفلون مؤسستنا. باستطاعتهم العثور على المال لإحداث حفرة في الأرض بطول ثلاثة كيلومترات، ولكن لأجل الأطفال العاجزين...".

رفعت نظارتها، ومسحت عينَيها مجدداً.

"ذلك الفتى الذي أحضرك إلى هنا، حِلمي، أمضى حياته هنا. لقد عثر عليه بعض المتطوّعين عندما كان لا يزال طفلاً. تركه والداه قرب مكب للنفايات، هل تصدّق ذلك. ماذا سيفعل؟ أين سيذهب؟".

وبدأ صوتها يتهدّج.

"يا له من عالم قاس!"، تمتمت. "يا له من عالم قاس لا يرحم! ولكنك تُدرك ذلك، أليس كذلك يا يوسف؟".

قال خليفة: "أجل، أُدرك ذلك".

ونظرا إلى بعضهما للحظات. وبعد ذلك، تنهّدت بعمق، ووضعت الرسالة جانباً، ثم بسطت راحتَي يدَيها على الطاولة، وبدت جدية فجأةً.

"على كل حال، أنا واثقة أنك لم تأتِ إلى هنا لتُصغي إلى مِحَني. بماذا يمكنني أن أخدمك؟".

بدّل خليفة جلسته على نحو غير مريح. فبعد ما أخبرته به للتوّ، بدا له من غير الملائم أن يطلب منها المساعدة وسط هذه الضائقة التي تمر بها. غير أنها قرأت ما يفكر فيه وابتسمت.

"ما بالك يا يوسف؟ يعرف أحدنا الآخر منذ مدة طويلة. أَفصح عما يجول في خاطرك".

"ليس الأمر بتلك الأهمية"، تمتم. "باستطاعة ذلك...".

"يوسف!".

"حسناً، حسناً. أردت أن أسألك عن شيء له علاقة بالأقباط".

وضربت الطاولة بيدَيها.

"هاتِ ما لديك".

"تصل كل الأخبار إلى مسمعيك. هل سمعتِ مؤخراً بأي نشاط معادٍ لهم؟ هجمات؟ تخريب؟".

"يتعرّض الأقباط للهجمات على الدوام. تعرف ذلك على غراري. في الأسبوع الماضي، تعرّض شخص في ناغ حمادي...".

"ليس في مصر الوسطى"، قال مقاطعاً إيّاها، "بل في هذه الأرجاء. في منطقة الأُقصُر".

فضاقت عيناها.

"لماذا؟ هل حدث شيء ما؟".

فأخبرها خليفة عن المُزارع ومياه البئر المسمَّمة.

قال: "لقد سُمِّمت مياه ابن عمه أيضاً، يعتقد المزارع أن الفاعل شخص ما من القرية المجاورة، ولكن العمدة أنكر أي معرفة له بالأمر. كنت أتساءل فقط عما إذا كانت مشكلة محلّية أم جزءاً من مخطَّط أوسع".

أسندت ظهرها لاهيةً برمز النصارى الديني الصغير المتدلي على صدرها. وكانت مروحة قديمة مدلاّة من السقف تدور بتكاسل فوقهما، مبعثرةً الحرارة في الغرفة ليس إلا.

"لم أسمع بأي شيء"، قالت بعد فترة طويلة من الصمت، "هناك الكثير من التوتّر في الشمال كما تعلم. ولكن، طالما كانت الأمور هنا هادئة تماماً، والحمد لله. كان هناك ذلك الشيخ الذي اعتاد إلقاء العِظات في القرى، عمر أيّاً كان اسمه...".

قال خليفة: "... عبد الكريم".

"هو نفسه. لقد اعتاد إثارة المشاكل باستمرار، عِلماً أن معظم عِظاته مناهضة للساميّة وليس للنصرانية، كما أذكر. وقد وقع حادث منذ شهرَين، فقد رُمي ماسح أحذية في النيل. كان قُبطياً، ولكنني أعتقد أن للأمر علاقة بالمال أكثر منه بالدّين".

وبعد ذلك، لزمت الصمت متحسسةً رمز النصارى الديني بأصابعها. وشرع فتى بالبكاء في الخارج، منتحِباً بصوت أجش بدا كما لو أنه يهزّ المبنى بكامله.

قالت أخيراً: "في الواقع، لا أستطيع التفكير في أي شيء. نحن أقليّة، ولذلك نكون متيقّظين باستمرار، ولا سيما بعد تفجير الإسكندرية، وأعمال الشغب في إيمبابا. ولكن، حتى الآن لم نواجه أي مشاكل مماثلة لتلك التي حدثت في أماكن مثل فَرشوت. ولم نواجه أعمال عنف بالتأكيد. هناك مسلمون لا يريدون الاختلاط بنا، وأشخاص من مجتمعي لا يريدون الاختلاط بالمسلمين، ولكن الجميع، بصورة عامة، يتعايشون بشكل جيد. وتبادُل النظرات غير الودّية من حين لآخر هو أسوأ ما يحدث. صحيح أن دار عبادتنا ستُهدَم، ولكنهم يجرفون مساجد أيضاً، لذلك لا يمكننا إلقاء اللوم على عدم التساهل الديني".

قال خليفة: "من يديرون شؤون مدينتنا هم الأغبياء دون سواهم".

"وهناك أمر آخر".

قُرِع الباب، وأقحم الشابُ الذي كان خليفة قد رآه من قَبْل رأسَه داخل الغرفة، وقال لدميانا إنه يتوقّع حضور موظفين من بنك مصر خلال دقائق.

قالت شارحة: "نحن نتقدّم بطلب للحصول على قَرض. وأنـــا أشـــك في أن نحصل عليه، فلقد خذلتنا كل المصارف الأخرى. ولكن علينا المحاولة. آسفة، عليّ اختصار هذا اللقاء".

فلوّح خليفة بيده قائلاً: "عليّ العودة إلى المركز".

وقفا وخرجا إلى قاعة الجلوس. كان النحيب صادراً عن الطفل الذي لم يكن يملك ذراعين، والذي أُسند إلى إحدى الأرائك كما لو أنه دمية كـــبيرة فقـــدت أطرافها. *إنها فتاة*، فكر خليفة في سرّه؛ عِلماً أنه لم يكن باستطاعته التأكـــد مـــن ذلك. توجهت دميانا إليها، وحملتها من صدرها، وتحوّل البكاء علـــى الفـــور إلى نشيج مكتوم. فهدهدت الطفلة، ثم سلّمتها إلى الشاب، وواكبت خليفة إلى بيـــت السلّم في الخارج. كان الفتى محدودب الظهر قد اعتلى الدراجة النارية مرة أخرى، وفمه الأكبر حجماً من المعتاد ملطَّخ بالشوكولاته. وعندما رآهما، نـــزل عـــن الدراجة وأمسك بيد خليفة مجدداً.

"هل تمانعين إن طلبت منك طرح بعض الأسئلة في الجوار؟". ســـألها خليفـــة خلال عبورهما الرَّدهة إلى الباب الأمامي. "ربما سمع أحدهم بأي شيء".

"بالطبع لا. سأُعلمك بما أتوصل إليه".

توقفا عند المدخل. في الخارج، هبّت ريح فجائية ملأت الجوّ بالغبار والرمال.

"سررتُ برؤيتك يا دميانا. وآسف بشأن تمويلك".

قالت أخيراً: "لا تقلق علينا، سنتخطى المحنة. نحن في رعاية الله".

قال: "سأوجّه رسائل بالبريد الإلكتروني إلى عدد قليل من الأشخاص، وربمـــا أتمكن من مساعدتك".

"شكراً لك. ورجاءً، أبلغ زينَب أننا نفكر فيها".

وترددت، ومن ثم تقدّمت خطوة في اتجاهه قائلة:

"يوسف، أردتك أن تعلم...".

غير أنه رفع يده لإسكاتها، وأفلت يده الأخرى من قبضة الفتى، وأنـــزلهما إلى كفَلَيه، ثم وضعهما مجدداً على كتفَي الفتى المشوهتين قائلاً:

"هل تحب ألعاب الخفة يا حِلمي؟".

لم تَرِد أي إجابة.

"هل أُريك بعضاً منها؟".

أومأ الفتى بوهَن. فألهى خليفة الفتى بنظراته، ثم أخرج بهدوء لوح شوكولاته مارس كان قد وضعه في جَيبه ليتناوله في طريق العودة إلى المركز، ورفعه وراء الظهر المُحدَودِب.

"أبرا - كادابرا!"، همس متظاهراً بسحب لوح الشوكولاته من أُذُن حِلمي.

فضحك الفتى من شدة السرور. وكان لا يزال يضحك عندما خطا خليفة نحو الخارج، وانطلق في الشارع سَيراً على الأقدام.

القدس

أجرى بِن - روي ثلاثة اتصالات هاتفية إضافية قبل التوجه إلى شقة ريفكا كلينبرغ.

لقد اتصل أولاً *بماتزبون - أعام*، وهي المجلة التي عملت لصالحها في يافا. وتلقى المجيب الآلي الاتصال، فترك رسالة إضافةً إلى رقم هاتفه المحمول، وطلب منهم الاتصال به في أقرب وقت ممكن.

واتصل بعد ذلك بشركة طيران العال. فحقيبة السفر التي عثروا عليها في دار العبادة توحي بأن الضحية كانت في طريقها إلى مكان ما، أو عائدة من مكان ما؛ غير أنه لم يكن بالإمكان تحديد وجهتها لأن الملابس الموجودة في الحقيبة نظيفة. وكان قد عثر بين ثيابها على زوج من الجوارب الجديدة الطويلة والضاغطة؛ مما يجعل من المنطقي على الأقل المراهنة بأنها تسافر جوّاً. إذ ما كانت والدة بِن - روي لِتحلم بالسفر جوّاً من دون جواربها المانعة للانسداد الوريدي. وطُرِحت أمامه عشرات شركات الخطوط الجوّية المحتمَلة، وكان يتعيّن عليه التحقق منها كلها إذا لم يُسفر اتصاله بشركة العال عن أي نتيجة؛ ولكن من البديهي بدء التحقيق انطلاقاً منها نظراً إلى كونها شركة النقل الوطنية في إسرائيل. وتمكّن من التحدث إلى شخص ما في المكتب الرئيس لشركة الطيران، ومن شرح الوضع له، والطلب منه التحقق من قوائم الرحلات الجوّية بَحثاً عن معلومات مرتبطة بريفكا كلينبرغ.

واتصل أخيراً بدوف زيسكي، وحصل على بريد صوتي.

"زيسكي، بِن - روي يتكلم. عرفنا هوية ضحيّتنا، وأنا بحاجة إليك لتعقُّب بريدها الإلكتروني، وخطها الهاتفي الأرضي، وخطها الهاتفي المحمول. تركتُ كل التفاصيل على طاولتك".

تردّد، متسائلاً عما إذا كان يُفترض به قول أي شيء آخر، ومنْح الرجل بعض التشجيع كما طلبت منه ليه شاليف. غير أن ذاك لم يكن أسلوبَه في التعاطي مع الآخرين، وشرع بإنهاء المكالمة بعبارة "أراك لاحقاً" المقتضَبة، ولكنه أعاد الهاتف إلى أُذُنه مجدداً وأضاف:

"إضافةً إلى ذلك، عندما تكون في المجمَّع، قدّم لي صنيعاً وقُم بزيارة بتروسيان، آرمن بتروسيان. لقد تحدّثتُ إليه في وقت سابق، وهو يقول إنه لا يعرف شيئاً، ولكن القيام بمحاولة أخرى يكون على الدوام جديراً بالعناء. كُلّي رغبة في رؤية ما يمكنك الحصول عليه منه".

تردّد مجدداً، ثم أنهى المكالمة بعد أن تمتم عبارة "حظاً سعيداً"، والتقط سترته وغادر.

كانت شقة كلينبرغ تقع في مجمّع سكني عند زاوية شارعَي ها - إشكول وها - أمونيم. قامت دورية تابعة للشرطة كانت متوجهة في ذلك الاتجاه بإقلاله. ترجّل بِن - روي قبل الوصول إلى السوق، وشقّ طريقه في اتجاه قناطر مسقوفة. إنه يوم الجمعة والمكان مزدحم، والكل مندفع لتخزين المؤن قبل حلول يوم *الشّبَت*: فاكهة، خُضار، لحوم، أسماك، أجبان، حلاوة طحينية. كان كل كشك مُحاطاً بجَمهَرة من المتسوّقين، من بينهم أفراد من *الحاردي* ببذلاتهم السوداء. لقد فُجِّر المكان ثلاث مرات على مَرّ السنين، ولا تزال الحشود تَؤمّه. لِمَ لا؟ ففيه أفضل المنتجات الطازجة في القدس.

دخل مَخبزاً، واشترى حبّتَي *بوريكاس* وحبّة *سوفغانيوت*، ومن ثم شقّ طريقه عبر السوق وخرج من الجانب الآخر. وعندما وصل إلى المجمّع السكني عند أسفل ها - إشكول - مبنى غير متميِّز من ثلاث طبقات ذات شرفات تغطيها النباتات، ومقهى في الطابق الأرضي - كان الطعام قد نفد وتوقفت معدته عن القرقرة.

كانت هناك لوحة هاتف داخلي على الجدار بجانب الباب الفولاذي والزجاجي للمجمّع، وتحت *مِزوزاه* بحجم سيجار هافاني. وبعد أن مسح يدَيه بسرواله الجينز، صعد بِن - روي الدرج. كانت هناك أسماء قرب بعض الأجراس، فيما بعضها الآخر لا يحمل أي اسم. ولم يكن هناك وجود لاسم ريفكا كلينبرغ. ضغط على الزر الذي يحمل اسم "دافيدوفيتش - البواب".

"*كِن*".

كان الصوت صوتَ رجل كبير في السنّ كما يبدو.

"سيد دافيدوفيتش؟".

"*كِن*".

"*شالوم*. أنا التحرّي آري بِن - روي من مركز شرطة القدس...".

"أخيراً وصلتَ إلى هنا!".

"عفواً؟".

"لقد أجريتُ اتصالاً هاتفياً منذ أربعة أيام. *شِعِلوهيم ياعا زورا*؛ ليحمنا الله. إذا كانت الشرطة تعمل على هذا النحو فلا عجَب أن ينزلق البلد إلى حفرة مليئة بالغائط".

لم يكن بِن - روي يملك أي فكرة عما يتحدّث عنه الرجل.

"أنا هنا من أجل السيدة ريفكا كلينبرغ".

"أعرف من تكون، ليس عليك أن تخبرني!". وبدا الرجل مغتاظاً. "انتظر، سأُدخلك".

سُمع صوت طقطقة صادر من لوحة الهاتف الداخلي، ثم فُتح الباب، وكان هناك صوت جرّ قدمين في المدخل تلاه صليل الأقفال. وحين فُتح الباب الأمامي، وجد بِن - روي نفسه ينظر إلى رجل قصير القامة، في طَور الصلع، ينتعل خُفَّين صوفيَّين، ويعتمر قبّعة خاصة بالرجال اليهود. ولسبب ما، كان يضع شارة "انتخبوا شاس"، عِلماً أنه لم تكن هناك انتخابات وشيكة.

سأل بغضب: "إذاً، ما الذي أخّرك؟".

"أعتقد أن هناك خطأً ما"، قال بِن - روي. "أنا هنا بسبب...".

"التهديدات. أعرف. أنا من اتصلت بك، تذكّر. *أو فِيْ*!".

كان بِن – روي يتعرّض للمقاطعة.

"هل هدّد أحدهم السيدة كلينبرغ؟".

"ماذا؟".

"هل اتصلتَ بالشرطة لأن أحدهم هدّد السيدة كلينبرغ؟".

"ما الذي تتكلم عنه؟ *دا فوك*! كلينبرغ هي التي هدّدتني! قالت إنها ستقتلني، تلك الساقطة المجنونة! أنا البواب، وعليّ المحافظة على نظافة هذا المكان. هرّها يتغوّط على فسحة الدرَج، ولديّ كل الحق بالتذمّر. حدث ذلك في الوسط تماماً، وكان روثه بحجم قبضة يدي! لو كنت أملك مسدساً...".

قال بِن – روي: "قُتلت السيدة كلينبرغ ليلة أمس".

فأسكته هذا النبأ.

"اكتُشفت جثتها هذا الصباح. لقد عثرنا على عنوانها للتوّ".

وقف الرجل هناك وهو يطرف عينَيه، ويحرّك قدَماً تِلوَ الأخرى بشكل متثاقل.

"بحجم قبضتي"، كان ذلك كل ما تمكّن من قوله. "وسط فسحة الدرج تماماً".

شرح بِن – روي عن حاجته إلى إلقاء نظرة على شقة الضحية. متمتماً، جرّ البواب قدمَيه لإحضار المفاتيح العمومية. وعندما حصل عليها، ضغط على زرّ خاص بجهاز توقيتٍ للضوء موجود على الجدار، وواكب بِن – روي إلى الطوابق العُلوية.

قال في أثناء صعودهما: "كانت امرأة صعبة المِراس، لا أقصد التقليل من احترامها، وآسف لما حدث لها، ولكنها كانت امرأة صعبة المِراس. لم يكن يُفترض بالسكان إيواء حيوانات أليفة، فهذا الأمر مناقض لعقد الإيجار. ولكنني غضضت الطَّرْف. *أَبقيه في شقتك*، قلتُ لها. *أَبقيه في الداخل ولن أقول شيئاً*. ولكنها لم تفعل وتغوّط على فسحة الدرج. وعندما احتججت انفجرت غاضبة! ويا له من غضب! يا للسان تلك المرأة! *افعل هذا، افعل ذاك! لا تتدخل في شؤوني!* عار عليها. كانت امرأة مقيتة، ومثيرة للاشمئزاز. لا أقصد التقليل من احترامها".

بلغا الطابق العُلوي الأخير. وضغط دافيدوفيتش على زر المصباح، وتوجّه إلى باب في الطرف البعيد عن الدرج؛ مبطئاً خطواته في أثناء تقدّمه ليشير لبِن – روي إلى المكان الذي تغوّط فيه هر كلينبرغ بالتحديد.

همهم: "كان بحجم قبضة يدي".

كان للباب منظار وقفلان من طراز مورتيس، أحدهما في الوسط والآخر في مكان أعلى. تلمّس البواب القفل العُلوي وأدخل فيه مفتاحاً، ولكنه أدرك أنه المفتاح الخاطئ وجرّب مفتاحاً آخر، وشرع بإدارته.

"تمهّل".

أمسك بِن - روي يد البواب وأعاده خطوة إلى الوراء.

لقد لفت أمر ما على الأرض انتباهه. كِسرة عود ثِقاب، بطول يقلّ عن سنتمتر واحد، ملقاة على البَلاط عند أسفل الباب بمحاذاة الإطار، فانحنى والتقطها. قد لا تكون ذات أهمية. ولكن، استناداً إلى ما أخبره به ناتان تيرات، كانت كلينبرغ تملك سبباً لكي تصاب بالذُّهان الارتيابي. فخدعة عود الثقاب عند الباب حيلة كلاسيكية يعتمدها المصابون بالذُّهان الارتيابي. ثبّتوا كِسرة صغيرة من عود ثِقاب بين الباب والإطار عندما تخرجون، وإذا فُتح الباب فسيقع عود الثِّقاب، وستعلمون بوجود أحدهم في الداخل.

"هل فتحتَ هذا الباب في الساعات الأربع والعشرين الماضية؟".

صاح البواب: "هل أنت مجنون؟ بعد تكلّمها معي بتلك الطريقة؟ لم أقترب من تلك المرأة اللعينة!".

"هل يملك أي شخص آخر مفاتيح لهذه الشقة؟".

"أشك في ذلك. لقد عانيتُ ما يكفي من المشاكل لمنعها من الحصول على هذه المفاتيح. *يا سيدة كلينبرغ*، قلت لها، *أنا البواب، الأمر مذكور في العقد، يجب أن تكون لديّ مجموعة احتياطية من المفاتيح في حال حدوث حريق، أو تسرّب في الغاز، أو...*".

لم يكن بِن - روي يُصغي. فهو لم يعثر على أي مفاتيح بين أغراض الضحية، مما يعني أنه إذا قام أحدهم بدخول الشقة فهناك احتمال قوي...

سحب هاتفه المحمول واتصل بليه شاليف، وطلب منها إرسال خبراء جنائيين إلى الشقة بأسرع ما يمكن، وبعض العناصر النظاميين لأخذ إفادات سكان المجمّع. وعندما أنهى المكالمة، أخذ المفاتيح من البواب وفتح الباب بنفسه، محترِساً من عدم لمس أي شيء. وفاحت رائحة ثياب متّسخة وغير مغسولة. ورائحة روث هررة من الشقة.

"*آه فِيِّ*"، تمتم السيد دافيدوفيتش.

ظهر أمامهما ممر مُظلم مكسوّ بالفلين مع أبواب مفتوحة جزئياً من الجانبَين، وما بدا أنها غرفة جلوس في آخر الممر. كان هناك هرّ مُفرط الوزن ومرقّش جالس وسط الممر، ويوجد جرس حول عُنُقه. حدّق إليهما، ومن ثم توارى داخل غرفة الجلوس مُحدِثاً رنيناً مرتفعاً.

قال السيد دافيدوفيتش بوجه متجهّم: "يا لهذه القذارة!".

كان هناك مفتاح كهربائي على الجدار، فسحب بِن - روي منديلاً من جَيبه وضغط عليه. ألقى نظرة في أرجاء المكان، ومن ثم شكر البواب لمساعدته، ودخل وأغلق الباب. في الخارج، كان بالإمكان سماع السيد دافيدوفيتش وهو يتأفّف من الهررة وعقود الإيجار، ومن كيفية انـزلاق البلد إلى حفرة مليئة بالغائط.

ما صدم بِن - روي على الفور هو مستوى الأمن في الشقة. فبالإضافة إلى منظار الباب والقفلَين من طراز مورتيس، كانت هناك في الجانب الداخلي من الباب سلسلة معدنية ومزلاجان - عُلوي وسُفلي - وقارورة رذاذ جَوز الطيب على رف قرب الباب. من الواضح أن كلينبرغ كانت امرأة مذعورة.

عبَر الممرّ دافعاً الأبواب المفتوحة برِفق بواسطة قدمه. كان المكان في حالة من الفوضى؛ زريبة حقيقية. *إنها حالة عدم ترتيب تسببت بها المالكة*، قال في سرّه، وليست فوضى أحدثها شخص ما في أثناء بحثه عن شيء ما في الشقة؛ عِلماً أنه لم يكن واثقاً من ذلك. وفي المطبخ، وجد أطباقاً تحتوي على طعام هررة لم يتم تناولها بأكملها، وهناك روث هررة في الحمّام، وملابس مبعثَرة على أرض إحدى غرفتَي النوم، وأكداس من العلب الكرتونية في الأخرى.

كانت غرفة الجلوس - التي يتضاعف حجمها بعد أن تنفتح على مساحة إضافية؛ حيث يوجد المكتب - في حالة من الفوضى بصفة خاصة، وتكاد لا تتوافر فيها بوصة واحدة غير مليئة بأكداس صغيرة من الورق والكتب والمجلات والصحف. "كصاروخ إكزوسيت لا يرحم" هذا هو التعبير الذي اعتمده ناتان تيرات لوصف مهارات الصحافية. ويمكن قول الشيء نفسه، كما يبدو، على طريقتها في تدبير شؤون المنـزل. سيتطلب منه تدقيق النظر في كل شيء أياماً، لا بل أسابيع من عمل فريق كامل.

"زَين"، تمتم في أثناء معاينته حالة الشقة. "تبّاً".

كان هناك باب زجاجي – مع فتحة للهررة – يؤدي إلى شرفة حيث استلقى الهرّ وقد التفّ حول نفسه على كرسي منحني الظهر إلى الوراء. وتوجد طاولة بجانب الباب عليها أكداس من النسخات المصوَّرة، وقصاصات الصحف، ونشّافة جلدية الظهر، ورولودِكس، وقاموسان، ومُعجَم، وكوب من الخزَف مليء بأقلام البيرو، إضافةً إلى طابعة ومودِم. لم يكن هناك أي جهاز كمبيوتر. جلس بِن – روي القُرفَصاء وألقى نظرة تحت الطاولة. لم يتمكن من رؤية أي تمديدات سلكية تكون مُرفَقة عادة مع جهاز كمبيوتر مكتبي، مما يوحي بأن كلينبرغ كانت تستخدم جهازاً حضنياً. أجرى بحثاً سريعاً في أنحاء الشقة، ولكنه لم يعثر على أي جهاز حضني. ربما كان مدسوساً في مكان ما وأغفله، وربما كان يخضع للتصليح، أو ربما أخذه القاتل من هنا، أو من حقيبة كلينبرغ في دار العبادة. إنه يعتقد أنه أُخذ؛ عِلماً أنه لم يكن بالإمكان التأكد من صحّة ذلك.

أخرج قلمه، وبحث بواسطة عَقِبه بين الأوراق الموجودة على الطاولة كي لا يلمس أي شيء. كانت هناك نسخات مطبوعة وقليلة عن الأرمن ودار عبادة سانت جيمس؛ وهي أمور متعلقة بموضوع البحث عِلماً أن المعلومات بدت عامة، إضافةً إلى مواد مرتبطة بالبغاء وصناعة الجنس الإسرائيلية، بما في ذلك عدة كتيّبات عن هذا الموضوع بعنوان *الخط الساخن للعمال المهاجرين*. وهناك نسخات عن *الماتزبون – أعام*، وهي المجلة التي كانت كلينبرغ تعمل لصالحها، بالإضافة إلى أطلس وُضعت مؤشّرته عند خارطة لرومانيا، وخرائط منفصلة مفتوحة عن إسرائيل ومصر، وقُصاصات عشوائية عديدة عن كل ما يتعلق بالتسلل إلى ملفات الكمبيوتر، مروراً بالأوسمة العسكرية البريطانية، ووصولاً إلى عِلم النفس المرتبط بالإساءة إلى الأطفال وصَهر الذهب (هناك ثلاث نسخات متعلقة بهذا الموضوع). لقد بدت عشوائية تماماً وخالية من أي مغزى أو رابط. وإذا كانت هناك إلماعات، فلا فكرة لديه البتّة عن ماهيّتها أو عن كيفية تفسيرها. فالأمر أشبه بالبحث عن إبرة في كومة قَشّ، لا بل إنه أسوأ من ذلك: الأمر أشبه بالبحث عن إبرة في كومة قَشّ في حين أنكم لا تعرفون في الواقع كيف تبدو الإبرة.

أمضى ثلاثين دقيقة باحثاً في أنحاء الغرفة بين رفوف الكتب الممتدة من الأرض إلى السقف، وفي خزانات الملفات المحشوّة بكاملها بمزيد من الأوراق والقصاصات. ومن ثم، وبعد بحث بواسطة عقِب القلم، انتقل إلى غرفة النوم: سرير غير مرتَّب، ملابس مبعثرة على الأرض، ست قناني حبوب على خزانة تحتوي على أدراج، لوحة غير احترافية لامرأة شقراء الشعر رُسمت بالألوان المائية على ورقة زرقاء باهتة وثُبِّتت إلى الجدار بشريط لاصق.

على الطاولة بجانب السرير، كانت هناك ثلاث صور فوتوغرافية موضوعة في أُطُر بربلِكس، وهي الصور الوحيدة التي رآها في الشقة. فانحنى لإلقاء نظرة عن قُرب.

في إحدى الصور مجموعة من عشرين شابة يُطلقنَ ابتسامات عريضة أمام آلة التصوير، مُرتدياتٍ بذلات عسكرية، ومعتمرات قبّعات مزوَّدة بأغصان للتمويه؛ كنّ على الأرجح يؤدين خدمتهنّ العسكرية. كانت ريفكا كلينبرغ واقفة إلى يسار المجموعة، باسطةً ذراعها على كتف امرأة جذّابة تضع نظارة شمسية؛ نسخة أصغر سنّاً من كلينبرغ ببنيتها الجسدية الممتلئة وشعرها المتجعّد. وفي الناحية الخلفية إهداء: "إلى ريفكا العزيزة. أياماً سعيدة!".

في الصورة التالية رجل وامرأة بالأسود والأبيض واقفَين وظهراهما إلى البحر، وأحدهما ممسك بيد الآخر. كانا أشبه بالأشباح، وكانت تبدو على وجه كلّ منهما نظرة سبق له أن رآها على وجوه عدد كبير من الناجين. إنهما والدا كلينبرغ، كما افترض.

في الصورة الثالثة تظهر فتاة صغيرة في السن في الثامنة أو التاسعة من عمرها تقريباً، تُطلق ابتسامة عريضة. شعرها خروبيّ اللون مضفور، والضفيرة متدلية من مؤخر رأسها، ووجهها الشاحب مغطى بالنَّمش. وفي الناحية الخلفية كلمات مسجعة أو ما يشبه الشِّعر المكتوب بالإنكليزية أكثر منه بالعبرية وبخط طفولي مُتقَن:

سالي، كاري، ماري – جاين،
ليزي، آنا، ما اسم الأخرى؟
هانا، آمبر، ستيلا، لي،
خبّئنَني ولا تدعنَ أحداً يرى،
جِني، بِني، آليس، سو،

وراشيل فقط هي الصادقة.

ألقى بِن – روي نظرة سريعة على اللوحة المعلّقة على الجدار، وحوّل نظره مجدداً في اتجاه الصورة. هناك أمر ما في شأن الصورتَين يحمله على الاعتقاد بأنهما لا تنتميان إلى الشقة لأنهما لا تنسجمان مع ما سمعه عن ريفكا كلينبرغ. ربما يكون من الأجدى النظر إليهما من منظور معيَّن، ومحاولة اكتشاف هوية الفتاة؛ لم تكونا تبدوان على علاقة مباشَرة بالتحقيق. وبعد التحديق إلى الصورة لبرهة من الزمن، واصل مسح الشقة.

حصل على استراحته الأولى في المطبخ، في وعاء القُمامة. لقد توقّع أن يجد فيه شيئاً مفيداً، فداس على القطعة البلاستيكية أسفله بمقدّمة حذائه الرياضي ففتح الغطاء. كان مليئاً بالقُمامة حتى ثلاثة أرباعه: عبوات مشروبات غازية، مرطبان قهوة إليت، كيس مشتريات متغضّن من طراز مستر زيرول، علب تنكية فارغة من طعام الهررة، إضافةً إلى تذكرة حافلة. كان قد حرص حتى الآن على عدم لمس أي شيء كي لا يترك بصمات أو آثاراً مادّية قبل وصول الخبراء الجنائيين. ولكن الفضول أخذ منه كل مأخذ، فسحب التذكرة وفتحها. يعود تاريخها إلى خمسة أيام مضت، وقبل مقتل كلينبرغ. وهي تخصّ رحلة عودة من ميتزبي رامون، وهي بلدة في وسط النَّقَب ذات طريق مسدود لا يؤدي إلى أي مكان آخر. هل من مغزى؟ لم يكن يملك أي فكرة، عِلماً أن هناك ما أوحى له بوجود مغزى. فحدّق إلى التذكرة، ومن ثم طواها ودسّها في جَيبه.

أخيراً، دخل الغرفة الاحتياطية التي منحته الإجابة عن أمر ما كان يحيّره منذ شروعه بالبحث في غرفة الجلوس؛ غياب دفاتر المدوَّنات.

فكل صحافي التقاه يملك دفاتر مدوَّنات؛ ليس للاستخدام الفَوري فحسب، بل دفاتر قديمة أيضاً. فعلى غرار رجال التحرّي، هناك على الدوام حاجة إلى إعادة التحقق من معلومات معيَّنة كانت قد جُمعت في تاريخ سابق. كان تيرات يملك شقة مليئة بهذه الأشياء. وعاد بِن – روي في الذاكرة إلى الوراء؛ إلى انفصال تيرات عن زوجته بعد أن رمت كمية كبيرة من دفاتر المدوَّنات تلك في أثناء عملية التنظيف الربيعية.

لكنه لم يرَ أي دفتر في منطقة عمل كلينبرغ. وثبُت له في النهاية أنها موضوعة في علب كرتونية داخل الغرفة الاحتياطية على صورة ملفات مرتَّبة بخلاف الفوضى

التي كانت تعمّ بقيّة أنحاء الشقة. إنها نتاج عمل ثلاثة عقود من ممارسة المهنة. كانت هناك مئات دفاتر المدوّنات، مزوَّدة بتواريخ - بالعبرية والإنكليزية، لسبب ما - وموضوعة بحسب الترتيب الزمني للأحداث، عاماً بعد عام، حيث إنكم إذا أردتم العثور، مثلاً، على مدوَّنات مرتبطة بمقالة وُضعت في نيسان/أبريل 1999، يمكنكم الوصول إليها على الفَور. لقد استخدمت في مرحلة مبكِّرة أنواع قياسات الورق كافة: أيه4، أيه5، مزوَّدة بسطور، أو غير مزوَّدة بسطور، مقطَّبة أو مجموعة بسلك لولبي. لقد آثرت في العقدَين الأخيرين استخدام دفاتر أيه4 السوداء نفسها المزوَّدة بغلاف صلب وبسطور تفصل بينها مسافة واسعة.

من المحتمَل أن تتضمن معلومات مفيدة؛ إنه أمر مفروغ منه، ولكن استخراجها سيتطلب قدْراً كبيراً من الجهد؛ ليس بسبب وجود الكثير من الأمور فحسب، بل لأنها مكتوبة بصيغة الاختزال أيضاً. لا بد من القيام بذلك، ولكن المعلومات غير المتوافرة هي التي أقلقت بِن - روي أكثر من تلك المتوافرة. فبعد قيامه بعملية البحث، لم يتمكن من العثور على أي دفاتر مدوَّنات أو كتب تغطّي الأشهر الثلاثة الأخيرة. فقلّب محتويات كل علبة، وأعاد تفحّص غرفتَي الجلوس والنوم من دون جدوى. لقد بدا الأمر كما لو أن الحياة الصحافية قد توقفت على نحو مفاجئ قبل اثنَي عشر أسبوعاً.

كان مرشده الأمين، القائد لِفي المتمرس الذي زوّده بمعادلة التسلسل المنطقي لبناء التحقيق، قد منح بِن - روي جوهرة أخرى من حِكَمه تتناول كيفية سير الأمور في مهمة الحفاظ على الأمن: "آلام المِعدة". فآلام المعدة هي ما تشعر به عندما لا يسير أمر ما بشكل جيد خلال التحقيق في قضية ما، ولا يتلاءم مع تفاصيل الجريمة ككل. لم يكن وجود جثّة ضحية مخنوقة وسط دار العبادة الكبرى أمراً ملائماً بالطبع، ولكن آلام المعدة لم تكن بسبب الجريمة بحد ذاتها بل بسبب المفارَقات فيها؛ وغياب دفاتر المدوَّنات مفارَقة.

أما بالنسبة إلى الجهاز الحضني المفقود، فهناك تفسيرات محتمَلة. وقد أنبأته فِطرته بأن قاتل كلينبرغ قد أخذ دفاتر المدوَّنات؛ وهذا أمر يتسبب بألم جدّي في المعدة، لأن القاتل الذي يسرق معلومات مختزَلة يختلف تماماً عن القاتل الذي يخنق امرأة ويسرق محفظة جَيبها، ومفاتيحها، وهاتفها المحمول، وجهازها الحضني. إنه

انقطاع في التسلسل المنطقي للأحداث. انحنى في اتجاه إطار النافذة وحدّق إلى الخارج فوق السطوح مفكّراً. وأمضى خمس عشرة دقيقة إضافية هناك قبل وصول فريق الخبراء الجنائيين.

لازم المكان نصف ساعة إضافية، متنقّلاً في أرجاء الشقة في أثناء انكباب جامعي الأدلة ورافعي البصمات على عملهم في غرفة الجلوس. ولكنه لم يعثر على أي شيء مفيد، فتركهم في النهاية ليؤدوا عملهم، وتوجّه إلى الباب الأمامي. وعندما خرج إلى فسحة الدَّرَج، نادته فتاة من الفريق:

"لا أعرف إذا كان هذا الأمر هامّاً".

فعاد أدراجه. كانت واقفة أمام طاولة كلينبرغ، مشيرةً إلى النشّافة جلدية الظهر. عندما وقف بِن – روي أمام الطاولة قبل فترة وجيزة، كانت النشافة تحت الأوراق، ولكنه وجد الآن الأوراق جانباً.

في بادئ الأمر، لم يرَ ما كانت تشير إليه. كانت النشافة بيضاء باستثناء علامتَين أحدثهما قلم بيرو وبقعة حبر أسود. وبعد أن انحنى وتفحّص النشافة عن قُرب، رأى آثار كتابة على جانب التنشيف اللين لا بدّ أن تكون كلينبرغ قد أحدثتها في أثناء قيامها بالكتابة على ورقة منفصلة. كانت معظم الكلمات غير واضحة ومكتوبة فوق بعضها، باستثناء كلمة واحدة تكرّرت مراراً وتكراراً، وظهرت في ثمانية أماكن مختلفة على الأقل من النشافة: فوسغي.

"كانت تضغط على القلم في أثناء الكتابة كما يبدو"، قالت الفتاة. "وكما تعلم، يحصل هذا عندما تفكّر بأمر ما يزعجك حقاً".

فوسغي.

"هل تعني لك شيئاً؟". سأل بِن – روي.

فهزت رأسها.

"وأنت؟".

هزّ بِن – روي رأسه أيضاً. ليست كلمة بالعبرية بالتأكيد. وأخرج دفتر مدوّناته، وكتب الكلمة، وحدّق إليها للحظات، ومن ثم هز كتفَيه، ووضع الدفتر في جَيبه، وتوجّه إلى الباب الأمامي.

نادى من فوق كتفه: "حاولي العثور على منزل للهرة".

الأُقصُر

كان خليفة يعرف ثلاثة أثرياء فقط.

أحد هؤلاء هو صديق طفولته، وقد حقق نجاحاً في صناعة المواقع على الوِب. والأخرى روائية أميركية من أصحاب الملايين أقام معها علاقة عابرة في أثناء زيارتها الأُقصُر بحثاً عن سلسلة بوليسية متعلقة بشرطة الأُقصُر (فكرة مثيرة للسخرية!)، وصديقه الثالث هو صِهره حُسني.

في طريق عودته إلى المركز بعد لقائه دميانا بركات، مرّ في وسط المدينة فتوقف عند مقهى للإنترنت، وكتب رسالتَين للصديقَين الأوّلَين، شارحاً لهما المشاكل المالية التي تعاني منها صديقته، وسائلاً إيّاهما إن كان بإمكانهما تقديم المساعدة. لم يشعر بالارتياح في أثناء قيامه بذلك، فقد كان رجلاً معتدّاً بنفسه، ولم يعتَد طلب المساعدة من أحد؛ ولا سيما المساعدة المالية. غير أنه لم يستطع إخراج صورة الفتى محدودب الظهر من مخيّلته، وشعر بأنه يتعيّن عليه القيام بأمر ما.

لم يتكبّد عناء الاتصال بحُسني. فصهره نائب رئيس أكبر شركة زيوت صالحة للأكل في مصر، ويُعرَف عنه على نطاق واسع بأنه أكثر بُخلاً من واضعي المَلاط بين أحجار الهرَم الكبير.

أرسل الرسالتَين عبر البريد الإلكتروني، ثم غادر المقهى، وجاب كورنيش النيل، محاولاً اتخاذ قرار في شأن التوجّه إلى مركز الشرطة الجديد في العوّامايـة – وهو مبنى حديث نُقلوا إليه جميعاً بعد هدم المركز القديم – أو العودة إلى المنزل ببساطة.

في النهاية، لم يقُم بأي من الأمرَين. كان من المتوقع لرئيسه، كبير المفتشين عبدول بن الحسَني، أن يُلقي إحدى محاضراته الطويلة والمُملّة عن العصرنة بعد الظهر – "مصر الجديدة، الأُقصُر الجديدة، مركز جديد، قوة شرطة جديدة!" – ولكن بإمكانه غضّ الطَّرْف عنها. وإذا عاد إلى المنزل، فسيضطر للإصغاء إلى ثرثرة شقيقة زينَب وزوجة حُسني التي وصلت من القاهرة لتمضية اليوم عن التبرّج والتسوّق وأحدث الشائعات التي تتناول المجتمع الراقي؛ وتبقى مواعظ الرئيس أفضل في هذه الحالة.

لذلك، صعد بدلاً من ذلك على متن زورق مزوَّد بمحرك وعَبَر النيل، واستقلّ سيارة أجرة إلى دير *المدينة*، وتسلّق الجُرف الصخري، ماراً أمام مقدَّم القُرن وصولاً إلى *مقعد التفكير*.

كان يقصد ذلك المكان على الدوام عندما يريد أن يكون بمفرده مع أفكاره، وبعيداً عن كل شخص وشيء. إنها حافّة صخرية ناتئة عند أسفل فلق قليل العُمق تقع عند منتصف الطريق إلى أعلى القمة، وتُشرف على مناظر مدهشة في وادي الملوك، وفي اتجاه الشمال بعيداً؛ حيث يتوارى النيل والأراضي الزراعية والصحراء تدريجياً عن الأنظار وراء ضباب شاحب خالٍ من أي ملامح. لقد اكتشف ذلك قبل سنوات عندما وصل إلى الأُقصُر، ودأب مذاك الحين على تسلّق القمة ونزولها، ولا سيما في الأشهر الثلاثة الأخيرة عندما كان يشعر بحاجة خاصة إلى الهدوء والوحدة.

كان التسلّق شاقّاً ويتطلب جهداً مضاعَفاً في حرّ بعد الظهر، فوصل إلى المقعد لاهثاً. وبعد أن تسلّق المنحدر المكسوّ بالغبار بصعوبة، توجّه إلى الحافّة متأرجحاً، وجلس في ظل الفلق، شابكاً ذراعَيه أمام صدره ومحدّقاً بالمناظر الطبيعية بقلب خافق.

عندما انتقلوا إلى مدينة الأُقصُر، كانت الأمور تتبدّل في هذا الجانب من النيل أيضاً؛ ربما ليس بالسرعة نفسها، أو بالطريقة المثيرة نفسها، ولكنها تتبدل بالرغم من ذلك. فلقد جُرفت في القُرنة القديمة كل المساكن المتداعية المبنيّة بآجر طيني، والتي كانت متعنقدة كالفطر حول التلال الواقعة عند سفح الكتلة الجبلية الطيبيّة، فانتقل سكانها إلى منطقة سكنية خالية من أي ميزات في الطريف شمالاً (تمكّن من تمييزها بعيداً؛ صفوف مجمَّعات سكنية منظَّمة تماماً أشبه بثُكنات عسكرية منها بالمنازل). وأصبحت الكتلة الجبلية نفسها، غير الطويلة جداً والتي تحتفظ بمظهرها المعهود كما في الأزمنة الفرعونية، منقَّطة بمجموعة من مراكز الحراسة الإسمنتية القبيحة المزوّدة بمولدات كهرباء، وصواري هوائيات للإرسال، وأنوار كشّافة. وفي الأسفل، في وسط وادي الملوك تماماً، توضَع اللمسات الأخيرة على متحف جديد وضخم، وعلى مركز للزائرين دام بناؤهما عامَين بتمويل من شركة أميركية متعددة الجنسيات، ومن المنتظَر أن يتم افتتاحهما بعد أسبوعين، وهو ما أثار حفيظة الرئيس حسن؛ إذ ستحضر نصف الحكومة للاحتفال بالافتتاح كما يبدو.

لقد تحوّلت كل الأماكن والمناظر والنقاط المرجِعية المألوفة التي يعرفها خليفة إلى شيء مختلف، وكان يتحوّل معها أيضاً؛ باستطاعته الشعور بذلك. فيوسف خليفة الذي ضحك منذ ستة عشر عاماً بسرور بالغ عندما اكتشف المقعد للمرة الأولى لم يعُد يوسف خليفة الجالس هنا الآن.

الكل يتغيّر مع الوقت بالطبع، ولكن الجوهر لا يتغيّر: المبادئ. لقد شعر خليفة بأن مبادئه قد تغيّرت وتصدّعت. ففي هذه الأيام، يكاد لا يعرف نفسه في بعض الأوقات؛ فمزاجه متقلب، وتنتابه سَورات غضب لا يمكن تفسيرها، ويشعر غالباً بالعجز والإحباط والذَّنْب.

لم يسبق له قط أن كان على هذه الحال. ففي الماضي، كان يتدبّر أموره على الدوام أيّاً تكن الأعباء التي تضعها الحياة في طريقه - وهناك الكثير منها - ويأبى السماح لجَور العالم بأن يُفقده اتزانه. ولكن، في هذه الأيام... هناك منازلهم المهدَّمة، وبئر عطيّة المسمَّمة، وتمويل دميانا، والفتى الصغير على الدراجة النارية؛ تُحدِث مصاعب الحياة اليومية التي تعامل معها ذات يوم بشكل عاطفي شقوقاً أكثر عُمقاً في أساساته المتصدّعة كما يبدو. فكل شيء يتداعى. لقد تساءل أكثر من مرة عما إذا كان هذا الأمر هو سبب شروعه بالقدوم إلى هنا على نحو متكرر. لم يكن حضوره لأجل السلام والسكون، بل لأجل الارتياح البسيط النابع من الشعور بالتواجد وسط الصلابة والرسوخ.

فتح غطاء قنينة مياه البَرَكة التي اشتراها في أثناء قدومه، وتناول جرعة، ومن ثم أشعل سيجارة ورجع إلى الوراء في اتجاه الناحية الداخلية للفَلق طلَباً لمزيد من الظل. وإلى يساره، كان باستطاعته رؤية بقايا الآجر الطيني على أعلى تلة تحوت، وإلى يمينه الأطلال المبعثَرة للمحطة التي كان عمال المدافن القدماء يتوقفون عندها في أثناء سَيرهم اليومي من وادي الملوك وإليه. وكانت الجوانب الخارجية للصخور من حَوله مغطاة بكتابات للعمال، وبعشرات النقوش التي تشير إلى لحظات وجيزة منقضية في الحياة كان كل جزء منها حقيقياً على غرار اللحظات التي يعيشها ولا تلبث أن تضيع في التاريخ.

إحدى هذه الكتابات موجودة بجانب رأسه تماماً: الثلاثي حورمحِب، ورعمسيس الأول، وسيتي الأول، كانت هذه الكلمات منقوشة على الحجر الجيري

الأصفر من قِبَل شخص أطلق على نفسه اسم كاتب آمون، بِيْ، ابن إيبو. وهناك رقم موضوع داخل دائرة – 817 أيه – خلّفه وراءه عالِم الآثار المصرية التشيكي ياروسلاف سيرني الذي اكتشف الكتابات في خمسينيات القرن الماضي.

كان خليفة يتساءل على الدوام عن ابن إيبو. من هو؟ أي نوع من الأشخاص كان؟ هل كان لديه أشقاء وشقيقات؟ وزوجة وأطفال؟ هل كان سعيداً أم حزيناً؟ قوياً أم ضعيفاً؟ صحيح الجسم أم مريضاً؟ هل عاش طويلاً أم مات في سنٍّ مبكّرة؟ أسئلة عديدة. لقد ضاع الكثير، وتحوّلت حياة بأكملها إلى خربشات قليلة على الناحية الخارجية للصخور الجيرية.

لقد صدمته في الآونة الأخيرة حقيقة سرعة زوال الأشياء. إنه الخلوّ من أي معنى. كان بِيْ ذات مرة كائناً بشرياً حيّاً يتنفس على غراره، وحياته قصة مليئة بالمواقف المثيرة، والأحاسيس، والعلاقات، والتغيّرات. كان طفلاً، وغدا فتى، ومن ثم رجلاً، وربما أصبح بعد ذلك زوجاً ووالداً. لقد عاش حياة كاملة، وفجأةً انتهت القصة وكل ما تبقّى هو هذا النقش الصغير على الصخر. مجرَّد أجزاء، هذا كل ما تبقّى. وأيّاً يكن عدد الأجزاء التي تجمعونها، وأيّاً يكن عدد الكلمات والجمل والمقاطع، لن تتمكنوا أبداً من معرفة القصة. لن تعرفوا أبداً ذلك الشخص تماماً، ولن تتمكنوا من إعادة التاريخ إلى الوراء. لقد زال كل شيء.

أخذ نفساً عميقاً من سيجارته، وأخرج محفظة جَيبه. كان هناك جَيب بلاستيكي داخلها، وداخل الجَيب صورة فوتوغرافية يظهر فيها خليفة، وزوجته زينَب، وأبناؤهما الثلاثة: بطّاح، علي، يوسف الصغير؛ إنهم *فريق خليفة* كما كانوا يدعون أنفسهم على سبيل المُزاح. لقد التُقطت الصورة في هذا المكان بالذات قبل عامَين، حين تجمّعوا بجانب بعضهم وحمل خليفة آلة التصوير أمامهم، مما يفسّر انحراف الزاوية قليلاً. كانوا يضحكون جميعاً، ولا سيما خليفة الذي كان يضع "علي" في حضنه ويبذل جهداً للمحافظة على توازنه. وبعد التقاط الصورة مباشَرةً، انـزلق مع علي على المنحدَر تحت المقعد مما جعلهم يضحكون أكثر فأكثر.

لقد ضحكوا كثيراً حينها.

حدّق إلى الصورة، ومن ثم لامستها شفتاه ووضعها جانباً، وأسند ظهره وحدّق إلى المناظر الطبيعية القاحلة من حوله.

عندما عاد بن - روي إلى الكيشل، كان دوف زيسكي جالساً في غرفة المكتب، ومنحنياً فوق الطاولة كما لو أنه *تلميد حاخام* من نوع ما. كان يوني زِلبا وشيمون لوتزيتش قد خرجا، لذلك كانا بمفردهما.

رمى سترته وجلس قرب الطاولة وسأله: "هل هناك أي تقدُّم؟".

أجاب زيسكي: "ليس تقدّماً بكل معنى الكلمة، ستة أُفُقي، شخص شاذ".

ففتح بِن - روي فمه، كان على وشك أن يسأله عن سبب قيامه بممارسة لعبة الكلمات المتقاطعة، في حين أن هناك جريمة قتل يتعيّن حلّها. وبعد إدراكه أن الأمر مجرَّد مُزاح، همهم بطريقة تنمّ عن التسلية. ربما يبدو الفتى مثل دانا إنترناشونال، ولكنه يملك على الأقل روح الدُّعابة. إنهم بحاجة إلى ذلك في شرطة إسرائيل. فمن دون روح الدُّعابة، سينتهي بهم الأمر متأفّفين وسَئِمين ومنغَّصين مثل آموس نامير. ومراكز الشرطة ليست المكان المناسب لذلك.

"إذاً، إلى أين وصلنا؟".

دار زيسكي حول كرسيّه، وفتح دفتر مدوَّناته المجلَّد بفرو الخُلد.

"تتبّعتُ الاتصالات الهاتفية التي أجرتها الضحية بواسطة هاتفها المحمول. لقد حصلتْ على خطها من بيليفون. يقومون بتحليل الاتصالات التي أجرتها في الأشهر الستة الأخيرة، ويجري الأمر نفسه بالنسبة إلى خطها الأرضي بيزيك واتصالاتها على البريد الإلكتروني. يبذل الجميع قُصارى جهدهم قبل حلول *الشَّبت*، لذلك لن يبقى أي شيء معلَّقاً حتى يوم الأحد".

تأفّف بِن - روي، ولكنه لم يُلِحّ للحصول على نتائج مبكِّرة. هكذا تجري الأمور في هذا الجزء من العالم؛ حتى التحقيقات المتعلقة بجرائم القتل تُعلَّق يوماً واحداً للاستراحة.

"ماذا عن المجمَّع؟". سأل ممرّراً نظره على العناوين الرئيسة الموجودة في صحيفة *يديعوت أحرونوت* التي اشتراها في أثناء عودته من شقة كلينبرغ: فضيحة فساد حكومي، توقف تام لمحادثات السلام، هابو - إل محاولات متكررة لتل أبيب في دَوري الأبطال، عنوان قديم، عنوان قديم. "هل وردت معلومات مفيدة؟".

قال زيسكي: "ليس الكثير، لم يتمكن البواب المناوِب ليلة أمس من إضافة أي شيء في الواقع إلى الإفادة التي تقدّم بها. عبرت الضحية البوّابة قرابة الساعة السابعة مساءً. يظنّ أن أحدهم قد دخل وراءها، ولكنه لم يكن منتبهاً في الواقع لأنه كان يتكلم مع زوجته عبر الهاتف. لا يستطيع بالتأكيد إعطاء أي نوع من الأوصاف. نأمل أن نحصل على المزيد من التفاصيل من كاميرات المجمَّع. لقد ذكر بالفعل أنه سبق له أن رآها قبل ذلك".

فنظر بِن - روي إلى الأعلى.

"على غرار العديد من الأشخاص الآخرين. يبدو أنها كانت تزور المجمَّع مراراً في الأسبوعَين الأخيرَين أو الأسابيع الثلاثة الأخيرة".

طوى بِن - روي الصحيفة وجلس بعد أن أُثير اهتمامه.

"أخبرني بالمزيد".

"حسناً، يظنّ الرجل الذي كان موجوداً ليلة أمس أنها زارت المجمَّع مرتَين على الأقل. ويقول بواب آخر إنه رآها تدخل المجمَّع أربع أو خمس مرات. وهناك أيضاً رجل دين يدعى...".

وتحقق من دفتر مدوَّناته محاولاً العثور على الاسم. فلوّح بِن - روي بيده بما معناه أنه ليس للأمر أهمية.

"بأي حال، قال إنها شاركت في القليل من العبادات، صباحاً ومساءً. ظنّ أنها ربما تكون في انتظار شخص ما، ولكن أيّاً من الأشخاص الذين تحدثتُ إليهم لا يتذكرون رؤيتها مع أحد. لا يزال العناصر النظاميون يتنقلون من منزل إلى منزل، وربما يتوصلون إلى نتيجة ما".

فأومأ بِن - روي برأسه، ناقراً على الطاولة بأصابعه.

قال زيسكي: "تحدثتُ أيضاً إلى بتروسيان".

"وماذا بعد؟".

"منحني خمس عشرة دقيقة فقط، لذلك لم تكن مقابلة مفيدة. قال إنه لا يستطيع التصديق أن شخصاً ما من جماعته قد يقوم بأمر مماثل، ولكن لم يكن لديه أي شيء ليُطلعني عليه".

"هل صدّقتَه؟".

فهز زيسكي كتفَيه.

"كان مستاءً من الأمر برمّته. باستطاعتك رؤية ذلك في عينَيه. لديّ شعور...".

"بأنه يكذب؟".

"بل ما هو أكثر من ذلك... إنه يواجه أمراً ما. هناك شيء ما لم يقُله. ليس أمراً محدَّداً. إنه مجرد حَدْس".

حَدْس سيدة، فكر بن - روي في سرّه، وأبقى هذا الأمر لنفسه.

"هل لديه عُذر غياب؟".

"قال إنه كان في مكتبه الخاص طوال المساء. لم نعثر بعد على أحد يؤكد هذا الأمر".

ومدّ يده، ولها بأحد المشابك التي تُبقي *اليارمولك* الخاص به في مكانه.

"بإمكاني القيام بالمزيد من البحث إذا أردتَ. بإمكاني الحصول على القليل من المعلومات عن خلفيّة رئيس الأساقفة".

"افعل ذلك، وفي تلك الأثناء ربما يكون باستطاعتك التأكد من عُذر غيابه".

بحث بن - روي في جَيبه، وأخرج تذكرة الحافلة التي عثر عليها في شقة كلينبرغ، ورماها على الطاولة. فدنا زيسكي من الطاولة والتقطها، حاملاً معه رائحة عِطر غامضة.

"استعملتها كلينبرغ قبل خمسة أيام"، قال بن - روي، "للذهاب إلى ميتزبي رامون. أريد أن أعرف ما الذي كانت الضحية تفعله وسط صحراء النَّقَب".

عاين زيسكي التذكرة.

"إضافةً إلى ذلك"، قال بن - روي مستمتعاً بوجود شخص ما يمكن الاستعانة به. "هل يمكنك أن تعرف معنى هذه الكلمة؟".

وفتح دفتر مدوَّناته، وأداره، ووضعه على الطاولة وأداره في اتجاه الأمام، مشيراً إلى الكلمة التي عثروا عليها على نشّافة كلينبرغ: *فوسغي*. فانحنى زيسكي لينظر إليها، وكاد خدّه يلامس خدّ بن - روي. لقد ازدادت رائحة عطر ما بعد الحلاقة قوة.

"آسف يا فتيان. أنا لا أقاطع أي شيء، أليس كذلك؟".

وظهر يوري بينكاس عند المدخل، فأسند بن - روي ظهره بسرعة.

"ألا تقرع الباب أبداً يا بينكاس؟".

فأطلق زميله ابتسامة رضى عن النفس، وغضّن شفتيه كما لو أنه يوجّه قُبلة، فعبس بِن - روي.

"ماذا تريد؟".

"جئتُ فقط لأُعلِمك بأن صور الكاميرات جاهزة. سنشاهدها بعد خمس دقائق. آمل أن يمنحكما ذلك الوقت الكافي لـ... كما تعلمان، الانتعاش".

"*شَكلي بتاحات*، يا بينكاس! قبّل مؤخّرتي".

"سأنضم إلى الفريق. أراكما في البناء المُلحَق".

وغمز، ثم وجّه قُبلة أخرى في الهواء، وتوارى عن الأنظار في الممر.

"وإذا انتهيتَ من الأسطوانة المُدمَجة الخاصة بي ياهوناثان غاترو، فأنا أرغب في استعادتها"، نادى.

"زايين!" صاح بِن - روي.

لم يظهر على زيسكي ما يشير إلى أنه فهم أيّاً من هذه الأمور، عِلماً أنه من المستحيل ألا يكون قد فهم. بل دوّن كلمة *فوسغي* على دفتره، وعاد إلى طاولته بهدوء. فتساءل بِن - روي عما إذا كان يُفترض به قول شيء ما، ولكن زيسكي رفع هاتفه وطلب رقماً. فخرج بِن - روي بدلاً من ذلك وتوجّه إلى المرحاض، ومن ثمّ سكب لنفسه كوب ماء من المبرِّد في الممر، وملأ كوباً آخر لزيسكي، ثم عاد إلى الغرفة.

"الذهب".

"عفواً؟".

"*فوسغي* تعني الذهب باللغة الأرمنية. ذهب، ذهبيّ".

لقد تصرّف الفتى بسرعة، فقد غادر بِن - روي الغرفة لبضع دقائق فقط.

"تماماً"، قال بِن - روي. "شكراً لك".

أومأ زيسكي برأسه وتناول كوب الماء ثم سأل:

"هل تمانع إن غادرتُ قبل انتهاء دوام العمل بقليل؟ أحتاج إلى شراء بعض الأغراض قبل يوم *الشَّبت*".

"بالتأكيد"، قال بِن - روي. "لا مشكلة".

وانتظر للحظات، ومن ثمّ توجّه إلى الباب.

"آه، ويا سيدي".

فاستدار بِن – روي.

"إذا كنتَ من هواة ياهوناثان غاترو فلديّ كل ألبوماته، ويُسعدني أن أُعدّ لك بعض النسخات. لديّ الكثير لإيفري لِدِر وجودي غارلاند أيضاً".

أطلق زيسكي ابتسامة، فابتسم بِن – روي رغماً عنه أيضاً. لقد بدأ يشعر بالمودة حيال الشاب.

كان بينكاس ونافا شوارتز قد أعدّا أسطوانة دي في دي تحتوي على 17 دقيقة من المشاهد العائدة لليلة مقتل كلينبرغ، مستعينَين بكاميرات الشرطة وتلك التابعة للمجمَّع.

لقد شاهدوا الأسطوانة في غرفة جانبية زجاجية على مَقرُبة من مركز المراقبة حيث توجد الكاميرا الرئيسة للمركز. كان كل الحاضرين في اجتماع الصباح مع شاليف موجودين هناك باستثناء زيسكي الذي حلّ مكانه الضابط المسؤول إسحق بوم. إذ يتابع بوم على الدوام المشاهد التي تلتقطها الكاميرات، وغالباً ما تُطلِق هذه المشاهد المصوَّرة إلماعة تساعد التحقيق. وكان بوم يحب أضواء الشهرة. ولكن أمله خاب اليوم؛ على غرار الجميع.

لقد تمكنت كاميرات الشرطة من تتبّع كلينبرغ منذ لحظة ترجّلها من الحافلة خارج باب يافا، وعبورها النفق وسط طريق بطريركية الأرمن الأرثوذكس. ومن ثم التقطها مرقاب سي سي تي في التابع للمجمَّع الأرمني وهي تعبر بوابته الأمامية، وتبعها إلى مدخل دار العبادة الكبرى.

كان الشخص نفسه يتبعها طوال الوقت على بُعد 30 متراً. لقد دخل دار العبادة الكبرى بعدها تماماً، وخرج بعد ست وثلاثين دقيقة، وعبر المدينة القديمة وتوارى عن الأنظار على طريق يافا.

إنه القاتل؛ كان الجميع واثقين من ذلك. ولكن لسوء الحظ، كان مغطى بكامله بمعطف مزوَّد بقلنسوة تقيه من المطر، وبقي وجهه مخبّأً بالرغم من توضيح الصورة وتقريبها. كان متوسط القامة، ورافق كلينبرغ في الحافلة، وتبعها عمداً في المدينة القديمة وإلى داخل دار العبادة الكبرى؛ هذا كل ما حصلوا عليه.

لقد أعادوا المشاهد ثلاث مرات، وتعكّر المِزاج في الغرفة، وكانوا في أثناء الإعادة الرابعة للمشاهد المصوَّرة عندما رنّ هاتف بِن - روي المحمول.

كان الاتصال من العال. لقد بحثوا في سجلاتهم ووجدوا تطابقاً.

ليلة وفاتها، حجزت ريفكا كلينبرغ على متن الرحلة الجوية التي تنطلق عند الساعة الحادية عشرة إلى الإسكندرية في مصر.

باكينغهامشاير، إنكلترا

"شخصياً، سأستهدف الحفرة 5".

وأطلق السير تشارلز مونتغومري ابتسامة ماكرة ومتفضِّلة؛ ليست عريضة بما فيه الكفاية لتبدو قاسية، ولكنها أكثر من كافية لتُظهر أنه لا يخالفه الرأي فحسب، بل إنه مُحِقّ في مخالفته الرأي. وتناول جرعة من قنينته التي تحتوي على شراب الورد البرّي، ثم سحب من حقيبة الغولف مَضرِباً من طراز كولاواي غرافيت 6 آيرن.

"من الصعب جداً الحكم بطريقة صائبة"، قال بلهجة تشير إلى أن اعتقاده معاكس تماماً. "في الواقع، لن تعرف أبداً حتى تقذف الكرة".

وقام مرتَين بمحاكاة كيفية قذف الكرة استعداداً لتنفيذ الرمية، ناظراً إلى المساحة الخضراء التي تبعد 140 ياردة، وسهولة حركته تنفي أنه في الثامنة والستين من عمره. ثم وضع الكرة البيضاء والسمراء من طراز فوتجوي كلاسيكس على بُعد متر واحد، وقذفها، حاجباً الشمس عن عينَيه في أثناء تتبّعه مسار الكرة. لقد بدا الأمر كما لو أنها علقت في الهواء زمناً طويلاً قبل أن تهبط في النهاية على السطح المائل في مؤخر المساحة الخضراء. فلازمت مكانها للحظات، وتدحرجت بعد ذلك ببطء في اتجاه الراية، متوقفةً على بُعد مترَين منها. فأومأ مونتغومري برأسه تعبيراً عن رضاه، وأعاد المضرب إلى مكانه، معبّراً عن امتنانه لزملائه اللاعبين الذين أطلقوا صيحات: "أحسنتَ".

"لا بد أن الريح الخفيفة قد منحتها قوة دفع إضافية"، قال بتواضع زائف على نحو فاضح.

إنه يؤدّي جولة جيدة، لا بل ممتازة، كما يستمتع بتقاعد جيد، لا بل ممتاز.

قبل عامَين، لم تكن الأمور تبدو وردية تماماً في أجواء شبه القارة غير المستساغة. صِمام صدئ لا يعمل كما ينبغي، نظام مراقبة معيوب، سحابة كبريتيد الهيدروجين، آلاف ناقلي العَدوى المتقرِّحين. لقد بدا الأمر كما لو أن ذلك سيتسبب باحتجاجات عنيفة على غرار الاحتجاجات التي نجمت عن بوبال وترافيغورا، وهو أمر لا يخدم أبداً مصلحة الشركة، أو على الأقل مصلحته الشخصية نظراً إلى أنه هو من اتخذ قرار إرجاء تركيب أنظمة أمان حديثة أثبتت كفاءة عالية لمدة طويلة من الزمن في منشآتهم في أوروبا والولايات المتحدة؛ وذلك بوصفه مديراً تنفيذياً أول.

لا، لم يبدُ الأمر جيداً البتة. كان قد تعرّق طوال أشهر قليلة، ولا سيما عندما بدأت التقارير تَرِده عن حالات إجهاض وعيوب في الولادة، وأطفال يولَدون عمياناً ومشوَّهين ومَعوقين. وستكون لتناول الصحافة ولادةَ أطفال عميان ومعوّقين، ولا سيما في دول العالم الثالث، انعكاسات سيّئة على الشركة.

لحسن الحظ، حُلّ الوضع بما يرضي الجميع، ولُطّفت الأجواء في الجانب الهندي بعد تلقّي أشخاص بالغي الأهمية مبالغ مالية ضخمة من الحكومة، في حين اعتمدت شركة محاماة رائعة في المدينة مختلف أنواع الخُدَع القانونية الذكية كي لا تقوم الصحف البريطانية بإلقاء الضوء على تلك المسألة. حتى إنهم لم يُضطروا للتعويض على الضحايا؛ عِلماً أنهم قدّموا هِبات متواضعة لبعض الجمعيات الخيرية حفاظاً على ماء الوجه؛ هِبات متواضعة جداً.

وعندما تقاعد في العام السابق، اعتمد تشارلز مونتغومري الأسلوب نفسه لإدارة رواتب تقاعدية تعود عليه بأرباح طائلة، ولتقديم الخدمات للصناعة من خلال برنامج *فُروسية المملكة*. وبعد تحويله حصته إلى أموال نَقدية، أُدرج في قائمة الأثرياء التابعة لصانداي تايمز، عِلماً أنه احتل المركز الأخير في الثراء. كانت الحياة جيدة بالنسبة إليه. وعندما تكون الحياة جيدة، تكون ممارسته لعبة الغولف جيدة أيضاً. لقد تحسّن إلى حد كبير عدد ضرباته التي تفوق الحدّ المتوسط في الأشهر القليلة السابقة، من دون أن يكون بالإمكان القول إن أوضاع الأطفال الهنود قد تحسنت.

قذف عضو البرلمان المنتمي إلى حزب المحافظين، تريستان بيك، كرته فسقطت قبل خمسة أمتار من المساحة الخضراء؛ مُحدِثةً حفرة في الرمال. بعد ذلك، بدأت المجموعة الرباعية من اللاعبين رحلتها على ممر الملعب، وقد جرّ كل منهم وراءه عربته الصغيرة. فبالإضافة إلى مونتغومري وبيك، كان هناك السير هاري شور؛ وهو العضو الأعلى مقاماً في السلطة القضائية، وبراين كاهيل؛ وهو مدير أسترالي فظّ ولكنه فاحش الثراء. فسواء أكان هناك تسرّب للغاز أم لا، يتواصل نشاط السير تشارلز مونتغومري في الأوساط العليا.

تقدّموا مسافة ثلاثين متراً، ومن ثم أبطأ شور الذي كان يسبقهما قليلاً خطواته ورفع ذراعه.

"ماذا يفعل ذلك الغبي؟". سأل مشيراً إلى أحدهم.

كانت هناك أرض حرجية بمحاذاة المساحة الخضراء. لقد خرج شخص - من هذه المسافة، يصعب تمييزه إن كان رجلاً أو امرأة - من قرب الجدار الذي تشكّله الأشجار وخمائل العَصَل، ووقف على المساحة الخضراء بجانب الراية. لقد بدا أنه يحمل لافتة من نوع ما.

"ارحل"، صاح شور. "وخذ معك ما تحمله. هذه الحفرة مُدرَجة ضمن اللعبة!".

لم يتحرك الشخص، بل رفع عالياً اللافتة أو أيّاً يكن ما يحمله. كان هناك شيء مكتوب عليها، عِلماً أنها بعيدة جداً فلم يكن بالإمكان قراءة ما كتب بالتحديد. وخرج شخص آخر، يبدو أنها امرأة. بدا الأمر كما لو أنها تحمل لافتة أيضاً.

"أخليا المكان!". صاح مونتغومري، ملوّحاً بذراعه. "إنه مكان خاص...".

ورنّ هاتفه المحمول، فأخرج الهاتف من سروال الغولف المصنوع من قماش يحمل نقوشاً مربّعة، مستمراً بالتلويح بذراعه، ووضعه على أُذُنه من دون أن يتحقق من الرقم.

"أجل"، قال بغضب.

"تشارلز مونتغومري؟".

كان الصوت صوتَ رجل، وهو غير مألوف.

"أجل".

"السير تشارلز مونتغومري؟".

"أجل، أجل. من المتكلّم؟".

وخرج شخصان آخران إلى المساحة الخضراء، وكان هناك المزيد من الوافدين كما يبدو؛ جماعة كبيرة من الناس.

"ابتعدوا!". صاح عضو البرلمان تريستان بيك. "ستُلحقون الضرر بالعشب".

"هل يمكنك ولوج الإنترنت يا سير تشارلز؟".

"ماذا؟ من المتكلّم؟ كيف حصلتَ على هذا...".

"لأنك إذا ولجتَ الإنترنت، فسيتعين عليك التحقق من موقع ما. إنه www.thenemesisagenda.org".

لقد أعطاه الرجل العنوان ببطء، مهجّئاً إيّاه.

"هناك بعض الصور الجميلة لك"، أضاف، "والكثير من التفاصيل عن عمل شركتك في غوجارات".

كان وجه مونتغومري قد اكتسى لوناً مائلاً إلى الحُمرة، ولكنه ازداد قتامة وأصبح أرجوانياً.

"من المتكلّم بحق الجحيم؟". صاح. "ماذا تريد؟ أنا وسط ملعب غولف".

"أعرف ذلك"، قال الصوت. "أنا أنظر إليك مباشَرةً. إنه سروال جميل يا قاتل الأطفال اللعين".

وأُقفل الخط. في الوقت نفسه، شرع الحشد الموجود على المساحة الخضراء، والذي فاق عدده عشرين شخصاً مع توافد المزيد منهم - رجال ونساء، مُسنّون وشبّان - بالإنشاد، وملأت أصواتهم المساحة الواسعة والهادئة لنادي الغولف الخاص بأعضاء وتِرديان غرانج:

"غوجارات! غوجارات! غوجارات!".

وبدأوا بالتقدم في اتجاه لاعبي الغولف الأربعة، وازداد وضوح الشعارات الموجودة على اللافتات شيئاً فشيئاً: "قاتل الأطفال"، "العدالة للأطفال"، "www.thenemesisagenda.org"، "تقاعداً سعيداً يا سير تشارلز".

فتردد مونتغومري، وارتسمت على وجهه المكتنز والعريض أمارات غضب شديد وذُعر متزايد. فاستدار وعاد إلى مقرّ النادي مُسرِعاً قدر الإمكان، وتبعه زملاؤه.

"غوجارات! غوجارات! غوجارات!".
فجأةً، بدا استمرار تقاعده المريح غير مضمون.

القدس

مع مشارَفة فترة بعد ظهر يوم الجمعة على الانتهاء ودنوّ يوم *الشَّبت*، بدأت شوارع القدس تفرغ من المارة بشكل مضطرد. وفي وقت متأخر من بعد الظهر، أصبح وسط المدينة مُقفِراً تقريباً.

وحدث الشيء نفسه في مركز شرطة داوود. فعندما دخل بِن - روي مكتب ليه شاليف بعد الساعة الخامسة والنصف، كانا الشخصَين الوحيدَين المتبقيَين في قسم التحقيقات في الكيشل.

فأعدّت شاليف القهوة لكليهما، وعرض عليها بِن - روي التطوّرات التي حدثت خلال اليوم: التهديدات التي وردت إلى هآرتس، ودفاتر المدوَّنات المفقودة، وزيارات كلينبرغ إلى المجمَّع الأرمني، ورحلة العال الجوية إلى مصر، وكلمة فوسغي التي كان يشعر بأهميّتها بدون سبب وجيه كلما أشار إليها.

أصغت إليه شاليف بصمت في أثناء ارتشافها من الكوب الخاص بها الذي يحمل شعار فريق ماكابي تل أبيب لكرة السلة، وترك أحمر الشفاه كالعادة لطخة شاحبة على حافة الكوب. لم يكن يُفترض بعناصر الشرطة من الفتيات المناوبات التبرّج، ولكن ليه شاليف تخطّت القواعد: أحمر شفاه، طلاء للأظفار، ظلال العيون. لم يتمكن بِن - روي قط من معرفة ما إذا كانت تقوم بذلك لتبدو في مظهر حسن ببساطة، أم لتُبهر أمثال بوم ودورفمان الذين يعتقدون أنه لا مكان للنساء في التحقيقات. فإذا كانت تقوم بذلك للسبب الأول، فهي لم تحقق أي نجاح. وإذا كانت تريد إبهار الأنظار، فقد حصلت على أكثر مما ترغب فيه.

"هل لديك أي أفكار؟". سألت عندما أنهى عرضه.

فهز بِن - روي كتفَيه.

"سرقة غير مُتقَنة، مريض نفسيّ يشعر بالوحدة، عملية مافيا، حقد شخصي، مزيج منها كلها. اختر. كلها احتمالات ممكنة".

"أيّ احتمال تؤيّدين؟".

كانا يمارسان هذه اللعبة غالباً في بداية كل تحقيق، فتُرغمه شاليف على مَدّ عُنُقه والاختيار. كان عادةً يُسعَد بهذا الإرغام. ولكنه في هذه المرحلة المبكِّرة من القضيّة تردد بالاختيار بسبب تعدّد الاحتمالات والتناقضات.

"هيا، يا آري"، قالت شاعرةً بتحفّظه. "فلتختر".

"الأمر مرتبط بكونها صحافية"، قال بعد فترة قليلة من الصّمت؛ غير مجيب مباشَرةً عن السؤال. "أراهن على ذلك. نظراً إلى فقدان دفاتر مدوَّناتها العائدة للأشهر الثلاثة الأخيرة. أعتقد أنه أمر مرتبط بمقالة كانت تعمل عليها مؤخراً".

"ما لم يكن رجلنا يحاول ذَرّ الرماد في العيون"، قالت شاليف، "لمنعنا من تعقُّبه".

فأقرّ بِن - روي بأنها وجهة نظر صائبة.

"ماذا عن محرّرها؟". سألت شاليف.

"لم يتصل بي بعد. تركتُ له أربع رسائل".

"أربع رسائل فقط؟ لستَ أنت من يتمالك نفسه إلى هذا الحد".

"لستِ أنتِ من تُعِدّ قهوة جيدة إلى هذا الحد".

وابتسما. فبالرغم من ارتيابه بها منذ البداية، بات يميل إلى ليه شاليف إلى حد كبير؛ ليس لأنها تُجيد عملها فحسب، بل لأنها من الأشخاص القلائل في الشرطة الذين يفكر مليّاً في اعتبارهم أصدقاء له.

"هل هناك أي جديد عن تشريح الجثة؟". سأل.

فهزت رأسها.

"تحدّثتُ إلى شملينغ قبل قدومك مباشَرةً. لقد عثروا على شعرة على ملابس الضحية وأرسلوها لتخضع لتحليل الدي أن أيه، وللتحقق مما إذا كان متطابقاً مع أي حمض نووي موجود في قاعدة بياناتنا. ومن الواضح أنه لم يحدث أي اعتداء جنسي. وباستثناء تحديد تاريخ حدوث الوفاة بين السابعة والتاسعة مساءً - والذي سبق لنا أن عرفناه من خلال المشاهد التي التقطتها الكاميرا - فلا شيء جديد. آه، أجل. تعاني من البواسير. إنها أسوأ حالة شهدها شملينغ يوماً، كما يبدو".

"أمر لطيف. ماذا عن الخبراء الجنائيين؟".

رفعت يدَيها عالياً في إشارة إلى "لا شيء".

"والجيران؟".

"حتى الآن، تمكنّا من مقابلة خمسة من سكان الشقق، أمّا الآخرون ففي الخارج".

"وماذا أيضاً؟".

وارتفعت يداها مجدداً.

"نحن في متاهة"، قالت. "نحن في متاهة حقيقية بلا ريب".

على غرار آلام معدة بِن - روي، تملك ليه شاليف تعبيرها الاصطلاحي الفريد والخاص بها للتعبير عن كيفية سير الأمور. فألقت نظرة سريعة على ساعتها، ثم شربت ما تبقّى من قهوة في كوبها، ووقفتْ.

"عليّ مواصلة الحياة. سواء أكنا في متاهة أم لا، لا تزال أسرة شاليف بحاجة إلى الطعام".

وشرعت بجمع أغراضها.

"هل أولادك بخير؟". سأل بِن - روي، ووقف.

"إنهم بخير، بالرغم من أن ديبورا لا تتكلّم معي. مشادّة كلامية بسيطة حول طريقة اختيارها صديقها".

فابتسم بِن - روي. إنه يتطلّع لذلك أيضاً.

"بِني؟".

"بخير. شارك في معرض في عين كارم، ويتم التباحث في شأن إشراكه في معرض في الولايات المتحدة".

بخلاف النشاط الأساسي لزوجته في الحياة، كان بِني شاليف فنّاناً؛ فنّاناً محترَماً. وزواجهما من بين الزيجات القليلة التي شهدها بِن - روي يوماً - ويكون فيها أحد الزوجَين من أفراد الشرطة - والتي استمرت بالرغم من الظروف العسيرة. كانت ليه وبِني شاليف يواجهان مصاعب الحياة معاً بحكمة. وبالرغم من أنه لم يُقرّ بذلك قطّ، ولا حتى لنفسه، يشعر بِن - روي بتَوق ما كلما رآهما معاً، وبأسف على ما كان يمكن لحياته أن تكون عليه. إنه يفتقد سارة أحياناً، بل في كثير من الأحيان، لا بل في معظم الأحيان.

"هل ستقضي يوم *الشَّبت* مع سارة؟". سألت شاليف كما لـو أنها تقـرأ أفكاره.

"ستقضيه مع أهلها".

"هل تريد الانضمام إلينا؟ أنت مرحَّب بك".

"شكراً يا ليه، ولكنني مدعوّ إلى مكان آخر".

"هل أنت متأكد؟".

"أنا متأكد".

غادرا المكتب، وخرجا إلى الباحة في الناحية الخلفية للمركز. كانت سـيارة شاليف من طراز سكودا أوكتافيا مركونة في الطرف البعيد بجانب المنطقة المسيّجة والمخصصة لتدريب الجياد، فرافقها بن – روي إلى سيارتها.

"أريد من نامير أن يستمر بما يقوم به"، قالت في أثناء سيرهما، متطرّقةً إلى القضية مجدداً. "إضافةً إلى الناحية الأرمنية للقضية، باستطاعة بينكاس متابعـة تهديدات المستوطنين الروس ومستوطني الخليل للتحقق مما إذا كـان هنـاك أي رابط. فهو يُجيد الروسية، وأعرف أن لديه مُخبِراً واحداً على الأقل من بـين المستوطنين".

"ماذا عني؟". سأل بن – روي.

لقد تحدّث بصوت مخنّث مقلّداً صوت دوف زيسكي عندما طرح السـؤال نفسه في اجتماع الصباح. فرمقته شاليف بنظرة مُذِلّة.

"تابع مسألة كلينبرغ. أريد أن أعرف ما الذي كانت تكتب عنه، ومـن كانت تُغيظ، ولماذا كانت في طريقها إلى مصر، وسـبب زياراتها المتكـررة للمجمَّع".

وصلا إلى السيارة، ففتحتها شاليف.

"بالمناسبة كيف يجري العمل مع زيسكي؟". سألت.

"عظيم. سننشط في حقلنا الخاص في الأسبوع القادم".

"*مازالتوف*".

وألقت حقيبتها على المقعد الخلفي، ثم دخلت السيارة وأغلقت الباب بقـوة. في تلك الأثناء، دخلت دراجة نارية رباعية الدفع من طراز بولاريس رانجر الباحة،

وهي الدراجة الوحيدة التي تستطيع التغلّب على العقبات في الشـــوارع المدرَّجـــة وشديدة الانحدار في المدينة القديمة. فانتظرت شاليف حتى ركن السائق دراجتـــه، ومن ثم أدارت المحرك.

"أنتَ في إجازة غداً، صحيح؟".

فأومأ بِن - روي برأسه.

"سنـــزيّن غرفة المولود الجديـــد في منـــــزل ســـارة"، قـــال. "إذا أردتِ، يمكنني...".

"أريد منك أن تقوم بعملية التزيين. ولكن، إذا كان تزيينك مماثلاً لعملـــك في مركز الشرطة، فأنا أخشى التفكير في ما ستكون عليه حال الغرفـــة. أراك يـــوم الأحد".

وجّهت له تحيّة عسكرية، ثم عشّقت تُروس السيارة، وتوجهـــت بـــبطء إلى مدخل المركز. ولكنها توقفت في منتصف الطريق، وأنـــزلت الزجاج، فدنا منـــها بِن - روي. كانت تحدّق إلى الأمام، ممسكةً المِقوَد بيدَيها.

"لا أستطيع شرح الأمر يا آري"، قالت بلهجة جدّية، وهي غارقة في التفكير. "ولكن شعوراً سيّئاً ينتابني حيال هذه القضية منذ البداية".

"هذا لأن امرأة خُنقت وسط دار العبادة الكبرى".

فلم تبتسم.

"أشعر بأن هذه القضية ستقودنا إلى مكان ما...".

"سيّئ؟".

نظرت إليه.

"احترس، يا آري. احترس وأَبقِني على اطّلاع. اتفقنا؟".

طوال خمس سنوات من العمل معاً، لم يسبق لليه شاليف أن تحدّثت إليه بهذه الطريقة، فوجد بِن - روي الأمر مُقلِقاً.

"هل اتفقنا؟". كررت.

"بالتأكيد. اتفقنا".

وأومأت برأسها، وتمنت له *غات شاباس*، وانطلقت إلى خارج المركز، فيمـــا بدأ المطر ينهمر مرة أخرى.

"أبـــي، نحن نشاهد مِرّي بوبينغز!".

لم يكد خليفة يفتح باب الشقة الأمامي حتى اندفع ابنه الأصغر يوسف خارج غرفة الجلوس، وقفز بين ذراعَيه، وعانقه بقوة، وقبّله، ومن ثم تلوّى بـين ذراعَـي والده وأفلت منه، وانطلق عائداً عبر الممرّ. فابتسم خليفة، وهز رأسـه، ثم أغلـق الباب. وقف هناك للحظات، وتدلّت من يده باقة الزّنبق التي كان قد اشتـراها في طريق عودته من القُرن، ألقى نظرةً على أرجاء المنـزل كما لو أنه يُطمئن نفسـه بأنه المكان الذي يقيم فيه. بعد ذلك، تبع الفتى متنهّداً.

كان قد مضى على وجودهم في الشقة ستة أشهر. فعندما هُـدم مجمّعهـم السكني، نُقل كل السكان الآخرين إلى منطقة مليئة بمبان إسمنتية على بُعد عشـرة كيلومترات خارج البلدة، قرب جسر طريق النيل. كان رئيسه الحسَني قد أظهـر رغبته في المساعدة، فحصل على بعض الموارد المالية، وأمّن له مسكناً في العوّامابة، عند زاوية المركز الجديد للشرطة.

كانت الشقة أكبر حجماً من شقتهم القديمة وأكثر ملاءمة للعمل، ويوجـد مسجد ومدرسة على مَقرُبة منها تماماً. حتى إنها كانت مزودة بمكيّف هواء؛ وهـو مصدر افتتان غير متناه ليوسف الذي دأب على تشغيله بطاقته القصوى، ومـن ثم بناء مخيّمات يحتمي فيها من البرد.

وبالرغم من المزايا المُضافة، لم يشعر خليفة قطّ بالسعادة فيه؛ لـيس بسـبب الاختبارات التي يُجريها يوسف بواسطة مكيّف الهواء فقط، بل لأنه كان لا يـزال يشعر بأنه غريب في منـزله الخاص بعد كل هذه الأشهر.

يعود سبب ذلك جزئياً إلى الجيران؛ عِلماً أن سيدة مُسنّة ولطيفة تقـيم في الطابق الأرضي، والعائلة المقيمة في الشقة المحاذية لهم حسنة السمعة؛ بالرغم من إصرارها على تشغيل التلفاز بأعلى صوته ليلاً ونهاراً طوال أيام الأسبوع. ولكن المنـزل الجديد يفتقر إلى الحميمية التي اعتادها في المجمّع السكني القـديم، وإلى حسّ الجماعة المتأتي من الإقامة في مكان واحد طوال ستة عشر عاماً. كانوا في الشقة القديمة يشعرون بالانتماء، بخلاف حالهم هنا. وكلما عـاد خليفـة إلى

المنـــزل، صدمه الشعور بالعُزلة نفسه، وبأنه ترجّل مـــن الحافلـــة في الموقـــف الخاطئ.

والأسوأ من ذلك، عدم ارتباط المكان بمشاعر إنســـانية. فـــلا ذكريـــات أو علاقات هنا، ولا أحاسيس، ولا شيء يربطهم بالمكان. لقد كان فقداهم شـــقتهم القديمة أشبه بفقداهم جزءاً من ماضيهم. وبالرغم من وجود كـــل أغراضـــهم في الشقة الجديدة، فهي تبدو... فارغة.

كان بالإمكان اصطحاب الأثاث إلى المسكن الجديد، ولكنه اكتشف أنه من غير الممكن البتة نقل الصداقات.

أقحم رأسه داخل غرفة ابنه البكر علي كالمعتاد؛ إذ كان يفعل ذلك كلما عاد إلى المنـــزل، ثم تابع سيره إلى المطبخ حيث كانت ابنته بطّاح تُعِدّ العشاء.

"أكان يومك جيداً؟". سأل مُطوِّقاً إيّاها بذراعَيه، ومقبِّلاً جبينها.

"رائع"، أجابت معانقةً إيّاه. "كانت الخالة ساما هنا".

"لا بدّ أن الأمر كان مشوِّقاً".

"كان كذلك بالتأكيد. لقد أخبرتنا عن اصطحاب العم حُسني لها في رحلـــة تسوّق في دُبَي. وهذه الرحلة هي *كل* ما أخبرتنا عنه".

لم يكن بالإمكان عدم ملاحظة المنحى التهكمي بسهولة، فهو واضح تمامـــاً. ابتسم خليفة، ونقر أنفها بإصبعه. إنها في السابعة عشرة من عمرها، وتشبه زينَـــب بجمال طَلْعتها عندما كانت أصغر سنّاً – فهي هيفاء القدّ، شعرها طويل قاتم اللون، وعيناها كبيرتان – وبحس الدُّعابة أيضاً.

"كيف حالها؟". سأل.

"إنها بخير. تشاهد...".

وأشارت بطّاح برأسها في اتجاه الطرف البعيد للشقة. فأومأ خليفة برأســـه، وقبّلها مجدداً، ثم سلك الممر ودخل غرفة الجلوس حيث كانت زينَب تجلس علـــى الأريكة ويوسف بين ذراعَيها. كانا يشاهدان فيلم دي في دي *مـــاري بوبينـــز* الخاص بعلي، مدندنَين النغمات المثيرة *لنذهب ونطيّر طائرة ورقية*، أو كما توردها الترجمات المصرية: *سنرسل طائرتنا الورقية إلى السماء*.

وضع خليفة الأزهار بجانب زوجته، وبسط ذراعَيه على كتفَيها، وقبّل رأسها.

"هل كل شيء على ما يرام؟".

فمدّت يدها ولمست يده، ولكنها أبقت عينَيها على الشاشة.

"أنا في إجازة غداً. ما رأيك بقضاء بعض الوقت معاً؟".

فضغطت على يده مجدداً، ولكنها لم تنظر إليه. لازم مكانه للحظات، متنشّقاً عطر شعرها. وبعد أن همس لها كلمة "أحبك"، عاد إلى المطبخ لمساعدة بطّاح على إعداد العشاء.

"لستَ مُضطراً لذلك"، قالت في أثناء قيامه بسحب سكين من الدُّرج، ووقوفه بجانبها.

"تعرفين مدى حبّي للتقطيع. اسمحي لي على الأقل بالاستمتاع بهذا الأمر قليلاً".

فلكزته بمِرفقها ممازِحةً، وشرع بتقطيع البطاطا. ثبّت خليفة نظره للحظات على جَزلة الإسمنت التي كانت بحجم قبضة اليد الموجودة على عتبة النافذة، والمكسوّة ببلاطات بالغة الصِّغر؛ إنها جزء من النافورة التي بناها في مدخل شقتهم القديمة. إنها التذكار الوحيد من الأوقات السعيدة. واستعاد تركيزه بعد ذلك، وشرع بتقطيع البصل. في غرفة الجلوس، كان فيلم *ماري بوبينز* قد وصل إلى نهايته، ثم تكرر بمفرده.

القدس

كان بِن - روي قد كذب على ليه شاليف. فهو لم يكن مدعوّاً إلى أي مكان لتناوُل العشاء ليلة الجمعة. وعندما انتهى يوم العمل، دخل سيارته، وتوجّه بمفرده إلى المنزل. هناك أماكن، الكثير من الأماكن التي يمكنه الذهاب إليها؛ فبالرغم من عدم كونه فْروم بصفة خاصة، إلاّ أنه نادراً ما يُغفِل يوم الشَّبَت. غير أنه متعب هذه الليلة وليس في مِزاج ملائم للعلاقات الاجتماعية. ربما سيقرأ قليلاً، ويشاهد *إيريتز نِهِديريت*، وينام باكراً. فرأسه يضجّ بأمور كثيرة، وهو لا يشعر بالرغبة في رِفقة أشخاص آخرين.

وفي أثناء خروجه بالسيارة من المركز وتوجهه إلى باب صهيون - كانت سيارته هي الوحيدة في الشوارع في ذلك الوقت - اتصل بسارة.

"هل أنت بخير؟". سأل.

"أفضل بكثير مما كنت عليه عندما تحدّثنا في المرة الأخيرة".

"*والبوبو*؟".

"ابقَ على الخط".

وسمع هَمْساً في خلفية الجانب الآخر من الخط.

"عظيم"، أجابت. "أُعدّ العدّة للقيام ببعض التمارين الرياضية".

ابتسم، فهذه الأمور السخيفة هي التي جعلته يقع في غرامها ويُتيَّم بحبها.

"هل أهلك بخير؟". سأل.

"إنهم بخير. وأهلك؟".

"أنا على وشك الاتصال بهم".

"أَبلغهم حبي. ولا تنسَ...".

"التزيين غداً. لا تقلقي، لقد طبعتُ الموعد على جبيني. وسأتذكّره حتماً حين أحلق في الصباح".

فأطلقت ضحكة مُعدِية أشبه بضحكات البنات؛ ضحكة شخص شعر بسرور صادق. كان صوت ضحكتها رائعاً.

"*شابات شالوم*، يا سارة".

"أتمنى لك الأمر نفسه يا آري. *شابات شالوم*. أراك غداً".

وساد الصمت كما لو أن كلاًّ منهما ينتظر الآخر ليقول شيئاً ما. ومن ثم، أقفلا الخط معاً بعد أن كررا عبارة *شابات شالوم*.

بلغ باب صهيون، فحرّك السيارة بعناية لعبوره، مقدِّراً مدى سهولة تجاوز الباب الضيّق وغير المستقيم. لقد اشترى سيارته التويوتا منذ شهرَين بعد أن أسلمت البي أم دبليو الحبيبة الروح، وكان لا يزال يحاول الاعتياد على قيادة سيارة تقوم فيها أجهزة التحكم بما يُفترض بها القيام به. كانت البي أم دبليو صعبة العريكة بالرغم من كل مميِّزاتها. فقد كانت محبوبة ولكنها مُجهِدة؛ على غراره تماماً، كما أحب أن يعتقد طوال عدة سنوات. وها هو الآن يقود سيارة تويوتا كورولا.

بعد أن عبر الباب، انعطف نحو معالي هاشالوم، وتوجه نزولاً حول جبل صهيون. كان سقف وجرس برج دير دورميتون يظهران تارةً ويختفيان طَوراً وراء

أشجار السرو. وفيما كان يقود، اتصل بوالدَيه اللذين عادا إلى مزرعة العائلة ليتمنى لهما *غات شاباس*، ومن ثم اتصل بجدّته في دار العجزة - "هل تأكل يا آري؟ أرجوك يا الله، قل لي إنك تأكل؟" - وبشقيقته شافا التي تحدّثت طيلة الوقت عن مدى غبائه بسبب انفصاله عن سارة؛ فقد كان أول لقاء له بسارة في شقتها.

أخيراً، في أثناء توجهه صعوداً إلى كيرين ها - يِسود وانعطافه إلى داخل ريهافيا بجانب النساء اللواتي يرتدين الملابس السوداء واللواتي يقفن على الدوام عند الزاوية معتصمات اتصل بغيلدا ميلان، حماته السابقة *تقريبًا*. لقد قُتلت ابنتها غاليا قبل أن تتمكن وبِن - روي من المرور تحت *هوباه*.

"إذاً، ألم تعُد إلى سارة بعد؟". سألت ما إن سمعت صوته.

"شابات شالوم لك أيضاً غيلدا".

"هل أنت بخير؟".

"لم أكن كذلك عندما تحققتُ من نفسي في المرة الأخيرة".

"غبـي".

فابتسم بِن - روي بسأم.

"إنها المرة الثانية التي أوصف فيها بالغباء في الدقائق الخمس الأخيرة".

"لِمَ لا؟ إنها الحقيقة".

كانت غيلدا ميلان صريحة وشجاعة. فهي لم تفقد ابنتها الوحيدة فحسب في تفجير إرهابـي، بل فقدت زوجها أيضاً قبل أربع سنوات، وبالطريقة نفسها، في أثناء إلقاء خطاب في تجمّع لأجل السلام خارج باب دمشق. قلّة هم الأشخاص الذين لا ينهارون لدى تعرّضهم لإحدى هذه المآسي. أما غيلدا ميلان التي فقدت الشخصَين اللذَين أحبتهما أكثر من أي شخص آخر في العالم، فقد حافظت على رباطة جأشها بتحدٍّ. فهي الآن تجوب العالم برفقة ياسمينة مَرسودي، زوجة السياسي الفلسطيني الذي قُتل مع يهودا، ترويجاً لقضية السلام. فخارج إسرائيل والأراضي المحتلّة يتم الاحتفاء بالمرأتين، ولكن مناشداتهما لا تلقى آذاناً صاغية هنا. فما يكترث له الناس في هذه الأيام هو كيفية دفع الإيجار، ووجود طعام على موائدهم؛ أكثر من اكتراثهم بالوضع الفلسطيني. لقد انقضت أيام الأمل كما يبدو، وحلّت أيام التسليم. ومع ذلك، ترفض غيلدا ميلان الانحناء. بالنسبة إلى بِن -

روي، إنها تمثّل الوجه الجيد لبلده؛ بالرغم من قيامها بتوجيه الانتقادات إليه بسبب سارة.

واستمرا بتبادل أطراف الحديث إلى أن توقف أمام مجمّعه السكني، فقالا لبعضهما *غات شاباس* مرة أخرى، وأنهى المكالمة الهاتفية، ثم أقفل السيارة وتوجه إلى الداخل.

بعد انفصاله عن سارة، كان قد نام طوال شهر على أريكة أحد الأصدقاء في جيفات شاؤول. غير أن ذلك لم يكن تدبيراً مريحاً لأن الأريكة أقصر من قامته بقدَم واحدة، ولأن شموئيل وصديقته عاشقان مثيران للصخَب. وبعد أربعة أسابيع من الهمهمة والصراخ، وبلوغ بِن - روي مرحلة عدم تمكنه من المحافظة على سلامة الصداقة القائمة بينهما وسلامة عقله، وضّب حقيبته وانتقل إلى شقة رثّة مكوَّنة من غرفة واحدة في مجمَّع سكني في ها - رامبان. كانت تلك الشقة الصغيرة تستهلك 12,000 شيكل من راتبه الشهري، ولكنه تمكن على الأقل من الحصول على نوم لائق في الليل. والأهم من ذلك أنها على بُعد شارع من منزل سارة في ابن - إيزرا، وفي الجهة المقابلة تماماً لملعب الأطفال حيث كان من المفترَض بهما الذهاب في نزهة مع طفلهما - أو طفلتهما - عندما يولَد. وقد منحه ذلك بعض العزاء بسبب عدم إقامته معهما.

عندما دخل، استحمّ، ثم سحب ملابس نظيفة ارتداها، وفتح الأبواب المنزلِقة والتي تؤدي إلى مساحة إسمنتية مستطيلة الشكل، ضيّقة العَرض، مكسوّة بالغبار، يدّعي أنها شرفة. ففي الدقائق العشرين التي تلت مغادرته المركز، كان المطر قد توقّف عن الهطول، وتبدّدت الغيوم ليحلّ مكانها لون أزرق سماوي قاتم مع القليل من اللونَين الزهري والأخضر. إنها أمسية جميلة في القدس، إحدى تلك الأمسيات التي تُنسيك كل ذلك الهُراء الذي يحدث في المدينة. أحضر زجاجة شراب من الثلاجة - لم يعُد يشرب الكثير منه، ولكن اليوم كان طويلاً وعليه التعويض - وسحب كرسيّاً بذراعَين إلى مدخل الشُّرفة، ومدّ قدمَيه على الدرابزين. جلس هناك لفترة وجيزة وهو يُصغي إلى السكون، ويتنشّق روائح الياسمين والأوراق المبلّلة، ويحدّق إلى طاحونة ريهافيا الهوائية. وبعد ذلك، مدّ يده والتقط الكتاب الموضوع على السجادة بجانب الأبواب المنزلقة. "شالوم، الأطفال: مئة معلومة ومعلومة لتكون والداً صاحاً".

فتحه وشرع بالقراءة محتسياً الشراب من القنينة. كان شارد الذّهن. وبعد دقائق قليلة، وضع الكتاب من يده مفكراً.

جثّة امرأة مخنوقة؛ رحلة جوية إلى مصر، دفاتر مدوَّنات مفقودة، فوسغي. لقد أخلت أفكاره عن الأُبوّة الوشيكة المكانَ للقضية مرة أخرى.

في مكان ما

العائلة في المقام الأول على الدوام؛ هذا ما أُنشئنا على تصديقه. خدمة العائلة أيّاً تكن التضحيات، وفي أي زمان ومكان، ومن دون طرح أي أسئلة أو إضمار أي شكوك. أنتم تدعموها وهي تدعمكم. العائلة كل شيء.

لقد أدّيتُ واجبي على مَرّ السنين، هنا وهناك وفي كل مكان، وقمتُ بالعديد من الأسفار، وعالجت الكثير من حالات الفوضى. هكذا أدعو الأمر، إنه معالجة حالات الفوضى. طالما كنت شخصاً مرتَّباً نوعاً ما.

وللعائلة موارد أخرى بالطبع؛ موارد وافرة. ولكن بعض حالات الفوضى تقتضي اهتماماً خاصاً، اهتماماً شخصياً؛ اهتمام شخص ينتمي إلى العائلة، فرد من العائلة يرغب في الحفاظ على سعادتها، شخص يمكن الوثوق به فوق كل شيء.

إنها مسؤولية كبيرة؛ ثقة. إنها عبء ثقيل أحمله عادة بابتهاج ولا أتخلّى عنه ولو لثانية. لقد كبرتُ مع ذاك العبء، بالرغم من كل شيء، وحُفر داخلي منذ سنواتي الأولى، وها أنا أقوم بما يُطلب مني القيام به ليس إلا.

لا أشعر بذاك العبء إلا حين يُطلب مني القيام بأمر ما. وبعد ذلك، أعود إلى نمط حياتي الآمن؛ بعد أن يكون كل شيء قد أصبح مرتَّباً وفي مكانه؛ ولكن من دون الكفّ عن التفكير بدار العبادة الكبرى. هل تصرفتُ بسرعة كبيرة؟ هل تركتُ خيوطاً؟ هل كان يُفترض بي الانتظار؟

كان ينبغي أن تكون العملية مُتقَنة على غرار كل العمليات الأخرى. أذهب إلى شقتها، وأكتشف ما تعرفه، وأعالج ما تمثّله من حالة فوضى، وأُزيل الأدلة، ثم أغادر ببساطة على غرار كل العمليات الأخرى.

ولكن، عندما وصلتُ إلى شقتها، كانت تخرج من الباب الأمامي وهي تحمل حقيبة السفر، وهناك أشخاص في كل مكان؛ ممّا يعني وجود شهود. لذلك، كـان خياري الوحيد تتبّعها، فأستقلّ الحافلة متى تستقلّها، وأترجّل منها متى تترجّل منها، وأتبعها في المدينة القديمة، وإلى داخل دار العبادة الكبرى؛ مفكراً طوال الوقت بحقيبة السفر، وإن كان يُفترض بي إتمام العملية متى تتسنّى لي الفرصة من دون الالتزام بالمخطَّط، محاولاً اتخاذ القرار.

والآن، أخشى أن أكون قد اتخذتُ القرار الخاطئ. لقد عالجتُ حالة الفوضى، إنه أمر مؤكَّد، كما عالجتُ مسألة جهاز الكمبيوتر الحضني ودفاتر المدوَّنات. ويقوم آخرون بالتعاطي مع المسائل التقنية. ولكن هناك خيوطاً، العديد منها، كالصورة الفوتوغرافية مثلاً. هل كان يُفترض بي أخذها؟ هل كان يُفترض بي تفجير الشقة بأكملها؟ هل كان يُفترض بي مواصلة تتبّعها؟ هل، هل، هل؟

لم أبُح لأحد بهذه المخاوف. فالعائلة لا تسأل، وأنا لا أقول شيئاً. ولكنها موجودة، وتقضّ مضجعي، وتقلقني. إن كل المهام الأخرى لا تقلقني، حتى إنني لا أفكر فيها. ولكن القدس، دار العبادة الكبرى...

أخشى أن أكون قد خذلت العائلة لأنني لم أقُم بما يُفترَض بي القيام به، وأن تكون هناك متاعب في انتظاري تسببتُ بها بنفسي. أرجوك يا الله، لا تدَعني أتسبب بالمتاعب لعائلتي. فالعائلة كل شيء بالنسبة إليّ، وبدون العائلة لستُ شيئاً.

وهكذا أملتُ، وانتظرتُ، وأدّيتُ مهامي بأفضل طريقة ممكنة.

يبقى هناك أمر واحد يثير فضولي: كانت تفوح من شعرها رائحة اللوز؛ تماماً كوالدتي.



عندما رنّ هاتفه المحمول في منتصف الفترة الصباحية، كان بن - روي لا يزال مستغرقاً في نوم عميق، متمدّداً على سريره ووجهه إلى الأسفل؛ كنجمة بحر من نوع ما ذات حجم أكبر من المعتاد.

كان قد لجأ إلى السرير عند الثانية من بعد منتصف الليل، بعد إمضائه معظم فترة المساء في البحث عن مقالات لريفكا كلينبرغ على الإنترنت. كان هناك العديد منها،

وأكدت جميعها ما سبق لناتان تيرات أن أخبره به. كانت كلينبرغ تلقى قدْراً كبيراً من الإعجاب، ولا سيما في المرحلة الأولى من ممارستها المهنة، وتلقّت سلسلة من الجوائز بسبب عملها الاستقصائي؛ بما في ذلك ميداليتان نظراً إلى كونها صحافية العام، حصلت على إحداهما عن مقالة تتناول الجَرف الإسرائيلي لغَيضات زيتون تابعة للفلسطينيين، وعلى الأخرى عن مقالة حول تسييس الموارد المائية في الضفة الغربية.

كانت تلقى الكثير من الإعجاب، ولكنها في الوقت نفسه تعرّضت للشّتم على نطاق واسع. لقد أشار تيرات إلى عدد قليل من المجموعات التي أثارت غضبها على مَرّ السنين، ووجد بِن - روي على الإنترنت المزيد من تلك المجموعات: مناصرو الحركات النسائية، مزارعون، موساد، حماس، الشرطة الإسرائيلية، الشرطة الفلسطينية، الصناعات الكبيرة... وتطول القائمة. كان الجميع كما يبدو ممتعضين من ريفكا كلينبرغ. وعندما استلقى على سريره في النهاية كان يشعر بالصداع، واستغرق في نوم مضطرب؛ حالِماً بطفل آذته الهررة في دار عبادة مليئة بخيوط العنكبوت، ولسبب ما، بجثّة لفظها البحر على الشاطئ.

استلقى على سريره داسّاً وجهه في الوسادة، ومترنّحاً ومتأفّفاً، وهاتفه الموضوع على الطاولة بجانب السرير يُطلق بصوت مرتفع موسيقى *هافا ناجيلا*. لقد رغب في تحويل الهاتف إلى صيغة البريد الصوتي، ولكنه خشي أن تكون سارة هي المتصلة وأنها تواجه خَطْباً ما. لذا، مدّ يده والتقط سمّاعة الهاتف متأوّهاً. لم يكن الرقم رقم هاتف سارة. وتردّد راغباً مرة أخرى في تركه يرنّ. بعد ذلك، تمدّد على ظهره وأجاب على الاتصال، مسلّماً بأنه لن يتمكن من النوم مجدداً، ولذلك سيجيب على الاتصال أيّاً يكن المتصل.

"*شالوم*".

"التحري بِن - روي؟".

"*كِن*".

"موردخاي يارون".

لم يستطع تذكّر الاسم إلا بعد مرور وقت قليل. إنه محرر ريفكا كلينبرغ. انحرف إلى جانب السرير، وصفا ذهنه بسرعة.

"كنت أحاول الاتصال بك".

"أعرف. آسف، فأنا خارج المدينة. لقد قرأتُ رسائلك للتوّ".

كان الصوت منخفضاً وأجشّ، وتصعب معرفة عمر المتصل. ربما يكون في العقد السابع من العمر.

"أنا في حيفا"، أضاف. "لقد أنجبت ابنتنا للتوّ. سنبقى هنا حتى *البريس*".

"مازالتوف"، قال بن - روي.

وشعر بحاجة غير عادية للفصل بين نبأ ولادة طفل والجريمة، وشرح له بعد ذلك ما حدث. أصغى يارون إليه قائلاً عبارتَي *"إلوهيم أديرين"* و*"زيخرونا ليفراخا"* فقط في أثناء الحديث.

"سأستقلّ أول قطار"، قال عندما أنهى بن - روي كلامه. "سنعود إلى المنزل غداً بأي حال، ولكن لا أستطيع اختصار الرحلة".

فطلب منه بن - روي عدم إزعاج نفسه قائلاً:

"سيكون لقاؤنا غداً جيداً. أنا مرتبط اليوم بأي حال. متى ستعود؟".

"في أواسط الفترة الصباحية".

واتفقا على الالتقاء في مكتب *ماتزبون - أعام* عند الساعة الثانية عشرة.

"لديّ سؤال سريع بما أننا نُجري اتصالاً هاتفياً"، قال بن - روي بعد أن وقف وتوجّه إلى المطبخ كما لو أنه يمشي في مياه ضحلة. "هل يمكنك أن تُطلعني على ما كانت السيدة كلينبرغ تعمل عليه مؤخراً؟".

"مؤخراً؟ كانت تعمل على مقالة تتناول الاتّجار بالجنس"، أجاب يارون. "فكما تعلم، تُهرَّب الفتيات إلى إسرائيل، ويُرغمن على العمل كمومسات، ويُعاملنَ كعبدات بصفة رئيسة. إنه أمر مُحزن جداً. بدأتْ بالعمل على المقالة قبل شهر".

وتذكّر بن - روي الطاولة الموجودة في شقة ريفكا كلينبرغ، وكل قُصاصات الورق التي وجدها عليها والتي تتناول البغاء وصناعة الجنس. لقد اتّضح الأمر. مدّ يده إلى مرطبان يحتوي على قهوة إليت، وأنزله من الخزانة الموجودة فوق رأسه، وأشعل النار تحت المغلاة.

"وقبل ذلك؟". سأل.

"كتبت مقالة مهمة عن انهيار اليسار الإسرائيلي، وعن أمر ما يتناول التمويل الأميركي للمستوطنين المتطرّفين. وقبل *ذلك*... دَعني أتذكر... آه، أجل، عرضت

للعنف المحلّي في الأراضي الفلسطينية المحتلة. لقد أمضت شهرَين في كتابة تلك المقالة. لم تكن ريفكا تبخل قطّ على بحثها".

سكب بِن - روي القهوة في الكوب، وألقى نظرة سريعة على ساعته. إنها العاشرة. كان قد وعد سارة بأن يكون في شقتها عند الحادية عشرة لتزيين غرفة الطفل، و لم يشأ التأخر. لقد حصل على كل ما يحتاج إليه في الوقت الحاضر، لذلك شكر يارون، وأكّد له موعد اللقاء، ثم أنهى المكالمة، وتناول فطوراً سريعاً، وحلق لحيته، وارتدى ملابسه، ثم خرج من الشقة تاركاً كل الأفكار المرتبطة بالقضية وراءه. إنه يوم إجازة؛ يوم مخصص لسارة والطفل.

في الخارج، كان مطر اليوم السابق ذكرى بعيدة. فقد كانت السماء صافية، والشمس مُشرقة، والجوّ دافئاً ورطباً. وقف للحظات لتنشّق الهواء، ثم انطلق بعد ذلك في نزهة سيراً على الأقدام دامت خمس دقائق متوجهاً إلى منزل سارة، وهو يصفر بنشاز. كان يشعر بأنه في حال جيدة، وبأنه سيصل باكراً للمرة الأولى. لِيُنفَخْ في الأبواق!

ودوّت موسيقى *هافا ناجيلا* مرة أخرى.

"*شالوم*".

"التحري بِن - روي؟".

"*كِنْ*".

"آسف لإزعاجك في يوم *الشابات*. آشر بلوم يتكلم".

للمرة الثانية في ذلك الصباح بدا الاسم مألوفاً. وللمرة الثانية في ذلك الصباح، تطلّب الأمر من بِن - روي بضع لحظات لتذكُّر الاسم. إنه أمين المكتبة الوطنية الذي تعرّف إلى جثة ريفكا كلينبرغ من خلال الصور.

لقد عثروا على شيء ما، قال له بلوم، شيء *قد يكون على درجة من الأهمية*. وسأله إن كان يستطيع القدوم.

وقف بِن - روي للحظات، ناظراً بعينَين ترمشان إلى الطريق التي تفصل بين سيارته التويوتا ونقطة التقائها بابن - إيزرا حيث تقيم سارة.

"سأصل على الفَور"، قال وعاد إلى سيارته مهرولاً.

* * *

يرأس البطريركية الأرمنية في القدس أربعة رؤساء أساقفة، ويُعتبر أحدهم البطريرك الأعلى في حين يكون لكل من الثلاثة الآخرين نطاق عمل خاص به.

كان رئيس الأساقفة آرمن بتروسيان مسؤولاً عن إدارة دار العبادة، وقد وفّر له هذا المنصب إمكانية مراقبة جميع الأرمن - أو مراقبة عائلته كما يفضّل القول - بعد اعتلال صحة غبطة البطريرك.

لم تكن العائلة موسّعة كما كانت ذات مرة، و لم يتجاوز عدد أفرادها 25,000 في أوج مجدها. أما الآن، فقد تناقص العدد إلى بضعة آلاف بسبب الحروب العربية - الإسرائيلية والوضع الاقتصادي. كان الشبانُ يرون مستقبلَهم في أستراليا، وأميركا، وأوروبا، وليس في إسرائيل.

ولكن الأعداد المتناقصة لا تُعفي غبطته من واجباته، وهو لا يساوي شيئاً إن لم يقُم بواجباته. كلهم أبناؤه، وإذا حال نَذر التبتُّل دون إنجابه ذرّية خاصة به، فإنه يعتبر نفسه والداً لهم جميعاً، ويتعيّن عليه إغاثتهم، ورعايتهم، وحمايتهم؛ تلك مسؤوليات الآباء. لقد غادر المجمَّع هذا الصباح واضعاً هذه المسؤوليات نُصب عينَيه، ومُلقياً نظرات سريعة ومتعددة من فوق كتفه للتحقق من عدم قيام أحدهم بتتبّعه، وشاقّاً طريقه إلى داخل المدينة القديمة.

يشكّل المجمّع الجزء الأكبر من الحي الأرمني، ولكن الشوارع الضيقة والمتشابكة القائمة وراء جدرانه تشكل النواحي الخارجية للحيّ؛ فاصلةً إيّاه عن القطاع اليهودي الذي يقع إلى الشرق. طاف رئيس الأساقفة في هذه المتاهة بسهولة نسبية، متوقفاً بعد كل خمسين متراً، وملتفتاً إلى الوراء قبل أن يتابع سيره. فالجدران الحجرية العالية والشاحبة للقدس ترتفع من الجانبَين مشكّلةً ما يشبه ودياناً ضيّقة، وكان يرى من حين لآخر باباً فولاذياً رمادياً عُلّقت عليه لوحة معدنية تحمل اسم العائلة المقيمة في المنزل: هاغوبيان، نالبانديان، بِليان، بِدفيان، ساندروني. وهناك رايات ومُلصقات أرمنية تحيي ذكرى الإبادة الجماعية التي حدثت عام 1915؛ لم يكن اليهود وحدهم من يحتكرون المعاناة، ولا أي شعب آخر. فمن بين أحياء المدينة القديمة قاطبةً، يبقى الحيّ الأرمني الأكثر هدوءاً.

تابع السير حتى وصل إلى أسفل شارع أرارات، حيث انسلّ داخل زقاق ضيّق بعد الالتفات للمرة الأخيرة وراءه. وفي الطرف البعيد، كان هناك بابٌ

عُلّقت لوحة معدنية أعلاه تحمل اسم ساهاركيان. ضغط على زر الهاتف الفيديوي الداخلي. وبعد قليل، سُمع صوت عدد كبير من المزاليج تُسحَب، ثم فُتح الباب. كان هناك رجل يقف في الداخل حاملاً مسدساً بيده، ويوجد وراءه رجلان آخران يحملان بندقيتين رشاشتين. فأومأ رئيس الأساقفة برأسه للدلالة على رضاه.

"آمن؟".

"آمن"، أجاب الرجال بصوت واحد.

رفع بتروسيان يده مبارِكاً، ثم استدار، وأسرع في العودة إلى الزقاق. وسُمع وراءه صوت إغلاق باب وطقطقة مزاليج.

كانت المكتبة الوطنية في إسرائيل بهندستها الحديثة تبدو كشطيرة مستطيلة من الإسمنت على أرض جيفات رام في الجامعة العربية.

ويبدو آشر بلوم، رئيس خدمات القراء، كرسم كاريكاتوري. فهو طويل ونحيل، شعره مقصوص على صورة زبدية بودِنغ، ويرتدي سروالاً من الجينز تنقصه بوصة من الأسفل ليكون مناسباً لطول قامته، كما يضع نظارة سميكة الإطار. كان يجمع في شخصه كل الشخصيات النمطية لأمناء المكتبة الذين يمكنكم التفكير فيهم.

"نُقفل يوم السَّبَت"، شرح في أثناء إدخال بِن - روي إلى المبنى. "قدِمنا اليوم فقط لإنجاز عمل متأخر ووضع بعض أكداس الكتب في مكانها. أخبرتُ راشيل بما حدث، فذكرتِ المقالات. لم تكن هنا يوم أمس، لذلك لم أتصل بك من قَبْل".

ورافق بِن - روي عبر الأبواب الزجاجية وأقفلها، ثم تقدّمه إلى الطابق العُلوي حيث يوجد طابق بدون جدران فاصلة، وعلى امتداد الجدار المقابل لأعلى الدرج نوافذ زجاجية ملوَّنة، وعلى جانبَيه غرف للمطالَعة. وبدت الألواح الملوَّنة وكأنها تحترق تحت ضوء شمس الصباح، مُحدِثةً بِرَكاً حمراء وخضراء وزرقاء على امتداد الأرض المكسوّة بالسجاد.

"نوافذ موردخاي أردون"، شرح بلوم. "إنها مصدر فخرنا وفرحنا".

أومأ بِن - روي برأسه إيماءة تقدير، وتحقق من ساعته. إنها العاشرة وست وخمسون دقيقة. سيصل متأخراً، ولكن سارة تتوقع ذلك وباستطاعته التأخر قليلاً.

عبرا الفسحة، ثم باباً كتبت عيه عبارة *قاعة المطالعــة العامــة*، ووصـــلا إلى مساحة خفيفة الإضاءة، عالية السقف. تحتوي على طاولات، وكومـــات كتـــب، ونوافذ ذات أُطُر من الألومنيوم تُشرِف على باحة داخلية رتيبة. وبجانب الباب تماماً كانت هناك مِنضدة خشبية على صورة L تجلس وراءها أمينة مكتبة ثانية لا توحي بأي شخصية نَمطية: فهي بنّية الشعر، وجذّابة، تضع على أنفها لؤلــؤة، وترتــدي تي - شيرت كينغز أوف ليون ضيّقة.

"راشيل ألدِر"، قال بلوم معرِّفاً بها. "كانت أمينة مكتبة مناوِبة عندما حضرت السيدة كلينبرغ إلى هنا في المرة الأخيرة".

فصافحها بِن - روي، محاولاً الإشاحة بنظره عن صدرها.

"لقد عثرتِ على شيء ما كما يبدو" قال.

فأومأت الفتاة برأسها، مادّةً يدها تحت المِنضدة، ومُخرجةً ورقة أيه4 متغضّنة.

"تركتها السيدة كلينبرغ بجانب قارئات الميكروفيلم"، شرحت، مسلّمةً إيّـــاه الورقة. "عرفتُ أنها لها لأنني تمكنتُ من التعرّف إلى الخط. كانت تترك على الدوام أغراضاً في الأرجاء".

"متى حدث ذلك؟".

"يوم الجمعة الماضي صباحاً".

أي قبل أسبوع من مقتل كلينبرغ.

"سألتَ عما كانت تبحث عنه على القارئات"، قال آشر بلوم. "نعتقـــد أن الأمر قد يكون على درجة من الأهمية".

تفحّص بِن - روي الورقة. فوفقاً لخبرته، هناك أجزاء أدلّة تقفز أمام ناظرَيك، صارخةً: "انظر إليّ! سأحلّ الجريمة!"، وهناك أجزاء أدلّة لا تقوم بذلك على غـــرار هذه الورقة.

كانت الورقة تحمل قائمة بأسماء أربع صُحف وتـــواريخ نشـــرها، إحـــداها الجيروزاليم بوست عدد 2 تشرين الأول/أكتوبر 2010، والثلاث الأخرى عائـــدة للتايمز بتاريخ 9 كـــانون الأول/ديســـمبر 2005، و17 أيـــار/مـــايو 1972، و16 أيلول/سبتمبر 1931.

"هل كانت تتفحّص هذه الأعداد؟" سأل بِن - روي.

فأومأت الفتاة برأسها.

"هل تعلمين ما الذي كانت تتفحّصه بالتحديد؟".

"كانت تقرأ شيئاً ما بلا رَيب في صفحات الأعمال في التايمز. كنت أساعد أحدهم على تشغيل الجهاز بجانبها، وتمكنتُ من رؤية ذلك من فوق كتفها. أعتقد أنه ذلك العدد".

ووضعت إصبعها على جملة *عدد 9 كانون الأول/ديسمبر*.

"كانت تدوّن الملاحظات"، أضافت. "الكثير من الملاحظات".

"والصحف الثلاث الأخرى؟".

فهزت الفتاة رأسها.

نظر إلى القائمة، ومن ثم إلى ساعته. إنها الحادية عشرة ودقيقتان. كان ينبغي عليه الذهاب، وباستطاعته متابعة الأمر في وقت آخر. ولكن البقاء بضع دقائق إضافية لن يُحدِث أي فرق. فتردّد، محاولاً الاختيار بين واجبه المِهَني والتزاماته الشخصية. وانتصر الواجب المهني.

"هل يمكننا إلقاء نظرة؟".

"بالتأكيد".

خرجت أمينة المكتبة من وراء المِنضدة ورافقته إلى صف من الخزائن المعدنية الموضوعة على امتداد الجدار وصولاً إلى طرف القاعة. وتركهما آشر بلوم للقيام بعملهما، شاغلاً نفسه بتكديس الكتب في عربة نقل صغيرة.

كانت الخزائن تحمل أسماء ست صحف، بعضها بالإنكليزية، وبعضها بالعِبرية: هآرتس، معاريف، يديعوت أحرونوت، الجيروزاليم بوست، التايمز، النيويورك تايمز. وتناولت الفتاة القائمة من بِن - روي، ونظرت في اتجاه الأعلى والأسفل، ومن ثم شرعت بفتح الأدراج. كان كل منها مليئاً بصفوف مرتَّبة من الصناديق الكرتونية، ويحمل كل صندوق لُصاقة بتواريخ الأعداد المطبوعة الموجودة في الصندوق، والمتوافرة على ميكروفيلم مُرفَق بها. فأخرجت الصناديق التي تحمل تلك التواريخ، وحملتها إلى أقرب قارئة، وجلست. ووقف بِن - روي وراءها.

"من أين تريد أن تبدأ؟" سألت.

"أظن أنه يجب البدء بالصحيفة التي رأيتِها وهي تتفحّصها. هــل تــذكرين الصفحة؟".

"ليس تماماً. ربما أتذكّرها عندما أنظر إليها مجدداً".

وشغّلت الجهاز، وفتحت أحد الصناديق، وأخرجت لُفافة الأفلام وثبّتتــها في مكانها، ولفّتها وصولاً إلى الصفحة الأولى. وتأكدت من وجود الصورة في الوسط وعدّلت العدسة لتوضيح الرؤية، ومن ثم جعلتها تدور إلى الأمام بســرعة. بــدت الصفحات على شاشة الإسقاط لطَخات رمادية مُبهَمة، وتردد في أرجــاء القاعــة صدى الشريط الملتفّ. فحددت مكان العــدد المطلــوب - الجمعــة 9 كــانون الأول/ديسمبر 2005 - ومن ثم أبطأت البكَرة، ممرّرةً الصفحات صفحة صــفحة بحثاً عن المقطع الذي رأت ريفكا كلينبرغ تقرأه. ومرّت عناوين رئيسة وأجزاء من هذه العناوين - "قد تمتنع المستشفيات عن معالجة المدخّنين والثملين"، "بلير يحاول عزل..."، "... فقدت ساقَيها و لم تعُد تتمكن من السير بين صفوف المقاعد"، "... تموت بسلام في الــ 113" - قبل أن تتوقف أخيراً عند الصفحة 66. فحدّقت بهــا للحظات، ومن ثم أومأت برأسها.

"هذه هي"، قالت. "تعرّفتُ إلى الصورة. كيف هي لغتك الإنكليزية؟".

"جيدة".

"في هذه الحالة، سأتركك للاطّلاع عليها بينما أقوم بإعداد بكَرات أخــرى. لنستفِد من الوقت".

وأشارت إلى زرَّي التقديم والإعادة، ومن ثم انتقلت إلى الجهــاز المجــاور وشرعت بتركيب الفيلم التالي. فجلــس بِــن - روي وحــدّق بالصــفحة أمامه.

كانت هناك صورة لرجل لم يسمع به من قَبْل يدعى جاك غرايمان، وإعــلان بحجم نصف صفحة لمجموعة من الكتب السمعية التي تتناول جرائم خيالية، وثلاث مقالات إحداها عن الاقتصاد الهندي، وأخرى عن نــزاع لأحــد المســتثمرين في تكتّل مصرفي، والأخيرة عن استخراج الذهب.

ذهب، فوسغي.

وانحنى إلى الأمام وشرع بالقراءة.

رومانيا تُعطي بارين ضوءاً أخضر ذهبياً

بوخاريست، مُنحت شركة بارين، وهي العملاق الأميركي في المعادن والبتروكيميائيات، رخصة لمدة ثلاثين عاماً بهدف تطوير منجم الذهب دراجس في جبال أبوسيني الغربية. وتمتلك شركة بارين المسجَّلة باسم باربادوس 95 بالمئة من المنجم، وتعود الحصة المتبقية - 5 بالمئة - لشركة مينفست ديفا التي تمتلكها الدولة.

ولا يزال احتياطي منجم دراجس المعروف منذ العصر الروماني يقدَّر بما بين 30 و40 مليون أونصة من الذهب المقاوِم للصهر الذي يتمتع بمعدل تركيز عالٍ على نحو فريد يبلغ 35 غراماً في الطنّ الواحد.

في نقلة للصناعة في اتجاه آفاق جديدة، لم تُمنَح الرخصة إلا بعد أن قدّمت بارين ضمانات قانونية مرتبطة بإدارة التلوث وحماية البيئة. وتؤدّي عملية استخراج الذهب من المعادن الخام إلى مستويات عالية من النفايات السامّة، والحكومة الرومانية حريصة على تجنّب تكرار كارثة البايا ماري في العام 2000؛ عندما فجّرت بحيرةُ نفاياتٍ سدَّها ولوّثت قسماً كبيراً من الحوض العُلوي للدانوب. وفي حين تسمح الشروط المُرفَقة بامتياز دراجس بتفكيك المادة السامّة بسرعة والتخلص منها محليّاً، أخذت بارين على عاتقها نقل كل الرواسب غير القابلة للتفكيك إلى منشآت في الولايات المتحدة لإبطال مفعولها وطَمرها.

"نتولّى مسؤولياتنا البيئية بجدّية تامة"، علّق المدير التنفيذي الأول مارك روبرتس. "في دراجس، نحن مسرورون بمواكبة حقبة جديدة من التعاون بين صناعة التعدين والمصالح الخضراء".

من المتوقّع أن يُنتج المنجم 1.5 مليون أونصة من الذهب سنوياً عندما يعمل بأقصى طاقته. يبلغ سعر أونصة الذهب الآن 525 دولاراً.

وصل بن - روي إلى نهاية الخبر وأسند ظهره محتاراً. هذا ما كانت تتفحّصه كلينبرغ بالتأكيد، ليس بسبب رابط الذهب/فوسغي فحسب، بل أيضاً بسبب وجود عدة مقالات عن صَهر الذهب، كما يتذكر، وسط كل ذلك الإبهام المحيط بالأوراق التي كانت على الطاولة في شقتها هناك، إضافةً إلى الأطلس الذي وُضعت مؤشّرته عند خارطة لرومانيا. لماذا تتفحّص مقالات عن مسألة مختلفة؟ فوفقاً لمحرّرها، كانت كلينبرغ تعمل على مقالة حول الاتّجار بالجنس عندما توفّيت. لم

يستطع بِن – روي أن يتخيّل وجود صلة بين ذلك وعملية استخراج الـذهب في أوروبا، عِلماً أن اسم بارين ليس غريباً عنه تماماً. فحكّ رأسه، محاولاً تذكّر المكان الذي سمع فيه بهذا الاسم من قَبْل، ولكن من دون جدوى. وبعد تـدوين بضـع ملاحظات، قرر مواصلة البحث.

كانت الجيروزاليم بوست التالية بعد إعداد بكَرهّا.

عدد الجمعة، 2 تشرين الأول/أكتوبر 2010. كانت مقـالات عـن *هـا – ماتزاف*، الوضع السياسي الراهن تملأ معظم الصـفحة الأولى، إضـافةً إلى مقالـة صغيرة مصوَّرة عن الشطرنج، وفي الزاوية السفلية اليمنى إعلان يمتدح الحاخام مئير كاهان؛ "القائد اليهودي الأكثر صُدقاً ونُبلاً في جيلنا". فهز بِـن – روي رأسـه، شاعراً بالتسلية بسبب الغباوة البَحتة لهذا الإعلان، وبالانـزعاج من حصول كبير التحرين ذاك على تغطية في الصفحة الأمامية لصحيفة وطنية رئيسة. ومن ثم ضغط على زرّ التقديم، باحثاً عن مواضيع ذات صلة.

لقد تطلّبه الأمر أقل من دقيقة للعثور على أخبار موجزة عن بارين أيضـاً في الصفحة 4.

اقتحام مكتب في تل – أبيب

تّم اقتحام مكاتب رامات هاشايال التابعة لشركة بارين الأميركيـة متعـددة الجنسيات ليلة الأربعاء. واحتجزت مجموعة مناهضة للرأسمالية تطلق على نفسـها اسم ذي نمِسيس أجندا حراس الأمن، وبعثرت الأوراق الإداريـة، وتسـللت إلى الملفات في أجهزة الكمبيوتر التابعة للشركة. يُطلب ممّـن يملـك أي معلومـات الاتصال بشرطة إسرائيل على الرقم (03) 555–2211.

وتذكّر الآن متى شاهد اسم بارين. ففي اليوم السابق، عندما كان عالقـاً في حركة المرور عند باب يافا، كانت هناك لوحة إعلانات كبيرة تحمل تصوّر أحـد الفنانين لما ستبدو عليه المنطقة بعد انتهاء أشغال الطرقات. وجـاء في شـعارها: "مؤسسة بارين: تفخر برعاية تاريخ القدس المستقبلي".

لم يكن يملك أي فكرة عن سبب اهتمام ريفكـا كلينـبرغ بالشـركة، أو بالاقتحام الذي تعرّضت له مكاتبها، وبمقالة استخراج الذهب أيضاً؛ إذ لم تكـن

هناك صلة واضحة بالقصة التي كانت تعمل عليها. وتفحّص الصحيفة بسرعة للتحقق مما إذا كانت هناك مقالات مرتبطة بالموضوع. ولكنه لم يجد أي شيء، فدوّن مجدداً بعض الملاحظات، ثم انتقل إلى الجهاز التالي الذي يحمل بكَرة عدد صحيفة التايمز العائد لتاريخ 17 أيار/مايو 1972. كانت هناك في الصفحة الأمامية صورة رجل مكبَّل اليدَين مع عنوان رئيس: "السيد والاس الآن خارج قائمة النقّاد ويتّجه لتحقيق انتصار كبير في الانتخابات الحزبية الأولية عن ماريلاند".

حتى الآن، جرت الأمور بسرعة وبشكل معقول. وبالرغم من صفحاتها البالغ عددها 28، كانت الصحيفة محشوّة من بدايتها إلى نهايتها بما يلي: قصص إخبارية، مقالات بارزة، افتتاحيات، رسائل القراء، مراجعات، ولادات، زيجات، وفيات، إعلانات مبوَّبة؛ كلها بحروف صغيرة تُصيب العينَين بالدُّوار وتؤلم الرأس. لقد اعتقد للحظات أنه عثر على ما يريده في الصفحة 7 حيث توجد مقالة كبيرة عن افتتاح منشأة جديدة لتوليد الكهرباء بواسطة الماء في رومانيا. كان هناك بُعد إسرائيلي أيضاً: صورتان في النهاية تُظهران الرئيس الروماني تشاوشيسكو في لقاء مع غولدا مِئير لمناقشة الوضع الفلسطيني. رومانيا وإسرائيل، صلات واضحة. لقد أنبأه حدسه بأن الحدثَين تزامنا صدفة، وليسا ما كانت ريفكا كلينبرغ تتفحّصه. وقرأ المقالة مرتين، ومن ثم تابع البحث.

وفي النهاية، قضى الجزء الأكبر من الساعة وهو يجدّ في مطالعة كل المقالات التي تتناول محاولة اغتيال حاكم ألاباما جورج والاس، وحرب فييتنام، والاضطراب الصناعي في المملكة المتحدة، والنموّ السكاني في اليابان، وقيام امرأة في إيران بإنجاب ثمانية توائم، وسقوط امرأة أخرى في حفرة في مصر. وكانت راشيل ألدِر وآشر بلوم يجوبان القاعة، مُعيدَين الكتب إلى الرفوف، ومن ثم خرجا لإحضار الغداء، وعادا بعد ذلك وبِن - روي لا يزال جالساً هناك؛ غافلاً عن مرور الوقت، وعن كل شيء باستثناء النص الموجود أمامه. كان قد سمع ذات مرة بأن القدس تملك أعلى نسبة في العالم لجهة المشاكل التي تعاني منها العيون، وذلك لأن كل ما يقوم به طلاب اليِشيفا هو الانكباب من الفجر وحتى الغسَق على قراءة النصوص المقدسة اليهودية. وكلما قرأ المزيد، ازداد ارتياب بِن - روي بأنه سيُضاف قريباً إلى هذا الإحصاء. ومع ذلك، لم

يتمكن من العثور على أي شيء قد يفسر سبب اهتمام ريفكا كلينبرغ بتلك المطبوعة بالتحديد.

في النهاية، وصل إلى آخر الصحيفة وكفّ عن البحث، مسلِّماً بأنه لن يجد ما كانت كلينبرغ تتفحصه. وانتقل إلى كرسيّ آخر، وركز على آخر الصحف في قائمة كلينبرغ: التايمز - عدد 16 أيلول/سبتمبر 1931.

كانت الصفحات مليئة بنصوص أكثر قرباً من بعضها، وأكثر صُغراً من عدد العام 1972، وهذا ما أثار ذُعره. لم تكن الصفحات الثلاث الأولى تحمل أي مقالة بل مجرد قوائم صغيرة تُدمع العينَين تحتوي على ولادات، وزيجات، ووفيات، وإعلانات مبوَّبة. وبدلاً من قراءتها كلها كما فعل في الصحيفة السابقة، قرر تصفّح كل الصفحات بسرعة أملاً في ملاحظة خبر ما على صلة بالموضوع.

وهذا ما قام به. وفي الصفحة 12 التي تتناول الأخبار الاستعمارية والأجنبية، كانت هناك قصة قصيرة من ثلاثة سطور مدسوسة بين مقالتَين عن فيضانات في الصين وإعصار في بليز. كانت قصيرة جداً لدرجة أنه مرّ عليها من دون التوقف عندها، ولكن أمراً ما استرعى انتباهه وعاد للتحقق منه.

رجل إنكليزي مفقود

(نقلاً عن مراسلنا)

القاهرة، 15 أيلول/سبتمبر

أُبلغ عن فقدان السيد صامويل بينسكر، وهو مهندس في التعدين من سالفورد، مانشستر، في مدينة الأُقصُر. والبحث عنه مستمر.

لقد شعر بالإرهاق وبألم في الرأس، فارتاح للحظات محاولاً أن يتذكر المكان الذي رآه فيه من قَبْل. وبعد أن تذكر، وقف وعاد إلى الجهاز السابق وإلى صحيفة التايمز السابقة، عدد 17 أيار/مايو 1972. كانت الصفحة الأخيرة لا تزال معروضة على الشاشة، أعاد البكَرة إلى الوراء إلى الصفحة 2، ومن ثم قدّمها إلى الأمام باحثاً. مرّ على الصفحات ثلاثة، أربعة، خمسة، ستة، وسبعة، وأعاد البكَرة صفحتَين إلى الوراء، وعثر على ضالّته في أسفل الزاوية اليمنى للصفحة 5؛ إنها قصة المرأة التي سقطت في حفرة في مصر. فاحدودب إلى الأمام، وقرأ:

نجاة محظوظة

الأُقصُر، مصر، 16 أيار/مايو. نجت امرأة بريطانية بعد سقوطها داخل فتحة قبر ناءٍ في أثناء إقامتها في الأُقصُر لقضاء شهر العسل. وقع الحادث بينما كانت ألكسندرا بُورز تسير مع زوجها على التلال المحيطة بوادي الملوك. وبالرغم من سقوطها عن ارتفاع 20 قدَماً، لم تُصَب بُورز إلا بكسر في رسغها وببعض الكدَمات. ولكن شخصاً آخر لم يكن محظوظاً على غرارها. فبينما كانت في أسفل الفتحة، اكتشفت السيدة بُورز جثة رجل محفوظة تماماً في المُناخ الصحراوي الجاف. وتشير المعلومات الأولية إلى أن الجثة عائدة لساموبل بينسكر، وهو مهندس بريطاني فُقد قبل أربعة عشر عاماً، ويُعتقد أنه سقط في الهوة في أثناء استكشافه التلال الطيبيّة. وعاد السيد والسيدة بُورز إلى المملكة المتحدة.

لقد أعاد قراءة القصة ثلاث مرات، وقرأ القصة السابقة تكراراً، ومن ثم جلس، فاركاً عينَيه. مهندس في التعدين يختفي في مصر، وتفتتح شركة أميركية متعددة الجنسيات منجم ذهب في رومانيا، وتُقتَحم مكاتبها في إسرائيل، وتهتم ريفكا كلينبرغ بكل هذه الأمور، وتموت ريفكا كلينبرغ خنقاً. هناك ثلاثة خيوط، خيوط وصِلات جديرة بتشكيل نسيج عنكبوت. فكلها مرتبطة بطريقة ما وتؤلّف شكلاً نَمطياً. اكتشفْ الصِّلات، وافهمِ الشكل النمَطي، وعندها ستحل الجريمة. أمر بسيط. إنه أشبه بأُحجية الصورة المقطَّعة، عدا عن أن هذه الأُحجية الاستثنائية مكوَّنة من ألف قطعة مختلفة كما يبدو، ومن دون وجود أي إلماعة لما ستكون عليه الصورة النهائية ككل. إنها بحاجة إلى متعقّب ظلال، وفقاً لتعبير ليه شاليف، لا بل إلى ما هو أفضل من متعقّب للظلال. وكلما فكر بالأمر بدا أكثر تشوّشاً وازداد الألم في رأسه.

فتأوّه ومدّ ساقَيه، محدّقاً بذهن شارد بالساعة الجدارية على الجانب البعيد لقاعة المطالَعة. إنها الواحدة وعشرون دقيقة.

وبعد لحظات، رفع آشر بلوم وراشيل أدلِر أنظارهما، مُجفلَين، بعد أن اخترقت صرخة "آه تبّاً!" جدار الصمت.

عندما وصل بن - روي إلى موقف سيارات حرَم الجامعة، كان على عجَلة من أمره لدخول سيارته التويوتا والتوجه إلى منزل سارة لدرجة أنه لم يلاحظ

مضمار الألعاب الرياضية التابع للجامعة على بُعد 200 متر، و لم يتكبّد عناء النظر إليه. فلو نظر لرأى شخصاً واحداً يهرول على مِضمار السباق. ولو انتظر وصول ذلك الشخص إلى أقرب نقطة منه لتمكّن من معرفة زميله التحري دوف زيسكي.

غالباً ما يقصد زيسكي المكان بعد *الشول* في صباح يوم السبت. بعض الحاخامات يقولون إنه لا يُفترض بكم الركض يوم الشَّبَت لأنه يوم استراحة، والقيام بتمارين رياضية أمر مخالف للدين. ولكن، طالما كان لزيسكي تصوّره الخاص عن الإيمان، وعن معظم الأمور. إنه مطيع ولكن ليس إلى درجة الاستعباد. بأي حال، يمنحه الحفاظُ على لياقته البدنية السرورَ. إذاً، لا بأس بذلك، وكان يتصوّر أن *ها* – شيم ربما يُضمِر له أموراً أكبر.

زاد سرعته، وركض بأقصى سرعة مسافة مئة متر، وأبطأ بعد ذلك، وسدّد بعض اللكمات، مُرخِياً ذراعَيه. كان يعرف ما يراه الناس وما يفكرون فيه عندما ينظرون إليه: إنه ضعيف، وفاقد الحيوية؛ شخص يسهل التغلّب عليه. غير أنه يمكن للمظاهر أن تكون مُضلِّلة. ومع ذلك، فهو لم يُعِر الأمر اهتماماً، وكان يحاول على الدوام تجنّب المواجهات. ولكن، عندما يتفاقم الوضع فباستطاعته الاهتمام بنفسه تماماً. لقد لاحظ الناسُ، أشخاصٌ مثل غرشمان في أكاديمية الشرطة، هذا الأمر على مَرّ السنين. في العادة، لا يُبالي زيسكي بتعابير الاستهزاء التي تصفه بأنه غير سويّ – فقد اعتاد سماعها منذ مدة طويلة – ولكنه يلجأ أحياناً إلى شنّ هجوم مضاد عندما يُضطر لذلك. ويبدو أن غرشمان قد تعرّض لهذا الهجوم وكفّ عن مضايقة زيسكي، ولديه الآن أنف مُعوَجّ لبقيّة حياته.

ركض بأقصى سرعته مرة أخرى، وارتمى على العشب بجانب مضمار السباق، وشرع بتمارين الضغط مستمتعاً بانتفاخ عضلات ذراعَيه وصدره. وفي أثناء ارتفاعه وانخفاضه، اندفع بَندول فضّي يحمل عبارة *ماغِن دافيد* خارج الناحية العُلوية من كنزته الرياضية، فأُرغم على التوقف لإعادته إلى مكانه تحت الكنزة. كان لوالدته ولم يشأ أن يتضرر، فتحقق من وضعه بشكل آمن، ثم أنهى التمارين. واستلقى على ظهره للقيام بتمارين للمعِدة، وبعد ذلك عاد إلى المِضمار مجدداً.

توفيت والدته قبل عامَين، عِلماً أن وفاتها تبدو كما لو أنها حدثت في اليوم السابق. لقد أُصيبت بمرض السرطان في السائل اللِّمفَوي، والرئتَين، والمعِدة؛ في كل

شيء أساسي. وقبل أسبوع من وفاتها، وبعد أن أصابها الهزال وفقدت كل شعرها الذهبـــي الجميل بسبب العلاج الكيميائي، أصرّت على مغادرة المستشفى لحضور تخرّجه من أكاديمية الشرطة. كان شقيقها شرطيّاً ومات في أثناء الخدمة، وها هـــو ابنها يحمل شارته أيضاً. لقد بكت فَخراً، وبكى زيسكي أيضاً ولكن ليس أمامها، بل في وقت لاحق بعد عودته إلى مبنى الأكاديمية. حينذاك، صادفه غرشمان وشرع بمناداته قائلاً إنه غير سويّ. وبالرغم من طول قامته البالغة اثنتَين وستين قدَماً ووزنه البالغ 90 كيلوغراماً، ألحق به زيسكي الهزيمة. يا له من جاهل!

وزاد سرعته من دون بلوغ السرعة القصوى، وكان حذاؤه الرياضي يـــرتطم بأرض المِضمار على نحو إيقاعي، والبَندول البارد العائد لوالدته ماغِن دافيد ينـــزلق جيئةً وذهاباً على امتداد عَظم صدره المتعرّق.

كان يفكر بوالدته كثيراً، ويعلم أنه تتم الإشارة إليه بالبَنان على أنه الشاب غـــير السويّ الذي يحب والدته، ولكن هذا ما كان عليه الحال. فقد كانت امـــرأة صـــالحة وقوية، وحافظت على وحدة العائلة في بعض الأوقات العسيرة. وفي النهايـــة، وبينمـــا كان جالساً بجانبها، ممسكاً بيدها وممرّراً يده بنعومة على رأسها الأصلع، حملته علـــى إطلاق وعد لها بأن يكون ابناً صالحاً وشقيقاً صالحاً، وشرطياً صالحاً أيضاً، وأن يحاول على الدوام القيام بالأمر الصائب، وأن يتأكد من مثول فاعلي السوء أمام العدالة.

لهذا السبب، كان قد قرر التوجه إلى شقة ريفكا كلينبرغ لإلقاء نظرة عليها، وذلك بعد الاستحمام وتناول القليل من الطعام، لأنه يريد القيام بالأمر الصـــائب؛ ألا وهو تقديم فاعلي السوء للعدالة. لم يكن يُفترض أن يعمل أحد يوم السّبت، أو يمارس رياضة الهرولة، أو تمارين المِعدة، أو حركات كراف ماغـــا، ولكـــن دوف زيسكي لم يتقيّد بالقواعد؛ إذ كانت لديه ممارسته الدينية الخاصة.

إنه أمر ورثه من والدته.

* * *

كان بِن – روي لا يزال يملك مفاتيح شقة سارة؛ إذ لم يكن انفصالهما تامّـــاً لأنها طالبت بأن يعودا إلى بعضهما. وعندما لم يُجب أحد على قرع الباب، وانتقل هاتفه المحمول إلى صيغة البريد الصوتي، فتح الباب ودخل.

فبخلاف غاليا التي كانت تتمتع بمزاج ناريّ، لم تكن سارة سريعة الغضب. فهي تعبّر عن رأيها بصراحة، وإذا كانت منزعجة فهي تعلمه بذلك. بصورة عامة، إنها هادئة ومسترخية نوعاً ما بالرغم من تصرّفاته على مَرّ السنين. إن هذا أحد تلك الأمور العديدة التي جعلته ينجذب إليها في المقام الأول ويفتقدها.

كانت غاضبة منه في هذا اليوم، غاضبة جداً لدرجة أنها لم تكن موجودة عندما دخل الشقة، حتى إنها تركت كومة من لوازم التزيين على أرض الرَّدهة: أوعية الطلاء، الفراشي، صندوق العدة، بعض الرفوف، مع رسالة مقتضَبة وجافية موضوعة عليها. ذهبتُ *إلى منزل ديبورا. قُم بالعمل بنفسك.*

وهذا ما قام به بقية اليوم، وتلاشى شعوره بالفرح لإعداده غرفة مولوده الأول لأنه على ثقة تامة بأن والدة هذا المولود الجديد تعتقد أنه غبيّ تماماً.

هيوستن، تكساس

حدّق وليام بارين بطاولة قاعة الاجتماعات - قطعة واحدة على صورة مدرَج طائرات من القَيْقَب الأحمر المصقول - وتمنى لو أنه لم يتعاطَ هذا الكمّ من الكوكايين قبل القدوم إلى الاجتماع.

كان قد خصص لنفسه قطعة صغيرة فقط؛ شظيّة رفيعة بطول بوصة واحدة من أفضل الأنواع البوليفية قطعها بترتيبٍ بواسطة نَصل الأميكس بلاك لاستجماع القليل من النشاط بعد ليلة شاقة. *لماذا يعقدون على الدوام اجتماعات مجلس الإدارة يوم السبت؟*

فبعد تعاطيه الكوكايين وجلوسه هناك إلى طاولة مكتبه كدودة خَيطية هزيلة، بدا الأمر خيالياً وغير ملائم البتّة لساعة الملل التي تنتظره في الشركة. أعاد فتح اللُّفافة، وأخرج كمية صغيرة أخرى من المسحوق الشفّاف، وسحقها بزاوية الأميكس، وأضافها إلى ما كان موجوداً هناك. ولكن ذلك بدا غير كافٍ، وانتهى به الأمر مُفرِغاً كل المحتويات المتبقية في اللُّفافة - الجزء الأكبر من ثلث غرام - وجامعاً إيّاها على صورة إصبع صغيرة. لقد تنشّقها بنخرة واحدة متمرِّسة، مستخدماً أنبوب الكوكايين الفضي الذي أفرده خصّيصاً لهذا الغرض. وبعد تمريره

لسانه على اللُّفافة لالتقاط الذرّات المتبقية، ومسحه الطاولة بذراعه لإزالة أي دليل، استقلّ المصعد إلى قاعة الاجتماعات مع شعور جيد بمعنويات مرتفعة.

وندم على ذلك بعد عشرين دقيقة. فقد كان قلبه يخفق بقوة، ولم يتمكن من الكفّ عن صَرف أسنانه، وكانت الأفكار تتتالى في رأسه بسرعة هائجة لدرجة أنه كاد ألاّ يتحكم بها. فجلس هناك إلى رأس الطاولة، هازًّا ساقه بتوتر وناظراً بسخف إلى الأعضاء الآخرين في مجلس الإدارة الذين يتبادلون أطراف الحديث عن الشركاء الجدد المتمتعين بالنفوذ، وعن إعادة بناء الثقة بالشركة في الخارج، وعرض الأسعار في شأن حقل الغاز في مصر. فإذا لم يفوزوا بالعقد ستتراجع أعمال شركتهم ومرتبتها في قائمة فوربس للشركات الخاصة.

كان يُدرك أن الجميع يحتقره، ولا سيما مارك روبرتس المدير التنفيذي الأول، ويشعر بأنه عائق، وقليل الشأن، وليس واحداً منهم. فهو لم ينضم إلى مجلس الإدارة إلا لأنه حفيد الحفيد لجو بارين المحترَم الذي انبثقت إمبراطوريته – شركة بارين – المقدَّرة ببلايين الدولارات من الامتياز الذي حصل عليه للتنقيب عن الذهب في سييرا نيفادا. كان شخصاً متواضعاً يخاف الله، وُلد في كوخ مؤلَّف من غرفة واحدة – وفقاً لأسطورة العائلة – ولم يكن جو ليتخيّل قطّ أن تنمو مغامرته الصغيرة ويصبح عملاقاً في التعدين والبتروكيميائيات بعد ثلاثة أجيال، ولديه أعمال في القارّات الست واتصال مباشَر بالبيت الأبيض. ولم يكن ليتخيّل أيضاً أن يكون حفيد حفيده جالساً مع أعضاء مجلس إدارة الشركة منتشياً بعد قضائه الليلة لاهياً مع مومس!

أجل، إنهم يحتقرونه: مارك روبرتس، جيم سلاين، هيلاري ريكهام، أندي رودجرسون. وألقى وليام نظرة حوله، وشعر بالاستهجان يكوي كلاًّ من أعضاء مجلس الإدارة الاثنَي عشر. لقد شعر بهذا الاستهجان بصفة خاصة ينبعث من شاشة الاجتماع الفيديوي القائمة على الطرف الأبعد للطاولة، حيث كان وجه والده المتورّم والأشيب يحوم عبر الأثير كما لو أنه نحلة طنّانة هائلة من نوع ما.

وإذا كان جو بارين هو من أسس الشركة، وقام ابنه جورج بتوسيعها، فإن ناتانيال بارين – حفيد جو المُسنّ، ووالد وليام – هو من حوّلها إلى ما هي عليه اليوم من كيان ضخم؛ فهو من نوّع خدماتها لتشمل النفط والغاز، وهو من وسّع

أعمالها في أنحاء العالم من خلال شركات فرعية تمتد من روسيا إلى إسرائيل، ومن الصين إلى البرازيل، وهو من أقام الصلات السياسية، وحاك خيوط الالتزام التي أوقعت حكومات في شتى أنحاء العالم في أشراك بارين العنكبوتية.

فناتانيال يجسّد شركة بارين، وبالرغم من تقدّمه في السن وسوء حالته الصحية اللذَين أرغماه على التنحّي عن رئاسة الشركة قبل أربعة عقود تقريباً، فهو لا يزال يسترعي اهتمام الآخرين كرئيس مجلس إدارة غير تنفيذي.

ولكن، ليس لمدة طويلة. فالرجل المُسنّ مريض ويفقد لمسته، ووليام على أُهبة الاستعداد لتسلّم زمام الأمور. ربما كان يميل إلى الكوكايين والسيارات والمومسات ولكن ذلك لا يعني أنه غبي، بل بالعكس تماماً. كان يحوك بعض المؤامرات في الأيام الأخيرة، مؤامرات دقيقة ومُحكَمة بالتعاون مع أشخاص يشغلون مناصب عالية ومفيدة. وبعد إلقاء نظرة حَوله، كان على يقين بأن سبعة على الأقل من الأعضاء الاثنَي عشر سيتخذون جانبه عندما يحين الوقت. إنهم يحتقرونه ولكنهم يخشونه. فعلى غرار مايكل كورليون في الفيلم السينمائي *العرّاب*، سيتولى وليام بارين قريباً أعمال العائلة، كل أعمال العائلة، والويل لمن سيقف في طريقه.

"هل هناك ما يُبهجك يا بيلي - بوي؟".

لقد صدرت زمجرة شبيهة بزمجرة دب من الشاشة التي يجري من خلالها الاجتماع الفيديوي، وملأت القاعة، موقِظةً وليام من حلم اليقظة. وكما يرونه على الشاشة، كان ناتانيال يراهم أيضاً من خلال كاميرا صغيرة مثبَّتة في أعلى الشاشة لأنه نادراً ما يغادر منزل العائلة الفخم على ضفة نهر أوكس في هذه الأيام. كان يحدّق مباشَرةً بابنه.

" هل هناك ما يُبهجك؟" كرّر، وشعّ وجهه المنتفخ والمماثل لكرة السلة استهجاناً.

"لا، يا سيدي"، أجاب وليام متلعثماً، واندفعت الكلمات من فمه بسرعة نَرد على طاولة الكرابْس؛ "لا شيء".

"ولكنك تبتسم ابتسامة عريضة، يا بيلي - بوي. الناس لا يبتسمون ما لم يكونوا مبتهجين. رجاءً، شاطرنا بهجتك".

لم يكن وليام مُدركاً أنه يبتسم. فزمّ فمه بتوتّر، وبدّل جلسته على نحو غير مريح مع تحديق ثلاثة عشر زوجاً من العيون به. لقد شعر بأنه معتوه؛ تماماً كما حدث له عندما أذلّه الرجل المُسنّ أمام الخدم ونعته بالفاشل. ولكنه لم يكن معتوهاً، و لم يكن فاشلاً بالتأكيد. كان فائزاً، وعمّا قريب سيُثبت...

"بيلي - بوي؟".

كان الصوت أجشّ ومهدِّداً. إنه صوت أورسن وِلز الخالي من أي طيبة قلب. إنه صوت كوابيس وليام المزعجة.

"لا بد أنني كنت أفكر بعرض الأسعار المصري"، تمتم؛ باذلاً قُصارى جهده لكبح جماح تأثيرات الكوكايين وللمحافظة على هدوء لهجته واتزانه، وأصبح مثل فوريست غامب. "إذا حصلنا على العقد... فسينقلنا إلى مستوى آخر. وفي الواقع سيضع بارين على الخارطة".

فحدّق به والده عبر شاشة الفيديو كثعبان كوبرا متربّص براكون، أو بالأحرى ككركدن متربّص... أيّاً يكن ما تتربّص به حيوانات الكركدن. إنها اللحظة المحورية، لحظة العذاب، اللحظة التي تجعل وليام يتغوّط في سرواله، وليام البالغ من العمر ثلاثة وثلاثين عاماً ويشغل منصب نائب رئيس مجلس إدارة شركة متعددة الجنسيات تبلغ دورة رأس مالها 50 بليون دولار. هل سيهاجمه الرجل المُسنّ ويعنّفه كما كان يفعل على الدوام؟ أم سيهدأ وينسى الأمر؟ كانت ساق وليام تتحرك صعوداً ونزولاً، فيما الأعضاء الآخرون لمجلس الإدارة مسمّرون في أماكنهم بصمت، والتوتر ينطلق كشعاع ليزر بين طرفَي الطاولة. كان باستطاعته سماع تكتكة الثواني.

"بارين موجودة على الخارطة منذ زمن"، قال والده أخيراً عندما كان وليام على وشك البدء بالصراخ. "في كل مكان من الخارطة".

ومنحه الرجل المُسنّ لحظة أخرى، رافعاً من حدة التوتر ومن ألم الانتظار. وبعد ذلك، أسند ظهره إلى الكرسي، ناخراً على نحو ينمّ عن الرضى.

"تبّاً، نحن نملك الخارطة اللعينة!".

وتماوج الضحك في أنحاء الغرفة، وتبدد التوتر. وأطلق وليام أعلى الضحكات. "صحيح، تماماً!". صاح مصفّقاً بيدَيه. "إنها خارطتنا اللعينة! نحن متواجدون في كل مكان كالذباب على الغائط!".

كان تعليقه غبياً بعد أن أخذ منه الكوكايين وشعوره بالارتياح كل مأخذ. وأسف لذلك على الفور، وحلّ سعال مُحرَج مكان الابتسامات. لحسن الحظ، لم يلاحظ والده ما قاله كما يبدو. ورفع قناع الأكسجين البلاستيكي إلى وجهه، وأخذ نفساً عميقاً وخشناً - يا الله! كم أَحب وليام ملء ذلك القناع بغاز السارين ومشاهدة الوغد العجوز وهو يختنق! - ولوّح لمتابعة الاجتماع. وشرع جيم سلاين، المدير التنفيذي الأول، بالعرض للعمليات الحسابية المعقّدة، وملأ صوته الطنّان الصادر من أنفه القاعة، مُفرغاً إيّاها من الحياة والألوان.

وأسند وليام مِرفقَيه إلى الطاولة، وشبك يدَيه، جالساً بأكثر قدْر من الثبات، محاولاً أن يبدو شديد الاهتمام والتركيز، وغائصاً مجدداً في أفكاره. كانوا يعتقدون خطأً أنه لم يفهم أيّاً من ذلك. فهو مُلِمّ بجوانب الأعمال كافّة: الأرقام، التلميحات، الصفقات، الصفقات الثانوية؛ كل شيء، لا بل أيضاً الأمور التي يظنّ والده أنه لا يعرفها. فهم من لم يفهموه، هم من لم يفهموا مدى ذكائه، وعزمه، وقساوته؛ على غرار مايكل كوليون تماماً. سيهتم بأعمال العائلة قريباً. لديه خطط، وأصدقاء، ودعم. سيكون هناك سفك دماء، وعندما ينتهي ذلك سيسيطر على زمام الأمور تماماً.

الأُقصُر

بواجهته المَهيبة ذات القضبان المشبَّكة ورَدهته الكَهفية المكسوّة بالمرمر، كان مركز الشرطة الجديد في العوّامية مبنى شديد القبح يوحي بمهابة هندسية مضلِّلة.

ويشير السكان المحليون إليه *بالبندَر*.

وأولئك الذين يعملون هناك يطلقون عليه أسماء متنوّعة: القلعة، كعكة الزفاف، ومبنى الحسَني الفخم الذي لا طائل منه.

إثر وصوله في صباح يوم الأحد بعد يوم إجازته، اندفع خليفة عبر بابَي المدخل الزجاجيين المكسوّين بالغبار، وأومأ برأسه محيّياً الرقيب الجالس إلى الطاولة، وكدّ في السير صعوداً على الدرج لبلوغ مكتبه في الطابق الرابع. في المركز القديم، كان يُصرّ على الوصول إلى مكتبه عند الثامنة صباحاً على الأكثر، ولم يكن يصل

إلى العمل في الوقت المحدَّد. ومنذ انتقاله إلى المركز الجديد، سمح لنفسه بعدم التقيّد ببعض الأمور، ونادراً ما كان يصل قبل التاسعة. وفي هذا الصباح، كان الوقت يقارب العاشرة عندما وصل إلى أعلى الدرج ودخل مكتبه.

"مساء الخير"، قال إبراهيم فتحي، وهو التحرّي الذي يشاطره المكتب. كان الجميع يطلقون عليه لقب *الحمار*.

فتجاهل خليفة الملاحظة الساخرة، وارتمى وراء طاولته، وشغّل جهاز الكمبيوتر، وأشعل سيجارة كليوباترا.

"هل هناك أي رسائل؟".

"لم أتلقَّ أي رسالة"، أجاب فتحي، ساحباً مشطاً وممرّراً إيّاه على شعره المنتقع بالزيت بوفرة.

"هل وصل ساريا؟".

"حضر وغادر. لقد تمّ سحب الوقود من زورق آليّ آخر. إنه الحادث الثالث من نوعه هذا الأسبوع. إنه على الكورنيش يتحدث إلى المالك".

سحب خليفة نفساً عميقاً من سيجارته. لم يكن يعتزم النزول إلى النهر؛ إذ يملك ساريا القدرة التامة على التعاطي مع الأمور بمفرده. لذلك، أجرى اتصالاً سريعاً بالمنزل - كان قد غادر قبل عشرين دقيقة فقط، ولكنه يحب البقاء على اتصال بزينَب للاطمئنان عليها - وشرع بتقليب الملفات الموجودة على طاولته. فبعد أسبوعين، سينظر القضاء في قضية الطَّعن التي حدثت في توثوتيل. ولكن سبق له أن تقدّم بتقريره، وكل ما تبقى لديه للقيام به هو المثول أمام القاضي في قاعة المحكمة وتقديم دليله. ولا يزال يتعيّن عليه النظر في قضية الاتّجار بالمنشِّطات في السوق، ويُفترض به ربما الذهاب إلى الكَرنَك في مرحلة ما والتحقق من التقارير التي بلغته في شأن سرقات تعرّض لها مخزن تَلاتات. لو عاد به الزمن إلى الوراء لقصد المكان على الفور، ولكنه ارتأى هذا الصباح أنه باستطاعة ذلك الانتظار؛ وباستطاعة السوق الانتظار أيضاً. وكما هو الحال في هذه الأيام، لم يكن في مِزاج ملائم. وفكّر في إجراء اتصال هاتفي بدميانا بركات، ومتابعة حديثهما الذي جرى قبل يومَين، ولكنها كانت ستتصل به لو بلغها أي شيء، فقرر مرة أخرى عدم الاتصال بها. وواصل تقليب المدوَّنات بإبهامه في أثناء ولوجه الإنترنت باليد

الأخرى، ودخوله إحدى غرف التحادث التي كان قد زارها مؤخراً ليس لتبادل أطراف الحديث - كان شديد الخجل حتى باعتماد اسم مفترَض - بل لقراءة ما يقوله أشخاص آخرون يعانون مما يعاني منه؛ كان يشعر بالراحة لوجود أشخاص مثله.

ولج الموقع وانحنى إلى الأمام مستعداً للقراءة. في هذه الأثناء، رنّ هاتفه المحمول. جيد، جيد. إنها دميانا.

"صباح الخير يا صديقتي"، قال وعيناه مسمّرتان على الشاشة. "كنت أفكر للتوّ في الاتصال بك. هل كل شيء بخير؟".

"بخير"، أجابت. "اسمع، أنا على وشك دخول دار العبادة، لذلك سيكون الاتصال سريعاً. أردت تقديم بعض المعلومات التي قد تكون على صلة بما ناقشناه يوم أمس".

حدّق خليفة بالصفحة للحظات أطول - رسالة أخرى من جمال في الإسماعيلية الذي لا يزال يناضل للتأقلم مع فقدانه زوجته قبل عامَين - ومن ثم أشاح بنظره عنها، مولِياً صديقته انتباهه الكامل.

"أنا أُصغي"، قال.

"بعد أن تحدّثنا، طلبتُ التحقق مما إذا كان أحدهم قد بلغ مسمعيه أي حدث مماثل لتلك الأحداث التي وصفتَها"، أضافت، "كما تعلم، تسميم الآبار وطرد الناس من مزارعهم. لم يسمع أحدهم بأي أمر مماثل، على الأقل في المنطقة التي حدّدتَها. ولكن، هذا الصباح، كنت أتحدّث إلى مرقس الذي يدير مكتبة هنا، وذكر حدوث أمر مماثل. حدث ذلك منذ زمن بعيد، وفي مكان مختلف تماماً، لذلك قد لا يكون الحدثان مرتبطَين، ولكنني فكرتُ بإعلامك بأي حال".

"تابعي".

"هل سمعتَ يوماً *بدير الزيتون*؟".

لم يسبق لخليفة أن سمع به.

"إنه دير صغير، في وسط الصحراء الشرقية. يكاد الموقع يكون خالياً من أي شيء باستثناء مبنيَين، وبئر ارتوازية، وغيضة زيتون قديمة دُعي الدَّير تيمّناً بها. ويُقال إن سانت باشوميوس هو من زرعها، وهو قول معلّل بالآمال ربما نظراً إلى

أن باشوميوس عاش في القرن الرابع. ولكن الأشجار قديمة بالتأكيد ويعود تاريخها إلى بضع مئات من السنين على الأقل. بأي حال، لقد يبست كلها فجأةً قبل ثلاثة أعوام أو أربعة، إضافةً إلى حديقة الخُضار التي تغضّنت وذبُلت".

وسُمع صوت مَضغ في الجانب الآخر من الغرفة في أثناء تناول فتحي حفنة من التورشي من الكيس الموجود باستمرار على طاولته كما يبدو. وأدار خليفة ظهره، محاولاً حجب الصوت.

"هل تم ريّ الغيضة بماء من البئر؟" سأل.

فقالت "أن - هوه" إيجابية.

"والحديقة أيضاً"، قالت. "يشرب رجال الدين مياهاً يتم نقلها بصهريج، ولذلك لم يُصابوا بالتسمم. لقد تسممت الأشجار والخُضار فقط".

فكر خليفة مليّاً، ومن ثم وقف وتوجّه إلى الخارطة الكبيرة المعلّقة على الجدار وراء طاولة إبراهيم فتحي. فالصحراء الشرقية التي تبدو كمساحة واسعة خاوية بلون أصفر باهت قائمةٌ بين البحر الأحمر والقوس الأخضر النحيل الذي يمثّل وادي النيل. وتتقاطع الطرق العامة الممتدة من الغرب إلى الشرق كدرَجات سلَّم، ولا وجود لأي شيء آخر سواها؛ رمال، وصخور، وجبال، لا غير.

"أين يوجد هذا الدير بالتحديد؟" سأل.

"في منتصف الطريق تقريباً بين الأُقصُر و*أبو الذّهَب* على الساحل، غرب جبل الشلول".

تتبّع خليفة الخارطة بإصبعه، محدداً مكان الجبل. لم يكن الدير ظاهراً، ولكن أنّى له أن يظهر إذا كان صغيراً. وحرّك إصبعه في اتجاه الغرب، محدداً مكان بير هاشفا، القرية القائمة قرب مزرعة عطية. إنها على بُعد أربعين كيلومتراً تقريباً، وهي بعيدة جداً كما يبدو ليكون هناك أي رابط جليّ بين الحادثتَين. ومع ذلك، ومع ذلك...

"هل لا يزال رجال الدين هناك؟" سأل.

"لقد غادروا. هناك أسطورة كما يبدو تقول إن الدير ينجو ما دامت أشجار الزيتون التابعة له حيّة. وعندما يبست الغيضة، جمعوا أمتعتهم وأخلوا المكان. بأي حال، كان هناك عدد قليل منهم فقط".

"هل واجهوا أي متاعب قبل ذلك؟".

لا، وِفقاً لمعلوماتها.

"هل تعرّضوا للتهديد بأي طريقة؟".

"الدير قائم في منطقة نائية ويكاد المرء لا يعرف بوجودهم؛ حتى إن القمر لا يعرف بوجودهم ربما".

"ألم يَبلغك حدوث أي أمر آخر في المنطقة؟".

"لا أعتقد أن أمراً آخر قد حدث في المنطقة. كما قلتُ، إنه مكان ناءٍ".

وسُمع صوت همس في الخلفية.

"آسفة يا يوسف، عليّ الذهاب".

"بالطبع. شكراً لإعلامي. إذا بَلغك أي شيء آخر...".

وأنهت المكالمة الهاتفية. فحدّق خليفة بالخارطة، متمعّناً بالصحراء مستطيلة الشكل بين الطريقَين العامَّين 29 و212، ومن ثم عاد إلى طاولته. بئر عطيّة، ابن عم السيد عطيّة، والآن دير الزيتون. ثلاثة موارد ماء مسمَّمة، كلها قبطية. يمكن اعتبار تسمّم مورد واحد، لا بل موردَين، حظاً عاثراً، ولكن ثلاثة؛ يوحي ذلك بوجود شكل نَمَطي بالرغم من وجود مسافة كبيرة بينها. أشعل سيجارة أخرى وحدّق بشاشة جهاز الكمبيوتر. كان عبد الحسن 43، وهو زائر منتظم آخر لغرفة المحادثة، قد أنزل سلسلة من آيات القرآن الكريم، إضافةً إلى قصيدة لا تعتبر البكاء أمراً مُخجِلاً. فقرأ نصفها، ومن ثم أقفل الموقع، ورفع سمّاعة خطه الأرضي وطلب رقم الهاتف الفرعي للرئيس الحسَني.

وفي الناحية البعيدة للغرفة، سُمع صوت مَضغ في أثناء قيام إبراهيم فتحي بتناول حفنة أخرى من التورشي.

القدس

عندما تحدّثا في صباح اليوم السابق، اقترح موردخاي يارون القدوم إلى القدس للتحدث إلى بن - روي، وتجنيبه عناء قيادة سيارته في زحمة السَّير في تل - أبيب طوال ساعة. فأبلغه بِن - روي أن لا مشكلة لديه على الإطلاق. يمكن

للقدس أن تؤثّر فيك أحياناً على غرار والدة متسلّطة، وتكون أحياناً بحاجة للفرار لمدة وجيزة لتصفية ذهنك.

وهذا ما كان يقوم به هذا الصباح، متوجّهاً بسيارته نحو السهل الساحلي خارج المدينة على امتداد الخط المتعرّج للطريق 1 بين تلال اليهودية، فيما قبّة السماء فوقه تكتسي لوناً أزرق لا تشوبه أي شائبة، ويداعب الهواءُ الساخن الداخل من النافذة المفتوحة ذراعَه. منذ مدة غير طويلة، كانت ضواحي المدينة تنتهي فجأةً وراء روميما، ولكنها تمتد إلى أبعد من ذلك كما يبدو، زاحفةً بلا رحمة في اتجاه المنظر الطبيعي كطحالب دائمة التمدد، خانقة العالم بالإسمنت. مبانٍ كثيرة؛ الكثير من المباني على الدوام. وإذا استمرّ التمدد بهذا المعدل، فلن تبقى هناك أي أرض.

لم يتراجع زحف المنازل والمجمعات السكنية أيضاً، ولم تعُد التلال إلى وضعها الطبيعي إلا عندما مرّ بميفاسيريت تسيون على بعد عشرة كيلومترات من وسط المدينة. كانت المنحدرات الصخرية ذات الأشجار المبعثَرة تعلو وتستوي كما لو أنها تُطلق تنهيدة ارتياح، وكان بِن - روي يتنفس بسهولة أيضاً. فزاد سرعته وانعطف عند *كول ها - ديريك*، أي *صوت الطريق*، فيما مكبِّرات الصوت تضجّ بأغنية أليشا كيز، إمباير ستايت أوف مايند. فابتسم؛ إنها إحدى أغاني سارة المفضَّلة.

كانا على وشك العودة إلى بعضهما بشكل دائم، لولا عودته إلى منزل سارة في وقت متأخر من اليوم السابق، عِلماً أن الأمر تطلّب منه بذل قدْر كبير من الجهد لترضى عنه؛ أو على الأقل لإرغام نفسها على ذلك. لقد انتهى به الأمر ماكثاً في شقتها حتى ما بعد منتصف الليل وهو يزيّن غرفة الطفل، وعاد في صباح هذا اليوم لإنهاء المهمة. والنتيجة أن الغرفة بدت في أبهى حُلّة، وحملته على تناول فطوره بشهية - وفي ذلك دلالة أكيدة على تحسّن سلوكه وذوبان الجليد عن علاقتهما - والامتناع عن قراءة المقالات في الصحيفة التي عثر عليها في المكتبة.

لقد شعر بالانزعاج؛ لأنه كلما فكر في الأمر شعر أكثر فأكثر - ولأسباب يجهلها - بأن المقالات أساسية لفهم سبب مقتل ريفكا كلينبرغ. وقد منحته إحدى عشرة ساعة من استخدام ورق الصَّقل، والطلاء، وتثبيت الرفوف، الكثير

من الوقت للتفكير. ذهب، مصر، تعدين، مؤسسة بارين. لقد واصلت هذه المعطيات التقلّب في رأسه كلسان قِفل خزانة معدنية. احصلْ على السلسلة الصحيحة، تفتحِ القضية على الفور. أَخفق في ذلك، تبقِها مقفَلة بإحكام مهما حاولتَ.

حدث تطوّر واحد فقط مثير للاهتمام جداً. فعندما عاد إلى القدس وانتظر طويلاً في زحمة السَّير التي بدت غير متناهية وراء أضواء إشارة المرور في شارع شْديروت بن تسفي، تلقّى اتصالاً من دوف زيسكي. لقد أعاده الخط الأرضي لكلينبرغ، وهاتفها المحمول، ورسائل بريدها الإلكتروني، إلى المربَّع الأول كما يبدو؛ إلى القصة نفسها. لم يتمكنوا كما يبدو من الحصول على اتصالات الضحية ورسائل بريدها الإلكتروني في الأشهر الستة الأخيرة لأن سجلاتها كانت فارغة. وقبل هذه الفترة، كان كل شيء مسجَّلاً ومفنَّداً كالعادة. ولكن، منذ بداية العام، أُزيلت كل التفاصيل المرتبطة باتصالاتها كما يبدو. كانوا يراقبونها، ولكن التفسيرات الوحيدة التي تمكنوا من تقديمها في هذه المرحلة هي أن خطأ ما حدث في أجهزة الكمبيوتر التابعة لهم. إن خطأ ثلاثة أجهزة منفصلة، ومحو المعلومات المتعلقة بريفكا كلينبرغ دون سواها، أبعد ما يكونان عن الصدفة. أم إن شخصاً ما تسلّل إلى شبكاتهم – وهو التفسير الأكثر احتمالاً – وعبث ببياناتها.

"لقد تحدثتُ إلى صديق لي"، كان زيسكي قد قال، "يعمل في أمن شبكات الكمبيوتر. وهو يقول إن شركات الاتصالات متنبّهة جداً في العادة عندما يتعلق الأمر بحماية الشبكات، وليس من السهل التسلل إليها. وهو شخص على عِلم بما يقومون به".

في هذه الحالة، يُطرح احتمالان فوريّان. جريمة كمبيوترية في إسرائيل؛ على غرار أي جريمة منظَّمة أخرى، بإشراف *الروسكايا مافيا* نفسها التي هددت كلينبرغ بشكل مباشَر قبل سنوات قليلة، وفقاً لصديقه الصحافي ناتان تيرات، والمقالة التي نشرتها المجموعة المناهضة للرأسمالية، ذي *نمِسيس أجندا*، في الجيروزاليم بوست، والتي قرأها في اليوم السابق. ويبدو أن هذه المجموعة متورطة أيضاً في التسلل إلى شبكات الإنترنت. أهي مصادفة؟ أم إن هناك صلة؟

هناك بحث يتعيّن عليه القيام به، الكثير من البحث، ولكن باستطاعته الانتظار. لقد أراد هذا الصباح التركيز على كتابات كلينبرغ الصحافية. صحيح أنه لم يمرّ يومان بعد على بداية التحقيق، ولكنه يشعر بأنه يتخبط في مأزق معلومات غير مترابطة، وبأن الوقت قد حان للتركيز على التفاصيل، والشروع بعزل الخيوط عن بعضها. ورفع عدّاد السرعة إلى 120 كيلومتراً في الساعة بعد انتهاء أغنية إمباير ستايت أوف مايند وبدء أغنية ستونز سيمباثي فور ذي دِفيل ذات الإيقاع الموسيقي الأكثر إلحاحاً واندفاعاً؛ إنها إحدى أغنياته المفضَّلة. وأصبحت القدس وراءه، وظهرت أمامه الملاءة الخضراء المسطَّحة للسهل الساحلي. لقد شعر بالارتياح بسبب توجهه غرباً.

يشغل الميناء الفلسطيني القديم في يافا – عروس البحر – أرضاً مرتفعة وناتئة في البحر على صورة فاصلة تمتد من الطرف الجنوبي لخط تل – أبيب الساحلي. لقد ابتلعت المنطقة الحَضَرية الأوسع في شمال الميناء المدينةَ التي كانت قائمة ذات مرة إلى يمين الميناء، وأُخرج سكانها العرب إلى ضواحي العَجَمي وجباليا، وشغل مالكون يهود جدد مبانيها العائدة لمرحلة الاحتلال العثماني وحقبة الانتداب.

كان مكتب *ماتزبون – أعام* موجوداً في أحد هذه المباني. وهو مبنى رَثّ من طابقَين في شارع ريهوف أولِي تسيون وسط سوق البَرغوث *شوك ها – بيشبشيم*.

بعد وصوله قبل الظهر بقليل، ركن بِن – روي سيارته في الزاوية، ووضع لوحتَي رقم تسجيل السيارة الحمراوَين التابعتَيْن للشرطة للحؤول دون تحرير محضر ضبط بالتويوتا. ومن ثم، شق طريقه عبر الزّحام الملوَّن لأكشاك بيع التحف الأثَرية، والأقمشة، والفلافل، وصولاً إلى مدخل المبنى. وطلب منه موردخاي يارون الدخول.

"هل واجهتكَ أي مصاعب؟" نادى من فسحة الطابق الأول في أثناء صعود بِن – روي الدرج.

"لا مصاعب. كنت أُقيم في تل – أبيب، وكثيراً ما أتردّد إليها. لم تتبدّل".

"ثِق بي، لقد تبدّلت الإيجارات. فما فعلته منظمة إيرغون بالعرب، يفعله أصحاب الملك الآن بنا نحن المستأجرين. ارتفاع آخر للإيجارات وسنرغم على الخروج".

بلغ بِن – روي الفسحة، وتصافح الرجلان. كان المحرر يشبه دافيد بن – غوريون بقصره وبدانته وصلعه، وبأذنيه الكبيرتين وجبينه العريض المُحاط بخُصَل شعر بيضاء، أم إنه يكاد يكون مشابهاً له لولا ملابسه: حذاء، سروال قصير فضفاض، وتي – شيرت غوش شالوم. إنه أشبه بهيبيّ مُسنّ أكثر منه بأب مؤسِّس.

"أتريد قهوة؟" سأل وهو يرافق بِن – روي إلى داخل المكتب. "أم شراباً؟".

"لا بأس بالقهوة".

لوّح له يارون للجلوس على كرسيّ بذراعَين، وشغل نفسه بالمغلاة. كانت الغرفة ضيّقة ومليئة بأشياء غير مرتَّبة، وتفوح منها رائحة قديمة لدخان غليون: أرضية خشبية عارية، طاولة، خزانات كتب، آلة قديمة لتصوير المستندات في إحدى الزوايا. وتُشرف النوافذ المفتوحة على إستاد بلومفيلد فوتبول ستاديوم في الشمال، وعلى ناطحات السحاب وسط تل – أبيب. وعلى الجدران مُلصقات إعلانية كبيرة موضوعة في أُطُر، ومنها سباق *هاداش* للسيارات، وليلة موردخاي فانونو، وعرض لمسرحية *هامِتز* لشمول هاسفاري.

"لقد ذكرت كل الصحف حادثة مقتلها"، تمتم يارون في أثناء سكبه القهوة في كوب، مديراً ظهره لبِن – روي. "الصفحات الداخلية. يحدوك الظن بأن العناوين الرئيسة ستتناول حادثة مقتل إحدى أفضل الصحافيات في هذا البلد، ولكن الحياة الجنسية لرئيس البلدية أكثر أهمية كما يبدو".

لم يكن بِن – روي يطالع الصحف. لقد ثُبت أنه لا أساس لمخاوفه من هياج يغذّي وسائل الإعلام، على الأقل في الوقت الحاضر.

"لقد تحدثت عنها صحيفة هآرتس بشكل جيد"، أضاف الرجل المُسنّ. "هذا أقلّ ما يمكنها القيام به نظراً لعدد المقالات الحصرية التي زوّدتها بها. يا لريفكا المسكينة! يا لِميتتها الرهيبة! لا أزال غير مصدِّق لما جرى لها".

وتنهّد وهز رأسه.

"كانت امرأة جيدة. صعبة المِراس، ولكنها امرأة جيدة، وصحافية جيدة لا ترحم. *زيخرونا ليفراخا*".

ووصلت محتويات المغلاة إلى درجة الغليان – لا بد أنها كانت ساخنة لأنها بقيت على النار أقل من دقيقة – فملأ يارون الكوب.

"أخشى ألاّ يكون لديّ حليب".

"هل لديك سكّر؟".

"لديّ سكّر".

"أريد ملعقتين من فضلك".

وضع يارون ملعقتَين من السكر، وسلّم القهوة لـبِن - روي مع نسخة *لماتزبون - أعام*.

"إنه إصدار هذا الشهر"، قال. "لإعطائك فكرة فقط عما نحن بصدده. هناك مقالة لريفكا تتناول انهيار اليسار الإسرائيلي. لن تقرأ تحليلاً أفضل عن الهراء السياسي في هذا البلد".

وتوجّه إلى طاولته وجلس. حدّق بِن - روي بالغلاف الخارجي للمجلة الذي يحمل صورة كفافية لخارطة إسرائيل مرسومة بطريقة تجعل البلد يبدو شبيهاً بقمع مع فتحة في أقصى الجنوب، وينـزلق خليط من الكلمات - عمّال، ميريتز، السلام الآن، تعددية، تساهل، ديمقراطية، صحة الرأي - عبر القمع ويخرج من الأسفل إلى صندوق قُمامة كبير. وجاء في العنوان: "الأمل يتجه جنوباً".

"رسم توضيحي جيد، ألا تظن ذلك؟ لقد صمّمتُه بنفسي".

"إنه مثير... بالتأكيد".

"هل أنت مهتمّ بالسياسة؟".

فهزّ بِن - روي كتفَيه. يكون مهتمّاً أحياناً وغير مهتمّ أحياناً أخرى، ولكن ليس اليوم بالتأكيد. وقرأ المحرر سيماءه و لم يُصرّ.

"اليسار انتهى"، هذا كل ما قاله، "منذ أن دعَونا مليون روسي لعين لتشكيل *أليا*. لقد دفعوا هذا البلد في اتجاه أقصى اليمين لدرجة أنه يتعيّن على زئيف جابوتينسكي دخول قبره".

وتأفّف، ثم التقط غليوناً وشرع بحشوه بتبغ موجود في جِراب جلدي مَثنيّ.

"بأي حال، الشيء بالشيء يُذكَر. رجاءً، أخبرني كيف أستطيع مساعدتك".

ارتشف بِن - روي قهوته التي بدت كما لو أنها ماءُ جَليِ أطباقٍ ولكنها محلاّة، وسحبَ كرسيّه ليجلس قُبالة يارون مباشَرةً.

"أريد التحدث عن كتابات كلينبرغ الصحافية". وشرع في الكلام، واضعاً المجلة على الأرض وفاتحاً دفتر مدوَّناته. "عندما تحدّثنا يوم أمس، قلتَ إنها كانت تكتب مقالة عن البِغاء".

"بِغاء *بالإكراه*"، صحّح يارون. "اتّجار بالجنس. هناك فرق. البِغاء بالإكراه؛ إذ يتم استغلال الوضع الاقتصادي بالتأكيد، عِلماً أنني أعرف الكثير من الناس الذين قد يجادلونني في ذلك".

"هل تعرف أي تفاصيل؟" سأل بِن - روي. "ما الذي كانت تكتبه بالتحديد؟".

"حسناً، كانت الفكرة في الأصل استخدام الاتّجار بالجنس لوضع مقالة جَدَلية على نطاق أوسع"، قال يارون، ضاغطاً مزيداً من التبغ داخل الغليون وراصّاً إيّاه بإبهامه. "شيء ما عن حالة الأمّة، على أن تستخدم الرِّقّ الجنسي مجازاً للدلالة على انحطاط المجتمع الإسرائيلي أخلاقياً. ولكن ريفكا هي ريفكا، وسرعان ما تخرج عن الموضوع".

وأخرج قدّاحة ومرّرها فوق مقدّمة الغليون، وأحدثت شفتاه صوت فرقعة في أثناء اشتعال التبغ، وتشوّشت قسمات وجهه آنيّاً وراء خِمار من دخان رمادي مائل للزُّرقة.

"في بادئ الأمر، قررت التركيز على ما يهمّ القارئ في الخبر"، قال. "أي غضّ الطرْف عن السياق الاجتماعي - السياسي الأوسع والتركيز على الفتيات أنفسهنّ، وتمكينهنّ من التعبير عن آرائهنّ، والسماح لهنّ بإخبار قصصهنّ. وبعد ذلك، دخلت أمراً استقصائياً كبيراً عن الآليات الفعلية للاتّجار بالجنس: كيفية تنظيمه، كيفية تنقُّل الفتيات، من يدير الصناعة. كان من المفترض بالمقالة أن تكون مكوَّنة من ألف كلمة، ولكن حجمها استمر بالازدياد، واستمر الحد الزمني الأقصى بالانقضاء".

وهز رأسه، ملوّحاً بيده لتبديد الدخان.

"ريفكا النموذجية. أتذكرها تماماً في بداية مهنتها، عندما كنا نعمل معاً لصالح مجلات فنية صغيرة في حيفا - هكذا التقينا عرَضاً، في السبعينيات - لقد طُلب منها وضع مقالة عن حائكي الأقمشة الدروز، وانتهى بها الأمر مع مقالة من أربعة آلاف كلمة عن غولدا مئير وخيانة الحركة النسائية اليهودية".

ابتسم، وسحب نفساً عميقاً آخر من غليونه.

"هذا ما كانت عليه؛ فقد كانت غالباً تبتعد عن موضوع البحث. وكلما ازدادت سنّاً، ابتعدت أكثر فأكثر عن موضوع البحث. ففكرة تؤدّي إلى أخرى، وينتهي بك الأمر مع مقالةٍ تأخرَ موعد نشرها أسابيع ولا تشبه بشيء الملخص المُسبَق. لهذا السبب طُردت من هآرتس".

"بلغني من أحد مصادري للمعلومات بأن سبب طردها يعود إلى إصابتها بـ...".

وراجع بن - روي مدوَّناته، باحثاً عن الكلمة الدقيقة لتيرات.

"... الذّهان الارتيابي".

وهمهم يارون.

"كانت مُحِقة في شأن كيفية سير هذا البلد. وفقاً لخبرتي، عندما ترى ريفكا دخاناً، يكون هناك حريق في العادة في مكان ما ليس بعيداً".

وأعاد رأسه إلى الوراء، وغضّن شفتَيه ونفث حلقة غير منتظمة من الدخان. في الخارج، كان أحدهم يصرخ: "*شكاديم!* لوزا!"؛ إنه بائع متجوّل يحاول لفت انتباه الزبائن.

"كانت صعبة المِراس"، قال يارون بعد توقف قصير. "وازدادت صعوبة مِراسها مع تَقدّمها في السن، وأصبحت مزعجة من حين لآخر، ولا سيما إذا كنت تحاول تنقيح مواضيعها. ولكنها صحافية جيدة. عليك التعاطي معها بالطريقة المناسبة فحسب، وهذا يعني في الأساس السماح لها باعتماد أسلوبها أملاً في أن تقوم بتسليمك شيئاً ما في النهاية، وهذا ما كانت تقوم به على الدوام".

"وأنت لا تعرف التفاصيل"، قال بن - روي، مكرراً السؤال الذي طرحه قبل لحظات، ومعيداً الحديث إلى مقالة كلينبرغ. "ما الذي كانت تكتبه *بالتحديد*؟ من الذين كانت تتحدث إليهم؟".

"أعرف أنها أجرت بعض المقابلات في شأن بيتاه تيكفاه. يوجد هناك ملجأ للفتيات اللواتي يتم استغلالهن. إنه الوحيد من نوعه في البلد كما يبدو. سوى ذلك...".

وهزّ كتفيه.

"كما قلتُ، كنت أميل إلى تركها تقوم بعملها وفقاً لأسلوبها".
"هل تعرف اسم الملجأ؟".
"هوفيش، كما أعتقد. أجل، هوفيش. ملجأ الحرية".
ودوّن بِن - روي المعلومة.
"هل أبلغتِ السيدة كلينبرغ عن تلقّي أي تهديدات بسبب هذه المقالة؟ وعن كونها في خطر؟".
"لم تُخبرني بذلك قطّ"، قال يارون. "ولكنها لم تكن تخبرني بالكثير. كانت تميل إلى الاحتفاظ بأسرارها".
"هل تلقّت يوماً تهديدات؟".
وهمهم بطريقة تخلو من حس الفكاهة.
"ربما، إذا كان هناك من يتكبّد عناء قراءة المجلة. قبل مقتل رابين، كنا نبيع 180,000 نسخة في الشهر. والآن نبيع 2,000 نسخة. لا يمكننا إهداؤها. لم يعد أحد يهتم. ليرقد اليسار بسلام. ليرقد البلد اللعين كله بسلام".
سحب يارون نفساً عميقاً آخر من غليونه، مُرسلاً خطوطاً زخرفية متعرّجة وحزينة من الدخان من زاويتَي فمه. في الخارج، انضمّت إلى صيحات بائع اللوز صيحاتُ شخص يبيع العنب والبَلَح: *"أنافيم! تامار!"*. وارتشف بِن - روي شايه الذي كان مذاقه يبدو أقل سوءاً كلما شرب المزيد.
"متى رأيت السيدة كلينبرغ لآخر مرة؟" سأل.
"رأيتها قبل ستة أسابيع تقريباً. نزلت إلى تل - أبيب وتناولنا الغداء في مطعم صغير يملكه فلسطيني في داكار. إنه مكان جميل. تحدثتُ إليها للمرة الأخيرة قبل ثمانية أيام عندما اتصلتْ لتطلب تمديداً آخر للحد الزمني الأقصى، وقالت إنها ستسلّم شيئاً ما مثيراً للاهتمام وتحتاج إلى القليل من الوقت الإضافي لإنهاء النظر فيه".
وضاقت عينا بِن - روي.
"هل قالت ما هو هذا الشيء؟".
"حسناً، عندما تقول ريفكا إنها ستسلّم شيئاً مثيراً للاهتمام، فإنه اختزال لعبارة *أنا على وشك وضع المقالة في اتجاه مختلف تماماً*. لقد أردت الاستعلام عن

الأمر ولكن ابنتنا كانت قد شعرت للتوّ بآلام المَخاض، وهناك أمور أخرى تشغل بالنا. لو علمتُ أنها ستكون المرة الأخيرة التي سنتحدث فيها لمنحتُها المزيد من الاهتمام".

وتنهّد، ورفع القدّاحة وشرع بتمرير الشعلة فوق مقدمة الغليون مجدداً. ونظر بِن - روي إلى مدوَّناته مفكراً في المقالات التي كانت كلينبرغ تبحث عنها في الصحف قبل ستة أيام من مقتلها. إنها تتخذ منحى مختلفاً.

"هل تعني كلمة فوسغي أي شيء لك؟" سأل. "إنها كلمة أرمنية تعني ذهب".

ففكر يارون مليّاً، ومن ثم هز رأسه.

"مؤسسة بارين؟".

"لقد سمعتُ بالاسم. إنها مؤسسة أميركية متعددة الجنسيات، أليس كذلك؟".

"كانت السيدة كلينبرغ مهتمة بها كما يبدو. كانت هذه الشركة تعمل في منجم ذهب في رومانيا".

ورفع يارون حاجبَيه. من الواضح أنها معلومة جديدة بالنسبة إليه.

"هل ذكرتْ أي شيء عن الذهب أو استخراج الذهب؟".

"لا أذكر".

"ماذا عن مصر؟ ليلة مقتلها، كانت قد حجزت مقعداً على متن رحلة جوية ذاهبة إلى الإسكندرية".

رُفع حاجبا المحرر استغراباً مرة أخرى.

" لم تقل أي شيء لي بالتأكيد. لقد وضعت منذ مدة وجيزة مقالة عن أنفاق المهرِّبين؛ فكما تعلم، يخرق الفلسطينيون حصار غزة، مُدخلين إمدادات من سيناء خِلسةً. ولكن الأمر انتهى قبل عام".

"هل من الممكن أن تكون ذاهبة إلى هناك في إجازة؟".

"ريفكا؟! إلى مصر؟ أشك في ذلك تماماً. لم تكن من النوع الذي يحبّذ الإجازات. وبأي حال، لم تطلب أي مبلغ من المال".

نقر بِن - روي بقلمه على الدفتر نقراً خفيفاً.

"ماذا عن ساموئيل بينسكر؟" حاول. "هل سمعتَ به يوماً؟".

"سمعتُ بليون بينسكر. الصهيوني في القرن التاسع عشر؟".

"*ساموئيل* بينسكر. مهندس تعدين بريطاني".

"لم أسمع به".

"ماذا عن الأرمن؟ هل ناقشتْ أمرهم يوماً؟".

"لا".

"المجمّع الأرمني. دار العبادة الكبرى لسانت جيمس؟".

لا ولا.

"ماذا عن الحركة المناهضة للرأسمالية؟ هل كان هذا الأمر يثير اهتمامها؟".

رمقه يارون بنظرة كما لو أنه يسأله إن كان سؤاله جدّياً.

"بالطبع كان يثير اهتمامها. إنه يثير اهتمامنا كلنا. فالرأسمالية قد أفسدت العالم. كيف يمكنك ألا تكون مناهضاً لنظام تسبب بعيش بليونَين ونصف من الناس بأقل من دولارَين في اليوم، فيما يملك 85 بالمئة من الثروة العالمية...".

"نِمِسيس أجندا؟" قاطعه بِن - روي، غير راغب في الانجرار إلى محاضرة سياسية. "هل بلغ هذا الاسم مسمعيك؟ إنها مجموعة مناهضة للرأسمالية تقوم باقتحام المكاتب، والتسلل إلى ملفات...".

"أجهزة الكمبيوتر"، قال يارون، مقاطعاً بِن - روي بدَوره. "أجل، أعرفها".

توقف قليلاً متفحّصاً غليونه، ثم أضاف:

"وأجل، بلغ هذا الاسم مسمعيّ".

فانحنى بن - روي إلى الأمام. أخيراً، معلومة جديدة.

"مؤخراً؟".

هز يارون رأسه.

"منذ عامَين أو ثلاثة، عندما شرعت ريفكا بالكتابة لنا للمرة الأولى. لقد اقترحتْ إعداد مقالة عن هذه المجموعة، قالت إنها على صلة بها، وربما تمكنت من إجراء مقابلة مع أحد الأشخاص المنتمين إليها، وعندها، سيعتبر ذلك سبَقاً صحفياً لأنه لم يسبق لهذه المجموعة أن تحدثت إلى الصحافة يوماً وفقاً لمعلوماتي".

لزم الصمت للحظات، وانحنى بعد ذلك، وأدخل معلومة ما على جهازه الحضني من طراز توشيبا الموضوع على الطاولة بجانبه، وأحدثت أصابعه السمينة

والمتغضّنة قرقعة على لوحة المفاتيح وهو ينقر عليها بسرعة ومهارة مثيرتَين للدهشة. وعندما أنهى ما يقوم به، أدار الشاشة وأومأ لبن - روي لإلقاء نظرة.

"حشد مثير للدهشة"، قال فيما كان التحرّي يقف ويعبر الغرفة. "شكل متطرّف تقريباً من تلك المواقع التي تستدعي الصفير. ويكيليكس مع تهديدات. كان لها وَقع كبير بالتأكيد. فالشركات متعددة الجنسيات تعبّر عن انزعاجها كما يبدو".

وضع بِن - روي راحتَي يدَيه على الطاولة، وانحنى إلى الأمام ناظراً إلى الشاشة التي تعرض الصفحة الرئيسة للموقع www.thenemesisagenda.org. كانت عملية أكثر من كونها أنيقة، وفي أعلاها العنوان الرئيس: ذي نِمِسيس أجندا؛ تعمل على فضح جرائم الرأسمالية العالمية. لقد أُعدّ الحرف A في كلمة *أجندا* ليشبه جمجمة. وهناك عنوان بريد إلكتروني - tellus@nemesisagenda - ولائحة خيارات تحتوي على كلمات مثل *أهداف*، *أرشيف*، *فيديو*، *أخبار*، *اتخاذ إجراء*؛ إضافةً إلى *من نحن* وصور متنوعة بالأسود والأبيض لمناظر طبيعية مدمَّرة، وأطفال نَحْلى، وأجساد تحمل ندوباً، ونساء باكيات. وتوجد في وسط الصفحة نافذةٌ لتشغيل الفيديو يظهر فيها وجه منتفخ على نحو سيّئ لرجل يرتدي رداء استحمام مضرَّجاً بالدماء مصنوعاً من قماش المناشف. وجاء في العنوان المرافق: اعتراف السيد سامبلير في الكونغو.

ألقى بِن - روي نظرة سريعة على الصفحة، ومن ثم وضع السهم على خانة *من نحن* وضغط على زرّ الفأرة. فظهرت صفحة جديدة مع ست كلمات: *ألا ترغب في معرفة بعض الأمور*. ولم يكد يُنهي قراءتها حتى اشتعلت الحروف فجأة، وسُمع صوت فرقعة حادّة، وأصبحت الشاشة حمراء قبل عودة الصفحة الرئيسة بشكل مفاجئ. فنظر إلى الأعلى. كانت عينا يارون ترمشان كما لو أنه يحاول حمايتهما من الأذى.

ضحك قائلاً: "الأزمنة تتبدل بالتأكيد. في أيامي، كنت إذا أردتَ الاعتراض تشارك في مسيرة، أو توزّع بعض النشرات الإعلامية، وربما تقوم بالاعتصام أو تكتب بعض الشعارات بواسطة الطلاء الرذاذي إذا كنتَ تشعر بالغضب حقاً. أمّا هؤلاء الأشخاص فأشبه بالموساد. فهم ينزلون بواسطة الحبال إلى داخل المكاتب، ويتسللون إلى الملفات في أجهزة الكمبيوتر، ويستجوبون مديرين تنفيذيين تحت

تهديد السلاح، ويصوّرونهم، ومن ثم ينقلون المشاهد على الإنترنت. إنه تطرّف القرن الحادي والعشرين".

وضع غليونه في منفضة سجائر، وأسند ظهره.

"خيراً فعلوا. فالشركات متعددة الجنسيات تلك تُفلت من العقاب على ما ترتكبه من جرائم. وأفرادها يسرقون، ويستغلون، ويتخلصون من نفاياتهم في كل مكان، ويلوّثون، ويغشّون، ويتهربون من دفع الضرائب، وينعمون بغطاءٍ من بعض الأنظمة الأكثر غرابة على وجه الأرض. ليس هناك ما لا يستطيعون القيام به لتحقيق الأرباح. وهم لا يعتبرون الظلمَ منافياً للأخلاق، وكذلك عمليات الخِداعَ القذرة. وبما أن معظم هذه الأمور تحدث في بلدان ضعيفة جداً، أو فقيرة، أو فاسدة، لا يمكنها مواجهتهم، فهم لا يتعرضون لأي محاسَبة. ولكن، حان الأوان لافتضاح أسرارهم الصغيرة القذرة على الإنترنت...".

ولوّح بيده في اتجاه الجهاز الحضني.

"شبكة الإنترنت ليست الوسيلة الكبرى لإحلال الديمقراطية في زمننا فحسب، بل إنها محكمة العدل العُظمى. إذ يطّلع الرأي العام على المعلومات التي تصبح... ما هي الكلمة... مؤذية؟".

"فيروسية".

"تماماً. فجأةً، يعرف كل العالم ما تقوم به تلك الشركات، وتنكشف الزلّات. فتُقتحم مكاتبها، ويتعرض مديروها التنفيذيون للمضايقة، وتُستهدف أجهزتهم الكمبيوترية من قِبل متسللين آخرين، فتتشوّه سمعتهم بسرعة، وتنهار أسعار أسهم الشركات...".

أومأ إيماءة رضى.

"لم أكن يوماً مؤيّداً للأعمال الغوغائية. ولكن، لا يمكنك تمالك نفسك عن الشعور ببعض الشادنفرويد عندما ترى الأوغاد يقعون في شر أعمالهم. فالاسم يفسّر كل شيء؛ نِمسيس، أي سيدة الانتقام الإغريقية. ألقِ نظرة على الموقع. هو ينضح بما فيه".

استعاد غليونه، وأشعله مجدداً. كان بن - روي يحدّق إلى وجه الرجل المنتفخ، متسائلاً عما إذا كان هذا الأمر يتلاءم مع مقتل ريفكا كلينبرغ.

سأل: "هل هذه المجموعة إسرائيلية؟".

"وفقاً لمعلوماتي، لديها خلايا مختلفة في دول مختلفة. فبهذه الطريقة يميل هذا النوع من المنظمات إلى العمل؛ عمل جماعي يتمتع بحرية نسبية في الحركة بدلاً من كيان واحد متجانس. صِدقاً، لا معلومات وافرة لديّ عنها. لا أعتقد أن أي شخص آخر يملك هذه المعلومات. لهذا السبب يُعتبر إجراءُ مقابلةٍ مع أحد هؤلاء الأشخاص سبَقاً صحافياً، ولاعتُبر الأمر كذلك لو أُجريت المقابلة في الواقع".

"ألم تُجرِها؟".

"في الدقيقة الأخيرة، تراجع الشخص الذي كان من المتوقع أن تُجري ريفكا مقابلة معه. كان كل شيء مهيّأً كما يبدو، ولكن عندما قصدتْه...".

حرّك يده بما معناه أن المقابلة قد أُلغيت.

"عليّ الاعتراف بأنني لطالما تساءلت عما إذا كانت على صلة بهذه المجموعة في الواقع. أعني، لم يتحدث أي من أعضاء نِمِسيس إلى أي شخص مطلقاً، فلماذا يقررون فجأةً الانفتاح على مجلة لا تلقى رواجاً كمجلتنا؟".

نفخ حلقةً من الدخان وشبك ذراعَيه.

"ما كانت لتعترف بذلك، ولكن طردها من هآرتس آلمها كثيراً وزعزع ثقتها بنفسها. لقد تبادرت إلى ذهني فكرة أنها ربما تحاول... كما تعلم... إثبات قدرتها على الحصول على قصص كبيرة. لم يكن يتعيّن عليها إثبات أي شيء *لي*، ولكنها ربما كانت بحاجة إلى حمل *نفسها* على الاعتقاد...".

هزّ كتفَيه وتابع قائلاً:

"من يعلم؟ ربما لست مُنصفاً. فهي لم تتباه بذلك. لقد قالت فقط إنها على صلة بالمجموعة، وربما يكون باستطاعتها حمل أحدهم على الكلام، ولكن عندما قصدت ميتزبي رامون لإجراء المقابلة...".

كان انتباه بن - روي قد بدأ بالتشتت. وعندما ذكر يارون ميتزبي رامون، انتفض بن - روي؛ إنها وُجهة كلينبرغ قبل أربعة أيام من مقتلها، وفقاً لبطاقة الحافلة. لقد شعر للمرة الأولى منذ بدء المقابلة بتدفق الأدرينالين في دمه، وهذا ما يشعر به عندما يعتقد أنه سيكشف النقاب عن أمر ما.

سأله منحنياً إلى الأمام فوق الطاولة: "هل تعرف هوية الشخص الذي كانت على صلة به؟".

"أتذكّر ريفكا حين قالت إنه صديق قديم"، أجاب يارون، وبدت الدهشة في عينَيه بسبب الإلحاح الفجائي في صوت بِن - روي. "باستثناء ذلك..." وهزّ كتفَيه مُعبّراً عن شعوره بالعجز، ثم تابع:

"ذاع صيت ريفكا بحمايتها مصادرها. كل ما أعرفه هو أنها تكبّدت عناء دخول صحراء النّقَب لا لشيء إلا ليقول لها مصدرها إنهم لا يريدون إجراء المقابلة. وهكذا انتهى الأمر".

كان عقل بِن - روي يتكتك كمقسّم هاتف يحاول إقامة صِلات.

"هل ذكرت السيدة كلينبرغ هذا الشخص مؤخراً؟".

"لم تذكره لي. لماذا؟".

فأخبره بِن - روي عن تذكرة الحافلة. لم يتمكن يارون من تقديم أي تفسير.

"هل لديك أي فكرة عن سبب رغبتها في الاتصال بهم؟".

"لا فكرة لديّ البتة".

"هل كانت تعرف شخصاً آخر في ميتزبي رامون؟".

"العِلْم عند الله. لا أعتقد ذلك. ولكنها لم تكن تُخبرني بأي شيء".

"ماذا عن نِمسيس أجندا؟ هل تمّ التطرّق إلى هذه المجموعة مجدداً؟".

فهز يارون رأسه.

"هل قالت أي شيء عن قيام أفراد هذه المجموعة باقتحام مكتب في تل - أبيب؟".

فهز رأسه مجدداً.

"ماذا عن مؤسسة بارين؟".

هزّ رأسه مرة أخرى.

حاول بِن - روي معرفة المزيد، ودار حول الموضوع، محاولاً الإلمام بتفاصيله كافة. ولكن المحرر لم يتمكن من إضافة أي شيء إلى ما أخبره به. وفي النهاية، أُرغم بِن - روي على الكفّ عن طرح الأسئلة. فالعثور على عناصر أخرى بالغة الأهمية لفك شيفرة لغز مقتل ريفكا كلينبرغ أمر هام بالنسبة إليه، وكان باستطاعته

الشعور بذلك. ولكن، لسوء الحظ، وعلى غرار كل العناصر الأخرى بالغة الأهمية التي كشف النقاب عنها، إنها لم تعزز قدرته على فهم ما حدث، فكيف ستساعده على حل القضية. لقد بدا الأمر كما لو أنه يضيف طبقة إضافية مــن التعقيــد إلى خوارزمية صعبة الحل. فقبل ثلاثة أعوام، كانت ريفكا كلينبرغ مهتمة بنمِســيس أجندا. ومن ثم، وقبل أيام قليلة من مقتلها، ظهرت المجموعة فجأةً على رادارها مرة أخرى. هذا كل ما باستطاعته قوله، ولا يمكن اعتبار ما توصّل إليه كافياً.

تحدّث الرجلان لمدة ثلاثين دقيقة أخرى، ولكن لم ينجم عن ذلك أي شــيء مفيد، فأنهى بِن - روي المقابلة، وعاد يارون إلى الإنترنت، وتتبّع رقم هاتف ملجأ هوفيش. وبعد ذلك، وضع ست نسخات من مجلته داخل كيس وســلّمه لــبِن - روي، ورافق التحرّي إلى الطابق السُّفلي في اتجاه الشارع.

قال في أثناء نــزولهما الدرج: "غريب، لقد جعلني التحدث إليك أدرك مدى محدودية معرفتي بريفكا. كنا صديقين طوال أربعين عاماً، ومع ذلك هناك حقبات كاملة من حياتها لا أعرف عنها شيئاً. كانت تصنّف المواضيع وتضــع عالمهــا في صناديق مختلفة، وتحتفظ بكل الصناديق بشكل منفصل. لقد اطّلعتُ على صــندوق الكتابات الصحافية والشؤون السياسية. إذا كنت تريد معرفــة رأيهــا باتفاقــات أوسلو، وكاديما، وبيريز، وناتانياهو فبإمكاني إخبارك. ولكن هناك جانبــاً كــاملاً آخر من شخصيتها لم أكن أعرفه البتة. فكما تعلم، طوال مدة معرفتي بها لم أرَ قطّ الناحية الداخلية لمنــزلها".

وهز كتفَيه.

"ربما لم أكن صديقاً مقرَّباً منها بقدْر ما ظننتُ".

وصلا إلى الطابق الأرضي، وفتح يارون الباب الأمامي.

قال: "إذا كنتَ مهتماً بالاشتراك في المجلة فسأعقد معك صفقة جيدة".

قال بِن - روي: "سأعاود الاتصال بك عندما أريد الحصول على معلومــات أخرى...".

"بالطبع، بالطبع. أنا لا أحاول تحويلك إلى متتبّع للشؤون السياســية. أردت فقط لفت انتباهك إلى ما يجري. لم يعد أحد في هذا البلد ينتبه إلى ما يجري كمــا يبدو، وكأننا فقدنا الرغبة في التفكير".

تصافحا، وخرج بِن – روي إلى الشارع. كان يهمّ بالرحيل عندما مدّ يارون يده وأمسكه من ذراعه.

"كانت ريفكا امرأة صالحة، أيها التحري. ربما كانت تتصرف بغرابة عندما تكون في مِزاج غير ملائم، ولكنها امرأة صالحة في جوهرها. كان تحقيق العدالة يعني لها الكثير، لذا كانت تناصر المستضعَف، وتساعد من يواجه المتاعب. قد تنعتك بكل اسم موجود على سطح الأرض إذا غيّرتَ كلمة واحدة من مقالتها، ومن ثم تُفرغ حقيبة يدها لأجل متسوّل تصادفه في الشارع. كانت تشعر بتعاطف فِطري حيال الأشخاص المتألمين، ويعود سبب ذلك ربما إلى ما تشعر به من ألم. كانت تهتم. كانت تهتم حقاً. رجاءً، ابذُل ما بوسعك لأجلها".

نظر إلى عينَي بِن – روي للحظات، ومن ثم أفلت ذراعه، وأومأ برأسه، وتوارى داخل المبنى. وشرع بِن – روي بالسير. اجتاز مسافة مئة متر، ثم رمى المجلات في صندوق قمامة. يتعيّن على مسألة تتبّع الشؤون السياسية الانتظار. هناك جريمة ينبغي عليه كشف النقاب عنها.

الأقصُر

"آه تبّاً يا خليفة، جنّبني نظرية أخرى من نظرياتك المجنونة عن المؤامرة! أنت حالم. طالما كنتَ كذلك، وستبقى حالماً لعيناً!".

هذا ما كان رئيس المفتشين عبدول بن – حسَني سيقوله لخليفة لو جاءه هذا الأخير بأخبار عن مؤامرة لإخراج الأقباط من الصحراء الشرقية.

فهما لم ينسجما قطّ منذ تعيين خليفة في مركز الأُقصُر. فالرئيس المتنمّر الذي يفتقد إلى التفكير واسع الأفق، لم يثق قطّ بأسلوب مرؤوسه في ممارسة عمل الشرطة بانفتاح أكبر، وباستعداده لتتبّع فطرته بدلاً من التقيّد بحرفية كتاب القانون. من جهته، طالما كان خليفة منزعجاً من افتراض رئيسه أن قيامه بترهيب رجاله وصياحه في وجوههم يعزز أداءهم، ومن تمسّكه بمنهاج العمل، وفوق كل شيء من تشديده على أن أولوية العمل على حل القضايا بطريقة مطابقة لكتيّب المحافظة على الأمن المصري تتقدّم الحلّ الفعلي للقضايا.

لم يكن ذلك تخميناً مُنصِفاً تماماً. فبالرغم من ضيق أفق تفكيره، كان الحسَني يعرف التحرّي الجيد عندما يراه، لكنه اعتبر خليفة - وإن بتردد - متراخياً على مَرّ السنين. لم تكن علاقتهما مريحة، ومع ذلك، كان الحسَني مضطراً غالباً للإصغاء إلى قصص مرؤوسه عن المؤامرات والمكائد بعيدة الاحتمال، ويكون رد فعله المعتاد توبيخاً صارماً، وموعظة عن الحاجة إلى التمسك بالوقائع وكبح جماح المخيّلة، وصولاً إلى سَورة غضب إذا رفض خليفة التخلّي عن نظرية المؤامرة.

هذا ما حدث آنذاك. ففي تلك الأيام، ومنذ عودته من إجازة ممتدة، لاحظ خليفة نُضجاً واضحاً في سلوك الحسَني. فقد كبح جماح سَورات غضبه، وقلّل من استخدام كلام الحشو - الذي يشكل على الدوام جزءاً رئيساً من أي مواجهة كلامية بينهما - حتى إنه عوّد نفسه على مناداته باسمه يوسف، وهي طريقة للمخاطبة تُرفَع فيها الشكليات، وتكون مخصَّصة تقليدياً لمجموعة المقرَّبين إلى الرئيس.

لكن هذه الطريقة التي تنمّ عن حسن نيّة لم تؤدِّ إلا إلى زيادة شعور خليفة بالارتباك وبأن الأمور ليست كما ينبغي أن تكون. فعلى غرار شقته القديمة، ومدينة الأُقصُر العزيزة قبل إحداث خندق فيها على امتداد ثلاثة كيلومترات، وضَحِكِ زوجته زينَب، كانت العُدوانية العاصفة للرئيس الحسَني من الثوابت في حياته. وها هي تلك الثوابت تتبخر كما يبدو - لا سيما وأنه بحاجة الآن إلى تأثيراتها المهدِّئة - متخلّيةً عنه وتاركةً إيّاه في حالة من التخبّط.

في أثناء جلوسه في مكتب الحسَني بعد ظهر هذا اليوم، عارضاً قصة الآبار المسمَّمة، كان جزء منه يتوق إلى عودة رئيسه إلى سابق عهده، لينعته *بخليفة اللعين الحالم*. ولكن الحسَني أصغى بصبر - وإن كان قد فعل ذلك بشيء من عصبية المِزاج - إلى خليفة وهو يوجز الوضع. ومن ثم، وبدلاً من ضرب الطاولة بقبضة يده والتعبير له عن مدى غبائه، أسند ظهره، ونقر حافة الطاولة بأصابعه السمينة، ودفع فكه السفلي إلى الخارج، وهو أمر دأب على القيام به عندما يحاول نقل الانطباع بأنه مستغرق في التفكير.

قال: "هذا أمر مشوِّق، مشوِّق جداً".

"أعلم أن المسافة بعيدة جداً لتكون الأحداث مفتعَلة"، قال خليفة، "والدَّير بعيد جداً عن المزرعتَين".

"مسافة أربعين كيلومتراً، أليس كذلك؟".

"ربما تقارب المسافة ثلاثين كيلومتراً".

"وأشجار الزيتون ييبست...؟".

"منذ ثلاث سنوات أو أربع. أعلم أن كل شيء يبدو غامضاً قليلاً. ولكن، بالرغم من ذلك... سُمِّمت ثلاث آبار تابعة للأقباط تقع تقريباً في المكان نفسه. يوحي ذلك كما يبدو... بوجود...".

انتظر قيام الحسَني بالتعليق، ولكن الأخير لم يفعل، بل جلس هناك بصمت، وأصابعه تنقر على الطاولة، وفكّه إلى الأمام، وحاجباه السميكان متلاقيان كقطارَين مصطدمَين ببعضهما في عُبوس متأمّل. في ما مضى، كان انتقاد الرئيس آراء خليفة يؤكد لهذا الأخير أن تلك الآراء ربما تكون صائبة. وبطريقة معاكسة، جعله صمت الحسَني يتساءل بقلق عما إذا كان يفكر مليّاً بالوضع.

"يبدو ذلك غريباً فحسب"، قال بصوت يوحي بالتشكك. "إن تسمّم الآبار القبطية الثلاث فقط وليس مخزون المياه في بير هاشفا - القرية قرب مزرعة عطية - يبدو أكثر من مصادفة".

شبك الحسَني يدَيه أمام صدره، وأمال رأسه جانباً، وحوّل وجهه نحو الجدار وراءه حيث كانت صورة لحسني مبارك معلّقة ذات مرة. لقد أنـزلها عندما اتضح أُفول نجم الرئيس. فبالرغم من ضخامة جسمه، يميل الحسَني دائماً مع رياح الاتجاه السائد.

قال بعد فترة من الصمت: "بالطبع، أيّ من هذه الأماكن لا يقع ضمن منطقة نفوذنا، ودير الليمون أيضاً بالتأكيد".

"الزيتون"، صحح له خليفة.

"أصبتَ. ولكن، لندَع هذا الأمر للحظات".

حرّك يده بطريقة مسرحية كما لو أنه يضع شيئاً ما جانباً.

"ولنضَع جانباً أيضاً واقع أن الآبار تَفسد مياهها أحياناً تلقائياً. هذا ما يحدث، أليس كذلك؟ تفسد مياهها تلقائياً؟".

أقرّ خليفة أن هذا الأمر يحدث كما هو معلوم.

"ما تظنّه هو أن شخصاً ما قصد الصحراء الشرقية وسمّم عمداً آباراً قبطية".

أومأ خليفة برأسه.

"أو إنهم سمّموا بئراً واحدة قبل أربع سنوات، وقاموا بتسميم البئرين الأخريَين في الشهرين الأخيرين".

أومأ خليفة برأسه مجدداً، ولكن بما يعبّر عن اقتناعه بدرجة أقل.

"أعلم أن كل ذلك يبدو غامضاً قليلاً"، كرر خليفة.

فابتسم الحسَني وهز رأسه كما لو أنه يقول: "كلّيّاً". لقد ظهر ذلك واضحاً على قسمات وجهه، وفضحت عيناه ما يجول في خاطره، وكأنهما تقولان: "أنت مُحِقّ تماماً بقولك إنّ الأمر غامض".

"إذاً، من هم برأيك مسمِّمو الآبار المبهمون؟". سأل، وارتفعت نبرة صوته نصف درجة في أثناء محاولته المحافظة على نبرة معقولة.

أخرج خليفة علبة سجائره من دون فتحها، واكتفى بتقليبها بين يدَيه.

"في بادئ الأمر، ظننت أن من فعل ذلك شخص ما من بير هاشفا"، قال. "إنه اعتقاد السيد عطية أيضاً. ولكن، بوجود الدير على هذه المسافة البعيدة...".

أدار العلبة عدة مرات.

"ربما كان الأخوان المسلمون من فعلوا ذلك".

"في وسط الصحراء الشرقية!".

ارتفع صوت الحسَني، ثم انخفض مجدداً بعد أن استطاع التحكم به.

"ما بالك يا خليفة؟ يوسف... الأخوان يُقيمون في المدن. إنهم يقيمون في الأحياء الفقيرة".

"السلفيون إذاً. إنهم يُقيمون خارج البلدات".

بدا الحسَني غير مقتنع.

قال خليفة: "حسناً، هناك شخص *ما* يريد شحذ فأس دينية. لا أرى تفسيراً آخر. لو أن السيد عطية وابن عمه هما المتضرران فقط، لكان الأمر ربما ناجماً عن ضغينة محلية أو عداء عائلي مستحكِم. ولكن، عند التفكير في حادثة الدير؛ لماذا يسافر أحدهم مئات الكيلومترات إلى وسط الصحراء لإفساد مصدر مياه لا يستخدمه إلا بضعة رجال دين؟ عند التفكير في ذلك ستستنتج أن التعصّب هو السبب؛ لا بد أنه السبب. فإما أن يكون السبب، أو إن هناك شخصاً غريب

الأطوار يستمتع بالتسلل إلى أنحاء الصحراء ليسمّم آباراً عشـــوائية لا لشـــيء إلا للتسلية".

"أو إنّ الآبار قد فسدت ماؤها تلقائياً، وصودِف أن مالكيها أقباط".

قلّب خليفة العلبة مرات قليلة بين يدَيه، ومن ثم أعادها إلى جَيبه من دون أن يخرج منها أي سيجارة. لقد شعر بالإرباك فجأةً، و لم يعُد واثقاً بما يفكر فيه.

"انتابني للتوّ شعور بوجود خَطْب ما"، تمتم. "هناك أمر ما يحدث وينبغي علينا تفحّصه".

كانت هناك عدة أمور تزعج الحسَني أكثر من قول أحدهم له إن لديه شعوراً حيال أمر ما. "النساء لديهنّ المشاعر والحدس، ورجال الشرطة لديهم الدليل"، إن هذه إحدى المقولات الأكثر انتشاراً المنسوبة إليه. ولكنه لم يستخدمها عِلمـــاً أن انقباض فمه يوحي بأنه يودّ القيام بذلك، بل نهض وسار نحو النافذة.

كانت غرفة مكتبه – وهي حجرة فوق السطح، كما يدعوها – موجودة في الطابق العُلوي للمركز، وهي كناية عن مساحة رَحيبة، رخامية الأرض، تبدو كما لو أنها تجعل كل شخص وكل شيء يبدو صغيراً داخلها. فلدى انتقالهم إلى هنا قبل ستة أشهر، كانت نوافذها تُشرف على مناظر مدهشة تمتد من المدينـــة إلى النيـــل والجبال الطيبية البعيدة. كان ذلك قبل اتخاذ وزارة الداخلية قراراً بإضافة طابقَين إلى مبناها القائم وراء المركز. والآن، عندما ينظر الرئيس الحسَني إلى الخارج، يواجَـــه بجدار إسمنتي غير مزيَّن ثُبِّتت عليه مجموعة متناثرة من وحدات تكييف الهواء. ولـــو كان الناظر متذوّقاً للجمال لخُيِّب أمله، ولكن الحسَني بدا غير مهتمّ، و لم تُثِر المناظر الطبيعية الجميلة اهتمامه قطّ.

حدّق إلى الخارج وظهره إلى خليفة، ودرزة سترته تبدو كما لو أنها تقـــاوم ضغط منكبَيه العريضين المماثلَين لمنكبَي مقاتل. واستدار بعـــد ذلـــك، مطقطقـــاً بُرجُمات أصابعه.

"سأكون صادقاً يا خليفة... يوسف... لا أستسيغ كثيراً ما تحملـــه إليّ مـــن أخبار. أنا لا أقول إنك مخطئ بنقلها إليّ، وإنّ مخاوفك غير منطقية، ولكـــن لـــدينا الكثير من الأمور لمعالجتها في الوقت الحاضر، ولا يمكننا أن نضيف إلى حسائنا هذا احتمال وجود متعصّب ديني يُغِير على الآبار".

شعر بعينَيه تتقلّبان ورأسه يهوي خلال محاولته التحقق مما إذا كان تعبير الحساء المجازي مناسباً أم لا. وتقدّم خطوة في اتجاهه، ثم أشار من فوق كتفه بواسطة إبهامه إلى النافذة وراءه.

"إنّ المتحف الجديد في وادي الملوك الذي سيجري الاحتفال بافتتاحه بعد أسبوعَين يستنفد الكثير من الموارد؛ *الكثير* من الموارد. سيحضر الوزير، فاراغ، والسفير الأميركي، ورئيس الشركة المموِّلة إلى ذلك المكان اللعين. عليّ الاهتمام بنقل تسعة وأربعين شخصاً من أصحاب المراكز من المطار إلى الضفة الغربية – من دون احتساب حوّاس وكل غوغائييه – ومن ثم ضمان سلامتهم عندما يصبحون هناك. هل تعرف كم رجلاً يتطلب إغلاق الوادي بأكمله وضرب طوق أمني حوله؟ المئات؛ من رُماة مهرة، وقوات خاصة، وشرطة، وجيش...".

بدأ وريدٌ أخضر صغير ينبض تحت عينه اليمنى، وفي ذلك دلالة أكيدة على مشاعره المُثارة. وتمكن من السيطرة على نفسه بعد بذل جهد كبير، رافعاً يدَيه ومُنزلاً إيّاهما كما لو أنه يدفع نحو الأسفل موجة مرتفعة من الذُّعر والغضب.

"ما أقوله هو أننا الآن نواجه ضغطاً كبيراً، وربما هذا ليس الوقت الأفضل لإطلاق تحقيق على نطاق واسع حول إمكانية تسميم بئرَين، لا يمكننا الجزم إن كانتا ضمن منطقة نفوذنا أم لا، من قِبَل شخص ما ربما كان أصولياً أو لا. هل تفهم ما أقصده؟ سأكون سعيداً بالنظر في قضيتك في أي وقت آخر. ولكن الآن...".

كفّ عن الكلام، ورفع يده ودلّك الوريد النابض، فيما حدّق خليفة بالأرض. في الأيام الخوالي، كان يَثبت على موقفه إذا كانت لديه أي شبهة، ويجادل الحسَني حتى يحصل على ما يريده. واليوم، ليس باستطاعته استجماع الحيوية التي كان يتمتع بها في السابق لإقناع رئيسه أن لديه وجهة نظر في الواقع. ربما كان الرئيس مُحِقاً. ربما فَسُدت مياه البئرين لأسباب طبيعية، ومن باب الصُّدَف أن تكونا تابعتين لأقباط. ربما سمح لشفقته على السيد عطيّة بالتأثير على حُكمه. لقد اعتاد الثقة بفطرته، وها هو الآن غير واثق من أي شيء. وليست هذه هي المرة الأولى التي تتبادر فيها إلى ذهنه فكرة فقدانه نصف مهارته السابقة كتحرٍّ، لا بل ثلاثة أرباع مهارته.

"هل يمكننا وضع شرطيَّين نظاميَّين على الأقل في مزرعة عطيّة؟". سأل ساحباً علبة سجائره ومقلِّباً إيّاها بيده مجدداً. "فقط لمراقبة الأمور".

لقد بدا الحسَني متفاجئاً بذلك؛ كما لو أنه كان يتوقع من مرؤوسه إبداء مقاومة. فحدّق إلى خليفة، منتظراً التحقق مما إذا كان سيطلب منه أمراً آخر. وعندما لم يطلب أي شيء آخر، أومأ برأسه موافِقاً، وعاد إلى طاولته بخطى ثقيلة.

"لِمَ لا"، قال، ثم جلس وشبك يدَيه، وبدا أكثر استرخاءً مما كان عليه منذ بدء الحديث. "سأقول لك ما سيحدث، لنوكل هذه المهمة إلى ثلاثة رجال شرطة نظاميين احتراساً".

"أعتقد أن اثنَين سيكونان كافيين".

"لا، لا"، أصرّ الحسَني مبتهجاً لأنه بات من الواضح أنه لن يكون مضطراً للقيام بأي شيء. "لديك مخاوف وأنا أُصغي إلى هذه المخاوف. سوف نرسل ثلاثة رجال إلى المزرعة للمراقبة، وعندما تنتهي مهمتنا تلك في وادي الملوك، سنعيد النظر بالوضع إذا كان هناك وضع غير طبيعي، وإذا كنت لا تزال تعتقد بوجود حاجة لإعادة النظر. اتفقنا؟".

"اتفقنا"، تمتم خليفة. "شكراً لك".

"بل العكس تماماً، شكراً *لك*. أنت مُحِقّ تماماً بلفت نظري إلى هذا الأمر".

ابتسم، وارتسمت على وجهه نظرة معبِّرة بدت مصطنَعة وغير جدّيّة.

سأل: "هل هناك أي شيء آخر؟".

"لا، يا سيدي".

"هل أنت متأكد؟".

"أنا متأكد".

"حسناً، شكراً لقدومك، وواصِل عملك الجيد".

كان ذلك صَرْفاً أكثر منه إطراء. فوقف خليفة وسار إلى الباب، وبدا وقع خُطاه منخفضاً على نحو غير طبيعي على الأرض الرخامية. وفي أثناء خروجه إلى الممرّ، ناداه الحسَني.

"بلّغ زبيدة تحياتي".

"زينَب".

"تماماً. قُل لها إننا نفكر فيها".

احتفظ الرئيس بابتسامته لثوانٍ قليلة إضافية، ومن ثم أزالها عن وجهه ونظر إلى طاولته. وبينما كان خليفة يُغلق الباب، سمع الحسَني يتمتم لنفسه.

"حا لم أخرق لعين".

على غرار الأيام الخوالي، ولكن ذلك لم يحمل له شعوراً أفضل.

تل - أبيب

حالما عاد بِن - روي إلى سيارته، اتصل بملجأ هوفيش، وتحدّث إلى مديرته، وتدبّر أمر الذهاب إليها على الفور لإجراء مقابلة معها. كانت بيتاه تيكفاه، وهي البلدة الوادعة حيث يوجد الملجأ، على بُعد عشرة كيلومترات فقط شمال - شرق تل - أبيب، ويُفترَض بلوغها في غضون خمس عشرة دقيقة على الأكثر بالسيارة، وبمدة مضاعَفة مع وجود حركة مرور. اليوم، كانت الطريق شديدة الازدحام بالعربات، وقد يتطلّبه الأمر ساعة تقريباً لبلوغ المكان؛ حتى رغم وضع صفارة إنذار الشرطة الوامضة على السطح.

لكن هذا الوضع منحه فرصة الاتصال بدوف زيسكي للتحقق مما إذا كان هناك أي تقدّم في شأن تذكرة الحافلة التي عُثر عليها في شقة ريفكا كلينبرغ.

لم يكن هناك أي جديد.

"أرسلتُ صورها إلى المركز في ميتزبي رامون"، قال زيسكي. "وهم يتناقلونها الآن، ولكنهم لم يتوصلوا إلى أي شيء بعد. وقصدتُ *إيغد* أيضاً بسبب وجود احتمال بسيط بقيام أحد السائقين بتذكّرها. كان هناك أربعة منهم فقط ممّن يسلكون تلك الطريق، ولكن السائق الذي كنا بحاجة إلى التحدث إليه في إجازة. وهم يحاولون الاتصال به من دون جدوى".

قال بِن - روي: "استمر بالمحاولة، هلاّ فعلت، الأمر هام، وربما يكون شديد الأهمية".

أطلع زيسكي على مضمون حديثه مع موردخاي يارون، وعلى مقالات كلينبرغ التي كانت تقرأها في المكتبة.

"أتريد مني أن أبحث عن معلومات حول مجموعة نمِسيس؟" سأل زيسكي عندما أنهى بِن - روي كلامه. "ربما يعرف صديقي شيئاً، ذاك الذي يعمل في أمن شبكات الكمبيوتر والذي ذكرتُه لك هذا الصباح".

"لِمَ لا. في أثناء ذلك، حاولْ التوصل إلى معلومات عن خلفية شركة بارين، ولا سيما أي شيء يمكنك العثور عليه عن منجم ذهب تديره في رومانيا. لديّ مصدر معلومات في هآرتس، ويمكنك الاتصال به إذا شئت. إنه يغطي الشؤون الاقتصادية، وقد يكون بإمكانه توجيه مسارك".

مرّر له تفاصيل عن ناتان تيرات، فدوّنها زيسكي.

سأل بِن - روي: "هل هناك أي جديد؟".

"جاء الخبراء الجنائيون منذ ساعة، ورفعوا شعرة عن ملابس الضحية. هم أكيدون أنها شعرة امرأة بسبب طولها، ولكنهم لم يعثروا على تطابق بواسطة الدي أن أيه".

لم يتفاجأ بِن - روي. من المؤكد أن الشعرة عائدة لقاتل كلينبرغ. وإذا صدق حدسه، فهم لا يزالون بعيدين عن معرفة القاتل. لقد شعر - كان قد شعر بذلك منذ البداية - بأن قاتلهم لن يكون شخصاً يعرفونه. ولا يبدو أنّ كون الشعرة عائدة لامرأة أمراً مشوّقاً. ولم توصلهم هذه الحقيقة إلى أي مكان، فاكتفى بالاحتفاظ بهذه المعلومة في ذاكرته وواصل الحديث.

سأل: "هل هناك أي شيء يبعث على السرور مع جيران كلينبرغ؟".

"لا يزال هناك شخصان لم نتمكن من التحدث إليهما. والآخرون لم يروا أو يسمعوا شيئاً".

وتوقف قليلاً، ثم أضاف: "ذكرتْ سيدةٌ أنها شمّت رائحة".

"رائحة؟".

"رائحة صابون أو عطر أو ما شابه. رائحة مسكّية؛ أعتقد أنها الكلمة التي استخدمتها. قالت إنها تقيم في المجمَّع السكني منذ ثلاثين عاماً، ولم تشمّ تلك الرائحة من قَبل إلا ليلة مقتل كلينبرغ. جاء التحري بينكاس وأطلعني على ذلك، وقال إنني قد أكون راغباً في متابعة الأمر".

تغضّن فم بِن - روي، لقد عرف تماماً ما الذي يشير إليه بينكاس ضمناً. وكان واثقاً من أن زيسكي أدرك ذلك أيضاً: *صابون، عطر، أشياء متعلقة بغير*

الأسوياء. فقبل ثمانٍ وأربعين ساعة، كان هو نفسه يوجّه الملاحظات عينها. ولكنه وجد الدُّعابة أقل إمتاعاً بسبب ازدياد معرفته بالفتى.

"أَبلغ التحري بينكاس عن لساني بأنه يتعيّن عليه التعاطي مع هـــذا الغـــائط بنفسه"، زمجر. "هل فهمتَ؟".

"فهمت".

لم يكن بِن – روي واثقاً، ولكنه ظنّ أنه التقط نبرة امتنان في صوت زيسكي.

"هل هناك أي شيء آخر؟".

لم يكن هناك أي شيء آخر في الواقع. فبينكاس وآموس نامير كانا لا يزالان ينتظران معلومات من مُخبِريهما؛ و لم يحقق نامير أي تقدّم في ما يتعلـــق بالقضـــايا القديمة والقضايا المُثبطة للعزيمة.

"عِلماً أنني أكتَشفتُ شيئاً ما عن رئيس الأساقفة بتروسيان".

كان هناك الكثير من الخيوط المتباينة الأخرى في رأس بِن – روي لدرجة أنه نسي أمر بتروسيان.

قال: "أَدهشْني".

"ثبُت أن لجناحه باباً خاصاً يؤدي إلى الشارع، ويفتح على طريـــق ســـانت جيمس. مما يعني أنه يستطيع الدخول والخروج من المجمَّع...".

"من دون أن يراه أحد".

لقد أنهى بِن – روي الجملة، وأخرج ذراعه من النافذة، ونقر علـــى بـــاب التويوتا بأصابعه. كان يعلم أنه لا وجود لأي كاميرات تابعة للشـــرطة في طريـــق سانت جيمس. وفضلاً عن محيط كوتيل، لم تكن هناك أي كـــاميرات مراقبـــة في الحيّ اليهودي حيث ينتهي طريق سانت جيمس (دُعابة فلسطينية: حصل اليهـــود على الأرض والماء والحدود والفضاء، ولكننا حصلنا على الكاميرات على الأقـــل). لذلك، يستطيع بتروسيان الخروج من المجمَّع، في المبدأ، وعبـــور الحـــيّ اليهـــودي والوصول إلى المدينة القديمة من دون أن يعلم أحد بما يجري.

سأل: "أتقول إنه لا يملك عذر غياب ليلة الجريمة؟".

"لا، إذ لم يكن بإمكانه دعم ذلك بالأدلة. يدّعي أنه كان في جناحه طـــوال الليل، ولكننا لم نعثر على أحد يمكنه تأكيد ذلك".

فكّر بِن – روي للحظات، وكان هيكل التويوتا المعدني يُرجع صدى نقر رؤوس أصابعه عليه.

قال في النهاية: "قدِّم لي صَنيعاً وانقل هذه المعلومة لليه شاليف. إنها بحاجة إلى متابعة، وأنت لديك الكثير من المهام. في الوقت الحاضر، أريد منك التركيز على الموضوع الذي ناقشناه للتوّ: ميتزبي رامون، نِمِسيس، بارين. يُفترض بي العودة في وقت متأخر من فترة بعد الظهر. ابذُل ما بوسعك حتى ذلك الحين".

أنهى المكالمة محدّقاً إلى صفوف السيارات غير المتحركة في اتجاه أبراج رامات غان البعيدة المتلألئة. ومرت ثلاثون ثانية، ومن ثم أخرج هاتفه المحمول وكتب عبارة: "عمل جيد يا زيسكي".

وتردّد، ثم أدخل كلمة دوف بدلاً من زيسكي، وأرسل الرسالة النصّيّة، ثم شغّل صفارة إنذار الشرطة؛ ليس بهدف تسريع حركة المرور بقدْر رغبته في أن يُظهر للعالم أنه لا يزال شرطياً لا يلين، ولم تجعله سنّه المتقدمة ليّن العريكة.

الأُقصُر

بعد اجتماعه بالحسَني، حاول خليفة إخراج مسألة تسميم الآبار من ذهنه. ربما كان هناك أمر ما يحدث وربما لا؛ وفي كلتا الحالتين، لم يكن بإمكانه القيام بأكثر مما قام به. عاد إلى مكتبه، وقام بالإجراءات الضرورية لوضع شرطيَّين نظاميَّين في مزرعة عطيّة. وبعد ذلك، حان وقت استراحة الغداء، فقصد حقل الرماية لتمضية ساعة من الزمن في ما يدعوه العريف أحمد مِهني بعبارة ملطَّفة – وهو العملاق ذو الشارب الذي أجرى تدريبات على الرماية في الحقل أكثر من أي شخص آخر – *تأمّل بالطلقات*.

عندما يريد خليفة التفكير بالأمور حقاً، يتوجه إلى الضفة الغربية، ويتسلق حتى يصل إلى *مقعد التفكير* الخاص به عند أسفل القُرن. وعندما لا يرغب في التفكير بالأمور حقاً، يذهب إلى حقل الرماية. كان رامياً ماهراً في العام الذي أمضاه في كلّية شرطة القاهرة التي دأب على زيارتها. وفي الفترة الأخيرة، ازدادت زياراته لحقل الرماية، مرحِّباً بالقدرة على التركيز التي يمنحه إيّاها، وبالفرصة التي

يوفّرها له لوضع كل مشاكله جانباً، ولو للحظات قليلة، ولتضييق عالمه بما يوازي الشقّ الطولي الرفيع لمنظار التصويب الخاص ببندقية لي - إنفيلد 303.

كان المرمى عبارة عن قاعة إسمنتية شديدة الحرارة تقع عند أطراف الصحراء وراء الحافة الشرقية للمدينة. لقد اتصل في وقت سابق ليقول إنه قادم، كي يُعدَّ العريف مِهتي كل شيء؛ ليحضّر له واقيي الأذنين اللذين يحميانهما من دويّ إطلاق النار، وهدفاً ورقياً على صورة جندي مهاجِم، وعلبة تحتوي على أمشاط ذخيرة لخمس جولات، لا بل أيضاً كوب شاي. كان خليفة هو الشخص الوحيد هناك في ذلك الوقت، ويروق له أن يكون بمفرده. وبعد أن وقّع على استلامه بندقيته، توجّه إلى الحقل وشرع بالرماية. لقد حادت الطلقة الأولى عن الهدف قليلاً، وكانت الطلقة الثانية عالية جداً، ولكن طلقاته النارية الأخرى أصابت الهدف، وتردد في أرجاء القاعة الصوت الإيقاعي لزناد البندقية، والفرقعة الحادّة للكورديت المنفجر. واخترقت الرصاصات وجه الهدف وجذعه، وكانت كل طلقة تبعده عن ذاته أكثر فأكثر. كان عليه هز رأسه مرتَين لإبعاد صورة زينَب المُنهارة في وحدة الطوارئ في المستشفى، ومرة واحدة لإبعاد صوت السيد عطيّة في مزرعته في الصحراء الشرقية: *سأقاتل إذا اضطُررت لذلك؛ لحماية عائلتي وأولادي. إنّ هذا أعظم واجبات الرجل.*

عدا عن ذلك، لم يكن يفكر في أي شيء آخر. وعندما غادر بعد 40 دقيقة، كان قد أفرغ عشرين مشط ذخيرة في عشر جَولات، وحوّل خمسة أهداف إلى خِرق ممزَّقة، وشعر بهدوء أكبر. إنه *تأمّل بالطلقات* حقاً.

بيتاه تيكفاه، إسرائيل

كانت مايا هيلِل، مديرة ملجأ هوفيش للنساء اللواتي يتم استغلالهن، جذّابة على نحو يُفقد التوازن. فهي في أواخر العقد الثالث من العمر، هيفاء القَدّ، عيناها كبيرتان كئيبتان، وشعرها الأسود الجامح منسدل على كتفَيها كشلال مياه أسود. وكانت تبدو أشبه بعارضة أزياء أكثر من كونها عاملة اجتماعية. ونظراً لطبيعة عملها، علم بِن - روي أنه من غير اللائق النظر إليها من هذا المنظار، ولكنه لم

يستطع تمالك نفسه. إنه رجل، وهذه هي طريقة الرجال في مقاربتهم للجمال. جذّابة تعني جذّابة. انتهى.

لقد التقته خارج الملجأ - مبنى أبيض يُشعر بالاطمئنان في أحد شوارع شيكونيم المغبَرّة، ويقع على بُعد خمس دقائق من وسط المدينة - ورافقته عبر بوّابة فولاذية ثقيلة إلى داخل باحة مرصوفة.

"علينا الاحتراس"، شرحتْ مشيرةً إلى البوّابة التي يحرسها رجل يرتدي بذلة نظامية، وإلى سياج أمني مُحيط بالمبنى. "يأتي إلى هنا عدد كبير من القَوّادين الذين يحاولون إغواء الفتيات. هناك واحد في الجانب الآخر من الشارع الآن".

ألقى بِن - روي نظرة سريعة من فوق كتفها، ولكن البوّابة كانت قد أُغلقت.

"هل تريدين مني أن أصرفه؟".

"الأمر غير جدير بالمحاولة؛ إذ سينصرف الآن ولكنه سيعود مجدداً حالما تذهب. فهو يعتبر أننا نضع يدنا على من هي مُلك له ويريد استعادتها. ولكن، شكراً على العرض".

انعطفا عند زاوية المبنى، وعبرا باباً مفتوحاً، ودخلا رَدهة مبلّطة، وانفتح أمامهما مطبخ فارغ إلى اليسار. عُلّقت على الجدران مجموعة مُلصقات إعلانية تحذّر من مساوئ الاتّجار بالنساء، بما فيها مُلصَق يحمل صورة اثنتَي عشرة امرأة عارية موضّباتٍ على صينيّة من البوليستيرين كصف من الطيور المطبوخة. *لحم طازج*، جاء في العنوان. حدّق بِن - روي إليه، ومن ثم تبع هيلِل خلال شروعها بصعود الدرج.

"كم فتاة لديكم هنا؟" سأل محاولاً الإشاحة بنظره عن مؤخّرتها.

"أربع عشرة فتاة"، أجابت. "معظمهنّ في الخارج يعملنَ في الوقت الحاضر؛ مما يفسّر سبب هدوء المكان. نحن نتدبّر لهنّ وظائف؛ كنادلات، أو عاملات تنظيف، ذلك النوع من الأمور. المكان هنا يتّسع لخمس وثلاثين فتاة، ولكن الإحالات انخفضت في العامَين الأخيرين. عندما فتحنا الملجأ عام 2004، كان لدينا أكثر من مئة فتاة. في هذا العام، هناك عشرون فتاة فقط".

"أنا سعيد بتحسّن الأمور".

"إنها إحدى القراءات لوضعنا، كما أفترض. شخصياً، أُعيد السبب إلى موقف الشرطة التي لم تعُد تعتبر المشكلة من أولوياتها، لذلك يتم إنقاذ عدد أقل من الفتيات".

وصلت إلى فسحة الطابق الأول، فالتفتت إليه، ونظرت إلى عينَيه للحظات قبل أن تواصل الصعود إلى الطابق العُلوي.

"الأمور أفضل مما كانت عليه قبل عقد من الزمن"، أضافت. "في التسعينيات، كان يتم الاتّجار بنحو ألفين إلى ثلاثة آلاف فتاة في العام، ويتم إدخالهن إلى البلد. ويقتصر العدد الآن على بضع مئات، ولكن المشكلة لا تزال موجودة. وأنتم أيها الرجال لا توفرون الموارد التي كنتم توفرونها قبل سنوات قليلة، ويعود سبب ذلك بصفة رئيسة - لنكون مُنصفين - إلى أن السياسيين لا يوفرون الموارد. ووزارة الداخلية لا تُعطي شيئاً. فإنقاذ البغايا ليس عامل فوز بالتحديد للذين يخوضون معارك انتخابية".

بلغا فسحة الطابق الثاني. كانت الممرات ممتدة إلى اليسار واليمين، وتقوم على جانبَيها أبواب مُغلَقة. وفي الغرفة التي تقع أمامهما مباشَرةً، كانت هناك فتاة ببذلة تمرين مخملية فضفاضة واقفة على ميزان، في حين تقوم امرأة متوسطة الوزن وممتلئة الجسم بتسجيل وزنها على لوح مِشبَكي. فأومأت المرأة برأسها مُحيِّية، فيما حدّقت الفتاة بوجه خالٍ من أي تعبير؛ كانت تبدو كناجية من معسكر الموت بسبب نحولها المؤلم، وخدَّيها الغائرَين، وشعرها الطويل المُسدَل، وبشرتها المائلة للصُّفرة.

نادت هيلِل: "هل كل شيء بخير، يا أنجا؟".

فهزت الفتاة كتفيها بوهَن.

"إنها تُبلي بلاءً حسناً"، قالت المرأة مبتهجة وممازِحة: "لقد ازداد وزنها نصف رطل".

قالت هيلِل: "رائع، رائع حقاً".

حوّلت وجهتها إلى داخل الغرفة، وفركت ظهر الفتاة مُطَمئِنةً إيّاها، واصطحبت بِن - روي بعد ذلك إلى الطابق العُلوي مروراً بآخر مجموعة من الأدراج.

"إنها مولدوفية"، شرحت مُخفِضةً صوتها. "اعتقلتها الشرطة في أثناء غارة في إيلات قبل أسابيع قليلة. لقد رأيتُ بعض الحالات السيّئة، ولكنها كانت...".

توقفت، وألقت نظرة إلى الوراء في اتجاه أسفل الدرج.

"مصابة بسلّ رئوي، وبالتهاب الكبد، وبكل الأمراض المنقولة جنسياً التي يمكنك أن تتخيّلها باستثناء نقص المناعة المكتسَبة. ولا يُقارَن ذلك بالضرر اللاحق بها".

ربّتت على جانب رأسها.

"لقد مُنحت إذنَ عمل كي تتمكن من البقاء في البلد لمدة عام لتأهيلها، ولكنها ترفض الإدلاء بشهادتها، ولذلك سيتم ترحيلها بعد انتهاء المدة. وعندما ستعود إلى مولدوفا، سيستهدفها في المقام الأول أولئك الأشخاص الذين نقلوها إلى هنا، وسيُعيدون الاتّجار بها. هكذا تسير الأمور. وهذا مدعاة لتعاسة غامرة، فهي لا تزال في التاسعة عشرة من عمرها فقط".

ارتفع حاجبا بن - روي. كان قد افترض أن عمر الفتاة يناهز ثلاثين عاماً.

"ألا تستطيع الحصول على إقامة رَحيمة؟".

"أنت تمزح! متى يُمنَح شخص غير يهودي إقامة لأسباب إنسانية في هذا البلد؟ لا، أفضل ما يمكنها أن تأمله هو العثور على شخص يرغب في الزواج بها. ولن يجعل هذا النوعُ من الرجال المنجذبين إلى بغايا سابقات حياتَها أفضل".

تنهّدت، واستدارت، ثم واصلت الصعود إلى أعلى الدرج، حيث وصلتْ إلى مساحة مكتبية واسعة ومفتوحة. كانت هناك ثلاث نساء أخريات جالساتٍ وراء طاولاتهنّ، وعرف بن - روي من أعمارهنّ ومظهرهنّ أنهنّ موظفات إداريات. وفضلاً عن الحارس الأمني الذي كان يقف عند البوابة الأمامية، كان هناك رجل آخر في المكان. لم يفاجئه ذلك بعد كل ما سمعه.

طلبت هيلِل من إحدى النساء أن تُحضر لهما القهوة، واصطحبته إلى داخل مكتب خاص أصغر حجماً ذي سقف منحدر ونافذة مُطلّة على أسطح بيتاه تيكفاه. أومأت له بيدها ليجلس على الكرسي، ثم جلست على الطاولة أمامه، مؤرجحةً ساقَيها.

قالت: "إذاً، ريفكا كلينبرغ. ماذا يمكنني أن أُخبرك؟".

ثبّت بِن - روي نظره للحظات على الصور المؤطّرة المعلّقة فوق الطاولة - هيلِل تصافح هيلاري كلينتون، هيلِل تتلقى جائزة من نوع ما من شيمون بيريز، هيلِل مع من افترض أنهما زوجها وابنتها؛ وهو ما أثار دهشته - لسبب ما، لم يكن يعتقد أن لديها عائلة. ومن ثم أخرج دفتر مدوّناته وشرع بالعمل.

"أخبرَني محررها أن السيدة كلينبرغ قد زارت الملجأ"، شرع بالكلام مقلّباً صفحة فارغة.

فأومأت هيلِل برأسها.

"اتصلتْ قبل أربعة أسابيع، وقالت إنها تُعِدّ مقالة عن الاتّجار بالجنس، وسألت عما إذا كان باستطاعتها القدوم وإلقاء نظرة على المكان".

ونقرت الطاولة بإصبعها وهي تُضيف: "أتعتقد أنها قُتلت لهذا السبب؟ بسبب المقالة؟".

فهزّ بِن - روي كتفَيه بما معناه أنه ليس لديه تعليق.

"في هذه المرحلة نحن لا نستنتج أي شيء".

"لو كان الأمر كذلك لما شعرت بالدهشة". قالت. "الاتّجار بالجنس تجارة كبيرة، وأنا واثقة من إدراكك هذا الأمر. والأشخاص الذين يقومون بذلك لا يحبون المتطفّلين، ولا سيما الروس الذين يسيطرون على ثمانين بالمئة من هذه التجارة، وليسوا ممّن يتساهلون مع من يتدخل في شؤونهم".

حدّق بِن - روي إلى إضمامة الورق. *الروسكايا مافيا* مجدداً. يبدو أنهم بارزون جداً في هذه القضية. ودوّن ملاحظة ليمرّرها في وقت لاحق لبينكاس الذي يُجري تحقيقات حول الروس.

"وهكذا، زارت الملجأ"، أضاف، "وتحدّثت إليك".

"صحيح".

"عمّ؟".

"عن أمور كثيرة: المكان الذي قدمتِ الفتيات منه، وكيف أُدخلنَ إلى إسرائيل، وما يحدث لهنّ عندما يكنّ هنا، وما يتم القيام به حيال ذلك. لقد أمضت يوماً كاملاً معنا، ومن ثم تحدّثنا مجدداً عبر الهاتف قبل أسبوع. لم تكن الشخص

الأكثر عملاً لأجل الإصلاح الاجتماعي من بين من التقيتهم يوماً، ولكنها كانت تهتم بوضوح بما نقوم به، وكانت رائعة مع الفتيات. لقد أبدت تعاطفاً صادقاً".

تذكّر بِن - روي كلمات موردخاي يارون: *كانت تشعر بتعاطف فِطري حيال الأشخاص المتألمين، ويعود سبب ذلك ربما إلى ما تشعر به من ألم.*

"هل أرادت مناقشة أي أمر بصفة خاصة؟".

"تحدثنا كثيراً عما تفعله الحكومة للتعاطي مع المشكلة"، قالت مُخرجةً عُصبة شعر مطاطية من جَيب قميصها، وماطّةً إيّاها بأصابعها. "أو بالأحرى عما لا تفعله. فنحن لم نلتزم إلا مؤخراً بالحد الأدنى لمعيار وزارة الخارجية الأميركية حول مكافحة الاتّجار بالجنس. يبدو لي أن معظم سياسيّينا لا يزالون يعيشون في العصور المظلمة، ومعظم رجال الشرطة أيضاً؛ بصراحة. يبدو أنهم يعتقدون أن احتجاز إحداهنّ في بيت دعارة وإرغامها على ممارسة الجنس مع عشرين رجلاً في اليوم خيار مِهَني واعٍ".

بدّل بِن - روي وِضعته على نحو غير مريح. كان قد انغمس في الرذيلة لمدة وجيزة قبل دخوله أكاديمية الشرطة، وأدرك تماماً ما الذي تصفه. لذا، عاد إلى الموضوع الرئيس، قاطعاً الطريق على أي استطرادات غير مرغوب فيها.

سأل: "هل هناك أي شيء آخر؟ أي مواضيع أخرى بدت السيدة كلينبرغ مهتمة بها بصفة خاصة؟".

"أمضينا الكثير من الوقت في مناقشة ديموغرافيات الاتّجار بالجنس"، قالت مستمرةً باللهو بعصبة شعرها، "وفي الحديث عن الأماكن التي قدمت منها الفتيات، وواقع أننا نرى مزيداً من الفتيات الإسرائيليات يُرغَمنَ على ممارسة البِغاء بسبب قلّة عدد الفتيات الأجنبيات. وأرادت أن تعرف كل شيء عن الزبائن ولا سيما أولئك الذين يدّعون الإفراط في العمل بأحكام بني إسرائيل. إنهم يشكلون سوقاً كبيرة. فبيوت الدعارة تكون مليئة بهم أيام الجمعة قبل حلول يوم الشّبّت".

وارتعشت نفوراً.

"وطرحتْ أيضاً الكثير من الأسئلة حول قنوات الاتّجار بالجنس"، أضافت مُرجعةً شعرها إلى الوراء، ورابطةً إيّاه بعُصبتها. "ولا سيما قناة الاتّجار بالجنس عبر مصر".

انتفضت عينا بِن – روي. مصر مجدداً. فعلى غرار *الروسكايا مافيا*، يبدو أنها ستتكرر في هذه القضية. وهمّ بطرح المزيد من الأسئلة للحصول على المزيد من المعلومات، ولكنه قوطِع بقرع الباب. ودخلت إحدى النساء اللواتي رآهنّ في الخارج، حاملةً صينية قهوة وبسكويت. انتظر قيامها بوضع الصينية، وتسليمها هيلِل رسالة، ومغادرتها قبل مواصلة الحديث.

قال: "قناة مصر هذه، أتأتي الكثير من الفتيات عبرها؟".

"ليس بالقدْر عينه كما كان الحال منذ عقد من الزمن"، أجابت هيلِل مرتشفةً قهوتها. "كانت آنذاك قناة التهريب الرئيسة. وبعد الإجراءات الصارمة في أوائل العقد الأول من القرن الحادي والعشرين، تخلّى المتّجرون بالجنس عن هذه القناة لفترة، وعثروا على قنوات أخرى لإدخال الفتيات؛ جوازات مرور زائفة، وثائق زواج زائفة، ذلك النوع من الأمور. إنهم أذكياء، ويتكيّفون على الدوام، ويسبقوننا خطوة إلى الأمام".

"ولكن، هل فُتحت القناة مجدداً الآن؟".

"حسناً، يصعب الحصول على إحصائيات دقيقة. ولكن هناك دليلاً يوحي بأنه واقع الحال. كان قَوّادٌ كبير من تل – أبيب يدعى غينادي كريمينكو يُدخل معظم الفتيات عبر تلك القناة".

وعرف بِن – روي الاسم.

"أهو ذاك الذي اعتُقل قبل شهرَين؟".

"هو نفسه. كان أحدهم يتولى مهمة تنظيم جَولات تعريفية، فيُخرج الإسرائيليات من مصر، ويتولى كريمينكو مهمة إحضار الفتيات. ليس رجلاً لطيفاً. أيّ منهما ليس كذلك".

وضع بِن – روي سكّراً في كوب القهوة الخاص به، وحرّكه.

"هل تعرفين إن كانوا يُقلعون من الإسكندرية؟" سأل، مفكراً بالرحلة الجوّية التي حجزت كلينبرغ على متنها ليلة مقتلها.

"إنهم يُقلعون عادة من القاهرة أو شرم الشيخ، ويصلون جوّاً إلى أحد هذَين المكانَين من أوروبا الشرقية، أو روسيا، أو أوزبكستان، وينتقلون عبر سيناء ويعبرون الحدود بمواكبة البَدو".

"وهل أرادت السيدة كلينبرغ معرفة كل هذه الأمور؟".

"لم تكن تريد معرفة هذا القدْر من المعلومات عندما زارت الملجأ. لقد تطرّقنا إلى هذه الأمور على نحو عرَضي وبقليل من التفصيل. لم تبدأ بطرح الأسئلة إلا عندما اتصلت بي بعد أسبوع".

"وماذا أخبرتها؟".

"الكثير مما أخبرتُك به. للقوّادين مجنِّدون خارج البلد يستهدفون الفتيات، وينقلونهنّ جوّاً إلى مصر، ومن ثم تتولى شبكة من البَدو مهمة نقلهنّ عبر سيناء إلى داخل النَّقَب. هذا كل ما أعرفه تقريباً. أنا عاملة اجتماعية ولست شرطية".

نفخت فوق قهوتها ثم ارتشفت منها، مُمسكةً الكوب بكلتا يدَيها. وحدّق بن - روي إلى دفتر مدوَّناته. ميتزبي رامون في النَّقَب، وعلى بُعد عشرين كيلومتراً فقط من الحدود المصرية. لقد استقلّت ريفكا كلينبرغ حافلة إلى ميتزبي رامون قبل أربعة أيام من مقتلها، وقصدت المكان أيضاً قبل ثلاث سنوات بهدف إجراء مقابلة لم تتمّ مع نِمسيس أجندا. إذاً، هناك عنصر آخر في القضية يتكرر كما يبدو، ويومض له كمنارة. *الروسكايا مافيا*، مصر، النَّقَب. ونقر بقلمه على ذراع الكرسي، مقلِّباً في رأسه أجزاء الأُحجية، ومحاولاً جمعها في صورة منطقية تقريباً. غير أنه لم يكن أي جزء منسجماً مع الأجزاء الأخرى كما يبدو، ولم تكن أي من الصِّلات مترابطة. وبينما كانت هيلِل تؤرجح ساقيها في انتظار السؤال التالي، دوّن معلومة وواصل حديثه.

"قلتِ إن السيدة كلينبرغ تحدّثت إلى بعض الفتيات؟".

أجابت: "إلى ثلاث منهن، لولا، صوفيا، وماريا".

"هل كنتِ حاضرة؟".

"كنت حاضرة مع لولا وصوفيا. إذ علينا توخّي الحذر مع الغرباء؛ فالكثير من الفتيات شديدات الهشاشة، ولا يشعرنَ بالارتياح مع أشخاص لا يعرفنَهم. ولكن ريفكا كانت مدهشة معهن. كانت لطيفة حقاً ومهتمة. لقد تحدثتا معها بانفتاح وراحة على نحو غير عادي".

تناولت رشفة أخرى من قهوتها، ومدّ بن - روي يده لتناول حبة بسكويت، ووضعها في فمه بطريقة أقرب ما تكون إلى تناول الغداء.

"ما الذي تحدّثنَ عنه؟" سأل ماضغاً حبة البسكويت، وأصبح صوته أجشّ.

"خبراهما، بصفة أساسية. ما كنت أصفه لك تقريباً".

أومأ بيده بما معناه أنه يُفترض بها إخباره المزيد. فشبكت ساقَيها، ووضعت كوبها على ركبتها بشكل متوازن.

"لولا أوزبكية"، قالت. "عندما كانت في وطنها، استجابت لإعلانٍ يطلب شابة للعمل كنادلة، وانتهى بها الأمر مُباعَة لقوّاد في حيفا. إنها القصة نفسها؛ كل شيء يبدو جيداً حتى يُصبحنَ في البلد، ومن ثم تؤخَذ منهنّ جوازات سفرهنّ، ويُغتصبنَ ليتمّ ترويضهنّ، ثم يشرعنَ بالعمل طوال ثماني عشرة ساعة في اليوم في بيت دعارة. مضى على وجودها هنا خمس سنوات قبل أن يتمّ إنقاذها".

"هل جاءت إلى هنا عبر مصر؟".

هزّت هيلِل رأسها.

"وصلت إلى بن – غوريون جوّاً بتأشيرة عمل؛ على غرار صوفيا. إنها أوكرانية. قال لها صديقها إن باستطاعته تأمين عمل لها في إسرائيل، ولكنه لم يكن صديقها فعلاً بل أحد المجنّدين الذين يستهدفون فتيات فقيراتٍ مثلها، عُرضة للأذى، ذوات خلفية مُهينة، ولا يشعرنَ باعتداد بالنفس؛ إنها السيرة الذاتية الكلاسيكية".

"هل تم تهريبها عبر سيناء؟".

فأومأت هيلِل برأسها.

"لقد عانت من ظروف مروِّعة في أثناء عبورها الصحراء، يا للفتاة المسكينة! إنه حال جميع الفتيات هنا بالطبع، ولكن خبرات أولئك الثلاث كانت سيّئة بصفة خاصة. اغتصاب جماعي وشَرجيّ. لقد رأت إحداهن فتاة تتعرّض لتحطيم عظمتَي ركبتَيها بسبب محاولتها الفرار. حتى إنني لا أريد التفكير في ذلك".

كان بن – روي يمدّ يده لتناول حبة بسكويت أخرى، ولكنه سحب يده بعد فقدانه شهيّته فجأةً.

سأل: "هل هنّ موجودات هنا الآن، أولئك الفتيات؟".

أجابت هيلِل: "إن معظم الفتيات في الخارج يعملنَ كما قلتُ. فنحن نتدبّر لهنّ أعمالاً، وإن كانت متواضعة، ولكن العمل يبقى جزءاً هاماً من إعادة تأهيلهنّ

لمساعدتهنّ على استعادة احترامهنّ لأنفسهنّ، ولتفاعل مع الأشخاص بطريقة غير قائمة على إساءة المعاملة. صوفيا توضّب السلع على الرفوف قبل الظهر وبعد الظهر، ولولا تقوم بأعمال التنظيف".

سأل بِن - روي مُلقياً نظرة سريعة على دفتره بحثاً عن الاسم: "والفتاة الأخرى؟ ماريا".

كان هناك توقف. وعندما أجابت، كان صوت هيلِل أكثر هدوءاً من ذي قبل.

"ماريا لم تعُد معنا".

"هل تمّ ترحيلها؟".

"لقد... اختفت".

فرفع بِن - روي نظره.

"هل هربت؟".

"إمّا أن تكون قد هربت أو أن قَوّادها قد أخذها. ندعو أن تكون قد هربت".

بالرغم من محافظتها على سلوكها العملي، كان من الواضح أنها مستاءة من الوضع.

"كان تاريخ تأشيرة دخولها على وشك الانتهاء"، أضافت، "ورفضت الوزارة طلبها بتمديد المهلة. ربما حثّها ذلك على القيام بما قامت به. كانت مذعورة تماماً من فكرة إرسالها إلى وطنها، ومقتنعة بأنه سيُعاد الاتّجار بها، أو ربما ستتعرض لما هو أسوأ من ذلك".

لم تتوسّع في ما تعنيه بكلمة *أسوأ*. غير أنها لم تكن بحاجة إلى ذلك.

سأل: "هل حدث ذلك مؤخراً؟".

"قبل أسابيع قليلة. بعد زيارة ريفكا إلى الملجأ مباشَرةً. ذهبت ماريا إلى العمل ذات صباح و لم تعُد قطّ. هذا كل ما نعرفه. هناك أشخاص يبحثون عنها، وتمّ إبلاغ الشرطة بذلك، ولكن حتى الآن...".

تنهّدت وهزت رأسها. لقد لاحظ بِن - روي للمرة الأولى أن جذور جزء من شعرها رمادية اللون.

"هل أجرت السيدة كلينبرغ مقابلة مع هذه الفتاة؟".

"لم تكن مقابلة شكلية. لقد تحدّثنا مطوَّلاً ورسمتا ولوّنتا أيضاً".

تغضّن جبينه.

"رسمتا ولوّنتا؟".

شرحت: "إنه أمر نشجّع الفتيات على القيام به. فالرسم والتلوين والنحت تساعد الفتيات على التعبير عن أنفسهنّ، وإخراج ما تختلج به صدورهنّ من أمور لا يرغبنَ في التحدث عنها. لدينا قاعة فنون صغيرة، ووجدنا ماريا هناك عندما كنت أصطحب ريفكا في جولة في أنحاء الملجأ. لقد استُدعيتُ لمعالجة أمر ما وتركتُ ريفكا معها، وعندما عدتُ كانتا جالستَين بجانب بعضهما، وهما ترسمان وتلوّنان".

التمعت في ذهن بِن - روي الصورة التي عثر عليها في شقة كلينبرغ.

"شعر أشقر".

"عفواً؟".

"أكانت صورة امرأة ذات شعر أشقر على ورقة زرقاء".

فاتّسعت عيناها من فَرط الدهشة.

"كيف...".

"كانت الصورة في شقة السيدة كلينبرغ".

قالت: "صحيح، حسناً، هذا يفسّر الأمر. لقد سألت ماريا إذا كان باستطاعتها الاحتفاظ بها وأخْذها معها".

كان بِن - روي قد بدأ بنقر الأرض بحذاء الرياضة الذي ينتعله ببطء وبطريقة إيقاعية، وهي حركة لا إرادية تظهر على الدوام عندما يشعر بأن الحديث قد يؤدي إلى أمر مشوّق.

"إذاً، عدتِ وكانتا ترسمان معاً...".

أومأت هيلِل برأسها.

"وعندما اقترحتُ على ريفكا متابعة الجولة، سألتْ إن كان باستطاعة ماريا اصطحابها في جولة. لقد وافقت ماريا؛ وهذا ما أثار دهشتي لأنها كانت متقوقعة على ذاتها إلى حدٍّ كبير، ونادراً ما تتحدث إلى أي شخص؛ حتى إلى مستشارينا الأخصائيين".

"ولكنها تحدّثت إلى السيدة كلينبرغ؟".

"هذا ما حدث كما يبدو. لقد رأيتهما من النافذة جالستَين في الباحة، وممسكتَين بأيدي بعضهما وهما تتحدّثان. لقد أمضتا أكثر من ساعة معاً".

أبعدت بإصبعها خصلة شعر عن عينَيها.

"تحدث أمور مماثلة أحياناً، وتُحلّ عقد من دون أن يكون هناك سبب واضح. فتاة تكاد لا تنطق بأي كلمة تُفضي فجأةً بمكنونات صدرها لشخص غريب كلّياً. لا بد أنه كان هناك شيء ما في سلوك ريفكا ساعدها على الانفتاح على الآخرين".

مرةً أخرى، لمعت في ذاكرة بِن - روي كلمات موردخاي يارون: *كانت تشعر بتعاطف فِطري حيال الأشخاص المتألمين.*

"ألا تملكين أي فكرة عما كانتا تتحدثان؟".

"لا فكرة لديّ البتة. لم تقل ماريا أي شيء عن الحديث الذي جرى بينهما، ولم تكن مهمتي تشمل طرح هذا السؤال عليها. كان حديثهما خاصاً، ونحن نحترم هذا الأمر هنا. صِدقاً، لقد شعرتُ بالسعادة لرؤيتها تتواصل مع شخص ما. فقد كانت مجروحة المشاعر على نحو مروِّع، ولا تعبّر عما يختلج في صدرها. كانت بحاجة إلى التحدث إلى أحدهم عن بعض مكنونات صدرها".

"هل قالت السيدة كلينبرغ شيئاً؟".

"ليس حقاً. قالت فقط إن ماريا شاطرتها بعض خبراتها، وإن قلبها قد انفطر بسبب ما مرّت به تلك الشابة. لقد تركت ماريا بالتأكيد انطباعاً في نفسها. لهذا السبب اتصلت مرة أخرى بعد أسبوع لتسأل عما إذا كان بإمكانها القدوم والتحدث إليها مجدداً، وطرح بعض الأسئلة عليها".

لزمت الصمت للحظات، ناقرةً بأطراف أصابعها على الطاولة، ورأسها يميل قليلاً كما لو أنها تفكر، ومن ثم قالت:

"في الواقع، قالت إنها بحاجة إلى التحدث إليها *بشكل عاجل*. لم تبُح بموضوع الحديث، ولكنها قالت إنها بحاجة حقاً إلى رؤيتها مجدداً. وقلقت جداً عندما أخبرتُها أن ماريا قد فُقدت".

وازدادت قليلاً سرعة نقر بِن - روي بقدمه على الأرض.

"وهل بدأت حينئذ بطرح أسئلة عن قناة مصر؟".

سادت فترة صمت وجيزة خلال قيام هيلِل بالتفكير مليّاً بالترتيب الزمني للأحداث، ومن ثم أومأت برأسها.

"هل دخلت ماريا من مصر؟".

"لم نتحقق من ذلك"، قالت منزلقةً عن الطاولة، ومتوجّهةً للجلوس وراءها على الكرسي الدوّار. "رفضت التحدث عن الأمر على غرار الكثير من الفتيات اللواتي يُعانينَ من ضِيق ما بعد الصدمة النفسية، ورفعت حاجزاً في عقلها بين الحاضر والماضي في مسعى لإيقاف ما يحدث لها. حصلنا على القليل من التفاصيل عن المراحل الأولى من حياتها، ولكن كل ما اكتشفناه عن معاناتها خلال مرحلة الاتّجار بها هو إقامتها في شقة في نيفي شَعَنان، وأنها كانت في تركيا في مرحلة ما؛ مما يوحي بأنها دخلت البلد جوّاً، أو نُقلت بحراً من قبرص إلى حيفا أو أشدود".

أسندت ظهرها، ممرّرةً إصبعها على حافة الطاولة جيئةً وذهاباً.

"بالمناسبة، تلك المرأة ذات الشعر الأشقر... كانت ترسمها باستمرار. إنها الوحيدة التي رسمتها، ولم ترسم أي شيء غيرها. ولم نكتشف هويّتها قطّ".

دوّن بن - روي ملاحظة ذهنية تقضي بإلقاء نظرة أخرى على الصورة في شقة كلينبرغ.

"ألم يتبادر إلى ذهنك قطّ أن تعرفي من الذي اتّجر بها؟" سأل. "ومن هو قَوّادها؟". هزت رأسها.

"كما قلتُ، نحن نتعاطى مع الضرر فقط وليس مع الأشخاص الذين تسببوا به".

"ألم يبلغكم أي شيء عنها؟ ألا تعرفون شيئاً عن المكان الذي ربما تكون قد قصدته؟".

"لا شيء البتة. نعتقد أنها عادت إلى نيفي شَعَنان. يحدث ذلك مع الهاربين، إذ يميلون للعودة إلى الأماكن التي يعرفونها؛ حتى وإن عنى ذلك عودتهنّ إلى بيوت الدعارة. ولكن أحداً لم يرَها هناك".

"هل لديك صورة فوتوغرافية لها؟".

"بالتأكيد".

مدّت يدها، وشغّلت كمبيوترها.

"بالمناسبة، ماريا ليس اسمَها الحقيقي. فالفتيات يتّخذنَ على الدوام اسماً مختلفاً يساعدهنّ على إبعاد أنفسهنّ عما فُرض عليهنّ القيام به، ويسمح لهنّ بالاعتقاد بأن شخصاً آخر، ولسنَ هنّ، من كان يقوم بما قُمنَ به".

أسندت ظهرها في انتظار بدء الجهاز بالعمل. وشرب بِن - روي ما تبقى من قهوته التي أصبحت باردة، ومن ثم وقف وتوجّه إلى النافذة.

في الخارج، كان كل شيء هادئاً وساكناً ومسالِماً ومغموراً بالتوهج العسَلي اللطيف لشمس المساء الغاربة على بُعد مئات الأميال من العالم الذي يتحدثان عنه. حدّق إلى صفوف شيكونيم المغبرّة، وحوّل نظره بعد ذلك إلى الرصيف المقابل في الأسفل، حيث كان رجل غاضب ذو شعر زيتيّ المظهر يقف هناك، متّكئاً على جذع شجرة جُمَّيز، ومحدّقاً عبر الشارع إلى الناحية الأمامية للملجأ. إنه القَوّاد الذي لاحظت هيلِل وجوده في وقت سابق. ورغب بِن - روي في فتح النافذة والصياح في وجهه ليغادر، ولكنه قرر أن الرسالة ستكون أكثر فعالية إذا سُلِّمت وجهاً لوجه مع صفعة صغيرة. لم يحب القَوّادين يوماً، وازداد مقته لهم بعد كل ما سمعه. حدّق إليه بوجه متجهِّم، وألقى نظرة على الناحية الأمامية للملجأ. كان هناك مقعد نُزُهات خشبي عليه مِنفضتا سجائر، مقعدٌ متأرجح، وحبلُ ملابس، وفي الزاوية دراجة وجرّار بلاستيكي بدوّاستَين. لم يسبق له أن لاحظ وجود هذه الأشياء عندما دخلا.

سأل متفاجئاً: "ألديكم أطفال هنا؟".

"خمسة منهم"، صدر الصوت من ورائه. "إنهم في المدرسة".

"والأمهات..." كان على وشك أن يقول *بغايا* ولكنه تراجع عن ذلك، مُدركاً أن الكلمة غير ملائمة.

"... هل يُقمن هنا".

"بالتأكيد".

"والآباء؟".

"كانوا قوّادين أو زبائن". كانت نبرتها عَفويّة. "ليست العائلة المثالية ولكنه واقع الأمور. فعندما يتم إنقاذ الفتيات، يتم إنقاذ أطفالهنّ أيضاً".

واصلت النّقر على زر الفأرة بحثاً عن الصـــورة. وحـــدّق بِـــن – روي إلى الألعاب. فالشرطي يطوّر آلية ترشيح تسمح له بمنع الأمور السيّئة من التســـرّب، ولكن الأمور تتسرب من حين لآخر بالرغم من أفضل الجهود المبذولة. وها هو في مواجهة إحدى هذه الحالات. لقد حرّكت الألعاب مشاعره أكثر من أي أمر آخر في الملجأ وفي القضية برمّتها. هناك أمر محزن على نحو يائس في شأنها، وفي شـــأن الحيوات الصغيرة العاجزة والمتضررة التي دُمّرت حتى قبل أن تبدأ. شعر بغصّة ترتفع إلى حَلقه وبرغبة فجائية في الاتصال بسارة وإعلامها بمدى حبه لهـــا وللطفـــل. في الواقع، لقد أخرج هاتفه المحمول، ولكن هيلِل نادته فانتهت تلك اللحظات الغامرة. وجّه نظره إلى الأسفل للحظات إضافية محدّقاً، ثم أبعد الفكرة عن رأســـه، وأعـــاد الهاتف إلى جعبته، وتوجّه إلى الطاولة.

"هذه هي"، قالت هيلِل مُميلةً الشاشة في اتجاهه.

انحنى إلى الأمام ناظراً إلى الصورة. كانت صورة رأســـية مُلتقَطـــة حـــتى مستوى الذّقن تماماً، تُظهِر فتاة ذات وجه شاحب وكئيب، وشعر أسود طويل، وشفتَين مكتنـــزتَين، وعينَين بنّيتَين كبيرتَين. إنها شابة – لا بل إنها صـــغيرة في السن – تحدّق إلى آلة التصوير مباشَرةً بنظرات حادّة وخالية من أي تعبير في آن واحد.

سأل: "هل يمكنك إصدار نسخة مطبوعة؟".

"بالتأكيد. لدينا صورة أخرى لها. هل تريدها أيضاً؟".

"لِمَ لا".

وحرّكت الفأرة بشكل دائري، ثم ضغطت على الزر مرتَين. كـــان هنـــاك توقف، ومن ثم ظهرت صورة رأسية ثانية ملتقَطة تحت مستوى الذّقن، ويبدو فيها عُنُق الفتاة وكنـــزتها.

في وقت مبكّر من ذلك اليوم، وفي أثناء طرحه أسئلة على موردخاي يـــارون في مكتبه في يافا، كان بِن – روي قد شعر بتدفق الأدرينالين في دمه عندما أُبلـــغ بزيارة ريفكا كلينبرغ لميتزبـــي رامون لأجل مقابلة لم تتمّ عن نِمِسيس أجندا. لقد شعر الآن بتدفّق أكبر للأدرينالين. لا بل شعر برعشة تمييز كهربائية حادة؛ لـــيس للمظهر الجسدي للفتاة بل لما كانت تضعه حول عُنُقها.

"هذه الفتاة"، قال مادّاً يده ولامساً بإصبعه رمز النصارى الديني على صَدرها؛ إذ كان فضيّاً مسطحاً ذا ذراعَين مزخرفتَين بشكل معقّد تنتهي كل منهما بطرف مزدوج مميِّز. "هل تعرفين مسقط رأسها الأساسي؟".

وجاء الجواب من كليهما في آن واحد.

"أرمينيا".

إنه الأمر الذي أقلقه منذ البداية؛ الافتقار إلى أي رابط واضح بين مقتل كلينبرغ وأي طرف خيط آخر مرتبط بالقضية. لقد بات لديه رابط الآن كما يبدو، ولا تزال الدرب طويلة أمامه، ولكنه شعر للمرة الأولى بأنه يحقق تقدّماً.

الأُقصُر

"... ويبقى فقط إزالة تلك المنازل الأخيرة لتستمتعوا بمنظر رائع من هنا حيث نقف الآن، ووصولاً إلى معبد الأُقصُر؛ وهي مسافة لا تقلّ عن ألفين وسبعمئة متر. ألف وثلاثمئة وخمسون تمثال سِفِنكس! أنا لا أبالغ سيداتي وسادتي عندما أقول إن جادة السِّفِنكس هي حقاً العجيبة الثانية للعالم القديم".

ووجّه الدليل السياحي مظلّته بشكل مسرحي من تحت البرج العاشر لمعبد الكَرنَك في اتجاه الجنوب؛ حيث تتعرّض مجموعة من المنازل المبنيّة بآجر طينيّ للاعتداء من قِبَل الآلات الوحشية؛ تلك المجموعة الكبيرة من المباني المتداعية التي تهاجم بعنف من قِبَل قوة مجتاحة كبرى. وسُمعت طقطقات وصَفرات خافتة في أثناء قيام مجموعته السياحية بالتقاط الصور.

"ماذا سيحصل للأشخاص المقيمين هناك؟". سألت امرأة ملفوحة بالشمس، وترتدي تي - شيرت كتبت عليها عبارة *أحب الملك توت!* "ماذا سيحلّ بهم؟".

"آه، الأمر جيد جداً بالنسبة إليهم"، وضحك الدليل. "لن يتلقوا تعويضاً فحسب، بل سيحصلون على شقق جديدة وجميلة مليئة بوسائل الرفاهية، وأفضل من منازلهم القديمة. أتمنى لو أن منزلي قد تعرّض للهدم!".

ورفع ذراعَيه نحو السماء داعياً:

"رجاءً يا الله، اهدُم منـــزلي لأتمكن من الحصول على مطبخ جديد وحمّام مع دَفق ماء!".

وقهقه أعضاء المجموعة. كانوا يحبون دليلهم، فقد كان مثقَّفاً ومهذَّباً، ولكنــه مُضحِك قليلاً. إنه المصري المثالي.

"ولكن فعلاً"، أضاف، "باستطاعتي التأكيد أن هؤلاء الأشــخاص ســعداء بالانتقال كي تظهر إحدى عجائب العالم القديم. في مصر، نحن فخــورون جــداً بتاريخنا، وفخورون جداً بمشاطرة تاريخنا. لهذا السبب حُفرت الجــادّة في وقــت قياسي؛ كي نتمكن من تشاطرها مع العالم أجمع. فماضينا هو ماضيكم كمــا أن قلبــي هو قلبكم!".

وغمز المرأة التي لفحتها أشعة الشمس، وضحكت المجموعة مجدداً. المزيد من التلميح المُضحِك؛ كانوا يحبون ذلك أيضاً. وبدأ يشرح كيف أن الجــادّة يعــود تاريخها إلى عهد الفرعون نكتانبو الأول، وأنها اســتُخدمت في أثنــاء مهرجــان أوبيت، ولكن خليفة كفّ عن الإصغاء، وأشعل سيجارة، وخرج من حيث كــان يقف في ظل البيلون (البرج) - حيث كان واقفاً عندما وصلت المجموعة - وعــاد إلى وسط مجمَّع المعابد. كان جزء منه يتساءل إن كان يُفترض به قول شيء مــا، وإخبارهم أن منـــزله قد تهدّم لإفساح الطريق للجادّة، وأنه لم يكن سعيداً بــذلك بالتأكيد. ولكن، ما الذي سيحققه؟ لقد دفعوا مبلغاً كبيراً من المــال للقــدوم إلى هنا، ولم يشأ إزعاجهم بمشاكله. ربما كان ماضي مصر ماضيهم. ولكن، لا علاقة لهم بحاضرها. فراعنة وملكات ومدافن وحروف هيروغليفية؛ هذا ما كانوا يهتمون به، وهم لا يهتمون بتحرٍّ انهار عالمه من حَوله. فالأمر... مُمِلّ فحسب ولا علاقــة له بالواقع.

مرّ عبر البرج التاسع، والبرج الثامن، والبرج السابع، وصولاً إلى داخل ساحة كاشيت كورت الواسعة المرصوفة. كان يتم التقاط صور فوتوغرافية لحشــد مــن الأطفال عند أقدام تماثيل المملكة الوسطى المقابلة للبرج السابع، ويقوم رجل متربّع على الأرض بوضع رسم تقريبــي لبلاطة الفرعون مِرنبتاح الــتي تحمــل كلمــة "إسرائيل"؛ فالكلمة على البلاطة هي الوحيدة التي عُثر عليها في مصر والتي يرد فيها ذكر إسرائيل. وبالرغم من دنوّ المساء شيئاً فشيئاً وازدياد طول الظــلال، كانــت

درجة الحرارة لا تزال مرتفعة، وكان نسيم يهبّ من الشرق قُبالة النيل يعمل على التخفيف من حدّتها.

لقد أمضى معظم فترة بعد الظهر هنا، بعد تمضيته ساعة الغداء في حقل الرماية التابع للشرطة. كانت بعض كُتل تالاتات الحجَرية قد فُقدت من المستودع الآمن في الناحية الخلفية للمجمَّع - اثنتان منها تحملان اسم الملك أخناتون ضمن إطار بَيضَوي - وعَمَد إلى أخذ إفادات بعض أولئك الذين يمكنهم دخول المستودع. كان باستطاعته اختبار ردود الأفعال، والقيام بجولة على تجار التحف الفنية القديمة المعروفين، ولكنه لم يعلّق آمالاً كبيرة على استعادة الكُتل. ربما سُرقت منذ أشهر، لا بل منذ سنوات؛ إذ نادراً ما يتمّ تفقّد المستودع، ولم يُلاحَظ غياب الكُتَل إلا صدفة. إنها تُثري الآن بالتأكيد مجموعة تُحَفٍ يمتلكها مليونير ما في الجانب الآخر من العالم. فكما قال الدليل السياحي: تاريخ مصر تاريخ للجميع؛ حتى إن تعيّن عليكم اللجوء إلى السرقة للحصول على جزء منه.

آخذاً مجّةً من سيجارته، توجه إلى المدخل عند الزاوية الشمالية-الغربية للساحة، ودخل غابة الأعمدة الشامخة لقاعة هيبوستيل هول العظيمة. فقبل ساعات قليلة، كان المكان فارغاً تقريباً لأن حرّ بعد الظهر الذي لا يُطاق حمل السيّاح على العودة إلى فنادقهم المبرَّدة. ولكنهم عادوا الآن بأعداد كبيرة واكتظت بهم القاعة. مرّ بسلاسة بين حشد من السيّاح اليابانيين - أم إنهم صينيون؟ لم يكن بإمكانه معرفة ذلك بالتحديد - وشقّ طريقه في اتجاه البرج ومخرج المعبد. وعندما وصل إلى منتصف المسافة التي تفصله عن المخرج، أبطأ خطواته فجأةً، وتوقف كما لو أن فكرة ما تبادرت إلى ذهنه. فقطّب جبينه، وتحقق من ساعته، وتمتم "داميت"، ثم استدار وعاد أدراجه عبر القاعة، وخرج هذه المرة من البيلون الثالث بجانب المِسلّة الخلفية لتَحتَمِس الأول، والبيلون الرابع، ومِسلّة حتشبسوت، ودخل منطقة البحيرة المبجلة الشاسعة والمسوَّرة والتي تحتوي على أشجار النخيل. امتدّت أمامه بقعة مستطيلة من المياه الخضراء العَكِرة المتماوجة برفق، وبجانبها كشك لبيع المرطّبات مغطى بظِلّة، وفي الطرف البعيد المدرَّجُ الإسمنتي القبيح المسقوف؛ حيث كان السيّاح يشاهدون المسرحية الليلية صوت وضوء. كان هناك مركب تجذيف صغير في وسط البحيرة تماماً، وتكاد حافّته تلامس سطح الماء مع وجود رجل بدين على

متنه، يضع نظارة، ويرتدي بذلة عمل زرقاء ضيّقة جداً، ويعتمر قبّعة صوفية، وكان منحنياً فوق حافة المركب، ويُمسك بشيء ما في الماء.

"ظننتُ أنك ربما ستكون هنا"، تمتم خليفة.

وانتظر قيام الرجل بسحب أنبوب اختبار كبير، وإغلاقه بإحكام، ووضعه في صندوق عند مقدّمة المركب. وبعد أن أطفأ سيجارته على جِذع شجرة نخيل، ورمى عقبها داخل وعاء قمامة، دنا خليفة من رصيف الميناء الصخري بجانب البحيرة.

"سلام!" نادى.

رفع الرجل نظره محدّقاً من وراء عدستي نظارته السميكتين. لقد بدا مُرَبَكاً للحظات، ولكن ابتسامة عريضة سرعان ما ارتسمت على وجهه.

"يوسف!".

"كيف حالك يا عمر؟".

"أنا وسط بحيرة، وآخذ عيّنة ماء ملوَّثة؛ لا يمكنني أن أكون أكثر سعادة! هل تريد الخروج في نزهة؟ إنه يوم جميل للتجذيف".

"ليس في هذا المركب، شكراً. إنه يبدو غير مستقرّ مع وجود شخص واحد على متنه، فكيف سيكون الحال مع اثنين؟".

"هراء!". صاح الرجل وهو يقف ويحاول هزّ المركب من جانب إلى آخر. "انظر، إنه آمن كعبّارة النيل".

وهزّ بقوة أكبر للتأكيد على كلامه، ولكنه فقد توازنه وترنّح إلى الأمام، ومال المركب على نحو خطير إلى جهة واحدة، وتطاير رذاذ الماء فوق حافة المركب، مبلّلاً قدمَيه وكاحلَيه.

"تبّاً!".

فابتسم خليفة.

"هل ترغب بزجاجة كوكا كولا؟".

"سيكون تبديل الملابس أكثر فائدة"، تمتم الرجل ملامساً بيده بذلة العمل المُشبَعة بالماء. "إذاً، اذهب وسألتقيك عند الدرجات".

وربّت على بذلة العمل بيده، ثم خلع قفّازَيه، وتحرّك بعناية إلى الوراء في اتجاه المقعد.

"في الواقع، لتكن سبرايت"، نادى مُسقِطاً المجذافَين في الماء، وشارعاً بالتجذيف. "ولن أقول لا للوح شوكولاته سنيكرز أيضاً. فقد دام وجودي في الماء ساعتَين".

رفع خليفة ذراعه موافقاً، ودخل المقهى. وتناول من الثلاجة زجاجتي كوكا كولا وسبرايت، إضافةً إلى لوح شوكولاته من نوع كيت - كات بسبب عدم وجود سنيكرز، وانضمّ بعد ذلك إلى مؤخّر الصف وراء ثنائيّ مصريّ شاب. وعندما سدّد الثمن وعاد إلى البحيرة، كان صديقه قد بلغ الطرف البعيد، وربط المركب، وصعد الدرجات إلى جانب الرصيف.

"اعذُرني يا يوسف"، قال في أثناء دنوّ خليفة، مادّاً يدَيه بطريقة اعتذارية. "ما حصل في المركب، لم أكن أعتقد كان أمراً غبياً...".

فرمى له خليفة زجاجة السبرايت كما لو أنه يقول له إنه لم تحدث أي إساءة، ولا ضرورة للاعتذار. ورمى الكيت - كات بعد ذلك، وتعانق الاثنان، وطبَع الرجل قبلة واحدة على كلّ من خدَّي خليفة.

"كيف حال زينَب؟". سأل في أثناء جلوسهما على جانب الرصيف، وسيقاهما متدلّية على جدار البحيرة المصنوع من كُتل حجرية.

"إنها بحال أفضل يوماً بعد يوم"، أجاب خليفة، وهو غير مقتنعٍ تماماً بذلك. "ماذا عن رشا؟".

"بخير، عِلماً أنها تُفرط في العمل في الوقت الحاضر، إذ يفتقرون إلى الموظفين، ويتعيّن عليها العمل في مناوبتين. تكاد لا تستطيع إبقاء عينَيها مفتوحتَين، يا للفتاة المسكينة! في الليلة الماضية، لم تعُد إلى المنزل حتى ما بعد منتصف الليل".

كانت رشا الزّهوي - زوجة عمر - طبيبة أطفال في مستشفى الأُقصُر العام. ويعمل عمر محلّلاً ميدانياً لصالح شركة *الأُقصُر للمياه ومياه الصَّرف الصحي*، ويتولى بصفة خاصة مسؤولية إدارة المياه في محيط الآثار التاريخية القديمة. وبهذه الطريقة، تقاطعت طريقه وطريق خليفة قبل ما يفوق عقد من الزمن. لقد اعتادا تبادل الزيارات تكراراً بخلاف العام السابق.

"كيف تبدو؟". سأل خليفة، فاتحاً زجاجة الكوكا كولا ومشيراً بيده إلى صفحة البحيرة.

"مليئة بالغائط"، أجاب عمر، "بكل معنى الكلمة، بسبب اهتزازات الأرض الناجمة عن الأعمال التي خضعت لها الجادّة. لقد كُسر أنبوب الصَّرف الصحي الرئيس في آخر هذه البلدة، والآن تتسرّب المياه القذرة إلى المياه الجَوفية التي يتم ضخّها إلى البحيرة. أراقب ما يجري منذ شهر، ويزداد الأمر سوءاً".

"لا يمكنني شمّ أي رائحة".

"ثِق بي، سوف تشمّ الرائحة بعد أسبوعَين. لن يكون بإمكان أحد الاقتراب منها بسبب الرائحة النَّتنة. سوف يتعيّن عليهم إفراغ البحيرة وإعادة مَلئها من النيل. تبّاً لذلك!".

فارَ محتوى زجاجة السبرايت عندما فتحها، وانسكب على يدَيه وبذلة العمل، فأبعدها عنه وخلع القبّعة الصوفية عن رأسه.

"كنت لا أزال جافّاً حتى قدِمتَ"، تأفّف ممرّراً القبّعة على بذلة العمل المبتلة.

فرمقه خليفة بنظرة اعتذارية ساخرة، وارتشف شرابه. وانطلقت الصفارات وراءهما، منبّهةً الزائرين إلى حلول وقت الإقفال، ووجوب البدء بالتحرك في اتجاه مخرج المعبد. وسُمع بعيداً إيقاع مِدقّات الأوتاد وضرباتها القوية؛ وهذه هي الدلالة الوحيدة على عودة الحياة إلى الأُقصُر في العامَين الأخيرَين.

"هل تأخذ عيّنات من المياه في الموقع؟". سأل خليفة بعد فترة قصيرة من الصمت؛ مُبعِداً ذبابة عن وجهه، ومتناولاً جرعة أخرى من الكوكا كولا، فهزّ عمر رأسه.

"أرسلنا العيّنات إلى مختبر في أسيوط. كنا نتعامل مع مختبر المستشفى، ولكن منذ بدءِ أعمال البناء اللعينة هذه، تعددت الاختبارات التي يتعيّن إجراؤها، ولم يعُد بإمكان المستشفى تلبية متطلباتنا".

أرجح خليفة ساقَيه للحظات، ومن ثم قال:

"هل يمكنني أن أطلب منك خدمة؟".

"يمكنك ذلك".

"تلقيتُ تقارير عن آبار تفسد ماؤها في الصحراء الشرقية، وأنا بحاجة إلى نصيحة".

وعرض للوضع - السيد عطيّة، ابن عمه، دير الزيتون - الذي استمر بقَض مضجعه بالرغم من بذله قُصارى جهده لنسيانه. كان هناك خَطْب ما؛ أمر ما يحدث. وبالرغم من عدم تمتّعه بنصف القدرات التي كان يمتلكها كتحرٍّ، فهو لا يزال ذلك الشخص الذي يريد الحصول على إجابات عندما يواجَه بنموذج أحداث لا يوجد شرح واضح له.

"هل يمكن أن يكون الأمر طبيعياً؟". سأل عندما أنهى سرد القصة. "أقصد أن تفسد مياه الآبار تلقائياً".

تناول عمر جرعة كبيرة من السبرايت.

"أشك في ذلك كثيراً. الآبار تجفّ بالتأكيد، وتسوء حالها جداً أيضاً، وإذا بلغت هذه المرحلة فالسبب يرجع إلى تلوّث صناعي كما هو الحال في غالب الأحيان، أو بسبب مياه الصَّرْف الصحي أحياناً؛ وهذا ما نواجهه هنا. ولكنك تقول إن هذه الآبار موجودة في الصحراء الشرقية".

فأومأ خليفة برأسه.

"إذاً، يصعب تفسير ذلك. أفترض أنه لا وجود لصناعات ثقيلة قربها؛ معامل إسمنت، معامل ورق، ذلك النوع من الصناعات؟".

"ليس على حدّ عِلمي".

"هناك أمر مريب بالتأكيد. نادراً ما تفسد منابع المياه بسبب نشاطات تحت أرضية، ولكننا حين نتحدث عن نشاط تحت أرضي فنحن نقصد نشاطاً كبيراً بحجم زلزال، وهو أمر كنا سنسمع به لو حدث. وواقع أن الآبار يملكها أقباط...".

وتناول رشفة أخرى من السبرايت، ووضع الزجاجة من يده، وشرع بفضّ غلاف الكيت - كات الخارجي، ممرّراً بشكل منهجي ظفر إبهامه على الغلاف الداخلي بين كل إصبع شوكولاته.

"أتريد مني النظر في الأمر؟". سأل فيما كان يقسم إصبعاً من الشوكولاته ويقدّمها لخليفة. "أتريد أن آخذ بعض العيّنات وأجري تحليلاً للماء؟".

"هل تمانع؟".

"بالطبع لا. لقد أثرت فضولي الآن".

"باستطاعتي الذهاب والحصول على العيّنات بنفسي إذا كان هذا الأمر يسهّل مهمتك".

"من الأسهل لي القيام بذلك بنفسي. فهذا يمنحني الفرصة لإلقاء نظرة على الأرض والتحقق مما إذا كان هناك أي تفسير جيولوجي. قد يتطلب الأمر بضعة أيام".

"مهما يكن، لسنا في عجَلة من أمرنا. سأدفع ثمن الوقود".

فلوّح عمر بيده، رافضاً العرض.

"أَدين لك بثمن الكيت – كات والسبرايت"، قال. "لقد تعادلنا".

"لا يبدو ذلك مُنصفاً جداً".

"إنها مصر، لا إنصاف فيها. الأمر أشبه بحصولك على إصبع وحصولي على ثلاث أصابع".

وغمز خليفة، ثم حشا فمه بما تبقى من الكيت – كات.

"حتى مع رحيل مبارك، لا يزال هناك قدْر كبير من المعاملة غير المُنصفة"، قال ماضغاً الشوكولاته بابتهاج. "ما يحدث يُدمي القلب".

ابتسم خليفة ولزما الصمت محدّقَين بالبحيرة، وتواصل إطلاق الصفارات وراءهما؛ وإن بشكل غير متكرر بعد تلقّي السيّاح الرسالة وخروجهم من المعبد إلى مركبات الخيول المنتظرة. أنهى خليفة الكوكا كولا، وأكل إصبع الكيت – كات، وأشعل سيجارة كليوباترا؛ ناظراً إلى السماء الفارغة وراء البيلون العاشر المستطيل الشامخ. في هذا الوقت من العام الماضي، كان هذا المنظر نفسه يحيط بمبناه السكني القديم القائم في صف من المستطيلات الإسمنتية ذات اللون البنّي المائل للرمادي، والتي ترتفع فوق الطرف الشمالي للبلدة كسلسلة من بلاطات أَضرحة تعرّضت لعوامل الطبيعة. وكلما زار الكَرنَك في الأيام الغابرة، كان يتجوّل خارج البيلون ويتصل بالمنزل بواسطة هاتفه المحمول، ويحمل من كان موجوداً هناك على التلويح له من نافذة غرفة الجلوس. إنها لعبة صبيانية لم يَمَلّ منها أحد، ولا سيما "علي" الذي رفع في إحدى المناسبات التي لا تُنسى ورقة كبيرة خارج النافذة كتب عليها الكلمات "نحبك يا أبي". وتمنّى خليفة لو أنه التقط صورة فوتوغرافية لذاك المشهد. هناك أمور عديدة تمنّى لو أنه التقط لها صوراً فوتوغرافية؛ ذكريات لن

تتكرر حدثت في أماكن استُبدلت بسماء فارغة وبأُخدود مليء بتماثيل السِّفِنكس.
أهذا هو التقدّم؟ لم يكن الأمر يبدو له كذلك.

"يُفترض بي العودة إلى العمل"، قال عمر، محتسياً ما تبقّى في زجاجة السبرايت، وواقفاً على قدمَيه بمشقة. "لا يزال يتعيّن عليّ أخذ بعض العيّنات، ولا أعتقد أنهم يقدّرون عالياً تبلُّلي بالماء في أثناء عرض مسرحية صوت وضوء".

"لا أعلم"، قال خليفة، ووقف أيضاً. "ربما يظنون أنك جزء من العرض، آمون على متن مركب سيد الشمس رع".

"ببذلة العمل والقبّعة الصغيرة؟ إنه تشبيه مشوِّق".

وضحكا. والأصحّ أن "عمر" ضحك في حين أن خليفة ابتسم.

"سأحاول الذهاب إلى الآبار في الأيام القليلة القادمة"، قال عمر. "هل بإمكانك أن تُرسل لي التفاصيل؟".

"سأوجّه لك رسالة عبر البريد الإلكتروني حالما أعود إلى المكتب".

"سأقول للمختبر إن الأمر مُلحّ، لذلك يُفترض أن يكون لدينا شيء ما في نهاية الأسبوع".

فشكره خليفة.

"هناك أمر آخر. أنا على ثقة تامة بأن المزرعة في بير هاشفا تضخّ مياه الشَّفَة بطريقة غير قانونية. إنهم أناس فقراء، لذا أسدِني صنيعاً واحفظ السر".

"إنه سرّنا الصغير"، قال عمر، مربّتاً على أنفه بطريقة تواطئية.

ثم عانق خليفة، وابتعد، ووضع يدَيه على كتفَي خليفة وسأله:

"هل أنت بخير؟".

"لم يسبق لي أن كنت أفضل حالاً".

ضغط على كتفي عمر بيدَيه.

"هل أنت بخير؟" كرّر.

هذه المرة، تردد خليفة قبل الإجابة.

"سأحيا"، قال في النهاية.

"قُم بذلك يا صديقي. عِش طويلاً وبصحة جيدة. وكذلك الأمر بالنسبة إلى زينَب والولدين".

ونظر إلى عينَي خليفة، ومن ثم نفش شعره بمحبة، وخلع قبّعته الصوفية وعاد إلى مركبه.

"سأُعلمك حالما أحصل على النتائج". نادى، ثم صعد على متن المركب بمشقة وفك الرباط. "أنا متشوّق لرؤيتها بنفسي. لا يجب أن نكون جاهلين بما يجري".

ثم دفع المركب، وجلس، وجذّف، دافعاً المركب الصغير عبر الماء. راقبه خليفة للحظات، ومن ثم نظر في اتجاه البيلون العاشر مجدداً؛ حيث كان مبناه السكني القديم. في كل مكان من الفَلَق التكتوني تجد أشخاصاً ينظرون بالطريقة نفسها، محدّقين في الفضاء ببؤس كما لو أنهم يرغبون في ظهور منازلهم القديمة على نحو عجائبي؛ إنهم أشبه بالمشيّعين بجانب القبر. لقد بدا لخليفة أن نصف الأُقصُر في حداد بسبب ما آلت إليه الأمور. هز رأسه، والتقط الزجاجتين الفارغتَين وتوجّه إلى المخرج. يصعب النسيان أحياناً.

تل - أبيب

خارج ملجأ هوفيش، عبر بِن - روي الشارع ليكلّم القَوّاد الواقف على الرصيف المقابل. وحين رآه الرجل قادماً ركض بسرعة مثيرة للدهشة بالرغم من بطنه الكبير. طارده بِن - روي مسافة نصف مجمَّع سكني، ومن ثم تخلّى عن ذلك. سيعود بالتأكيد كما قالت هيلِل، ولكنه منحه على الأقل شيئاً ما يفكر فيه، وربما لا. فالأشخاص المماثلون له لا يفكرون حقاً، بل يقومون بما يقومون به من دون أن يَعُوا النتائج، ومن دون وجود أي رابط عاطفي بالتأكيد. سوف يختبئ وراء الزاوية منتظراً مغادرة بِن - روي، ثم سيواصل حراسته الليلية بهدوء كثعلب عائد إلى صندوق قمامة؛ ولا شيء يفعله بِن - روي أو يقوله سيبدّل ذلك. إنها الرقصة الأزلية للمحافظين على القانون وخارقيه، وليست هذه هي المرة الأولى التي يتساءل فيها عن سبب تكبّده العناء.

بقي هناك لدقائق قليلة مؤكداً على وجوده، ومن ثم عاد إلى سيارته بعد أن صاح: "سأراقبك، أيها الفاشل!". ورمى الصور الفوتوغرافية التي طبعتها له هيلِل على مقعد الركاب، واتصل بزيسكي، وزوّده بما اكتشفه.

"هل تعتقد أن كلينبرغ كانت تزور المجمَّع الأرمني لهذا السبب؟". سأل زيسكي عندما أنهى بِن - روي حديثه. "لأنها كانت تبحث عن فتاة؟".

"أو لتلتقيها"، قال بِن - روي. "في الأحوال كافة، إنّ هذا أفضل طرف خيط لدينا. الملجأ يرسل الصور الآن عبر البريد الإلكتروني. أسدِ إليّ صَنيعاً واحصل على بعض العناصر النظاميين ليجولوا في أنحاء المجمَّع ويتحققوا مما إذا كان أحدهم يعرفها. سأعود إلى نيفي شَعَنان علّ أحدهم يكون قد رأى الفتاة هناك. هل هناك أي معلومات تبعث على السرور في شأن نِمسيس؟".

"تحدثتُ إلى صديقي، وسيزوّدني ببعض المعلومات عنها"، قال زيسكي. "كما حصلتُ أيضاً على بعض المعلومات عن شركة بارين ربما تكون ذات صلة. هل تريد التسكّع في مكان ما هذا المساء؟".

"لِمَ لا. هل تتناول شراباً بارداً؟".

"العصير فقط".

كان بِن - روي يدرك روح الدُّعابة التي يتمتع بها زيسكي، فابتسم قائلاً:

"إذاً عليك تحمّل التكلفة. هناك مقهى في طرف المدينة القديمة يدعى بوتينز".

"أعرفه".

"ألقاك هناك عند التاسعة".

"إنه موعد".

أنهى بِن - روي المكالمة، وأجرى اتصالاً ثانياً بسارة هذه المرة. بالعودة إلى الملجأ، عندما حدّق بِن - روي عبر النافذة بمجموعة الألعاب في الباحة، شعر بالانفعال، وبرغبة فجائية ومُلحّة في الإعراب لها عن مدى حبه لها. فهو يحبها حقاً - وعلى نحو يائس إذا كان صادقاً مع نفسه - ولكن مَيله للتعبير لها عن ذلك قد زال. وعندما أجابت على اتصاله، أَوجز الحديث وأبقاه في إطار الاطمئنان على الجنين، مقترحاً أن يلتقيا على الغداء في اليوم التالي، ومتجنّباً حملها على طرح أسئلة عليه حول ما كان يفعله في تل - أبيب، ليس لأنها لا تستطيع التعاطي مع الأمر - كانت قوية وشديدة الاحتمال - بل لأنه لا يريد المزج بين بعض نواحي حياته. اغتصاب، عنف، إساءة معاملة؛ ليست هذه هي أنواع الأمور التي يرغب في

تشاطرها مع والدة طفله. تحدّثا لدقائق قليلة، واتفقا على مكان الغـداء في اليـوم التالي وزمانه، ثم أنهيا المكالمة.

جلس بِن – روي صامتاً للحظات، ومن ثم التقط إحدى الصور – الصـورة الرأسية – عن مقعد الركاب، ووضعها على عجلة القيادة. فحدّقت به عينا الفتـاة الكبيرتان والمماثلتان للوزتَين، والخاليتان من أي تعبير، والقويّتان على نحو غريـب في الوقت نفسه، وقُزحيّتاهما بنّيتان داكنتان. لم يكن جمالها تقليدياً – أنفها صـغير ومسطّح جداً، وحاجباها كثيفان جداً – ولكن هناك ما يلفت نظرك: تفاعلٌ بـين الضعف والصلابة، وبين تلك الفتاة المعرضة للأذى والقوية. لقد بدا الأمر كما لو أنهما وجهان مختلفان ومتراكبان يحملان تعبيرَين مختلفَين: وجه ضحية ووجه ناجية.

إنها مفتاح القضية. لقد شعر بذلك عندما رآها للمرة الأولى. إنها النقطة الـتي يتمحور حولها كل شيء؛ طرف الخيط الذي يربط كل شيء ببعضه.

حدّق بها لدقيقة من الزمن تقريباً. وبعد ذلك، وضع الصـورة جانبـاً، وأدار المحرك، وعاد إلى كومة التبن في تل – أبيب، بحثاً عن إبرة تدعى ماريا.

إذا كانت إسرائيل أرض الميعاد، فنيفي شَعَنان هي المكان الذي نُقـض فيـه الوعد. إنّ هذه المنطقة من تل – أبيب أشبه بالإسفين. فهي قـذرة، ومتقوِّضـة، ومدسوسة بين المدينة القديمة ومحطات الحافلات الجديدة، وتجتـذب المهـاجرين، والمدمنين على المخدرات، والعاملين في ميدان الجنس والمدمنين على الشراب منـذ زمن بعيد. يعتبرها البعض نابضةً بالحياة ويدعونها *بوتقة*، أما بالنسبة إلى بِن – روي فهي تبدو كحُفرة غائط.

كان الوقت قد تخطى السادسة عندما وصل وركن سيارته في شارع سالومان بجانب المساحة المهجورة للمرأب القديم المكسوة بعشب ضارّ. جلس في السـيارة للحظات وهو يحدّق عبر الطريق بمجموعة من *الشواترزس* المتجمّعين حول مدخل مطعم. ومن ثم التقط الصورة الرأسية، وترجّل من السيارة وأقفلها، وارتدى سترته وذهب في جولة.

كانت المنطقة قد بدأت باستعادة نبض الحياة، ويبدو هذا النبض في تسـارع مع ازدياد الظلمة. في نيفي شَعَنان نفسها، وهي عبارة عن شارع تحوّل إلى منطقـة للمشاة، ويحتوي على شقق سكنية متّسخة ومتعفّنة، ويشكّل العمود الفِقْري لتلك

الناحية، كان ضجيج الأصوات المتنافرة يملأ أجواء المساء: الموسيقى، أجهزة التلفاز، رنين وصفير في الممرات المسقوفة، ثرثرة النساء الشرقيات في أثناء احتشادهنّ حول أكشاك الفاكهة والخضار. وهناك أزقّة مليئة بالقُمامة، ومتاجر مضاءة بالنّيون، وخربشات دائرية تطالب بوضع حدّ للهجرة... ويربض مدمنو الشراب ومُدمِنو الهيرويين في المداخل كما تربض الحيوانات في أوجرها؛ وهناك رائحة قُمامة وسمك، ووجبات طعام سريعة، إضافةً إلى شيء ما غير ملموس: فقر، عُسر، عنف على وشك الحدوث. من المؤكد أن هذه الأجواء لم تكن مذكورة في كتيّبات السيّاح. إنها الناحية المُنتنة في إسرائيل؛ حيث يتم التخلص من كل النفايات.

سار بِن - روي على امتداد الشارع، ماراً بجانب متاجر المشروبات والأكشاك التي تبيع ساعات زائفة، وعارضاً الصورة على المارّة، وآملاً أن يكون شخص ما قد رأى الفتاة. وزعم بائعان جوّالان أنهما ربما يكونان قد رأياها من دون أن يتذكرا المكان أو الزمان، ومن دون أن يكونا متأكدين إن كانت الشخص عينه. وكانت امرأة مُسنّة في متجر وضّاء يبيع سلعاً دينية أكثر تحديداً في التأكيد على رؤيتها؛ ولكن قبل مدة طويلة بالتأكيد. وقال رجل ما إنه يرغب في رؤيتها وجعلها تقضي وقتاً ممتعاً. وشدّد رجل آخر، وهو من أتباع الحارِدي *مِشوغاه*، خشن الطباع، وذو عينَين غاضبتَين وضفائر شعر تصل حتى مستوى الصدر، على أن الفتاة شريرة. وبما أنه كان عاري القدمَين، ويحمل لافتة كرتونية حول عُنُقه تُعلن أنهم ذاهبون جميعاً إلى جهينوم، لم يأخذ بِن - روي كلامه على محمَل الجد. لم يتمكن أحد من توفير معلومات مؤكّدة.

واصل طريقه إلى أسفل الشارع، وتوقف عند الممر الضيّق المليء بالقُمامة لمعبر لِفينسكي التحتيّ. وبالرغم من كون بوّابة النفق مُغلَقة، فقد تمكّن من رؤية أشكال طَيفيّة لأشخاص مُبهَمين يلوحون في الظلام. إذا كان أحدهم يائساً حقاً ويحتاج إلى ملجأ يقضي الليل فيه، فهذا المكان يَفي بالغرض. ولو كان في وَضح النهار، لفكّر مليّاً بالقفز فوق البوابة وتمرير الصورة الفوتوغرافية، سائلاً عما إذا كان أحدهم يعرف الفتاة. ولكنه بالتأكيد ما كان ليقوم بذلك بعد حلول الظلام، وبوجود مسدسه من طراز جريكو في الصندوق مُحكم الإقفال تحت مقعد سيارته. كان متهوّراً، ولكنه ليس ذلك النوع من المتهوِّرين. بأي حال، ستكون هذه

الخطوة هدراً للوقت بما أن معظمهم لن يكونوا متمتعين بالوعي الكافي ليلاحظوا أن هناك صورة تُعرَض عليهم، فكيف سيتمكنون من تذكر الفتاة. وبعد توجيه نظره إلى الأسفل للحظات، والتقاط مِنخَرَيه رائحة القُمامة والتبوّل اللاذعة، مرّ مجدداً بشارع نيفي شَعَنان، ومن ثم انتقل إلى الشوارع الموازية: هاغدود هايفري، يِسود هامالا، فين، وسالومان.

عندما تمّ تعيينه في تل - أبيب قبل عقد من الزمن، كانت هناك مومِسات على امتداد جدران هذه الشوارع. لقد انخفض عددهنّ مذاك الحين، ولكنها ما زالت منطقة خطرة بشكل محسوس. ففيها بيوت دعارة، وعروض تعرٍّ، ونساء يرتدينَ تنانير قصيرة جداً ويقفن في الشوارع. وكان هناك قَوّادون أيضاً متّكئين على أعمدة المصابيح، أو واقفين وراء الزوايا، ويمكن رؤيتهم عن بُعد مِيل بوجوههم المتيقظة وعيونهم الخَرَزية. إنهم حُثالة المجتمع. فكل ما يقومون به هو تلبية طلبات الزبائن الذين يشكلون جزءاً من المعادلة. وفي حين يسهل كنّ الكره للقَوّادين والمتّجرين بالجنس، لا يمكن غَضّ الطَّرْف عن الزبائن. فنصف أصدقائه، وكل زملائه في العمل ربما - باستثناء ليه شاليف - خرجوا مع مومِسات في وقت من الأوقات. وهو أيضاً خرج مع مومِسات، منذ سنوات، عندما كان يقوم بخدمته العسكرية على الحدود اللبنانية. وتناول ذات ليلة الشراب مع ناتان تيرات، وأنفقا أموالاً طائلة على امرأة عارمة الصَّدر، جافية الطباع، تدعى... لم يستطع حتى تذكّر اسمها. لقد مرحا كثيراً آنذاك، رغم أنه شعر بقليل من الإحراج في ما بعد بسبب ذلك، وما كان ليخبر سارة بأي شيء بالتأكيد.

في هذه الليلة، كانت ذاكرته أكثر تشوّشاً في أثناء تجواله. كان على ثقة تامة بأنه لم يتم الاتّجار بالمرأة، أو لم يتم استقدامها من الخارج على الأقل - يبقى ذلك اتّجاراً في كلا الحالَين - ولم يستطع أن يتخيّل أنها تعيش حياة سعيدة بصفة خاصة، وقد ازداد قلَقاً من فكرة وجود أشخاص ينتظرون دسّ الكوكايين في فمها. ألقى نظرة سريعة على الصورة في يده، متسائلاً عن الأمور التي أُجبرت الفتاة على القيام بها - كان على عِلم بتلك الأمور - وشاعراً بالغثيان والذّنْب أيضاً. لقد ساهم في صناعة الجنس بالرغم من كل شيء، واستفاد منها، وأطعم الوحش. فلو لم يكن هناك زبائن على غراره لما كانت هناك صناعة، الأمر مماثل لوجود المعامل

الاستغلالية؛ إذ ما كانت لتتواجد لولا الرغبة في ارتداء ملابس منخفضة الثمن، وما كانت حروب المخدرات لِتَحدث لولا عطلات نهاية الأسبوع المميَّزة المُرفَقة بتعاطي الكوكايين. فكل إنسان مستغلّ بطريقته الخاصة؛ المتعاطون ومُسيئو المعاملة. وإذا كان القَوّادون والمتّجرون بالجنس الوجهَ الجليّ للاستغلال، فإن دائرة المسؤولية تطال شريحة أكبر من الناس. ولم يُطِل التفكير في الأمر. لقد قصد ميتولا منذ زمن بعيد، ولم يكن يعتزم تكرار الأمر. فما هو بحاجة إليه الآن هو العثور على الفتاة وحلّ الجريمة. لقد أرجأ التفكير بأخلاقيات العرض والطلب في صناعة الجنس إلى يوم آخر.

سلك هاغدود هايفري، ومرّ عند الزاوية بجزّار، وبمومستَين واقفتَين على بُعد أبواب قليلة، إحداهما شقراء بسبب البيروكسيد وترتدي سروال جينز، وترتسم على وجهها كَدَمات وملامح الإخفاق، وتظهر على ذراعَيها علامات الإدمان على المخدرات. والأخرى أكبر سنّاً، متوسطة العمر، بنّية الشعر، ترتدي فستاناً أسود ضيّقاً وتنتعل حذاء ذا كعب عالٍ، وتبدو في صحة أفضل، عِلماً أن هذا الأمر لا يعني أي شيء. والاثنتان إسرائيليتان وفقاً لمظهرهما. فشهر شارته ورفع الصورة.

"هل تعرفين هذه الفتاة؟" قال من دون أي مقدِّمات. "كانت تعمل هنا؟".

فهزت الشقراء رأسها.

"حاولي النظر إلى الصورة".

فنظرت إلى الأسفل، ومن ثم إلى الأعلى.

"لا".

"هل أنت متأكدة؟".

"إذا كنتَ تسعى وراء شابات صغيرات في السنّ، فأنا أعرف المكان الذي يمكنك العثور فيه عليهنّ، ولكن ذلك سيكلّفك بعض المال. إنهنّ شابّات حقاً إذا كنتَ مهتماً".

فتجاهل بن - روي التعليق، ووجّه الصورة للمرأة الأخرى.

"ماذا عنكِ؟ هل تعرفينها؟".

مدّت المرأة يدها وأخذت الصورة، وتناولت مجّة من سيجارة مارلبورو كانت تحملها. وبالرغم من بدانتها في محيط البَطن، ووضعها كمية كبيرة من مستحضرات

التجميل، باستطاعتكم التحقق من أنها كانت جذّابة ذات يوم، وما زالت كذلك مع بعض أَمارات الوَهَن. لا وجود لما يشير إلى تعاطيها المخدّرات، مما حمله على التساؤل عن كيفية انتهاء الأمر بها هنا؛ بسبب الدَّين ربما، أو علاقة مُهينة، أو أحد مئات الأسباب. تبّاً، ربما تستمتع بذلك، عِلماً أنه السيناريو الأقل احتمالاً. فلكل منهنّ قصتها الخاصة ودرَجها الخاص في اتجاه عالم الرَّذيلة.

"حسناً؟" سأل.

رفعت المرأة نظرها عن الصورة، ونظرت إليها مجدّداً.

"لماذا تسأل؟".

"لسبب ما من شأن الشرطة. هيا، إما أنّك تعرفينها وإمّا لا".

تناولت مجّة أخرى، ولاحظ أن يدها ترتجف. ربما تتعاطى المخدرات بالرغم من كل شيء.

"لا أستطيع مساعدتك"، قالت مُعيدةً الصورة إليه.

"هل أنت متأكدة؟".

"لا أستطيع مساعدتك"، كرّرت بحزم أكبر.

تمعّن بِن - روي بوجهها، محاولاً اكتشاف ما إذا كانت تُخفي أمراً ما. لقد وقفت هناك تدخّن سيجارتها بيد مرتجفة من دون أن تنظر إليه، وبعد لحظات سلّم بأنه لن يحصل على أي شيء وغادر. وتردد الصوت المرتفع والمستفزّ للشقراء وراءه.

"إنهنّ شابات صغيرات في السنّ حقاً إذا كنتَ مهتماً يا عزيزي. من الشاحنة مباشَرةً! عُد في أي وقت، يا سيدي الشرطي!".

كان لا يزال يستطيع سماع صوت ضحكها عندما انعطف عند الزاوية في أسفل الشارع.

جال في المكان لمدة ساعة أخرى من الزمن، متوقفاً في حانات، وملاهٍ، ومتحدثاً إلى المومِسات والقَوّادين، وبعض الزبائن أيضاً؛ أشخاص ماكرين ينسلّون مع شعور بالذَّنْب خارج الأبواب المؤدّية إلى الرصيف مباشَرةً، ويدخلون غرفاً على صورة زنزانات تحتوي كل منها على سرير وحوض غسيل. لقد تذكّرها أوروبيّانِ شرقيانِ في شارع فين عندما كانت تعمل في المنطقة، من دون أن يتمكنا من إخباره

بأي شيء عنها؛ ولا سيما المكان الذي يمكن أن تكون متواجدة فيه. وعرفها أيضاً حاجب في آي بيي سِكس بار في شارع سالومان مع تفصيل إضافي بأنها ظهرت في مشهدَين في فيلم إباحي عُرض على الإنترنت، ولم يكن لديه ما يُضيفه. ولم يتذكر أي شخص آخر الفتاة، ولم يعرف أحد أي شيء عنها، أو على الأقل لم يُقرّ أحد بذلك؛ والنتيجة واحدة. وعند الساعة الثامنة، وبعد أن جال في المنطقة ذهاباً وإياباً من أولها إلى آخرها، وأدرك أنه يتعيّن عليه التوجه إلى القدس للقاء دوف زيسكي، عاد إلى السيارة وأمل أن يحالفهما الحظ أكثر في المجمَّع الأرمني.

أزال لوحتَي التويوتا الحمراوَين الخاصَّتين بالشرطة ووضعهما في صندوق السيارة، ومن ثم دخل إليها. جلس هناك للحظات مُرهَقاً تماماً، ومتضايقاً من كل ما سمعه ورآه طوال اليوم. ربما كان يتعيّن عليه إلغاء اللقاء، والعودة إلى المنزل فحسب، والحصول على قسط وافر من الراحة. لقد شعر بالفضول لمعرفة ما اكتشفه زيسكي عن بارين ونِمسيس، وباستطاعته تناول الشراب بأي حال. منح نفسه ثواني قليلة، ومن ثم لوى عُنُقه، وأدار المحرك، وكان على وشك تركيب تروس نقل الحركة عندما تلقّت نافذته ضربة قوية. شعر بالتوتر، وأجفل، ثم استرخى بعد ذلك عندما لاح وجه بجانبه. إنها الفتاة ذات الشعر البنّي من هاغدود هايفري. وحين أنزل زجاج النافذة، انحنت نحوه متظاهرةً بلفت انتباهه إلى مؤخّرتها كما لو أنها تحاول إغواء زبون.

"لماذا تسأل عنها؟".

ربما كانت لغة جسدها مُغوِية، ولكن صوتها كان متماسكاً ومُلِحّاً.

"ماريا"، هسهست. "ماذا حلّ بها؟".

أزال بن - روي صيغة نقل الحركة في التروس، وأطفأ المحرك، وانحنى إلى الوراء قليلاً، واستدار على مقعده ليكون وجهاً لوجه معها.

"اعتقدتُ أنك قلتِ إنك لا...".

"أعرف ما قلته". ورمقته بنظرة غاضبة من فوق كتفها. "أتعتقد أنني سأدع العالم برمّته يسمعني وأنا أتحدّث إلى الشرطة؟ هذا النوع من الأمور لا ينجح في هذا الجزء من المدينة. الآن، ماذا حلّ بها؟ كنت أعتقد أنها أقلعت عن الأمر، وأنها موجودة في ملجأ".

"لقد هربت منذ أسبوعين. ظننّا أنها ربما تكون قد جاءت...".

"هل ظننتم أنها عادت إلى هنا؟".

وأصدرت صوتاً أجشّ منخفضاً أقرب إلى كونه حشرجةَ اختناقٍ غير مصدِّقة منه إلى ضحكة.

"هل تمازحني؟ بعد أن ابتعدت عن المكان!!؟ ما كانت لتظهر هنا مجدداً ولو بعد مليون عام".

"أكنتما صديقتَين؟".

حرّكت يدها بسرعة دلالةً على نفاد صبرها.

"لا أصدقاء لأحد في هذه المهنة! عليك بذل قُصارى جهدك لإبقاء رأسك فوق الماء".

ونظرت حولها مجدداً، متأملة الشارع بقلق، ومن ثم دفعت رأسها داخل السيارة وأصبحت قريبة جداً من بِن - روي لدرجة أنه كان باستطاعته شمّ راحة السجائر المنبعثة من أنفاسها، ورؤية التجاعيد حول عينيها.

"تقاطع طريقانا مرات قليلة"، قالت. "كانوا يُرغموننا على المشاركة في... كما تعلم...".

"ماذا؟".

"حبّاً بالله! أفلام، عروض خاصة. هل أنت بحاجة إليّ لأهجّئها لك؟".

لم يكن بحاجة إلى ذلك، كان يعرف ما الذي تتحدث عنه بالتحديد. بالغون وشبان، والدات وبنات...

"لا تزال صغيرة في السنّ حباً بالله! الأمر سيّئ بما يكفي في سنّي، ولكن بالنسبة إلى شخص مثلها...".

عضّت شفتها، وأصابعها المطليّة بطريقة مبهرَجة تتحرك بشكل لولبي على إطار الباب، وعلى وجهها أَمارات الإذلال.

"لم أشأ القيام بالأمر. أيّ منّا لم تشأ ذلك. ولكن، إذا كان هذا ما يطلبون منك القيام به... لا يقتصر الأمر فقط على القيام بعملك. هل تفهم ما أقوله؟".

مجدداً، كان يفهم ذلك تماماً. ليست هذه مهنة تشتهر باحترام حقوق الموظفين فيها.

"هل تعرفين قوّادها؟".

فهزت رأسها.

"لقد جرت العادة أن يتم اصطحابها إلى حيثما... نقوم بالأمر: في استوديوهات، ونوادٍ، ومنازل خاصة. كان هناك شخصان برفقتها على الدوام. كانت تشعر بالخوف كثيراً. حاولتُ مساعدتها وتسهيل الأمر عليها، ولكن، كيف تجعل أمراً مماثلاً سهلاً؟".

وتحركت عيناها بسرعة نحو الأعلى والأسفل مجدداً، عاجزةً عن النظر إلى عينَيه. كانت يداها تُمسكان الباب بإحكام لدرجة أن بُرجُماتها أصبحت بيضاء.

"وبكت ذات مرة. لقد استلقت هناك وهي تبكي وكنت معها. كانت حفلة للرجال فقط، كانوا جنوداً. لقد أحبوا الأمر. الحيوانات!".

وتبادرت إلى ذهن بِن - روي صور وأصوات من النوع الذي كان يشاهده على الإنترنت. فهز رأسه محاولاً التخلص منها.

"هل لديكِ أي فكرة عن مكان وجودها الآن؟".

"أرجو أن تكون بعيدة جداً إذا كانت تعرف مصلحتها. اسمع، عليّ العودة، لقد تغيّبتُ لمدة طويلة. ظننتُ فقط أنك ربما تعرف شيئاً وأردت التحقق مما إذا كانت...".

"ماذا؟".

"ما رأيك؟ لقد انتشلوا فتاة من الياركون في الأسبوع الماضي. لقد بتروا أُذُنَيها وربطوا أثقالاً بقدمَيها. هذا ما يحدث للفتيات الهاربات. قدِمت صحافية إلى هنا منذ أسابيع قليلة وطرحت أسئلة، وخشيتُ أن يحدث لي ما حدث لماريا. الآن عليّ المغادرة".

وشرعت بتقويم وقفتها، ولكن بِن - روي أمسك رسغها.

"هذه الصحافية، أكانت بدينة، وشعرها يخالطه الشيب؟".

فترددت، ومن ثم أومأت جزئياً بحذر.

"كان اسمها ريفكا كلينبرغ. لقد قُتلت منذ ثلاثة أيام في القدس، في دار العبادة الكبرى الأرمنية. نعتقد أنها كانت تبحث عن ماريا أو تسعى للقائها ربما. عليّ العثور على ماريا، إنه أمر مُلِحّ. إذا كان هناك ما يمكنك إخباري به، أي شيء...".

وقفت الفتاة هناك للحظات، محرّكةً عينَيها بسرعة كما لو أنها تفكر بما سمعته للتوّ، ومحاولةً فهم ما يعنيه وتأثيراته عليها. وبعد ذلك، حررت رِسغها وابتعدت عن السيارة خطوات إلى الوراء.

"لا أستطيع مساعدتك"، قالت. "لا أعرف أي شيء. الآن عليّ...".

"آيريس!".

فتسمّرت في مكانها عندما انطلق صوت عبر الشارع. ألقى بِن - روي نظرة سريعة من خلال المرآة الجانبية. كان هناك رجل يقترب على امتداد الرصيف المقابل، كان قويّ البنية، يعتمر قبّعة مسطحة، ويرتدي سترة جلدية، ويجرّ وراءه كلباً ضخماً وقويّاً من نوع ما.

"آه، يا الله!" همست، وتصلّب فكّها السفلي، ونتأت عيناها من شدة الخوف. "اذهب رجاءً، اذهب الآن! إذا رآني مع شرطي...".

"ماذا يجري يا آيريس؟" صاح الرجل. "من الذي تتحدثين إليه؟".

"أحاول فقط تقديم بعض الخدمات"، صرخت محاولةً إزالة الذُّعر من صوتها، ومُخفقةً في ذلك. "كانت ليلة بطيئة".

"إذاً، ما سبب كل هذه الثرثرة؟ إما أنّه يريد ذلك أو لا؟".

"اذهب"، هسهست هامسة. "أستحلفك بالله، اذهب فحسب. سيقتلني!".

كان القَوّاد يعبر الطريق على بُعد ثلاثين متراً، والكلب يزمجر ومخالبه تخدش الطريق المعبَّدة بغضب، متلهّفاً للوصول إليها. فتساءل بِن - روي عما إذا كان يُفترض به الترجل من السيارة وإشهار شارته، والطلب من الرجل التراجع أم لا. ولكنه كان يعلم أن من شأن ذلك التسبّب بالمتاعب للمرأة في وقت لاحق إن لم يكن الآن.

"أَعطيني شيئاً ما على الأقل"، زمجر وهو يشغّل المحرك، وعيناه تتنقلان بين المرأة والمرآة. "لا بد أن تكوني على معرفةٍ بأمرٍ ما".

"هل يحاول تخفيض أجرك يا آيريس؟". كان القَوّاد قد حثّ خطاه وبات على بُعد أقل من عشرين متراً؛ قريباً بما يكفي ليرى بِن - روي الشُّعَيرات القاسية على وجهه، والمسامير على ياقة الكلب الجِلدية. "اللعنة، أَخبريه أن السعر هو السعر! هل تسمعني؟ السعر هو السعر!".

"رجاءً"، تأوّهت بصوت يملأه الرُّعب، "أتوسّل إليك، اذهب...".

"ليس قبل أن تعطيني شيئاً!".

بقيت متسمّرة في مكانها لجزء من الثانية. ومن ثم، وبوجود القَوّاد على مسافة عشرة أمتار فقط، تقدّمت من السيارة وانحنت، ثم همست بسرعة في أُذُن بِن - روي.

"اذهب من هنا الآن"، هسهست بهمس، وتراجعت إلى الوراء مجدداً قائلة بصوت مرتفع ليسمعها القَوّاد:

"حسناً، تبّاً لك، أيها الوغد!".

مفترضاً تعرّضها للإهانة، أطلق الرجل صرخة أشبه بخوار الثور، واندفع نحو السيارة. والتقت عينا بِن - روي عيني المرأة للحظة، ومن ثم أومأ برأسه، وعشّق تروس التويوتا وانطلق، واهتزت السيارة بقوة في أثناء ارتماء الكلب على المِصَدّ الخَلفي. زاد من سرعته، وألقى نظرة سريعة على مرآة الرؤية الخلفية. كان الكلب يركض وراءه بسرعة، جارّاً وراءه الرَّسَن، والقَوّاد يقف بجانب المرأة واضعاً ذراعه حول كتفَيها بطريقة وقائية، وهو يلكم الهواء بالثانية ويُطلق شتائم لم يتمكن بِن - روي من سماعها بسبب هدير محرك السيارة. واصل بِن - روي النظر بما يكفي للتأكد من أن المرأة بخير، وهذا ما كان عليه حالها كما يبدو - أو إنها بخير وِفقاً للمعيار المعتمَد في العالم الذي تعيش فيه - ثم نظر إلى الأمام. وبلغ آخر شارع سالومان، ثم انعطف إلى هاركيفيت وصولاً إلى الطريق الحرة أيالون، ثم عاد إلى القدس. كان يقود تلقائياً، غير ملاحظٍ ما يقوم به. فكل ما كان باستطاعته التفكير فيه هو الكلمات التي همستها المرأة في أُذُنه:

اسمها الحقيقي فوسغي.

هيوستن، تكساس

انحرف وليام بارين بسيارته البورش كاريرا جي تي عبر البوابة التي تؤدي إلى ممتلكات العائلة، وأطلق العنان لسرعة سيارته على الطريق المعبّدة. ودفعه محرك بريك هورس باور 612، في 10، بسرعة 100 كيلومتر في الساعة في غضون ثوانٍ.

أبطأ على الفَور، مخفّضاً السرعة لدى انعطافه وسلوكه طريق الغرانيت المجهَّزة بأبراج والمؤدية إلى منزل العائلة الفخم الذي يبدو مُظلِماً بالرغم من أشعة شمس الصباح. لم يُطلَق على المكان اسم *داركلاندز* عبَثاً.

تحقق من الساعة على لوحة القيادة – لا يزال هناك القليل من الوقت لتبلغ الساعة العاشرة وعشرين دقيقة – وتوقف تحت إحدى أشجار السنديان العملاقة القائمة على امتداد الطريق. كان قد دُعي إلى اجتماع عند العاشرة والنصف، ولم يكن والده يحب وصول المدعوّين في وقت مبكّر أو في وقت متأخر، بل في الوقت المحدد لهم تماماً. فمنذ صِغره، بذل وليام قُصارى جهده للتقيّد بالموعد المحدد، وكبّل نفسه، محاولاً التعايش مع معايير والده المُجهِدة بهدف الالتزام بالمواعيد؛ من دون أن يتمكن من الالتزام بها تماماً، وكان ينتهي به الأمر على الدوام مبكّراً أو متأخراً لحظات قليلة، فيبكّر أحياناً بسبب تلهّفه إلى إثبات نفسه، ويتأخر أحياناً أخرى بسبب ضغوطات العمل ودخوله حالة من الذُّهول المرافق للإجهاد؛ مما يُفقده الصِّلة بما يقوم به. فيتلقى توبيخاً آخر، ومن ثم وعيداً آخر، وموعظة مُرفَقة بهزّ الإصبع حول كيفية غدوّ فتى لا يلتزم بالوقت المحدد رجلاً بالغاً لا يستطيع الالتزام بأي شيء، وإن الفشل والذّل وعدم النَّفع مصير البالغ الذي لا يستطيع الالتزام بأي شيء. ولا تزال تلك المواعظ تقضّ مضجعه حتى بعد أن أصبح رجلاً بالغاً. *لستَ ما أملتُ أن تكونه، يا وليام. لا تملك المواصفات التي يتطلّبها الوضع. أخشى أن الآخرين يملكونها ولكن ليس أنت*. حسناً، *في الواقع* هو يملك المواصفات المطلوبة، وسيكتشف الرجل العَجوز ذلك بنفسه في وقت قريب. ربما لم يكن قطّ الشخص المفضَّل بعد أن انصبّ الحب والاهتمام على الآخرين، ولكن وليام هو الذي سيحتل المنصب الأعلى في النهاية، قريباً، قريباً جداً.

ولكن ليس اليوم. لقد أراد الحضور في الوقت المحدد فأعدّ لنفسه بعض المخدرات، ووضعها على علبة الأسطوانات المدمجة؛ القليل فقط، لم يشأ أن يبدو غبياً مجدداً كما بدا في قاعة الاجتماعات في اليوم السابق. وبعد أن تنشّق المخدرات، فتح العلبة ووضع الأسطوانة في آلة تشغيل الأسطوانات. إنها إمينيم، بولي. وهو يحب إمينيم لأنه يعتبرها مماثلة له. فالخلفيات مختلفة بالطبع، ولكن الغضب هو الغضب أيّاً تكن خلفيّتكم. رفع الصوت وأسند ظهره، متمتماً

الكلمات، وضارباً عَجَلة القيادة بأسفل مِعصمه تماشياً مع الإيقاع وذلك بسبب تأثير جرعة الكوكايين التي أخذت منه كل مأخذ على نحو متناغم مع نبضات مشاعره. *لن أنحني لأي بولي لعين*. صحيح تماماً. سوف تنحني *لي* أيها العجوز. انحنِ على ركبتَيك، ركبتَي الفيل الغليظتين، السمينتين، المنتفختين. انحنِ، انحنِ، انحنِ. وضرب بمِعصمه بقوة أكبر، واهتزت السيارة كلها على إيقاع كرهه. انحنِ، انحنِ، انحنِ.

ألقى نظرة أخرى على الساعة.

اضطراب في الشخصية مسبّبٌ للأوهام، إن هذا أحد التشخيصات لحالة الانقباض التي يشعر بها. لقد أُجري له عدد قليل من هذه التشخيصات على مَرّ السنين. ورآه محللون نفسيون، ومستشارون، وأطباء رأس، وأصدروا تأويلات متنوّعة، وتفوّهوا بمصطلحات أشبه بالجعجعة. فالطبيبة التي عاينته قبل أربع سنوات بعد وفاة والدته، والتي كانت لديها شفتا مومِس كبيرتان، خرجت وقالت له إنه مريض اجتماعي، عِلماً أنه تبعها إلى منزلها بعد إحدى جلساتهما، وسألها إن كان بإمكانه ممارسة الحب معها (قالت نعم، وهذا أمر مضحك؛ لأن الجنس الآخر ينجذب إليه ربما، ولأنه يتحدّر من عائلة يملك أفرادها مليارات الدولارات في الواقع).

أجل، لقد خضع للكثير من العلاج الفيزيائي، وجلس كثيراً على كراسٍ في مكاتب مزيَّنة على نحو ممتع، في حين طرح عليه هذا الطبيب وذاك أسئلة عن طفولته وعائلته، وعن المخدرات والمومِسات، وعن شعوره حيال والدته التي تفحّمت وتحوّلت إلى رماد.

كانوا يطرحون عليه الكثير من الأسئلة عنها.

وبالرغم من مرور عقدَين من الزمن، والمزيد من الأسئلة والإجابات والتملّصات، وإصابته من حين لآخر بحالات هستيرية من الانتحاب والبكاء الجدير بالشفقة بسبب عجزه عن تلبية توقعات والده بأن يكون وريث الرجل العجوز المولَع به – اثنا عشر محللاً نفسياً مختلفاً في اثنَي عشر مكتباً مختلفاً – لم يقل له أحد أي شيء جديد، أي إن والده سبب كل مشاكله، وإنه حفرة مياه الصَّرْف الصحي المسمومة التي نضحت منها كل متاعبه. كم كان يكرهه! وهو يحترمه أيضاً بالطبع،

كما تحترمون شخصاً ساخطاً يخيفكم، وفي الوقت نفسه، تتشوّقون كثيراً إلى إحسانه، ولكن كرهكم له أكبر. لقد أفسد والده حياته وكل حيواهم (كان يُصغي في تلك الليلة من حيث كان مختبئاً في الخزانة، *رجاءً لا تفعل، الأمر مؤلم، الأمر مؤلم*) وما دام والده موجوداً ستتواصل عملية الإفساد. وعندما يرحل والده، سيكون كل شيء بخير؛ على غرار مسرحية شكسبير التي درسوها قبل أن يُطرد من المدرسة؛ تلك التي تتناول الأمير هال ووالده الملك. بقي الأمير فاشلاً تماماً إلى أن مرض الملك وتوفي. وحين جلس هال على العرش، ووضع كل أيامه الشاذة وراءه تحوّل إلى رجل عظيم. وهو سيتحول إلى رجل عظيم أيضاً إذا كفّ والده عن كونه عائقاً أمامه؛ ليس بعد، ولكنه سيدير أعمال العائلة قريباً. وبخلاف الأمير هال، لن يتظاهر هو بمصالحة والده قبل أن يتولى مقاليد الحكم في المملكة؛ بل بالعكس، عندما يُدفَن والده على عُمق ست أقدام، سينتعل حذاء النَّقر ويرقص على قبره اللعين.

ألقى نظرة أخرى على الساعة، وأدرك أنها باتت العاشرة والنصف تقريباً. فلعن، وأوقف أسطوانة إمينيم، وأدار المحرك، وانطلق بأقصى سرعة، فبدت أشجار سنديان البور مُبهَمة من كلا الجانبَين في أثناء انعطافه، هادراً، ومتوجهاً إلى الناحية الأمامية للمنزل. وتوقف بعد انزلاق عجلات السيارة، وصعد الدرَجات اثنتَين اثنتَين وصولاً إلى الباب، وتحقق من ساعته. إنها العاشرة والنصف تماماً. فأطلق ضحكة ظافرة، ومدّ يده وضغط على زرّ الجرس النحاسي اللمّاع مدةً أطول من اللازم، وتردد صدى رنين الجرس بغضب في أنحاء المنزل، مما حدا جعل الموجودين في الداخل يعتقدون جازمين أنه لم يحضر فحسب، بل في الوقت المحدَّد أيضاً.

"لك هذا، أيها العجوز"، تمتم رافعاً إصبعه عن الجرس، ومن ثم ضاغطاً بقوة أكبر لدرجة ابتلاع التجويف للزر وابيضاض إبهامه من فَرط الضغط، وبدا مسرح طفولته الفارغ الذي لا حياة فيه يهتزّ بقوة واستياء من طريقة الدخول هذه.

"صباح الخير، يا سيد وليام".

فتح ستيفن خادم والده الباب، ووقف أمامه مستقيماً ببذلته السوداء، تفوح منه رائحة مرهم عِطري مُبهَم، وحذاؤه ملمَّع كثيراً لدرجة ظهور انعكاسٍ غير

واضح للسقف عليه. فأومأ بطريقة محترَمة وتنحّى جانباً، مرافقاً وليام إلى داخل المنزل.

"أرجو أن تكون في حال جيدة يا سيدي"، تكلم بصوت منخفض وصافر من دون أي إلماعة إلى السنّ أو الطبع، مُغلِقاً الباب وراءهما.

"أنا بخير، شكراً لك يا ستيفن، عِلماً أنني سأكون أفضل حالاً بكثير عندما أغادر المكان بعد عشرين دقيقة".

وارتسمت ابتسامة عريضة على وجه وليام لم تلقَ أي رد فعل مرئي. كان وجه رئيس الخدم الشاحب بشفتَيه الرفيعتَين شيئاً جديراً بالدراسة لجهة حِياده. طالما كان على هذه الحال كما يذكر وليام. لقد أضمر في صِغَره فكرة خيالية عن الرجل، ظانّاً أنه روبوت يمكنه إزالة البراغي الموجودة وراء أُذُنَيه ورفع غطاء وجهه ليكشف عن لوحة دارات تحته، وباستطاعتكم إعادة برمجته وحمله على القيام بأمور مسلّية كالإساءة إلى والده مثلاً، أو جرّه إلى البحيرة المزخرفة القائمة في الناحية الخلفية للمنزل وإغراقه، وإراحتهم جميعاً من بؤسهم. لقد حاول القيام بذلك مرتين في الواقع، فتسلّق الكرسي وتلمّس أطراف ذلك القناع الشاحب الخالي من أي تعبير، ودسّ أصابعه تحت الشعر المكسوّ بمادة زيتية أملاً في العثور على زر أو مِشبك أو مفتاح تحويل، أو وسيلة ما للدخول وتحقيق السيطرة. كان ستيفن يسمح له بالقيام بذلك، ويجاريه في اللعبة. وكان وليام ممتنّاً على الدوام لذلك الإذعان المستسلم لمخيّلة فتى صغير. فبالرغم من مظهره الخارجي الرسمي على نحو صارم، كان ستيفن أحد الأشخاص الصالحين، وكان يعرف قدراته التي تعمّد والده التعامي عنها. سيكافئه على ذلك ذات يوم. فالملك لا ينسى أبداً أولئك الذين أبدوا له الولاء في المنفى، كما أنه لن ينسى أبداً أولئك الذين أرسلوه إلى المنفى في المقام الأول.

"في المكتبة؟" سأل.

"في الواقع، إنه هناك يا سيدي. دعني أرافقك".

وتقدّمه الخادم عبر المدخل - جدران مكسوّة بألواح تزيينية داكنة من خشب السنديان، ونوافذ مصفَّحة بالرصاص، وأبواب نحاسية ثقيلة؛ المكان أقرب إلى النّعش منه إلى المنزل - وصولاً إلى الدرَج الطويل. وتتبّعتهما صور أشخاص في

أثناء صعودهما، أشخاص يحدّقون من الجدار بعدم تأثر مقصود، غير راغبين في الكشف عن أي شيء باستثناء مظهرهم الخارجي، حتى إنهم يقومون بذلك بتردد: والد الجد؛ سيد العائلة، نحيل كالمِعول وصلب كالحديد، وجده مطأطئ الرأس وذو الشارب الذي يجلس كلب صيد عند قدمَيه وفي يده سيجار، ثم والده الجسيم، الملتحي، الذي ينظر نظرات مختلِسة، والحقد يشعّ من عينيه؛ وهكذا بدا لوليام على الدوام. وهناك آخرون، أشخاص متجهّمو الوجوه يرافقونهما وصولاً إلى فسحة الطابق الأول؛ أعمام، أحفاد الأعمام، يتذكر بعضهم بشكل مُبهَم، ومعظمهم غرباء تماماً بالنسبة إليه. عبرا الممر المكسوّ بألواح خشبية والمؤدي إلى الجناح الغربي للمنزل، وقد عُلّقت عليه صور نساء هذه المرة، سيدات عائلة بارين: زوجات وشقيقات، عمات وبنات، ترتسم على وجوههن أَمارات المَلل وخيبة الأمل كما لو أنهنّ لم يحصلنَ على حياة سعيدة كما كن قد توقّعنَ أو أمِلنَ بالرغم من كل الحُليّ، والملابس النفيسة، والمكانة الاجتماعية المرموقة.

وفي نهاية الممر تماماً، وبجانب باب المكتبة، كانت اللوحةُ الأخيرة والمُضاءة دون سواها بمصباح؛ صورة والدة وليام. امرأة شقراء الشعر، حزينة العينَين، نحيلة بشكل مؤلم. كانت امرأة صالحة على طريقتها، وبذلت قُصارى جهدها لتقديم الحماية والوقاية، ولكن لم يكن أحد يجرؤ على عصيان دقّاقة الأوتاد الحقود ناتانيال بارين. لقد ذبُلت على غرار كل نساء بارين. ألقى وليام نظرة سريعة على الصورة من دون أن يسمح لعينَيه أو لأفكاره بالتركيز عليها. لا تستطيع والدته مساعدته الآن، كما أنها لم تستطع مساعدته في أثناء نشأته. كان بمفرده.

"ها قد وصلنا، يا سيدي".

إنّه ليس بمفرده تماماً. فهناك ستيفن على الدوام.

"شكراً لك يا ستيفن. سأواصل السير بمفردي".

"كما ترغب يا سيدي".

أمال الخادم رأسه بتهذيب، واستدار، ثم عاد أدراجه من حيث قدما، وقدماه تتحركان من دون إصدار أي صوت على امتداد الممر المكسوّ بالسجاد كما لو أنهما لا تلامسان الأرض. وراقبه وليام وهو يغادر – ستيفن رجل صالح، ويمكن التعويل عليه – ومن ثم وقف أمام باب المكتبة، مشدود المعدة كالعادة عندما يقف

هناك، وانـــزلقت يده بطريقة لاشعورية في جَيبه ولها بلُفافة الكوكايين. لقد قـــاوم إغراء العودة إلى الحمّام لتناول جرعة؛ في ما بعد ربما، ولكنه أراد الآن البقاء حاضر الذّهن متيقظاً. باستطاعته مقاومة إغراء المخدرات. كان يسيطر على نفسه، فهـــو قويّ. *لا تنسَ ذلك أبداً*، قال لنفسه. *أنت تسيطر على نفسك. أنت قوي.*

تنفّس بعمق، ثم قرع الباب.

"ادخل".

لقد صدر الأمر كدويّ رعد بعيد. تردد وليام، مالئاً نفسه بـــالعزم - *أنـــت تسيطر على نفسك. أنت قوي* - ومن ثم فتح الباب.

كان والده جالساً وراء طاولته في الجانب الأبعد للمكتبة، منتفخـــاً، وثقيـــل الحركة، وأبيض الشعر، يرتدي بذلة تويد ثقيلة. وبالرغم من كون القاعة ضخمة، ومزدوجة الارتفاع مع سقف مقبَّب ورِواق على امتداد المستوى العُلـــوي، كـــان حضور ناتانيال بارين مهيمناً، وبنيته الجسدية الكبيرة تُعيق دخول الضوء من النوافذ وراء الطاولة، وكان وجوده يملأ كل زاوية في المكان كضـــباب حالـــك. كـــان باستطاعة وليام شمّ عطر ما بعد الحلاقة حتى من هذه المسافة - فهو حـــادّ ولاذع كآلة ازدادت حَماوةً على نحو مُفرط - وسماع أنفاسه.

"أنت متأخر"، زمجر والده بصوت جهير لا يلين، أشبه بالصوت الذي يُحدثه الصخر لو استطاع الكلام.

"لا أعتقد ذلك يا سيدي".

"لا تُكذّبني. أنت متأخر".

ووضع العجوز مِرفقه على الطاولة، ونقر على ساعته. فكر وليام بالدفاع عن موقفه والإصرار على أنه وصل عند العاشرة والنصف تماماً، ولكن الأمر لم يكـــن جديراً بالعناء. فهو لم يسبق له أن فاز في أي جدال خاضه مع والده طوال حياته، ولن يفوز اليوم. ولم يسبق لأحد أن فاز في جدال خاضه مع والـــده. فـــإذا قـــال ناتانيال بارين إن الأرض مسطحة والقمر مصنوع من الجُبن، فلا يمكـــن تكـــذيب الرجل. وقف وليام صامتاً، مُحاولاً التأكيد لنفسه مجدداً بأنه يسيطر على الوضـــع، وأنه قوي، منتظراً إيماءة والده بإصبعه ليتقدّم. كان هناك كرسيّان أمام الطاولـــة - كرسيّان مزخرَفان قديما العهد، مع ظهرَين مقوَّسَين ومقعدَين حريريَّين بـــاليَين -

انتظر الإشارة التي لم تصدر وبقي واقفاً. كانت هناك ساعة تتكتك على رف المدفأة، فيما رئتا والده تصفران. وبدا الصوتان كما لو أنهما يعكّران صفو الصمت الذي حاول عدم تعكيره، وشعر بوطأة المكان الخانق. فكلما قدِم وليام إلى هنا، شعر بأنه يُدفَن حيّاً.

أنت تسيطر على نفسك. أنت قوي.

"كيف تشعر، يا والدي؟" سأل.

"أنا بخير، شكراً لك".

ولم يكن هناك استفهام متبادَل عن حالة وليام الصحية، فجرّ قدمَيه، وحاول حجب الإهانة التي بدأت تؤثّر في تماسكه. ربما كان يُفترض به تناول جرعة المخدرات تلك بالرغم من كل شيء. وحدث صمت مُربِك، وبعد ذلك قال:

"أظن أن اجتماع مجلس الإدارة جرى بشكل جيد".

"حقاً؟!".

"لقد أحسن جيم العمل في ما يتعلق بالموارد المالية".

رمقه والده بنظرة محدِّقة مُذِلّة تقول *"وماذا تعرف عن الأمر بحق الجحيم؟"* .

كل شيء في الواقع أيها العجوز المقيت المتورّم.

ومن ثم أشاح بنظره، خالطاً الأوراق على طاولته. كانت الساعة تتكتك، ووالده يتنفّس مُحدِثاً صفيراً، والكتب مكدَّسة في كل مكان: مئات فوق مئات من الكتب، لا بل الآلاف منها، موضوعة في صفوف مرتَّبة ومتراصّة بين طرفَي الغرفة ومن الأرض إلى السقف. لقد أضفت على المكان طابعاً قاسياً كالجِلد، وشعر وليام كما لو أنه داخل تجويف مِعَوي ضخم ومتصلّب. ووفقاً لمعلومات وليام، لم يُفتح في الواقع أيّ من هذه الكتب. لقد اشتراها جدّه كمجموعات متفرّقة، وهي موجودة هناك للعرض فقط ولإحداث جوٍّ فِكري. لم يتسنَّ لأفراد عائلة بارين الكثير من الوقت للتحصيل العِلمي أو الثقافي. فالمال هو ما كانوا يسعون وراءه: المال والسلطة. وكان وليام مهتماً بهذا الإرث العائلي أكثر من اهتمامه بأي عادات متوارَثة.

"كنت أتحدث إلى هيلاري بعد الاجتماع"، استهلّ كلامه باذلاً قُصارى جهده للمحافظة على مستوى صوته. "إنها تعتقد أنه يمكن لعرض أسعار مصر أن...".

فقاطعه والده بحركة أفقية براحة يده، والتقط مستنداً عن الطاولة، ورفعه، وحرّكه أمام وليام جيئةً وذهاباً بطريقة اقامية كما لو أنه محام يلوّح بدليل ما.

"هل تريد أن تخبرني عن هذا؟".

إنه سبب الدعوة إلى الاجتماع. لم تكن هناك أي مقدمات؛ إلى صلب الموضوع مباشَرةً. هذا أفضل ما كان يتوقعه منه.

أنت تسيطر على نفسك. أنت قوي.

"إنها بعض الأفكار عن مستقبل الشركة يا أبي. إنها وسائل للمضيّ قُدُماً والانتقال إلى المستوى التالي. ظننتُ أن هذا الأمر ربما يثير اهتمامك واهتمام مجلس الإدارة. فقد سلّط الأضواء على بعض...".

"هل تعتقد أن الشركة بحاجة إلى أفكار؟".

وعضّ وليام شفته. كان يعلم أن المستند سيؤدي إلى مواجهة، وقد استعدّ لها، ولكنه موجود في عين العاصفة...

"الأعمال بحاجة دائماً إلى أفكار جديدة يا أبي. ما هي الكلمة التي تستخدمها عائلة نيب؟ *كايزن*، تحسين متواصل".

بدّل والده جلسته، وبدا جسده كما لو أنه موجة على وشك التكسّر على الشاطئ.

"أتعتقد أن الشركة بحاجة إلى *تحسينات*؟".

تبّاً، إنها بحاجة إلى ذلك بالتأكيد، قال وليام في سرّه. نحن كبار بالتأكيد، ولكننا غير عمليين أيضاً. امتدادات عديدة، مشاريع عديدة، الكثير من الأثقال الموازنة. هناك شركات أخرى تحدّ من امتداداتها، وتنظّم أعمالها، وتستعيد مركزيّتها، أما نحن فننام على أمجادنا. التيارات تتغيّر ونحن لا نجاريها. سيتم تجاوزنا بعد سنوات قليلة، كما سيتم دفعنا إلى الشاطئ. ارفع يدك عن الدفّة، أيها العجوز. حان الوقت لحلول ربّان جديد مكانك؛ *أنا* مستقبل بارين.

وبقي صامتاً.

"أفكار؟!"، ترنّم والده مقلّباً صفحات المستند، وقال بصوت جهير أجشّ، "تحسينات!".

كان يهز رأسه، فيما السخرية تبدو واضحة في عينَيه المغمضتين جزئياً.

"إنها مجرّد أفكار يا أبـــي"، قال وليام، باذلاً جهداً كبيراً للحفاظ على رباطة جأشه. "أنا قلق لأننا نعلّق آمالاً كبيرة على عرض أسعار الغــاز المصـــري. إذا لم ينجح الأمر...".

"سينجح".

"لقد تغيّر النظام هناك...".

"هل أنت خبير في العوامل السياسية والجغرافية الآن؟".

"كل ما أقوله...".

أطلق والده زمجرة ازدراء، ووضع ذراعه على صدره، ثم رمى المستند علـــى رأس وليام. لم يُصب الهدف، فقد رفرف المستند بعيـــداً وراءه، وســـقط علـــى السجادة كطائر مَيت.

"لم أضعك في مجلس الإدارة لتطرح أفكاراً أيها الفتى، لقد وضـــعتُك هنـــاك لتقوم بما أطلبه منك فقط. أتعتقد أنك تعرف كيفية إدارة شؤون هذه الشركة أكثر مني؟ أتعرف أكثر مني صالح الشركة؟".

قاوم وليام إغراء يحثه على الصياح: "أجل، أعرف أكثر منك!".

"قمتُ بإدارة بارين طوال أربعين عاماً. *أنا* من عائلة بارين! أنا من جعلها ما هي عليه اليوم، وها هو ابني عديم النَّفع، المتّجر بالمومِســـات، والـــذي يتعـــاطى المخدرات، يعتقد أنه باستطاعته إلقاء موعظة عليّ...".

وشرع الرجل العجوز بالسعال، مهتزّاً إلى الأمام والوراء، ورئتـــاه العليلتـــان المليئتان بالثقوب تتلوّيان تحت ثِقل غضبه، ويتحوّل وجهه إلى لون أُرجواني داكن. *ربما سيختنق حتى الموت هنا والآن*، قال وليام في سرّه، *وعندها سيجنّبنا الكثير من المتاعب*. ولكن لا، لن يفارق ناتانيال بارين هذه الحياة في وقت قريب، ولأسباب طبيعية. ربما كان جسده يتلف، وتنسدّ أحشاؤه نتيجة التعفّن، ولكـــن، لا تـــزال أمامه سنوات قليلة إضافية يحياها. فعلى غرار كل رجال بارين، سيتحدى التوقعات الطبية... لا أحد يقف في طريق ناتانيال بارين.

"أنت شخص عديم النَّفع، متّجر بالمومِسات". قال الرجل العجوز مجدداً، رافعاً إصبعاً مرتجفة في وجه وليام، "أتحاول أن تُملي عليّ ما يجب القيام به، وتجعلَ مجلـــس الإدارة ينقلب ضدي؟ أفكار! لم تكن تملك أي فكرة لعينة جديرة بالعناء...".

وضَعُف الانتقاد القاسي بسبب نوبة متجددة من السعال. فأخرج منديلاً من جَيبه ووضعه على فمه، ومن ثم التقط القناع البلاستيكي عن الطاولة بجانبه وثبّته على وجهه، متنشقاً الأكسجين باضطراب من الأنبوب المتصل بخزّان على الأرض، وعيناه تتوهّجان كحديد مصهور. أرغم وليام نفسه على النظر إلى والده المحدِّق به من دون أن يتراجع؛ بالرغم من صعوبة الأمر الذي تطلّبه استجماع كل ذرّة متوافرة لديه من قوة الإرادة. لقد تمكن من الثبات على موقفه لبضع ثوان، ومن ثم تظاهر - بعد الإعراب عن وجهة نظره - بأنه لا يشعر بالرَّهبة (لم يكن يشعر بالرهبة فحسب، بل بالتهديد أيضاً لدرجة أنه أراد التبوّل والتغوّط في سرواله). استدار وتوجّه إلى المستند الملقى على الأرض، وانحنى والتقطه، ثم ملّس الأوراق المتغضّنة، في حين كان تنفّس والده الأجشّ يزداد بتصميم وراء ظهره كحيوان مفترس يتحفّز للانقضاض.

ذات مرة، منذ سنوات عندما كان لا يزال فتى ولا تزال والدته على قيد الحياة، رسم وليام شجرة عائلة. كانت شيئاً جميلاً ومتشابكاً مرسوماً على جذع إحدى أشجار سنديان البور القائمة على امتداد الطريق الأمامي للمنزل الفخم، وأسماء مختلف أفراد العائلة مدلاّة من أغصانها الفارعة. لقد أمضى شهراً تقريباً في العمل عليها، حارصاً كل الحِرص على عدم نسيان أيّ شخص، وأدرج فيها أسماء سلالة الأسلاف الذكور المباشَرين في العائلة - والد جدّه، جدّه، والده، وهو أيضاً - بلون ذهبي للتشديد على مكانتهم في قلب العائلة. لقد وضعها بيدَيه ضمن إطار بمساعدة الحدائقي أرنولد الذي كان يجيد القيام بهذه الأشياء، وقدّمها لوالده في ذكرى ميلاده الخمسين؛ واثقاً أن هذا الأمر سيجعل قلب الرجل العجوز ينفتح له، ويُقنعه بأن وليام فرد أصيل من عائلة بارين، وأن باستطاعته حمل اسم العائلة. غير أن والده لم يبادله إلا بنظرات عدم المبالاة قبل وضعها جانباً. "لستُ واثقاً من أن اسمك سيكون ذهبياً"، كان ذاك تعليقه الوحيد.

وها هو وليام يفكر بشجرة العائلة في أثناء نظره إلى المستند الذي يحمله في يده. لقد سُحق قبل خمسة وعشرين عاماً بجُحود والده. واليوم، وبعد أن فقد منذ زمن بعيد أي أمل بالفوز برِضى والده، أصبح أكثر وثوقاً بردّ فعله. لم يكن يسعى وراء أي استحسان أو يتوقعه، بل يريد تحدّي والده. لقد وضع يده فوق الجدار

المنخفض، منبّهاً الرجل العجوز ومجلس الإدارة أيضاً عن استعداده للبدء بثني عضلاته. كان والده يعرف ذلك، وهذا ما تسبب بغضبه الشديد. لقد صُدم وليام عندما علم أن والده يخشاه. فالفيل الذكَر العجوز تثور ثائرته لدى ظهور خصم أصغر سنّاً يتمتع بصحة أفضل في قلب الدَّغل.

استدار متمسكاً بالفكرة، ومستعداً للمرحلة الحاسمة.

"أريد المزيد من السلطة يا أبـي"، قال غير قادر على إخفاء ارتجاف صوته. "لقد طلبتُ منك ذلك من قَبْل، وها أنا أطلبه منك مجدداً. لا يمكنك الاستمرار إلى الأبد. حان الوقت لتبدأ بالتخلي عن زمام الأمور، وأنا مستعد لتولي المسؤولية".

ظهر الغيظ في عيني والده أكثر فأكثر، وتغبّش قناع الأكسجين المطاطي الشفاف بسبب اللهاث.

"أبداً"، قال والده بصوت أجشّ.

"لقد حان الوقت يا أبـي. لقد حان الوقت منذ مدة".

حملق به الرجل العجوز بغضب للحظات، وصدره يتحرك بصعوبة صعوداً ونزولاً. ومن ثم، أنزل قناع الأكسجين ببطء، وبشكل متعمَّد، مثبّتاً نظره على وليام، وجسده الضخم يبدو وراء الطاولة كجُلمود على وشك السقوط. وبدا صوت تكتكة الساعة كما لو أنه يزداد عُمقاً، رافعاً حدة التوتر في القاعة ومضخّماً إياه.

"لن يحين الوقت أبداً!". صاح ناتانيال بارين مزمجراً، ورافعاً يده التي كانت بحجم قفّاز بيسبول، وضارباً بها الصفحة الجلدية للطاولة. "هل تفهمني يا فتى؟ لن تترأس شركة بارين أبداً. ليس الآن، ولا في أي وقت آخر. أنتَ لا تترأسها ولن تترأسها. وكلما سارعتَ في الاعتياد على هذه الفكرة كان الأمر أفضل".

وأعاد القناع إلى وجهه، متنفّساً بصعوبة. لزم وليام الصمت أمامه. كان يعلم على الدوام أن ما يقوم به إضاعة للوقت، وأن والده لن يستسلم أبداً، ولكنه كان بحاجة إلى بلوغ الأمر الذُّروة، والتأكد من أن الطريق الذي يسلكه هو السبيل الوحيد المتوافر له. لقد أراد إرجاء الأمر لتسوية بعض الأمور، ولكن بعد أن أظهر نفسه بمظهر الغبـي في الاجتماع السابق لمجلس الإدارة، شعر بالحاجة إلى إثبات وجوده من خلال المستند، وهذا الاجتماع الذي أراده أن يكون المرحلة النهائية من

سعيه إلى ترؤس الشركة. شعر بالدوار على نحو غريب. *أنت* قوي، *أنت* تسيطر على نفسك. ولزم مكانه للحظات إضافية، مُرغِماً نفسه على صدّ نظرة والده المحدِّقة والغاضبة. بعد ذلك، أومأ برأسه واستدار، وسار إلى الباب وفتحه. وبينما كان يخطو إلى الممر، نظر إلى الوراء.

"لقد ماتت يا أبي"، قال. "ماتت، ذهبت ولن تعود. أنا الوحيد المتبقي الآن. *أنا* من عائلة بارين. ومن الأفضل لك البدء بالاعتياد على هذه الفكرة".

ودوّى صوت والده عبر القاعة في أثناء قيامه بإغلاق الباب.

لقد عبّرتُ عن أفكاري تماماً، تمتم وليام.

خارج الغرفة، اتكأ للحظات على الجدار متنفّساً بصعوبة، ومستجمعاً قواه، ومن ثم عبر رواق المنزل الفخم، ونزل على الدرج الطويل، مروراً بالوجوه الكئيبة لأسلافه. كان ستيفن ينتظر في الأسفل.

"أرجو أن يكون اجتماعك قد سار بشكل جيد يا سيدي".

"أفضل بكثير مما كان متوقَّعاً يا ستيفن. أفضل بكثير مما كان متوقَّعاً".

لم يُبدِ رئيس الخدَم أي رد فعل على ذلك، بل لزم مكانه ووجهه خال من أي تعبير. ألقى وليام نظرة سريعة إلى أعلى الدرج، مفكراً باليوم الذي ستعلَّق فيه صورته هناك، وسيأخذ مكانه بين أشراف عائلة بارين، لا بل على رأس اللائحة. ومن ثم ربّت على كتف ستيفن، وخرج إلى سيارته، وانطلق على الطريق بسرعة. لم يكن قد لمس الكوكايين بعد، لقد حدث كل ذلك بشكل طبيعي.

إسرائيل

في طريق عودته إلى القدس، منطلقاً بأقصى سرعة كي لا يتأخر على موعد لقائه دوف زيسكي، أجرى بن - روي اتصالاً عاجلاً بجورج أسلانيان. أجل، أكد جورج أنه بالإمكان استخدام كلمة فوسغي، وتعني ذهب بالأرمنية، كاسم علم، أو صفة.

"كما لو أننا نقول... ما هو الأمر المماثل في العبرية؟... *شايم* أو *إيلان*. يمكن استخدامهما كاسمَي علَم، أو ككلمتين تعنيان حياة وشجرة. المبدأ نفسه".

لقد ترك هذا الأمرُ بِن - روي في حَيرة من أمره. إذا كانت الكلمة التي خلّفتها ريفكا كلينبرغ وراءها على النشّافة الموجودة على الطاولة في شقتها اسم علَم وليست كلمة تعني ذهباً، فقد تكون شركة بارين/منجم الذهب الروماني إذاً إشارة مضلِّلة تماماً. وإذا كانت بارين إشارة مضلِّلة، فقد تكون ذي *نمِسيس أجندا* إشارة مضلِّلة أيضاً، وستكون نصف أطراف الخيوط التي يسعى وراءها ليست أطراف خيوط البتة ربما. وفي لحظة ذُعر، رأى كل قضيته، أو القليل الذي حققه حتى ذلك الحين، ينحلّ أمام ناظرَيه.

حدث ذلك بسهولة. وفيما كان يفكّر مليّاً بالدليل، وهو يمرّ ببطء أمام مجموعة تلال اليهودة الصخرية القائمة بعد انعطاف الطريق وصعودها، ارتأى أنه لا يزال يتعيّن عليه البحث عن المزيد من الصِّلات - إضافةً إلى كلمة *فوسغي* - لملازمة المسار الصحيح؛ كنسخات عن المقالات التي تتناول استخراج الذهب والتي عثر عليها على طاولة كلينبرغ، والأطلس الذي وُضعت مؤشّرته عند خارطة لرومانيا، ومهندس التعدين البريطاني ذاك الذي سقط في حفرة في مصر (كيف يمكن الربط بينه وبين الأحداث الأخرى؟) لا يزال بحاجة إلى عدد من الصلات ليطمئنّ.

كقاعدة عامة، يكره رجال التحرّي المصادَفات. وفي هذه الحالة، استنتج بِن - روي أنه يتعامل مع مصادَفة غير محتمَلة بالتأكيد، ولكنها مصادَفة بالرغم من كل شيء. لقد أثارت مومِس أرمنية تمّ الاتّجار بها، ويعني اسمها "ذهباً"، اهتمام ريفكا كلينبرغ. وفي الوقت نفسه، أثارت عملية استخراج الذهب التي تديرها شركة بارين اهتمامها؛ إما بسبب أمر ما أخبرتها به تلك المومِس، أو لسبب مختلف تماماً. والتفسير الآخر الوحيد هو أنه يتّبع مساراً خاطئاً تماماً، والصِّلات الأخرى مَحض صُدفة. وإذا كان هناك ما يكرهه التحرّي أكثر من حصول مصادَفة واحدة، فهو مجموعة من المصادَفات.

عندما دخل بِن - روي القدس وسلك الطريق المستديرة في اتجاه المدينة القديمة، كان قد أنهى تقليب الأمور في رأسه، وتأكد من الأساس المتين الذي تقوم عليه تحقيقاته. لم يتقدّم كثيراً، ولكنه لم يتراجع إلى الوراء، وهذا ما حمله على الشعور بالارتياح.

هناك أمر واحد مؤكَّد؛ إنه يستحق بالتأكيد احتساء شراب بارد.

كان مقهى بوتينــز في الطرف الشرقي لشارع يافا، ويمكن رؤيته مـن داخـل المدينة القديمة. فهذه المساحة الطويلة والضيّقة والمقاعد الطويلة على امتـداد الجانـب المقابل، والغرفة الخلفية التي تحتوي على مرقَص وشاشة إسقاط، كانت تُدعى *حقـول*. وقبل أعوام قليلة، أضفى المالكون الجدد على المكان طابعاً روسياً؛ فحصل على اسـم جديد، وديكور جديد، وتشكيلة جديدة من الشراب والمعنويات. وبالرغم من إصلاح المظهر الخارجي، لم يستطع المكان التخلص من سوء السمعة التي اكتسبها مـن قَبْـل، ومن قلّة الزبائن أيضاً. فطوال سنوات ارتياده هذا المقهى، لم يجد بن - روي المكـان مليئاً بالكامل ولو لمرة واحدة، بل بشكل جزئي. وعندما دخله هذه الليلة - بعد خمس عشرة دقيقة - كان هناك فقط ستة أشخاص: امرأة جذّابة متوسطة العمر جالسة على كرسي بدون ظَهر وتتبادل أطراف الحديث مع النادل، وامرأتان أصغر سنّاً على أحـد المقاعد، ودوف زيسكي ورجل مفتول العضلات، أسمر البشرة، يرتدي تي - شـيرت بيضاء ضيّقة ويضع على أنفه حبة ألماسية، يجلسان على مقعد آخر. اشترى بِن - روي لنفسه زجاجة شراب وانــزلق على المقعد بجانبهما.

"جويل ريغيف"، قال زيسكي، معرّفاً برفيقه. "إنه صديقي الخبير في شـؤون الكمبيوتر. أراد القدوم والتحدث إليك مباشَرةً".

صافح بن - روي الرجلَ الذي يبدو ملمّاً بكمال الأجسام وبعيداً جداً عـن كونه شخصاً مُلِمّاً بالكمبيوتر. كان وزيسكي يحملان زجاجتي شراب، ويجلسـان بجانب بعضهما متلاصقين تقريباً.

"أخبرني دوف أنك تعمل في أمن شبكات الكمبيوتر"، استهلّ بِـن - روي كلامه، متناولاً جرعة كبيرة من زجاجة الشراب.

فأومأ جويل برأسه وارتشف القليل من زجاجته. كانت عضلته ذات الرأسين ضخمة، والعضلة على ذراعه اليسرى مزيَّنة بوشم خِنجر مع وردة ملتفّة عليه.

"نحن نقدّم النُّصح للشركات حول كيفية حماية شبكات الكمبيوتر لديهم من تطفّل غير مُدرِك، أو تسلّل؛ ذلك النوع من الأمور. ونقوم أيضاً ببعض الأعمـال لأجل الخبراء الجنائيين. وفي الوقت الحاضر، نحن نقوم بتقديم النُّصح للبارد الروسي في قضية احتيال عبر شبكات الكمبيوتر".

كان صوته منخفضاً وذُكورياً، على عكس تشدّق زيسكي المخنَّث. ووجد بِن - روي نفسه يحدّق بالاثنَين، متسائلاً عن طبيعة علاقتهما، هذا إذا كانت هناك صداقة بينهما فعلاً. ومن الجهة المقابلة للطاولة، أطلق زيسكي ابتسامة خفيفة يكاد المرء لا يلاحظها كما لو أنه يقرأ أفكاره ويبدو مسروراً بها. تناول بن - روي جرعة أخرى من زجاجة شرابه - ممتعة، باردة، ومنعشة - وتظاهر بأنه يركز انتباهه على ريغيف.

"قال دوف إنك تعرف أمراً ما عن مجموعة تدعى *ذي نمِسيس أجندا*".

"القليل"، أجاب ريغيف. "ما عرفتُه عرفتُه من أشخاص يزوّدونني بمعلومات خاصة، ومن الإنترنت. ففي الواقع، نحن نقوم بتقديم بعض النُّصح لأحد الذين وقعوا ضحيّة لأعمال هذه المجموعة منذ ستة أشهر، وهو مسؤول مهمّ في بئر سبع. لقد تسللت نمِسيس إلى نظامهم، وزرعت فيه فيروساً أفسد كلَّ سواقة صلبة في شبكتهم، وأوقفت أعمالهم معظم الشهر".

وألقى نظرة سريعة على زيسكي، ناقراً فوهة الزجاجة بإبهامه.

"لا يُفترض بي ربما قول ذلك، ولكنني لم أستطع تمالك نفسي في ما مضى عن تمنّي الحظ السعيد لهذه المجموعة. فوفقاً لموقع نمِسيس على الإنترنت، ترتبط الشركة بأعمال مع بعض الأنظمة البغيضة، مزوّدةً إيّاها بألغام أرضية، وأنظمة لإدارة الاستجواب...".

ورفع يدَيه ورسم في الهواء علامات اقتباس.

"... أي، أجهزة تعذيب. لا يمكنني القول إنني شعرت بالارتياح في أثناء مساعدتي إياها لاستعادة نظامها وملفّاتها. ولكن، ما الذي أعرفه؟ لست سوى مهووس بالكمبيوتر".

وشعر بِن - روي بحركة تحت الطاولة. ربما كان زيسكي يربّت على فخذ صديقه لطمأنته. لم يكن باستطاعته التأكد، ولم يحاول النظر؛ عِلماً أنه التقط ملامح لَهوٍ على وجه زيسكي.

"أعددتُ نسخات عن بعض المواضيع على الإنترنت التي قد تكون مفيدة"، أضاف ريغيف، "هناك مقالتان، وأطراف خيوط قليلة من غرفة المحادَثة...".

ووكز زيسكي الذي سلّم بِن - روي مغلف مانيلا.

"... ولكن بصدق، معظم المعلومات مجرد افتراض. الوقائع التي لا سبيل لإنكارها المتعلقة *بأجندا* قليلة جداً على أرض الواقع. وهذا ما يجعل هذه المجموعة مثيرة للاهتمام جداً. فلا أحد يعرف في الواقع أي شيء عنها. فهي ليست مثل ويكيليكس مثلاً، من ناحية المعلومات العامة. فالأشخاص الذين يديرون نِمِسيس ظلال وغير مرئيين البتة".

فتح بِن - روي المغلف، وقلّب مجموعة الورق داخله بسرعة.

"إذاً، ما الذي نعرفه؟".

"حسناً، إنهم بارعون"، قال ريغيف. "باستطاعتك البدء من هنا. تحاول السلطات كشف النقاب عنهم منذ سنوات - نحن نتحدث عن أفضل المُبدِعين في ميدان شبكات الكمبيوتر - ولكن *أجندا* تمكنت على الدوام من التقدّم على الآخرين خطوة إلى الأمام. وطرف الخيط الوحيد المتوافر هو موقعها على الإنترنت، وقد برهن أعضاؤها عن ذكاء خارق بإبقاء هذا الموقع بعيداً عن متناول الآخرين. إنهم يستخدمون أجهزة كمبيوتر مساعِدة لا يمكن تحديد موقعها، ولم يتمكن أحد حتى الآن من الاقتراب منها. يبدو أنهم يستخدمون أيضاً تكنولوجيا متطورة جداً تساعد على إخفاء هويّتهم...".

ولاحظ النظرة المُربَكة على وجه بِن - روي فضحك قائلاً:

"تجاهل كل ذلك"، قال ملوّحاً بيده. "كل ما تحتاج إلى معرفته في الواقع هو أنه لم يتمكن أحد قطّ من إغلاق موقع نِمِسيس، ولم يتمكن أحد من الوصول إلى الأشخاص الداعمين للموقع الذين يسيّرونه في الواقع. فأولئك الأشخاص يُجيدون استخدام التكنولوجيا".

"وهل يستهدفون الشركات متعددة الجنسيات، والأعمال الكبيرة؟".

فأومأ ريغيف برأسه.

"ولا سيما الشركات متعددة الجنسيات المتورطة بصفقات مشبوهة"، قال. "كاستغلال العالم الثالث، والتلويث غير القانوني، والإهمال العام، والمنظمات ذات الأهداف السرّية أساساً. تقوم نِمِسيس بالبحث عن الدليل ونشره على الإنترنت، فيجده الجمهور، والصحافة... ثِق بي، هذا الأمر يسبب مشاكل جمّة للكثير من الشركات؛ مشاكل كبيرة".

إنه تصوّر مماثل إلى حدّ بعيد للتصوّر الذي قدّمه له موردخاي يارون في وقت مبكّر من ذلك اليوم.

"لديهم خلايا مختلفة في بلدان مختلفة كما يبدو"، قال بن - روي.

"إنها إحدى النظريات"، سلّم ريغيف، "عِلماً أن أحداً لم يتمكن حتى الآن من إثبات ذلك بشكل حاسم وفقاً لمعلوماتي. نحن على ثقة تامة بأنهم انطلقوا من الولايات المتحدة؛ فهناك مؤشرات تكنولوجية صغيرة ومعقّدة بعض الشيء توحي بأنه واقع الحال. لن أُضجرك بكل التفاصيل، هناك بعض المعلومات عن ذلك هنا".

وربّت على المغلف.

"ويبدو أن هناك صِلة إسرائيلية"، تابع. "إذ يدّعي العديد من الأشخاص الذين استهدفتهم المجموعة أن أفراد المجموعة يستخدمون كلمات عبريّة، ويبدو أن هناك عدداً غير متناسب من الأحداث على الأرض الإسرائيلية. الأمر ليس نهائياً، ولكنه يوحي بحضورٍ لهم هنا سواء أكانوا خليّة، أم جماعة منشقّة. أو إن المجموعة الأصلية قد انتقلت إلى مكان آخر ببساطة...".

وهز كتفَيه.

"لا يمكننا معرفة ذلك، أو ما إذا كان هناك أشخاص متضامنون معهم في بلدان أخرى. هناك بريد إلكتروني في موقعهم على الإنترنت - ضمن العديد من العناوين الوهمية المختلفة على العديد من الأجهزة المساعِدة التي لا يمكن اقتفاء أثرها بشكل فعّال - مما يوحي بأن بعض معلوماتهم على الأقل مبنيّة على تلميحات أشخاص مطّلعين على شؤون المؤسسات. ونشر كل شيء على موقع واحد على الإنترنت يوحي بوجود بنية مركزية منظَّمة. ولكن، كيف يتم تنظيمها؟ ومن ينظّمها؟ وكم شخصاً ينتمي إليها؟ وأين يقع مقرّهم؟ كلّ ذلك غير معروف".

وهزّ كتفَيه مجدداً، واحتسى ما تبقى من شراب. فسأله بن - روي عما إذا كان بإمكانه أن يطلب له زجاجة أخرى، ولكن ريغيف وضع يده على فوهة زجاجته، على غرار زيسكي. وفي الناحية الخلفية للغرفة، سُمعت الثرثرة المنخفضة لمعلّق رياضي على مباراة هامة في كرة القدم في حيفا بين فريقَي ماكابي وهابويل. كان بن - روي من مناصري ماكابي ويتمنى حضور المباراة، ولكنه غضّ الطَّرْف عن المباراة وركز على النقاش الجاري.

"كنت أتحدث إلى أحدهم هذا الصباح، وأقول إن أعضاء نِمِسيس هؤلاء ليسوا متسلّلين إلى ملفات الكمبيوتر فقط. إذ يبدو أنهم يقتحمون مكاتب الشركات ويدخلونها، مستخدمين أسلحة وعنفاً جسدياً. يمكن وصفهم بأنهم أشبه بالموساد منهم بنافخي الصفّارات".

وابتسم ريغيف.

"ربما هناك القليل من المبالَغة. إذ لا يبدو الأمر كما لو أنهم يطوفون الأرجاء بحثاً عن أشخاص لاغتيالهم. على الأقل، لم أسمع بهذا الأمر مطلقاً. ولكن، أجل. إنهم عديمو الشفقة، وعنيفون أيضاً عندما يكونون في مِزاج سيّئ. ومن هذا المنطلَق، رفعوا الرهان قَطعاً في السنوات القليلة الماضية".

ضيّق بِن - روي عينَيه.

"ماذا تعني؟".

"حسناً، عندما ظهروا على مسرح الأحداث للمرة الأولى قبل ست سنوات أو سبع، كانوا يتسللون إلى ملفات الكمبيوتر فقط، ويشنّون هجمات فيروسية من حين لآخر، مستهدفين شبكات الكمبيوتر في المقام الأول. ولكنهم أشعلوا النار بعد ذلك... قبل ثلاث أو أربع سنوات تقريباً كما أعتقد... في مكتب في تل - أبيب تابع لشركة كبيرة متعددة الجنسيات؛ وكانت تلك هي المرة الأولى التي يقومون فيها بأمر مماثل. في الواقع، لم يُصب أحد بأذى ولكنها انطلاقة كبيرة. ومنذاك الحين، أصبحت تكتيكاتهم أكثر... مُجابَهة: دخول بالقوة، أعمال تخريبية، خطف مديرين تنفيذيين وإرغامهم على القيام باعترافات مصوَّرة. هناك مشهد مُريع على أحد مواقعهم على الإنترنت في الوقت الحاضر: رجل فرنسيّ تورّطت شركته في صفقات مشبوهة في الكونغو. لقد ظهر على الموقع قبل أربع وعشرين ساعة، وهناك احتجاج شعبي كما يبدو خارج المقر الرئيس للشركة في باريس، ولقد تعرّضت شبكة تلك الشركة الكمبيوترية إلى عدد من الهجمات. هذا هو نوع التأثير الذي تعتمده *أجندا*".

وأسند جويل ظهره، وشبك ذراعَيه، مُلقياً نظرة سريعة على المقعد المجاور حيث كانت المرأتان قد انفجرتا ضحكاً. ولزم الصمت للحظات، ومن ثم نظر إلى بِن - روي مجدداً وهو يقول:

"من المثير للدهشة أن يتصادف تغيّر التكتيكات مع ظهور خليّة إسـرائيلية؛ جماعة منشقّة، فصيل، سمّها ما شئت. يبدو أنّ هذه الجماعة وراء معظم الأحداث، هذا إذا لم تكن وراء كل أعمال العنف المباشَرة، وأعضاء هذه الجماعة هـم مـن غيّروا نِمِسيس من كونها منظمة تستهدف شبكات الكمبيوتر فقط لتصبح شيئاً ما أشبه بمجموعة من المقاتلين الذين يشنون حرب عصابات، أو مقـاتلين إرهـابيين؛ استناداً إلى وجهة نظرك".

"هل لديك أي فكرة عن سبب التغيير؟".

كان ذلك السؤال أول إسهام لزيسكي في النقاش.

"لا أحد يعرف بالتأكيد"، أجاب ريغيف، "عِلماً أنه يتم تبادل أطراف الحديث حول ذلك بشكل مكثّف على الإنترنت. هناك نسخات عن هذا الموضوع".

وربّت على المغلّف مجدداً.

"معظم الآراء متّفقة كما يبدو على وجود أشخاص داخل نِمِسيس يريـدون اعتماد مقارَبة أكثر تشدداً، فانتقلوا إلى إسرائيل لأسباب لا يعرفها أحد سـواهم للقيام بذلك. لقد أخفوا نواياهم داخل نِمِسيس، واستمروا بنشر مواد في مـوقعهم على الإنترنت، ولكنهم واصلوا - في الوقت نفسه - تنفيذ *أجندتهم* الـتي تحمـل طابعاً قتالياً أكبر. إنها *أجندا* من نوع ما تنفَّذ بالتزامن مع الأجنـدا الرئيسـة، إذا شئت. يبدو هذا التفسير منطقياً بالتأكيد أكثر من فكرة كونها مـؤامرة يعتبرهـا واضعو النظريات مكيدة مُتقَنة لتشويه سمعة نِمِسيس حاكتها الأجهزة الأمنية مـع شركات متآمرة متعددة الجنسيات، أو إن هذه الأخيرة قامت بهذا العمل بمفردهـا. في الواقع، لا أجد هذه الفرضية محتمَلة أبداً".

سمعوا نوبة ضحك أخرى صادرة من المقعد المجاور. وفي الناحية الخلفية للغرفة، ازداد نشاط المعلّق الرياضي، وانطلقت صرخات ابتهاج فجائية بسبب تسجيل أحد الفريقَين هدفاً كما هو مفترَض. فرفع بن - روي رأسه، محاولاً معرفة الفريق المسجِّل للهدف. إنه فريق هابويل. تبّاً. أصغى للحظات، ومن ثم حوّل انتباهه.

"هذه المجموعة الإسرائيلية"، قال مركزاً انتباهه على ريغيف "ألم تصادف مـا يشير إلى ارتباطها بميتزبـي رامون؟".

فهز ريغيف رأسه.

"قال لي دوف إنك تظن أن هناك رابطاً. لو كان هناك رابط ما لَسمعتُ عنه بالتأكيد".

ونقر على فوّهة زجاجة الشراب.

"بالرغم من وجود رابط *بالفعل* مع شركة تدعى بارين. قال دوف إنك مهتمّ بها أيضاً".

بدّل بِن - روي جلسته، وانحنى نحو الأمام.

"أي نوع من الروابط؟".

"حسناً، هناك كما يبدو ما يشير إلى وجود رابط ما بين نمِسيس وبارين"، قال ريغيف، "أو رابط *مُعادٍ*. قمتُ بدراسة سريعة... انتظر...".

وفتح المغلف وقلّب محتوياته، وسحب ورقة أيه4.

"في هذه الورقة تظهر كل استهدافات نمِسيس لبارين، أو على الأقل الاستهدافات المبلَّغ عنها. كما ترى، هناك القليل منها، ولكنها استهدافات تعرّضت لها أكثر من أي شركة أخرى كما اكتشفتُ حتى الآن".

حدّق بِن - روي بالورقة، وعدّ تسعة عشر استهدافاً منفصلاً على امتداد سبع سنوات.

"إنها أولى الشركات التي هاجمت نمِسيس شبكاتِها الكمبيوترية"، أضاف ريغيف، "ويبدو أنها تستهدفها من حين لآخر مذاك الحين، ولا سيما في السنوات القليلة الماضية منذ ظهور المجموعة الإسرائيلية على مسرح الأحداث. ذلك التفجير الذي أخبرتك أنه حدث في تل - أبيب، كان المرة الأولى التي تلجأ فيها نمِسيس إلى العنف...".

"أحصل ذلك مع شركة بارين؟".

فأومأ ريغيف برأسه.

"لقد اقتحموا مكاتبها، وعطّلوا جهازَين من أجهزتها... يبدو الأمر كما لو أن هناك عداءً مستحكماً بينهما؛ إنه أمر جليّ".

"هل لديك أي فكرة عن السبب؟" سأل زيسكي.

"مجدداً، تطرح غرف المحادَثة تخميناً مؤاتياً حول الموضوع"، أجاب ريغيف. "موظف ساخط ينقل لشركة منافسة متعددة الجنسيات معلومات عن حظه العاثر

مع بارين، فتستغله هذه الشركة لإضعاف بارين. أيٌّ من ذلك لا يتطابق مع الواقع. وفقاً لظنّي - وهو مجرد ظنّ - لم تتمكن نِمسيس من الاتفاق مع بارين، وأسوأ ما تم التوصل إليه عنها هو بعض الإخفاقات في أجهزة السلامة الصحية في إحدى عمليات الشركة في أستراليا. كان إخفاقاً غير ذي أهمية، ولكن بارين أفلتت من العقوبة كما يبدو، ولم تغفر لها نِمسيس مطلقاً. لقد اعتبر الأمر إهانة شخصية".

وهز كتفَيه.

"مرة أخرى، ربما أنطق بالهراء تماماً. فكما قلتُ؛ في ما يتعلق بنمِسيس أجندا، هناك الكثير من النظريات، ولكن لا توجد أدلّة دامغة. وبالرغم مما نملكه من معلومات، قد يثبت في النهاية أن العملية برمّتها تديرها مجموعة من المرّيخيين".

ابتسم بِن - روي، وأمال ريغيف رأسه وتمتم شيئاً ما لزيسكي لم يتمكن بِن - روي من معرفته، ومن ثم ألقى نظرة سريعة على ساعته، وهي ساعة كبيرة فضية من طراز تاغ هورِر تبدو أقرب إلى لوحة أجهزة قياس في طائرة منها إلى ساعة.

"يُفترض بي الانصراف"، قال.

"هل أنت متأكد من أنك لا تريد زجاجة أخرى؟".

"من الأفضل لي عدم احتساء المزيد. يتعيّن عليّ الشروع بالعمل باكراً يوم غد".

وضغط على كتف زيسكي ووقف. انزلق بِن - روي خارج المقعد ليسمح له بالمرور. وتصافح الاثنان.

"سأستعلم عن بعض الأمور"، قال ريغيف، "وسأُبلغ دوف بالمستجدات".

"أقدّر لك ذلك"، قال بِن - روي. "وشكراً للنسخات".

فلوّح ريغيف بيده، وهمّ بالاستدارة، ولكنه التفت مجدداً قائلاً:

"اسمع، الأمر لا يعنيني، ولكن دوف ذكر أن للأمر علاقة بالمرأة التي قتلت في دار العبادة الكبرى. لا تقلق، لم يزوّدني بأي تفاصيل...".

فهزّ بِن - روي رأسه ليُظهر له أنه لا يُبالي في الواقع إذا كان زيسكي قد ذكر له ذلك.

"بالرغم من كل شيء، لا يمكنني أن أتصوّر أنه بإمكان نِمِسيس التورط في أمر مماثل. أنا لا أتغاضى عن أساليبها، ولكن أعضاءها لم يستهدفوا أحداً حتى الآن لا...".

"يستحق ذلك؟".

فهز ريغيف كتفَيه.

"أعتقد أن لديهم تاريخاً واضحاً في حلّ مشاكلهم بوسائل قانونية، وقتلُ الصحافيات لا يتلاءم مع سيرتهم المِهنية. إنه مجرد رأي، فكما قلتُ، أنا خبير في شؤون الكمبيوتر، فما الذي أعرفه؟ فكرتُ بذِكر الأمر ليس إلا. لا تُبقِه في الخارج حتى وقت متأخر جداً. فهو بحاجة إلى النوم".

وغمز زيسكي، ثم أومأ برأسه لبِن - روي، وغادر.

اشترى بِن - روي زجاجتي شراب له ولزيسكي.

"إنه شخص لطيف"، قال منزلقاً فوق المقعد، ومسلّماً زيسكي زجاجة الشراب التي كان قد طلبها.

"إنه كذلك بالتأكيد"، أقرّ زيسكي وهو يأخذ زجاجة الشراب ويفسح المكان لبِن - روي للجلوس.

"إنه لطيف حقاً".

لم يُبدِ زيسكي أي رد فعل حيال ذلك، بل ارتشف شرابه، وأطلق ابتسامة جزئية أخرى من ابتساماته المُدرِكة. فكّر بِن - روي بالتوسع في الحديث في محاولة لاكتشاف المزيد، ولكن في هذه الحالة، لم يبدُ الأمر مناسباً، وتناول عوضاً عن ذلك جرعة من الشراب، وزوّده بتفاصيل عن فوسغي، فاختفت ابتسامة الشاب وهو يقول:

"آسف، كان يُفترض بي...".

فلوّح بِن - روي بيده.

"إنه أمر يحدث. لو كنت أتقاضى شيكِلاً كلما أمسكتُ بالطرف الخاطئ للعصا، لبات لديّ من الشيكِلات ما يكفي...".

"لشراء عصا أفضل؟".

فابتسم بِن - روي، وبسط ذراعه على أعلى المقعد. كان مُتعَباً عندما وصل إلى المطعم، ولكن الشراب جدّد نشاطه.

"قلتَ إنك عثرت على بعض المعلومات المتعلقة ببارين؟".

قدّم له زيسكي مغلفاً ثانياً. كان منتفخاً بالأوراق. ليست هذه هي المرة الأولى التي يُضطر فيها بِن - روي لرفع قبّعته إجلالاً لفعّالية هذا الشاب.

"أخشى ألا يكون لديّ الوقت الكافي لتقديم تقرير كامل"، قال زيسكي ساحباً من المغلف مجموعة من أوراق التي سلّمه إيّاها وهو يتابع: "أجريتُ بعض الاستقصاءات التي ربما تكون مساعِدة".

إنه إنجاز هام آخر. وألقى بِن - روي نظرة سريعة على الورقة.

"هل تريد تزويدي بأبرز النقاط؟".

"حسناً، الشركة كبيرة. رأسمالها خمسون بليون دولار، لديها مكاتب في مختلف أنحاء العالم، وعدة عشرات من الشركات التابعة. تتراوح اهتماماتها بين التنقيب عن النفط، واستخراج الذهب، والوقود الحيوي. إنها متكتمة أيضاً ولا ترحّب بالصحافة. يدعى رئيسها ناتانيال بارين...".

ودسّ يده داخل المغلّف وأخرج صورة لرجل متجهّم، ومُلتَحٍ، وجسيم، يرتدي بذلة تويد.

"إنه رئيس مجلس الإدارة منذ أربعين عاماً. وهو شخص غريب الأطوار قليلاً، ولكنه ليس بصحة جيدة الآن كما يبدو. من الواضح أن ابنه مُهمِل".

وأخرج صورة أخرى لشاب أصغر سنّاً، أشقر الشعر، وسيم، وفمه متغضّن كما لو أنه يبتسم.

"واجه الابن بعض المتاعب مع القانون: مخدرات، تهجُّم، ويُقال إنه حاول خنق مومِس منذ سنوات قليلة. تعيّن على والده ممارسة نفوذه لإنقاذه من العقاب. كل شيء موجود هنا في الداخل".

لقد وضع زيسكي إصبعه على إحدى النقاط الهامة.

"هل هناك أي شيء عن المنجم الروماني ذاك؟".

"تُديره شركة بارين من دون كتمان الأمر منذ العام 2005، ولم يحدث أي خلاف. ولديها علاقات جيدة مع الحكومة الرومانية، والمجتمع المحلي، وجماعة الضغط الخضراء؛ يبدو أنه تم التوصل إلى اتفاق مع الشركة لإعادة تدوير أسوأ النفايات في الولايات المتحدة، مما يعني أن بارين لم تواجه أي متاعب عادية مع المجموعات البيئية. الكل سعيد".

ارتشف بِن – روي القليل من الشراب. مرةً أخرى، تبادرت الفكرة إلى ذهنه: ربما فهمتُ الأمر خطأً. ربما يُراد بكل هذه المظاهر صَرف الانتباه عن أمور مبيَّتة.

"لفتَني أمران"، أضاف زيسكي.

"تابع".

"الأمر الأول هو وجود صلة كبيرة بإسرائيل. لدى بارين مصالح في مختلف أنحاء البلد: أسهم في منجم بوتاس في البحر الميت، حقل غاز قُبالة الشاطئ في حيفا، عملية كبيرة لتقطيع الألماس في تل – أبيب. ولديها نفوذ سياسي أيضاً. تحدثتُ إلى صديقك في هآريتس، وأخبرني بأن بارين متبرّعة رئيسة لكاديما، والليكود، و*إسرائيل بيتنا*؛ مما يمنحها نفوذاً كبيراً. لقد وصفها بقوله إنها *إحدى الشركات التي لا يجوز المساس بها*".

ألقى نظرة سريعة على مجموعة من الشبان الذين دخلوا المقهى، ضاحكين ومتبادلين أطراف الحديث. لقد انتشروا في المكان، وبدأوا بطلب الطعام.

"هناك ناحية شخصية أيضاً"، أضاف ملتفتاً إلى بِن – روي. "يبدو أن زوجة ناتانيال بارين كانت إسرائيلية. وقد توفيت قبل سنوات قليلة. لقد صدمتها سيارة. لم يتمكن من تخطّي الأمر مطلقاً، كما يبدو".

ارتشف بِن – روي القليل من الشراب وهو يفكّر مليّاً، محاولاً مرة أخرى اكتشاف رابط بين كل ذلك ومقتل كلينبرغ، ومُخفِقاً مجدداً في التوصل إلى أي تفسير جليّ. قربهما، كانت المرأة الجذابة متوسطة العمر قد استدارت قليلاً على كرسيّها، مقيِّمةً الوافدين الجدد؛ إنها تبحث عن فريسة محتمَلة. وابتسم لها أحد الرجال، وكان ذا وجه مبقّع وشاحب، ورفع يده محيِّياً. راقب بِن – روي للحظات، مسروراً بالمشهد، ومن ثم سأل:

""ما كان الأمر الآخر؟".

"عفواً؟".

كان زيسكي أيضاً يراقب ما يحصل.

"قلتَ إن هناك أمرَين لفتا انتباهك".

"صحيح، أجل. حسناً، إقامة بارين صلة بمصر أيضاً. فوفقاً لصديقك، لقد سعت الشركة على مدى السنوات إلى إقامة روابط عملية وسياسية وثيقة في مصر.

ولديها مكتب في القاهرة، ومصالح في عدة عمليات تعدين. يبدو أنها تسعى في الوقت الحاضر للحصول على حقوق في حقل غاز كبير في الصحراء. من الواضح أن هذه الصفقة ستكون من أكبر الصفقات التي أجرتها يوماً إذا نجحت مساعيها؛ إنها الصفقة *الكبرى*. يبدو أن ناتانيال بارين هذا يراهن على سمعته بهذه الصفقة".

كان الرجال قد حصلوا على مشروباتهم، وشرعوا بالتجمّع في الناحية الخلفية للغرفة لمشاهدة مباراة كرة القدم بانتظار الطعام. وقال الرجل مبقّع الوجه شيئاً ما للمرأة متوسطة العمر، ولكنها هزت كتفَيها وأدارت له ظهرها غير مهتمَّة. فشعر بِن - روي بالأسف عليه. لقد مرّ بالوضع نفسه عندما كان في تلك السنّ.

"ألم تصادف أي معلومات حول الاتّجار بالجنس؟ هل صادفتَها؟" سأل.

"ماذا؟ أتقصد كما لو أن بارين متورّطة في ذلك؟".

لقد أجابت لهجة زيسكي عن السؤال إلى حد كبير. فأيّاً تكن المسائل التي تورطت فيها بارين، فمن غير المحتمَل أن يكون البِغاء غير المشروع إحدى هذه المسائل. وتناول بِن - روي جرعة أخرى.

"ماذا عن رجل يدعى ساموييل بينسكر؟".

فبدا زيسكي كما لو أنه عرف الاسم.

"ذكّرني به".

"إنه مهندس بريطاني في التعدين. سقط في حفرة في الأُقصُر. كانت كلينبرغ تقرأ عنه في إحدى تلك المقالات التي أخبرتك عنها".

"صحيح. لا، لم أصادف اسمه".

وحرّك نصف السنتمتر الأخير من الشراب في أسفل زجاجته بشكل دائري.

"ولكن، صادفت ما له علاقة بالأُقصُر".

فبدّل بِن - روي جلسته وانحنى نحو الأمام، وأومأ لزيسكي طالباً منه إخباره المزيد.

"حسناً، يبدو أن بارين كانت تضخّ الكثير من المال إلى البلد مؤخراً، مموِّلةً عدداً قليلاً من المشاريع الاجتماعية. كل ذلك مرتبط بعرض الأسعار المتعلق بحقل الغاز الصحراوي ذاك الذي ذكرتُه".

"أتقصد رشوة؟".

"وصف صديقك ناتان تيرات ذلك بقوله *تعزيز السيرة المهنية*، ولكنني أعتقد أننا سنصل إلى الاستنتاج نفسه. بأي حال، أحد المشاريع عبارة عن إنشاء متحف كبير في الأُقصُر، في وادي الملوك تحديداً، وتحمّلت بارين التكلفة الكاملة وأنفقت بضعة ملايين عليه. يبدو أن ناتانيال بارين سيحضر الافتتاح بنفسه. أعتقد أن هناك علاقة من نوع ما؛ عِلماً أنه لا يمكنني رؤية الصِّلة بالتحديد".

وهز كتفيه ثم حرّك زجاجة الشراب بشكل دائري، وبعد ذلك تركها. وقام بن - روي بالأمر نفسه. في الناحية الخلفية من الغرفة، كان الرجال قد شرعوا بإنشاد نشيد مؤيّدي الغرين إيبس بنشاز؛ ولكنهم يؤيّدون الفريق الصحيح على الأقل. ووقفت الفتاتان اللتان كانتا تجلسان إلى الطاولة المجاورة وغادرنَ، وهنّ لا يزلنَ يقهقهنَ. وبعد لحظات، قامت المرأة الجذابة متوسطة العمر بالمِثل، تاركةً إيّاهما والنادل في الغرفة الأمامية.

"هل هناك أمر آخر؟" سأل زيسكي.

فألقى بِن - روي نظرة سريعة على ساعته - العاشرة إلا بضع دقائق - وهز رأسه.

"أعتقد أن هذا يكفي لليلة واحدة. باستطاعتنا مواصلة الحديث غداً بمزيد من التفاصيل. فكما قال صديقك، شاب مثلك بحاجة إلى النوم".

رمقه زيسكي بنظرة ساخرة، ولكنه لم يجادله، ثم انزلق على المقعد، ونهض وارتدى سترته.

"جولة الشراب التالية على حسابي".

"سأُلزمك بذلك. وشكراً لك على المدوّنات. إنه عمل رائع".

فتلألأت عينا زيسكي كما لو أنه سُرّ بالتعليق. ولكنه لم يقل شيئاً، بل أومأ برأسه فقط، وأدّى له التحية، وهمّ بالمغادرة.

"أبلغ جويل تحيّاتي"، نادى بِن - روي.

فتلقّى إشارة بالإصبع ردّاً على ذلك؛ مما جعله متجهّم الوجه. الشاب يُبلي بلاءً حسناً، وسيصبح فرداً من الفريق.

بعد مغادرته، غيّر بِن - روي رأيه واشترى لنفسه شراباً يُؤخذ قبل النوم مع مكعّبات ثلج. ورفع رأسه في اتجاه الناحية الخلفية للغرفة للتحقق من نتيجة

الأهداف في مباراة كرة القدم، ثم أسند ظهره ووجّه رسالة نصّية لسارة، متمنياً لها وللطفل ليلة سعيدة. فتلقى رسالة جوابية على الفور تمنّت له فيها زوجته الأمر نفسه، تلتها رسالة جوابية ثانية موجَّهة "لوالدي" وموقَّعة بكلمة بوبوكس. فابتسم مُلقياً نظرة سريعة على النادل للتحقق من أنه لا يراقبه، ثم رفع الهاتف المحمول إلى شفتَيه وقبّله.

"وتعتقد أن زيسكي غير سويّ؟!"، تمتم لنفسه وهو يعيد الهاتف إلى جَيبه ممدّداً ساقَيه. "أَضف كلمة واحدة في غير محلّها فتتحوّل إلى مارْش مِلُو لعينة!".

ضحك وهو يرتشف جرعة من شرابه ثمّ يحرّك الكأس على أعلى الطاولة بشكل دائري، محدّقاً بشرودِ ذهنٍ بصورة مؤطَّرة ومعلَّقة على الجدار تعود للعهد السوفياتي وتروّج للسجائر. وانطلقت موسيقى معزوفة دِير سترِيْتس، براذرز إين أرمس في الأرجاء. وشقّت المقدمة الموسيقية المعزوفة على الغيتار طريقها عبر الغرفة بشكل متلوٍّ كضباب خفيف منجرف. فأمسكت أفكارُه بالإيقاع وانساقت معه، طافيةً نحو سارة والطفل أولاً، ومن ثم نحو الرجل مبقّع الوجه الذي كان يحاول مسامَرة المرأة، ونحو زيسكي وريغيف، وأخيراً نحو القضية؛ وهذا أمر حتمي.

كانت نهاية اليوم أفضل وقت للتفكير بالنسبة إليه؛ عندما يكفّ عن التنقل، ويُفرغ رأسه من أعباء النهار، ويسمح لعقله بالذهاب إلى حيث يشاء من دون التركيز على أمر محدَّد، بل يدَع أفكاره تنساب شاقّةً طريقها بشكل عشوائي عبر كل ما اكتشفه هذه الليلة، وهذا اليوم، وفي اليومَين الأخيرَين، ليرى إلى أين ستوصله.

لقد أودت به مراراً وتكراراً إلى مظهرَين خاصَّين للتحقيق، كما لو أنه زائر منجذب على الدوام للصور نفسها.

الفتاة ماريا/فوسغي. هي التي تلتقي عندها كل أطراف الخيوط، ولا شك في ذلك البتة. ومصر أيضاً. إنها المكان الذي تلتقي عنده كل أطراف الخيوط، ولا شك في ذلك أيضاً. بارين، ونِمسيس، وبينسكر، ورحلة كلينبرغ الجوّية إلى الإسكندرية، وطريق سيناء التي يستخدمها المتّجرون بالجنس؛ كل أطراف الخيوط تبدو متقاطعة مع مصر في نقطة ما، وكل الطرقات تؤدي إلى هناك كما يبدو. ففي مصر سنجد الإجابات، وربما *الجواب*.

احتسى جرعة أخرى من شرابه، ثم نقل بصره من الصورة إلى النادل، متتبّعاً إيّاه في أثناء تنقّله بين المناضد؛ ماسحاً البُقَع بخفة بواسطة رقعة جيه - كلوث. التقت أنظارهما، فأشار له الرجل بيده سائلاً إياه إذا كان يريد المزيد من الشراب. فرفع بِن - روي يده شاكراً، وهز رأسه. وصدرت من الناحية الخلفية صيحة عالية تلتها نوبة ضحك صاخب.

مصر، هناك بعض الأمور التي ينبغي له متابعتها بنفسه، وإلا كان سيوكل هذه المهمة إلى زيسكي. وهناك اتصالات يمكن إجراؤها، ومعلومات يمكن جمعها. ولكن باستطاعتكم القيام بالكثير من الأمور عبر الهاتف، وإرسال بريد إلكتروني عبر الإنترنت. ولكنّ ما تحتاج إليه القضية حقاً هو ملاحقة بعض الأمور على الأرض من خلال شخص يعرف البلد ولغته. هذا يعني التقدم بطلب في مقر قيادة الشرطة الوطنية في الشيخ جرّاح بهدف الحصول على ترخيص رسمي يسمح له بإجراء معاملات مع السلطات الأجنبية؛ ولا سيما مع السلطات العربية. قد يتطلّب الحصول على ترخيص رسمي أياماً، لا بل الكثير من الأيام؛ مع الأخذ بعين الاعتبار بطء بيروقراطية الشرطة الوطنية. سيقصدهم في بادئ الأمر، ويدير عجلة الأمور. ولكن، بدا له في ذلك الحين أنه يتعيّن عليه إرجاء موضوع مصر بالرغم من أهميته الجليّة.

تنهّد فيما كان يرفع كأس الشراب لتناول ما تبقّى فيها والتوجّه إلى المنزل قبل حلول اليوم التالي. وفي أثناء قيامه بذلك، خفقت عيناه كما لو أن فكرة ما تبادرت إلى ذهنه؛ هناك بالطبع خيار آخر، شخص موجود على الأرض، أحد معارفه السابقين، *صديق* قديم. لقد عملا معاً منذ مدة في قضية هانا شْليغِل الاستثنائية تلك، وبقيا على اتصال، عِلماً أنهما لم يتحادثا منذ مدة، منذ اثنَي عشر شهراً أو أكثر، لذلك لم يفكّر فيه على الفور. ألقى نظرة سريعة على ساعته - الوقت متأخر، ولكنه ليس متأخراً جداً - وأخرج هاتفه المحمول، غير مُدرك تقريباً ما يقوم به.

قبل أربع سنوات، وفي أثناء فتور همّته بعد وفاة خطيبته غاليا، واقتناعه بأنه سيحيا بقيّة أيامه في الظلمة والأسى، صادف شخصين أعاداه إلى ضوء النهار. كانت سارة أحدهما، والآخر...

استعرض على الشاشة قائمة معارفه، باحثاً عن الأسماء التي تبدأ بالحرف خاء. كان هناك اسم واحد فقط، فابتسم عندما رآه. لقد مضى وقت طويل، ومن الجيد سماع صوته مرة أخرى.

تحقق من ساعته للمرة الثانية، ومن ثم حرّك إبهامه وطلب الرقم.

الأُقصُر

كان خليفة على سطح مجمّعه السكني، جالساً على صندوق مقلوب رأساً على عقِب، محدّقاً بالمنظر الليلي المتلألئ للأُقصُر، عندما رنّ هاتفه المحمول.

كان يصعد إلى هناك في معظم الليالي بعد أن يحمل زينَب على النوم. كان يُمسك بيدها، ويملّس شعرها الطويل، ويغنّي لها بصوت ناشز حتى يستقرّ تنفّسها في النهاية، ويسترخي جسدها، ويلين فمها القلِق ويتلوّى؛ تعبيراً عن ارتياحها - أكثر من كونه إطلاقاً لبسمة - لانتهاء فترة الاستيقاظ وتمكّنها مجدداً من الارتماء في أحضان النوم والنسيان. وفي وقت لاحق، تستيقظ الكوابيس المزعجة، وتخدش كِسَرٌ مثلّمةُ الأطرافِ من الذاكرة عقلَها الباطن، محوّلةً النوم إلى أَرَق أشبه بالعذاب. ولكنها ترقد بسلام لمدة ساعتَين، مقمّطة في بطانية من النسيان الخالي من الكوابيس والأحلام؛ وعندها يتمكن من الصعود بمفرده إلى هنا طلَباً للسلام، ومطمئنّ البال لوجود نافذة غرفة نومهما تحته مباشَرةً؛ فإذا نادته سيسمعها وينزل إليها في غضون ثوانٍ.

كان يحب السطح. إنه جزء من منزلهما الجديد الذي لا يحمل تجاهه أي شعور بالنفور، ولا سيما في الليل. ففي النهار، يمكن للأُقصُر أن تكون مكاناً مُملاً بالأبيض والأسود، إذ يُزيل ضوء الشمس المزعج لونَ المدينة ويضخّم خمولها. ولكن المفارقة هنا تتمثل بعودة اللون مع عودة الظلام: الأخضر البرّاق والشفاف جزئياً لِمئذنتَي المسجد، واللون الأبيض للمصابيح الأُنبوبية للمقاهي والمتاجر، والنِّيون الساطع لفنادق الدرجة الأولى، والأضواء البرتقالية والصفراء المنبعثة من النوافذ ومصابيح إنارة الشارع ومصابيح السيارات الأمامية.

يحوّل الليل المدينة إلى ألوان أوليّة؛ مُبطِلاً كل الهندسة الإسمنتية المتفتّتة؛ لتصبح المدينة صافية وبرّاقة وبسيطة. وجلوس خليفة على صندوقه على السطح وتحديقه

بعيداً يهدّئانه بالطريقة نفسها التي يهدّئه فيها تسلّقه القُرن وإطلاق النار في حقل الرماية الخاص بالشرطة. ويوفّر له ذلك شعوراً أفضل حيال الأمور، أو على الأقل يكفّ عن النظر إليها بطريقة مؤلمة.

ولكن هاتفه المحمول رنّ، فانقطع سحر اللحظة.

وقف بسرعة وأخرج الهاتف من جَيبه، وسرت نبضة قلق من صدره وصولاً إلى أمعائه؛ كما يحصل معه الآن على الدوام عندما يتلقى اتصالاً غير متوقَّع، وفي وقت غير عادي. التمعت في رأسه بعض السيناريوهات للحظات وجيزة، سيناريوهات مُرعِبة: صفارات إنذار، مستشفى، وقع أقدام راكضة، نحيب يبعث على الشفقة. ومن ثم رأى اسم المتصل، فهدأت أنفاسه. جلس مجدداً وحدّق بالهاتف، فاركاً صدغه بالإبهام والسبّابة. لقد مرّت عليه أوقات كان يشعر فيها بالفرح والسرور لدى تلقّيه الاتصال. بالرغم من كل شيء، إنّه يَدين لهذا الرجل بحياته، وقد اجتازا الكثير من المصاعب معاً. هذه الليلة، كان رد فعله المباشَر هو الانــزعاج بسبب تلقّي الاتصال في وقت متــأخر جداً لدرجة أن الأمر أخافه؛ إنّه مزيج من الانــزعاج والهلع المُتعِب والملل أيضاً بسبب اضطراره للمرور بكل ذلك مرة أخرى، وإخبار شخص آخر بما حدث وكيف سار كل شيء على نحو غير ملائم له ولعائلته، وعيش الأمر برمّته مجدداً، ومن ثم يسود الصمت في الجانب الآخر من الخط، ويتمّ تلمّس الكلمات والنُّطق بدون تفكير بعبارة *آسف، إذا كان هناك ما أستطيع القيام به*. أدرك خليفة أنه أصبح مطبوعاً بالمأساة على نحو لا يُمحى، وأن كل ما قام به وسيقوم به في هذه الحياة يحدّد هويّته.

دلّى الهاتف الذي كان صدى اهتزازه يتردد عبر ليل الأُقصُر الحار نحو الأسفل؛ عاجزاً عن حمل نفسه على الإجابة، ومفكراً بترك الهاتف يرنّ حتى ينتقل إلى صيغة البريد الصوتي. ولكنه بهذه الطريقة يُرجئ المحتوم. لن يتمكن من تجنّبه إلى الأبد، ويتعيّن عليه التحدث إليه في وقت ما. كان قد أنقذ حياته في تلك الليلة قبل أربع سنوات، في ألمانيا، عندما حمله إلى خارج المنجم المحترق. إنه يَدين له بحياته، وأيّاً تكن مشاكله الشخصية، فإن خليفة يتعاطى مع دَين الصداقة بجِدّية.

"تبّاً"، تمتم.

ترك هاتفه المحمول يرنّ للحظات إضافية محدّقاً بالمسجد الذي بدت مئذنته النحيلة كما لو أنها تطعن القمر؛ كإبرة تثقب بيضة بطة. وبعد ذلك، عندما أوشك

الهاتف على الانتقال إلى صيغة البريد الصوتي، أخذ نفَساً عميقاً، وضغط على زر الإجابة، ووضع الهاتف على أُذُنه.

"مرحباً يا صديقي"، قال بهدوء.

القدس

عندما سمع صوت خليفة، أطلق بِن - روي ابتسامة عريضة، ورفع كأسه كما لو أنه يحييه.

"مرحباً بك أيضاً، أيها المسلم الوقح المُحبّ للنساء!".

هكذا كانا يحيّيان بعضهما؛ وهي إيماءة للقائهما الأول عندما تجادلا وكادا يتقاتلان، فيُجيبه خليفة داعياً إيّاه *بالوغد اليهودي المتعجرف*. وفي هذه المناسبة، اكتفى بإصدار صوت منخفض للتعبير عن شكره وامتنانه للدُّعابة، وسأل بِن - روي عن حاله.

"عظيم، رائع. وأنت؟".

"بخير، شكراً لك".

" لم أوقظك، أليس كذلك؟".

فأكد له خليفة أنه لم يوقظه.

"متى كانت آخر مرة تكلمنا فيها؟ منذ عام؟".

"على الأقل"، أجاب خليفة.

"يمر الوقت بسرعة".

"بالتأكيد".

"الله يعلم إلى أين يذهب".

وتمتم خليفة شيئاً ما لم يفهمه بِن - روي. لم يكن بإمكانه التأكد، ولكن الانطباع الذي تكوّن لديه هو أن المصري منحرف المزاج قليلاً. فهو غالباً ما يكون معسول اللسان، ولكنه بدا في هذه الليلة عكِر المِزاج. فتساءل بِن - روي عما إذا كان يُفترض به تأجيل الموضوع حتى صباح اليوم التالي.

"كيف حال زينَب؟" سأل بعد أن قرر مواصلة الحديث الذي بدأه.

"إنها... بخير". كان الجواب متردداً، ومُتهرّباً أيضاً. "ماذا عن سارة؟".

"لقد انفصلنا".

وكان هناك توقف قصير.

"آسف. متى؟".

"منذ أشهر قليلة".

"آسف".

"أنا أيضاً. إنه خطئي، بالطبع. أنا غبيّ".

ظنّ بن - روي أن خليفة قد يعلّق على الأمر، ويجيب بسرعة بديهة، ولكنه لم يقُل شيئاً. وكان هناك توقف آخر مُحرِج، لقد بدا المصري عكِر المِزاج بلا ريب. وإلى يمين بن - روي، كان الباب مفتوحاً، وعادت الشابتان اللتان غادرتا قبل خمس عشرة دقيقة، وإحداهما تضع ذراعهما على كتف الأخرى. فراقبهما وهما تتمايلان في أثناء توجههما لطلب كوكا كولا، ومن ثم قال:

"هيه، أحمل بعض الأخبار".

وسمع صوت قدّاحة في الجانب الآخر من الخط، تلاه صوت استنشاق.

"لا تقل لي إنك عقدتَ سلاماً مع الفلسطينيين؟".

هذا هو خليفة الذي يعرفه ويحبه!

"لا، بل أفضل من ذلك!" وضحك بن - روي. "إنه أمر لا يصدَّق أبداً".

وتركه يفكر بالتعليق قليلاً لتأخذ الأمور سبيلها نحو الذُّروة، ومن ثم قال: "سارة حامل. سأصبح والداً!".

قال ذلك بصوت مرتفع، مستمتعاً بإعلان النبأ، رفع صوته كثيراً لدرجة أن النادل والشابتَين سمعوه. فرفع النادل إبهامه، وصفّقت المرأتان وصاحتا *ازلتوف*. و لم يصدر أي شيء عن خليفة.

"سأصبح والداً"، كرر بن - روي ظانّاً أن المصري لم يسمعه.

"مبروك"، قال خليفة. "أنا سعيد جداً لأجلك".

لم يتكلم بصوت مرتفع، وكانت لهجته رتيبة وخالية من أي تعبير، فتفاجأ بن - روي واغتاظ؛ فخليفة هو أحد الأشخاص القلائل الذين لم يخبرهم بعد - بل إنه الشخص الوحيد تقريباً - وكان يتطلّع إلى رد فعله، وقد قرر القيام بذلك منذ

لحظة اتصاله به. كان الافتقار إلى رد الفعل... مُهيناً له تقريباً. حسناً، لقد مضى أكثر من عام على اتصالهما - وأربع سنوات على مقابلة أحدهما الآخر وجهاً لوجه - ومن الواضح أن خليفة لم يكن في مِزاج ملائم، ولكنه كان يتوقع بالرغم من ذلك بعض الحماسة من قِبَله. فالأبوّة أمر كبير بالرغم من كل شيء، أمر يُحتفى به، ولم يكن خليفة آبهاً بذلك. فتساءل بن - روي عما إذا كان خليفة لا يستحسن فكرة إنجاب طفل خارج إطار الزواج. أجل، لا بد من أن يكون هذا هو السبب. ثقافتان مختلفتان، وأساليب مختلفة للقيام بالأمور.

"من الواضح أن عدم كوني وسارة معاً يجعل الأمور أكثر تعقيداً"، أقرّ، "ولكننا لا نزال مقرّبَين. وثِق بي، مهما حدث سأكون هناك لأجلها ولأجل الطفل. ومن يعلم، عندما يصل... في الواقع، لا نعرف بعد إذا كان ذكَراً، عِلماً أن شعوراً قويّاً ينتابني بأنه ذكر... بأي حال، الأطفال يبدّلون الأمور، أنت تعرف ذلك، لذلك عندما يصل أو تصل ربما سنقوم أنا وسارة بمحاولة أخرى، للتحقق مما إذا كان باستطاعتنا ترقيع الأمور، كما تعلم، والبدء مجدداً نحن الثلاثة معاً...".

كان يستطرد. لم يكن يُفترض به احتساء الشراب ومعِدته فارغة.

"لن أكون أحد الآباء الغائبين أولئك. سأكون موجوداً على المدى البعيد. وواقع أنني وسارة لا نعيش معاً لن يؤثّر في أي شيء. فسوف يكون للطفل أفضل منزل في العالم، وأفضل والدَين مُحبَّين. أنا شديد الاضطراب يا خليفة، *شديد* الاضطراب. سأصبح والداً!".

كان بإمكانه الشعور بصوته يغدو أجشّ، وبعينَيه تغرَورقان بالدموع. لم يكن يُفترض به تناول الشراب بلا ريب.

"مبروك"، كرر خليفة. "أنا سعيد جداً لأجلك، لأجلكما".

إنها اللهجة الرتيبة نفسها، وغياب الأحاسيس نفسه. فتصلّب فك بن - روي السفلي. *وغد بائس*، قال في سرّه. ها أنذا أبذل قصارى جَهدي، ولا يمكنك حتى بذل جهد بسيط ليبدو الأمر كما لو أنك تعني ما تقوله. ربما كان ذلك ضد مبادئ المسلم، ولكن باستطاعتك على الأقل التظاهر لأجل صداقتنا. أحصل على رد فعل من نادل ومن *عصفورتَين* أكثر بكثير مما أحصل عليه من شخص أنقذتُ حياته.

"اسمع، ربما لم يكن من المناسب الاتصال بك في هذا الوقت المتـأخر"، قـال عاجزاً عن إخفاء الانـزعاج في صوته. "أردت أن أسألك عن أمر مـا مـرتبط بقضية أعمل عليها، ولكن من الواضح أنه ليس الوقت المناسب...".

"لا، لا، رجاءً، لا بأس. إذا كان هناك شيء ما يمكنني القيام به لأجلك...".

لقد بدا الرجل شارداً، وغير متماسك كلّياً، كما لو *أنه* يتعاطى المخدرات. *ربما هو كذلك*، فكر بِن - روي في سرّه؛ *ربما كان مريضاً أو ما شابه*. هذا هو التفسير ربما.

"هل أنت بخير يا خليفة؟".

وساد الصمت.

"هل أنت بخير؟" كرر. "لا تبدو... أعني، لا أريد تعقيد الأمر، ولكنني علـى وشك أن أُرزق بطفل وأشعر بأنك لستَ سعيداً لأجلي، ولا حتى مهتماً".

عندما تكلّم خليفة مجدداً بدا اعتذاره صادقاً.

"سامحني يا صديقي. *أنا* مهتم بالتأكيد وسعيد لأجلك. سعيد *حقاً*. إنه لأمـر رائع أن يُرزَق المرء بطفل. ما يجري هو...".

وسُمع صوت أجشّ آخر، وزفير آخر. وتحوّل انـزعاج بِن - روي إلى قلق عارم.

"ماذا يجري؟".

في الناحية الخلفية للغرفة، ثار المعلّق على مباراة كرة القـدم مـرة أخـرى، ورافقت ذلك صيحات: "تابع يا قاطان!" و"تجاوزه!".

"ماذا يجري يا خليفة؟ هل هناك خَطْب ما؟".

ورنّت الكؤوس، ورافق ذلك انفجار متجدد للقهقهة.

"خليفة؟".

"تجاوزه، تبّاً!".

"خليفة؟".

"في الواقع، أجل. هناك خَطْب ما. أمر...".

وتردد عبر الخط صدى غصّة مكتومة كان بِن - روي سيعتبرها نشيجاً لولا الضوضاء المحيطة به، وتعاظم قلقه.

"ماذا حدث؟ أخبرني، يا خليفة".

وكان هناك توقف آخر - بدا الأمر كما لو أن صوت بِن - روي يتأخر في بلوغ خليفة - ومن ثم بدأ المصري يشرح أمراً ما على علاقة بمركب، وحادث. وضاع صوته في فورة ابتهاج فجائية ومُصِمّة للآذان صادرة من الناحية الخلفية للغرفة عندما سجّل فريق ماكابي حيفا أخيراً هدفاً في مرمى الخصم، متقدّماً عليه. فوضع بِن - روي يده على أُذُنه، وأخفض رأسه حتى مستوى أعلى الطاولة تقريباً، محاولاً إبعاد الضجيج.

"آسف، لم أسمع ما قلتَه؟ ماذا...".

كان الكل يصيح ويصرخ، حتى الفتيات.

"آسف يا خليفة، لا يمكنني...".

وقفز أحد الشبان فوق الدرَجات إلى الداخل، واجتاز الغرفة لاكماً الهواء بقبضتيه، وتلاه شخصان آخران، وأدّى الثلاثة رقصة كونغا ارتجالية، مما جعل الفتيات يصرخنَ مسرورات. فلوّح بِن - روي بيده، محاولاً تهدئتهم ولكن من دون جدوى. وباستمرار الاحتفالات على حالها، طلب من خليفة الانتظار على الخط، ثم خرج من المطعم مُغلِقاً الباب وراءه.

فجأةً، ساد الهدوء التام.

"هذا أفضل"، قال وهو يسير على الطريق المُقفِرة. "الضجيج يملأ المكان في الداخل، لم أتمكن من سماع أي شيء. الآن، ماذا كنتَ تقول؟ ماذا حدث؟".

هذه المرة، تكلّم خليفة بصوت مرتفع وواضح، مما حمل بِن - روي على التسمّر في مكانه.

"توفّي ابني. وقع حادث في النيل وقُتل ابني علي. فقدتُ ابني الصغير. آه، يا الله! لقد فقدتُ ابني الصغير يا بِن - روي".

الأُقصُر

حتى الآن، وبعد عام تقريباً، لم يبلغ خليفة بعد حدّ التكيّف مع ما حدث. لم يكن باستطاعته أن يتخيّل وصوله إلى وقت يتصالح فيه مع الواقع. لقد فقد ابنه البِكر، ابنه الذهبي. كيف يمكنه الحصول على الراحة بوجود ذلك العبء الجاثم على قلبه؟

قبل أربعة أشهر من الحادث كما يبدو، عثر علي ومجموعة من أصدقائه ممّن لا يُقهَرون ويبحثون عن المرح والمغامرة - وكانوا في الرابعة عشرة من عمرهم - على زورق صغير مُهمَل على الضفة بين نبات القصب، فأصلحوه قدر المستطاع، وسرقوا مِجذافاً من باحة تحتوي على فَلوكات بجانب الكَرَنك، وصنعوا مجذافاً آخر من خشبة قديمة مرميّة، وبدأوا بإخراج الزورق إلى النيل. لم يجرؤوا على القيام بمجازفات كبيرة في بادئ الأمر، لذا كانوا يكتفون بالنزول إلى الماء لمدة وجيزة على خط الشاطئ الشرقي، أو بالقيام برحلة قصيرة عبر القناة الضيّقة إلى جزيرة الموز حيث كانوا يبنون مخيَّماً، ويتناولون الحَلوى، ويدخّنون السجائر المسروقة. كان كل شيء مأمون الجانب.

مع مرور الوقت، أصبحوا أكثر جرأة. لقد أقنعوا ذات مرة مالك مركب مزوّد بمحرّك بسحبهم إلى وسط النيل قرب الجسر ليتمكنوا من الانجراف مع التيار مسافة عشرة كيلومترات. وفي المرة التالية، جذّفوا وصولاً إلى الجانب الأبعد لجزيرة الموز، والتفّوا حولها، متوجّهين إلى السدود الرملية للعوّامة غرب الجزيرة.

في ليلة المأساة، انطلقوا هم الستة، بمن فيهم علي، في مغامرتهم الكبرى المتمثلة بالقيام برحلة عبر النهر إلى الشاطئ البعيد والعودة إلى نقطة الانطلاق.

لقد تمّ التخطيط لها بدقة وتفصيل، وادّخروا طوال أسابيع طعاماً وشراباً وسجائر لأجل رحلتهم الوشيكة. وفي الليلة المحدَّدة، ادّعى كل فتى أنه ذاهب للنوم في منزل أحد الفتيان الآخرين كي لا يُثيروا شبهة الأهل. وتواعدوا على اللقاء بعد حلول الظلام في لسان مائي داخل البرّ جنوب الأُقصُر، وحمّلوا الزورق بالأغراض، وتعهّدوا بالصداقة الأبدية في حال غرق الزورق أو التعرض لهجوم من قِبَل العدوّ؛ وهي بادرة غير جدّية ثُبتت صحّتها في ما بعد.

وانطلقوا بعد ذلك، شاعرين بأنهم مستكشفون عظماء لم يولد مثلهم قطّ. لم يكونوا يملكون سترات نجاة بالطبع، ولكن لماذا سيحتاجون إليها إذا كانوا جميعاً يُجيدون السباحة؟

لقد واجهوا عقبة في مرحلة مبكّرة من رحلتهم عندما بدأت الماء بالتسرب إلى داخل الزورق بعد لحظات من النزول إلى النهر. كان يُفترض بهم العودة على الفور، ولكنهم أعدّوا للمغامرة منذ مدة، وكانوا متحمّسين جداً للأمر برمّته

لدرجة أنهم تغاضوا عن هذه المشكلة، واندفعوا لخوض مغامرتهم بالرغم من كل شيء، وتولى فتَيان مهمة إخراج الماء من الزورق بأوعية بلاستيكية، في حين قام الآخرون بدفع المركب بواسطة المِجذافَين إضافةً إلى لوحَين خشبيَّين وضعوهما قَيد الخدمة ليمنحاهم مزيداً من الزخم.

وبعد البداية غير الواعدة، عادت الأمور إلى مسارها، وأكملوا طريقهم إلى وسط النهر من دون التعرض لأي حادث بعد أن تمت السيطرة على التسرب، وبعد تباطؤ تدفّق النيل وهدوئه.

ولكن سلسلة من الأمور حدثت بعد ذلك.

فقد وقعت بعض الأحداث العشوائية التي اجتمعت معاً لتحوِّل وضعاً غير مؤذٍ إلى مأساة لا ترحم. فقد شاهد قارب شرطة كبير مزوَّدٌ بمحرك ويقوم بدورية جنوب منطقة عمله الزورقَ الصغير، فمرّ قربه، طالباً من الفتيان العودة إلى اليابسة.

كان كل الفتيان الآخرين ينتظرون مغادرة قارب الشرطة لمتابعة مغامرتهم، بخلاف علي – ابن رجل الشرطة – الذي أصرّ على الإذعان للطلب (كم مرة أنّب خليفة نفسه على عدم تعليمه ابنه قلة احترام السلطات).

وهكذا، عادوا من حيث أتوا – مع تأوّهات الخَيبة، مُمازحين السيد الصالح الذي يقوم بما يُطلَب منه على الدوام – ولكنهم اكتشفوا أن التيار الذي كان مِطواعاً في طريق الذهاب أصبح أكثر عدوانية في الاتجاه المعاكس.

"بدا الأمر كما لو أن النهر لم يشأ أن يسمح لنا بالعودة إلى الشاطئ"، تذكّر أحد الفتيان الذي نجا من المأساة، والذي جُمعت أجزاء القصة وفقاً لشهادته. "استمر التيار بسحبنا نحو الشمال ودُفعنا إلى الوراء في اتجاه الوسط. كان التقدّم بوصة واحدة بمثابة نضال".

انكسر المِجذاف البديل إلى النصف، وسقط أحد المِجذافَين الخشبيَّين في الماء وجرفه الظلام. وازداد تسرّب الماء إلى الزورق بسرعة، ولم تتمكن الأوعية البلاستيكية من إفراغ الماء المتسرّب. وعندما تمكنوا من بلوغ نصف المسافة التي تفصلهم عن الضفة الشرقية، كان الفتيان قد أُرهِقوا جميعاً، ولم يعد بإمكانهم السيطرة على الزورق بفعالية.

عندئذٍ، رأوا الصَّندَل.

لم يشعروا بخطورة الموقف في بادئ الأمر. كانت تفصلهم عن ذلك الهيكل الأسود البعيد الذي يطفو على صفحة النهر التي يزيّنها القمر بلونه الفضّي مسافة تزيد عن كيلومتر واحد. وبالرغم من اتجاهه نحوهم مباشَرةً كما يبدو خارج خط المِلاحة العادي بجانب الشاطئ الغربي، لم يشك أي منهم في أن الرقيب سيراهم في الوقت المناسب، وسيطلب تعديل المسار.

غير أنّ التعديل لم يحدث قطّ. وفي أثناء قيام التيار بجرفهم شمالاً، وملازمة الصَّندل خطه، ازداد قلق الفتيان، وذُعروا بعد ذلك. فشرعوا بالصياح والتلويح بأذرعهم، محاولين تنبيه الصَّندل للابتعاد، ومجذّفين في الوقت نفسه بأيديهم في مسعى منهم للابتعاد عن طريقه.

ولكن، بدون جدوى. فقد كان الزورق الصغير ينجرف في اتجاه أسفل النهر، فيما الصَّندل يندفع في اتجاهه. لقد بدا الأمر كما لو أن الزورق والصَّندل عالقان في مسار لا يمكن عكسه، والمسافة الفاصلة بينهما تضيق أكثر فأكثر.

"كقطارين يسير أحدهما في اتجاه الآخر على السكة نفسها"، هذه هي العبارة التي استخدمها أحد الشهود الذين كانوا على ضفّة النهر لوصف المشهد.

"لقد تسمّرنا في أماكننا"، قال الناجي. "كان باستطاعتنا رؤية الصَّندل وهو يدنو منّا أكثر فأكثر، ولكن الأمر بدا كما لو أن كل شيء يحدث ببطء؛ كما لو أننا في حلُم. أتذكّر أنّ "علي" صاح قائلاً إنه يُفترض بنا جميعاً القفز من الزورق، ولكننا لم نستطع الحراك. لقد ظننّا حتى الدقيقة الأخيرة أنهم سيروننا وسيغيّرون المسار".

في النهاية، رأى الرقيب الأمامي للصَّندل الزورق الصغير بعد أن سمع بوق التنبيه التابع لقارب الشرطة الذي عاد للتحقق من قيام الفتيان بما طُلب منهم القيام به. وصاح الرقيب لمدير الدفّة الذي أدار دفة التوجيه باضطراب في مسعى منه لتجنّب الاصطدام، ولكن الأوان كان قد فات لأن مسافةً تَقلّ عن مئة متر كانت تفصل بين الزورق الصغير ومقدمة الصّندل الحادة.

ووفقاً لأحد أفراد شرطة النهر، وقف الفتيان جميعاً في اللحظة الأخيرة، وشبكوا أذرعهم كما لو أنهم يستطيعون صدّ 1000 طنّ بواسطة القوة البَحتة لصداقتهم (سوف تقضّ صورة الفتيان الستة المروَّعين تلك، والمتّحدين في عِناق أخير ميؤوس منه، مضجع خليفة حتى يوم وفاته).

ومن ثم، ضرب الصَّندل الزورق كمطرقة كبيرة تسحق علبة ثقاب.

لقد قُتل أربعة فتيان على الفور، وسُحبوا إلى تحت الماء، وقُطِّعوا إِرَباً إِرَباً بواسطة الدواسير الضخمة للصندل (عُثر على جثّتَين فقط تمّ التعرّف عليهما). وتمكن الخـــامس من شق طريقه بأُعجوبة إلى خارج مسرح الاصطدام، وأنقذه قارب الشرطة. لقد شعر بصدمة كبيرة لدرجة أنه لم ينطق بكلمة واحدة إلا بعد مرور أسبوع على الكارثة.

وعاش الفتى السادس أيضاً؛ علي. لقد شاهد قارب الشرطة جسده بعد ثلاثين دقيقة من الحادث وهو يطفو على سطح الماء فاقداً وعيه. كان واقعـــاً في شـــرك طَوفٍ من ورد النيل، ووجهه إلى الأسفل. فسُحب من النهر، وتمّ حمله بسرعة إلى الشاطئ، ونقْله إلى مستشفى الأُقصُر العام حيث عرفته رشـــا الزَّهـــوي، طبيبـــة الأطفال وزوجة عمر صديق خليفة التي صادف أنها كانت تزاول عملها في مناوبة متأخرة في قسم الطوارئ التابع للمستشفى. وكانت هي التي اتصلت بعائلة خليفة لإطلاعها على ما جرى.

عندما وصلا إلى المستشفى ورأيا ابنهما على الجهاز الداعم للحياة - رماديّ الوجه، مغطى بالأنابيب، ويخرج أنبوب من فمه على غرار دودة عملاقة من نـــوع ما - انهارت زينَب، وساعدها خليفة على النهوض، ووضعها على كرســـي عنـــد رأس السرير، مُطمْئناً إيّاها بأن ابنهما سيكون بخير رغم أنه كان متيقناً من أنه لـــن يكون كذلك. وبعد ذلك، جلس على السرير بجانب ابنه وحمله، غير مُبال بما قـــد يظنّه أي شخص به، وغافلاً عن الأطباء والممرضات الذين يجوبون المكان، وأعرب له عن مدى حبه له، مناشداً إيّاه البقاء معهم، وملتمساً رحمة الله، ومهمهماً بأغنية *لنذهب ونطيّر الطائرة ورقية* الخاصة بماري بوبينـــز، وكانت تلك الأغنية من فيلم علي المفضَّل حتى ما بعد بلوغه الرابعة عشرة من عمره.

لقد بقيا بجانب سرير ابنهما طوال ستة أيام وست ليال، ولم يغادرا المكـــان مطلقاً. لم يكن هناك أي أمل؛ فقد بقي تحت الماء لمدة طويلة. ربما سيستمر قلبـــه بالخفقان ولكن دماغه ميت، وفقاً للأطباء. لن يستعيد الوعي أبداً؛ ولقد اختار الله بحكمته اللامتناهية عدم اجتراح معجزة في هذه المناسبة. كانت الأيام الستة ببساطة أشبه باستئذان طويل للمغادرة.

وفي اليوم السابع، اتفقا على أن يدعاه يرحل.

لقد أصرّ خليفة على أنه يُفترض به أن يكون أول من يقوم بذلك؛ فهذا أمر شخصي جداً وحميم جداً لا يمكن أن يُعهَد به إلى غريب. فقبّلا علي، وضمّاه إلى صدرَيهما، وأخبراه مراراً وتكراراً عن مدى حبّهما له، ومقدار الفرح الذي حمله لهما، وأنه سيكون على الدوام جزءاً من حياتهما. ومن ثم، أمسك كلٌّ منهما بإحدى يدَيه، مُجهشَين بالبكاء، وقالا له وداعاً للمرة الأخيرة، وانحنى خليفة وأطفأ الجهاز الداعم للحياة.

لقد راقب قبل أربعة عشر عاماً ابنه حين أتى إلى العالم؛ في غرفة النوم في الشقة التي تمّ هدمها بعد شهر ليتمكن السيّاح من التقاط صور فوتوغرافية لشيء ما مثير للاهتمام.

وها هو يراقبه وهو يغادر، ها هو يراقب حياته الجميلة والغالية التي لا تُعوَّض وهي تخبو ببطء لتتحوّل إلى خط أُفُقي يُصدر صوتاً رتيباً على شاشة مِرقاب القلب في المستشفى.

كان العذاب المرافق لهذا الأمر لا يوصَف، والأسى الناجم عن ذلك يتخطى أي أسى كان قد اعتقد أنه قد يختبره ذات يوم.

و لم تتعافَ زينَب من تلك الكارثة قطّ، وتكاد لا تنطق بكلمة واحدة مذاك الحين، قاضيةً أيامها في النظر بلهفة إلى ألبومات الصور، ومشاهدة الدي في دي المفضَّل لدى علي *ماري بوبينز*، وكانسةً الغرفة التي خصّصتها له في شقتهم الجديدة. وحتى بعد تسعة أشهر على وفاته، لا تزال تستيقظ كل صباح وهي تهتف بألم: "أنا أفتقده!".

وكان خليفة قد حصل على مأذونية غياب طويلة للاعتناء بزوجته، وليكون أيضاً مع بطّاح ويوسف اللذَين انهارت معنويّاتهما بسبب فقدانهما شقيقهما (عِلماً أنهما اكتسبا بسرعة القدرة على تحمّل المصاعب بسبب الخسارة التي تكبّداها، ومضيا في حياتيهما). وبلياقته المعتادة، لم يقم الرئيس الحسَني بنقلهم إلى شقة جديدة فحسب، بل أصرّ أيضاً على تلقّي خليفة راتبه كاملاً عن تلك الفترة التي تخلّف فيها عن العمل؛ مما جعل الأمور أسهل على الأقل على المستوى العملي. ولا يزال خليفة غير قادرٍ على تحديد مشاعره حيال تصرّف رئيسه ذاك؛ أهو شعور بالامتنان بسبب هذه البادرة، أم الامتعاض من غدوّه شخصاً مثيراً للشفقة حتى في

نظر شخص قاس وغريب الأطوار كالرئيس.

في الأيام الأولى التي تلت فقدانه ابنه - أيام فارغة، رمادية، أشبه بكابوس بالأبيض والأسود لا يستطيع الاستيقاظ منه - كل ما كان باستطاعته التفكير فيه هو الأوقات التي كان يوبّخ فيها "علي" - المناسبات عديدة جداً ولا يمكن إحصاؤها - والتي لم يكن يلعب فيها دور الوالد الذي أحب أن يكونه.

ومع مرور الأيام والأسابيع والأشهر، بدأ يستعيد الذكريات السعيدة: مباريات كرة القدم التي اعتادا إقامتها، وأيام العُطَلات الطويلة على البحر في الغردقة، ويوم اصطحبه صديقه غينغر - وهو عالِم في الآثار المصرية - مع ابنه علي في جولة خاصة على المدافن المُقفَلة في وادي الملوك، والزيارات إلى مطاعم ماكدونالدز في الأُقصُر التي منحت الفتى سروراً أكبر من كل الآثار التاريخية في مصر مجتمعةً؛ الكثير من الذكريات السعيدة الجديرة بعمر مديد.

وما زاد من عدم قدرة خليفة على التخلص من الشعور بالذَّنْب والغفران لنفسه أن الكلمات الأخيرة التي وجّهها لابنه كانت كلمات تحذير بسبب عدم إنجازه فرضه المنزلي.

و لم يتمكن من التخلص من الصورة التي تحيا معه ليل نهار؛ صورة ابنه المتخبّط في مياه النيل الهائجة؛ وحيداً، ومذعوراً، وعلى شفير الموت.

وبالطبع، لم يكن باستطاعته قطّ استعادة علي. فبالرغم من كل حسناتها، لا تملك الذكريات القدرة على إعادة الأموات.

لقد دُفن في قطعة أرض صغيرة أشبه بلسان داخل النيل، غير بعيدة عن اللسان المائي داخل البَرّ حيث انطلق ورفاقه تلك الليلة في رحلتهم العظيمة. إنه موقع جميل يحتوي على أشجار برّاقة وشُجَيرات الخِطميّة، ويُشرف على مناظر رائعة من النهر وصولاً إلى الجبال الطيبية والصحراء القائمة وراءها. كان خليفة يحب الاعتقاد أنه باستطاعة ابنه إلقاء نظرة من مكان رُقاده الأخير، والحُلم بالمغامرة بطريقته الخاصة.

لم يُجرَ أي تحقيق رسمي بالحادث مطلقاً، و لم تُرفَع أي دعوة قضائية ضد ربّان الصَّندل أو مالكيه. إذ إن أكبر شركة نقل في مصر هي التي تملك ذلك الصّندل، وليس المالكون من الأشخاص الذين يمكن مقاومتهم. بعض الوقائع في الحياة لا يمكن حتى للثورة أن تغيّرها.

"آه! يا الله! آسف، يا خليفة".

ومشى بن – روي بخطوات بطيئة نحو مِقعد وجلس، مُحدَودباً إلى الأمام.

"أنا شديد الأسف لخسارتك"، كرر، "ولِما تمرّ به أيضاً... تعرف، سارة وأنا، والطفل...".

"لا حاجة لك للاعتذار يا صديقي. إذا كان هناك من يُفترض به الاعتذار فهو أنا بسبب... كيف تقول ذلك... إثباطي عزيمتك حيال خبرك الرائع. أنا سعيد لأجلك. سعيد حقاً".

حدّق بن – روي بحذائه الرياضي، محاولاً التفكير بشيء ملائم يمكن أن يقوله، وشاعراً بأنه أكبر غبيّ في العالم بسبب إخطائه في فهم خليفة. لم يكن جيداً في مواجهة هذا النوع من الأوضاع، وكان ينطق على الدوام بأمور خاطئة. في النهاية، عبّر عن أسفه الشديد ليس إلا، وسأله عما إذا كان هناك ما يمكن القيام به للمساعدة.

"أنت شديد اللطف، ولكن لا، نحن بخير".

"أتريد أن أصعد على متن أول طائرة وأذهب إليكم".

"شكراً لك، ولكن ذلك غير ضروري".

انحنى بن – روي جانبياً وأسند مِرفقه على ذراع المقعد، ووجد نفسه يفكر بخسارته عندما قُتلت غاليا في انفجار قبل خمسة أعوام، وكيف جعل اللطفُ والتعاطفُ وكلماتُ العزاء الأمرَ برمّته أكثر سوءاً؛ إذ زادت تلك المواساة من فظاعة المأساة التي حلّت به. وهو يعرف من الخبرة أن لا شيء – لا الكلمات، ولا البطاقات، ولا الأدعية، ولا الأزهار – يمكنه المساعدة في التخفيف من الألم في هذه الظروف. أنتم بمفردكم، وعليكم الخروج من الأزمة بأنفسكم. فالحزن العميق لا يشعر به إلا من ابتُلي بمأساة، بالرغم من كل ما يُقال ويتم القيام به.

"أنا هنا إذا كنت بحاجة إليّ"، قال بشكل غير مُقنِع.

"شكراً لك. أنت صديق مخلص".

ولزما الصمت، ولكنه ليس الصمت المُربِك الذي خبراه قبل لحظات قليلة، بل صمت شخصَين يحبان رِفقة أحدهما الآخر، وصداقتهما متينة لدرجة أنهما لا

يحتاجان إلى التكلّم إذا لم يكن هناك شيء محدَّد يقولانه. ومرّ حارِدي متقدّم في السنّ قربه، وهو يجرّ خطاه، وعكازه يصدر صوتاً عند اصطدامه بالرصيف. بعد لحظات، سُمع صوت اندفاع سريع، وتماوَج أحد الترامات الجديدة في القدس في أسفل يافا، متّجهاً نحوه، وبدا هيكله الفضّي الزجاجي الصَّقيل كما لو أنه في غير محلّه مقارنة مع مباني منطقة مانديِت المتهالكة. قديم وجديد، ماضٍ وحاضر، غابر وحديث؛ يبدو كل شيء في القدس متداخلاً مع بعضه.

"أردتَ أن تسألني أمراً ما"، قال خليفة في النهاية.

"عفواً؟".

"عن قضية كنتَ تعمل عليها".

"آه! صحيح، أجل".

لقد نسي بِن - روي تماماً سبب اتصاله به. فبعد ما سمعه، بدا الأمر غير ذي صلة بالكامل، ومن غير المناسب طلب المساعدة من المصري المُثقَل بالهموم. باستطاعته المرور بقنوات رسمية ومحاولة استمالة شخص ما؛ من شأن ذلك أن يُبطئ مسار الأمور قليلاً، ولكنها ليست كارثة كبيرة. لقد أقرّ بأنه كان ينبغي عليه استمالة سارة والتخفيف من حدة الأمور (شعر بالخجل لأنه لم يُدرك ذلك عندما كان مع سارة).

"انسَ الأمر"، قال.

"هيا، يا بن - روي".

"لا، صدقاً، انسَ الأمر. ليست قضية ذات أهمية. إنه مجرّد عذر للاتصال بك".

"هل أنت متأكد؟".

"متأكد".

وكان هناك توقّف آخر - كان صوت اندفاع الترام يزداد ارتفاعاً في أثناء مروره على السكة في اتجاه بِن - روي - قال خليفة بعد ذلك إنه ينبغي عليه المغادرة.

"لا أحب ترك زينَب لمدة طويلة"، شرح.

"بالطبع، أفهم ذلك. رجاءً، بلّغها أفضل أمنياتي. ومرة أخرى، أنا شديد الأسف لما حصل مع علي".

"شكراً لك، يا صديقي".

"يُفترض بنا محاولة عدم إهمال الأمور طويلاً".

"تماماً".

وكان هناك تردد، وأضاف خليفة بعد ذلك:

"يُسعدني سماع صوتك أيها اليهودي الوغد المتعجرف".

فابتسم بِن - روي.

"وأنا كذلك، أيها المسلم الوقح".

واتفقا على البقاء على تواصل، وألقيا تحية الوداع، وشرع بن - روي بإخفاض هاتفه استعداداً لإنهاء المكالمة، ولكنه أعاده فجأةً إلى أُذُنه قائلاً:

"خليفة!".

منذ أربع سنوات، وعندما كان لا يزال في هاوية سحيقة من الحزن والأسى بسبب وفاة خطيبته، أشركه المصري في التحقيق الذي تناول هانا شْليغِل، ونتيجةً لذلك، استعاد بِن - روي نشاطه والغاية من حياته، وبدأ يتعافى تدريجياً. كانت الأوضاع مختلفة بالطبع، ولكنه كان يسعى إلى ردّ الصنيع بالرغم من اعتقاده بأنه لن يتمكن من القيام بالكثير لأجله - بفقدان ابن، يا الله الرحيم! كم تجدون الهاوية التي تسقطون فيها سحيقة؟ - ولكنه قد يتمكن على الأقل من إلهاء خليفة لفترة وجيزة، ولم يكن باستطاعته التفكير بأي طريقة عملية أخرى لمساعدة صديقه.

"هناك أمر ما ربما يكون باستطاعتك مساعدتي فيه"، قال.

"بالطبع. أي شيء".

بارين، نمِسيس، طريق سيناء، رحلة كلينبرغ إلى الإسكندرية؛ يمكن متابعة كل تلك الصِّلات في مصر بطرائق أخرى. ولكن هناك طرف خيط واحداً بدا كما لو أنه مُعَدّ خصّيصاً لخليفة.

"هل سمعتَ يوماً بشخص يدعى ساموبل بينسكر؟" سأل.

لم يسبق لخليفة أن سمع به.

"كان مهندس تعدين بريطانياً. اختفى من الأُقصُر في أوائل القرن العشرين، وتمّ اكتشاف جثته في مدفنٍ عام 1972".

"لقد أُثير اهتمامي".

"وأنا أيضاً. يبدو أنه مرتبط بقضية قتل أعمل عليها، ولكنني لا أعرف كيفية ارتباطه بها أو سبب ذلك. لقد قلت لنفسي إنه باستطاعتك ربما، بما أنك في الأُقصُر...".

"باستطاعتي التحرّي قليلاً".

"إذا كان لديك الكثير من العمل...".

"لا، لا، يُسعدني أن أساعد. هل يمكنك أن ترسل لي بعض التفاصيل؟".

"سأرسلها لك عبر البريد الإلكتروني على الفور. حبّاً بالله، لا تضيّع الكثير من الوقت على الأمر، فقط ما يكفي لـ...".

وضحك بِن - روي، ثم لزم الصمت لبضع ثوانٍ، محدّقاً بالمدينة القديمة، وبجدرانها الضخمة المبنيّة بكُتل حجرية تتوهّج بلون برتقالي تحت ضوء المصابيح الساطعة القائمة على امتدادها. ومن ثم قال بلهفة بعد أن اعترته مودّة فجائية حيال صديقه القديم:

"ما رأيك بذلك يا خليفة؟ أنت وأنا نعمل معاً مرة أخرى. الفريق الأول من نوعه، كما في الأيام الماضية!".

كان جواب المصري أقل حماسةً.

"لن يكون أي شيء شبيهاً بالأيام الماضية يا صديقي. لقد ذهبت إلى الأبد. سأعاود الاتصال بك حالما تتوافر لديّ بعض المعلومات".

وأنهى المكالمة.

القسم الثاني

بعد خمسة أيام

اهتمّ بالأمور الصغيرة والأمور الكبيرة تهتم بنفسها.

هذا ما علّمني إيّاه والداي، وما زلت أحيا وفقاً للقاعدة نفسها وأهتم بالأمور - الأمور الصغيرة والأعمال الروتينية اليومية - واثقاً من أن القضايا المرتبطة بعملية التطهير التي جرت في دار العبادة الكبرى ستجد حلاً لنفسها كالعادة. فلم تُجرَ أي اتصالات هاتفية، ولم تكن هناك أي زيارات غير متوقَّعة وأي اتصالات مزعجة من قِبَل غرباء. يبدو أن الغبار يستقر ويُخفي الوقائع. في العادة، أكره الغبار المستقرّ، ولكنه أمر مرحَّب به في هذه الحالة.

كان والداي - ولا يزالان - يؤثّران فيّ إلى حد كبير؛ كل منهما بطريقته الخاصة، سواء أكان ذلك لجهة الصلاح أو السوء. وأسمع صوتَيهما في غالب الأحيان، وأشمّ رائحتَيهما أيضاً. لقد امتلكتُ على الدوام حِسّاً حادّاً للرائحة، وتعيش الرائحة المميَّزة العائدة للأكبر سنّاً منّي في ذاكرتي. لهذا السبب، بقيتُ مع المرأة البدينة تحت الطاولة لمدة وجيزة في دار العبادة الكبرى بعد أن جررتُها إلى هناك؛ خلافاً لما أقوم به فعلاً. لقد أطفأتُ مصباح الجَيب وجلستُ قربها في الظلام، ممسكاً بيدها، وضاغطاً وجهي على وجهها، ومتنشّقاً عبير اللوز على شعرها. بدا الأمر كما لو أن والدتي قد عادت إليّ، ووجدتُ ذلك مطمْئِناً. وبالرغم من تحمّلي مسؤولية العائلة بمفردي منذ زمن طويل، فأنا لا أزال بحاجة إلى الطمأنة من حين لآخر، ومعرفة أنني أبذل قُصارى جهدي لخدمتها.

أنا بحاجة إلى ذلك الآن أكثر من أي وقت مضى، لا سيّما وأنه يتعيّن عليّ اتخاذ القرار؛ القرار الكبير، فهو أكبر من ذلك الذي اتخذتُه في دار العبادة الكبرى عندما أدّيت عملية التطهير قبل الوقت المحدَّد وفقاً للخطة الموضوعة. إنه قرار يتوقف عليه مستقبل العائلة برمّته.

أَنجزِ الأمر على النحو الصحيح يكن المستقبَل مضموناً. أَنجــزْه علــى نحــو خاطئ...

لقد سبق لي أن اتخذتُ القرار إلى حد ما بالطبع، ولكنني لا أزال أجد نفســي مضطرباً حيال تنفيذه، ومتسائلاً عما كان والداي سيقومان به لو وجدا نفسَــيهما في وضع مماثل لوضعي. لقد وضعا شؤون العائلة فوق كل الأمور الأخرى؛ علــى غراري، ولكن على أن يتم العمل ضمن الحدود المسموح بها: هذا أمر لم يُسمع به من قَبل. هذه هي مُعضلات الواجب، ولا يتعلق الأمر بالطاعة فحسب، بل باتخاذ قرار حيال الشخص الذي ينبغي إطاعته، ولأي سبب.

لم يُحضّرني التقليد لمواجهة هذه التحديات، ولا وجود لسابقة نجــد فيهــا العزاء. لقد خاطبتُ أسلافي، ولكنهم لم يُجيبوا. أنا بمفردي، وأعرف ما الذي يجب القيام به لخير السلالة، ولكنني لا أزال مضطرباً.

غير أنني ثابت على موقفي في ما يتعلق بأمر واحد: إذا قمتُ بخطوتي – عندما أقوم بها – فلن أستخدم المِخنقة المعدنية. في هذه الحالة، يتطلب الأمر حذَراً أكــبر من المعتاد.

ولكن، عليّ المُضيّ قدُماً الآن. يجب عليّ المُضيّ قُدُماً. هناك أمور يتعيّن عليّ الاهتمام بها، أمور روتينية، أمور صغيرة. والأمور الكبيرة تهتم بنفسها.

إسرائيل، صحراء النقَب

كان العدّاء يتنقل بسرعة، مجتازاً الصحراء المضاءة بنور القمر برشاقة فهــد. وكان يتوقف من حين لآخر، ويُنعم النظر بالمنحدرات الصخرية مُصغياً. ومــن ثم، يواصل السير في اتجاه التلة شديدة الانحدار ذات القمة المسطّحة التي تُشرف علــى المنظر الطبيعي. وصل إلى أسفل التلة، وتوقف مجدداً – ولكن لمدة أطــول هــذه المرة – ملتقطاً أنفاسه. ومن ثم تسلّق بسرعة إلى القمة، وصوت هســيس حذائــه الرياضي على الحصى الذي يكاد لا يكون مسموعاً هو الدلالــة الوحيــدة علــى تقدّمه. في الأعلى، أخرج مسدس غلوك 17 من حقيبة ظهره، وواصل الســير إلى الطرف البعيد للقمة، شاهراً المسدس، وعيناه تلتفتان يميناً ويساراً.

هناك، كانت الأرض تنحدر بشكل مفاجئ وصولاً إلى الطريق 40 في الأسفل. كان هدفه هو الجلوس في الأعلى، ومراقبتها وهي تميل رأسها إلى الوراء، وعيناها مُغمضتان، وعلى أُذُنَيها سمّاعتا آي بود رأسيّتان.

حدّق الرجل بها، وكان أعلى رأسها على بُعد سنتمترات قليلة فقط من طرفَي حذائه، و لم يكن صدى الموسيقى الضعيف يُسمَع إلا من خلال السمّاعتَين الرأسيّتَين. بعد ذلك، أطلق ابتسامة عريضة، وانحنى والتقط حفنة من الحصى بيده الثانية. وصوّب الغلوك نحوها وبسط ذراعه مستعداً للشروع بدحرجة الحصى على شعرها.

تحرّكت المرأة بسرعة، لدرجة أن دماغه لم يكن يملك الوقت ليسجّل أنها تتحرك. كانت منذ لحظة جالسة هناك تحته، وفي اللحظة التالية انتصبت على قدمَيها ودارت في أثناء سحبها السماعتَين الرأسيّتَين عن أُذُنَيها. لقد حاول الزحف إلى الوراء كي لا تراه، ولكنها كانت قد قبضت على مِعصمه بإحكامٍ كالمِلزمة، وأمسكت بيدها الثانية حذاء الرياضة وجذبته بقوة إلى الأمام لتوقعه عن حافة القمة. بدا للحظة وجيزة سوريالية كما لو أنه يهوي في الهواء كبهلوان سيرك قبل أن يسقط على ظهره بقوة كانت كافية لجعله يتلوّى، ولكن من دون التسبب له بأي أذى حقيقي. فثبّتت بقدمها مِعصمه الأيمن، وظهر مسدس غلوك آخر من العدم وسُدِّد على بُعد بوصة واحدة من قصبة أنفه. ومن السماعتَين الرأسيَتَين المتدلّيتَين كانت تصدر الخفقة المكتومة لموسيقى بينك فلويد: تنفَّسْ.

"هل تريد شيئاً؟".

مرت ثوانٍ قليلة قبل أن يتمكن من القيام بما يطلبه منه المغني. وعندما تمكن من إدخال كمية كافية من الهواء إلى رئتَيه ليتمكن من الكلام، صدر صوته مخنوقاً وأجشّ.

"ظننتُ أنني قد أتمكن منكِ هذه المرة".

"لم تتمكن".

"هذا ما لاحظتُه".

وبقي مستلقياً للحظات، محدّقاً بوجهها الشاحب والانفعالي، وبالابتسامة الخفيفة التي ارتسمت على شفتَيها. ثم رفع يده الثانية، ومرّرها على خدّها وحول

مؤخّر عُنُقها. فسمحت له بالقيام بذلك لبضع ثوانٍ قبل أن تحـــرّر يـــده بلطـــف وتتراجع.

"ألا تستسلم أبداً يا غيدي؟".

"ألا تعترفين بالهزيمة أبداً يا دينا؟".

"ليس الليلة، أيها العاشق".

فسخر من هذا الكلام.

"يا الله! كم أنت مثيرة! لقد تكبّدتُ عناء القدوم من حيفا إلى هنا لأجلك".

تأففت بسأم. فمنذ تعرّفها إليه قبل أربع سنوات، يدأب جدعون على اختبار قدرتها على التحمّل، ويحاول الإيقاع بها كلما قدمت إلى هنا. لم يكن يقصد إلحاق الأذى بها، وهي لم تتعرض لأي أذى. فغيدي رجل صالح، لا بل إنـــه الأفضـــل. ولكن الرجال الصالحين لا يستهووها.

أوقفت جهاز الآي بود عن العمل، وأعادته إلى حقيبة الظهر الموضوعة علـــى الرف الصخري، وتلاه الغلوك بعد ذلك. رفع غيدي نفسه وجلس فاركاً مِعصمه.

"كيف عرفتِ أنني هنا؟".

"شممتُ عطر الحلاقة الخاص بك".

فهمهم.

"لقد هزمتِني بسبب حاسة الشم القوية لديك".

وضعت حقيبة الظهر على كتفَيها ومدّت له يدها، فأمسك بها وجذبته بقوة، حاملةً إيّاه على الركوع.

"هل تريد التسابق في طريق العودة؟".

"أعتقد أنني سأجلس هنا قليلاً، وأدخّن بعض الأفيون، وأراقـــب النجـــوم، وأعالج مسألة رفضك لي. إنها ليلة جميلة".

كان لا يزال ممسكاً بيدها.

"ابقي معي يا دينا. اجلسي معي فحسب كمـــا لـــو أننـــا في دار العبـــادة الكبرى... على الأقل، اسمحي لي بأن أؤخّر مغادرتك قليلاً".

فوقفت أمامه وجهاً لوجه من دون القيام بأي شيء للتخلص من قبضة يـــده. لقد بدا الأمر كما لو أن ضوء القمر يزيد عظمتَي خـــدَّيها النحيفـــتَين، وعينَيهـــا

الكبيرتَين الحزينتَين جمالاً. ومرّت ثوانٍ قليلة. ومن ثم، ضغطت على يده، وانحنت إلى الأمام وقبّلته على خدّه.

"أراك في المجمّع".

وغادرت قافزةً على الدرَجات الصخرية في اتجاه الطريق العام في الأسفل.

"من هنا إلى حيفا!". صرخ قائلاً.

"ضَع صرّة ثلج عليه!" أجابت.

عندما وصلت إلى الأرض المنبسطة، تجنّبت التلة واختارت الدرب الذي يمرّ على مقرُبة من الطريق 40 في اتجاه الصحراء. لم تكن تسمع سوى صوت وقْع قدميها، والعواء الكئيب لأحد الضباع بعيداً. تمتد الدرب بشكل مستقيم مسافة بضع مئات من الأمتار، وتقوم على جانبَيها جلاميد، وصبّار متهدّل من حين لآخر، ومن ثم تتجه نزولاً عبر فِلق ضيّق، مروراً بمنعطف حاد إلى اليمين. ارتسمت أمامها على بُعد أكثر من كيلومترَين مجموعة من المباني البرّاقة تحت ضوء القمر: سطوح مقبَّبة، جدران مطليّة باللون الأبيض كما لو أنها مكعَّبات سكّر مبعثَرة، فحثّت الخُطى.

إنهم يقيمون هنا منذ ثلاث سنوات. ففي الأيام الأولى، عمل الأربعة انطلاقاً من شقتها في تل - أبيب. كانوا عُرضة لأنظار عدد كبير من الناس، وكان احتمال لفت انتباه غير مرغوب فيه بسبب مغادرتهم وعودتهم يصبح أكثر وضوحاً؛ ولا سيما عندما أصبحت مهامّهم أكثر جرأة، وتضافرت الجهود للإمساك بهم. كانوا قد هاموا على وجههم في فيلا فسيحة الأرجاء في ضواحي بئر سبع، ومن ثم انتقلوا إلى هنا رغبةً منهم بمزيد من الخصوصية.

بالعودة إلى الستينيات، كان المكان *موشافاً* مزدهراً (مزرعة) وإن كان بعيداً. لقد هُجر منذ زمن بعيد، واستولت العقارب وحيوانات السَّمَندل على مبانيه، وضاعت قطع الأرض المخصصة لزراعة الخضار تحت غطاء من الغبار والأعشاب الضارّة. لقد اختاروا هذا العقار، وجعلوه في حالة مناسبة، ونصبوا ألواحاً لتوليد الكهرباء من الطاقة الشمسية، وتزوّدوا بنظام الاتصالات الهاتفية عبر الأقمار الاصطناعية وعبر الإنترنت. ولكنهم لن يمكثوا هنا إلى الأبد. فالقاعدة الأولى في هذا العمل: لا تثبّتوا أقدامكم أبداً، وكونوا على الدوام مستعدّين للانتقال في أي لحظة. ولكن المكان ملائم تماماً لمتطلباتهم في الوقت الحاضر.

لقد سدّدت كل النفقات كما تسدد نفقات كل شيء. لم تُطلعهم على كيفية قيامها بذلك، لأنهم لم يسألوها. القاعدة الثانية: ممنوع طرح الأسئلة غير الضرورية. كان الأربعة مقرَّبين من بعضهم كما لو أنهم عائلة، ولكن هناك نواحي من حياتها كانت بحاجة إلى الاحتفاظ بها لنفسها؛ حتى إنهم لم يكونوا يعرفون اسمها الحقيقي، وستستمر الأمور على هذا النحو. فالماضي قد مضى.

وصلت إلى المجمَّع بعد أقل من ثماني دقائق، قاطعةً المسافة الأخيرة - أربعمئة متر - ركضاً. كانت غرفة تامار مظلمة؛ لا بد من أن تكون قد أوَت إلى الفراش باكراً. وفاز في غرفة التكنولوجيا كما هو حاله على الدوام - يمكن التكهّن بذلك بسبب الوميض الرمادي المخيف المنبثق من نافذته - فقد كان يبدو منحنياً أمام إحدى الشاشات وسابراً أغوار المناطق السفلية للفضاء السايبيري. فاز هو الشخص السيّئ بين مجموعة من الأخيار؛ فهو عربي - إسرائيلي بالتأكيد، ولكنه انطوائي. إنه عبقري في التكنولوجيا وأحد أفضل المتسلّلين إلى ملفات الكمبيوتر في هذا المجال، لذلك لا عجب إذا كان كلامه قليلاً - فالكل يخدم بطريقته الخاصة - وباستطاعته التسلل إلى ملفات الكمبيوتر، وزرع فيروس، واستخدام السلاح. هذا كل ما يهمّ. وفي نهاية النهار، لا يكون أحد في مِزاج جيد لتبادل أطراف الحديث.

أسندت ظهرها إلى الجدار بجانب إحدى سيارات الدَّفع الرُّباعي ومدّدت رَبلتَي ساقَيها، مُدخلةً الهواء إلى رئتَيها، ثم توجهت إلى غرفة التكنولوجيا، ودسّت رأسها داخلها. كان فاز جالساً وظهره للباب، وعيناه مسمّرتان على الشاشة، وحول رأسه هالة من دخان السجائر.

"هل هناك أي جديد؟".

فمدّ ذراعه ووجّه إبهامه نحو الأرض، محرّكاً إيّاه صعوداً ونزولاً كإمبراطور روماني يومئ لإنهاء حياة أحد المصارعين. لم يتبدل الأمر في الأيام الستة الأخيرة منذ انتشار نبأ الجريمة وتسللهم إلى الملفات الكمبيوترية التابعة لشرطة إسرائيل بهدف مراقبة مُجريات التحقيق. فأيّاً يكن ما يقومون به، لم يكن رجال التحري بملابسهم الزرقاء يقتربون من الإمساك بالقاتل.

"بارين؟".

ووُجّه الإبهام نحو الأرض مرة أخرى.

"هل أنت متأكد؟".

"أجل".

هذا كل ما كان بالإمكان الحصول عليه من فاز. طلبت منه متابعة المسألة، ثم خرجت وعبرت الباحة إلى غرفتها الخاصة، حيث تعرّت ودخلت الحمام للاستحمام. وبعد أن أغلقت الستائر، فتحت صنبوري المياه ووقفت تحت الدُّش مباشَرةً، غير منتظرةٍ أن يسخن الماء قليلاً، ومُرجعةً رأسها إلى الوراء، وسامحةً للمياه المتدفقة بالانسكاب على وجهها ونهدَيها. وبعد مرور دقيقة، شعرت بتوتر فجائي، واستدارت بينما كانت صورة شخص ما تلوح وراء الستائر غير الشفافة. وبشكل فطري، أطبقت قبضتَي يدَيها استعداداً لمواجهته، ولكنها أقلعت عن ذلك عندما سمعت صوت تامار.

"هذه أنا. كان الباب غير مُقفَل".

فمدت يدها وفتحت الستارة من دون القيام بأي شيء لإخفاء جسدها العاري. كانت تامار واقفة في الجهة الأخرى: رشيقة، داكنة البشرة، ذات شعر قصير، تي - شيرت بيضاء فضفاضة تنسدل حتى ركبتَيها.

"هل أنت بخير؟". سألت تامار بلطف.

فأومأت دينا برأسها.

"أنا قلقة عليك".

"أنا بخير".

"حقاً؟".

"حقاً".

وقفتا وهما تنظران إلى بعضهما، واستمرت المياه بالتساقط كشلال على رأسها وظهرها، وبالتطاير كرذاذ على أرضية الحمّام المبلّطة. ومن ثم، وقفت جانباً مبتسمة. ومدّت تامار يديها ورفعت التي - شيرت فوق رأسها، ثم انضمت إلى دينا تحت الدُّش.

"سنوقع بهم، يا دينا. أعدك، سنوقع بهم".

و لم تقل دينا شيئاً، بل أغلقت الستارة بيد وملّست شعر رفيقتها باليد الأخرى.

لم تعمد أيّ منهما إلى تفادي الكاميرا المثبَّتة في فتحة التهوئة فوق الدّش، وما كانتا لتقوما بذلك حتى لو كانتا تنظران إليها مباشَرةً؛ فهي مخبّأة جيداً، على غرار

كل الكاميرات الأخرى وما كانتا لتلاحظاها. وكان المراقِب يراقب من دون أن تُدركا ذلك.

مصر - بين الأُقصُر وقِنا

أخرج يوسف خليفة سيجارة كليوباترا وحدّق خارج النافذة في أثناء توجّه القطار ببطء في اتجاه الشمال، مارّاً بقرى مبنيّة بآجر طيني، وبحقول ذُرة صفراء وقصب سُكّر، وبكشك جزّار تتدلّى منه الذبائح ورؤوس الأغنام المقطوعة. وفي مرحلة من المراحل، توقف القطار مهتزّاً، ووجد خليفة نفسه يحدّق بمجموعة من الفتيان يلعبون على طَوف مرتجَل وسط قناة للرّي. فتسمّر في مكانه، مقاوماً رغبته في إخراج رأسه من النافذة والصراخ في وجوههم للابتعاد عن الماء. كان جهاداً مريراً - كل ما يذكّره بابنه كان جهاداً مريراً - وتنفّس الصُّعداء عندما انطلق القطار وأصبح المشهد وراءه. أخذ نفساً أخيراً من سيجارته، ثم رمى عَقِب السيجارة تحت قدمه مع حرصه على عدم إزعاج الرجل المُسنّ الذي كان يؤدي صلاة الظهر على أرضية الحافلة أمامه.

لم تحدث أي تطورات في مزرعة عطيّة، وكان لا يزال ينتظر نتائج تحليل المياه التي سيحملها له صديقه عمر، ولكنه أصبح مقتنعاً أكثر فأكثر بأن الرئيس الحسَني مُحِقّ، وأن المسألة برمّتها لا تستحق العناء. كان قد أجرى بعض التحقيقات حول فقدان كُتل تالاتات الحجَرية من الكَرنَك، وتابع رواياتٍ تتناول عصابة تتاجر بالمنشطات تعمل في سوق الأُقصُر، وتبيّن له أنها مجرّد روايات. عدا عن ذلك، لم تكن لديه أي مهام أخرى، وباستحواذ افتتاح المتحف في وادي الملوك على عقول الرئيس وبقيّة أفراد المركز، وجد الفرصة مُتاحة له للقيام ببعض الاستقصاءات لصالح بِن - روي من دون أن يلفت انتباه أحد.

وثبت في النهاية أن ذلك الاستقصاء مثير للاهتمام على نحو غير متوقَّع.

كان الإسرائيلي قد أرسل له المعلومات الأوّلية الأساسية عن القضية، بما في ذلك صلة محتمَلة بشركة تدعى بارين كوربوريشن؛ وهي الشركة نفسها المسؤولة عن إنشاء المتحف الجديد في وادي الملوك؛ إنها مصادَفة مثيرة للفضول.

وساموبل بينسكر اسم جديد بالنسبة إليه. كان بِن – روي قد أجرى بحثاً على الإنترنت، وتبيّن له أن بينسكر بريطاني انخرط في عمل آثاري في نِكروبوليس الطيبيّة، وفُقد عام 1931، وكان مُصاباً بنوع من أنواع التشويه الوجهي المُزمِن. حتى إن الاكتشاف المسرحي لجثّته عام 1972 في قعر مدفن ناءٍ في الجبال الغربية لم يلقَ سوى اهتمام عابر، وتمّ التركيز على الافتراض المُريع بأنه عانى من موت بطيء وموحِش. لقد عاش في مصر وعمل فيها، ولقي حتفه في التلال القائمة فوق وادي الملوك. لم يتمكن خليفة من إيجاد أي رابط واضح بينه وبين القضية التي قام بِن – روي بإرسال تفاصيل له عنها.

وثبُت أن سجلات الشرطة المصرية توفّر المزيد من المعلومات؛ وهي أكثر إثارة للفضول.

كان توافر السجلات بمثابة مفاجأة بالنسبة إليه. فقد حدث كل ذلك منذ زمن بعيد – مرّت مدة طويلة جداً على قضية اختفاء بينسكر – ولم يكن خليفة يتوقّع توافر مدوَّنات عن القضية يُحتمَل أن تكون قد فُقدت أو أُتلفت. لحسن الحظ، لم يكن هاجس الشرطة المصرية مقتصراً على الأعمال الكتابية فحسب، بل على الاحتفاظ بها أيضاً – في العادة، كان ذلك أمراً مزعجاً تماماً بالنسبة إلى خليفة – ولكنّه لصالحه في هذه الحالة. لقد تطلّبه الأمر مدة من الزمن لاقتفاء أثر ما يحتاج إليه، وانتهى الأمر بحصوله على معلومات هامة قبل يومَين. فقد عثر على مجموعتين من المدوَّنات – إحداهما مرتبطة بالعثور على جثة بينسكر، والأخرى مرتبطة باختفائه – والاثنتان مضمومتان بسلك، وموضوعتان على رف في منشأة حكومية للتخزين في إسنا.

تحرك خليفة بحذر كي لا يُزعج الرجل الذي يصلّي، ورفع الكيس الموجود عند قدمَيه وأخرج ملفّين.

فالملف العائد للعام 1972 هو الأكبر بين الملفَّين، ويتكوّن من رزمة من الصور الفوتوغرافية بالأبيض والأسود: عن المدفن – ثُقب عميق أسطواني الشكل ينتهي بغرفة بسيطة للدفن محفورة في الصخر – وعن جثة بينسكر المحنَّطة، وعن الجثة لدى وصولها إلى المشرحة. وهناك تقريرُ أخصّائي في عِلم الأمراض، وتقريرُ تحرٍّ، وإفاداتُ ثنائيٍّ اكتشفا الجثة، لا بل أيضاً هناك تقرير الطبيب جوفري ريفز، وهو خبير في هندسة المدافن الطيبيّة، يحلل فيه قياسات المدفن ونفَقه غير المسقوف،

مستنتجاً أن تاريخه يعود لعصر المملكة الحديثة وبالتحديد للعائلة الثامنة عشرة الحاكمة. وفي أسفل كومة الورق رسالة من السيدة يهودية أصلاني من اللجنة اليهودية للأعمال الخيرية في مصر. وفي الرسالة موافقة على تحمّل مسؤولية جثة بينسكر، بسبب عدم وجود أنسباء أحياء، ودفنها في مقبرة البساتين في القاهرة. "ولكن، لسوء الحظ، وبسبب معوقات مالية، لن نتمكن من توفير شاهدة لقبره".

كان الملف العائد للعام 1931 أقل كثافة؛ كان قطعة تاريخية حقيقية، إذ اصفرّت محتوياته البالغ عمرها 80 عاماً مع مرور الزمن. وبالرغم من ذلك، لفت انتباه خليفة على الفور.

وهناك إفاداتُ عدد من الأشخاص الذين عرفوا بينسكر وعملوا معه، والإفادة الأطول والأكثر تفصيلاً تعود لامرأة تدعى أُم سعيد غومصان، وهي مالكة الغرفة التي استأجرها بينسكر في كوم لولاح.

ليلة اختفائه، كان الإنكليزي قد عاد للتوّ من الأُقصُر بعد غياب دام ثلاثة أشهر تقريباً - غالباً ما كان يقوم بذلك - شرحت السيدة، إذ يختفي طوال أسابيع متتالية قبل أن يظهر مجدداً بشكل مفاجئ. لذلك، كانت تُصرّ على الدوام على قبض الإيجار مُسبَقاً. لقد سمعت صوت دراجته النارية وهي تتوقف في الزقاق في الناحية الخلفية للمنزل في وقت ما من الساعات المبكّرة. غير أنه لم يدخل المبنى، ولم يظهر له أثر في صباح اليوم التالي، عِلماً أن دراجته النارية بقيت هناك، والسلة الخلفية المثبتة إليها قد تم فك رباطها جزئياً. وبسبب تعوّدها على مجيئه وذهابه غير المنتظمين، لم تُعِر الأمر اهتماماً. وفي هذا الصباح، ولأسباب لم تتمكن من شرحها، انتابها شعور مُسبَق بوقوع مأساة. لقد تحدّثت إلى شقيقها الذي اتصل بالشرطة بدَوره. نهاية الإفادة.

كانت الشهادات الأخرى أكثر إيجازاً وتحتوي على معلومات أقلّ، عِلماً أن رجلاً ما - يدعى محمد البدري من الشيخ عبد القُرنة - ادّعى أنه رأى بينسكر يسير بين التلال محتسياً الشراب من قنّينة، وهو يبدو ثملاً. وهناك صورة فوتوغرافية لدراجة الإنكليزي النارية، ونسخة لمُلصَق إعلاني يطلب من كل من يملك معلومات عنه الاتصال بالشرطة أو بعمدة القرية، كما توجد برقيّة من المفوّض البريطاني الأعلى السير بيرسي لورين يحثّ فيها سُلطات الأُقصُر على بذل قُصارى جهدهم لتحديد مكان السيد بينسكر.

كل محتويات الملفَّين مثيرة للاهتمام تماماً. ولكن المستند الذي زاد من سرعة نبض خليفة إلى حد كبير كان مخبّأً في جَيب في الناحية الخلفية للملف، فقد كان عبارة عن رسالة بخط اليد من صفحتَين وجّهها أحد زملاء بينسكر في علم الآثار، مُرفَقة بوصف موجَز للرجل المفقود - صورة بسيطة لشخص يرتدي معطفاً جلدياً، ووجهه مخبّأ وراء قناع من نوع ما - وموقَّعة باسم بدا مألوفاً جداً لخليفة، بخلاف بينسكر الذي لم يبدُ مألوفاً له: هوارد كارتر.

بعد فتح الملف، التقط الرسالة وقرأها للمرة العاشرة، مبعداً رجليه بشكل جانبي في أثناء قيام الراكب المُسنّ بإنهاء صلاته والعودة إلى مقعده بجانبه.

لوَة الديبان

الأُقصُر - 14 أيلول/سبتمبر 1931

عزيزي النقيب سليمان،

ردّاً على استعلاماتك المتعلقة بالسيد ساموئيل بينسكر، قد تُقدّم التذكيرات التالية بعض المساعَدة.

قبل الساعة العاشرة بقليل، أيقظني صوت دراجة نارية مقتربة من ناحية ذراع أبو النجا. وبعد قليل، كان هناك قَرع على بابي الأمامي مُرفَق بصوت السيد بينسكر. لقد بدا ثملاً جداً، وكان يصرخ على نحو غير مترابط، منادياً بما معناه "لقد عثرتُ عليها، يا كارتر"، و"يبلغ طولها أميالاً". واستمر الإزعاج لدقائق عدة، ومن ثم طلبتُ منه المغادرة والرحيل. لم نتواصل وجهاً لوجه.

لفد عرفتُ السيد بينسكر طوال ثلاثة أعوام. وفي العام الأخير، عملتُ لفترة مع السيد كالِندر على إعادة تدعيم مدخل مدفن توت عنخ آمون. أعتقد أنه قدّم النُّصح للسيد وينلوك أيضاً في دير البحري، وللسيد شوفرييه في الكَرنَك.

بالرغم من أنني لم أستسِغ عملية إيقاظي بتلك الطريقة، إلاّ أنني كنت على ثقة تامة بأنه سيتم العثور عليه بصحة جيدة.

أنا على أتمّ الاستعداد لتقديم أي مساعدة إضافية...

بإخلاص،

هوارد كارتر.

"التذكرة".

من دون أن يرفع نظره، سحب خليفة شارة الشرطة وشهرها. فنظر إليها مفتّش التذاكر، ثم غادر مُهمهِماً، وتاركاً خليفة يحدّق بالمستند وغافلاً عن النظرات المحدّقة المرتابة للركاب المحيطين به.

فرسالة كارتر أصلية، ولا تصادفون مثلها كل يوم، لا سيّما وأنها مُرفَقة بعرض موجَز مكتوب بيد عالِم الآثار العظيم. والإشارة إلى منقّبين معاصرين آخرين جعلت الأمر مثيراً للاهتمام بشكل مضاعَف إذ قدّمت لمحة خاطفة عن العصر الذهبي لأعمال الاستكشاف المصرية. وعندما أبلغ خليفة القيّم على منزل كارتر في الضفة الغربية بما وجده، ألقى الرجل الهاتف من يده، وكان متلهّفاً لوضع يدَيه عليه.

وما أثار فضول خليفة حقاً أكثر من المعنى التاريخي للرسالة هو الكلمات التي قالها بينسكر في أثناء زيارته مسكن كارتر ليلة اختفائه. *لقد عثرتُ عليها يا كارتر. يبلغ طولها أميالاً* . ما معنى ذلك؟ ما هو هذا الشيء الذي يبلغ طوله أميالاً؟

والفكرة المباشَرة التي تبادرت إلى ذهنه هي أن بينسكر ربما كان يشير إلى المدفن الذي لقي فيه حتفه؛ فالعثور على مدفن غير معروف يعود للعائلة الثامنة عشرة الحاكمة مصدر إثارة بالتأكيد. ربما عثر بينسكر على المدفن، وتوجّه إلى منزل كارتر للتفاخر باكتشافه، ومن ثم عاد إلى التلال وسقط في الحفرة لأنه كان ثملاً. ولكن الإنكليزي قال: "يبلغ طولها أميالاً"، ولا يتطابق هذا الوصف بالتأكيد مع مدفن متواضع مكوَّن من غرفة واحدة وفقاً للصور الفوتوغرافية العائدة للشرطة. هل كان ثملاً بشكل مُفرِط؟ ربما، ولكن كلامه يبدو غُلُوّاً غير ملائم. كان خليفة قد ناقش المسألة مع القيّم على منزل كارتر، ولكن الرجل لم يتمكن من مساعدته. إذ لم يسبق له أن سمع بساموبل بينسكر. ولكن صديقه القديم وناصحه الأمين البروفيسور "محمد" الحبيبي الذي يعمل في متحف القاهرة سمع به من دون أن يتمكن من إلقاء المزيد من الضوء على اللغز. وكارتر نفسه توفّي عام 1939، لذلك لن يتمكن من تقديم أي تفسير.

لقد عثرت عليها يا كارتر. يبلغ طولها أميالاً.

هل ما عثر عليه هو الصِّلة في قضية بن - روي؟ وهل هذا هو سبب اهتمام الصحافية المتوفّاة بساموئيل بينسكر؟ أم إنَّ هذا مجرد أوهام على غرار سيناريو تسميم بئر القبطي؟ لم يكن يملك أي فكرة. هناك أشخاص آخرون يحتاج إلى التحدث إليهم، ومنهم ماري دوفريسن. فهي تعرف كل ما يجب معرفته عن تلك الفترة.

ولكن، يتعيّن على ذلك الانتظار. في الوقت الحاضر، هناك أمور أخرى في ذهنه. وبعد قراءته الرسالة للمرة الأخيرة، أعادها بحِرص إلى جَيبه، وأغلق ملف العام 1931 وربطه، وفتح ملف العام 1972.

لقد لفتت الرسالة التي تتناول مقبرة البساتين انتباهه. فإذا كان بينسكر يهودياً، فإن ذلك يشير على الأقل إلى رابط مُبهَم مع إسرائيل. ولكنه لم يكن منزعجاً من هذا الأمر. أخرج رزمة الصور الفوتوغرافية وقلّبها حتى وصل إلى تلك الموجودة في الأسفل، والتي تحمل صورة المدفن. إنه مدفن مستطيلٌ من حجارة ذات لون مائل إلى الرمادي، وهو مطمور جزئياً تحت مجموعة متشابكة من الأغصان والعساليج.

أغصان وعساليج. لا معنى لوجود الأغصان والعساليج.

لهذا السبب، كان في طريقه إلى قِنا. فإذا كان كل المعنيّين العائدين للعام 1931 متوفّين ومدفونين، فإن بعض أولئك العائدين للعام 1972 ربما لا يزالون على قَيد الحياة، بمن فيهم إبراهيم صادق، الرئيس الأسبق لشرطة الأُقصُر، والرجل الذي ترأس التحقيق المرتبط بالعثور على جثة ساموئيل بينسكر المحنَّطة. ربما كان باستطاعة صادق إعطاؤه بعض الإجابات.

وحدّق بالصورة، ثم أعادها إلى الملف في أثناء مرور القطار بجانب مصنع الورق الكبير في قِنا الذي يتصاعد منه الدخان. كان بائع *غازاب زوكر* يشق طريقه في المقطورة عبر حَشد الركاب، رافعاً صينية كُدّست عليها مخروطات مليئة بسُكّر غير مكرَّر، منادياً كما جرت العادة. فلوّح له رجل يرتدي بذلة، والتقط أحد المخروطات، وقدّمه لفتى جالس بجانبه؛ إنه ابنه كما خمّن خليفة من الطريقة التي وضع بها الرجل ذراعه حول كتفَي الفتى وجذبه نحوه. فاستكنّ الفتى وقد شعر بعاطفة والده، وقضم المخروط ورفعه في اتجاه الرجل ليتناول قضمة، وكان الاثنان

غير مُدركَين أهمية هذه اللحظات الرائعة والعابرة. راقبهما خليفة للحظات، ثم مسح عينَيه وأشاح بنظره عنهما.

كان كل تذكير بمثابة صراع بالنسبة إليه.

إسرائيل - بين القدس وتل - أبيب

كان بِن - روي يتحرك أيضاً، ولكن بواسطة السيارة، وفي اتجاه الغرب مجدداً على الطريق 1، وعبر تلال اليهودية نحو السهل الساحلي والبحر.

كانت خمسة أيام محبطة.

والقول إن التحقيق قد توقّف أمر يحمل سلبية وتشاؤماً، ولكنه لم يكن يجري بسرعة أيضاً بل يتقدم رويداً رويداً. وبعد تشبُّث الصحافة بالقصة، تخطّى الضغطُ الذي تمارسه للتوصل إلى إدانةٍ كلَّ المقاييس. كانت قلّة التداول الأساسية حول الجريمة قد تحوّلت إلى إرجاء للتداول بها؛ في ما يشبه الهدوء الذي يسبق العاصفة. وكانت ليه شاليف تُستَدعى مرتَين في اليوم لبحث آخر التطورات مع الرئيس غال والضابط المسؤول عن القضية بوم. ولم يكن الأمر مريحاً بالنسبة إليها بسبب قلّة المستجدات. وقبل يومَين، كان بوم قد ذهب بعيداً جداً في ممارسته الضغوط عليها، فأوحى بأنها ليست على مستوى هذه القضية المصحوبة بدعاية كبيرة، وأنه ربما يُفترض به متابعتها بنفسه. وحفاظاً على صدقيته، اتخذ غال جانب المحقّق المسؤول، عِلماً أن دعمه ترافق مع بعض التعديلات: "أحتاج إلى تحقيق تقدّم ما في هذه القضية يا ليه، وأنا بحاجة إليه قريباً. لديك أسبوع. إذا لم نقترب ولو قليلاً من تحقيق شيء ما حتى ذلك الوقت، فسيتعيّن علينا مراجعة الوضع".

وساعد كل ذلك على ظهور جوّ مشاكس يفوق ذاك الجوّ الذي ساد المدينة القديمة في أثناء قضية القتل الثانية؛ قضية طَعْن طالب *اليشيفا*. ففي السنوات التسع التي قضاها في المركز، لم يرَ بن - روي مطلقاً مستوى التوتر الذي يشهده الكيشِل حالياً. فالمكان أشبه بمِرجل على وشك الانفجار. بصدق، كان سعيداً بالابتعاد عن هذا الجوّ لبقية اليوم.

أطلق بوق السيارة، وانحرف إلى وسط الطريق لتجاوز ناقلة آليات تابعة للجيش الإسرائيلي متوجّهة إلى الساحل، وعلى متنها دبّابتا ميركافا. وبعد أن تجاوزها، عاد إلى المسرَب الأوسط، وأجرى اتصالاً سريعاً بسارة - لقد شعرت بتوعّك صحّي في الليل، وأراد التأكد من أنها بخير - وتناول رشفة من القهوة الفاترة التي كان قد اشتراها من إحدى محطات باز قبل أميال قليلة. على محطة *كول ها - ديريك* الإذاعية، حلّت مكانَ بالب مغنّيةٌ أميركية تدعى سوزان تِسِشي ضمن برنامج بعنوان *نبحث عن إجابات*. حتى الراديو اللعين يتناول قضيّته.

كانوا لا يزالون يحققون على ثلاثة مسارات: يوري بينكاس يتابع عمله في المنحى الروسي والعبري، واتّسعت اهتماماته لتشمل كل التهديدات الأخرى بالموت التي تلقّتها كلينبرغ على مَرّ السنين بسبب كونها صحافية. وآموس نامير يواصل كدّه على الجانب الأميركي للأمور، إضافةً إلى مسألة الفتاة فوسغي المرتبطة كما يبدو بالمنحى الأميركي. لم يكن أيّ منهما يُحرز تقدّماً سريعاً، ولم يكن أيّ منهما يحظى بفترة راحة.

من جهته، كان بن - روي لا يزال يتابع مجموعة أطراف الخيوط المتشابكة وأطراف الخيوط المعاكِسة التي تمّ العثور عليها في كتابات كلينبرغ الصحافية: الاتّجار بالمخدرات، مصر، بارين، نِمسيس أجندا؛ كل هذه الأمور لا تزال قَيد التدقيق، ولكنه لم يتمكن بعد من معرفة سبب وجودها على الطاولة في شقة كلينبرغ، ومدى ارتباطها ببعضها.

لأكون مُنصِفاً، لقد حدث تقدّم ما - فكر بِن - روي - فدوف زيسكي الذي يصبح أساسياً أكثر فأكثر مع مرور كل يوم، قدّم معلومتَين صغيرتَين قيّمتَين ومثيرتَين للاهتمام.

تتعلّق المعلومة الأولى بالرحلة التي خططت ريفكا كلينبرغ للقيام بها إلى مصر. فهي لم تحجز لنفسها مقعداً على متن الرحلة المتوجهة إلى الإسكندرية ليلة مقتلها فحسب، بل تبيّن أيضاً أن لديها حجزاً في فندق في روزيتا، وهي بلدة صغيرة على بُعد ستين كيلومتراً من ساحل الإسكندرية. ويبقى ما كانت تعتزم القيام به هناك لغزاً. ولكن، أيّاً يكن الأمر، من الواضح أنها لم تكن تتوقع أن يدوم طويلاً. فالحجز لليلة واحدة فقط، ومن ثم ستعود على متن رحلة جوّية متوجّهة إلى تل - أبيب.

والمعلومة الأخرى تتناول شركة بارين. فقد أجرى زيسكي مزيداً من البحث عن خلفيّة الشركة، وتمكّن من اكتشاف صلة أرمنية وإن كانت قديمة العهد. ففي الثمانينيات، وعبر شركة تابعة تدعى واي جي إي - يريفان غولد إكسبلوريشن - حصلت بارين على حصة مسيطِرة في منجم ذهب كبير شرق البلاد على الحدود مع أذربيجان. وتسببت نزاعات حول الترخيص مع الحكومة الأرمنية بالتخلّص من الشركة عام 1991، ولكن هذا لا يزال رابطاً مثيراً للاهتمام وهاماً.

وحدث تطوّران آخران. أحدهما استهداف آخر لبارين من قِبَل *نمِسيس أجندا* التي تسللت إلى ملفات شبكة الكمبيوتر التابعة للشركة؛ فقد اكتشف زيسكي هذا الأمر على الإنترنت، وهو يستحق لذلك الخناءة احترام مرة أخرى.

ولكن طرف الخيط الأكثر تشويقاً هو ذاك الذي اكتشفه بن - روي. وقد جعله ذلك يشعر بالارتياح بسبب قيام زيسكي بمعظم أعمال الجَوجَلة في الأيام القليلة الماضية.

ففي أثناء لقائه مايا هيلِل في ملجأ هوفيش، كانت قد أشارت إلى قَوّاد يدعى غينادي كريمينكو. فكريمينكو أوكراني المولد - مع زوجته وابنَيه - يدير إحدى أكبر شبكات البغاء في تل - أبيب باستخدام فتيات تمّ الاتّجار بهنّ عن طريق مصر وعبر سيناء. ووفقاً لهيلِل، أبدت ريفكا كلينبرغ اهتماماً خاصاً بتلك الطريق. وبما أن كريمينكو قد احتكر هذه العملية في الواقع، قرر بن - روي إلقاء نظرة على الأمر عن كثب.

لقد اعتُقل كريمينكو قبل شهرَين وأوقف احتياطياً في *أبو كبير*، وهي منشأة احتجاز عند زاوية المركز الوطني للطب الشرعي جنوب تل - أبيب. كان بن - روي يعمل بالتعاون مع وحدة الجريمة المنظَّمة المناهضة للاتّجار بالجنس، وقد أرسل له أفراد تلك الوحدة نسخات عن كل ما لديهم من معلومات عن الرجل الذي كان قَوّاداً لمئة فتاة كما يبدو، ومعظمهنّ أوروبيات شرقيات، عِلماً أنه وسّع دائرة اهتماماته في الآونة الأخيرة لتشمل فتيات شرقيات وأفريقيات أكثر فأكثر. كان كريمينكو يعمل في شقّتَين أو ثلاث شقق موزَّعة حول المدينة - ولا سيما في نيفي شَعَنان - ويُعلَن عن خدماته عبر الإنترنت، ومن خلال بطاقات عمل يضعها في أكشاك الهاتف، وعلى الزجاج الأمامي للسيارات، وتقوم شبكة من المهتمّين

والفتيات ومساعدي القَوّادين بالمراقبة. هذا هو مستوى الخوف الذي كان يوحي به، عِلماً أن وحدة الجريمة المنظمة عجزت عن العثور على أي فتاة مستعدة للشهادة ضد كريمينكو بالرغم من عدد عملائها وما تقدّمه من ضمانات وحماية. لهذا السبب، وبالرغم من العدد الكبير للأدلة الظرفية، قرر مكتب المدّعي العام العمل في اتجاه إصدار إدانة تتعلق بالتهرب من دفع الضرائب وغسل الأموال بدلاً من التركيز على الاتّجار بالجنس والمكاسب المنافية للأخلاق.

وفي ما يتعلق بعملية سيناء التي قام بها كريمينكو وكان بِن – روي شديد الاهتمام بها، فإن الملفات لا تحتوي على أي شيء تقريباً. لقد استُقطبت الفتيات من بلدانهنّ الأم، وأُرسلنَ إلى مصر، ونُقِلنَ عبر الحدود بمواكبة البَدو. الأمر مماثل تماماً لما أخبرته به هيلِل.

لقد بدا الأمر كما لو أنه أمام طريق مسدود، ولكنه حظي بإحدى ضربات الحظ تلك التي تبدّل مسار قضية برمّتها. كان لبِن – روي مصدر معلومات في *أبو كبير*، وهو سجّان تعرّف إليه في كلّية الشرطة، وتمّ نقله إلى خدمة السجون. فالسجّانون يُصغون باستمرار، لذلك اتصل به بِن – روي، وشرح له الوضع، وسأله إن كان يعرف أي شيء قد يكون مفيداً، فكان الأمر كذلك.

لقد ثبت أن غينادي كريمينكو قد قابل زائرة تدعى ريفكا كلينبرغ قبل ثمانية عشر يوماً.

لذا، ها هو بن – روي يتوجه إلى *أبو كبير* لتبادل أطراف الحديث مع الرجل الذي يدعونه *مدرِّساً* للاستفهام عن سنّ بعض الفتيات اللواتي يعملنَ لحسابه. ملقياً نظرةً سريعة على كومة أكياس *تويز أر أز* الموضوعة على مقعد الراكب، انعطف بِن – روي لَتجاوز ناقلةِ دبابات أخرى، وزاد من سرعته متخطّياً 120 كيلومتراً في الساعة على عدّاد السرعة. فلديه ساعة واحدة فقط لمقابلة كريمينكو، ولم يشأ التأخر.

مصر

بخلاف الأُقصُر القائمة على بُعد ستين كيلومتراً إلى الجنوب، تُقدّم بلدة قِنا – الجاثمة عند انعطافة النيل، وقد أُطلق عليها هذا الاسم تيمّناً بهذه الانعطافة – القليل

من الامتيازات للزائرين الأجانب. فلا وجود للفنادق في سوقها، أو مطاعم تقدّم السمك وشرائح البطاطا المقليّة والفطور الإنكليزي، وكل اللافتات بالعربية. إنها بلدة تستقبل عدداً قليلاً من الزائرين، وأولئك الذين يقصدونها – لزيارة معبد هاتور في دَندرة على الضفة الأخرى للنيل – يكونون برفقة عناصر من الشرطة. لقد شنّت الجماعة الإسلامية في التسعينيات عدداً من الهجمات في المنطقة، وانخفض عدد الزائرين رغبةً منهم في عدم المجازفة.

كان إبراهيم صادق يُقيم في المجمّع السكني المقابل للنهر، والذي يبعد مسافة خمس دقائق عن وسط البلدة. لم يكن من السهل إجراء مقابلة معه؛ إذ يحافظ الرئيس السابق للشرطة على خصوصيّته، ولا يستقبل زائرين. ولكن طلبَ خليفة مناقشة قضية بينسكر أثار اهتمامه، فمنحه موعداً بعد أن اشترط عليه أن يكون الموعد لفترة قصيرة. اتصل به خليفة لحظة ترجّله من القطار، ودخل المجمّع السكني بعد لحظات من الضغط على الهاتف الداخلي. كان صادق في انتظاره خارج باب شقته. إنه صَعيدي طويل القامة، ذو شعر رمادي مقصوص، وعينَين باردتَين، وأسنان غير سليمة. تصافح الرجلان، وتبادلا المُزاح المعتاد، ثم دخل.

خدم صادق في سلك الشرطة قبل خليفة. كان قد التقاه مرتَين، ولمدة وجيزة، في مهام رسمية، ولكنه لم يتحدث إليه قطّ. كان يعرفه من السُّمعة التي امتاز بها: فهو رجل قاسٍ، ولكنه ليس بقساوة الرئيس الحَسَني وإيهاب علي محفوظ، السَّلَف المباشَر للحَسَني. فقساوتهما تكمن في جسديهما وفي قبضات أيديهما بالتحديد، ولكن "صادق" أكثر من مفكّر؛ إنه واضع خطط ومعالج للأمور. وفي حين يمتاز الحَسَني ومحفوظ برفع أكمامهما ومهاجمة المشتبَه به، يفضّل صادق البقاء في الظلال وشدّ الحبال بينما يقوم آخرون بالأعمال التنفيذية. كان الجميع يخشونه؛ رجال الشرطة والمدنيون على حد سواء. ففي ظل رئاسة صادق، تقول الشائعات إن المستخدِمين الحكوميين لوسائل التعذيب لم يعودوا منهمِكين بعملهم.

رافق صادق خليفة إلى غرفة الجلوس – بسيطة، مرتَّبة، عملية – حيث قدّمت لهما الشاي امرأة مهندَمة افترض خليفة أنها زوجة صادق. وبعد مغادرتها، جلس الرئيس السابق على كرسيّه وتربّع، واضعاً كوب الشاي على ركبته بشكل متوازن. كان الصوت المنخفض الصادر عن مكيّف الهواء يتردد في أرجاء الغرفة.

وصدر من المطبخ صوت فرقعة متقطّعة لقاتلة ذباب كهربائية، فوجد خليفة الصوت مُربِكاً. لقد بلغه أن الكهرباء إحدى وسائل الاستجواب المفضّلة لدى صادق.

"إذاً، أيها المفتش، لقد جئتَ من أجل الرجل الذي لا وجه له".

بدون مقدّمات، وإلى صلب الموضوع مباشَرةً، مع القليل من التركيز على كلمة مفتش لتذكير خليفة بمكانته الحقيقية في الهرمية، والتكلّم معه بحذر. وحتى في أثناء تقاعده، لم يكن صادق الشخص الذي قد ترغبون في معارضته.

"كنتَ مسؤولاً عن التحقيق"، استهلّ خليفة كلامه مُخرِجاً الملف الثاني من الكيس الذي كان يضعه عند قدمَيه. "أردتُ فقط استيضاح أمرَين".

"بعد مرور أربعين عاماً على الحادثة؟".

"أشار أحد الأصدقاء إلى القضية، فأردتُ إلقاء نظرة. إنه مجرد اهتمام شخصي".

لقد اعتبر أنه من الأفضل إبقاء بِن – روي خارج المسألة. فقد بلغه أن الإسرائيليين سجنوا شقيق صادق في حرب رمضان عام 1973، و لم يستطع أن يتخيّله ميّالاً إلى المشاركة في أحد تحقيقاتهم؛ وإن بشكل غير مباشَر. حدّق به الصعيدي، وكان في نظرته ما يذكّر بالزواحف إلى حد ما لأن عينَيه لم تكونا ترفّان. لقد بدا للحظات كما لو أنه يريد معرفة المزيد من التفاصيل، ولكنه وضع كوب الشاي جانباً ومدّ يده، مما أثار ارتياح خليفة.

"أَرِني".

فانحنى خليفة ومرّر له الملف. وضع صادق نظارته ثم فتح الملف.

"لقد مرّت مدة من الزمن على رؤيتي هذه الأوراق"، تمتم وهو يقلّب محتويات الملف. "كانت قضيّتي الأولى بعد أن رُقِّيتُ إلى منصب مفتش أعلى. مقدّمة لا تُنسى".

وسحب صورة فوتوغرافية ووضعها في اتجاه الضوء: جثة بينسكر مُسنَدة إلى الناحية الخلفية للمدفن، محنَّطة بفعل حرارة الصحراء الجافة، الرأس إلى الوراء، والبشرة جافة ومشدودة بشكل غير طبيعي كما لو أن هيكله العظمي قد لُفّ بورق تغليف أبيض متّسخ، ويحمل بيده قناعاً جلدياً مزوَّداً بأحزمة وإبزيمات، فيه ثقبان صغيران جداً للعينَين، وفتحة صغيرة للفم في الوسط، وثنية صغيرة للأنف.

"كان شاباً وسيماً"، قال صادق مهمهماً، وأعاد الصورة إلى الملف. "رأيت ميتات قبيحة عندما كنت لا أزال في الخدمة، ولكن هذه... أظن أنك اطّلعت على تقرير تشريح الجثة".

في الواقع، لقد قام خليفة بذلك. إنه نص مريع. فبالإضافة إلى تعرضه لكسر في ساقَيه وذراعه اليمنى وثلاثة من أضلاعه في أثناء سقوطه في الثقب الأسطواني العميق، تعرّض بينسكر أيضاً لتمزّق في الطحال ولتصدّعات شديدة في الناحية الخلفية للجمجمة. لقد نجا من السقطة بالرغم من إصاباته، وخير دليل على ذلك جرّه نفسه إلى داخل الغرفة، وإعداده جبائر ارتجالية لأطرافه المهشَّمة ورفادة لرأسه. وبالرغم من أن قِدَم الجثة وحالتها جعلا وضع تخمين نهائي أمراً مستحيلاً، قدّر الأخصّائي في عِلم الأمراض أن الرجل الإنكليزي عاش ما بين يومَين أو ثلاثة أيام على الأقل قبل أن يموت في النهاية بسبب مزيج من التجفاف، وفقدان الدماء، والرضوض الداخلية. لم تكن نهاية خالية من الألم بالتأكيد.

أغلق صادق الملف وخلع نظارته.

"إذاً، ما الذي تريد استيضاحه؟".

"الأمر مرتبط بشكل رئيس بإفادة المرأة"، أجاب خليفة مادّاً يده ومسترجعاً الملف. "الإنكليزية، السيدة...".

وقلّب المعلومات للعثور على الاسم.

"... باورز. هناك أمر لم يبدُ منطقياً بالنسبة إليّ".

التقط صادق كوب الشاي، وارتشف القليل منه، وأومأ لخليفة للمتابعة.

"حسناً، وفقاً لروايتها، كانت تسير في التلال مع زوجها، وتوقفت لـ...".

وراجع المعلومات مجدداً، باحثاً عن الكلمة الدقيقة.

"... *تقوم بما تقوم به أيّ سيدة*، وأفترض أن ذلك يعني...".

"التبوّل".

"تماماً. لقد زلّت قدمها، وانزلقت، وتدحرجت إلى الوراء في اتجاه أسفل المنحدَر ودخلت الحفرة الأسطوانية".

ورفع نظره في اتجاه صادق الذي هزّ رأسه قليلاً للدلالة على صوابية الترتيب الزمني للأحداث.

"قالت أيضاً إنها لم تلاحظ الحفرة الأسطوانية من قَبل لأنها كانت مغطاة بالأغصان".

هذه المرة، لم يومئ صادق برأسه، بل حدّق بخليفة، وارتفعت زاويتا شفتَيه في ما يوحي بأنها ابتسامة خفيفة.

"أنتَ من أخذ إفادتها، أليس كذلك؟ يوم الحادثة، وبعد نقلها إلى مستشفى الأُقصُر العام".

"هذا ما أتذكّره".

"أعرف أن زمناً طويلاً قد مرّ على هذه الحادثة، ولكنك تذكر كيف كانت تبدو، أليس كذلك؟ هل بدت مُصابة بارتجاج في الدماغ أو مُربَكة؟".

"كانت *هاواغا*، أي أجنبية. ووفقاً لخبرتي، كلهم مُربَكون".

ابتسم خليفة للدُّعابة.

"ما أعنيه...".

"أعرف تماماً ما الذي تعنيه". وبدت البسمة على وجهه أكثر وضوحاً كما لو أنه يعرف ما الذي يرمي إليه خليفة ويستمتع بذلك. "لا، لم تبدُ المرأة مُربَكة تماماً، بل بالعكس. فقد كانت صافية الذّهن بشكل ملحوظ بالرغم من سقوطها في حفرة يبلغ عمقها عشرين قدَماً، وعثورها على رجل ميت في الأسفل".

"وهل كانت ثابتة على موقفها في شأن الأغصان؟ بأنها تغطّي الحفرة".

"آه، كانت ثابتة على موقفها تماماً، إلى أقصى حد".

"هذا ما لا أفهمه. إذا كانت الأغصان تغطي تلك الحفرة...".

ولم يُكمل كلامه، فقد رفع صادق يده مُشيراً إليه بالتزام الصمت. كان الرئيس السابق يطلق ابتسامة عريضة بالرغم من كون عينَيه فولاذيتي النظرات؛كما لو أن جزءاً منه يُجاري خليفة والجزء الآخر يحذّره. وصدرت من المطبخ فرقعة مكتومة مع قيام ذبابة أخرى بشَيّ نفسها. وكان هناك توقف قصير، ومن ثم قال صادق:

"قالوا إنك حادّ الذكاء".

"عفواً؟".

"الحَسَني، ومحفوظ، وآخرون تحدثتُ إليهم أيضاً. قيل لي إنك أحد الأشخاص الذين يتمتعون بذكاء حاد في الشرطة، كما يبدو. ترى أموراً لا يراها آخرون".

ثم وضع كوب الشاي جانباً، وألقى يدَيه على ذراعَي الكرسي، لاوياً أصابعه حول طرفَي الذراعَين الخشبيّتَين المنحوتتَين على صورة خُنفساء جعران. ولاحظ خليفة أن ظِفرَي إبهامَيه أطول بكثير من أظفار أصابعه الأخرى؛ كَما لو أنه يطيلهما عمداً.

"وأنت متمرّد أيضاً، كما قيل لي. لم تكن لِتنجو من العقوبة لو كنتُ رئيسك. في أيامي، لم يكن *أحد* يجرؤ على التمرّد".

تصلّبت ابتسامته، وغدت عيناه أكثر برودة، فبدّل خليفة جلسته، غير واثق من نتيجة ذلك، ومتسائلاً عما إذا كان قد أخطأ بالقدوم إلى هنا. ربما تتبدّل الأمور في مصر، ولكن يتعيّن عليك الاستمرار بالانتباه، ولا سيما عندما تكون مع عقرب مثل صادق. وساد صمت آخر غير مريح. ومن ثم، رفع الرئيس السابق يدَيه وصفّق بهما ببطء.

"ملاحظة دقيقة، أيها المفتش. حتى إن البروفيسور الذي وضع الدراسة حول المدفن لم يتطرّق إلى الأغصان. ولكنني فعلت. وها أنت تفعل ذلك الآن. أنت فعلاً شديد الذكاء".

وأعاد وضع يدَيه على ذراعَي الكرسي، ناقراً بسبّابته اليسرى. وسُمع صوت تكّة مكتومة في رَدهة المدخل مع فتح الباب الأمامي وإغلاقه، فافترض خليفة أن الزوجة قد غادرت المنزل.

"حالما أخبرتني الإنكليزية عن الأغصان، عرفتُ أن هناك خَطْباً ما. فأول ما تبادر إلى ذِهني، على غرارك، هو أنها كانت مُربَكة ولم تكن تتذكّر بطريقة صحيحة. ولكنها كانت مُصرّة على ذلك. كانت الأغصان تغطي الحفرة، مما يعني أنها وُضعت هناك بعد سقوط بينسكر فيها، وإلا لكانت قد اختفت في أثناء سقوطه. وبما أنه لا وجود للأشجار في محيط عشرة كيلومترات من الموقع، فلا بد أن يكون شخص ما قد حملها معه عمداً ووضعها هناك. هناك تفسيرات معقولة، ولكن التفسير الجليّ هو أن شخصاً ما أراد إخفاء المدفن أو بينسكر. والتفسير الجليّ لذلك هو أن...".

"سقوط بينسكر لم يكن مجرّد حادث".

صفّق صادق ببطء مرة أخرى.

"ولكنك لم تذكر شيئاً عن هذا الأمر في تقريرك"، قال خليفة.

"في تلك الظروف، ارتأيتُ أنه من الأفضل إبقاء عملية سرد الوقائع بسيطة".

"ولكن، هناك رجل قد قُتل".

"إنها إحدى الطرائق للنظر إلى الأمور".

"هل هناك طريقة أخرى؟".

"هناك على الدوام طريقة أخرى للنظر إلى الأمور أيها المفتش. إن كان هناك ما تعلّمتُه على مدى أربعين عاماً أمضيتها في الشرطة فهو أن لا شيء واضح تماماً".

تناول رشفة أخرى من شايه، وعيناه مثبّتتان على خليفة كما لو أنه يتحدّاه للسعي إلى إثبات وجهة نظره. لقد تعامل خليفة في السابق مع أشخاص مثل صادق - ولا يزال يتعامل معهم - ويعلم أن هناك أوقاتاً للإصرار، وأوقاتاً لالتزام الهدوء. إنه وقت التزام الهدوء. جلسا صامتَين للحظات، خليفة يهزّ قدمَيه وصادق يرتشف شايه. ومن ثم، وبإيماءة رأس، تناول الرئيس السابق ما تبقى من الشاي في كوبه ووضعه جانباً، وهو يسأله:

"أقلت إنه اهتمام شخصي؟".

"أجل، يا سيدي".

"هل أنت متأكد؟".

ورمق خليفة بنظرة صارمة.

"أنا متأكد".

"في هذه الحالة، لا أرى سبباً لنبش الماضي. لقد مرّ وقت طويل على ذلك بالرغم من كل شيء، وطُبّقت العدالة بطريقتها الخاصة".

وأشار إلى الكيس عند قدمَي خليفة.

"أفترض أنه ملف اختفاء بينسكر؟".

فأقرّ خليفة بذلك، وأومأ له صادق لتمرير الملف إليه.

"حدّدنا هوية بينسكر بسرعة كبيرة"، قال واضعاً نظارته مجدداً ومقلّباً محتويات الملف.

"لم يكن يحمل أي وثائق شخصية، ولكن الناس لا ينسون بسهولة وجهاً مماثلاً. فلا يزال هناك بعض سكان القُرنة الذين لم ينسوه حتى بعد مرور أربعين عاماً.

وعندما نحصل على اسم، يسهل الوصول إلى المعلومات المتعلقة بقضية اختفائه. وعندما نصل إلى المعلومات، لا يتطلب منا الأمر وقتاً طويلاً لبلوغ عُمق الأمور".

سحب ورقة من الملف ورفعها. إنه تصريح الرجل الذي ادّعى رؤيته بينسكر الثمل وهو يسير في اتجاه التلال الطيبية. إنه محمد البدري من الشيخ عبد القُرنة.

"كنت أعرف عائلة البدري"، قال صادق. "إنّ أفرادها مثيرون للشغب إلى حد كبير. كان محمد المُسنّ لا يزال في الجوار، فاصطحبناه إلى المركز، ووصلنا الأسلاك الكهربائية بجسده. كان ذا قدرة كبيرة على التحمّل، ولكنه انهار في النهاية. إنهم يفعلون ذلك على الدوام".

وأعاد الورقة إلى الملف.

"ثبُت أن بينسكر قد اغتصب شقيقتهم المدعوّة إيمان. كانت عمياء، ولم تكن قد بلغت العشرين من عمرها بعد. لقد جرّها إلى النهر، وضربها بقوة، وحصل على متعته. لقد ناضلت كما يبدو، وحاولت مقاومته، ولكنه كان قوياً جداً. لم أكن أثق بعائلة البدري لدرجة أنه كان باستطاعتي البصق عليهم. ولكن، كان لدى محمد شاهد عيان يدعم القصة. إنه من السكان المحليّين، ويحظى بقدْر من الاحترام. كان فتى في ذلك الوقت، وخرج لصيد السمك ليلة حدوث ذلك، وسمع الفتاة تبكي، ورأى كل شيء، فأخبر "محمد" وشقيقَيه بما جرى... حسناً، حدث ذلك عام 1931، ولم يكن الناس قد نسوا الدانمركي بعد. أنت تعرف الفلاحين. إنهم معتدّون بأنفسهم، ولديهم طريقتهم الخاصة".

وخلع نظارته، ثم وضعها على الطاولة الصغيرة بجانب الكوب الفارغ.

"أرفض العدالة الحذِرة"، قال. "لو حدث ذلك في أثناء نوبة عملي لتعاملتُ مع الأمر بشكل مختلف، ولكن أربعين عاماً كانت قد مرّت على الحادث. لقد توفّي شقيقان من الأشقاء الثلاثة، وكان محمد في العقد الثامن من عمره، ولن يطول به الأمر حتى يلقى حتفه هو أيضاً. لم يكن لدى بينسكر أنسباء أحياء، أو على الأقل لم نتمكن من العثور على أيّ منهم، ونكء الجراح القديمة لا يخدم أهداف أحد. يكفي سوءاً أن الفتاة قد اغتُصبت. فلماذا نذكّر كل العالم بعارها؟ من الأفضل عدم نبش الماضي. لقد سمحتُ بتعرّض الرجل المُسنّ للضرب لألقّنه درساً، وتركتُ الأمور على حالها. لقد أُقفلت القضية وهكذا ستبقى".

وتأمّل الملف، ومن ثم أغلقه بقوة، ومدّ يده ليسلّمه لخليفة.

"آمل أن يكون ذلك قد أوضح الأمور".

انحنى خليفة وتناول الملف. لقد بدا غير متأثر بالقصة على نحو مثير للفضول. من الواضح أن الاغتصاب صادم للمشاعر؛ كانت الفتاة بسنّ ابنته بطّاح، لا بل عمياء أيضاً. ولكن مصير بينسكر... قبل عام، كان سيشعر بالهلع مما حدث لهذا الرجل. فقيام العصابات الإجرامية بإصدار أحكام بالإعدام بدون محاكمة، ولجوء الناس إلى تطبيق القانون بأيديهم من الأمور التي يَشمئزّ منها على الدوام مهما كانت الجريمة شنيعة. ولكن بوصلَته الأخلاقية تبدو أقل تركيزاً في هذه الأيام. لقد واجه الرجل ميتة مريعة، ولكنه قام بعمل مريع. وكما قال صادق، لا يبدو الأمر واضح المعالم. لم يعُد أي شيء واضح المعالم، ولا يمكن التأكد من أي شيء؛ فلا وجود للأسود والأبيض، لقد أصبحت الحياة... رمادية من دون التمكن من تبيان أيّ من اللونَين الأبيض والأسود.

قلّب الملفين في حضنه، وفكّر في كيفية ارتباط أي من هذه الأمور بالمرأة التي خُنقت في دار عبادة في القدس. لم يتمكن من التوصل إلى أي رابط واضح: جريمتان يفصل بينهما ثمانون عاماً، جنسيات مختلفة، بلدان مختلفة.

"لم يكن هناك ما يوحي بوجود حافز ديني لعملية القتل، أليس كذلك؟". سأل ساعياً وراء صلة ما. "أقصد، نظراً إلى كون بينسكر يهودياً".

فحدّق به صادق.

"هناك فتاة ضُربت، واغتُصبت، وكادت أن تُقتَل؛ فتاة *عمياء*. إنني أعتبر هذا حافزاً كافياً من دون إقحام الدين. بأي حال، حدث ذلك قبل النكبة. لم نكن نَحذَر من اليهود كثيراً في تلك الأيام".

وسُمع صوت تكّة عند الباب الأمامي الذي فُتح مجدداً، إضافةً إلى حفيف أكياس تسوّق. فرفع صادق نظره إلى الأعلى، ومن ثم إلى ساعته. من الواضح أنه يعتقد أنهما تطرّقا إلى المواضيع المطلوبة كافة، وأنّه حان الوقت لإنهاء الحديث.

"ألا تعرف ما الذي حلّ بمقتنيات بينسكر الشخصية؟". سأل خليفة محاولاً الحصول على أكبر قدْر من المعلومات قبل أن تتمّ مرافقته إلى الباب.

فنخر صادق دلالة على نفاد صبره.

"ما أذكره هو أن كل ما عثرنا عليه في المدفن دُفن مع بينسكر في القاهرة. لم يكن هناك الكثير من الأشياء؛ ملابسه فقط وذلك القناع".

"ألم تجدوا أيّ مستندات من أي نوع؟ أو أوراق؟ أو رسائل؟".

شرع الرجل المُسنّ بالنّقر بأصابعه على طرفَي الذراعَين الخشبيّتَين، وقد بدأ صبره ينفد.

"لا توجد مستندات"، أجاب بجفاء. "الآن، إذا كنتَ لا تمانع...".

"وماذا بشأن مقتنياته من العام 1931؟ هل تملك أي فكرة عما حدث لها؟".

كفّ صادق عن النّقر بأصابعه التي التفّت بإحكام حول طرفَي ذراعَي الكرسي.

"لا فكرة لديّ البتة. لقد أُلقي بها في النيل، هذا كل ما أعرفه. حدث ذلك قبل ثمانين عاماً".

"أتريدان المزيد من الشاي؟".

إنه صوت زوجة صادق الذي تردّد صداه من المطبخ.

"لن يكون ذلك ضرورياً"، نادى صادق. "لقد أنهينا. أليس كذلك؟".

كان ذلك تأكيداً أكثر من كونه سؤالاً. لقد طفح الكَيل. أومأ خليفة برأسه، وشكر الرجل المُسنّ على وقته، ووقف معيداً الملفين إلى الكيس. فرافقه صادق إلى رَدهة المدخل.

"يبدو أنك تتعاطى مع هذا الأمر بجدّيّة أيها المفتش، عِلماً أنه اهتمام شخصي"، قال عندما بلغا الباب الأمامي.

"لا اعتراض لي على روح المبادرة لدى رجال الشرطة، ولكن ينبغي استخدام روح المبادَرة بتأنٍّ. ربما أتبادل أطراف الحديث مع الحَسَني. سأحمله على تسليمك عملاً مناسباً".

وفتح الباب، فخرج خليفة. لقد تجاهل الملاحظة، لا يُفترض به المجازفة أكثر من ذلك. فالأشخاص المماثلون لصادق قد يصبحون بُغضاء إلى حد كبير.

"لديّ سؤال واحد أخير".

فحملق به صادق.

"في ملف العام 1931 توجد رسالة موجَّهة من هوارد كارتر، عالِم الآثـــار. ففي ليلة مقتله كما يبدو، أخبر بينسكر كارتر أنه عثر على أمر ما؛ شيء أو مكان ما يمتدّ أميالاً. هل يعني لك ذلك أي شيء؟".

كان يتوقع من الرجل المُسنّ أن يفقد رباطة جأشه، ولكنه لم يفعل، بل مـــدّ يده عوضاً عن ذلك ووضعها على كتف خليفة.

"سمعتُ بمأساتك، أيها المفتش. رجاءً، تقبّل تعازيّ الصادقة. أرجو حقـــاً أن تكون عائلتك بخير. حافظوا على سلامتكم".

قال ذلك بطريقة أقرب إلى التحذير منها إلى الأُمنية الطيّبة.

"وإجابةً عن سؤالك، لا تعني لي رسالة كارتر أي شيء. الآن، حان موعـــد غدائي إذا لم يكن لديك مانع. انعمْ برحلة آمنة إلى منـــزلك. لن نـــرى بعضـــنا مجدداً".

وضغط على كتف خليفة، غارزاً إصبعه فيها، ومن ثم أومأ برأسه، وعـــاد إلى الوراء، وأغلق الباب بوجهه بقوة. صدرت من داخل الشقة فرقعة متقطّعة لذبابـــة أخرى شوت نفسها على قاتلة الحشرات الكهربائية.

تل - أبيب، إسرائيل

انعطف بِن - روي مرتَين قبل التوجه إلى *أبو كبير* لإجراء مقابلة مع القَـــوّاد الكبير غينادي كريمينكو.

كانت انعطافته الأولى في اتجاه ملجأ هوفيش في بيتاه تيكفاه لإيصال الألعاب والدُّمى التي اشتراها من متجر *تويز أر أز* في القدس. لقد ترك الأكياس مع الحارس، وطلب منه التأكد من حصول أطفال الملجأ عليها. أراد الرجل الاتصال بمايا هيلِل، ولكن بِن - روي قال إنه على عجَلة من أمره، وغادر. إذ لم يرغب في حمل المرأة على التفكير بأنه يحاول التأثير فيها، أو بأنه شخص رقيق القلب؛ والاحتمال الثاني أسوأ من الأول.

وقام بالانعطافة الثانية ليُقلّ دوف زيسكي من وسط مدينة تل - أبيب. كان قد أمضى عطلة نهاية الأسبوع في المدينة مع أصدقائه، وسأله بِن - روي إذا كـــان

يود حضور المقابلة، وهي بادرة حسنة منه، بالرغم من أن قيام زيسكي بقضاء يومه مع رجل حقير مثل كريمينكو سيكون مَحَطّ تساؤل الجميع.

كان زيسكي ينتظر خارج فندق غراند بيتش أوتيل في نوردو متّكئاً على عمود مصباح، ومرتدياً سروال جينز شبيهاً بالجِلد وتي - شيرت ضيّقة، ومنتعلاً خُفَّين، وواضعاً نظارة راي - بن. توقف بِن - روي عند حافة الرصيف وفتح باب الراكب.

"تبدو كما لو أنك ذاهب إلى *شول*". قال في أثناء دخول زيسكي السيارة، حاملاً معه رائحة خفيفة لعطر ما بعد الحلاقة.

"بالتأكيد".

"تنبعث منك رائحة مثيرة".

"حسناً، يقولون إن العطر يُسرّ الأنف".

وأغلق الباب بقوة، وسلّم بِن - روي كيساً ورقياً.

"غداء".

شمّ بِن - روي الكيس، وأطلق ابتسامة عريضة.

"ويقولون أيضاً إن الفلين يُسرّ أنف رئيسك! فتى صالح".

أخرج إحدى الفطائر الصغيرة، وتناول لقمة، واستدار عند الزاوية للتوجه إلى هاياركون. ولزما الصمت للحظات، ومن ثم نظر الاثنان إلى بعضهما وانفجرا ضحِكاً.

يقع سجن *أبو كبير* - أيه كيه أيه جافا هيلتون - في الطرف الجنوبي للمدينة، بعد الانعطاف عند زاوية المركز الوطني للطب الشرعي حيث شُرِّحت جثة ريفكا كلينبرغ. إنه مجمَّع مبانٍ مَهيبة من ثلاث طبقات، ذات نوافذ تحمل قضباناً حديدية متصالبة، وفيه برج كبير للمراقبة في إحدى الزوايا، ومُحاط بجدار أبيض يعلوه سياج. لقد تبادرت إلى ذهن شخص حسّاس فكرة وضع منحوتات متباعدة من الطين المحروق على الجدار في محاولة لجعل المكان أكثر إشراقاً. إنه تضييع للوقت وهدر للمال برأي بِن - روي. فالسجن سجن، وما لم تتم إزالة الجدار - والقضبان الحديدية والأبواب أيضاً - فلن يتم إضفاء طابع الابتهاج على المكان.

ركنا السيارة في الموقف بجانب البوابة الفولاذية القابلة للسحب التابعة للمنشأة، وعرّفا بنفسَيهما عند النافذة الأمنية الرئيسة، فأدخلهما الحارس المناوِب، وأجرى اتصالاً هاتفياً بالمبنى الرئيس للإبلاغ عن وصولهما. وبعد دقائق قليلة، ظهر حارس آخر ورافقهما إلى داخل المجمَّع.

"هل آدَم هيبر موجود اليوم؟". سأل بِن - روي في أثناء عبورهم باحة أمامية إسمنتية، مشيراً إلى صديقه السجّان.

"إنه يقوم بنوبات العمل الليلية في الوقت الحاضر"، أجاب الحارس. "وهو يرسل لك أطيب أمنياته، ويقول إنه يأمل أن تكون زيارتك مفيدة".

"أنا على ثقة بأنها ستكون مثيرة"، همهم بِن - روي.

وصلا إلى مبنى السجون الرئيس، وانتقلا من نور الشمس إلى الداخل المظلم. كان يتعيّن عليهما تدوين بعض المعلومات المرتبطة بهما، ومن ثم رافقهما السجان عبر ممرّ مؤدٍّ إلى باحة داخلية يظلّلها قماش مشبَّك، ودخلوا جناحاً آخر. كانت هناك أصوات أجهزة راديو، وثرثرة، وطقطقة وعاء من الصفيح على القضبان الحديدية في مكان ما فوقهم. ولكنهم لم يتمكنوا من رؤية أحد. فعلى غرار كل السجون التي زارها بِن - روي، لقد انتابه شعور مُثبط للعزيمة بأن الصوت يصدر عن المبنى نفسه وليس من البشر.

"لقد وصلتما"، قال الحارس متوقفاً أخيراً أمام أحد الأبواب، وواضعاً مفتاحاً داخل القفل. "سأُحضر السجين. محاميته موجودة في الداخل".

وفتح الباب، ثم تراجع ملوّحاً لهما بدخول الغرفة. كانت الأرض مكسوّة باللينوليوم، وهناك نافذة في أعلى الجدار مزوَّدة بقضبان حديدية متشابكة، وطاولة خشبية عليها إبريق ماء وأكواب ورقية ومنفضة. وكانت هناك امرأة طويلة القامة ومتوسطة العمر تجلس إلى الطاولة معهما وجهاً لوجه، وهي أنيقة الملبَس، وغير منفرجة الأسارير. جلس التحريان.

"كان من المفترَض أن يكون تبادلاً غير رسمي لأطراف الحديث"، قال بِن - روي في أثناء إغلاق الحارس الباب وراءهما وإقفاله. "لم يكن بحاجة إلى مستشار قانوني".

"يفضّل موكّلي عدم إخفاء أي شيء".

"من المُخجل أنه لم يقُم بالأمر نفسه في صفقاته التجارية".

ارتسمت على وجهها ملامح الاستهجان وشبكت يدَيها. ولاحظ بِن - روي أنها لا تضع خاتم زواج في إصبعها. يبدو أنها منشغلة جداً في الدفاع عن أشخاص حقيرين مثل كريمينكو لدرجة أنها لا تملك الوقت لتكوين عائلة، أم إنها ترفض مبدأ الزواج. في كلا الحالَين، لم تَرُق له. فمثيلاتها لم يرُقْن له قطّ، فهنّ متعجرفات، ومراوغات، يقصدنَ منازلهنّ كل يوم سعيداتٍ بجعل رجال الشرطة يبدون كالمغفَّلين، ويساعدنَ المجرمين على العودة إلى الشوارع. يا لغبائها!

"أرجو أن تجري الأمور بهدوء وسلاسة"، قالت. "اليوم ذكرى ميلاد ابنتي، وأودّ العودة إلى المنزل في مِزاج جيد بشكل معقول".

حسناً، إنها مخطئة في هذا الشأن.

"إذاً، إليكما القواعد الإجرائية"، تابعت المرأة. "وافق موكِّلي على الإجابة عن أي سؤال تطرحانه، وعلى تقديم أي مساعدة ممكنة في هذا التحقيق. ولكن، في المقابل، نطلب منكما أن تكون أسئلتكما في حدود ما بلغته القضية، وأن تعاملاه باحترام وتهذيب، عِلماً أن السيد كريمينكو لم يُعتبر رسمياً مشتبَهاً به في قضيتكم، أو مُداناً بأي جريمة أخرى".

"هل يُفترض بي أن أغيّر حفاضه أيضاً؟".

"انضج أيها التحري، وقُم بذلك بسرعة وإلا ألغيت المقابلة في الحال".

تبّاً لكِ، قال في سرّه.

"من هو؟".

وأومأت برأسها في اتجاه زيسكي، وقام بِن - روي بالتعريف به.

"طلبُ المقابلة مقدَّم باسمك فقط".

"سيصغي فقط. أريد أن أُريه الإجراءات المتَّبعة وأعلّمه أهمية الاحترام والتهذيب".

فابتسمت له؛ عِلماً أن كلامه يحمل في طيّاته بعض المرارة.

"حسناً، سأسمح بذلك". ودوّنت التفاصيل المتعلقة بزيسكي على دفترها. "سأسجّل الحديث...".

وأخرجت جهاز ديكتافون ووضعته على الطاولة.

"... الذي سيُعتبر تسجيلاً مقبولاً من الناحية القانونية إذا قرّرتم المضيّ قدُماً في إحالة الدعوة إلى محكمة أخرى، وسأراقب الوقت عن كثب. أعتقد أننا اتفقنا على ستين دقيقة".

"اعتقادك صحيح".

"لنلتزم بذلك".

بعد انتهاء المقدّمات، أسندت ظهرها إلى الكرسي وشبكت ذراعَيها أمام صدرها. تردد صدى صوت موسيقى بعيدة من مكان ما خارج الغرفة. فقاوم بِن - روي إغراء سؤالها عما إذا كانت ترغب في الرقص.

مرّت دقائق قليلة، ومن ثم سُمع صوت وَقع خُطى قوية في الممر، وصوت طقطقة لدى وضع مفتاح في القفل. وفُتح الباب مجدداً، وأُدخل الشخصُ موضوعُ المقابلة الغرفةَ. وقفت المحامية، فيما بقي التحرّيان جالسَين.

فالقَوّادون والمتّجرون بالجنس يأتون بأشكال وأحجام عديدة مختلفة، ومن ديموغرافيات عديدة مختلفة. ولكن، إذا كانت هناك شخصية نمطية فهي غينادي كريمينكو. إنه رجل ذو بنية جسدية ضخمة، مُفرط في الوزن، رأسه يميل إلى الصلَع، وجهه زهريّ اللون، عيناه منتفختان، ويوحي بالمرح وبالمَيل الخَفيّ إلى التهديد. كان يضع مجموعة من الجواهر الذهبية الثقيلة - سلسلة عُنُق، وسِوار، وخواتم - ويرتدي قميصاً أخضر وأبيض لفريق ماكابي حيفا أزعج بِن - روي لأنه فريقه. وعلى ساعده وشم بارز لفتاة منفرجة الساقَين، الناحية العُلوية من صدرها ورأسها ملوّنان بحبر أخضر.

"حسناً، الأمر مريح، أليس كذلك؟"، قال بعبرية تخالطها لهجة أوروبية شرقية، وابتسم. "يسعدني على الدوام الترحيب بفتياننا الشجعان ذوي البزّات الزرقاء، ولا سيما هذَين الوسيمَين".

وأطلق ابتسامة عريضة لزيسكي الذي لم يُبدِ أي رد فعل.

"كنت أودّ ضمّكما إلى صدري. ولكن، لسوء الحظ...".

ورفع يدَيه الموثقَتين بالأغلال.

"لا أعتقد أن هذه الأغلال ضرورية هنا"، قالت محاميته.

نظر الحارس إلى بِن - روي الذي أومأ برأسه، ففُكّت الأغلال.

"لا يمكنني أن ألومهم"، وضحك كريمينكو، فاركاً رُسغَيه ومحرِّكاً يدَيه بشكل دائري. "ليس عليكما سوى النظر إليّ لتتحققا من أنني قاتل مدرَّب. قبل عـــامَين، دمَّرتُ وحدة مدرّعات بضَرطة واحدة".

وأطلق صوتاً أجشّ، وقهقه.

"أعتقد أنه من الأفضل لنا أن نبدأ"، قالت المحامية.

فأشار الحارس إلى زرّ في الجدار، وقال لهما إنه بإمكانهما الضـــغط عليـــه إذا احتاجا إلى أي شيء، ومن ثم غادر الغرفة، مُقفِلاً الباب وراءه. مشـــى كريمينكـــو الهُوَينا حول الطاولة وجلس بجانب محاميته.

"هل باستطاعتي طلب زجاجة من الشراب؟". سأل وأومأ برأسه في اتجاه الزر على الجدار، مُطلقاً صوتاً أجشّ آخر.

متجاهلةً التعليق، تحققت المحامية من ساعتها، ومـــن ثم انحنـــت إلى الأمـــام، وشغّلت الديكتافون ووضعته بين كريمينكو وبِن - روي. واستهلّت المقابلة بـــذِكر المكان، والتاريخ، والوقت، وأسماء الحاضرين في الغرفة، وأسندت ظهرها بعد ذلك إلى كرسيّها، وأشارت إلى أنه بالإمكان بدء المقابلة.

"للذِّكر فقط، أودّ القول إن التحرّي الأصغر سنّاً لديه بشرة جميلة حقاً". قال كريمينكو، وأطلق ضحكة ماكرة.

فابتسم زيسكي، ووضع ساقاً على أخرى بشكل متصالب، غير شاعر بـــأي انـــزعاج. ووضع بِن - روي الملف الذي اصطحبه معه على الطاولـــة وشـــرع بالعمل.

"سيد كريمينكو، تلقيتَ مؤخراً...".

"غينادي من فضلك. كلنا أصدقاء هنا".

"زارتك مؤخراً صحافية تدعى ريفكا كلينبرغ".

"هل تلقيتُ هذه الزيارة؟".

"أجل، لقد فعلتَ".

"كما تشاء. يبدو أنني أصاب بالنسيان مؤخّراً إلى حد كبير. ربما يعود سبب ذلك إلى الجوّ في هذا المكان. إنه يصيب الدماغ بالخدَر".

تصلّب فك بِن - روي السفلي. سيكون العمل شاقّاً.

"دعني أحاول إنعاش ذاكرتك يا *غينادي*. في 30 أيار/مايو، اتصلت السيدة كلينبرغ *بشاباس* وطلبت زيارتك. لقد نُقل الطلب إليك، ووافقتَ".

"بدون عِلمي"، قاطعت المحامية.

"أُعلنَ أن سبب الزيارة شخصي. وحضرت السيدة كلينبرغ إلى السجن بعد ظهر السادس من حزيران/يونيو، وكنتَ بمفردك معها في هذه الغرفة بين الساعة 13:30 والساعة 14:05".

"لم نرقص معاً، أؤكد لك ذلك"، همهم كريمينكو.

"هل تتذكر الآن؟".

"تذكرتُ فجأةً. امرأة بدينة، قوية الشخصية، مع...".

ووضع يدَيه أمام صدره للتعبير عن حجم صدرها الكبير.

"ليس منظراً سارّاً. كان عليّ صدّه".

كان وجه محاميته بجانبه خالياً من أي تعبير.

"حسناً، الآن وبعد أن أطلقتَ العنان لذاكرتك"، قال بِن - روي، "هل تريد أن تخبرني عمّا كانت السيدة كلينبرغ تفعله هنا؟".

فهز كريمينكو كتفَيه.

"الانطباع الذي حصلتُ عليه هو أنها كانت تشعر بالوحدة. تعرف ما يكون عليه واقع الحال. فهي بدينة، وغير مثيرة، وتعيش بمفردها، وتتقدّم في السنّ. أعتقد أنها كانت تريد رفقة. لقد رأت وجهي في الصحيفة، وظنّت أنني ودود، واستنتجتْ ربما أنني شخص يمكنها تبادل أطراف الحديث معه".

وتظاهر بِن - روي بأنه متعاون، وتركه يُكمل دُعابته.

"وما الحديث الذي تبادلتما أطرافه؟".

فشبك كريمينكو ذراعَيه أمام صدره، وأسند ظهره إلى الكرسي، محدّقاً بالسقف ومفكراً.

"الآن، دعني أفكر. لقد ناقشنا حالة الطقس بالتأكيد - كان الطقس حاراً في غير أوانه، ألا تعتقد ذلك - وأتذكّر إجراء نقاش سياسي حول انتخابات بلدية وغيرها...".

تسمّرت المحامية في مكانها بجانبه واحمرّ وجهها. فلاحظ كريمينكو شعورها بالإحراج وأطلق ابتسامة عريضة.

"أنا أمزح فقط. لم نتحدّث عن ذلك في الواقع".

"إذاً، أنت لا تعني ما تقوله"، تمتم بِن - روي.

دسّ كريمينكو يده تحت قميص كرة القدم، وأخرج علبة سجائر مارلبورو، وتناول سيجارة بأسنانه، وسحب قدّاحة من العلبة، وأشعل السيجارة، مُسنِداً مِرفقَيه إلى الطاولة.

"حسناً، كفى تجاهلاً للواقع، لندخل صلب الموضوع"، قال نافثاً موجة كثيفة من الدخان في اتجاه زيسكي الذي بدّدها بضربة سريعة بيده. "قالت تلك المرأة إنها تريد القدوم والتحدث إليّ. لم أستطع تمييزها، ولكنني قلتُ لنفسي لِمَ لا. أنتَ تشعر بالملل هنا، فأهلاً وسهلاً بأي نوع من الإلهاء. من يعلم؟ ربما يستحق الأمر ذلك. ولكنه لم يكن كذلك. بل كان مثبطاً للعزيمة".

وأطلق نفثة دخان أخرى، مُرغِماً زيسكي على إبعاد كرسيّه بضع بوصات إلى الوراء.

"آسف، يا عزيزي".

"وما الذي أرادت السيدة كلينبرغ أن تتحدث إليك في شأنه؟". سأل بِن - روي، مُعيداً صياغة السؤال السابق.

"أرادت التحدث في أمور مختلفة".

"وما هي؟".

"عملي، الفتيات...".

وقاطعته المحامية.

"في الظروف الراهنة، أعتقد أنه يتعيّن علينا تجنّب...".

مدّ كريمينكو إصبعه لإسكاتها. إنها إيماءة صغيرة تكاد لا تكون ملحوظة، ولكنها عنت الكثير بالنسبة إلى بِن - روي. لقد اعتاد هذا الرجل أن يكون مُطاعاً، ولا سيما من قِبَل النساء.

"استرخي"، قال. "أنا هنا لمساعدة هذَين السيّدَين. لا شيء لديّ أُخفيه سوى ما أخجل به".

وأسند ظهره، وسحب مَجّة طويلة من سيجارته، مُمسكاً إيّاها من أسفل عَقِبها على غرار كل المحكوم عليهم. بجانبه، شبكت المرأة ذراعَيها وحدّقت عبر الطاولة، زامّةً شفتيها للسيطرة على انفعالها.

"لقد فهموا كل ذلك بشكل خاطئ"، قال كريمينكو. "أقصد الشرطة، والصحف. قالوا إنني قَوّاد، ومتّجر بالجنس. حتى إنني لا أعرف معنى تلك الكلمات. أنا رجل أعمال عادي وبسيط. أنا صاحب مُلك. الجريمة الوحيدة التي ارتكبتُها، وها أنا أرفع يدَيّ مُقسِماً...".

ورفع يدَيه بشكل مسرحي.

"... هي ارتكابي خطيئة اللطف المُفرط. فأولئك الفتيات الشابات، يأتينَ إلى إسرائيل، ولا يعرفنَ أحداً، ولا يتحدثنَ العبرية. لذا، أقوم بمساعدتهنّ، وأتدبّر لهنّ مسكناً منخفض التكلفة، وأُقرضهنّ القليل من المال عندما يكنّ بحاجة إليه، وأجعلهنّ يقفنَ على أقدامهنّ".

"استناداً إلى ما بلغني عنك، إن المسألة تتخطى مساعدتك إيّاهنّ للوقوف على أقدامهنّ أو الاستلقاء على ظهورهنّ"، قال بِن - روي.

وتدخّلت المحامية مجدداً.

"أي دُعابات رخيصة أخرى من هذا النوع وستنتهي المقابلة...".

"مَهلاً، أيتها النمرة!". وضحك كريمينكو مشيراً لها بالتزام الهدوء. "كان يُمازحني فقط. لا تغضبي كلما أطلق أحدهم دُعابة صغيرة. هل يمكننا ذلك؟ آه يا بامبي!".

ووجّه نظره إلى زيسكي عندما قال الجملة الأخيرة، ولكن التحرّي حافظ على رباطة جأشه مجدداً. ولو كان بِن - روي مكانه لما تحمّل الإهانة.

"هل هذا ما قلتَه للسيدة كلينبرغ؟" سأل.

"بالضبط. قلت لها إنني بمثابة الوالد لأولئك الفتيات. كيف لي أن أعرف أنهنّ يَقُمنَ بكل تلك التصرفات قليلة الاحتشام من دون عِلمي؟ أنا الضحية هنا؛ ضحية طبيعتي التي تثق بالآخرين".

وهز رأسه بغضب مزيَّف. ألقى بِن - روي نظرة سريعة على زيسكي، ومن ثم على المحامية التي بقيت أَمارات وجهها خالية من أي تعبير بالرغم من أن موكِّلها

ينطق بالهراء. فتساءل عما إذا كانت تشعر بالاضطراب بسبب دفاعها عن شخص مثل كريمينكو. ربما لا. فهي ستجادل قائلةً إن القانون غير منحاز، وللجميع الحق بدفاع منصف. قد لا تحب الرجل، ولكن وُجهة نظرها هي أنها تخدم قضيّة أسمى. ومن وُجهة نظر بِن - روي، إنها عاهرة كحال فتيات كريمينكو، لا بل أكثر منهنّ لأنها تملك قرارها.

"أخبرْني عن قناة مصر"، قال.

"ما الذي تتحدث عنه؟".

وحلّ الارتباك المزيَّف مكان الغضب المزيَّف.

"القناة التي يتمّ الاتّجار بالفتيات عبرها إلى داخل إسرائيل، مروراً بسيناء ووصولاً إلى النقب".

"لا أعرف شيئاً عن الأمر".

"يقولون إنك تدير العملية".

فهز كريمينكو كتفَيه.

"يقول الناس كل أنواع الأمور. يقولون إنك تملك مجموعة من الأعضاء التناسلية النسائية ولكن ذلك لا يعني أن الأمر صحيح".

فأجفلت المحامية. ولو كان بن - روي أقل إحباطاً من مناورة كريمينكو في إجاباته لوجد عدم ارتياحها مسلّياً.

"هل حدّثتْك السيدة كلينبرغ عن مصر؟".

"ربما فعلت. ولو قامت بذلك لقلتُ لها ما قلتُه لك للتوّ".

"وما الذي حدّثتْك عنه؟".

"هذا ما لا أعرف عنه شيئاً!".

ونفض القوّاد رِسغه بطريقة تنمّ عن نفاد صبر. وأعاد بِن - روي الحديث إلى بدايته.

"لِنَعُد إلى الفتيات"، قال. "هل سألتْك السيدة كلينبرغ عن أيّ منهنّ بصفة خاصة. هل ذكرتْ أي أسماء؟".

"لا أتذكّر".

"ماريا، هل ذكرت أمامك هذا الاسم؟".

فرك كريمينكو عينَيه كما لو أنه يمعن في التفكير، ومن ثم هزّ رأسه.

"فوسغي؟".

وهزّ رأسه مجدداً.

"كما قلتُ لتلك المرأة البدينة. لديّ الكثير من المستأجِرات لدرجة أنني لا أتذكر اسم كلّ منهنّ".

"ربما تتذكر الوجه". وفتح بِن - روي الملف، وسحب صورة فوسغي ووضعها على الطاولة أمام كريمينكو. "هل كانت هذه المرأة إحدى *المستأجِرات* لديك؟".

فهمت المحامية الملاحظة التهكمية ورمقت بِن - روي بنظرة تحذيرية. و لم يلاحظ كريمينكو ذلك، أو إنه اختار عدم الاكتراث. والتقط الصورة، وتظاهر بأنه يحدّق بها.

"لم يسبق لي أن رأيتها من قَبل"، أجاب بعد توقف مُغالىً فيه، وأعاد له الصورة.

"هل أنت متأكد؟".

"متأكد كتأكدي من وجود ثقب في مؤخّرتي".

"إنها أرمنية. لقد فُقدت من ملجأ كانت تقيم فيه مؤخراً قبل أسابيع قليلة".

لقد تعمّد بِن - روي قول ذلك ليتحقق من صدور أي ردّ فعل عن كريمينكو، ولكن شيئاً لم يحدث، بل حدّق به كريمينكو فحسب بعينَين منتفختَين، زهريّتَي اللون، وغير مسرورتَين. وحاول بِن - روي قراءة ما يدور في خلْده، ولكن مصاريع عينَيه كانت مُغلقة بإحكام، و لم يحصل على أي شيء ولا حتى على لمحة. من جهته، كان كريمينكو يعرف تماماً ما الذي يدور في خلد بِن - روي، وشرع يضحك.

"أنت تصطاد، أيها التحري، بقصبة صيد مكسورة، وفي بِركة فارغة، ورغم ذلك تتساءل عن سبب عدم حصولك على أي معلومات".

إنها كناية ولكنها غير بعيدة عن الحقيقة. أنهى القَوّاد سيجارته، وانحنى إلى الأمام، وأطفأ عَقِب السيجارة في المِنفضة.

"سأقول لكما أمراً ما، سأساعدكما"، قال. "تبدوان ثنائياً لطيفاً...".

وغمز زيسكي مرة أخرى.

"... وأنا شخص ليّن العريكة، وأسعى على الدوام لإرضاء الآخرين. إليكما ما جرى".

وأسند ظهره مجدداً وشبك ذراعيه، وانتفخت العضلات فوق مِرفقَيه.

"صِدقاً، لم أحب تلك المرأة كلينبرغ. لقد وافقتُ على لقائها، وحدّدتُ لها موعداً، وبدلاً من أن تشكرني ثبُت أنها عاهرة وقحة، وقوية الشخصية، وفظّة. لقد طرحتْ أنواع الأسئلة المشوَّشة كافة، وألحت بالوسائل غير السارّة كافة إلى حياتي الخاصة والمهنية. وفي النهاية، أخشى أن أكون قد فقدت صبري وأنهيت اللقاء. باختصار، وأقول هذا بصراحة، لم ننسجم مطلقاً. ولكن، إذا كنت تسألني إن كانت لي علاقة بمقتل المرأة، وأشتبه أن هذا ما تسألني عنه بطريقتك غير المباشَرة...".

وبدأت محاميته بالاحتجاج قائلةً إن لا علاقة لهذا الموضوع بالمقابلة، ولكن كريمينكو لوّح لها مجدداً لالتزام الهدوء.

"*إذا* كان هذا الأمر موضوع سؤالك، فبإمكاني أن أقول لك بصِدق، وبشرف الفتى اليهودي، إنني لم أقتلها. وإذا كنتَ ستوحي بشيء آخر، فمن الأفضل أن يكون لديك دليل دامغ تدعم به اتهامك، وإلا انهالت عليك هذه المرأة الجذابة الجالسة بجانبي كمئات من أطنان التغوّط التي خرجت يوماً من ثقب المؤخرة".

ونظر إلى التحريَّيْن مكوِّراً قبضتَي يدَيه، وكان بالإمكان الإحساس بتصنّعه غير الجاد وطبيعته الحقيقية: فهو قاسٍ، وبلا رحمة، وعنيف. وتبددت العاصفة بعد هبوبها، وعاد كريمينكو للابتسام مجدداً.

"والآن، بعد أن عالجنا هذه المسألة، لنعُد إلى العمل". وأشرق وجهه، ومدّ يده في اتجاه إبريق الماء. "توجد مرطِّبات، هل يريد أيّ منكم بعضاً منها؟".

وتواصلت المقابلة لأربعين دقيقة أخرى، ولكن بن - روي كان يقوم بعمله بدون اكتراث، فهو لم يتوقّع من كريمينكو أن يخبره أيّ شيء، وكان الرجل منسجماً مع توقعاته. كان القَوّاد غامضاً ومراوغاً، يُجيب عن أسئلة التحري بلا مبالاةِ شخصٍ قضى كل حياته في ممارسة لعبة الهرّ والفأر مع القانون، وله ملء الثقة بقدرته على التملّص من مُلاحِقه. من الواضح أنه كذب في شأن عمله كقَوّاد

واتّجاره بالجنس، كما كذب على ريفكا كلينبرغ أيضاً في شأن نشاطاته. فهي لم تأخذ منه المعلومات التي أملت الحصول عليها. وكان بِن - روي يعود مراراً وتكراراً إلى النقطة نفسها؛ فالفتاة مفتاح كل شيء. لقد تقدّمت كلينبرغ بطلب لزيارة كريمينكو في اليوم التالي لسماعها باختفاء فوسغي، وأيّاً تكن المعلومات التي حاولت انتزاعها منه، كان بِن - روي على ثقة تامة بأنها مرتبطة باختفاء الفتاة الأرمنية. هل فوسغي إحدى فتيات كريمينكو؟ هل قام رجال كريمينكو باختطافها لمنعها ربما من الإدلاء بشهادتها ضده؟ هل اقتربت كلينبرغ من الحقيقة كثيراً وتمّ التخلّص منها؟ إنه سيناريو ممكن - أفضل سيناريو يمكن التوصّل إليه - وإن كانت هناك مجموعة من الأسئلة المرتبطة به والتي لم تتمّ الإجابة عنها. وعاد مراراً وتكراراً بالمقابلة إلى الوراء، ضاغطاً على كريمينكو، وعارضاً عليه صورة الفتاة، في محاولة لإحداث فتحة في دِرعه، ولكن بدون طائل. ربما سيتمكّن في وقت لاحق من نقل كريمينكو إلى الكيشل وشدّ البراغي، ولكنه كان يشك في أن تكون لهذا الإجراء أي نتيجة. وكما قال الرجل، إنه يصطاد - فلديه الكثير من الافتراضات، وتبّاً للدليل الدامغ - وكان كريمينكو يُدرك ذلك. ومع إشراف المقابلة على نهايتها، بدت على وجهه نظرة رجل أمضى فترة بعد ظهر ممتعة.

وعند انتهاء الدقائق الستين، أعلنت المحامية انتهاء الوقت، ولم تسمح بأي ثانية إضافية. فأطفأت المسجّلة الشريطية ووقفت، وتوجّهت نحو الجرس المثبَّت على الجدار، وضغطت عليه مناديةً الحارس. استرخى كريمينكو إلى الوراء، ووضع ذراعه على أعلى الكرسيّ الفارغ الذي كانت محاميته تجلس عليه.

"سُررتُ بلقائكما كثيراً، أيها السيّدان"، وأطلق ابتسامة عريضة. "أو بالأحرى، سيداتي *وسادتي*".

ورمق زيسكي بإحدى النظرات المُغيظة تلك.

"إذا كان باستطاعتي مساعدتكما بأي شيء آخر، رجاءً لا تترددا في الاتصال بي. أنا مقيم هنا لأسابيع قليلة أخرى، وأتوقع العودة إلى منزلي مجدداً بعد ذلك".

وألقى نظرةً سريعة على المحامية التي ظهرت على وجهها أَمارات من قضت الساعة الأخيرة جالسةً على صبّار. عادت خطوة إلى الوراء في اتجاه كرسيّها،

ولكنها حين رأت وضعيّة ذراع كريمينكو، بقيت واقفة. وساد صمت غير مـــريح، ثم سُمع صوت وقع خطىً مقتربة. فوقف بِن - روي وزيسكي، وطقطق القفــل وفُتح الباب. كان الحارس رجلاً مختلفاً.

"اذهبا باحتراس"، قال كريمينكو رافعاً يده المكتنـــزة، ومحركاً أصابعه في تحية وداع. "أهلاً وسهلاً بكما زائرَين دائمَين".

حاول بِن - روي إيجاد طريقة تهكمية للردّ عليه تسمح له على الأقل بالمغادرة وهو موفور الكرامة، ولكنه لم يتمكن من التفكير في أي شـــيء، فأومـــأ برأســه لزيسكي، وتوجّه التحريان نحو الباب. وعندما وصلا إليه وتنحّى الحارس مُفســحاً لهما الطريق، عاد زيسكي فجأةً إلى الغرفة.

"غينادي، ما الذي كنتَ تقوم به بالتحديد لأجل شركة بارين؟".

كانت تلك محاولة عشوائية، على غرار محاولة بِن - روي الســـابقة المتعلقــة بفوسغي وبكونها قادمة من أرمينيا. وخلال لحظات وجيزة جداً، اتّســعت عينـــا القَوّاد، وضاقت شفتاه قليلاً، ممّا كشف عن احتراق السؤال حاجز الحـــذَر لديـــه وفقدانه رباطة جأشه. ولكنه استعاد اتّزانه على الفور.

"آه، إنها تُعجبني حقاً"، وضحك. "فهي صغيرة وسريعة الانفعال وجميلة جداً. لو كنتُ *قَوّادًا* - وأنا لستُ كذلك كما نعرف كلنـــا - لَقامـــت بعمـــل جيـــد لأجلي".

وأطلق ابتسامة عريضة لزيسكي، وبدا واضحاً أنه غير متّزن؛ لا شك في ذلك مطلقاً. وفي أثناء مغادرتهما الزنـــزانة وخروجهما من السجن، وضع بِـــن - روي ذراعه على كتفَي زيسكي قائلاً:

"فتى جيد".

مصر

كان الوقت عصراً عندما وصل خليفة إلى الأُقصُر. في هذه الســـاعة، كـــان معظم سكان المدينة في منازلهم بسبب الحرارة، والشوارع هادئة وساكنة على نحو غير طبيعي. كان بعض المُسنّين يلعبون *السيغا* بجانب الينبوع الجاف عند المستديرة

أمام المحطة، واللفاعات موضوعة فوق رؤوسهم لتقيهم حدّة الشمس. كانت عربة ذات غطاء يُطوى تشق طريقها غير المنتظم ذهاباً وإياباً في شارع المحطة علّها تحظى ببعض الركاب. باستثناء ذلك، كان المكان بلا حياة. فاشترى علبة كرتونية من عصير إيزي موزو - بنكهة المانغو - وجلس على إحدى درجات المحطة. أجرى اتصالاً هاتفياً بالمنزل أولاً للاطمئنان على زينَب؛ لقد قضت ليلة سيّئة أكثر من المعتاد، وكانت نائمة تحت ناظري بطّاح. ومن ثم اتصل بمحمد ساريا في مقرّ قيادة الشرطة. كان الرئيس الحسَني غاضباً كما يبدو، ويملأ المكان صياحاً بسبب ظهور مجموعة كبيرة من الإعلانات في مختلف أنحاء المدينة تتهم الشرطة بعدم الكفاءة والفساد. ولم يلاحَظ غياب خليفة، ونجا من الأسئلة المستفهِمة. يبدو أن "صادق" لم ينفّذ تهديده بالاتصال بالحسَني. ليس بعد.

"أسدِني صنيعاً، يا محمد"، قال في أثناء التحدث إليه عبر الهاتف. "إذا كان لديك القليل من الوقت، فهل باستطاعتك مقابلة عائلة من القُرنة القديمة تُدعى عائلة البَدري. إذا لم تجد أحداً هناك فلا بد أنهم انتقلوا إلى الطريف عندما تمّ جرف بيوت القرية".

"هل هناك شيء محدَّد تريد أن تعرفه؟" سأل ساريا.

"المسألة قديمة. ولكن، كان هناك ثلاثة أشقاء وشقيقة واحدة. يدعى أحد الأشقاء "محمد"، والشقيقة إيمان. لقد ماتوا جميعاً منذ زمن، ولكنني مهتم بمعرفة ما إذا كان هناك أنسباء لهم. الأمر غير مُلحّ كثيراً. قُم بذلك عندما يتسنّى لك الوقت".

قال ساريا إنه سيتابع القضية، وأنهى خليفة المكالمة، ثم جلس لدقيقة من الزمن مرتشفاً العصير، ومراقباً حافلة سياحية تابعة لترافكو وهي تتقدّم بتثاقل حول المستديرة، فيما يبدو ركّابها شاحبي الوجوه وسئِمين. وبعد ذلك، شرب كل محتويات العلبة الكرتونية ورماها داخل صندوق قمامة، ثم وقف وانطلق إلى الضفة الغربية ووادي الملوك. ولو وفّر له أي إعلان معلّق إمكانية لصرف انتباهه لاستفاد من ذلك ربما.

وادي الملوك اسم على غير مسمّى. فالمقبرة القديمة ليست مقبرة حصرية للملوك - إنها مكان الراحة الأخير للملكات، والأمراء، والأميرات، والنبلاء،

والحيوانات المَلَكية الأليفة – كما أنها ليست وادياً واحداً. فهي تتكوّن من واديَين متفرّعَين؛ والأكثر شهرة بينهما هو الوادي الشرقي حيث توجد كل المدافن المَلَكية الرئيسة، بما في ذلك مدفن توت عنخ آمون. والوادي الغربي الأوسع – أو وادي *الرياح* – وادي مدافن ضيّق ومقفر لا يرتاده الكثير من الزائرين، وينفصل عن جاره الأكثر شهرة، ويتّبع مساراً متعرّجاً خاصاً بين التلال.

بعد عبور النهر، استقل خليفة مصعداً إلى مرأب الحافلة عند نقطة التقاء الواديَين. ووقف للحظات محدّقاً بالسياج الخشبي الإعلاني الضخم الذي نُصب إلى جانب الطريق للترويج للمتحف الجديد في الوادي الشرقي. "شركة بارين"، جاء في النص. "تكريم ماضي مصر، والترويج لمستقبل مصر". وبعد أن نقر السيجارة بإصبعه، توجّه إلى الجزء الغربي للمقبرة.

بخلاف الازدحام الدائم في الوادي الشقيق، كان هذا الوادي خالياً من الحياة ومهجوراً؛ جادّة كئيبة مكوَّنة من صخور جيرية بيضاء مُعشِية للبصر تطوّقها جروف عالية وصمتُ الصحراء الكثيف والخانق. ويقوم مسكن متداعٍ للحارس على جُرفٍ قرب أعلى الوادي، ويوجد على مَبعُدة منه مبنى مقبَّب أكثر وَجاهة، كان ذات مرة منزل عالم الآثار المصرية جون رومر. وعدا عن لافتتَين معدنيّتَين صدئتَين تشيران إلى مدفنَي أمنحوتب الثالث وأخناتون، لا يوجد شيء؛ فقط صخور، وغبار، وطائرُ خُطّاف سريع ينساب من حين لآخر فوق أسطح الجُرف. ولو كان هناك مصري قديم يمشي بجانب خليفة، للاحظا فَرقاً قليلاً في مظهر الوادي وفي المشاعر التي تعتريهما.

لقد تطلّبه الأمر قضاء القسم الأكبر من الدقائق الأربعين في السير على امتداد الوادي بسبب إبطاء الحرارة سرعة تقدّمه. في النهاية، عندما بدأ يفكّر بأنه كان يُفترض به ربما انتظار فترة أكثر برودة من النهار، انعطف الدرب إلى اليمين، وتلاشى تدريجياً في مَدرج طبيعي عميق تحدّه من الخلف جدران من الصخور. وكان هناك ملاذ خشبي للاستراحة، وبجانبه مدخل مدفن الوزير *إيْ* من السلالة الحاكمة الثامنة عشرة الذي أصبح فرعوناً. وهناك دراجة نارية مُغبَّرة من طراز جاوا مُسنَدة قرب المدخل، فشعر بالارتياح بعد أن خاف من اجتيازه كل هذه المسافة بدون أي جدوى.

نـــزل الدرَجات إلى مدخل المدفن المفتوح، ونادى في اتجـــاه الممـــر شـــديد الانحدار.

"بروفيسورة دوفريسن!".

لا جواب.

"بروفيسورة دوفريسن، هل أنت هناك؟".

لا جواب أيضاً. وبعد ذلك، صدر صوت من الأسفل متحرر من الجسد كما لو أنه من العالم السُّفلي:

"يوسف خليفة، قلت لك ألف مرة، أنا أدعى ماري!".

فابتسم خليفة.

"أجل، يا بروفيسورة".

وسُمع وقع خطوات، ثم ظهر رأس من الأسفل، وكل ما هو تحـــت العُنُـــق يحجبه المنحدَر الشديد للممر.

"ماذا تفعل هنا بحق الجحيم؟".

"أردت طرح سؤال عليك".

"لا بد من أن يكون سؤالاً هاماً".

"هل أنـــزل؟".

"لا، كنت على وشك الصعود لتنشّق الهواء بأي حال. هل أنت عطشان؟".

"كثيراً".

"أنت محظوظ. لقد أحضرتُ الكثير من *السير ليمون* البارد".

إنها ماري دوفريسن المُسنّة الصالحة.

"أمهلني لحظة"، قالت وتوارت عن الأنظار مجدداً في الممر. فعاد خليفة إلى ظل ملاذ الاستراحة. وبعد مرور دقائق قليلة، كانت هناك حركة إلى يساره، وخـــرج شخص من مدخل المدفن؛ امرأة طويلة القامة، رمادية الشـــعر، ترتـــدي ســـروال جينـــز وتي - شيرت كاكيّة اللون، وتضع لِفاحاً كتانياً حول عُنُقها. لوّحت لـــه مبتهجةً، وصعدت المنحدَر بخطوات واسعة في اتجاهه، متنقّلةً بسرعة مثيرة للدهشة لأنها شارفت على التسعين من عمرها. ووقف خليفة، وتصافح الاثنان.

"كيف حالك، أيها الرجل الوسيم؟".

"بخير، الحمد لله. وأنتِ؟".

"في حال جيدة جداً بالنسبة إلى سيدة عجوز. ماذا عن زينَب؟".

"إنها... بخير".

نظرت إليه مليّاً، وبعد أن شعرت بأنه غير راغب في مواصلة الحديث، فركت ذراعه بودٍّ، ورفعت القنينة التي تحملها عالياً وسألته:

"هل تريد أن تشرب؟".

"ظننتُ أنكِ لن تسألي أبداً".

جلسا، وفتحت غطاء القنينة، وسكبت له كوباً وسلّمته إيّاه. ثم سكبت كوباً لنفسها، وشربا نخب أحدهما الآخر.

"أنا سعيدة برؤيتك يا يوسف".

"وأنا أيضاً، أيتها البروفيسورة".

"ماري"، صححت له مقاطعةً مَيله الطبيعي إلى الشكليات في أثناء مخاطبته من هم أكبر منه سنّاً وأعلى مركزاً. أومأت موافِقةً، ثم ارتشفت عصير الليمون.

كانت ماري دوفريسن - المعروفة لدى الجميع في الأُقصُر *بالدكتورة الأمريكانية* - مشابهة للأسلاف. إنها الصلة الوحيدة المتبقية في ميدان عِلم الآثار المصري مع العصر الذهبي الغابر. كان والدها، آلن دوفريسن، قيّماً على *الميت*، وقد برز في أواخر عشرينيات القرن الماضي، وعمل مع هربرت وينلوك، واصطحب معه زوجته وابنته، وبقيت ماري في مصر مذاك الحين؛ باستثناء مدة وجيزة قضتها في هارفارد للإعداد لشهادة الدكتوراه. وينلوك، هوارد كارتر، فليندرز بِتري، جون بندِلبوري، محمد غُنيم؛ كانت تعرفهم كلهم. فقد كانت عضواً جديراً بالاحترام في تلك المجموعة. فماري دوفريسن معروفة على الصعيد الشعبي بأنها أعظم رسّامة للآثار عملت في مصر، حتى إنه قيل إن زاهي حوّاس الشهير والمتعجرف يقدّرها كثيراً.

"إذاً، كيف يسير العمل؟". سأل خليفة متناولاً محتوى كوبه بجُرعة واحدة، وموافقاً على ملئه مجدداً.

"ببطء"، أجابت. "هكذا يُفترض به أن يسير. العالم يسير بسرعة كبيرة لا تتلاءم مع وتيرتي".

دأبت ماري في العقد الأخير على وضع رسوم بمقاييس نسبية لكل لوحة ونَقش في الوادي الغربي. وقضت ثلاث سنوات من السنوات العشر الأخيرة في العمل على مدفن إيْ.

"يبدو أنك كنتَ بحاجة لذلك"، قالت في أثناء شربه محتوى كوبه مجدداً بجُرعة واحدة وطويلة.

"إنها أطول رحلة على الأقدام أقوم بها".

"هذا ما يكون عليه الحال في الصيف. عندما يميل الطقس إلى البرودة يزداد النهار قِصراً. وعندما يحلّ كانون الأول/ديسمبر، يمكنك اجتياز المسافة قَفزاً".

ابتسمت وأعادت ملء كوبه للمرة الثالثة.

"إذاً، ما هذا السؤال الغامض الذي أردتَ أن تطرحه عليّ؟".

تناول خليفة رشفة أخرى ممتنّة؛ إذ تُعِدّ ماري الليمونادة بنفسها، وتُوازن بشكل صحيح بين مَرارة الليمون وحلاوة سُكّر القصب. وبعد أن مسح فمه، وضع الكوب جانباً.

"السؤال يتعلق برجل يدعى ساموئيل بينسكر"، قال. "إنه إنكليزي كان يعمل هنا. كنت أتساءل إن كنت تتذكرينه".

"ساموئيل بينسكر". لفظت الاسم مطوَّلاً كما لو أنه سبق لها أن سمعت به. "يا الله! إنه عَصْفةٌ من الماضي".

"أنت تتذكرينه بالفعل".

"بغموض. اختفى عندما كنت طفلة. لقد عثروا على جثته في السبعينيات. يبدو أنه سقط في حفرة أسطوانية لمدفن في الجبل العالي".

كان خليفة قد قرر الاحتفاظ لنفسه بواقع أن بينسكر قد تعرّض للقتل. فكما قال الرئيس صادق، من الأفضل تبسيط بعض الروايات. وسأل عما إذا كانت تتذكر أي شيء عن الرجل.

"كان يخيفني. أتذكّر ذلك بالتأكيد"، قالت محرّكةً يدها بخفّة لتفريق الذباب المندفع نحو حافة الكوب. "كان يضع ذلك القناع الذي يظهر منه ثقبان صغيران للعينين وشقّ للفم. جعله ذلك يبدو كما لو أنه... لا أعلم، مِسخ أو غول أو ما شابه. أظنّ أنه تعرّض لحادث في أثناء عمله في منجم، حادث انفجار غاز، أو شيء

من هذا القَبيل؛ عِلماً أنني ربما أكون مخطئة. حدث ذلك قبل ثمانين عامـاً، ومـع مرور الزمن تصبح تلك الأمور مُبهَمة قليلاً".

ووجّهت ضربة أخرى سريعة بيدها؛ كانت يداها جميلتين على نحـو مـثير للدهشة، فهما طويلتان ونحيلتان ورشيقتان. إن مرور الزمن يمحو أي إلماعـة لِمـا كان بعض الأشخاص يبدون عليه في سنّ صغيرة، في حين أنه يمكن التقاط لَمحات لأشخاص آخرين كما لو أنهم كانوا في سنّ صغيرة. وبالرغم من شعرها الرمـادي وتجاعيدها والبُقَع البنّية المائلة للحُمرة على بشرتها، من الواضح أن ماري دوفريسن كانت ذات مرة امرأة جذابة جداً، وما زالت كذلك بطريقة ما.

"ساموئيل بينسكر"، كررت مُنهيةً شرابها، ومُعيدةً وضع الكوب على القنينة. "ما الذي يحملك على السؤال عنه؟".

"ظهر الاسم فجأةً في قضية يعمل عليها صديق لي. وقلتُ له إنني سـأحاول جمع بعض المعلومات عنه".

وأشعل سيجارة.

"صديقي إسرائيلي"، أضاف.

ارتفع حاجبا دوفريسن من فَرط الدهشة.

"كيف تكون لساموئيل بينسكر علاقة بقضية للشرطة في إسرائيل؟".

"كنت آمل أن تتمكني من إخباري".

فهزت رأسها.

"آسفة يا يوسف، لا أعتقد أنني سأقدّم لك مساعدة كبيرة في هذا الشـأن. أحب التفكير في أنني لم أُصَب بالخرَف بعد، ولكن ثمانين عاماً مدة طويلة. كنـتُ في السادسة أو السابعة من العمر فقط عندما فُقد. كما قلت، مع مرور الوقت تميل الأمور إلى الاضمحلال".

ورفعت شعرة عن عينها وأسندت ظهرها، وتربّعت، معيدةً ترتيب لفاحهـا حول عُنُقها.

"أتذكّره بالفعل وهو يتنقل في الأرجاء على متن دراجته النارية الهادرة"، قالت بعد توقّف قصير، "وأخافني ذات مرة في أحد المعابد لدرجـة أنـني تغوّطـت في ملابسي. عُذراً على أسلوبـي في التعبير. لا فكرة لديّ عن المعبد، أو عما كنـت

أقوم به هناك. أتذكّره فقط قادماً في اتجاهي من وراء عمود. لقد انتابتني الكوابيس طوال أسابيع بسبب ما حدث".

"هل آذاك؟". سأل خليفة مفكراً بالفتاة التي اغتصبها بينسكر.

"ماذا؟ أتعني إن كان قد عاكسني؟".

فهز خليفة كتفَيه.

"بالتأكيد لا. أتذكّر فقط أنه كان يظهر فجأةً، فأزعق وأهرب، ويتبعني بقناعه المُريع ذاك".

ونكّست رأسها مفكرةً، ثم رفعت نظرها مجدداً وقد ارتسم على وجهها تعبير اعتذاري.

"هذا ما أتذكره تقريباً، أنا آسفة. صِدقاً، لا يمكنني أن أكون واثقة مما حدث سابقاً. تعرف كيف تُحرّف الذكريات وتتشابك. انظر إلى هناك".

وأشارت إلى المقعد الإسمنتي الطويل حيث حطّ دبّور كبير بجانب يد خليفة، ثم طاف في المكان، وطار بخفّة، وحطّ على حافة كوبه. فحمله على الابتعاد برأس سيجارته المشتعلة، وشرب عصير الليمونادة المتبقي في الكوب، ثم وقف، وأخذ الكوب إلى الخارج، ووضعه على صخرة. فتبعهُ الدبّور.

"كان ماكس يعرفه"، قالت في أثناء عودة خليفة إلى مقعده.

"ماكس؟".

"لوغرانج. إنه عالِم آثار فرنسي؛ نابغة في الخزَفيات. عمل مع برويير وسيربي في دير المدينة".

"لم أسمع به مطلقاً".

"لأنك لم تعاصره أيها الشاب. إنه مَيت الآن بالطبع. كلّهم ماتوا. لم يبقَ أحد سواي من تلك المجموعة".

وتنهدت، وتحوّل نظرها للحظات في اتجاه الوادي؛ بدا الأمر كما لو أن ذهنها عبر إلى إطار زمني مختلف. لم يدُم ذلك سوى بضع ثوانٍ ومن ثم تابعت الحديث.

"بعد عثورهم على الجثة مباشَرةً، أتذكّر احتسائي الشاي مع ماكس وإخباري إيّاه عن بينسكر وعما كان عليه حاله. لم يقل أموراً جيدة كثيرة عن الرجل. كان

مدمناً على الشراب وقاسياً كما يبدو، ويجادل الناس باستمرار. لقد تعارك مع بعض القُرناويين* ذات مرة، فطرح أحدهم أرضاً، مُفقداً إيّاه الوعي".

مرة أخرى، فكّر خليفة بالفتاة التي تعرّضت للاغتصاب. كانت من القُرنة أيضاً. وكان باستطاعته تخيُّل بينسكر كما وُصف له. من الواضح أن تشوّه وجهه يميّزه عن غيره، ولكنه يبدو شخصية نَمطية: ذاك الإنكليزي العنيف، الفظّ، المتعالي، الذي طالب بحصة من الميراث في مصر؛ عِلماً أنه كان يعتبر المصريين عِرقاً ثانوياً لذا ينبغي الإساءة إليهم واغتصابهم. إنه استعماري نموذجي من المدرسة القديمة.

"كان كارتر يحبه كما يبدو"، قالت دوفريسن، "مما يحملني على توقّع أنه كان هادئ الطباع مع هوارد. لقد طُرد من قسم التحف الفنية القديمة ذات مرة بسبب صفعه سائحة فرنسية في ساكّارا".

لم يسبق لخليفة أن سمع بتلك القصة.

"هل تذكرين أي شيء آخر؟". سأل محاولاً اكتشاف رابط ما مع قضية بِن - روي.

"حسناً، لا يمكنني تذكُّر الحديث حرفياً"، قالت دوفريسن. "لا تزال فترة أربعين عاماً مدة طويلة من الزمن".

ونكّست رأسها مُمعِنةً في التفكير.

"أذكر أنه أشار إلى بينسكر بقوله إنه مهندس ماهر للغاية يقوم بتدعيم العديد من الآثار هنا وفي الضفة الشرقية. آه أجل، وأنه اعتاد الاختفاء في الصحراء طوال أسابيع متتالية".

كان خليفة منحنياً لإطفاء سيجارته بالأرضية الإسمنتية. فرفع نظره لدى سماعه ذلك. لقد قالت صاحبة الدار التي كان بينسكر يقيم فيها في كوم لولاح الكثير من الأمور المماثلة في إفادتها للشرطة بعد اختفاء الإنكليزي؛ عِلماً أنه لم يكن هناك ذِكر للصحراء.

"هل ذكر صديقك أي صحراء يقصد؟" سأل مقوِّماً جلسته مجدداً، وقد أُثير اهتمامه.

"الشرقية، كما أعتقد. أجل، الصحراء الشرقية بالتحديد".

* نسبة إلى القرنة.

"هل تعرفين ما الذي كان بينسكر يفعله هناك؟".

فهزت رأسها عاجزةً عن الإجابة. كان عقل خليفة يعمل بكل طاقته. ليلة مقتله، عاد سامويل بينسكر من رحلة غامضة أخرى قام بها إلى مكان مجهول، واحتسى الشراب حتى الثمالة، ثم اغتصب فتاة، ومن ثم قصد منزل هوارد كارتر مترنّحاً، ومتباهياً بعثوره على شيء ما يبلغ طوله أميالاً. إن السيناريو يوصله إلى مكان ما، كان بإمكانه الشعور بذلك، سواء أكان لذلك المكان علاقة بقضية بِن - روي أم لا، فالأمر يثير اهتمامه.

"هل سمعتِ يوماً أن سامويل بينسكر قد عثر على شيء ما؟" سأل.

"ماذا تعني بقولك إنه عثر على شيء ما؟".

"لا أعرف، على مدفن ربما، أو...".

وحاول التفكير بأي شيء آخر يتلاءم مع الوصف "يبلغ طولها أميالاً"؛ لاكتشاف ما رغب بينسكر في التباهي به. ولكن، لم يتبادر إلى ذهنه أي شيء، حتى إن المدفن لا ينسجم مع الوصف.

"شيء ما كبير"، قال بطريقة غير مُقنِعة.

فرمقته دوفريسن بنظرة استجوابية، غير فاهمةٍ ما يرمي إليه. وبهدف تقديم المزيد من الشرح، أخرج ملف العام 1931 من كيسه، وسحب رسالة كارتر وسلّمها إيّاها. فقرأتها، واتسعت عيناها من فَرط الدهشة.

"يا للغرابة!"، قالت عندما أنهت القراءة. "أستطيع سماع صوت هوارد تقريباً وهو يقول *هُراء تومي*؛ كان يستخدم تلك الجملة على الدوام".

"هل تعني لك شيئاً؟ أقصد تلك العبارة عن...".

وانحنى خليفة وأشار إلى السطور ذات الصلة.

"لا شيء البتة، آسفة. أنا مشوَّشة على غرارك. إنه لغز بالتأكيد".

وشرعت بقراءة الرسالة مجدداً، ولكنها سحبت الورقة فجأةً قبل أن يأخذها خليفة، وأعادت قراءتها. ومن خلال سلوكها وطريقتها في إغماض عينَيها بسرعة وبشكل متكرر كما لو أنها تعود بالذاكرة إلى حدث بعيد، كان هناك ما يشير إلى وجود صلة.

"لا"، تمتمت. "هذا غير ممكن".

"ماذا؟".

"حدث ذلك بعد أعوام. إنه سياق مختلف تماماً. ولكنني أتكلّم عن هوارد، والأسلوب مماثل تقريباً".

بدا الأمر كما لو أنها تتحدث إلى نفسها أكثر من كونها تتحدث إلى خليفة. وتساءل للحظات وجيزة عما إذا كان تقدّمها في السنّ قد بدأ يؤثّر عليها أخيراً، وإن كانت مقدراتها العقلية آخذة بالتراجع. ومن ثم نظرت إليه بذِهن صافٍ كما كان حالها على الدوام.

"ماذا؟" سأل مجدداً.

"حسناً، لا أريد حقاً إرباك المسألة. ما أفكر فيه لا علاقة له تقريباً، ولكن...".

ونظرت إلى الرسالة مجدداً، ومن ثم أسندت ظهرها إلى أحد الأوتاد الداعمة لسقف الملاذ.

"إنه أمر سمعتُه عرَضاً بعد نحو ثماني سنوات من اختفاء بينسكر. لقد علق في ذهني، وفي أثناء قراءتي جملة *عثرتُ عليه، يا كارتر*، تذكّرتُه مجدداً. ما أريد أن أقوله هو إنه أمر مختلف تماماً ربما، ولكن...".

ولزمت الصمت هازّةً رأسها.

"هل تريدين أن تخبريني؟".

"بالتأكيد. في الواقع، إنه أحد الأمور القليلة التي تعود إلى تلك الفترة، والتي أتذكّرها بوضوح تام. ربما يعود سبب ذلك إلى أنّ تلك المرة كانت المرة الأخيرة التي نرى فيها هوارد على قيد الحياة".

ولزمت الصمت لثوانٍ قليلة، مستجمعةً أفكارها.

"قبل ثلاثة أو أربعة أشهر من وفاته، أي ما بين نهاية العام 1938 وبداية العام 1939، كان يُقيم في لندن، ولكنه اعتاد قضاء فصل الشتاء في الأُقصُر، وغالباً ما كان يقصد منزلنا لتناول العشاء معنا. كان يتم إرسالي إلى الطابق العُلوي على الدوام، ولكن على غرار معظم الأطفال كنت أزحف إلى فسحة الدرج، وأحاول استراق السمع إلى ما يقوله البالغون. لا أستطيع أن أتذكّر من كان موجوداً بالتحديد؛ والدي وهوارد، بالتأكيد، وربما هربي وينلوك ووالت هاوزر...".

وتوقفت قليلاً مفكرة، ومن ثم لوّحت بيدها.

"لا يهمّ. ما أريد قوله هو أنه حدث جدال كبير، وشرع هوارد بالصياح. كان سريع الغضب على الدوام، وازداد غضبه حدّة قُبَيل نهاية الجدال لدى التطرق إلى داء هودكين. لا فكرة لديّ عما كانوا يتجادلون في شأنه، ولكنني أتذكر تماماً هوارد وهو يصيح بصوت مرتفع: *لم يعثر عليها. الأمر برمّته هراء تومي. إنها أسطورة. باستطاعتكم حفر الصحراء الشرقية برمّتها ولن تجدوها لسبب بسيط؛ وهو أن المتاهة لم تكن موجودة قطّ*".

فقطّب خليفة جبينه.

"متا-هي؟".

كانت الكلمة غير مألوفة لديه.

"متاهة"، ترجمت.

"ماذا تعني؟".

"لا أعلم، صدقاً. فالمتاهة الوحيدة التي سمعتُ بها يوماً هي مجمَّع هرم أمنمحات، ولكنها موجودة في الحَوّارة في الفيّوم. لقد اكتشفها بِتري في أواخر ثمانينيات القرن التاسع عشر".

وتمعّنت بالرسالة مجدداً، ومن ثم سلّمته إيّاها.

"أهذا كل شيء؟". سأل خليفة مُعيداً الورقة إلى الملف. "ألا يمكنك أن تتذكري شيئاً آخر؟".

"آسفة".

"أليست لديك أيّ فكرة عما كانوا يتحدثون عنه؟ وعن الشخص الذي عنَوه بكلامهم؟".

"آسفة يا يوسف. لا شيء لديّ سوى تلك المعلومة الصغيرة. ربما كانوا يتحدثون عن بِتري والحوّارة، وربما تشوّشت أفكار هوارد وقال الشرقية بدلاً من الغربية. ربما تكون أفكاري مشوَّشة. حدث ذلك قبل ثمانين عاماً بالرغم من كل شيء. الذكريات تخدع. لقد صدمني وجه الشبه في العبارات، والإشارة إلى الصحراء الشرقية...".

وهزّت كتفَيها بطريقة اعتذارية. انحنى خليفة إلى الأمام، وأعاد الملف إلى الكيس. ومرّت لحظات اعتقد خلالها أنها ستُخبره شيئاً ما يُنير بحثه، ولكن يبدو

الأمر كما لو أنها زادت القضية غموضاً. لقد ادعى ساموئيل بينسكر العثور على شيء ما يبلغ طوله أميالاً، ولكن في مكان ما خارج الصحراء ربما. وقد يكون بينسكر، أو أي شخص آخر، من ادعى وجود المتاهة، ولكن في الصحراء الشرقية. قد يكون الادعاءان بشأن أمور مختلفة تماماً، ولا علاقة واضحة لأيّ منهما بقضيّة بن - روي. إن الأمر أشبه بممارسة لعبة الطاولة مع وضع نظارة مغطاة بروث الجاموس، وهي إحدى جُمل الرئيس الحسَني المفضَّلة.

لقد ارتسمت حَيرته على تعابير وجهه بالتأكيد، لأن دوفريسن مدّت يدها وضغطت على ذراعه.

"هناك شخص واحد يمكنك التحدث إليه"، قالت.

فرفع نظره.

"رجل إنكليزي يدعى ديغبي غيرلينغ. إنه رجل مُضحك، وبدين، ويبدو كبالون. قبل سنوات قليلة - في الواقع، أكثر من سنوات قليلة - وضع كتاباً عن الذين شاركوا في التنقيب عن توت عنخ آمون. أنا على ثقة تامة بأن بينسكر مذكور في الكتاب. ربما كان ديغبي يعرف المزيد".

"هل تعرفين كيف يمكنني الاتصال به؟".

"حسناً، إن مركزه في إنكلترا - لندن بيركبك كما أعتقد - ولكن، في هذا الوقت من العام، يمكنك العثور عليه ربما وهو يحاضر على أحد يخوت النيل".

سجّل خليفة ذلك في ذهنه، ونظر إلى ساعته. لقد تأخّر الوقت أكثر مما اعتقد.

"ينبغي عليّ العودة. لا أحب أن... تعلمين... زينَب".

ضغطت على ذراعه مجدداً وهي تقول:

"أفهم يا يوسف. آسفة لأنني لم أتمكن من تقديم المزيد من المساعدة".

"قدّمتِ مساعدة كبيرة".

"على الأقل، لقد أنعشتك بقليل من العصير"، وابتسمت مربّتةً على قنّينة الليمونادة. "هل يمكنني أن أُقلّك إلى *ذراع أبو النجا*؟".

وأومأت في اتجاه دراجتها النارية، فرفض خليفة طلبها غير راغب في إزعاجها، ولكنها أصرّت، قائلةً إنها بحاجة للذهاب إلى ذلك المكان بأي حال

لإحضار بعض الأغراض. إنها كذبة واضحة، ولكن البديل هو الكدّ في السير عبر الوادي في حرّ فترة العصر الملتهب؛ لذلك، اقتنع خليفة بضرورة كبته اعتداده بنفسه وقبوله العرض.

"شكراً لكِ"، قال.

"شكراً *لكَ*. نادراً ما يتسنّى لي في هذه الأيام التجول برفقة شاب وسيم على المقعد الخلفي".

أعادت قنّينة الليمونادة إلى المدفن، وأقفلت بوابة المدخل، وانطلقا على امتداد طريق الوادي وصولاً إلى الطريق المعبَّدة التي تتعرّج بين التلال من وادي الملوك إلى السهل الأخضر المزروع في الأسفل. وبدلاً من إنزاله في *ذراع أبو النجا*، تابعت طريقها نحو النهر، وهو أمر لم يُبدِ حياله سوى مقاومة رمزية. من الممتع أن يشعر بالهواء يداعب وجهه.

وألقى كل منهما تحيّة الوَداع على الآخر عند مطلّ الجزيرة المائي، ثم دفع خليفة خمسين قرشاً، وصعد على متن العبّارة المحلية المتوجهة إلى الضفة الشرقية، مفكراً طوال الوقت في ساموييل بينسكر، والجريمة التي ارتكبها، وموته وحيداً، والشيء أو المكان الغامض الذي ادّعى العثور عليه. وعندما رست العبّارة عند الضفة البعيدة، نزل إلى البرّ مع الركاب المتزاحمين. وفيما كان يصعد الدرَج في اتجاه الكورنيش القائم على النيل، تصلّب فجأةً وتسمّر في مكانه.

للمرة الأولى منذ تسعة أشهر، لم يفكر بابنه علي في أثناء وجوده في الماء. وعاد إلى النهر مصدوماً، وغير واثق مما إذا كان ينبغي عليه الشعور بالارتياح بسبب إلهائه المؤقت عن الحزن الذي يشعر به، أم بالذُّعر من فكرة بدئه بنسيان ابنه.

إسرائيل–تل أبيب

بعد إنزاله زيسكي وسط تل–أبيب، أجرى بِن – روي اتصالاً هاتفياً بصديقه الصحافي ناتان تيرات للتحقق مما إذا كان يميل إلى احتساء شراب معه، وحافزه الأول محاولة استقراء آراء الأشخاص شديدي الذكاء في شأن شركة

بارين. كان تيرات أمام حد زمني أقصى - قصة فاتنة عن ثقب أسود في صندوق المعاش التقاعدي للجيش الإسرائيلي - ولكنه قال إنه سينتهي من إعداد المقالة في غضون ساعة إذا كان بن - روي راغباً في التسكّع في مكان ما. لم يكن لديه سبب مُلِحّ للعودة إلى القدس فوافق على ذلك، واتفقا على الالتقاء في مقهى يعرفانه في ديزنغوف.

ثم أجرى اتصالاً هاتفياً ثانياً بسارة، وترك رسالة في بريدها الإلكتروني. وبعد ذلك، رغبةً منه في التنزّه بانتظار مرور الوقت، ركن سيارته على جانب الطريق على مَقرُبة من ها-ياركون، وقام بنزهة سيراً على الأقدام على امتداد الواجهة البحرية.

كان الكورنيش ناشطاً بالحركة كما هو الحال على الدوام أيام السبت؛ فقد كان هناك مُشاة، ومهرولون، وراكبو دراجات هوائية، ومقاهٍ متلاصقة، وصف من الأزواج يلعبون الماتكوت وراء الشيراتون موريا، وسُمع صوت خَبط الكُرات على بُعد مئات الأمتار في الاتجاهَين. وهناك موسيقى، وحشد من الأشخاص الذين كانوا يتدرّبون على نَقْلات موسيقى السَّلْسة. وعلى الشاطئ، كان هناك العديد من الأشخاص الذين يعرِّضون أجسادهم لأشعة الشمس وقد ارتدوا القليل من الملابس لدرجة أنهم يبدون شبه عُراة. لم يبدُ الأمر كما لو أنها مدينة مختلفة عن القدس، بل بدت عالماً مختلفاً كلياً؛ فهي أكثر تساهلاً، وأقلّ حدّة، والناس فيها يعيشون باسترخاء وعلى سجيتهم. في القدس، تشعر على الدوام بوجود عبء على كاهلك؛ الدين، التاريخ، الوضع الفلسطيني. وهنا، على الشاطئ، يُرفَع العبء وتبدو إسرائيل بلداً طبيعياً. وليست هذه هي المرة الأولى التي يتساءل فيها عن سبب انتقاله منها.

اشترى لنفسه المثلّجات - بنكهة الفريز والفستق - وجال جنوباً على امتداد المتنزَّه، البحر إلى يمينه، والواجهات الشامخة للفنادق القائمة قبالة الشاطئ تشكل جداراً إسمنتياً متواصلاً إلى يساره. فكّر بمتابعة السير وصولاً إلى متنزّه كلور بارك ليقوم بتمرين جيّد لساقَيه، ولكنه استنفد طاقته عند برج الأوبرا الهَرَمي المماثل للزقّورة. ووقف للحظات مستمعاً إلى فرقة موسيقية تعزف على آلات وترية، وتقدّم حفلة موسيقية ارتجالية تحت شجرة نخيل. وبعد مضغه ما تبقى من

البسكويت مخروطي الشكل، استدار عائداً من حيث أتى. واستدارت أفكاره معه، مبتعدة عن تأملاته العشوائية بتل-أبيب، وسارة والطفل، والمنحى الـذي اتخذتـه حياته، وعاد إلى قضية كلينبرغ. فبفضل تعليق زيسكي اللاذع في السجن، اتضـح له وجود صلة ما بين غينادي كريمينكو وشركة بارين؛ عِلماً أنه ليس هناك أحـد يعرف نوعية هذه الصلة. ومن الواضح أن تورط كريمينكو بالاتّجار بالجنس يربطه بفوسغي التي ترتبط أيضاً بصلة مع الجانب الأرمني. حتى الآن كل شـيء يسـير بشكل جيد. ولكن، ماذا عن نِمسيس أجندا ورحلة كلينبرغ غـير المفسَّـرة إلى ميتزبـي رامون؟ هل كشفت نِمسيس النقاب عن أمر ما ذي علاقة بالمقالة الـتي كانت كلينبرغ تُجري بحثاً عنها عندما قُتلت؟ هل قصدت كلينبرغ تلك الجماعـة حاملةً معها شيئاً ما؟ للوهلة الأولى، تبدو الوقائع متكاملة؛ وإن لم تكـن بطريقـة مُرضية تماماً. إذاً، بارين، كريمينكو، الاتّجار بالجنس، فوسغي، دار العبادة الكبرى الأرمنية، نِمسيس؛ كلها أطراف خيوط يمكن ربطها ببعضها، ولا يُستثنى منـها إلا خيطان ضعيفان في أفضل الأحوال.

فجوهر المشكلة يتمثل بالمقالات التي كانت كلينـبرغ تطالعهـا وتتنـاول استخراج الذهب وساموبل بينسكر. من الواضح أن مقالـة اسـتخراج الـذهب مرتبطة ببارين، وبطريقة واهية، بساموبل بينسكر الذي كان مهندس تعدين كمـا ثُبت. وبينسكر مرتبط بمصر التي كانت مركز نشاط للاتّجار بالجنس. بالرغم مـن ذلك، تبدو المقالتان في غير مكانهما على نحوٍ متضارب، وتحتويان على انحرافـات غير قابلة للشرح مرتبطة بعمل كلينبرغ.

كان بينسكر بصفة خاصة يُشعره بألم في المعدة. لقد علّمته الخـبرة أن كـل قضية تحتوي على عنصر واحد على الأقل لا ينسجم مع العناصر الأخرى، ويرفض ببساطة التكامل مع بقية أجزاء أُحجية الصورة المقطّعة. وبينسكر هو ذاك العنصر. فالإنكليزي جزء من صورة مختلفة تماماً كما يبدو. وكان بـن – روي يأمـل أن يكتشف خليفة شيئاً ما، ولكن خمسة أيام مرّت و لم يتلقَّ أي اتصال من المصـري بعد. لقد جعله هذا الأمر في وضع دقيق. كان بحاجة ماسّة إلى المزيد من المعلومات عن بينسكر، ولكنه لم يشأ في الوقت نفسه الضغط على خليفة، سيّما وأن الرجـل يسعى للتعافي من المصيبة التي ألّمت به. لقد سبق له أن اتصل به وترك له رسالة من

دون أن يتلقّى أي اتصال منه، ولم يحبّذ فكرة مضايقته. ولكنه لا يستطيع الانتظار إلى ما لا نهاية. فلديه جريمة يتعيّن عليه حلّها، وساموويل بينسكر مرتبط بتلك الجريمة بطريقة ما. هل يتصل به مجدداً؟ هل يُفترض به الشروع بتحرّياته الخاصة، وتكليف زيسكي بمهمة الحصول على بعض المعلومات. كان لا يزال يحاول اتخاذ قرار في هذا الشأن عندما رنّ هاتفه المحمول.

جيد. جيد. إنه خليفة. اليهودي والمسلم في انسجام.

"كنت أفكر فيك للتو"، قال ملوِّحاً لبائع يحاول بيعه قبّعة للوقاية من الشمس، ومشيراً له للابتعاد.

"ليس بطريقة سيّئة، كما آمل"، قال خليفة.

"لا شيء هنا سوى أشعة الشمس والحب، يا صديقي".

لم يبدُ على خليفة إن كان مسروراً بالتعليق أم لا. فاعتذر على عدم الاتصال به من قَبل، وشرح أنه كان يرغب في التحدث إلى شخصَين قبل الاتصال به، ومن ثم شرع بسرد ما اكتشفه حتى ذلك الحين: الاغتصاب، عملية القتل الثأرية، رسالة هوارد كارتر، الاكتشاف المُبهَم الذي ادّعى بينسكر تحقيقه قبل وقت قصير من وفاته والذي قد يكون على علاقة بالمتاهة. وإذا كان بِن - روي يأمل أن تساعده المعلومات التي يحملها له خليفة على إلقاء ضوء على القضية، فلا بد من أن يكون قد أُصيب بخيبة أمل. وليست هذه هي المرة الأولى في هذه القضية.

"ما الذي تستنتجه من ذلك؟" سأل عندما أنهى خليفة كلامه.

"لا أعرف حقاً"، أجاب المصري. "قصة المتاهة تلك مثيرة للاهتمام، ولكن سواء أكانت محطّ اهتمام ضحيّتك أم...".

وتوقف صائحاً بغضب باللغة العربية.

"آسف، إنهم أطفال كانوا على وشك عبور الطريق"، شرح. "أغبياء. ينبغي عليهم التحقق من الطريق قبل أن يعبروا".

وشرع بِن - روي بالابتسام، وتوقف بعد ذلك، مُدركاً تأثير ذلك على صديقه. وسأله إن كانت هناك أي صلة بين الجريمتَين بحسب رأيه: الأُقصُر عام 1931، والقدس في الوقت الحاضر. فصدر عن المصري ما يشبه الصراخ، وهو الموازي اللفظي لرفعه يدَيه في الهواء للتعبير عن عجزه.

"لا يمكنني رؤية أي صلة واضحة، باستثناء أن القتيلين يهوديّان. وحتى في هذه الحالة، يبدو الأمر... كيف تقولها؟ غير مُقنع نظراً إلى أن فترة ثمانين عاماً تفصل بين الجريمتَين. ولكنني لا أعرف كل تفاصيل قضيتك، لذلك ربما أُغفِل شيئاً ما".

إنها وجهة نظر مُنصفة. فبن - روي لم يزوّده إلا بنظرة عامة أساسية عن الوضع. ويعود سبب ذلك جزئياً إلى رغبته في تجنّب رد فعل غير محسوب قد يصدر عن قوة الشرطة الإسرائيلية بسبب قيامه بتسريب معلومات سرّية عن القضية إلى فريق آخر من دون عِلمهم، ولا سيما إن كان ذاك الفريق عربياً، وإلى عدم رغبته في توريط خليفة حيث يبدو الأمر كما لو أنه يستغلّ صداقتهما.

ولكن، بدون الاستعانة بخليفة من الممكن إغفال الصِّلات، الصِلات الحيوية.

وتردد محاولاً الموازنة بين الحاجة المُلِحّة إلى إجابات، وبين الحصول على هذه الإجابات من دون ممارسة الضغط على صديقه القديم. وكان خليفة هو من حلّ المُعضلة عندما سأله:

"هل يمكنك أن ترسل لي مزيداً من المعلومات؟".

"هل تريد مني أن أرسل لك مزيداً من المعلومات؟".

"لِم لا. أي شيء يعزز قضية العلاقات العربية-الإسرائيلية".

هذه المرة ابتسم بن - روي بالفعل.

"سأرسل لك شيئاً ما يوم غد. وأقدّر لك إبقاء هذا الأمر بيننا".

"بالتأكيد. سأوجّه التماساً عبر أثير محطة التلفاز التابعة للدولة. وعدا عن ذلك، سيبقى هذا الموضوع سرًّا بيننا".

ابتسم بن - روي مجدداً. فبالرغم من كل ما عانى منه، إن خليفة القديم لا يزال موجوداً، ليس كما كان في السّابق ولكنه موجود.

"لديّ بالفعل طرف خيط ربما"، تابع المصري. "أكاديمي إنكليزي. يبدو أنه أجرى بحثاً ما حول بينسكر، وربما سيتمكن من تزويدنا ببعض المعلومات. إنه يحاضر على متن أحد يخوت النيل في الوقت الحاضر، ولكنني تحققتُ من خط سَيره ووجدت أن مركبه سيرسو في الأُقصُر يوم غد. سأقصده وأتحدّث إليه".

"أقدّر لك ذلك"، قال بن - روي.

"لا مشكلة".

"أقدّر لك ذلك حقاً".

"لا مشكلة البتّة حقاً".

لم يكن هناك ما يُضيفاه كما يبدو، ليس عن القضية على الأقل، فلزما الصمت. كان بِن - روي يجول على امتداد الواجهة البحرية في إسرائيل، فيما خليفة في الأقصر يقف محدّقاً بصور العائلات في مشغَل فودجي فيلم للتصوير والتظهير عند زاوية المدينة والمَهدي. لم يستطيعا شرح ذلك، ولكنهما أصبحا متردّدَين على نحو غريب في إنهاء المكالمة.

"كيف حال زينَب؟".

"كيف حال سارة؟".

لقد تكلّما في الوقت نفسه، واعتذر أحدهما من الآخر في الوقت نفسه أيضاً.

"أنت أولاً"، قال بِن - روي. "كيف حال زينَب؟".

"بخير"، أجاب خليفة. وساد الصمت لفترة وجيزة، ومن ثم تابع خليفة قائلاً: "في الواقع، هذا غير صحيح. إنها ليست بخير مطلقاً. فهي لا تنام بشكل جيد، وتنتابها كوابيس مزعجة، وتستيقظ باكية. لقد أصابتها وفاة علي في الصميم. لقد أصابتنا كلينا في الصميم".

حاول بِن - روي التفكير في شيء مُعزٍّ يقوله، ولكنه لم يتمكن من التوصل إلى أي شيء معزٍّ فعلاً.

"آسف"، تمتم.

"إنه واقع الحال"، قال خليفة. "نحن نتدبّر أمورنا".

كانت إحدى الصور تظهر فتى صغيراً، في سنّ علي تقريباً، يحدّق بآلة التصوير بوجه صارم. فحدّق خليفة بها، ومن ثم تابع سيره في شارع المدينة المنوّرة.

"ماذا عن سارة؟ هل هي بخير؟".

"إنها بخير"، قال بِن - روي. في الواقع، لقد شعرت بتوعّك صحي ليلة أمس، ولكنه بدا غير ذي أهمية مقارنةً مع ما يواجهه الزوجان خليفة، فلم يتكبّد عناء ذِكر ذلك له.

"والطفل؟".

"إنّه بخير أيضاً. شكراً لسؤالك".

ولزما الصمت مجدداً، وكل منهما يقدّر حضور الآخر، غير شاعرَين بالحاجة إلى التعبير عن هذا التقدير شفهيّاً. مشى خليفة بعناء نحو المنـــزل؛ مروراً بمطعـــم بادلداك الإنكليزي ومبنى إدارة الأمن في الأُقصُر، فيما توقف بِن - روي عنـــد فندق كراون بلازا، مراقباً راقصي السبت في فترة بعد الظهر. فقد كان هناك اثنا عشر ثنائياً. كانوا مُسنّين وشبّاناً، ماهرين ومبتدئين يتحركون مـــع الموســـيقى الزاعقة من راديو ومسجّل كبير محمول. عندما مرّ من هنا في الســـابق، كـــانوا يرقصون إحدى رقصات السَّلْسة. أما الآن فتعزف الفرقـــة الموســـيقية المرافِقـــة الفالس.

"ما الذي أسمعه؟" سأل خليفة.

فشرح له بِن - روي.

"أحببتُ هذا"، قال المصري. "الناس يرقصون في الشارع. نحن لا نقوم بأمور مماثلة في مصر باستثناء راقصي الزيكر، والثورات. فنحن نرقص دائمـــاً في أثنـــاء الثورات".

"أكره الرقص"، قال بِن - روي. "يقدّم لك الفيل إيقاعاً أفضل".

وضحك خليفة. لم تكن ضِحكة بكل معنى الكلمة، ولكنها ضحكة مكبوتة بالرغم من كل شيء.

"كانت زينَب ترقص في كل الأوقات"، قال بعد فترة صـــمت أخـــرى. "في شقتنا القديمة. كنت أعود من المركز وأجدها تستمع إلى شريط لعَمر دياب، رافعةً الصوت إلى أعلى درجة، وقافزةً في أرجاء المكان. كانت تحب الـــرقص. لم تعُـــد كذلك للأسف".

مرةً أخرى، حاول بِن - روي العثور على تعليق مناسب، شيء ما يخفّف من وطأة ما يعاني منه خليفة من دون أن يبدو مُبتذَلاً أو عاطفياً. لو كانت سارة مكانه لعرفت ما يتعيّن قوله بالتحديد. لديها شعور فطري حيال أمور مماثلة، وتجد علـــى الدوام الكلمات المناسبة. إنها نعمة لم يكن بِن - روي يملكها بالرغم مـــن نوايـــاه الحسنة. فكّر للحظات، ومن ثم شعر بأن عليه اتخاذ موقف ما فقـــال: "ســـترقص مجدداً ذات يوم". وبالرغم من ذلك، كان يعلم أن ما يقوله يبدو شديد الغباء كما لو أنه عنوان قصيدة شعرية.

"إن شاء الله"، كان ذلك جواب خليفة الوحيد.

وبقيا على الخط لمدة أطول، غير متحدثَين عن شيء محدَّد، فيما بِن - روي يقوم بحركة لاإرادية خفيفة انسجاماً مع الرقص، محاولاً التفكير بشيء ما أكثر ملاءمة للتعبير عن مدى اهتمامه بخليفة. وبعد إنهائهما المكالمة، وفي أثناء تجواله في ميناء اليخوت في المدينة - محدّقاً باليخوت *واللانشات* - شعر بأنه الصديق الأوفى في العالم لدرجة أن الاسم تبادر إلى ذهنه فجأةً. فجلس للحظات مفكراً بالاسم، ومن ثم اتصل بسارة وسألها عن رأيها.

"أعتقد أنها فكرة رائعة"، قالت. "ولكن، ماذا لو كانت فتاة؟".

لم يكن لديه جواب عن هذا السؤال. لو كان يتمتع بحَدْس لَما كان بحاجة إلى حَدْس زوجته. كان يعلم في الصميم أن المولود سيكون ذكراً. كان يعرف ذلك فحسب.

إسرائيل-النقَب

كانت قد قرأت على جهاز الكمبيوتر كل التخمينات، وتبادل أطراف الحديث، والنظريات المعقّدة حول هويّتهم وحول صِلتهم بنِمِسيس بالتحديد. كان كل ذلك هُراء. لم يكن هناك أي صراع داخلي على السلطة داخل نِمِسيس، أو أي مجموعة انفصالية، أو أي عامل تحريضي من قِبل أشباح أو شركات ماكرة متعددة الجنسيات. فالحقيقة البسيطة هي إرسالها بريداً إلكترونيًّا إلى موقع نِمِسيس على الويب، حاثّةً على القيام بتدخل جذري، ومتلقّيةً جواباً بالمباشرة بذلك. حصل اتصال وجيز، ووُلد الجناح العسكري *لنِمِسيس أجندا*. وحتى الآن، تبدو مندهشة من كيفية حدوث كل ذلك بسهولة.

وهناك أمور أخرى أيضاً بالطبع. فهي لم تكتفِ بإرسال بريد إلكتروني معتبرةً الأمر مجرد نزوة، ولم تستيقظ ذات صباح وتقول لنفسها: *لنذهبْ ونعبث بالنظام*. بل كان هناك عمل أساسي؛ سنوات من العمل. أولاً، في الولايات المتحدة بعد فرارها؛ متنقّلةً بين مجموعة معارِضة وأخرى - مجموعات مناهضة للرأسمالية وللعولمة، وأخرى مناصرة للشيوعية وللفوضى، بالإضافة إلى مجموعات بيئية

راديكالية - ومشارِكةً في المسيرات، وهاتفة، وملوّحة بالرايات، ومشارِكةً في أعمال الشغب، ودافنةً ماضيها، ومعيدةً تكوين هويّتها.

وبعد ذلك في إسرائيل، حيث فرّت بعد فشل مهمتها، وازداد غضبها ليبلغ مستوى مختلفاً. وشعرت بالخجل؛ عِلماً أنها تعرف أن لا شيء يدعوها للشعور بالخجل. فهي لم تتسبب لنفسها بذلك، ولم تُخطئ بأي شيء.

لقد تعرّفت بتامار في إسرائيل - التقتا في سيارة الشرطة بعد اعتقالهما في تظاهرة - كما تعرّفت بغيدي وفاز من خلال تامار. من الواضح أن الإيديولوجيا التي تشاطروها كانت أحد العوامل التي جمعتهم. ولكن شخصياتهم هي التي قرّبتهم من بعضهم؛ أكثر من معتقداتهم بوجود دافع أسمى يحثّهم؛ أمر ما أكثر حميمية من مجرد الرغبة في تخريب أعمال طاحن اللحم الرأسمالي. فاز عربي-إسرائيلي، كان طوال حياته عُرضة للتمييز والحِرمان من حق الاقتراع. غيدي مجنَّد في الجيش الإسرائيلي شُوِّهت سمعته بسبب التشهير بالأعمال الوحشية التي ارتكبها الجيش في غزة. تامار ابنة والدَين من الحاردي، متطرفَين في أرثوذكسيّتهم، شعرا بالعار بسببها. كل منهم يُسهم في توضيح معالم اللوحة الأكثر اتساعاً للظلم الشامل. ولكل منهم - على غرارها - شياطينه السرّية. وكل منهم يسعى - على غرارها - إلى طرد الأرواح الشريرة.

والأهم من ذلك أن كلاً منهم أدرك - على غرارها - أنّ الأساليب التقليدية للاحتجاج - المسيرات، أعمال الشغب، الاعتصامات، والعرائض - هدر تام للوقت. إنها حرب، ولا يمكن الفوز بالحروب في نهاية المطاف إلا بواسطة العنف.

وهكذا، بدأوا بالعمل معاً. قاموا بعمليات صغيرة في البداية، كاقتحام مكتب هنا، وإحراق متعمَّد هناك. وبعد ذلك، شرعوا بتنفيذ مهمّات أكثر تعقيداً: تخريب خط أنابيب في نيجيريا، وتفجير مصنع ذخائر في فرنسا، واختطاف مُضارب أميركي رائد بالأغذية وتنفيذ إعدام صُوري بحقه؛ فقد أضافت صفقاته ملايين الدولارات إلى استثماراته في وال ستريت في حين أنه حَكم على الملايين من الناس بالجوع في أفريقيا والهند. لقد تمّ نقل المعركة إلى أرض العدوّ.

لقد عملوا معاً بشكل جيد، وشكّلوا فريقاً متماسكاً: فاز يجمع المعلومات بواسطة الكمبيوتر، وتامار تنظّم اللوجستيات، وغيدي يوفّر الأسلحة.

وماذا عنها؟ إنها الأكثر ذكاءً بينهم؛ العقل المُوجِّه للمجموعة. إذ يتعيّن على المنظَّمات التعاونية أن يكون لديها قائد، وكانت هي القائد بالتحديد.

فهي من تختار المهمات، وتخطط لكل شيء بأدق التفاصيل، وهي التي أدركت باكراً أن المهمات وحدها لن تكون كافية مطلقاً. فمقابل كل هدف يوجّهون ضربة إليه، يكون هناك ألف هدف آخر يستحق أن توجَّه ضربة إليه من دون أن يكون بإمكانهم القيام بذلك. كانت تجربتهم قصيرة جداً؛ نقطةً في محيط. ففي النهاية، لا يتعلق الأمر بالعنف بحد ذاته، بل بالتموجات التي يتسبب بها، وبالزَّخم الأكثر شمولية الذي يولّده.

لهذا السبب، اقترحت الشروع بالعمل مع نِمِسيس أجندا، واستعانوا بموقع نِمِسيس على الويب، وحظوا باهتمام عالمي من خلاله لم يتمكنوا قطّ من الحصول عليه بمفردهم؛ أيّاً يكن عدد المديرين التنفيذيين الذين روّعوهم، وأيّاً يكن عدد التجهيزات الكمبيوترية التي استهدفوها. في البداية، كان الآخرون متشككين، ولكنها روّجت للفكرة وأصرّت على أن تكون لنِمِسيس سيرةٌ ذاتية وأتباعٌ يمكنهم الشروع حقاً بتغيير الأمور. لقد تطلّب منها الأمر بذل بعض الجهد لإقناعهم، ولكنها فازت في النهاية.

لقد التقطوا لأنفسهم صوراً فوتوغرافية يظهرون فيها وهم يشعلون النار في مكتب تل-أبيب بواسطة القنابل، وقاموا بإرسالها إلى صندوق البريد الآمن على الويب، واقترحوا تضافر القِوى. ولكنهم لم يتلقوا أي رد فعل طوال شهر. ومن ثم، فيما كانت وفاز جالسَين ذات مساء أمام جهاز الكمبيوتر الخاص به اختفى كل شيء من الشاشة، وقبل أن يتمكن فاز من معرفة ما يحدث، ظهرت نقطة صغيرة في وسط الشاشة، وتمدّدت ببطء، وانتشرت، قبل أن تتحوّل إلى كلمات: **العرض مقبول. نقاتل معاً.**

وجرى الاتصال بسهولة تامة.

لم تعرف قطّ الأفراد الذين يشكلون نِمِسيس. إنهما شخصان غريبا الأطوار في غرفة مُظلِمة في مكان ما ربما، أو مجموعة عالمية معقَّدة من الناشطين! لم يكن باستطاعة أحد أن يحزر. ولكن، عندما تعود بالذاكرة إلى الوراء، تشعر بأن أولئك الأفراد كانوا يراقبونها. فمنذ انخراطها في نِمِسيس ينتابها شعور بوجود من يراقبها،

وهي لا تزال تشعر بذلك أحياناً هنا وسط الصحراء. لقد حاولت عدم التأثر بذلك، فما يهمّ هو أنها تخوض المعركة وتخدم القضية بأقصى طاقتها، وتعاقب أولئك الذين ينبغي معاقبتهم، وتسيء إلى المسيئين.

بعد ذلك الاكتساح الأولي، بقي الاتصال بحدّه الأدنى: إذ كان أولئك الأعضاء يقومون بمهماتهم، وينقلون المعلومات لنِمسيس فتظهر المواد على الويب. لقد ركزت مجموعتها على العمل الميداني المباشَر، واهتمت جماعة نِمسيس بشبكات الكمبيوتر؛ عِلماً أن نِمسيس كانت تزوّدهم ببعض أطراف الخيوط والاقتراحات، وبفضل مهارات فاز التكنولوجية لم يترددوا في شنّ هجمات غير منتظمة على شبكات الكمبيوتر بمفردهم. فليست هناك قواعد محدَّدة أو ما شابه. فالكل يخوضون المعركة نفسها.

ونطاق النشاط محدَّد بوضوح في أمر واحد: هي التي ستتولى أمر شركة بارين. إنه أمر أصرّت عليه منذ البداية، فتخلّت نِمسيس عنها. وإذا كان هناك من سيقلي الشركة، فهي التي ستقوم بذلك لأن الشركة هدفها الأساسي. فالهجمات التي شُنّت على شبكات كمبيوتر بارين هي التي لفتت انتباهها إلى *نِمسيس أجندا* في المقام الأول. لقد شغلت بارين اهتمامها، ليلاً ونهاراً، ولا سيما بعد حادثة دار العبادة الكبرى. كانت كل الطرقات تؤدي إلى بارين، وبارين حافزها المستتر. كانت كذلك على الدوام، وستبقى كذلك.

"تبّاً!".

وداست على المكابح بقوة، فترنّحت اللاند كروزر وانزلقت على الإسفلت الحار. كانت مستغرقة بأفكارها لدرجة أنها تجاوزت الفجوة في السياج. فاستدارت بالسيارة متمتمةً، ثم عادت من حيث أتت. وبعد أن اجتازت مسافة كيلومتر واحد إلى الشمال على امتداد الطريق 10، ضغطت على المكابح مجدداً، وانحرفت إلى جانب الطريق متخبّطةً على الحصى في اتجاه السلك الشائك أسطواني الشكل الذي يشكل الحدود. في هذا الجانب إسرائيل والنقب، وفي الجانب الآخر مصر وسيناء. كانت الحكومة تسعى إلى إقامة حدود أقل قابلية للاختراق لمنع مهرّبي المخدرات والناس من العبور؛ 215 كيلومتراً من مراكز المراقبة والسياجات المكهرَبة ممتدة من غزة إلى إيلات. ولم تبدأ الحكومة بالعمل على هذه

الأجزاء الوسطى النائية بعد، ولا يزال بالإمكان التسلل عبرها من دون تكبّد الكثير من العناء. كانت عادة تصطحب الآخرين معها، ولكنها بمفردها في هذه المهمـــة. فعندما يكون الأمر مرتبطاً ببارين، غالباً ما تطير بمفردها.

ترجّلت من السيارة وراقبت المنظر الطبيعي. إنه أشبه بالتواجد على سطح المريخ لجهة عدم وجود ما يشير إلى حياة بشرية، أو أي نوع من الحياة. انتظرت دقيقـــة، ثم سارت بجانب السلك أسطواني الشكل وصولاً إلى ذاك الجزء الذي قـــاموا بقطعـــه، دخلت عبر الفجوة بواسطة اللاند كروزر، ووضعت اللوحتين المصريتين، ثم أعـــادت السياج إلى ما كان عليه، وانطلقت بأقصى سرعة. إنه الجزء الأفضل من مســـافة 400 كيلومتر تفصلها عن القاهرة، وأرادت أن تصل إلى هناك وتعود قبل الفجر.

تل-أبيب

"هل تعتقد أنه يمكن لشركة بارين أن تكون متورطة في الاتّجار بالجنس؟".

فلفظ ناتان تيرات القليل من شرابه متفاجئاً.

"هل هي دُعابة من نوع ما؟".

وأوحت تعابير وجه بِن - روي بأنه ليس واثقاً مما إذا كانت دُعابة أم لا.

"أعلم أن الأمر يبدو بعيد الاحتمال...".

"إنه أكثر من كونه بعيد الاحتمال، إنه سوريالي تماماً".

وتأرجح تيرات على كرسيّه، مدلّياً قنينة الشراب بيده.

"أعني، ما بك يا آري؟ إنها شركة ذات دورة رأس مال... تتراوح مـــا بـــين أربعين وخمسين بليون دولار، مع متوسط أرباح يبلغ 10 بلايين دولار، وربما تناهز عشرين بليوناً. وأنت توحي بأنها تحقق هذه الأرباح من عمل إضافي في البِغاء غـــير القانوني. جدّياً، هل تجد ذلك منطقياً؟".

أقرّ بِن - روي بأن تيرات محق. فهو لم يجد ذلك منطقياً منذ الإعـــلان عـــن وجود بارين والاتّجار بالجنس في المعادلة نفسها.

"ستكون قصة جيدة، انتبه"، أضاف تيرات. "لا، بل ستكون قصة *عظيمـــة*. فضيحة بِغاء في إسرائيل مرتبطة بعملاق عالمي في المعادن".

ومرّر يده في الهواء كما لو أنه يتتبّع عنوان صحيفة رئيساً غير مرئي.

"إن سبقاً صحافياً مماثلاً يكفل نجاحي في المهنة ويميّزني عن سواي طوال الحياة".

فطلب منه بن - روي ألا يأمل كثيراً، وتناول جرعة من شرابه. كانا جالسَين إلى طاولة على الرصيف خارج المقهى في ديزنغوف، وكانا الأكبر سنّاً بين روّاد هذا المقهى بنحو عشر سنوات، فيما أحاط بهما شبّان يتّبعون *الموضة* بملابس مخطّطة، ويرتشفون الشراب وهم يتبادلون أطراف الحديث ويضحكون، مستفيدين قدر الإمكان من الشمس قبل حلول الليل واللجوء إلى النوادي. كان في العقد الرابع من العمر فقط، ولكن المحيط الذي جلس فيه جعله يشعر بأنه عند المنعطف الثاني من العمر. وبالرغم من عدم تخطي تيرات العقد الرابع من العمر على غراره، فقد بدا هذا الأخير من مخلّفات فِرق الروك الموسيقية التي لم تلقَ رواجاً كبيراً في السبعينيات، ببطنه الكبير الناتئ، والصدرة الجلدية، والشعر المائل للرمادي المصفّف بتسريحة ذيل الحصان.

"هل سبق لك أن سمعتَ بأن بارين متورطة *في أي* ضرب من ضروب الاحتيال؟" سأل.

انساقت عينا تيرات في اتجاه فتاة جالسة إلى الطاولة المجاورة، وصدرها ظاهر بوضوح من فتحة فستانها المنخفضة. وتعيّن على بِن - روي تكرار السؤال للفت انتباهه.

"طرح عليّ زميلك السؤال نفسه عندما اتصل بي في ذلك اليوم"، أجاب تيرات مُشيحاً بنظره بتردد.

"وماذا بعد؟".

"لا شيء. أو على الأقل لم يتمكن أحد من الإمساك بأي دليل يُدينها. أعني، إنها شركة عالمية متعددة الجنسيات، وتعتريني الدهشة إن لم تكن ملمة بالأمور كافة. كل الشركات كذلك. القليل من المحاسبة المُبدِعة، القليل من تدوير الزوايا على الصعيد البيئي، نشر شائعات تطال المنافسين... كما قلت لصديقك، هذه الشركات تريد جني المال وليس الفوز بجوائز عن حسن سلوكها".

أفرغ قنّينته بجرعتَين، ثم وضعها على الطاولة بجانب تلك التي سبق له أن أفرغها.

"بالمناسبة، لديك زميل جيد"، أضاف. "إنه ذكي. يُفترض بك التمسك بـه. ربما يساعدك في حل بعض القضايا".

وأشعل سيجارة، ومضغ حفنة من اللوز المملَّح تناولها من الوعاء الموجود على الطاولة، موجِّهاً نظره من حين لآخر نحو الفتاة التي ترتدي فستاناً ذا فتحة صدر منخفضة.

"لا شك في أن بارين متكتّمة"، تابع معيداً النظر إلى بِن - روي، "حتى باعتماد معايير متعددة الجنسيات. إنها تحكم السيطرة على صورتها ولا ترحّب بطرح الأسئلة. ونظراً إلى كونها شركة خاصة، من الواضح أنها لن تكون منفتحة على التدقيق الشامل إذا كانت مُدرَجة في سوق الأسهم. إذاً، من يعلم؟ ربما كانت على تواصل مع القليل من الأشخاص الذين ينقلون لها المعلومات. ولكن، صدقاً يا آري، لا يمكنني أن أتخيّل تورط هذه الشركة في أمر كالاتّجار بالجنس، أو في القتل، وأظن أنني أعرف مآل هذا التحقيق".

رفع حاجبَيه لبن - روي الذي لم يستجب لذلك، بل تناول رشفة أخرى من شرابه. ومرّت جنديّتان تمشيان الهُوَينا، من لواء غيفاتي، تتدلّى بندقيتا أم-16 من ظهرَيهما. في القدس، يشكل الجنود جزءاً من النسيج البصري، ويظهرون هنا أكثر فأكثر. فراقبهما بِن - روي للحظات، ثم واصل كلامه.

"لدى بارين، كما يبدو، نفوذ سياسي"، قال مغيّراً مسار الحديث. "أصدقاء في مناصب عُليا".

وأقرّ تيرات بأنه واقع الحال.

"ليس الأمر غير عادي. لدى كل هذه الشركات متعددة الجنسيات نفوذ في أروقة السلطة، وصلات بارين وثيقة كما يبدو بصفة خاصة. النقطة الجوهرية هي: المال يشتري النفوذ. وبارين تملك المال، الكثير منه. وانطلاقاً مما سمعتُه، إنها تموّل نصف الكنيست، ونصف الكونغرس أيضاً، إذا كنت تصدّق الروايات".

ووضع القليل من اللوز في فمه، ومضغه، ثم تناول مجّة من سيجارته. وجعل بِن - روي قنينة الشراب تثب على ركبته، باحثاً في المحيط عن نوع من أنواع الظلال.

"هل تعرف أي شيء عن صفقاتهم في مصر؟".

لم يكن تيرات يعرف شيئاً سوى ما أطلعه عليه دوف زيسكي.

"ماذا عن الرئيس الأعلى؟ كانت زوجته إسرائيلية، أليس كذلك؟".

فأومأ تيرات برأسه، وتناول حفنة أخرى من اللوز.

"التقيا في أثناء حدث جرى في السفارة في واشنطن. كانت موظفة في الشؤون الثقافية. كان يرسل لها الأزهار كل يوم، وطوال عام، حتى وافقت على الزواج بــه. توفّيت في حادث تحطم سيارة قبل مدة، و لم يتمكن من تخطي الصدمة مطلقاً".

"ماذا عن الابن؟ أخبرني دوف أنه فتى سيّئ إلى حد ما".

"لديه بعض العادات السيئة"، همهم تيرات، "كما أن مزاجه عنيــف، وهــو يضرب البغايا؛ وفقاً للشائعات التي تنشرها الصحف. ولأكون منصفاً، سمعتُ أيضاً أنه أكثر ذكاء مما يعتقد الناس".

وهزّ حبّات اللوز في يده.

"في الحقيقة، إنه عنصر مؤثّر يُحسَب له حساب. في الواقع، كلهم كــذلك. هناك الكثير من التخمينات والشائعات. ولكن، في ما يتعلق بالوقائع المحيطة بعائلــة بارين... إذا كانوا متكتّمين في شأن صفقاهم، فذلك لا يقارَن بتكــتّمهم حيــال حياهم الخاصة. لم يكن معظم الناس يعرفون بوجود ابن له حتى ظهر فجــأةً قبــل عشر سنوات كعضو في مجلس الإدارة. فقد تلقّى علومه تحت اسم مزيّف، وبقــي بعيداً عن أضواء الشهرة. فالمال الذي يملكونه لا يشتري النفوذ فحسب، بل الكثير من الخصوصية أيضاً".

وهزّ حبّات اللوز في يده مجدداً، ومن ثم أعاد رأسه إلى الــوراء ووضــعها في فمه، ماضغاً إيّاها بعزم.

"إنه يأتي إلى إسرائيل كثيراً؛ إذا كانت لهذه المعلومة أي إفادة".

فرفع بِن-روى رأسه.

"أيأتي من أجل الأعمال؟".

"إذا كنت تعتبر تعاطي الكوكايين ومعاشرة المومِسات عملين. إنه يقطن في شقة على السطح في بارك هِيتس ويُقيم الحفلات؛ إذا كان بالإمكان تصديق الشائعات".

فكّر بن - روي مليّاً هذا الأمر، متسائلاً عن إمكانية وجود صلة بين بــارين والاتّجار بالجنس. غينادي كريمينكو يهرّب البغايا لأجل وريــث الإمبراطوريــة،

وريفكا كلينبرغ تكتشف الأمر وتهدد بافتضاح أمره، يأتي بارين الابن إلى القدس ويتبع كلينبرغ إلى دار العبادة الكبرى، ويفاتحها بالموضوع، ثم يفقد رباطة جأشه... مرة أخرى، إنه أحد تلك السيناريوهات التي تتلاءم مع أجزاء من القضية من دون أن تتلاءم مع أجزاء أخرى.

"هناك لغز صغير ربما يثير اهتمامك". قال تيرات، رافعاً ذراعه وماسحاً بكمه المِلح العالق على شفتَيه.

ليس مرة أخرى، قال بِن - روي لنفسه.

"تابع".

"يتعلق الأمر بحادث تحطم السيارة الذي قتلت فيه زوجة ناتانيال بارين".

"ماذا عنه؟".

"حسناً، كان قرار المحقق الجنائي أنها لقيت حتفها قضاءً وقَدَراً. أي نتيجة حادث مأساوي".

"إذاً؟".

"لقد ترك المحقق العديد من الأسئلة بدون إجابات".

"أي أسئلة؟".

أسند تيرات ظهره، وهو يسحب نفساً من سيجارته.

"كالسؤال عن سبب انحراف سيارة خضعت للصيانة مؤخراً، وتسير على طريق مكشوفة في وَضح النهار فجأةً بدون أي سبب واضح، واصطدامها مباشَرةً بعمود لأسلاك التلغراف".

وأنهى سيجارته، وأطفأها داخل القناة في جانب الطريق.

"حان دورك كما أعتقد لتقديم جولة أخرى من المشروبات".

القاهرة

بعد دخوله الشقة التي استأجرتها له الشركة، توجّه تشاد بيركس مباشَرةً إلى الشرفة، مروراً بغرفة الجلوس. وانحنى على الدرابزين، وحدّق عبر النيل، وقال لنفسه، كما دأب على القيام بذلك عشر مرات على الأقل في اليوم: "الحياة جميلة".

إنه المدير الإقليمي لبارين في منطقة أفريقيا التي توحي بأن صفقاتها تفوق ما تحققه من صفقات في الواقع. فكل أعمال الوساطة العسيرة تتمّ من هيوستن مباشَرةً، ويرتكز دوره على العلاقات العامة أكثر من أي شيء آخر. وبصفته رئيس مكتب القاهرة، كان يلتقي الشخصيات المصرية الهامة، ويصطحبهم لتناول وجبات عشاء مرتفعة التكلفة - على غرار العشاء الذي تناولوه هذه الليلة في جاستِن - ويدفع للأشخاص الذين ينبغي الدفع لهم، ثم يطير إلى الأُقصُر كل شهر للتحقق من تقدّم العمل بالمتحف الجديد الذي يفصله أسبوعان عن حفلة الافتتاح. إنه وجه بارين الموجّه نحو الأرض، وعينا بارين وأذناه أيضاً. وبمراهَنتها على عرض الأسعار المرتبط بحقل الغاز الصحراوي، حرصت الشركة على مراقبة المِزاج السياسي في البلد؛ ولا سيما بعد الإطاحة بمبارك. وإذا كان تشاد بيركس يجيد شيئاً فهو مراقبة الأمور، ويحب الاعتقاد أنه يلعب دوراً هامًّا ومماثلاً لدور أولئك الذين يضعون تفاصيل العقد، وذلك عندما يتمّ منحهم الامتياز؛ إذا تمّ منحهم إيّاه. وما يعزِّز اعتقاده هذا هو المكافأة التي تُسيل اللعاب والتي من المتوقّع أن يحصل عليها عندما يتم التوقيع على العقد.

أَجرٌ سخيّ، راتب تقاعدي كبير، شقة فخمة على الواجهة المُشرفة على النيل، منصب مؤثّر وإن كان بإفراط. *أجل*، فكر تشاد، *الحياة جميلة بالتأكيد*.

كانت كذلك على الأقل حتى شعر بأحدهم يتسلل خلفه، ويضع حبلاً حول عُنُقه، ويجذبه بقوة إلى الوراء بعيداً عن درابزين الشرفة، ويوقعه.

يتمتع تشاد بيركس بالعديد من الصفات الجديرة بالإعجاب، ولكن الشجاعة لم تكن بينها. فركل وناضل للحظات بطريقة فطرية أكثر من رغبته بمقاتلة مهاجمه، ثم فقد قواه بعد ذلك. لقد ألقى نظرة سريعة موجَزة على رعمسيس هيلتون على الجانب البعيد للنهر، وشمّ أيضاً رائحة مسكية لمزيل التعرق؛ غريبة هي الأمور التي تسجّلونها عندما تتعرّضون للخَنق. وفجأةً، وُضع على سجادة غرفة الجلوس، ووجهه نحو الأسفل، ولم يعُد الحبل موجوداً. تلوّى كما تتدحرج الكرة، ساعلاً وغاصّاً، ومحاولاً بشكل يائس تركيب جملة "رجاءً لا تؤذِني" (على غرار الشجاعة، لم يكن تشاد بارعاً في اللغات مطلقاً).

لم يكن عليه القلق في هذا الشأن. فعندما تكلّم مهاجمُـه، اسـتخدم اللغـة الإنكليزية. وواقع أن الصوت صوت امرأة منحه ومضة أمَل ما لبثت أن تلاشـت بعد أن شعر بوجود مسدس على صدغه.

"أريد أن أعرف ماذا تفعل شركتكم هنا في مصر"، قال الصوت بغضب. "ما تفعلونه *بالتحديد*. وإذا حاولت خداعي فسأفجّر رأسك اللعين".

فأكد لها تشاد أن لا نيّة لديه للقيام بأي شيء سوى التعاون معها تماماً.

"جيّد. ابدأ بالتكلم".

القدس

في صباح يوم الأحد، نهض بِن - روي باكراً، وأعدّ تحليلاً من أربع صفحات عن كل النقاط الرئيسة في القضية، ثم أرسلها لخليفة بالبريد الإلكتـروني. وبعـد ذلك، بحث في الإنترنت عن حادث السيارة الذي قتلت فيه زوجة ناتانيال بارين، ووجد الكثير مما أخبره إيّاه ناتان تيرات. لقد خرجت سيارتها عن الطريـق شمـال هيوستن، واصطدمت بعمود لأسلاك التلغراف، وتوفّيت على الفور. وادعى شاهد عيان رؤيته شخصاً آخر في السيارة قبل الاصطدام بقليل، ولكن لم يتمكن أي كان من دعم ذلك. واستنتج تحقيق مفصَّل أن الحادث كان عَرَضياً. وبعد البحث عـن معلومات لمدة أربعين دقيقة، قرر أن كل شيء إشارة مضلِّلة - هناك الكـثير مـن هذه الإشارات المضلِّلة في هذه القضية - وأطفأ جهاز الكمبيوتر، ثم اتصل بدوف زيسكي ليُبلغه بأنه سيتأخر، واشترى باقة ورود من كُشك للأزهار قُبالة شـقته، وتوجه إلى منـزل سارة.

"ما سبب هذه الزيارة؟" سألت عندما فتحت له الباب.

"شعرت بالرغبة في رؤيتك".

وأخرج الأزهار من وراء ظهره.

"كنتُ شديد الانشغال بالعمل... فكرتُ في أنه باستطاعتنا تنـاول الفطـور معاً، ثم سأُقلّك إلى المدرسة".

"يبدأ عملي ظهراً".

"عظيم. بإمكاننا قضاء فترة انصباح معاً".

فرمقته بنظرة متشككة.

"إنها بادرة غير منتظَرة منك يا آري".

"ما الذي لا تنتظرينه مني؟".

"إقلاعك عن العمل في صباح أحد الأيام وأنت وسط تحقيق مهم. هل هناك خَطْب ما؟".

كانت لهجتها مُغيظة أكثر من كونها متأفّفة.

"هيا، اعترف. لقد فعلتَ أمراً ما. أو إنك تريد شيئاً ما".

"أريد فقط قضاء بعض الوقت معك ومع البوبو. أفتقدكما كليكما".

إنها الحقيقة. هناك أمر ما في هذه القضية - ذلك الاتّجار بالجنس، وفقدان خليفة ابنه بتلك الطريقة - ترك أثراً عميقاً في نفسه كما يبدو. فعندما عاد من تل-أبيب في الليلة السابقة، استلقى على السرير مفكراً في سارة والطفل، ومتمنّياً أن تكون بجانبه، وموبِّخاً نفسه بسبب عدم وجودها قربه. هكذا تجري الأمور عادةً، ولا سيما في أثناء تحقيق مُجهد مماثل، إذ تُبعدك القضية عن الناس الذين تحبهم أكثر من سواهم. ولكن هذه القضية تدفعه نحو عائلته أكثر، وكان يفكر أكثر فأكثر بأنه ينبغي عليهما المحاولة مجدداً. ينبغي عليه المحاولة مجدداً. فهو من أفسد الأمر برمّته بالرغم من كل شيء.

"هل ستأخذين هذه؟" سأل.

"بالطبع. شكراً لك. إنها جميلة".

وقبلت الأزهار.

"لديّ شيء آخر"، قال. "انظري إلى هذا".

وأخرج هاتفه المحمول، ووقف أمامها كلاعب خفّة يستعدّ لعرض خُدعة ما؛ ملوّحاً في الهواء، قوّس إصبعه ثم ضغط على زر الإطفاء، مُرفِقاً حركته تلك بعبارة "تا-نا!" مرتفعة. فانفجرت ضاحكة، ولفّت ذراعَيها حوله، وضغط بطنها المنتفخ على معدته، وبدا الأمر رائعاً.

"ظننتُ أن كبير الحاخامات سيتناول كوكتيل ڤريدس ولن أراك تقوم بذلك"، قالت مُمازحة.

"حسناً، ها أنذا، الأعاجيب تحدث بالفعل. هل يمكنني إعداد الفطور لك؟".

"أجل، رجاءً".

وهذا ما أعدّه؛ عجّته الإسبانية المكوَّنة من بيض مخفوق، وقد أطلقت شريحة الخبز المحمَّص جهاز الإنذار في المطبخ. فمازحته بشأن عدم لياقته المطبخيّة، مُطلِقة بعض التعليقات الثأرية الذكية عن عضّ اليد التي تُطعمك. إنها مغايَظة غير جدّية من النوع الذي اعتادا اعتماده في كل الأوقات، وكان غائباً بشكل ملحوظ في العام الأخير. يا الله! كم تبدو ممتعة.

بعد تناولهما الطعام - على الشرفة، والجوّ مشحون على نحو غريب كما لو أنهما في موعدهما الأول أو ما شابه - قام بأعجوبة الصباح الثانية وغسَل الأواني.

"من هذا الذي أراه أمامي!؟". سألت باندهاش ساخرة.

"لا علاقة لي بذلك. لا بد من وجود دخيل في المنزل. من الأفضل لك الاتصال على الرقم 100".

وكان هناك المزيد من الضحك؛ أفضل صوت في العالم.

ومن ثم، تمددت على الأريكة كي يتمكن من الضغط بيده على بطنها ويشعر بطفله. وبعد ذلك، ونزولاً عند رغبتها، قصدا ماميلا مول لشراء بعض الملابس للطفل. كان بِن - روي يكره التسوّق ويعتبره أشبه بتقديم بيان للضرائب. ولكنه تظاهر بالسعادة بسبب قضائه الوقت معها، حتى لو كان قضاء الوقت يعني الانتظار ساعتَين في أثناء تجوالها بين سلسلة متتابعة وغير متناهية من الأكشاك المليئة بسلع للأطفال.

"أمتأكد من أنك لا تشعر بالملَل؟" استمرت بطرح هذا السؤال عليه.

"لا، بتاتاً"، استمرّ بالكذب عليها.

وفجأةً، حلّ الظهر في أثناء اصطحابه إيّاها في جولة بالسيارة على امتداد أسوار المدينة القديمة وصولاً إلى مشروع اللهو الذي تديره في سِلوان؛ حيّ عربي مكتظ قائم على سفح تلة في جنوب المدينة القديمة. كان المشروع اختبارياً، ويسعى إلى تحقيق اندماج بين الأطفال الإسرائيليين والفلسطينيين من خلال تشجيعهم على المرح معاً. وقبل أربع سنوات، كان المشروع قد وفّر التسلية لأكثر من ثلاثين طفلاً، ولكن العدد انخفض إلى أقل من اثنَي عشر طفلاً، وهو يعبّر عن المصاعب التي تواجهها عملية السلام.

"ماذا يجري مع المستوطنين؟". سأل في أثناء انحرافهما عن الطريق المؤدي إلى معالي هاشالوم، وتوجههما إلى منحدر وادي الحِلوة.

"ماذا يجري برأيك؟ الهراء نفسه كالعادة".

كانت مجموعة من المستوطنين - من الأرثوذكس المتطرفين - قد اشترت المنزل المجاور للمدرسة، بتمويل أميركي، وتسببت بالمتاعب.

"في أحد الأيام الماضية، رمى أحدهم كيساً مليئاً بالبَول في ملعب الأطفال"، قالت. "كاد أن يصيب أحد الأطفال؛ طفلاً يهودياً!".

وهزت رأسها اشمئزازاً.

"الشيء بالشيء يُذكَر. في الأسبوع الماضي، أطلقت مجموعة من *الشباب* النار على حافلتنا الصغيرة".

إنها أنباء جديدة بالنسبة إلى بِن - روي. كان شديد الانشغال بعمله لدرجة أنه لم يتسنَّ له الوقت للسؤال عنها.

"لقد منحتِ هذا المجنون بعمله ذاك شيئاً ما تتفقان عليه"، قال ممازحاً، ولكنها رسالة ضعيفة لم تُثِر أي ابتسامة.

"صِدقاً، لا أعتقد أننا سنستطيع الاستمرار لمدة أطول"، قالت. "مررنا بوقت بدا فيه الأمر كما لو أن العلاقة ستنجح، ولكن الطريقة التي تجري بها الأمور في هذه الأيام...".

وفركت صدغَيها.

"أقول لك يا آري، المجانين يسيطرون على مستشفى الأمراض العقلية. لقد سبق لهم أن استولوا عليه، من جانبَي الحدود. أتساءل أحياناً عما إذا كنت أريد لابني أن يكبر في هذا البلد".

فأبطأ بِن - روي من سرعة السيارة وأمسك يدها.

"سيكون لابننا أفضل منزل في العالم؛ المنزل الأكثر سعادة وأماناً. أعدك بذلك من كل قلبي".

نظرت إليه، والتقت نظراتهما للحظات. وبعد ذلك، ضغطت على يده، وانحنت وقبّلت خده.

"أحبك يا آري. أنت تثير جنوني، ولكنني أحبك. هيا، سأتأخر".

نفش شعرها، وأكملا طريقهما في اتجاه أسفل التلة نحو المدرسة؛ مجمَّع إسمنتي أغبر اللون مع نوافذ شبكيّة وبوابة فولاذية تغطيها الخربشـــات. ســـاعدها علــى الخروج من السيارة، ثم عبرا المدخل، متجاهلَين المبنى المجاور الذي يرفـــرف علـــى سطحه علم إسرائيل الكبير باللونَين الأبيض والأزرق. ضغطت سارة على الجرس، فيما استدار وأمسك بيدَيها. مرّ أمامهما أطفال عربٌ يُحدثون صخَباً على ظهـــر حمار هزيل. ومن مئذنة في أسفل التلة، ارتفع صوتٌ مضخَّم داعيـــاً المـــؤمنين إلى صلاة الظُّهر.

"شكراً لك على هذا الصباح الرائع"، قالت واقفةً على أطـــراف أصـــابعها ومقبّلةً أنفه.

"شكراً *لكَ*".

"يُفترض بنا القيام بذلك مجدداً".

"بالتأكيد".

"كان الخبز المحمّص لذيذاً".

"تبّاً لكِ".

ضحكا، وتمسّك كل منهما بيد الآخر. لقد أراد قول المزيد لها، وإخبارها كم هي مميَّزة، وأنها تعني له الكثير، وكم يريد أكثر من أي أمـــر آخـــر في العـــالم أن يتشاطرا مستقبلهما. غير أن البوابة فُتحت قبل أن يتمكن من الكلام. فنظرت سارة نحو الأعلى متضايقة؛ ربما كانت تفكر بالأمور نفسها.

"اتصل بـــي"، قالت.

"بالطبع".

وضغطت على يده للمرة الأخيرة، ولامست بطنه ببطنها، وهمست: "إلى اللقاء، يا أبـــي"، ثم دخلت المجمّع. كان هناك تلويح سريع ثم أُغلقت البوابة. حدّق بِـــن - روي بها، مفكراً كم تكون الحياة أكثر سهولة إذا حصل على عمل عادي، عمـــل لا يهدد حياته بالموت والعنف والبؤس. ومن ثم، أخرج هاتفه المحمول هازاً رأسه، وشغّله وعاد إلى السيارة. وعندما وصل إليها، نبّهته سلسلة من الإشارت الصوتية إلى وجـــود اتصالات ورسائل. الكثير من الاتصالات التي لم يتم الرد عليها والرسائل، وأكثر مـــن المعتاد. فولج بريده الصوتي عابساً، واتكأ على سطح السيارة مُصغياً.

داخل المجمَّع، كانت سارة تعبر الملعب مع زميلتها ديبوراه، مُخبرةً إيّاها عن الصباح الممتع الذي أمضته، وأنها قد تحاول وبِن - روي ربما العودة إلى بعضهما. و لم تكد تصل إلى جناح الصفوف حتى زمجر صوت مألوف في الجانب البعيد من المجمَّع.

"آه لا، لا، لا، أيتها الجاهلة! ماذا تفعلين؟".

فخبت ابتسامتها.

"قضينا وقتاً ممتعاً"، وتنهّدت.

قاد بِن - روي السيارة بسرعة فائقة جنونية، وصفّارة إنذار الشرطة تزعق، وضوؤها يُطلق ومضات سريعة على سطح التويوتا. لقد تمكن من الوصول إلى الكيشِل في غضون خمس دقائق. كان شارع عمر بن الخطاب مزدحماً؛ ففيه عدة مئات من الأرمن الذين كانوا يُنشدون، ويصيحون، ويُطلقون الشتائم لمجموعة من رجال الشرطة ذوي البزّات النظامية الذين نُشروا لإبقائهم بعيدين عن الناحية الأمامية للمركز. وكان حشد من الصحافيين، والمصورين، والطواقم الإخبارية التلفزيونية، يراقب ما يجري. كان بِن - روي ينتظر حدوث ذلك بسبب اعتقال رئيس الأساقفة آرمِن بتروسيان للاشتباه بأنه قتل ريفكا كلينبرغ.

لذا، قاد التويوتا ببطء في اتجاه بوّابة الأمن التابعة للمركز، وشهر شارته، وعبر بسرعة فائقة موقف السيارات الموجود في الناحية الخلفية للمبنى. كان قد أجرى اتصالاً هاتفياً بزيسكي الذي كان في انتظاره.

"إنّ هذا من صنع بوم، أليس كذلك؟" صاح وهو يندفع خارج السيارة. "بوم بالتأكيد وراء ما يجري!".

"إنّه يفوق الرقيب أول شاليف رتبةً"، أكد زيسكي. "يقول إن لديه دليلاً كافياً لتوجيه التهمة".

"أي دليل؟ حبّاً بالله!".

لم يكن زيسكي يعرف سوى أن الضابط المسؤول يدّعي وجود قضية متينة.

"متينة على غرار التايتانيك اللعينة! نحن نعلم جيداً سجلّ إنجازات بوم. أين ليه؟".

لقد أُرسلت إلى المنزل لتهدأ كما يبدو. فقد ثارت ثائرتها عندما بلغها ما يجري. وضرب بِن - روي سطح التويوتا بقبضته، ومن ثم عبر المجمَّع يتبعه زيسكي.

"والرئيس غال؟".

"في الجانب الآخر للمدينة؛ يقدّم تقريراً موجَزاً للوزير".

"يا لهذه الفوضى اللعينة! إنّ الأرمن هم الوحيدون في هذا البلد الذين يتصفون بسلوكهم الحسن، وها هو قد حثّهم على القيام بأعمال شغب، وعلى مرأى من الصحافة! يا له من معتوه!".

ووصل بِن - روي إلى مدخل جناح التحرين، ودخل غاضباً. كان يوري بينكاس، وآموس نامير، والرقيب موشيه بيريز جالسين وقد وضعوا أقدامهم على الطاولات. كانوا يعتقدون كما يبدو أن صفقة ما قد جرت.

"من الجيد أنك...".

"أين بوم؟" صاح بِن - روي بغضب، مُقاطعاً بينكاس.

"... انضممتَ إلينا"، تابع بينكاس مُنهياً جملته. "إنه في الطابق العُلوي، يجيب على اتصالات الصحافة".

"أراهن أن اللعين يقوم بذلك"، زمجر بِن - روي مستديراً ومُسرعاً بالعودة إلى موقف السيارات ليلج المدخل الرئيس للمركز. في الطرف البعيد للموقف، كان الحشد يندفع في اتجاه البوابات الأمنية، والصيحات تملأ المكان، فيما رجال الشرطة الذين يرتدون بِزّات نظامية يناضلون لإبعادهم. انعطف بِن - روي إلى داخل معبر منخفض، ثم صعد الدرج.

"هل تريد أن أرافقك؟". سأل زيسكي الذي كان لا يزال يتبعه.

فاستدار بِن - روي على عَقِبَيه.

"ما أريد منك القيام به هو الخروج إلى هناك، والعثور على رجل يدعى جورج أسلانيان. إنه يملك مطعماً أرمنيًّا والكل يعرفه. قُل له إنني أتابع القضية، وتحقق مما إذا كان بإمكانه فعل أي شيء لتهدئة هذا الحشد. اتفقنا؟".

"اتفقنا".

"واصطحب معك شرطيّين. لا أريد أن يحدث أي شيء لوجهك هذا".

وربّت على خدّ الشاب، ثم استدار مجدداً وصعد الدرج درجتَين درجتَين.

كان الضابط المسؤول إسحق بوم في مكتبه، جالساً وراء طاولته ويتحدّث عبر الهاتف. إنه رجل قصير القامة، بدين، يرتدي بذلة رسمية مكويّة بترتيب،

وتومض على كتفَيه شارتا الورقة والنجمة اللتان تشيران إلى رتبة *سغان نيتــزاف*. طالما أوحى بوم بغرور شديد، وبدا أشدّ غروراً هذا الصباح في أثناء قولـــه إنـــه لا يستطيع تقديم أي تعليق باستثناء أنهم لا يبحثون في هذه المرحلة عن أي شـــخص آخر على علاقة بمقتل ريفكا كلينبرغ. عبر بِن - روي الغرفة بخطـــوات متثاقلـــة، ووكز بطرف إبهامه زرّ تشغيل/قطع الخط، قاطعاً الخط.

"ماذا تفعل بحق الجحيم؟" زعق بوم بغضب. "كنت أتحدّث إلى الجيروزالـــيم بوست".

"تبّاً للجيروزاليم بوست"، أجاب بِن - روي بحِدّة، منحنياً فوق الطاولة على بُعد بوصات قليلة من وجه رئيسه. "ماذا يجري؟".

لقد تطلّب الأمر لحظات ليستعيد بوم صوته، وتلوّى فمـــه في أثنـــاء بذلـــه قُصارى جهده للسيطرة على غضبه.

"ما يجري، أيها *التحري* بِن - روي، هو أنني أحلّ الجريمة. وهذا المشهد الذي تراه في الخارج دليل على أننا أنجزنا أكثر مما أنجزتَه في الأيام العشرة الأخيرة".

"بتروسيان!". كانت لهجة بِن - روي غير مصدِّقة. "كاهن في السبعين مـــن العمر! كيف تصوّرتَ ذلك؟".

"تصوّرتُ ذلك من خلال إجراءٍ عريق في جمع الأدلة وتتبّعهـــا لنـــرى مـــا ستوصلنا إليه!".

"آه! دَعني من مسألة الذكاء تلك، يا بوم!".

"أنت تُظهر لي القليل من الاحترام، يا بِن - روي!".

"تبّاً لك!".

"تبّاً لك!".

وقف بوم، ونظر الرجلان إلى بعضهما مليًّا، فيما دسّت شرطية شابة رأســـها داخل الغرفة، وسألت عن سبب كل هذا الضجيج.

"تبّاً لك!" صاح بوم.

ثم عبر المكتب بغضب، وأغلق الباب بقوة، وعاد إلى طاولته.

"أنت بحاجة إلى مراقبة نفسك، يا بِن - روي"، صاح مزمجراً. "كيف تتكلّم معي بهذه الطريقة!؟ أنت بحاجة فعلاً إلى مراقبة نفسك وإلا وجّهت لك اتهاماً".

"أنا أرتعد!".

"يُفترض بك ذلك! أنت عار على هذا المكتب. أنت وذاك المحقق غير السويّ...".

"لا تجرؤ...!".

"لا أجرؤ!".

"مجنون!".

"صُن لسانك!".

"مجنون!".

وتواصلت الزمجرة للحظات إضافية بين مدّ وجزر، وصراخ وشتائم، حتى تعبا وباتا يلهثان بقوة، فلزما الصمت. كان صياح المحتجين الأرمن في الخارج يتداخل مع صياحهما. وبعد ثوانٍ، جلس بوم مجدداً، ورفع بِن - روي يدَيه وابتعد عن الطاولة خطوة إلى الوراء.

"هل يعرف الرئيس غال بهذا الأمر؟".

"بالطبع هو يعرف. أتعتقد أنني قد أتصرف من وراء ظهره؟ لقد أريتُه الدليل، وأجازه، ووقّع التفويض".

هز بِن - روي رأسه غير مقتنع؛ فالرئيس غال ليس أحمق. وإذا أَذِن بالاعتقال فالسبب يرجع إلى أن بوم قد ضخّم القضية.

"إذاً، ما هو هذا الدليل؟ هذا الدليل *الدامغ*".

فقوّم بوم جلسته على الكرسي قائلاً بتفاخر:

"هناك محضر باسمه لدينا".

"بتروسيان؟".

"لقد سبق له أن هاجم كاهناً أرثوذكسياً يونانياً في القبر المقدس. كاد أن يخنقه. لقد فقد أعصابه تماماً".

"حدث ذلك...".

"عام 2004".

أطلق بِن - روي ضحكة رافضة.

"إنه مخالف نسَقي للقانون إذاً".

فاتخذ بوم موقفاً عدوانياً، ولكنه لم يردّ على الملاحظة الساخرة.

"هناك المزيد".

"تفضّل بإخباري".

"في السبعينيات، ضُبط وهو يتلاعب بدفاتر الحسابات التابعة لدار العبادة الكبرى. كان مسؤولاً عن الموارد المالية، ويسحب الأموال ويعيد استثمارها في سندات مالية معقّدة. ولقد خسرت السندات؛ مما أدى إلى إفلاس دار العبادة تقريباً. لقد فضحت هآرتس الأمر".

لم يكن بِن - روي يصدّق ما يسمعه.

"هل لهذا علاقة بقضيتنا؟".

"بالتأكيد".

ونفخ بوم صدره أكثر فأكثر.

"الصحافية التي وضعت المقالة التي أثارت الفضيحة كانت متدرّبة شابة تضع قصتها الرئيسة الأولى. وكانت تدعى...".

"ريفكا كلينبرغ".

أنهى بِن - روي الجملة. فأطلق بوم ابتسامة رضى عن النفس كما لو أنه يسجل هدفاً بطريقة ما.

"لقد اكتشف نامير ذلك. إنه تحرٍّ جيد، آموس. إنه دقيق".

وتوقف قليلاً، ومن ثم تابع.

"بفضل كلينبرغ، أُعيد بتروسيان إلى أرمينيا وهو يشعر بالخزي، وتعيّن عليه قضاء ثلاث سنوات في التكفير عن آثامه، وفقد أي فرصة ليصبح بطريركاً. وهذا برأيي دافع جيد لقتلها".

"بعد خمسة وثلاثين عاماً على الحادث!". وهزّ بِن - روي رأسه. "هيا يا بوم، الدليل ضعيف حتى بمعاييرك".

"قطعة قطعة يا بِن - روي. هكذا تجري الأمور. قطعة قطعة، هكذا يتمّ بناء القضية. ودَعني أُعطيك قطعة أخرى. كذب بتروسيان بشأن مكان وجوده ليلة الجريمة".

ففتح بِن - روي فمه، ومن ثم أطبقه. لقد بدا مندهشاً. واتسعت ابتسامة بوم؛ ابتسامة الرضى عن النفس.

"قال إنه كان في جناحه الخاص عندما قُتلت كلينبرغ. وبفضل بعض العمل الممتاز الذي قام به صديقك الصغير غير السوي، علِمنا أن لذلك الجناح باباً خاصاً يؤدي إلى الشارع. ولدينا الآن مشاهد مصوَّرة لبتروسيان وهو يقوم بجولة في الحيّ الأرمني في حين ادعى أنه كان في جناحه".

كان ينبغي على بِن - روي أن يضربه بسبب التعليق الذي تناول زيسكي، ولكنه تخلّى عن ذلك لمناسبة أخرى.

"أي مشاهد مصوَّرة؟ لا وجود لأي كاميرات في الحيّ الأرمني".

"لا وجود لكاميرات تابعة *للشرطة*. ولكن ذلك المتجر عند زاوية شارعي أرارات وسانت جيمس لديه كاميرا فيديو أمنية مثبَّتة فوق الباب. لقد ألقى نامير نظرة على المشاهد المصوَّرة علّه يحصل على أي معلومات. وكما قلتُ، نامير تحرٍّ جيد، فهو دقيق في عمله. وماذا وجد برأيك؟ وجد صوراً شديدة الوضوح لكبير الأساقفة وهو يعبر شارع أرارات عند السادسة وأربع دقائق مساءً ليلة الجريمة، ويعود عند الثامنة وست وأربعين دقيقة؛ مما يجعله موضع شبهة يا بِن - روي. إصابة مباشَرة".

وشرع بالتمايل، فخوراً بنفسه.

"لدينا شخص غريب الأطوار ومحتال، ودافعٌ واضح، وعُذرُ غياب كاذب". لقد عدّها على أصابعه. أصابع ناعمة وسمينة لم تَقُم يوماً بأي عمل شاق. "وإذا كان لا يزال لديك أي شك، فلدينا اعتراف أيضاً".

مرة أخرى، فتح بِن - روي فمه وأطبقه من دون أن يقول أي شيء. فأومأ بوم بطريقة تنمّ عن الرضى، مُدركاً أن لديه اليد العُليا، ورفع ورقة عن الطاولة، وقرأها ببطء، مستمتعاً بالتفوّه بالكلمات.

"موتها يُثقل ضميري. أنا المُذنِب. أنا من قتلها".

ورفع نظره نحو بِن - روي، وقرأ الاعتراف مجدداً مركِّزاً على الفكرة الرئيسة.

"من الواضح أنني أُغفل معنى مستتراً هنا، ولكنني لا أستطيع تبيُّنه. ربما يمكنك مساعدتي على اكتشافه".

وازدادت سخريته.

"هل قال هذا لك؟".

"أحد رئيسَي الأساقفة الآخرَين. سمعه أحد مُخبري نامير، ونقل المعلومة".

"إذاً، هذا ليس اعترافاً رسمياً البتة".

فلم يُجب بوم، بل اكتفى بإسناد ظهره مكتوف اليدَين. كان في مقعد القيادة وكان يعلم ذلك.

"هذا الواقع يُربكك، أليس كذلك؟".

فلم يقل بِن - روي أي شيء، بل حدّق به فحسب.

"إنه يُربكك كثيراً. أنت *البالاش* العظيم، الفائز بثلاثة تنويهات على ما أنجزته في قسم الشرطة، أنت الذي تغوص دائماً إلى عُمق القضية. ولكنك في الخطوط الجانبية في هذه الجولة. لقد قام شخص آخر بحلّ القضية، وثبُت أن كل أطراف خيوطك المأسوف عليها مجرد هراء. يا الله! لا بد أن يكون الأمر مؤلماً بالنسبة إليك".

"ما يؤلمني"، قال بِن - روي بغضب، "هو أنك أثرت الأرمن جميعاً وأطلقتَ هياجاً عاماً لأجل قضية سيقوم أي محامي دفاع يتمتع بكفاءة جزئية بتمزيقها إرَباً إرَباً عندما يضع يدَيه عليها. إنه دليل ظَرفي يا بوم، ولا شيء لديك، لا شيء يربط بتروسيان بالجريمة مباشَرةً".

توقف بوم عن الدوران على كرسيه، وانحنى إلى الأمام فوق الطاولة.

"سنُثبت التُّهمة أيها التحري. ثِق بي، سنُثبت التُّهمة. بتروسيان هو رجلنا، وحتى لو لم يخنقها بنفسه فهو يعرف بالتأكيد من قام بذلك. الخبراء الجنائيون يفحصون جناحه الآن في أثناء تكلّمنا. أنا ونامير على وشك إحكام قبضتنا عليه. وأنت...".

ومدّ إصبعه في اتجاهه بعدوانية.

"أريدك على طاولتك لتملأ الفراغات".

"أنا في مقابلة معك الآن".

"باستطاعتك الجلوس على وجهي اللعين!". صاح بوم، ثم صمت للحظات قليلة بعد أن أدرك أن الإهانة لم تحقق ما يصبو إليه، وقبل أن يهاجمه بِن - روي مجدداً قال:

"طالما كنتَ أخرق متعالي يا بِن - روي، ولن أتحمل ذلك بعد الآن. إنه خطنا الاستقصائي وسوف تلتزم به. هل هذا مفهوم؟ وإلا أنزلت رتبتك إلى شوتر، وجعلتُك حارساً على أسوأ مستوطنة يمكنني العثور عليها. الآن، انزل إلى الطابق السفلي وابدأ بالعمل. إنه أمر مباشَر".

فحدّق به بِن - روي من دون بذل أي جهد لإخفاء كرهه، ثم توجّه إلى الباب. وعندما وصل إليه استدار.

"هل تعرف بم يذكّرني كل ذلك؟".

فارتفع حاجبا بوم.

"بالعجّة بالبيض التي طهوتُها هذا الصباح".

فبدا بوم مُربَكاً.

"بيضة"، شرح بِن - روي. "بيضة كبيرة تبقبق وتُخرج الفقاقيع في اتجاه وجهك مباشَرةً، يا سيدي. أنتَ تستهدف الرجل الخطأ. ولو كنت مكانك لأعددت منشفة لأنه سيكون عليك التعاطي مع كل الفوضى التي أحدثتَها".

وخطا خطوة خارج الباب، ثم عاد مجدداً إلى الداخل قائلاً:

"إذا سمعتك يوماً تتكلّم عن شريكي على هذا النحو فسأزيّن وجهك. ينطبق الأمر نفسه على ليه شاليف. مجنون".

وبلغ منتصف الدرج قبل أن يتمكن بوم من التفكير بردّ مناسب.

الأُقصُر

دخلت مجموعة من اليخوت الحوض بعد الظهر، وهي إحدى مجموعات اليخوت القادمة من أسوان، وتحركت في اتجاه الشاطئ جَنباً إلى جَنب في صفوف يتكون كل منها من ثلاثة يخوت، وبلَباقة، كفرقة من السباحين الذين يتحركون بشكل متزامن.

كان خليفة واقفاً على أرض محاذية للرصيف البحري منتظراً. وعندما أُنزلت المعابر المتحركة، صعد على متنها، وشرع بالبحث عن الدكتور ديغبي غيرلينغ، وهو الرجل الذي اقترحت ماري دوفريسن أن يقابله لأنه ربما يعرف شيئاً ما عن ساموبل

بينسكر الغامض. تعقّبه، وعثر عليه في النهاية في غرفة جلوس عند مقدمة اليخت؛ حيث كان يلقي محاضرة عن مواد التجميل المصرية القديمة لمجموعة من النساء متوسطات الأعمار. مكث خليفة في آخر الغرفة حتى انتهت المحاضرة، وبدأ الحضور بالتفرّق، ومن ثم توجّه إلى الأمام، وعرّف بنفسه، وشرح سبب وجوده هناك.

"تحرٍّ!". قال غيرلينغ بصوت أشبه بخُوار. "إنّ الأمر مثير للفضول! هل ارتُكبت جريمة؟".

بطريقة ما، أقرّ خليفة. و لم يتمكن من التطرق إلى التفاصيل.

"بالطبع لا، بالطبع لا. سأُبقي الأمر سرّاً!".

ونقر الرجل الإنكليزي على أنفه بطريقة تآمرية. كانت ماري دوفريسن قد شبّهته ببالون. وبالنسبة إلى خليفة، بدا أشبه بإجاصة؛ إجاصة فائقة النُّضج ملفوفة ببذلة من الكتان الأبيض، وتضع ربطة عُنُق على هيئة فراشة وتنتعل خفّين.

"هل نتحدث هنا؟" سأل. "أم تفضّل التوجه إلى مؤخر اليخت؟".

"في المكان الذي يوفر أكبر قدْر من الراحة"، قال خليفة.

"إذاً إلى مؤخر اليخت. ستبدأ حفلة رقص شرقي بعد عشرين دقيقة، ولا أريد أن يزعجنا أحد. أنت تحرٍّ حقيقي نابض بالحياة! يا الله! أشعر وكأنني في إحدى حلَقات مسلسل مورس!".

وجمع مدوَّنات محاضرته، واعتمر قبّعة من القشّ تقيه من الشمس، ولوّح لمن بقي من الحضور بطريقة استعراضية، وعبر الغرفة.

"لا تنسَ الليلة، يا دكتور ديغبي!". نادت إحدى النساء.

"سأكون سليمان حقيقياً"، صاح غيرلينغ. "منصفاً وحازماً جداً!".

ولوّح مجدداً بطريقة مسرحية قبل أن يخرجا من الغرفة، ويتوجها إلى مجموعة من الأدراج المكسوّة بالسجاد، وتردد صدى قهقهات النساء وراءهما.

"مسابقة مومي ليلة الأحد"، شرح الرجل الإنكليزي في أثناء صعودهما. "ثلاث عشرة مطلّقة يتمشّينَ على نحو استعراضي وهنّ ملفوفات بورق المراحيض، ويشرّفني اختيار الفائزة. كم الأمر مُخجِل!".

وهزّ رأسه بطريقة تنمّ عن الحزن والأسى. واصلا الصعود إلى أعلى الدرج، وتوجّها إلى المنصة العُلوية لليخت. كان هناك حوض سباحة صغير محاط بسبّاحين

ممدَّدين على كراسٍ شمسية. وفي الطرف الآخر ظُلّة توجد تحتها مجموعة من الكراسي البلاستيكية. كان اليخت راسياً في أبعد صف من المراكب. وركّز الإنكليزي انتباهه للحظات، وبطريقة حالمة، على الجبال الطيبية البعيدة الضبابية والمُحدَودِبة. وبعد أن صفّق بيدَيه، توجّها إلى الظُّلة، وانخفض وجلس على كرسي، ولوّح لخليفة للجلوس بجانبه.

"إذاً أيها المفتش"، قال. "ساموبل بينسكر. آمل حقاً أن أتمكن من تقديم بعض المساعدة".

بعد حضوره اجتماعاً طويلاً ومملاً في المركز عرض خلاله الرئيس الحسَني - لمدة ساعة ونصف - للافتتاح الوشيك لمتحف وادي الملوك - الذي كان بعد أقل من أسبوع - قضى خليفة ما تبقى من فترة الصباح في متابعة المدوَّنات المفصَّلة المرتبطة بالقضية، والتي كان بِن - روي قد أرسلها له. فالاتصال الهاتفي الذي أُجري مع فندق روزيتا حيث حجزت ريفكا كلينبرغ غرفة، لم يُضف إلى المعلومات التي جمعها بِن - روي من الناس أي جديد. ولم يكن قسم الجرائم الخطيرة في الإسكندرية على عِلم بوجود أي صلة بين فندق روزيتا والاتّجار بالجنس، أو التسلل إلى ملفات الكمبيوتر، أو أي شكل آخر من أشكال الجريمة المنظَّمة؛ باستثناء القضية العَرَضية التي تتناول صيد الكَرْكند غير القانوني، وعرْض الأسعار المتعلق بحقل شاهاران للغاز الذي تسعى بارين للفوز به. وإن تمكنت من تحقيق ذلك فستكون هذه الصفقة وفقاً لأحد مصادر خليفة في صحيفة *المصري اليوم* إحدى الصفقات الكبرى التي أبرمتها الحكومة المصرية يوماً مع شركة أجنبية. كما لا توجد أي صلة واضحة مع الجريمة التي ارتُكبت في القدس. باختصار، لم يُضف أي شيء إلى ما يعرفه الإسرائيليون. وإذا كان يريد مساعدة بِن - روي في هذه القضية - كلما بحث خليفة عن معلومات أكثر شعر أكثر فأكثر بأنه مُلزَم بالمساعدة - فيتوجب عليه معرفة سبب اهتمام ريفكا كلينبرغ بساموبل بينسكر. ويبدو أن معرفة هذا الأمر متوقفة على لقائه ديغبي غيرلينغ. أجل، هناك إذاً الكثير مما يستند إليه في هذا الحديث.

"قيل لي إنك أجريت بحثاً عن بينسكر"، استهلّ كلامه.

"إنه بحث متواضع كتبتُه قبل سنوات قليلة"، أكد الإنكليزي. "*كل رجال الملك الفتى – الأعضاء المنسيّون في فريق التنقيب عن توت عنخ آمون*. لقد بيعت ست وعشرون نسخة فاخرة في مكتبة متحف بِتري. إنه كتاب شديد الرواج حقاً وفقاً لمعايير دراسة الآثار المصرية. لقد ظهر اسم بينسكر بسبب ما أدخله من تحسين على المناظر الطبيعية عند مدخل المدفن. من فضلك، يا صلاح!".

قال ذلك لنادل يرتدي سترة بيضاء ويجول بجانب حوض السباحة، فدنا الرجل منه، وسأل عما يمكنه أن يُحضره لهما. رفع خليفة يده دلالةً على عدم رغبته في أي شيء. فيما طلب غيرلينغ كأساً من الشراب.

"أحضر معي دائماً عدداً قليلاً من زجاجات الشراب لاحتسائها خارج وقت الخدمة"، أَسَرّ. "ويُضيف النادل إلى شرابي دائماً الكثير من النعناع، هذا هو السر".

وغمز، ثم أخرج منديلاً، وبدأ يربّت على جبينه الذي تجمعت فوقه قطرات العرق بعد إمضائهما دقيقتَين فقط خارج القاعة المكيفة داخل اليخت. أشعل خليفة سيجارة، وكان على وشك الشروع بالكلام عندما تولّى غيرلينغ المهمة بدلاً عنه.

"إنه شاب مثير للدهشة، ساموبل ذاك"، قال. "لقد ذكرته في الكتاب بشكل موجز فقط، ولكن الأمر تطلب مني أن أقوم بكثير من الأبحاث عنه. لقد نُسي الآن تماماً بالطبع، ولكنه كان شخصاً هاماً في زمنه. غالباً ما فكرت بإدراج مدوَّناتي عنه في كتاب آخر".

وربّت على جبينه مجدّداً، ثم رفع قبّعة الشمس وبدأ يلوّح بها لنفسه.

"كان مهندساً؛ مهندس تعدين يهودياً مانشستريّاً بالتحديد، وديموغرافيته موسَّعة بصفة خاصة. قدِم إلى مصر في الأساس ليثبّت جهاز سَحْب في منجم فوسفات قرب الخارجة، وانتهى به الأمر ماكثاً هنا، ومقدّماً النُّصح لبعض البعثات الآثارية في الأُقصُر. بينسكر أول من أدرك أهمية تهوئة أكثر المدافن عُمقاً في الوادي بالطريقة الملائمة. ويعود له الفضل ببقاء بعض التزيينات، عِلماً أنها تسبب بعض الإزعاج".

وأمال رأسه في اتجاه حوض السباحة؛ حيث كانت امرأتان ترتديان ثياب السباحة تلاعبان رجلَين مُفرطَي الوزن، وتزعقان من فَرط الضحك في أثناء رشهم بعضهم بمسدسات الماء.

"إنه نداء *فِمينا بريتانيكاو*"، تنهّد غيرلينغ مقلّباً عينَيه، ومبعداً كرسيّه كـي لا يصبح حوض السباحة في مرمى نظره، فيما تلألأت جادة النيل الزمرّدية الواسعة تحت أشعة شمس بعد الظهر. وللحظات وجيزة، وجد خليفة نفسه يحدّق بصَندَل يشق طريقه في اتجاه منبع النيل بجانب الشاطئ الغربـي، ويُحدث جُرحاً عميقاً ومُزبِداً في الماء. وقبل أن يغوص عميقاً في شروده الذهني، هدر صوت غيرلينغ مرة أخرى.

"... كان يسكن في حيّ فقير في مانشستر كما تعلم. وهو ابن إسكافيّ أُمّـي يتكلم اليَديش. لقد تغلّب على الفَقر الأكثر هَولاً، وعلى التمييـز الـديني وغـدا مهندساً. كان رجلاً بارعاً تماماً ولكنه صعب المِراس، وكانت لديه مبادئ اشتراكية متينة أدخلته نـزاعاً مع معظم المستعمِرين الآخرين هنا. كان يتشاجر مع النـاس على الدوام، واشتهر بلجوئه إلى، كما تعلم...".

وقام بإيماءة؛ كما لو أنه يوجّه لكمة بقبضتَيه. فتذكر خليفة القصة التي أخبرته بها ماري دوفريسن عن بينسكر حين هاجم رجلاً من القُرنة.

"أجل، يبدو أنه كان يحب الشِّجارات"، أقرّ غيرلينغ عندما ذكر لـه خليفـة الحادث. "لم أتبيّن قطّ التفاصيل المحدَّدة؛ سوى أن بينسكر استاء بسبب أمر ما قاله الرجل، وأفقده وعيه. لقد تسبب بكثير من المشاكل، كما يبدو؛ عِلماً أنـه كـان يحترم المصريين الأصليين إلى حد كبير؛ وفقاً لمعظم الروايات. ربمـا كـان الأمـر مرتبطاً، كما تعلم...".

وحرّك يده نحو فمه كما لو أنه يحتسي الشراب.

"إما ذاك أو وجهه. كان مظهره سبباً لسرعة غضبه".

"كنت سأسألك عن ذلك"، قال خليفة. "كان وجهـه... كيـف تقـول ذلك؟... هل ولد مشوَّهاً؟".

"أتقصد إن كان ذلك عيباً بالولادة؟". وهز غيرلينغ رأسه. "لا، لا، حـدث التشويه في وقت لاحق. كان في الواقع شاباً وسيماً؛ إذا كان بالإمكان الاعتمـاد على الصور الفوتوغرافية القليلة المبكّرة. عينان داكنتان، وقسَمات وجـه سـاميّة حادّة. احترق وجهه بالغاز".

لم يفهم خليفة.

"غاز الخردل"، شرح الإنكليزي. "الحرب العالمية الأولى. معركة باشِندِيل. كان بينسكر جندياً في سلاح الهندسة ويقود فريقاً يحفر تحت خطوط الألمان، فاكتشف بوش ما يجري، وحفر حفرة مقابلة وضخّ شحنة من الغاز داخل النفق الإنكليزي، وحُرق الأوغاد المساكين وهم أحياء. لقد جازف بينسكر بحياته في أثناء محاولته سدّ الفجوة ليتمكن الآخرون من الخروج. فاز بميدالية فكتوريا التي تحمل رمز النصارى الديني بسبب ما ألمّ به، عِلماً أنه عانى من ذلك حتى آخر أيامه. كان يشعر بالألم باستمرار كما يبدو، ويحتاج إلى مشروبات قوية ومورفين ليتمكن من العمل. إنه مظهر مأساوي بطرائق شتّى".

وشك خليفة في أن تكون الفتاة التي اغتصبها بينسكر قد رأت الأمور على هذا النحو. غير أنه احتفظ بالفكرة لنفسه، غير راغبٍ في التطرق إلى تفاصيل الاغتصاب، بل سحب صورة فوتوغرافية من جَيبه، وحوّل مجرى الحديث متطرّقاً إلى ذاك الجزء في قصة بينسكر الذي يثير اهتمامه فعلاً؛ رسالة هوارد كارتر.

"لا أفترض أن هذه الرسالة تعني لك شيئاً، أليس كذلك؟" سأل خليفة وهو يسلّمه الرسالة.

اعتمر غيرلينغ قبّعته مجدداً، ثم وضع نظارة على شكل هلال، وقرأ الرسالة. وكلما استرسل في القراءة ازدادت عيناه اتساعاً.

"من أين حصلتَ عليها؟". سأل عندما أنهى القراءة، رافعاً نظره.

"كانت موجودة في ملف قديم للشرطة. لم أكتشفها إلا منذ يومَين".

"ليتني عرفتُ بوجودها، كنت سأضيفها إلى بحثي. إنها رائعة. رائعة تماماً".

"هل تملك أي فكرة عما يعنيه بذلك؟ ذلك الجزء المتعلق بالعثور على شيء ما؟".

"حسناً، لا يمكنني أن أكون متأكداً مئة بالمئة"، قال غيرلينغ وهو يقرأ الرسالة مجدداً بإمعان، "ولكنني أراهن بأنه يشير إلى متاهة أوزيريس".

إن الطريقة التي قال بها ذلك باقتناع أفقدت خليفة توازنه. لم يكن يتوقع جواباً مباشَراً، بل بذْل المزيد من الجهد. وانحنى إلى الأمام، وامتدّ خَدَرٌ آمِل إلى أعلى عموده الفِقري، ونسي كل ما قيل حتى تلك اللحظة.

"ما هي هذه الما-تاها؟".

"متاهة"، صحّح له غيرلينغ؛ مشدداً على الحرفَين الأخيرَين. "إحدى الأعجوبتين المصريّتَين القديمتَين اللتَين أشار إليهما الإغريق بهذا الاسم. والأعجوبة الأخرى، بالطبع، هي مجمَّع هرم أمنحوتب الثالث في الحَوّارة. ولكن متاهة أوزيريس برأيي هي الأكثر إثارة للاهتمام بين الاثنتَين".

"هذه الما-تاها، أهي مدفن؟".

"لا، لا، لا". وهز غيرلينغ رأسه، واهتز فكّه. "كانت منجماً. في الواقع، إنها منجم؛ مصدر الذهب الأساسي لفراعنة المملكة الجديدة".

وازدادت حدّة الحَذَر. فوفقاً للمدوَّنات التي أرسلها له بِن - روي، كانت ريفكا كلينبرغ تقرأ عن مناجم الذهب.

"لم يسبق لي أن سمعتُ به"، قال خليفة.

"حسناً، من المحتمَل ألا تسمعَ به ما لم يكن لديك اهتمام خاص بالتكنولوجيا المصرية القديمة. صِدقاً، لم أكن أعرف الكثير عن هذا الأمر حتى ظهر فجأة في البحث الذي كنت أُجريه عن بينسكر، وقرأتُ بعض الأمور عن الموضوع. لقد وضع هذا المنجم كل مناجم الذهب الأخرى في الظل كما يبدو. فكنوز توت عنخ آمون، ومستودع كنوز *تل بَسطة*، ومجوهرات آحوتِب، وجِنازة تحوت... ربما تكون أي منها مصنوعة من الذهب المستخرَج من منجم المتاهة. إنه مدينة حقيقية تحت الأرض إذا كنتَ تصدّق هيرودوت".

"هل كان بينسكر يبحث عن هذا المنجم؟".

"بالتأكيد"، قال غيرلينغ. "يبدو أن هذا الأمر كان هاجساً بالنسبة إليه. لا فكرة لديّ عن المكان الذي سمع فيه عن المنجم للمرة الأولى. ولكن، منذ وصوله إلى مصر قام بغزوات داخل الصحراء الشرقية، محاولاً تتبّع أثره. فهو بالرغم من كل شيء مهندس تعدين. هناك رسالة له في أرشيف بـراكِن في مانشستر - جوزف براكِن ناشط عمّالي في عشرينيات القرن الماضي، وكان صديقاً حميماً لبينسكر إبّان الحرب - يسترسل فيها في الحديث عن هذا الشيء، وعن مدى الدهشة التي سترافق اكتشافه؛ ليس بسبب الذهب فحسب، بل بسبب الضوء الذي سيُلقيه المنجم على ممارسات العمل القديمة. ففي حين كان كل شخص آخر صعب المِراس في مصر يبحث عن الفراعنة والكنوز، أراد ساموئيل بينسكر

جمع معلومات عن الطبقة العاملة. إنه تلميذ حقيقي من تلامذة ماركس. آه! إنه أسلوب الفرسان!".

دنا النادل منهما حاملاً صينية على أطراف أصابعه بشكل متوازن، ووضع على الطاولة كأساً من الشراب، وكوب ماء مثلَّج لخليفة، عِلماً أنه لم يطلبه.

"نخبك!". صاح الإنكليزي بصوت متهدّج، رافعاً كأسه إلى شفتَيه، ومتناولاً ثلث محتوى الكأس بجُرعة واحدة، فيما ارتشف خليفة الماء، شاعراً بالسعادة لوجود الكوب بين يدَيه. وساد صمت ما لبث أن كسره غيرلينغ قائلاً:

"فتحاته عميقة جداً، وأروقته عديدة جداً، وهو مُربِك بتعقيده لدرجة أن المرء يضيع كلّياً عندما يلج مدخله".

وتناول غيرلينغ جرعة كبيرة أخرى، ثم وضع الكأس على بطنه.

"هكذا يصف هيرودوت المتاهة"، قال، "أو إنه على الأقل ما قاله هيرودوت بشكل مختلف؛ إذ لا أستطيع تذكّر المقطع حرفياً. لقد كان مليئاً بالذهب كما يبدو؛ لدرجة أنه بإمكانك أن تقطع شرائح منه عن الجدار بسكّين كما لو أنك تقطع اللحم. وعندما تخرج إلى ضوء الشمس - مفترضاً أنك لن تخرج أبداً - سيتلألأ شعرك كما لو أن النار قد أُضرمت به؛ وذلك بسبب غبار الذهب العالق به. لم يكن هيرودوت ممّن يتحفظون في التعبير عن الوقائع".

ضحك، وحرّك عُسلوج نبتة نعناع بشكل دائري. وتناول خليفة المجّة الأخيرة من سيجارته.

"بالطبع، كان هيرودوت هو الإغريقي الوحيد الذي أشار إلى المنجم بأنه متاهة"، أضاف غيرلينغ. "لم يكن المصريون يملكون هذا المفهوم. فقد كانوا يعرفونه انطلاقاً من العنوان العادي شِموت نِت وِسير؛ ممرات أوزيريس. من الواضح أن أوزيريس هو سيّدُ العالم السُّفلي".

لقد لفت شِموت نِت وِسير انتباهه؛ وإن كان ذلك بشكل مُبهَم. وبالرغم من افتتانه بتاريخ بلده، لم يهتم خليفة كثيراً بالتعدين في الأزمنة القديمة.

"هل هيرودوت مصدرنا الوحيد في ما يتعلق بهذا المنجم؟" سأل.

"لا، لا، إنه مذكور في عدد من الأماكن المختلفة"، أجاب غيرلينغ مُحرّكاً عُسلوج النعناع بشكل دائري مرة أخرى قبل أن يسحبه من الكأس، وينحني إلى

الأمام ويمتصّه. "لا يمكنني الادعاء بالتأكيد بأنني مرجع في هذا الموضوع، ولكن هناك مقطعاً عنه في ديودوروس سيسولوس يصف كيفية قيام عشرة آلاف عامل من العبيد بالعمل فيه، منتجين كمية من الذهب يفوق وزنها وزن الفيل. وأتذكر أيضاً وجود مصادر مستقاة من مؤرِّخين وعلماء جغرافيا من الإغريق يُعرَفون بالأغاتارسيد. وهناك أيضاً مصادر مصرية قديمة أكثر غموضاً وانفتاحاً على التأويلات".

وأعاد إسقاط عُسلوج النعناع في الكأس، متناولاً ما تبقى من شرابه، ثم سحب منديله مرة أخرى، وربّت على قميصه وسرواله المبقّعَين. ونادت امرأة بجانب حوض السباحة، طالبةً معرفة المكان الذي وضعت فيه جانين المرهم الواقي من أشعة الشمس. وفي النيل، اقترب *لَنش* سياحي يحمل اسم *نيو تايتانيك* لا يلائمه مطلقاً.

"بالطبع، هناك أولئك الذين كانوا يشككون بالأمر برمّته"، قال غيرلينغ مستهلاً الحديث مرة أخرى من دون أي تحفيز من خليفة. "ويدّعون أن الأمر مجرد أسطورة. لقد رفض كارتر الفكرة على الدوام، عِلماً أنه كان يميل إلى رفض كل ما قد يُلقي بظلاله على اكتشافه الخاص. ولكن النصوص متماسكة على نحو مفاجئ؛ ووفقاً لمعايير قديمة بالتأكيد. وأعتقد أن بعض النقوش المكتشَفة حديثاً دليل إضافي على وجود تلك المتاهة فعلاً. وتتمثل العقبة الجليّة بأن أحداً لم يعثر على ذاك الشيء اللعين مطلقاً. ويبدو أن أحدهم قد فعل ذلك الآن، أو إنه قد سبق له أن فعل ذلك على الأقل".

ولوّح بالرسالة.

"إنها رائعة. رائعة تماماً".

"هل تعتقد أنه يقول الحقيقة؟". سأل خليفة.

"لا أرى أي سبب للكذب في هذا الشأن. كان شمالياً متهوّراً غير معتاد على شطحات الخيال. وإذا قال إنه قد وجدها، فأنا أَعتبر ذلك حقيقياً. إن هذه الرسالة رائعة تماماً. هل تمانع أخذي نسخة عنها؟".

"رجاءً، احتفظ بها"، قال خليفة. "الأصلية لديّ في مكتبي".

"أنا مَدين لك. أعتقد حقاً أنه يُفترض بي الشروع بالعمل على هذا الأمر المرتبط بيينسكر. يبدو أنه أكثر إثارة للاهتمام مما ظننتُ. إنه مالوري في دراسة الآثار المصرية".

لم يأبه خليفة بالمرجع و لم يستفهم عنه. كان شارد الذهن، وهو يحاول أن يفهم سبب اهتمام صحافية إسرائيلية تضع مقالة عن الاتّجار بالجنس باكتشاف منجم ذهب مصري يعود للعصور القديمة. لم يكن هذا الأمر من مهامه بل من مهام بن - روي الذي يُجري التحقيق، ولكنه لم يتمكن من تمالك نفسه. لقد أَسَره أمر ما في القضية بطريقة غير مسبوقة.

"هل نعرف أي شيء آخر عن هذا المنجم؟".

"همم!".

كان غيرلينغ يقرأ الرسالة مجدداً، مستغرقاً في أفكاره.

"المنجم. هل نعرف أي شيء آخر عنه؟".

"حسناً، كما قلتُ، في الواقع، ليس الأمر ضمن مجال اختصاصي". وطوى الإنكليزي الرسالة ووضعها في جَيب قميصه. "شخصياً أعتقد أنه أشبه بمنجم إغريقي روماني. كان كبيراً بالتأكيد؛ كل المصادر توافق على ذلك. إنه أب كل المناجم المصرية في العصور القديمة، ويبدو أنه استُخدم طوال فترة قيام المملكة الجديدة. خمسمئة عام من الحفر وإقامة الأنفاق. إذا تصوّرتَ أن أعمق المدافن في وادي الملوك تطلّب حفرها عشرين عاماً تقريباً، فبإمكانك تكوين فكرة عن الحجم النسبي للمكان. يعود تاريخ هذه المناجم إلى الأزمنة القديمة بالطبع، ولكنّ اكتشاف هذا المنجم يبقى اكتشافاً ضخماً بالرغم من ذلك".

"وكان في مكان ما من الصحراء الشرقية"، قال خليفة.

"هذا ما تشير إليه المصادر كما يبدو. فأعمال التنقيب عن الذهب الأكثر قِدَماً جرت في ذلك الجزء من العالم؛ هناك أو في *النّوبيا* المشتقة من *نوب* أي الذهب باللغة المصرية القديمة".

وأخرج منديله وبدأ بالتربيت على جبينه مجدداً.

"إن من يُفترض بك التحدث إليهما في الواقع هما الأخوان الرَّيسولي"، قال. "فهما يتجولان في تلك الناحية من مصر منذ عشرين عاماً، ويعرفان كل شيء عن التعدين في الأزمنة القديمة".

مرة أخرى، أسر الاسم انتباهه.

"أهما شقيق وشقيقته؟".

"بالضبط. إنهما ثنائي مميَّز. تلك النقوش الجديدة التي ذكرتُها، أنا على ثقة تامة بأنهما اللذان اكتشفاها. هما اللذان يجب أن تتحدث إليهما إذا أردتَ معرفة المزيد عن المتاهة. مركزهما جامعة القاهرة، كما أعتقد".

دوّن خليفة ملاحظة ذهنية للاتصال بهما. ثم طرح عدداً إضافياً من الأسئلة، ولكن غيرلينغ لم يتمكن من إضافة أي شيء إلى ما أطلعه عليه. ومع بدء الإنكليزي باختلاس نظرات سريعة إلى ساعته، شكره خليفة على ما قدّمه من مساعدة وأنهى المقابلة.

"آمل حقاً أنني لا أستعجلك"، قال غيرلينغ بطريقة اعتذارية، "ولكن، يتعيّن عليّ اصطحاب مجموعة من الأشخاص إلى جادّة السِّفِنكس عند الخامسة، وبدأ الموعد يقترب".

فطلب منه خليفة ألا يَقلق، وقال له إن لديه كل ما يحتاج إليه.

"بالمناسبة، عمل جيد جداً في الجادّة"، أضاف غيرلينغ، رافعاً نفسه عن الكرسي. "إنه إنجاز مميَّز. لقد حوّل المدينة تماماً. نظراً إلى كونك أُقصُرياً، لا بد أن تكون فخوراً جداً".

لم يُجب خليفة، بل شرب ماءه ونهض. لقد علق نظره للحظات وجيزة على طَوف كبير من ورد النيل ينساق إلى وسط النهر، ويقف وسطه مالك حزين رماديّ اللون وفخور؛ كما لو أنه بحّار يقود طَوفاً.

ومن ثم، وبهزة رأس، تبع الإنكليزي وسار بجانبه.

"هناك أمر واحد إضافيّ"، قال في أثناء سَيرهما على المنصة.

"تفضّل".

"عندما كنتَ تجري بحثاً عن بينسكر، ألم تقع على أي صلة بينه وبين إسرائيل؟".

فقطّب الإنكليزي حاجبَيه.

"لا أتذكر وجود أي صلة"، قال. "حتى إن إسرائيل لم تكن موجودة في زمن بينسكر، بل كانت الأرض حينها خاضعة لسلطات الانتداب البريطانية في تلك الأيام وكانت تدعى فلسطين. لا يمكنني أن أتذكر أبداً. في كلا الحالَين، أنا على ثقة تامة بأن بينسكر لم يذهب إلى هناك قطّ. في الواقع، كان مرتاباً بأمر الصهيونية

برمّتها. ولكن، بما أنه كان في مصر، فمن غير المستحيل أن يكون قد زار المكـــان. وإذا قام بذلك فإن الأمر لم يبلغ مسمعي".

وبلغ الباب وهمّ بالخَطو إلى الداخل، ولكنه استدار.

"تمهّل، كان هناك فرد من عائلته انتقل إلى هناك في ثلاثينيات القرن الماضي. نسيبة أو ما شابه. لقد مكثت هناك لمدة عامَين، ومن ثم تحررت من آمالها الكاذبـــة وعادت إلى إنكلترا. لا أستطيع تذكّر اسمها".

وفكّر للحظات، ومن ثم هزّ كتفَيه بطريقة اعتذارية ودخل. فلزم خليفة مكانــه؛ مراقباً طوف ورد النيل وهو ينساق شمالاً في رحلته، متحرّكاً ببطء على نحو دائري مع التيار المندفع. وبعد ذلك، أشعل سيجارة كليوباترا أخرى، وتبع غيرلينغ إلى الداخل.

"عليّ القول إن القضية تبدو مثيرة للاهتمام"، صدر صوت الإنكليـــزي مـــن السلّم أمامه. "منجم ذهب يعود للأزمنة القديمة، عالم آثار يختفي، ألغاز في القدس؛ يبدو الأمر كمؤامرة في رواية. أودّ أن أعرف كل شيء عن الأمر".

وتناول خليفة مجّة من سيجارته.

القدس

عند الساعة السابعة، كان بِن - روي وليه شاليف جالسَين على الشـــرفة في شقتها في رامات دِنيا، يرتشفان الشراب ويحدقان بغروب شمس ناريّ أحمر قـــانٍ، ومن ورائهما تصدر طقطقة مكتومة للأواني في أثناء قيام زوج شاليف، بِني، بإعداد العشاء. كان كلب صغير يراقبهما من الزاوية البعيدة للشرفة، وهو كناية عن كومة شعر أُطلق عليها اسم يصعب تصديقه: غورْجوز.

"إذاً، ما الذي استنتجتَه من كل ذلك؟" سألت.

"لقد تبادرت إلى ذهني كل أنواع الكلمات اللعينة".

"إنها بالتأكيد إحدى الطرائق لوصف الوضع".

وأسندت قدمَيها على درابزين الشرفة ودفعت الكرسي إلى الوراء مهتزة. لقد ملأتِ المركز صياحا كما يبدو عندما اعتقلوا بتروسيان في ذلك الصباح. وها هي تعود إلى رُشدها؛ هادئة، متماسكة، مركّزة.

"لقد طُرحت على الرجل المُسنّ أسئلة بالتأكيد"، قالت. "لقد كذب في شأن عُذر غيابه، ولا يبدو أمر الاتصال الهاتفي جيداً".

فالاتصال تطور جديد. كان آموس نامير قد قضى فترة بعد الظهر في مراجعة سجلات الهاتف التابعة لرئيس الأساقفة، واكتشف اتصالاً هاتفياً وارداً من الهاتف المحمول لكلينبرغ. حدث ذلك قبل ثلاثة أسابيع من وفاتها، ودام الاتصال خمس دقائق.

"عندما رأيناه في دار العبادة الكبرى ادعى أنه لا يعرفها".

"لم نكن قد حدّدنا هويّتها بعد".

"لا يزال هذا رابطاً مباشَراً بالضحية"، قالت، "واسمها في كل الصحف. كان باستطاعته عرض خدماته. إنه ماكر، لا رَيب في ذلك".

"يبدو الأمر كما لو أنك توافقين بوم الرأي".

"يوم أوافق إسحق بوم الرأي هو اليوم الذي أسلّم فيه شارتي. ولكن بتروسيان ليس صادقاً. وهو حالياً الشخص الأكثر اشتباهاً به لدينا. في الواقع، إنه المشتبَه به *الوحيد*".

أسند بِن – روي قدمه على الدرابزين، وارتشف بعض الشراب. لم يكن يفضّل هذا النوع، ولكنه الوحيد الموجود لدى شاليف، وكان بحاجة إلى شراب بعد كل ما حدث في ذلك اليوم.

"إنه رجل مُسنّ يا ليه. أنتِ قلتِ ذلك بنفسك".

"إذاً، فجأةً بات هناك تخفيف للجُرم بسبب السنّ؟ لم يكن آمون هرتزيغ شاباً بالتحديد".

فهرتزيغ أول قضية قتل عملا عليها معاً؛ لقد قتل زوجته. لقد نُشرت أخباره في الصفحات الأولى، وكان في الثالثة والثمانين من العمر.

"لم يرتكب بتروسيان الجريمة"، أصرّ بِن – روي. "تعرفين ذلك تمام المعرفة على غراري. وأيًّا يكن الأمر الذي تورّط فيه – ومن الواضح أنه متورط في أمر ما – فمن المُحال أن يكون قد خنق ريفكا كلينبرغ".

"إذاً، إنّه يعرف من قام بذلك ويحميه".

إنه أمر ممكن ولو بشكل محدود، عِلماً أن بِن – روي لم يكن مقتنعاً بذلك.

"الأمر غير منطقي يا ليه. الأمر غير منطقي".

"إذاً، ما هو الأمر غير المنطقي؟". ونظرت إليه. "أخبرني يا آري، رجاءً. لأنه مهما كانت نوايا المرء حسنة، فقد قضينا عشرة أيام في التحقيق و لم تطـــرح بعـــد اقتراحات أفضل".

إنها وجهة نظر مُنصفة. الاتّجار بالجنس، فوسغي، بارين، مصر، نِمِســـيس، ساموييل بينسكر؛ في النهاية، إنها ضربات فرشاة عشوائية لا تشكل صورة واضحة. كان باستطاعته الشعور بأنه على الدرب الصحيح – إنه يشعر بذلك في كل خليّة في جسده – ولكن سلوك الدرب الصحيح وامتلاك قضية عملية أمران مختلفان.

"سأواصل التحقيق في القضية"، قال بشكل غير مُقنِع.

"أنا مسرورة لأجلك. ولكن، لسوء الحظ، لن تتمكن من بوم. إنـــه يريـــد بتروسيان، ويقف على رأس صف طويل".

فتجهّم وجهه.

"ماذا تقصدين؟".

"أقصد أن رئيس الأساقفة لم يحبّب بنفسه على مَرّ السنين. فقد أثـــار بعـــض التعليقات المثيرة للغضب حول المستوطنات، وحصار غزة، وفساد المدينـــة. لديـــه أعداء في مناصب عالية. الكثير من الأعداء".

"أتقولين إنهم سيُلقون باللوم عليه؟".

"ما أقوله هو إنه يوجد عدد كبير من الأشخاص المتمتعين بالنفوذ الـــذين لا يمانعون رؤيته مذلولاً وقد تم الحط من قَدْره. ما زلنا نلتزم بالقانون في هذا البلد – تقريباً – وإذا لم يكن هناك أي دليل، فلن يجازفوا بإرســـاله للمحاكمـــة. ولكـــن ضغوطاً كبيرة تمارَس للعثور على ذلك الدليل، ولا يقدّم رئيس الأساقفة أي خدمة لنفسه".

فأعاد بِن – روي رأسه إلى الوراء، وفرك صدغَيه. كان يوماً طويلاً؛ إنه يوم طويل آخر.

"ماذا يقول الرئيس غال؟" سأل.

"ليس الكثير. حتى الآن، الأمر مَنوط ببوم".

"هل سيُبقيه على رأس فريق التحقيق؟".

فهزت شاليف كتفيها.

"لم يتعطّف الضابط المسؤول ويأتمني على أسراره. وأعتقد أنه سيستمر بذلك حتى يتوصل إلى قناعة تامة بأن الدرب الذي يسلكه لن يوصله إلى أي مكان؛ الاحتجاجات ليست دعاية جيدة. سيُبقيه قيد الاحتجاز للساعات الأربع والعشرين القادمة ليُثبت وجهة نظره ليس إلا، ومن ثم سيضعه قَيد الإقامة الجَبرية في منزله".

"أحتاج إلى التحدث إليه".

لقد علِم بن - روي من طريقتها في تحريك فمها أن الأمر لن يكون سهلاً. فبوم يحرس إوزّته الذهبية. أنزل قدمَيه، وأزاح كرسيّه ليصبح في مواجهتها مباشَرةً.

"الأمر مرتبط بالفتاة يا ليه. فوسغي. إنها المفتاح. لا أعرف كيف، ولا أعرف السبب، ولكن فوسغي هي المفتاح. هناك شيء ما يُنبئني بأن بتروسيان يعرف عنها أكثر مما يُفشي. أحتاج إلى التحدث إليه".

نادى بِني شاليف من المطبخ، معلناً أن العشاء أصبح جاهزاً، فنظرت زوجته من فوق كتفها، ثم أرخت ذراعيها، وطقطقت برجماتها. فجرى الكلب بخطوات سريعة وقفز إلى حضنها، مُحدِثاً أصوات نخير ممتنّة فيما كانت تداعبه وراء أُذُنَيه. ولم تبارح مكانها للحظات. ومن ثم، رفعت الكلب وطبعت قُبلة على أنفه.

"سأرى ما يمكنني فعله"، قالت. "لا يمكنني أن أعدك بأكثر من ذلك، وعليك أن تحذر. باستطاعة بوم التسبب بكثير من المتاعب. لا تُغضبه. اتفقنا؟".

فهمهم بن - روي.

"استناداً إلى ما أخبرني به زيسكي هذا الصباح، عليك العمل بنصيحتك".

"حدث ذلك هذا الصباح"، قالت شاليف. "أمّا صباح غد، فسأقبّل مؤخرة الضابط المسؤول. لقد عملتُ بكدّ لأصل إلى ما أنا عليه، ولن أضحّي بذلك".

"حتى لو عنى ذلك التعاون مع الشخص غير المناسب".

فلم تُجب، بل أنزلت الكلب إلى الأرض، وتناولت ما تبقّى في كأسها من شراب، ووقفت. فقام بِن-رول بالمِثل، ودخلا الشقة. كان بِني شاليف يخرج من المطبخ مع قِدْر كبيرة، وتتبعه ابنته الصغرى، مالكة، حاملةً كومة من الأطباق.

"هل ستبقى، يا آري؟" نادى. "هناك طعام يكفي الجميع".

فشكره بِن - روي، ولكنه قال إنه ينبغي عليه المغادرة.

"سأصطحب سارة لتناول العشاء خارج المنزل. لقد طهوتُ لها فطورها، وأشعر بأنه يتعيّن عليّ تسوية الخلافات بيننا".

فصفّقا له، ورافقته شاليف إلى الباب الأمامي.

"لا تتراجع"، قالت في أثناء خروجه إلى فسحة الدرج، وضغطت على زر المصباح. "سأغطيك وأحاول توفير قَدْر من حرية التحرك لك. ولكن، لا تُثر المتاعب وتصرف بحذَر. لديّ شعور سيّئ حيال هذه القضية".

"أعرف ذلك، ويزداد هذا الشعور سوءاً".

فترددت، ومن ثم وقفت على أطراف أصابع قدمَيها، وطبعت على خدّه قُبلة خفيفة. لقد مضى على عملهما معاً خمس سنوات، ولم يسبق لها أن قامت بعمل مماثل. لقد فاجأها المبادرة بقَدْر ما فاجأته، واحمرّت وجنتاها. وبعد أن تمتمت: "انتبه لنفسك، يا آري"، أغلقت الباب. ولم يكد بِن - روي يجتاز نصف المسافة على الدرج حتى غرق المكان في الظلام.

الأُقصُر

بعد لقائه ديغبي غيرلينغ مباشَرةً، أجرى خليفة اتصالاً هاتفياً بجامعة القاهرة، آملاً في اكتشاف المزيد عن متاهة أوزيريس. لقد أكدت له المرأة التي تحدّث إليها - سكرتيرة في قسم عِلم الآثار - أن الفريق المؤلف من الشقيق والشقيقة حسن وسلمى الرَّيسولي هو المرجع الأهمّ في شؤون التعدين في العصور القديمة. ولسوء الحظ، كانا في عمل ميداني وسط سيناء، ولن يعودا إلى القاهرة إلا بعد ثلاثة أسابيع. فقال لها خليفة إن الأمر مُلِحّ، ووافقت على محاولة الاتصال بهما على هاتفهما المحمول، ولكنها أبلغته بأن الاتصالات متقطّعة، وقد تمضي أيام قبل أن يتلقى أي إجابة. فترك لها رقم هاتفه، وعاد إلى المنزل، وساعد بطّاح على إعداد العشاء، ووضع يوسف في السرير، ومن ثم شعر برغبة فجائية شديدة باختبار كيف يكون الثنائيّ طبيعياً مرة أخرى، وبالرغبة في اصطحاب زينَب في نزهة مسائية سيراً على الأقدام في أنحاء الأُقصُر.

لم يكونا يخرجان إلا نادراً. فقبل وفاة علي، كانا يقومان بذلك في كل الأوقات: فيعبران النهر لتناول العشاء مع محمود في توت عنخ آمون، ويدخلان السوق لتناول القهوة وتدخين النارجيلة، وينـزلان إلى الكَرنَك للتنـزّه ليلاً في أرجاء المعبد المُقفِر (إحدى فوائد امتلاك ترخيص مرور خاص بالشرطة). ولكن أقصى ما يمكنه القيام به في هذه الأيام هو اصطحابها من أحد أطراف الشقة إلى الطرف الآخر. في هذه الليلة، وكعادتها، قالت زينب إنها لا تريد الذهاب لأنها لا تستطيع مواجهة الأمر، ولكنه ألحّ عليها فتخلّت عن إصرارها لأنها شعرت بأهمية الأمر بالنسبة إليه؛ وبالنسبة إليها أيضاً، بطريقة ما. فشبكا ذراعَيهما، وجالا على امتداد شارع المدينة المنوّرة في اتجاه مركز المدينة، غير متفوّهَين بأي كلمة، وشاقَّين طريقهما بحذَر عبر حشود المساء، ومتوقفَين لمدة وجيزة لمشاهدة المحتفلين في زفاف ضخم أُقيم خارج المنـزل، وذلك قبل أن ينتهي بهما الأمر في مقهى صغير في الجهة المقابلة لحديقة السرور مِدينا كلوب.

"أتريدين المزيد من الشاي؟" سأل.

"شكراً لك، لا".

كان صوتها هادئاً جداً في هذه الأيام، ويكاد لا يكون مسموعاً.

"أتريدين تدخين النارجيلة؟".

وأومأ لها بأنبوب النارجيلة الذي كان يمسكه فهزّت رأسها.

"إنها بنكهة التفاح".

هزة أخرى بالرأس.

"كنت تحبين النارجيلة بنكهة التفاح".

هزت كتفَيها هذه المرة. ومرّت أمامهما عربة يجرّها حمار محمَّلة بحاويات غاز معدنية.

"ربما يُفترض بنا التفكير بالعودة"، قالت.

"لقد خرجنا للتوّ".

"لا أحب ترك الولدين. تعرفُ كيف يستيقظ يوسف و...".

لفّ خليفة ذراعه حول كتفَيها.

"الولدان بخير، يا زينَب. بطّاح فتاة كبيرة وقادرة تماماً على الاعتناء بشقيقها لمدة ساعتَين. سوف تتصل إذا كانت بحاجة إلينا".

وربّت على الهاتف المحمول الموضوع في جَيب قميصه.

"لنخصّص لنفسينا بعض الوقت. حاولي الاستمتاع بالأمسية".

لقد بدا الأمر كما لو أنها تريد الجدال، ولكنها أومأت برأسها بوهن، ومدّت يدها وشبكت أصابعها بأصابعه.

"أنتَ مُحِق"، قالت. "الخروج أمر جيد لنا. ولكن...".

وعضّت شفتها.

"أعرف"، قال وهو يحضنها. "صدّقيني يا زينَب، أعرف. ولكن، علينا أن نحاول التأقلم مع الأمور".

وضغط على يدها زافراً دَفقاً بطيئاً من دخان التبغ بنكهة التفاح. كانت ثرثرة الأحاديث وطقطقة أحجار الدومينو تُسمع حولهما، وفي الجانب الآخر من الشارع المقابل لحديقة السرور، كان الأطفال يصيحون فيما كانوا يقفزون على *الترامبولينات* العملاقة.

"هِيه، أخبرني محمد ساريا دُعابة اليوم"، قال محاولاً التخفيف من اكتئابها وإخراجها من الواقع الذي تعيش فيه. "مبارك، القذافي، بِن علي، وجمل، موجودون معاً في بالون، وفجأةً هبّت عاصفة...".

ورنّ الهاتف المحمول، فتسمّرت زينَب في مكانها.

"لا بأس"، قال. "لا بأس".

وضع أنبوب النارجيلة جانباً، وسحب الهاتف من جَيبه. لم يكن رقم هاتف منزلهم، أو أي رقم آخر يعرفه. فأراها شاشة العرض ليطمئنها، ثم أجاب بعد ذلك. وسمع صوت تشويش في أُذُنه.

"آلو؟".

المزيد من التشويش.

"آلو؟".

لا شيء. ربما كان اتصالاً خاطئاً، أو أحد تلك الاتصالات التي تحاول بيعه سلعة ما. وحاول للمرة الثالثة من دون الحصول على أي إجابة، وكان على وشك إقفال الخط عندما سمع فجأةً:

"... عن استخراج الذهب. قيل إن الأمر مُلِحّ".

لقد خرج الصوت - صوت امرأة - بشكل مرتفع وواضح، وحلّ هسيس غير واضح مكان التشويش. وأرخى خليفة ذراعه عن كتف زينَب.

"سيدة رَيسولي؟".

"رجاءً، ادعُني سلمى".

"وأنا حسن"، تردد صدى صوت رجل عبر الخط. "آسف لأننا تأخرنا في الاتصال بك".

"على العكس تماماً". قال خليفة. لم يكن يتوقع اتصالاً منهما في وقت قريب.

"نُبقي الهاتف مُقفَلاً في العادة"، قالت المرأة مجدداً.

"للحفاظ على البطارية"، أضاف الرجل.

"ولكن، كان لدينا عمل...".

"... وهكذا تسلّمنا الرسالة من ياسمينة في الكلّية".

بدا الأمر كما لو أنهما يتكلمان على نحو تبادلي. فتخيّلهما خليفة جالسَين جَنباً إلى جَنب واضعَين سماعة الهاتف بينهما، وكل منهما ينحني مُداوَرةً ليقول ما لديه.

"إذاً، كيف يمكننا مساعدتك؟" سألا في وقت واحد.

مغطّياً الهاتف بيده، التفت نحو زينب وسألها:

"آسف، أحتاج إلى التحدث إلى هذين الشخصين. هل تمانعين؟".

فلوّحت بيدها، مشيرةً إلى أنه يُفترض به مواصلة حديثه عبر الهاتف.

"هل أنت متأكدة؟ يمكنني أن أطلب منهما معاودة الاتصال".

فهزت رأسها، وأومأت له مجدداً لمواصلة الحديث. لقد شعر بالسوء بسبب ذلك، وعلِم أنه يُفترض به إرجاء المكالمة الهاتفية، ولكنه أمِل ألا تطول كثيراً، وكان في الواقع يريد معرفة ما لديهما عن منجم الذهب ذاك. لمس جبينه، وتمتم قائلاً إنه لن يُطيل الحديث، ومن ثم ابتعد عنها وأطلع عائلة رَيسولي على الوضع من دون أن يتطرق إلى الجريمة، بل اكتفى بذكر قضية ساموئيل بينسكر. وعندما أخبرهما عن رسالة هوارد كارتر، شهق أحدهما وصفر الآخر؛ من الصعب معرفة من قام برد الفعل هذا أو ذاك.

"سرت إشاعات منذ زمن بعيد عن اقتفاء أحدهم أثر المتاهة"، قالت سلمى، "ولكن، صِدقاً، لم أصدّقها. حتى إنه لم يسبق لي أن سمعتُ بهذا الرجل بينسكر".

"ولكن، هل سمعتِ عن المتاهة؟".

"أجل، إنها أحد مناجم الذهب القليلة في الأزمنة القديمة التي عُرفت باسم محدَّد بدلاً من الإشارة إليها بكلمة *بيا*".

"إنها الكلمة القديمة التي تعني منجماً"، أوضح شقيقها.

وبعد التشويش الأولي، أصبح الخط واضحاً تماماً. لقد صعب عليه التصديق أنه يتحدث إلى شخصين وسط الصحراء.

"والمنجم، أهو موجود فعلاً؟". سأل خليفة.

"آه، أجل"، قالت سلمى. "كل المؤرخين الإغريق يذكرونه، عِلماً أنه من المعروف أنهم كتبوا ذلك بعد خمسمئة عام...".

"وما يقارب ألف عام مع ديودوروس"، قاطعها شقيقها.

"... ولكن، هناك مراجع معاصرة قليلة أيضاً، بما في ذلك نقشان اكتشفناهما بنفسينا".

كان ديغبي غيرلينغ قد ذكر له أمراً ما بهذا المعنى. ألقى خليفة نظرة إلى الوراء في اتجاه زينَب - كانت جالسة ويداها في حضنها، محدّقةً بالمحتفلين في حديقة السرور في الجانب الآخر من الشارع - وطلب المزيد من المعلومات.

"أحدهما على الجدار قرب أسفل وادي الشغب".

وقال حسن مرة أخرى. "اللغة غامضة قليلاً...".

"لم تكن واضحة مطلقاً"، تردد صدى صوت شقيقته من خلفية الخط.

"... ولكنّ ما نُقش يسجّل في الأساس مرور قافلة ذهب متوجهة من المنجم إلى وادي النيل. لقد فعل ذلك على الأرجح أحد الجنود الذين يحرسون القافلة. هناك إطار إهليلجي يحمل اسم رعمسيس السابع...".

"أو ربما راميس التاسع".

"... مما يوحي بأن المنجم كان لا يزال يعمل بقوة حتى في نهاية المملكة الجديدة".

في هذه الأثناء، سُمعت صيحات جماعية مع ارتفاع دولاب هيدرولي عملاق في الهواء، وشروعه بالدوران. فوضع خليفة يده على أُذُنه لصدّ الصوت.

"والنقش الآخر؟".

"إنه موجود على الجهة الخارجية لجُرف صخري فوق وادي مينــه"، قالــت سلمى. "عثرنا عليه في العام الماضي، ولم يتم نشره بعد. إنه مثير للاهتمام بصــفة خاصة لأنه أول مرجع عن المنجم حتى اليوم".

"أوائل السلالة الحاكمة الثامنة عشرة"، سُمع صوت شقيقها. "إبّــان حكــم تَحتَمِس الثاني".

"إن اللغة غير واضحة تماماً أيضاً"، قالت سلمى، "ولكن ما اكتشفناه حــتى الآن إعلان ملَكي من نوع ما عن إعادة إهداء المنجم. إذا انتظرتَ للحظات...".

وسُمع صوت حفيف صفحات تُقلَّب في أثناء قيامها بمراجعة مفكّرتها علــى الأرجح.

"إليك ما جاء فيه". وشرعت بالقراءة. "*منجم الذهب الذي كُشــف عنــه لوالدي وكان في منطقة نفوذ هاتور، هو الآن في منطقة نفوذ أوزيريس، والــذهب له، وهو من يملك طرقه العديدة؛ حيث إنه بات يتعّين الإشارة إليه بأنه شِموت نِت وِسير؛ ممرات أوزيريس*".

وسُمع صوت ضربة مكتومة مع إغلاق المفكّرة أو أي شيء آخر.

"من الواضح أن هناك عدداً من التفسيرات الممكنة"، أضافت، "ولكن ما يعنيه هذا برأينا...".

"ما يعنيه بالتأكيد..." قاطع شقيقها.

"... هو أن منجماً شُرِع العمل به إبّان حكم تَحتمِس الأول...".

"أو ربما أمنحوتب الأول...".

"... بلغ الأعماق لدرجة أن رعايته انتقلت من هاتور، إلى أوزيريس. وهــو أمر استثنائي تماماً إذا كنا مُحِقّين. ما أعنيه هو أن معظم أعمال استخراج الــذهب المصرية القديمة كانت تجري في خنادق مفتوحة. حتى إنّ تلك التي غاصت تحــت الأرض لم تتخطَّ عُمق عدة عشرات من الأمتار".

"وهو أمر صحيح في بداية عمر المنجم، تذكّري"، قال شقيقها. "لقد تطلّــب الأمر – ماذا؟ – أربعمئة عام من الحفر قبل الشروع باستخراج الذهب بكميــات كبيرة. وحتى مع مرور فترات من عدم التنقيب، يبقى حجم المنجم بعيــداً عــن التصديق. لا عجب في أنهم أشاروا أيضاً إليه بعبارة *بيا وي عا إن نوب*".

"أعظم المناجم قاطبةً"، ترجمت سلمى.

تلمّس خليفة مقدّمة أنبوب نارجيلته وأخذ نَفَساً. فكل هذه الأمور مثيرة للاهتمام، ولكنه كان لا يزال يناضل لاقتفاء أثر أي صلة واضحة بين منجم ذهب يعود تاريخه إلى ثلاثة آلاف عام مضت، وبين امرأة خُنِقت في دار عبادة في القدس. بالتأكيد، إن شركة بارين تستخرج الذهب، ولكن الذهب والعنف لم يكونا قط بعيدَين عن بعضهما وفقاً لخبراته. وبالرغم من ذلك، تبدو كل المعلومات واهية جداً، وتبدو واهية بشكل مضاعَف عندما يحاول إيجاد أي صلة بينها وبين الاتّجار بالجنس. سحب نَفَساً آخر، وتحقق من زينَب - كانت لا تزال تحدّق أمامها مباشَرةً، ضائعة في أفكارها - وطرح السؤال الجليّ:

"هل استُنفد الذهب من المنجم كلّياً في الأزمنة القديمة؟".

وجرى تهامس، ومن ثم قالت سلمى رَيسولي:

"إنها نقطة غير محسومة إلى حد ما".

لم يكن هذا هو الجواب القَطعيّ الذي ينتظره.

"ماذا تعنين بقولك إن هذا الأمر غير محسوم؟".

"حسناً، هيرودوت واضح جداً في هذا الشأن"، قال حسن. "فقد قال إن المنجم هُجر في نهاية المملكة الجديدة لأنه تم استخراج كل الذهب. ولكن ديودوروس سيسولوس الذي كان يعمل لصالح هيرودوت من مصدر مختلف...".

"ويُعتبر بصورة عامة الأكثر تعويلاً عليه بين الاثنين في هذا الموضوع بالذات..." قاطعت شقيقته.

"يقول ديودوروس إن مكان وجود المنجم قد نُسي في أثناء الفوضى الشاملة التي حدثت في نهاية المملكة الجديدة؛ مما يعني ضِمناً أنه لم يُستنفَد بل ضاع. ولا وجود بالتأكيد لمراجع معاصرة تتحدث عن المنجم وُضعت بعد نهاية السلالة الحاكمة العشرين...".

"عِلماً أن هناك ورقة بردي تعود للحقبة الأخيرة تصف إرسال بِعثة لمحاولة تحديد موقع المنجم مجدداً"، قالت سلمى. "وما كانوا ليقوموا بذلك لولا ثقتهم بوجود شيء ما جدير بالتعدين. لسوء الحظ، ضاعت البِعثة في الصحراء، ومات جميع أفرادها من العطش، لذلك لم تتسنَّ لهم فرصة اكتشافه قطّ".

"في الواقع، وببساطة، لا أحد يعرف"، قال حسن مجدداً. "شخصياً، أميل إلى تصديق هيرودوت. وشقيقتي سلمى تعتمد وجهة النظر المعاكسة. يستحيل تأكيد أيّ من الأمرين".

"وسيبقى الأمر على حاله حتى يعثر أحدهم على المنجم"، أضافت سلمى.

"وهذا ما فعله ساموبل بينسكر كما يبدو"، تمتم خليفة وقد أخذ مجّةً أخرى من نارجيلته متأمّلاً. وقدم شاب إلى جانبه، وشرع باستبدال قِطع الفحم الأساسية التي بدأت تتحول إلى رماد بأُخرى متّقدة من دون أن يلاحظه خليفة. لقد شعر بذلك النوع من الخَدَر في عموده الفِقري. لم يكن قوياً، ولكنه موجود بالتأكيد. فانحنى على مقعده إلى الأمام.

"يبدو أن هيرودوت يقول شيئاً ما عن وفرة الذهب في المنجم لدرجة أنه باستطاعتكم...".

"... قطْع شرائح منه عن الجدار بسكّين".

أنهى حسن الجملة.

"هل الأمر حقيقي؟".

وضحك الاثنان.

"من الواضح أنك لا تعرف الكثير عن استخراج الذهب"، قالت سلمى.

فأقرّ خليفة بذلك.

"إنها قصة جيدة ولكنها من نَسج الخيال"، قال حسن. "استخرج المصريون معظم ذهبهم من شقوق الكوارتز التِّبري؛ ولا سيما الكوارتز الأبيض الذي يحتوي على القليل من الذهب في داخله. وللوصول إلى الذهب، كان يتعيّن عليهم قطع كميات كبيرة من الكوارتز وإخراجها من سفح التلة، ومن ثم تحويلها إلى بودرة وغسل هذه الأخيرة بالماء لاستخراج المادة النفيسة. لذلك، ليس الأمر بسيطاً كما يوحي هيرودوت. لقد اقترب ديودوروس سيسولوس من الحقيقة أكثر من سواه".

"ولكن، لا رَيب في أن رواسب الذهب في الأزمنة القديمة كانت وافرة"، قالت سلمى، "وكل المصادر تتفق في الرأي على أن رواسب الذهب في أوزيريس هي الكبرى. لذلك، ربما تكون هناك ذرّة من الحقيقة في مزاعم هيرودوت. فالتحاليل التي أجريناها على أكوام من نفايات المناجم توحي بأن المناجم الأكثر

شحّاً تُنتج ما بين خمسين وستين غراماً من الذهب في كل طنّ من المعدن الخـام، وهو ما يوازي تقريباً ضعف ما تنتجه المناجم الحديثة. وكان النقاء استثنائياً، فنسبته ثلاثة وعشرون، لا بل أيضاً أربعة وعشرون قيراطاً".

راجع خليفة التعابير التقنية في عقله، ولكنه فهم الفَحوى. كان الخَدَر لا يزال يمتد صعوداً ونـزولاً على امتداد عموده الفِقري. وشعر بأن أمراً ما سينبثق عن كل ذلك؛ إنه يمتزج ويحاول الكشف عن نفسه. أما إذا كان هذا الأمر على علاقة بقضية بن - روي أم لا، فتلك مسألة مختلفة.

"وكل ما يمكننا تأكيده في شأن موقع المنجم هو أنه في الصحراء الشـرقية في مكان ما؟".

"يمكننا تضييق المساحة الجغرافية قليلاً"، أجابت سلمى. "إن الواديَين حيث عثرنا على النقوش - وادي الشغَب ووادي مينه - يبدو أنهما قد استُخدما كطريقين أوليين للمنجم، الشغَب من الغرب والمِينه من الشمال. وهناك كتابتـان أُخرَيان تشيران إلى ذلك في بير الجندي. وبوصل هذه النقاط ببعضها نحصل على مثلّث، ويكون المنجم في مكان ما من الصعيد الصحراوي. ولكنها لا تزال منطقة كبيرة جداً". "وبعيدة جداً"، أضاف حسن. "وقد يكون القمر الدلالة الوحيدة على الحياة هناك".

وتذكّر خليفة شخصاً آخر استخدم هذا التشبيه مؤخراً. لم يتمكن من استعادة السياق المحدَّد للكلام، ولم يضيّع الوقت في محاولة القيام بذلك، بل سأل:

"هل هذا المنجم قيّم؟ أقصد إذا عثر عليه أحد".

لقد خرج السؤال من فمه بشكل طَوعي تقريباً. أما اللازمة غير المنطوقة فهي: هل هو قيّم بما يكفي للقتل لأجله.

"أفترض أن كل شيء يعتمد على كيفية تحديدك لكلمة قيّم"، قال حسن. "على الصعيد الآثاري، قد يكون اكتشافاً مثيراً للاهتمام؛ ولا سيما إذا كان المنجم لا يزال محافظاً على شكله وسلامته ولم ينهَر من الداخل".

"كنت أفكر في الناحية المالية بالتحديد"، قال خليفة، "لو افترضنا وجود ذهب هناك".

"حسناً، إنه افتراض كبير جداً"، قال حسن. "فأيّاً يكن الأمر الذي أشار إليه ديودوروس سيسولوس، لا يمكنني شخصياً أن أتخيّل تبقّي أي شيء من الرواسب الأصلية. ليس بعد خمسة قرون من التعدين المتواصل".

"ولكن، ماذا لو كانت هناك رواسب؟".

"حينئذٍ أجل، سيكون قيّماً بالطبع. أعني الذهب ذهب. والناس يرغبون فيه".

"ولكن استخراجه ليس سهلاً"، تدخّلت سلمى. "كما قلنا من قَبل، الأمر لا يقتصر فقط على السير إلى هناك مع مِعوَل وأدوات لقطع الذهب عن الجدران. إن استخراج الذهب من المعدن الخام عملية معقّدة، ونظراً إلى بُعد المنطقة، يتوجب القيام بذلك على مستوى صناعي ليكون الأمر برمّته عملياً على الصعيد الاقتصادي. وهذا ما قام به الفراعنة كما يبدو بسبب وجود جيش من عمال السُّخرة في تصرّفهم. وفي هذه الأيام، هناك نفقات إضافية غير مباشَرة. إذاً، للإجابة عن سؤالك، أجل سيكون قيّماً ولكن ليس كما تعتقد. وفي الواقع، يتعيّن على الحكومة، أو على تكتّل تعديني كبير، تعبئة الموارد الضرورية لتحقيق القيمة".

تكتّل مثل شركة بارين، فكر خليفة في سرّه.

وأسند ظهره، نافثاً الدخان من مِنخَرَيه، ومدقّقاً النظر إليه، وشاعراً بأنه سيتوصل إلى أمر ما مع مواصلة السعي لإيجاد صلة بين منجم ذهب في مصر وجثة في إسرائيل من خلال صناعة الاتّجار بالجنس بين البلدَين. ومرت لحظات. وبعد إدراكه أن سلمى وحسن رَيسولي في انتظاره، وكذلك زوجته، وأن مسؤولية إيجاد الصِّلة لا تقع على عاتقه في النهاية، بل تنحصر مهمته في مساعدة بِن - روي على توفير بعض المعلومات، شكر الشقيق والشقيقة على ما قدّماه من مساعدة، وقال إنه سيتصل بهما إذا كان بحاجة إلى أي شيء آخر، وأنهى الاتصال. ومنح نفسه ثواني قليلة، سامحاً للمقابلة بالترسّخ في ذهنه، ومن ثم استدار.

"آسف لأن الأمر تطلّب هذا القَدْر من...".

كان مقعد زينَب فارغاً. فألقى نظرة في أرجاء المكان، مفترضاً أنها لا بد أن تكون قد دخلت المقهى للحصول على شيء ما، أو ربما ذهبت لإلقاء نظرة على

نافذة أحد المتاجر المجاورة. غير أنّه لم يجد أي أثر لها. ووقف، موجّهاً أنظاره إلى امتداد الشارع، محاولاً العثور عليها وسط الحشود، وحلّ الذُّعر بسرعة مكان القلق.

"زينَب"، نادى. ومن ثم، وبصوت أعلى: "زينَب!".

ولمس أحدهم مِعصمه، فدار حول نفسه، ظانّاً أنها هي، ولكن ثَبُت أنه الرجل الجالس إلى الطاولة المجاورة.

"إنها هناك"، قال الرجل مشيراً بسبّابته. وتتبّع خليفة إصبع الرجل، ووجدها واقفة عند الدرابزين المحيط بحديقة السرور، محدّقةً بالأطفال في الداخل، ويداها ممسكتان بالقضيبين الحديديين كما لو أنها تنظر من خارج زنزانة السجن.

"آه، يا زينَب"، تمتم. "آه، يا عزيزتي".

فرمى بعض المال على الطاولة، وهرول في اتجاهها. كانت كتفاها تتحركان صعوداً ونزولاً، فلفّ ذراعه حولها وسحبها إلى الوراء بلطف وأبعدها عن المكان، لاعناً نفسه لأنه لم يراقبها عن كثب.

"لا بأس"، قال. "أنا هنا الآن".

فدارت حول نفسها، ودسّت وجهها في صدره، منتحبةً بطريقة لا يمكن التحكم فيها.

"أنا أفتقده، يا يوسف. آه يا الله! أنا أفتقده. لا يمكنني تحمّل الصمت".

كانت المدينة نابضة بالحياة، فهناك الكثير من الضحك، والموسيقى، وأبواق السيارات، وصخَب عربات النقل. ولكن، بدون علي، ستكون هناك على الدوام زاوية هادئة بشكل غير طبيعي في حياتهما كمنزل مهجور.

"لا بأس"، كرر وهو يضمّها إليه بإحكام، متجاهلاً نظرات المارّة، وتمتمة أولئك الذين لا يوافقون على هذا القُرب العلني بين رجل وامرأة. "سنتخطى المِحنة. أعدك يا زينَب، سنتخطى المِحنة".

ولزما مكانهما لمدة وجيزة، متعانقَين، وغافلَين عن الحشود حولهما، ومُغلِقَين على نفسَيهما في عالم الأسى الخاص بهما. وبعد ذلك، شبك يدها بيده بإحكام، واصطحبها إلى المنزل، ناسياً كلّياً حديثه مع عائلة رَيسولي.

منذ طفولتها، كانت يَقِظة للأصوات في الليل. وعندما سمعت وَقع الأقدام غير المألوف في الخارج – فقد كانت الخطوات ثقيلة جداً لتكون لتامار، وبطيئة ومتثاقلة جداً لتكون لغيدي أو لفاز – استيقظت على الفور ومدّت يدها تحت وسادتها باحثةً عن الغلوك. توقف وَقْع الخُطى، ثم عاد مجدداً، متوجهاً نحو الباب. كان باستطاعتها سماع تنفّسها – فهو منخفض، وحشيّ، كما لو أن حيواناً من نوع ما يتجوّل خِلسة – ومن ثم بدأ المِقبض يتحرك بشكل دائري. فصوّبت مسدسها، وسدّدت عبر الماسورة. حركة دائرية واحدة لاختبار القِفل، ومن ثم حركة دائرية أخرى بقوة وإلحاح كبيرين. وفي الحركة الدائرية الثالثة، حُلّ القفل وفُتح الباب شيئاً فشيئاً، وأصدرت المفصّلات غير المزيَّتة للباب المصنوع من ألواح السنديان صريراً.

"ابتعد"، هسهست، ضاغطةً بإصبعها على الزِّناد. "سأقتلك. ابتعد".

"أريد التحدث فقط".

"لا تريد التحدث أبداً! ابتعد! ابتعد!".

"لا تدفعيني على إرغامك يا راشيل".

جذبت الزِّناد، ولكنه علِق. وحاولت مرة ثانيةً، وثالثةً، وارتفع الحمض إلى حلقها، وبدأ قلبها يخفق بقوة لدرجة اعتقادها بأنه سينفجر داخل قفصها الصدري. لم يُطلق الغلوك النار. وشرعت بالرّكل، ولوّحت بذراعَيها بقوة. لقد أصبح على السرير، واندفعت يدٌ تحت الغطاء...

"آه لا، رجاءً لا...".

"ششش".

"أنت تؤلمني. رجاءً، توقف، أنت تؤلمني...".

"ولكنني دفعتُ كل ذلك المال".

"الأمر مؤلم. الأمر مؤلم".

"ششش".

"توقف! الأمر مؤلم. أنت تمزّق... آه، يا الله، رجاءً لا...".

واستيقظت منتفضة.

لقد لزمت مكانها للحظات، وكان المشهد شديد الوضوح في ذهنها لدرجة أنها انتقلت ببطء شديد من الكابوس إلى الواقع. بعد ذلك، بذلت جهداً لتتجلس، وتلمّست المصباح الموضوع بجانب السرير، وسحبت ركبتَيها في اتجاه صدرها ناشجة.

إنه الكابوس نفسه على الدوام، ليلة بعد ليلة، ولكن التفاصيل تختلف. يدخل الغرفة أحياناً، ويكون في الداخل أحياناً أخرى. تعرفه أحياناً، ويكون غريباً أحياناً أخرى. ولكن العناصر الأساسية لا تتغيّر أبداً: التنفّس، الوزن، الصدمة التي تشعرها بالغثيان. فهذه العناصر لم تتغيّر قطّ. وفي كل ليلة، تذهب إلى النوم ملتمسةً فيلماً سينمائياً مختلفاً. وفي كل ليلة، يعرض عقلها الباطن مشهد الاغتصاب نفسه الذي لا يمكن تحمّله، وتكون النجمة السينمائية فيه. فمسحت عينَيها وضمّت ساقَيها إلى بعضهما بإحكام.

وبعد مرور عدة دقائق، انحسر نشيجها شيئاً فشيئاً، وهدأ خفقان قلبها. فنظرت إلى الساعة؛ إنها الثانية وسبع عشرة دقيقة من بعد منتصف الليل. فكّرت بالذهاب إلى غرفة تامار، والتقوقع بجانبها في الملاذ الآمن، ولكنها استيقظت الآن، وتعلم أنها لن تتمكن من العودة للنوم مجدداً. فانحنت إلى الأمام، وأدارت جهاز الكمبيوتر الحضني على طاولة السرير، وشغّلته فظهرت صورة مبنى شاهق من الزجاج والفولاذ يومض تحت أشعة الشمس؛ إنه مقر قيادة شركة بارين في هيوستن. وولجت الملف الذي انتزعته من تشاد بيركس بالقوة، وشرعت بالبحث عن أمر ما، أي شيء يمكن اعتباره مُديناً. فمن شأن ذلك أن يساعد على تشويه سمعة الشركة.

القدس

"أنت تكذب".

"آسف إذا كنتُ أُعطي هذا الانطباع".

"أنت تعرف الفتاة".

"آسف. لا أعرفها".

"تعرف *مكانها*".

"مجدداً، آسف...؟".

"كان اعتقاد ريفكا كلينبرغ مماثلاً. لذلك اتصلت بك قبل ثلاثة أسابيع من مقتلها".

"يؤسفني أنني لا أتذكر تفاصيل الحديث".

"يؤسفني أنني لا أصدقك".

"آسف لذلك".

"أين الفتاة؟".

"كيف أُخبرك عن مكانها، وأنا لا أعرف مكانها".

"لماذا كذبتَ في شأن عُذر غيابك؟".

"نسيتُ أن أذكر أنني ذهبتُ في نزهة سيراً على الأقدام".

"لماذا قلتَ إنك مُذنب بمقتل ريفكا كلينبرغ؟".

"قلتُ إنني *أستحق اللوم* بسبب مقتلها. فأنا الذي طلبت فتح أبواب دار العبادة الكبرى حتى وقت متأخر من الليل. ولو لم أقُم بذلك لَما قُتلت هناك".

"لا أصدّقك".

"إنه رأيك".

"أنت تُخفي أمراً ما".

"كما تشاء".

"أنت تخشى أمراً ما".

"كلنا نخشى أمراً ما، أيها التحرّي".

"أين الفتاة؟".

"كيف أخبرك عن مكانها، وأنا لا أعرف مكانها".

"أنت تكذب".

"آسف إذا كنتُ أُعطي هذا الانطباع".

كوّر بِن - روي قبضته من شدة الإحباط. فالوضع على حاله منذ أربعين دقيقة، كما لو أنه شريط يُكرِّر ما سُجِّل عليه من دون الوصول إلى أي نتيجة. لم يتغيّر شيء في الساعات الاثنتَين والعشرين الماضية. لم يكن رئيس الأساقفة يقول

شيئاً، أو يعترف بأي شيء، وبخروج الخبراء الجنائيين خالِي الوفاض من جناحه الخاص، كانت قضية بوم تفقد تماسكها. ولهذا السبب، لان موقفه أخيراً وسمح لبن - روي بإجراء المقابلة. وحاول مرة أخيرة قبل انتهاء فترة الساعات الأربع والعشرين. وإذا كان بِن - روي مُحبَطاً، فحاله لا يقارَن بما يشعر به ضابطه المسؤول المحبوب في تلك اللحظة.

ألقى نظرة سريعة على ساعته - إنها الثامنة وأربعون دقيقة صباحاً - ووقف وجاب الزنـزانة ذهاباً وإياباً بضع مرات، ممدّداً ساقيه، ومصفّياً ذهنه. كان رئيس الأساقفة جالساً في صمت تأمّلي، وترتسم على شفتَيه ابتسامة واهنة؛ ليست ابتسامة مغرورة أو ساخرة كالابتسامات التي تحصل عليها من أشخاص حقيرين مثل غينادي كريمينكو. إنه نوع مختلف من التعبير؛ فهو هادئ، ورزين، وواثق من نفسه، وتقيّ تقريباً. إنها ابتسامة مَن يثق بأنه يفعل الصواب، ويشعر بسعادة كبيرة نتيجة العناء أيّاً تكن العواقب التي يحملها له. لقد صُعق بن - روي بهذه الابتسامة. وما يعرفه عن أمثال هذا الرجل هو أنهم لا ينهارون أبداً أيّاً تكن الضغوط التي تمارَس عليهم. فعاد إلى الطاولة، وجلس، والتقط صورة فوسغي.

"حسناً، لنُعِد الكرّة. هل تعرف هذه الفتاة؟".

"آسف. لا أعرفها".

"لماذا تكذب؟".

"أنا لا أكذب".

"ما الذي تخشاه؟".

"كما قلتُ، كلنا نخشى أمراً ما، أيها التحرّي؟".

وهكذا دوالَيك: الأسئلة نفسها، والأجوبة التملّصية نفسها لمدة ثلاثين دقيقة أخرى حتى استسلم أخيراً، مسلّماً بأنه يصدم رأسه بجدار من الآجر. وأيّاً تكن الأمور التي يعرفها رئيس الأساقفة، فقد أغلق عليها في داخله، ولن تُرغمه أي ضغوط على البَوح بها. فوقف بِن - روي، وتوجه إلى باب الزنـزانة، وقرع الباب المعدني بقوة ليفتح أحدهم الباب. فيما لزم رئيس الأساقفة مكانه، ويداه مشبوكتان أمامه، والخاتم الذي يدلّ على منصبه يتوهّج بلون أرجواني في الإضاءة الخافتة للزنـزانة، والبسمة على وجهه.

"أخبرني صديق لي في بداية هذه القضية بأن لا شيء يحدث في المجمَّع بدون معرفتك"، قال بِن – روي في أثناء انتظاره فتح الباب.

فرفع رئيس الأساقفة نظره محدّقاً به.

"كان مُخطئاً. أعتقد أن لا فكرة لديك البتّة عمّن قتل ريفكا كلينبرغ، وأنا على ثقة تامة بأنك لم ترتكب هذه الجريمة بنفسك".

"سُررتُ بسماع هذا".

"ولكنك تعرف حقاً ماذا حلّ بالفتاة"، تابع بِن – روي. "وبامتناعك عن إعطاء هذه المعلومة، فأنت لا تُعيق تحقيقاً تُجريه الشرطة فحسب، بل تسمح للقاتل بالتجوّل بحرية، وبارتكاب جريمة أخرى ربما. هل هذا يُريح ضميرك، يا صاحب الغِبطة؟".

وبالرغم من بقاء الابتسامة على شفتَيه، تحركت قُزحيّتا عينَي بتروسيان بطريقة تكاد لا تكون ملحوظة. ربما كان هناك ارتعاش شك، وربما كان هذا الارتعاش بسبب ذرّة غبار. في كلا الحالَين، زال الارتعاش على الفور.

"وفقاً لخبرتي، إن مسائل الضمير ليست سهلة أبداً كما تبدو"، قال رئيس الأساقفة. "فهي تؤدي على الدوام إلى مُعضِلات وعواقب غير مقصودة. فالرجل الذي يضحّي من أجل مواجهة نظام فاسد يترك وراءه عائلة يقوم ذلك النظام باضطهادها. الضمير سيّد لَعوب، أيها التحري. وفي هذه الحالة، ضميري في أقصى درجة من الوضوح. والآن، إذا لم يكن لديك مانع، أطلب منك منحي لحظات قليلة للتعبد".

فُتح باب الزنزانة وراء بِن – روي. فوقف للحظة مراقباً الرجل المُسنّ وهو يحني رأسه ويبدأ بالتمتمة، ومن ثم خرج من الزنزانة.

"حسناً؟".

كان الضابط المسؤول بوم ينتظره في نهاية الممرّ بوجه غاضب. فهز بِن – روي رأسه، مثيراً كلمات تعجُّب وركلاً للجدار.

الأُقصُر

عندما وصل خليفة إلى مركز الشرطة صباح الاثنين، كان هناك زائر في انتظاره في الرَّدهة؛ عمر الزَّهوي. وتبادل الصديقان عبارة صباح الخير، وتعانقا.

"هل رشا بخير؟". سأل خليفة ملوِّحاً لأحد أفراد الشرطة بإحضار الشاي لهما، ومرافقاً عمر على الدرج.

"بخير، شكراً. وزينَب؟".

"أفضل يوماً بعد يوم".

للمرة الأولى خلال تسعة أشهر، تمكن خليفة من قول ذلك من دون الشعور بأنه يتفوّه بكذبة. كان قد خشي من أن يؤدّي الحادث في الليلة السابقة - الدموع خارج حديقة السرور - إلى إصابة زوجته بانتكاسة، ولكن ثبُت أنه أدّى إلى إحداث تغيّر ما داخلها. فلقد نهضت هذا الصباح قبل الآخرين وأعدّت الفطور - وجبة لم تُعدّها منذ زمن طويل - وأصرّت على اصطحاب يوسف إلى المدرسة. كان الحزن لا يزال موجوداً؛ مظلّلاً عينَيها، ومحفوراً على وجهها، ومفتِّراً صوتها. ولكن، كان هناك أثر خفيف لعزمٍ لم يسبق لخليفة أن رآه من قبل. وعندما انطلق إلى مركز الشرطة الذي يبعد عشر دقائق سَيراً على الأقدام، شعر بأنه في حال أفضل مما كان عليه منذ زمن بعيد.

"أفترض أنها زيارة عمل وليست زيارة اجتماعية"، قال في أثناء صعودهما الدرج.

"قدرات استنتاج خارقة"، قال صديقه ساخراً، وملوِّحاً بحقيبة الأوراق، وبخارطة ملفوفة يحملها.

"أهي نتائج اختبار الماء؟".

"هي بالذات. آسف لأنني جعلتك تنتظر".

لم يكن الاعتذار ضرورياً. فمنذ أن شرع خليفة بالنظر في قصة ساموئيل بينسكر، لم تعُد قضية تسميم البئر المثيرة للفضول من أولويات خليفة. إذ لم ترِد تقارير عن حوادث إضافية مماثلة، وكان كل شيء هادئاً في مزرعة عطيّة. لقد اعتبر أن الأمر برمّته زوبعة في كأس شاي.

"ستقول لي إنها قد فسُدت بشكل طبيعي، أليس كذلك؟" قال.

"لا شيء من هذا القبيل"، أجاب عمر. "الآبار مسمَّمة بلا رَيب. الآبار السبع كلها".

"الثلاث"، صحّح خليفة.

"لا، بل السبع. فلقد أخذت بعض العيّنات من المنطقة، وإضافةً إلى الآبار الثلاث التي حدَّدتَها، تبيّن لي أن أربع آبار أخرى ملوَّثة أيضاً".

فتوقف خليفة. فجأةً، تراجعت قضية متاهة أوزيريس من ذهنه كأولوية.

"هل أنت متأكد من ذلك؟".

"تماماً. وهذه الآبار هي التي تمّ الإبلاغ عنها، وقد يكون هناك المزيد منها، لا بل ملء بئر منها. لا أقصد التورية هنا. كما تعلم - بئر، *بئر*...".

وتجاهل خليفة الدُّعابة.

"هل الآبار كلها قبطية؟".

"أربع منها فقط".

"وفقاً لحساباتي، تبقى هناك ثلاث".

"أنت متنبّه كالعادة، يا *صاحبي*".

"وماذا أيضاً؟".

"الآبار الثلاث يملكها مسلمون. إحداها حُفرة للرّي تابعة للبدو قرب بير الجندي، والأخرى موجودة في أرض زراعية صغيرة قرب البَرّامية، والثالثة... لا أذكر مكانها بالتحديد؛ لديّ التفاصيل هنا".

ورفع حقيبته. كان عقل خليفة يحاول التكيّف مع صورة تُظهر كما يبدو شيئاً مختلفاً جداً عما كان قد تخيَّله من قبل.

"الأمر مثير للاهتمام"، قال عمر، "مثير للاهتمام جداً. الأمر هام، في الواقع. أعتقد أنه يُفترض بنا التحدث. هلاّ...".

وأشار إلى أعلى الدرج، فتقدّمه خليفة إلى الطابق الرابع، وعبرا الممر إلى مكتبه حيث وجد إبراهيم جالساً وقدماه على الطاولة، ماضغاً التورشي، ومتبادلاً أطراف الحديث عبر الهاتف. كانت الغرفة المجاورة شاغرة، فدخلاها.

"أعددتُ موجَزاً عن الوضع"، قال عمر بعد إغلاق الباب. وفتح الحقيبة وسلّمه مجموعة من الأوراق الموضَّبة بدون عناية؛ "تقرير تمهيدي عن المفارقات الجيولوجية-المائية في الصحراء الشرقية" كما كتب على الورقة الأولى. "ولكن، ربما يكون من الأسهل أن أخبرك عن الأمر برمّته. إذا لم يكن لديك مانع، أمّن لي مكاناً هناك".

وشرع بفتح الخارطة في أثناء قيامِ خليفة بتأمين مكان لها على طاولــة مجـــاورة، وساعد صديقه على بسطها وتثبيت زواياها بكوب، ومنفضة، وأداة لإحداث الثقوب، والكتيّب الكامل لعمل الشرطة المصرية؛ وهي المرة الأولى منذ عشرين عاماً التي يجـــد فيها خليفة طريقة لاستخدام الكتيّب. فبخلاف الخارطة المعلَّقة على الجدار في مكتـــب خليفة، والتي تُظهر كل مصر، تغطّي هذه الخارطة جزءاً صغيراً من البلد فقط؛ مثلّـــث الصحراء الذي يحدّه النيل من الغرب، والبحر الأحمر من الشرق، والطـــريقَين 88 و99 من الشمال والجنوب. ووُضعت سبع علامات صغيرة بحِبر أحمر على بعض التضاريس من وديان، ودروب، وجبال، وخطوط كفافية. إنها الآبار المسمَّمة علـــى الأرجـــح. وأشعل خليفة سيجارة كليوباترا، وانحنى الرجلان فوق الطاولة.

"سأحاول إيجاز الأمر وعدم إشعارك بالملَل من خلال إلقاء محاضرة عليك..." استهلّ عمر الكلام.

"الحمد لله".

"... ولكن، قبل أن أتطرّق إلى الآبار...".

وأشار إلى العلامات السبع.

"... يجدر بـــي ربما وضع الأمور في سياقها لتفهم على الأقل ما الذي أتكلّم عنه".

وتناول خليفة مجّة من سيجارته وأومأ لصديقه بالمتابعة.

"إذاً، الصحراء الشرقية الوسطى". وضرب عمر براحة يـــده علـــى وســـط الخريطة. "على الصعيد الجيولوجي، تقع هذه المنطقة على حافة ما يُعرَف بمكمَـــن *نوبيان المائي المكوَّن من حجر رَملي*؛ وهو في الأساس صفحة تحت الأرض واسعة من الحجر الرملي ينفذ الماء إلى داخلها جزئياً، وتقع بين طبقتَين من الصخور التي لا ينفذ الماء إلى داخلها: بازَلت، غرانيت، صَلصال، ذلك النوع من الأمور. نشير إليه *بالمكمن المائي المحصور*، أي إن الماء محتجَز تحت الأرض".

تناول خليفة مجّة أخرى. فأيّاً تكن المعلومات التي يحصل عليها خارج قضـــية بِن - روي تبقى بالنسبة إليه ذات طابع تثقيفي.

"والمياه بحد ذاتها في قسمها الأكبر مياه أُحفورية لا يمكـــن تعويضـــها بعـــد نفادها"، تابع صديقه. "أي إن هذه المياه هي تلك التي تسرّبت إلى داخل الصخور

طوال عشرات، لا بل مئات آلاف السنوات، وما زالت موجودة هناك مذاك الحين. هناك مقدار محدود من إمكانية تسرّب الماء بسبب التغيّرات التي تشهدها جاذبية الأرض، والتباينات في الضغط الجوي. لن أتعمّق في تفاصيل الفيزياء...".

"الحمد لله"، كرر خليفة الذي بدأ يفقد قدرته على التركيز.

"... ولكن الماء راكد فعلياً. إن الماء لا يتحرك، ولا يذهب إلى أي مكان، ولا يمكن تعويض الكميات التي تُنفَق منه. إن المياه تقبع هناك فحسب في مَسامّ الحجر الرَّملي وداخل الطبقات التي لا ينفذ الماء إليها. تخيّل إسفنجة موضوعة داخل حاوية إسمنتية لا ينفذ الماء إلى داخلها".

وعبر الباب، كان باستطاعة خليفة سماع إبراهيم فتحي وهو يتحدث عبر الهاتف، عِلماً أن مضغ التورشي بقي خارج مدى السمع، والحمد لله. إنه صوت طالما وجده خليفة مزعجاً، وكان يبذل قُصارى جهده للتركيز على ما يُقال.

"عملياً، كل بئر في الصحراء الشرقية"، تابع عمر، "والصحراء الغربية أيضاً تستمد مياهها من هذا النظام المائي الراكد. ومن الواضح أن عمق الآبار يتراوح بين مكان وآخر وفقاً لقُرب المَكمَن المائي من وجه الأرض – بين عشرين متراً وكيلومترَين – ولكن المبدأ الأساسي هو نفسه على الدوام. وباستخدام مشابَهة الإسفنجة، يشبه الأمر إقحام شاروقة ورقية عبر الحاوية الإسمنتية، ودسّها في الإسفنجة، وامتصاص الماء".

وتوقف قليلاً ليتمكن خليفة من استيعاب الأمر، ومن ثم:

"ولكن هناك استثناءات نادرة، لا بل مثيرة للاهتمام".

لقد لفت أمر ما في نبرة عمر انتباه خليفة.

"ماذا تعني بكلمة استثناءات؟".

"حسناً، تكون جيولوجيا نظام *المَكمَن المائي* في بعض الأماكن أكثر غموضاً". شرح عمر. "إذ تتحطم جدران الصخور التي لا تسمح بنفاذ الماء، ويتفتت الحجر الرملي ويلتصق بالحجر الجيري المتشقق إلى حد كبير. لن أتسبّب لك بالشعور بالملل بكل تفاصيل الجيولوجيا المائية. كل ما تحتاج إلى معرفته في الواقع هو وجود شقوق متعرّجة في المَكمَن المائي؛ إنها تصدّعات في المقام الأول. ولا يتعدّى طولها في معظم الوقت مئات قليلة من الأمتار، ولكنها تمتد مسافة

كيلومترات عدة، لا بل عشرات الكيلومترات، من حين لآخر، كما لو أنها أنابيب تحت الأرض".

وقُرع الباب، ودخل الشرطي الذي كان في الطابق السُّفلي، حاملاً الشاي الذي طلبه خليفة. فانتظره عمر حتى وضع صينيّته وغادر، ومن ثم تابع حديثه.

"تسمح المساحة الإضافية في هذه الشقوق، كما يبدو، بحركة متزايدة للماء"، قال مُضيفاً ثلاث ملاعق من السّكر إلى كوبه، ومحرّكاً إيّاها. "لا نتحدث هنا عن أنهار تحت أرضية متدفّقة أو ما شابه، ولكن المياه تجري ببطء مسافة عشرات قليلة من الأمتار في العام، بخلاف حالها في معظم أنحاء المَكمَن المائي. وإذا كان الشق في درجة انحدار شديدة، أو إذا كانت المياه المترسِّبة بفعل السيول تستطيع اختراق الشق، يمكن لحركة المياه أن تكون أكبر بشكل ملحوظ. لقد أجروا اختباراً في العام الماضي في جبل حمّاتا حيث أدخلوا صِباغاً عبر أحد الشقوق قبل تدفّق أحد السيول بوقت قليل، وحُمل مسافة خمسة كيلومترات في أشهر عدة".

"رائع"، تمتم خليفة، متسائلاً عما إذا كان سيجني أي فائدة من هذا السَّرد. فعرف عمر ما يفكّر فيه ورفع إصبعه، مشيراً إلى أنه يُفترض به التحلّي بالصبر، وأنه بات قريباً من الفكرة الرئيسة.

"لم يبدأ الناس بالبحث عن هذه الشقوق، وبالتفصيل، إلا مؤخراً"، قال. "لأننا لم نكن نمتلك التكنولوجيا الضرورية بصفة رئيسة. ولكن، هناك الآن فريق في جامعة حِلوان يستخدم جهاز تحسُّس بُعدي فضائي لوضع خرائط للشقوق، أو على الأقل للشقوق الرئيسة. ولحسن الحظ، إنه يقوم بمسح لإحدى المناطق التي تثير اهتمامنا".

ووجّه للخارطة ضربة أخرى براحة يده.

"لقد دفعني حَدْسي للاتصال بالفريق، وقمت بتزويده بإحداثيات الآبار المسمَّمة. وما الذي وجدتُه باعتقادك؟".

"إنها موجودة كلها في شقوق؟" جازف خليفة.

"بالضبط. صودف أن الآبار السبع حُفرت في شقوق ناقلة للماء، والمياه التي يُخرجونها متحركة. أَبقِ هذه الفكرة في رأسك...".

وربّت على رأس خليفة.

"... والآن، انظر إلى توزّع الآبار".

وأشار إلى العلامات السبع مرة أخرى.

"للوهلة الأولى، يبدو كل شيء عشوائياً تماماً، أليس كذلك؟ آبار مبعثَرة من دون أي شكل نَمَطي واضح يربط بينها. باستثناء تاريخ تسممها؛ ولكن شكلاً نَمَطياً ظهر بالفعل. وقع أول حادث هنا في دير الزيتون".

ولمس العلامة الأكثر قرباً من وسط الخريطة، والتي تشير إلى الدير الذي كانت دميانا بركات قد أخبرت خليفة عنه.

"ووقع آخر حادث هنا...".

ولمس العلامة التي تشير إلى موقع مزرعة عطية.

"ومن هنا...".

دير الزيتون.

"... إلى هنا...".

مزرعة عطية.

"... تشكّل حالات التسمّم سلسلة متواصلة وواضحة من حيث التاريخ. بشكل أساسي، كلما ابتعدت هذه الحالات عن المرتفعات الوسطى تأخّر تاريخ التسمُّم".

وبدأ الرماد يتكوّن على طرف سيجارة خليفة، ولكنه لم يلاحظ ذلك. كان الخَدَر قد عاد إلى عموده الفِقري.

"الآن، هناك طرائق مختلفة لوضع تفسير منطقي لهذا الشكل النَّمَطي"، تابع عمر. "ربما يكون مصادَفة، وهو أمر يمكن تصديقه. وربما قام أشخاص، ولأسباب لا يعرفها أحد سواهم، بالتخطيط لشنّ حملة لتسميم الآبار بدءاً بالأكثر بُعداً. بالنسبة إليّ، يتمثّل التفسير الواضح - التفسير الحقيقي الوحيد - بأن الآبار قد سُمِّمت من فوق الأرض وليس من تحتها. وأيّاً يكن سبب هذا التسمّم، فإنه يدخل المَكمَن المائي هنا...".

ونقر ببُرجُمةِ إصبعه على وسط الخارطة حيث السطوح المتوّجة المحيطة بجبل الشّلول.

"... وينتقل في اتجاه الخارج والداخل على امتداد الشقوق الناقلة للماء".

وانقصف الرماد عند طرف سيجارة خليفة وانهمر على الخارطة، فمسحه. وكان الخَدَر الذي بدأ يشعر به يزداد قوة أكثر فأكثر.

"ويوصلنا كل ذلك إلى تحليل الماء"، قال عمر مادّاً يده وملتقطاً تقريره الذي وضعه خليفه على الطاولة المجاورة. "لقد تطلّب الأمر القليل من الوقت، وكان عليّ إجراء اتصالات هاتفية طلَباً لبعض الخدَمات، ولكنني تمكّنت من الحصول على عيّنات من الآبار السبع، ووصلت النتائج يوم أمس. كما كنت أتوقع، كل الآبار مسمَّمة وقد أثار ذلك دهشتي".

وفتح التقرير، وقلّب صفحاته، وشرع بالقراءة:

"مستويات ضئيلة للزِّئبق. مستويات مرتفعة للسيلينيوم، والفلوريد، والكلوريد. مستويات تفوق المعدَّل من...".

ونظر إلى خليفة.

"... الزَّرنيخ".

فحملق خليفة.

"أهناك من يرمي الزَّرنيخ في الماء؟".

"هكذا يبدو الأمر بالتأكيد. ولكن الشيء المثير للاهتمام ليس الزَّرنيخ بحد ذاته الممزوج بتلك العناصر الأخرى. فهذا الأمر ليس من اختصاصي، ولكنني تحدثت إلى أشخاص أعرفهم، وأجمع الجميع على أننا نواجه مادة مترسِّبة ملوِّثة للهواء ناجمة عن تعرّض الكِبريت لحرارة شديدة".

وتحوّلت الحملقة إلى نظرة غاضبة مُربَكة.

"ماذا يعني ذلك بحق الجحيم؟".

"عليّ طرح السؤال نفسه"، وضحك عمر. "إنها مرحلة من مراحل فصل المعدن الخام عن الصخور. إنها تُستخدَم في أشكال مختلفة من استخراج المعادن: نحاس أحمر، زِنك، رصاص. ولكن، في هذه الحالة، تشير المستويات العالية للزَّرنيخ إلى مخلَّفات...".

"استخراج الذهب".

أتمّ خليفة الجملة. لقد ذهب الخَدَر وحلّ مكانه خَفْق نابض في عُمق معِدته. وحدّق بالخارطة، وإلى مرتفعات الصحراء الوسطى، ومن ثم أطفأ سيجارته في المِنفضة الموضوعة على الزاوية الجنوبية الشرقية للخارطة.

"اعذُرني للحظات، يا عمر"، قال. "عليّ إجراء اتصالَين هاتفيَّين".

في منتصف الفترة الصباحية، أُعيد رئيس الأساقفة بتروسيان إلى منزله في المجمَّع الأرمني حيث وُضع قَيد الإقامة الجَبرية. وتفرّق الحشد في شارع عمر بن الخطاب، ووضّب الصحافيون معداهم، وتلقى بوم انتقاداً لاذعاً من الرئيس غال بسبب طريقته في إدارة الأمر برمّته. وعاد بِن - روي وزيسكي إلى مكتبهما، وكانا قد جلسا للتوّ للتحدث عن خطوهما التالية عندما رنّ هاتفاهما معاً. وفي الوقت نفسه، عبر زيسكي المكتب وردّ على خطّه الهاتفي الأرضي، في حين دار بِن - روي وردّ على هاتفه المحمول. إنه خليفة، و لم يكن هناك تبادل لأي ملاحظات هازلة.

"أعتقد أننا ربما نكون قد أمسكنا بطرف خيط".

وزوّد بِن - روي بالمستجدات: بينسكر، المتاهة، إمكانية بقاء المنجم قيد العمل، الآبار المسمَّمة. دوّن بِن - روي الملاحظات الغريبة، ولكنه اكتفى بالإصغاء في معظم مراحل الحديث، وبدت على وجهه أمارات اهتمام بالغ، ومن ثم اندهاش، وبعد ذلك عدم تصديق لدى سماعه بموضوع الآبار.

"لا بد أن تكون مصادَفة"، قال عندما أنهى خليفة كلامه. "قضيّتي، قضيّتك، القضية نفسها! لا، لا، لا. لا أصدّق ذلك. إنها شديدة الإتقان".

"هذا ما فكرتُ فيه"، قال خليفة. "أعني، إن منجم بينسكر ليس المنجم الوحيد في الصحراء الشرقية. ولكن، عندما تابعتُ الأمر مع وزارة النفط والموارد المعدنية، قالوا لي إنه لا وجود لأي مناجم ذهب ناشطة قرب تلك المنطقة. فالمناجم الأكثر قُرباً موجودة في تلة السُّكري وحماش قرب مَرسا علَم، أي على بُعد مئتَي كيلومتر".

وكان باستطاعة بِن - روي سماع صوت زيسكي في الجانب الآخر للغرفة؛ إنه يقول شيئاً ما عن حافلة وعن توقف غير مُدرَج في الجدول. كان مذهولاً ممّا يقوله خليفة لدرجة أنه لم يتمكن من الانتباه إلى ما يقوله زيسكي.

"ما زلت لا أصدّق ذلك"، قال. "لا بد من وجود تفسير آخر".

"ما الذي تستنتجه إذاً مما أخبرتُك إياه"، قال خليفة. "عندما كنت أتحدث عبر الهاتف إلى المرأة في الوزارة، طلبتُ منها التحقق مما إذا كان هناك أي نشاط تعديني

في تلك المنطقة. لا وجود لأي نشاط مماثل، وعلى الأقل ليس في الأزمنة الحديثة. وما تمكنت من العثور عليه هو امتياز للتنقيب لصالح شركة تدعى بروسبكتو إدجيبت سقط بمرور الوقت منذ خمسة عشر عاماً. لقد قضت ثمانية عشر شهراً في مسح تلك الناحية من الصحراء بالتحديد".

"إذاً؟".

"بروسبِكتو شركة تابعة لبارين كوربوريشن".

عضّ بِن - روي على شفته. وأمامه، كان دوف زيسكي قد وقف وتوجّه إلى خارطة إسرائيل المعلّقة على الجدار.

"إذاً، ما الذي توحي به؟" سأل. "هل تقصد أن بارين قد عثرت على هذا المنجم، وأنها تقوم باستثماره سرّاً؟".

"أنا لا أوحي بذلك. أنا أعرض الوقائع فقط، عِلماً أنها لا تؤدي إلى هذه النتيجة. رُخَص الامتياز ليست بَخْسة الثمن بالرغم من كل شيء. تـوفّر بـارين الكثير من المال إذا استثمرت المنجم بطريقة غير قانونية. وربما اكتشفت صحافيتك ما يجري وهدّدت بافتضاح الأمر...".

ناداه زيسكي، ولكن بِن - روي رفع يده في إشارة إلى أنه مشغول. *أمر مضحك*، فكر في سره، قبل أسبوع، طلب من خليفة جمع بعض المعلومات على هامش قضيته، وها هو المصري يحلّها له كما يبدو. وأعاد السيناريو في عقله، محاولاً مطابقته مع كل أطراف الخيوط الأخرى التي حصلوا عليها. لم يكن يملك أي فكرة عما إذا كان بالإمكان استثمار منجم ذهب سرّاً، عِلماً أن الموقع بعيد جداً وفقاً لما قاله خليفة، ولذلك قد يكون ذلك ممكناً. وضع هذه المعلومة جانباً في الوقت الراهن؛ فالكثير من أجزاء الأُحجية يلائم ما توصّل إليه حتى الآن: مقالات الصحف، بينسكر، بارين، مصر، ونِمِسيس أجندا أيضاً؛ إذا كانت كلينبرغ تتقرّب من أفراد تلك المجموعة أملاً في الحصول على معلومات عن المنجم كانوا قد حصلوا عليها في أثناء تسللهم إلى ملفات الكمبيوتر، أو إذا كانت تزوّدهم بمعلومات ربما؛ فالأمر ممكن في كلا الحالَين. وتبقى مسألة فوسغي والاتّجار بالجنس. كيف يرتبط كل ذلك بمنجم ذهب غير قانوني وسط الصحراء المصرية؟ لا يوجد أي رابط؛ أو على الأقل ليس بأي طريقة يستطيع فهمها على الفور. وكالسابق، شعر بأنه نقل

السجادة إلى أحد جوانب الغرفة، كاشفاً عن فجوة قبيحة المظهر في الجانب الآخر. لم يتمكن بعد من تغطية الأرض كلها.

"بِن - روي؟".

وتردد صدى صوت خليفة عبر الخط.

"آسف"، قال. "كنت أفكّر في كل ما توصّلنا إليه حتى الآن. اسمع، أَدين لك بالكثير لأجل ما قدّمته لي، يا صديقي. سنتابع هذا الأمر وأُعلمك...".

وقبل أن يتمكن من القول "بآخر المستجدات"، قاطعه خليفة.

"سأعمل على توفير المزيد من المعلومات"، قال. "ربما يكون المكان نائياً، ولكنْ لا يمكنني تصديق أنهم يستثمرون منجماً هناك من دون معرفة أحد به. لا بد من أن يكون أحدهم قد رأى أو سمع شيئاً".

فقال بِن - روي للمصري إنه قد أدّى له خدمة كبيرة، لا بل أكثر، ولكن خليفة أصرّ على ذلك، ووافق بِن - روي نزولاً عند إصرار خليفة وعدم تمكّنه من ثَنيه عن رأيه. ربما يساعده ذلك أيضاً بطريقة ما كما ساعدته قضية هانا شْليغِل؛ فبالرغم من كل شيء، هذه القضية هي السبب في إشراكه خليفة في أعمال الاستقصاء.

واتفقا على البقاء على تواصل، وأقفل خليفة الخط. فجلس بِن - روي للحظات، ناقراً على كرسيّه ومتحرّكاً بشكل دائري، ومقلّباً الأمور في رأسه. ووقف بعد ذلك، وتوجّه إلى طاولة زيسكي.

"آسف لذلك، يا دوف. هناك بعض التطورات المثيرة للاهتمام في مصر. ماذا لديك؟".

"عاد السائق"، قال زيسكي.

كان عقل بِن - روي لا يزال مشغولاً جزئياً بالحديث الذي أجراه مع خليفة، وتطلّب منه الأمر بضع ثوانٍ لفهم ما يعنيه. بالطبع، إنها التذكرة الملوّثة بالبَيض التي عثر عليها داخل وعاء القُمامة في شقة كلينبرغ؛ تذكرة الرحلة إلى ميتزبي رامون. كان سائق الحافلة خارج المنطقة في يوم العُطلة.

"وماذا بعد؟".

"أعتقد أننا ربما نكون قد أمسكنا بطرف خيط".

إنها المرة الثانية التي يستخدم فيها شخص ما العبارة نفسها في غضون خمس عشرة دقيقة. كانت الأمور في تحسّن.

"تابع".

"تعرّف الرجل إلى صورة كلينبرغ على الفور، وقال إنها استقلّت حافلته مرات قليلة".

"ماذا يعني بقوله *مرات قليلة*؟".

"ثماني مرات أو تسع مرات في السنوات الثلاث الأخيرة. كانت تقطع على الدوام تذكرة سفر ذهاباً وإياباً، فيقلّها إلى مقصَدها، ومن ثم يُعيدها في رحلة لاحقة".

"أفترض أنه لا يمكننا أن نأمل أن يكون على عِلم بما كانت تفعله في ميتزبي رامون".

"هذا هو الأمر المثير للاهتمام. لم تقصد قطّ ميتزبي رامون؛ وربما اقتربت منها على الأقلّ. كانت تترجّل على بُعد عشرة كيلومترات من البلدة، وتستقلّ الحافلة نفسها في رحلة العودة من المكان الذي ترجّلت فيه".

ووقف، ولوّح لبِن - روي للاقتراب من الخارطة المعلّقة على الجدار.

"هنا"، قال واضعاً إصبعه على الطريق 40 الممتدة بين الشمال والجنوب. إنه مكان صحراوي مُقفِر. وتحت إصبعه تقاطعٌ مع طريق ثانوية صغيرة متّجهة غرباً في اتجاه محميّة هار ها-النقب الطبيعية، وصولاً إلى... الحدود المصرية. فحدّق بِن - روي، وهو يشعر بالدواليب المسنّنة تدور في رأسه. وبعد ذلك، مدّ يده وشرع بجذب الخارطة من سِنادات بلو تاك.

"أسدِني خدمة يا دوف، لا بل خدمتَين في الواقع. اجمع أكبر قدر من المعلومات عن شركة تدعى بروسبكتو إدجيبت. إنها شركة تابعة لبارين، قامت بعملية مسح في الصحراء المصرية منذ مدة. واتصل بمكتب بارين في تل-أبيب. قل إننا نُجري تحقيقاً حول جريمة، ونريد التحدث إلى من يمكنه تزويدنا بمعلومات عن أعمال الشركة في مصر؛ شخص عالي الرُّتبة وليس موظفاً مكتبياً. حاول الخروج بشيء ما هذا اليوم أو صباح غد. لقد حان الوقت لمعرفة ما لدى هؤلاء الأشخاص ليقولوه عن أنفسهم".

"ماذا ستفعل؟" سأل زيسكي.

"أنا؟". وأنــزل بِن – روي الخارطة وطواها. "سأقوم بنــزهة ممتعة وصغيرة بالسيارة في أنحاء البلد".

هيوستن

كان وليام بارين مستيقظاً تماماً في الثانية صباحاً بتوقيت هيوستن. لم يكــن استيقاظاً لأجل تعاطي الكوكايين، فقد وضع كل ذلك وراءه. لا، إنــه اســتيقاظ صافي الذهن، استيقاظ زاخر بالنشاط كذلك الذي اعتاده في معظم ليالي هذه الأيام مع شروعه بوضع خططه. وحدّق إلى الخارج عبر المشهد الليلي لهيوستن بأبراجها المتلألئة وخطوط حركة المرور البعيدة، كما لو أنه مشهد مأخوذ من بلايد رانِــر، مفكراً في الاختيار بين أمرين: تكبُّد عناء التوجه إلى حوض السباحة الموجود على السطح للسباحة، أو النــزول إلى جناح القلب لإحــراق بعــض الطاقــة علــى طاحونات الدَّوس. وعِوضاً عن ذلك، نهض من السرير، ووجّه دَفْقاً من ضــربات الكاراتيه نحو النافذة، ثم دخل المكتب وجلس إلى طاولته.

في وقت سابق، كان قد اصطحب بارِبَرة إلى العشاء في النادي الريفــي. كان يفكر أكثر فأكثر بأنها المرأة المناسبة له. إنها مُملّة وغير مغامِرة، ولكنــها تبدو جيدة، وتعرف كيف تتصرف في ظرف اجتماعي، وهي متحــدّرة مــن نسَب بروتستانتي أنكلو-ساكسوني أصيل؛ إنها الزوجة التي يحتاج إليها لــدى ترؤسه إحدى الشركات متعددة الجنسيات الرائــدة في البلــد. سيُخضــعها للفحص، ويتحقق من خصوبتها وقدرتها على المحافظة على استمرارية السلالة، ومن ثم سيطلب يدها في العام التالي بعد استقرار الأمور في الشركة، أو ربما بعد عامَين. عليه التعاطي مع القرارات وفقاً لأولويّتها على غرار كــل القــرارات المرتبطة بالأعمال.

وأعاد ظَهره إلى الوراء، وأسند قدمَيه على زاوية الطاولة المغطاة بأعمــال مكتبية؛ ملفات، تقارير، برامج كمبيوترية لمعالجة الحسابات، تحاليل؛ وحــش بارين الضخم الذي يكشف عن أجزائه المكوِّنة. التقط ورقة بشكل عشوائي –

أرقام الأرباح المتوقعة من شركة الوقود الحيوي الكندية - وأفلتها من يده لأنه لم يكن في مزاج ملائم للتدقيق في الأرقام. وعلى شاشة الكمبيوتر كانت كاميرا الفيديو لا تزال تعرض مشاهد عبر شبكة الإنترنت، ولكنه لم يكن في مزاج ملائم لذلك أيضاً. فمرّر يده على شعره، وألقى نظرة سريعة على ساعته الرولِكس، ورفع سماعة الهاتف وطلب الرقم. بعد خمس رنّات، تمّت الإجابة على الاتصال.

"هل أيقظتُكَ؟" سأل.

"أجل، ولكن لا مشكلة في ذلك". أكّد له صوت ناعم.

"هل أنتَ في مِزاج ملائم للتحدث؟".

"تماماً".

"أردت التحقق مما إذا كنتَ قد فكرتَ بالأمر الذي ناقشناه".

"أجل"، قال الصوت، كان هناك المزيد من التفكير، المزيد والمزيد من التفكير للوصول إلى قرار. كان وليام مُحِقاً. لا بد من القيام بذلك لتأمين المستقبل، وضمان الاستمرارية.

فابتسم وليام.

"كنت أعرف أنك ستفهم. أنتَ فرد من العائلة بالرغم من كل شيء. علينا مساعدة بعضنا".

"بالفعل".

"كنت أفكّر في أنه يُفترض بنا القيام بذلك الأمر في مصر، وإبقاء كل شيء في متناول اليد من دون طرح الكثير من الأسئلة".

"فكرة جيدة".

"هل نحن مستمرّان إذاً؟".

"نحن مستمرّان".

قال وليام إنه سيبقى على تواصل، وطلب من الشخص على الجانب الآخر من الخط التنبّه، وأنهى المكالمة. وللحظات، جلس وهو ينقر الطاولة بأصابعه. ووقف بعد ذلك، وعاد إلى غرفة نومه حيث المنشفة والسِّروال الداخلي القصير. قد يسبح بالرغم من كل شيء.

إسرائيل

تقع ميتزبي رامون على بُعد 160 كيلومتراً جنوب القدس، وتفصل بين المنطقتَين ثلاث ساعات بالسيارة عندما تكون حركة المرور كثيفة، وعندما يقود السائق ضمن حدود السرعة.

لقد قطع بن - روي المسافة في ساعتَين فقط.

ففي الكيلومترات الثمانين الأولى، أطلق صفّارة الإنذار في سيارته مما سهّل عليه المرور في الطرقات الأكثر ازدحاماً في بئر السبع. وعندما خرج من المدينة إلى النقب الصخرية الفارغة، أوقف صفارة الإنذار وانطلق بأقصى سرعة. وفي منتصف النهار، وصل إلى التقاطع حيث كان سائق الحافلة يُنزِل ريفكا كلينبرغ ويُقلّها. فتوقف، وخرج من السيارة، ومدّد ساقَيه، وحدّق حوله.

كان المكان قد بدا له موحِشاً على خارطة المكتب، وبدا له في تلك اللحظة أكثر وحشةً. فهناك الطريق 40 الفارغ المكوَّن من مسربَين، والفرع الثانوي للطريق المتوجّه غرباً، وثلاث لافتات معدنية: مؤشّر مسافة يُظهر وقوع ميتزبي رامون على بُعد 10 كيلومترات، وسياج خشبي إعلاني سياحي خاص بمحمية هار هانقب الطبيعية، وتحذير من الجِمال الشاردة. وعدا ذلك، لا شيء. فالشمس متّقدة، والصحراء ممتدة، وعلى بُعد خمسة أمتار تنبعث من ماعزة نافقة رائحة تعفّن. كان الأزيز غير المنتظم للذباب هو الصوتَ الوحيد في ذلك السكون المهيمن.

تفرّس بالمنظر الطبيعي غير واثق تماماً مما يأمل في تحقيقه من اجتيازه كل هذه المسافة إلى هنا، وشاعراً بأن قيامه بكشف النقاب عما كانت كلينبرغ تقوم به أمر محتمَل بسبب وجوده في المكان شخصياً أكثر من محاولته متابعة الأمر من مكتبه. بعد ذلك، استدار حول السيارة، وفتح صندوق التويوتا، وأخرج مِنظاراً ثنائياً، وتسلّق غطاء محرك السيارة، وأمعن النظر مجدداً، والمعدن يصرف تحت حذاء التيمبرلاند الخاص به في أثناء دورانه حول نفسه 360 درجة. لقد وفّر له المِنظار مشهداً أكثر تفصيلاً مقارَنةً مع ما كان يراه بالعين المجرَّدة. فقد رأى الصخور، والغبار، والتلال، والأخاديد، وكُتلة من أزهار عصا الراعي غير العادية المُهمَلة. لم يكن هناك أي أثر لأيّ بشريّ.

ألقى نظرة حوله مرتَين على البانوراما الصحراوي، وركّز بعد ذلك على منحنى الطريق المتجه غرباً. إنه الأمر الذي لفت انتباهه على الخارطة عندما أشار زيسكي إلى هذه النقطة في المركز، وما زال يثير اهتمامه بسبب ترجّل كلينبرغ في هذه النقطة بالتحديد. هل كانت تقابل شخصاً ما تسلّل من مصر عبر الحدود؟ هل كانت تعتزم التسلّل إلى *داخل* مصر؟ أم إنها ترجّلت هنا لسبب مختلف كلّياً، وقُرب المكان من الحدود مَحض صدفة؟ أيّاً يكن الوضع، فالأمر مرتبط بنِمِسيس أجندا بالتأكيد. فقبل ثلاث سنوات، سلكت هذا الطريق للقاء صلة وصل مع أجندا. وانطلاقاً مما قاله السائق، لقد دأبت على الترجّل في هذا المكان والعودة بواسطة الحافلة.

"ولكن، لماذا هذا المكان بالذات؟" تمتم. "لماذا هنا؟ ماذا كنتِ تفعلين؟".

تتبّع خط الطريق انطلاقاً من نقطة التقائه بالطريق 40 ووصولاً إلى نقطة اختفائه وراء حَيد صخري بعيد، متمعّناً في النظر عبر المنظار جيئةً وذهاباً كما لو أن الطريق المعبَّد سيزوّده بالإجابات التي يبحث عنها. ولكن أيّاً من الإجابات لم يتوافر، وبعد عشر دقائق استسلم، وقفز عن غطاء محرك السيارة وأعاد المِنظار الثنائي إلى الصندوق. جلس على مقعد السائق، وأخرج قنينة ماء وعلبة دوريتوس كان قد اشتراها من محطة الوقود في أثناء خروجه من القدس. تناول جرعة من الماء، وفتح الدوريتوس وشرع بالمَضغ. كان قد تناول ربع محتويات العلبة عندما سمع زمجرة ضعيفة لعربة مقترِبة، وهي أول عربة تمر من هناك منذ توقّفه. فوضع الدوريتوس والماء على مقعد الراكب، والتقط صورة ريفكا كلينبرغ التي اصطحبها معه وخرج إلى الطريق.

كانت العربة صهريجاً ولا تزال بعيدة، وهي متوجهة إلى الجنوب من بئر السبع، وخطها الكَفافي يهتزّ وينتفخ بسبب التشوّش البصري الذي يُحدثه الحر. لقد راقبها لمدة دقيقة تقريباً، وكان دنوّها بطيئاً على نحو مُمِلّ. وعندما أصبحت على بُعد خمسمئة متر، عاد إلى داخل السيارة، وأدار المفتاح، ووضع صفارة إنذار الشرطة الوامضة على سطح السيارة. وسُمع صوت هسيس بعيد للمكابح، ثم أبطأ الصهريج وتوقف بعد أن اجتاز عشرة أمتار. فسار بِن - روي في اتجاهه وأومأ للسائق لإنزال زجاج نافذته.

"لقد تمّت معاينتي قبل ثلاثة أسابيع"، قال الرجل والسيجارة ترتفع وتنخفض في زاوية فمه. "لديّ الأوراق هنا إذا كنت تريد التحقق منها".

فقال له بِن – روي إن ذلك لن يكون ضرورياً.

"هل تسلك هذا الطريق في معظم الأحيان؟" سأل.

"مرتَين في الأسبوع. من أَشدود إلى ميتزبـــي، وأعود عبر بيروكهام وديمونا".

"هل سبق لك أن رأيت هـــذه المـــرأة؟". وســـلّمه بِـــن – روي الصـــورة الفوتوغرافية. فتفحّصها السائق، ومن ثم أعادها له هازّاً رأسه.

"كانت تقف هنا كما لو أنها تنتظر شخصاً ما".

" لم أرَها من قَبل مطلقاً".

"هل أنت متأكد؟".

"أنا متأكد".

"حسناً، تابع سيرك".

وعاد بِن – روي إلى الوراء وحرّك إبهامه في اتجاه الطريق السريع.

"وأطفئ السيجارة!". نادى في أثناء شروع السائق بالانطلاق. "أنت تقـــود صِهريج نفط لعيناً!".

فتأفّف الرجل، ونقر السيجارة في اتجاه موقف الطوارئ، وانطلـــق بســـرعة. وعاد بِن – روي إلى سيارته وواصل تناول الدوريتوس.

أوقف أربع عشرة عربة إضافية في الدقائق التسعين التالية، بما في ذلك شاحنة خفيفة لنقل السلع محمَّلة بالبَدو، وحافلة عسكرية منطلقة من قاعدة رامون الجوية، وسيارة أودي أر منخفضة السقف يقودها أحد أكثر الرجال بدانة الذين سبق لـــه أن رآهم يوماً برِفقة امرأتَين شديدتي الجاذبية؛ درس عملي في الجاذبية المُغوِية للمال النَّقدي.

لقد عرف شخصان ريفكا كلينبرغ من صورها في الصحف، ولكن لم يسبق لأيّ منهما أن رآها شخصياً، وليس في هذا المكان النـــائي بالتأكيـــد. وفي أثنـــاء انطلاق سيارة الأودي بسرعة قصوى وابتعادها، وشعر المرأتَين يطير وراءهمـــا في مَهبّ الريح، أقرّ بِن – روي بأنه يضيّع وقته. لقد قرر سلوك الطريق الفرعي المتّجه غرباً إلى الحدود المصرية، والتحقق مما إذا كان أحدهم قد رأى كلينبرغ، ومـــن ثم

سيعود إلى ميتزبـــي رامون للتحدّث إلى الشرطة المحلية، ويتوجّه إلى منـــزله أخيراً. أحياناً تفوز، وأحياناً أخرى تخسر. كان الأمر جديراً بالمحاولة.

ألقى نظرة أخيرة حوله بالمِنظار، وتبوّل على جانب الطريق، ثم عاد إلى داخل سيارته. كانت هناك سيارة أخرى تقترب من الجنوب على صورة بقعة مســتديرة تهتزّ. فتردد، متسائلاً عما إذا كان ينبغي عليه القيام بمحاولة أخيرة. وبعد ذلك، قرّر أن الأمر غير جدير بالمحاولة، وأغلق الباب بقوة، وربط حـــزام الأمـــان حولـــه، وأنـــزل صفارة الإنذار الوامضة، وهمّ بالمغادرة، ولكنه بدّل رأيه وتوقف مجـــدداً. فوضع جهاز نقل الحركة على صيغة الرَّكن، وأعاد صـــفارة الإنـــذار إلى ســـطح السيارة، وفك حزام الأمان.

"الرقم ستة عشر جالب للسَّعد"، تمتم ملتقطاً صورة كلينبرغ، ومنـــدفعاً إلى الخارج.

كانت السيارة تسير بسرعة، وفي الثواني الخمس عشرة منذ رؤيته لها للمـــرة الأولى، كانت قد تحررت من سراب الحر وباتت أكثر وضوحاً. إنها إس يـــو في. وقف على الطريق، وكانت السيارة منطلقة بأقصى سرعة مقلِّصةً المسافة بينـــهما. وعندما أصبحت على بُعد أربعمئة متر منه، رفع يده، ولكن الســـيارة لم تُبطـــئ، وأصبحت على مسافة ثلاثمئة متر، ومن ثم على مسافة مئتَي متر، وكان على وشك التراجع إلى الوراء والخروج من الطريق عندما ضغط السائق فجأةً علـــى المكـــابح وسُمع هسيس المطاط، وانبعث الدخان من أسفل الدولابَين الخلفـــيَّين، وتوقفـــت السيارة - تويوتا لاندكروزر - فجأةً في موقف الطوارئ. كان السائق ديناميكيـــاً كسائق سيارة الأودي؛ كان هناك سائق وراكبتان، عِلماً أن الرجل في هذه الحالـــة نحيل ووسيم. فتوجّه بِن - روي إلى نافذته وشهر شارته.

"لو كنت أحمل جهازاً لتحديد السرعة لسُحبت منك رُخصتك"، قال.

"آسف"، قال الرجل. "أنا قادم من مكان بعيد جداً".

"لم يكن يجدر بك السير بهذه السرعة الكبيرة".

"آسف"، كرّر الرجل.

وضع بِن - روي يده على سطح السيارة ومدّ رأسه ونظر إلى داخل السيارة. كانت المرأةُ الجالسة على مقعد الركاب الأمامي نحيفة تقريبـــاً، وشـــعرها أســـود

قصيراً، صدرها مرئياً بشكل واضح من التي-شيرت. أمّا المرأة الموجودة في الخلف فخرّوبية الشعر، وقد سرّحت شعرها على صورة كعكة صغيرة، وساقاها الجميلتان منحرفتان في اتجاه ظهر مقعد السائق. المرأتان جذّابتان، و لم يستطع تمالك نفسه من ملاحظة ذلك، وإن لم يكن الأمر على غرار رفيقتَي سائق الأودي. فهاتان المرأتان أكثر تحفّظاً.

"هل أنتَ من هنا؟" سأل، مخاطباً الرجل.

"من تل-أبيب. كنا في إيلات لبضعة أيام".

يا لك من محظوظ، فكر بِن - روي في سرّه.

"هل تسلك هذه الطريق في غالب الأحيان؟".

"كل شهرين ربما".

جالت عينا بِن - روي على المرأة الجالسة على المقعد الخلفي، ومن ثمّ أراهم الصورة.

"أفترض أن أيّاً منكم لم يسبق له أن رآها في هذه الأنحاء؟".

فنظروا إلى الصورة، وأنزلت المرأة الجالسة في الخلف قدمَيها وانحنت إلى الأمام.

"لقد رأيتها"، قالت.

فانحنى رأس بِن - روي أكثر فأكثر، ودخل عبر نافذة السيارة.

"هل رأيتها في هذه الأنحاء؟".

"لا، في الصحيفة. إنها تلك المرأة التي قُتلت في القدس".

كانت تملك لهجة خاصة، خفيفة ولكنها موجودة. إنها أميركية، خمّن، وربما بريطانية. عيناها رماديّتان وحادّتان، وعلى أنفها بقع نَمَش مبعثَرة؛ إنها جذّابة بشكل جدّي.

"ولكنك لم ترَيها مطلقاً في هذا الجزء من العالم؟". كرّر.

فهزت رأسها.

"وأنتما؟".

فهزّا رأسيهما أيضاً.

"هل هي من هذه الأنحاء؟". سأل الرجل مُعيداً الصورة.

"نتتبّع بعض أطراف الخيوط".

"حسناً، آمل أن تقبضوا عليه"، قالت ذات الشعر خرّوبي اللون، مُعيدةً ظهرها إلى الوراء، ومُسندةً قدمَيها مجدداً. ثبّت بِن - روي نظره عليها لأنه شعر بأمر ما حيالها. ولكنه لَم يتمكن من معرفته، وبعد التلكّؤ قليلاً، شكرهم على وقتهم، وقوّم وِقفته وابتعد عن السيارة.

"وانتبه إلى سرعتك"، قال. "ليس كل رجال الشرطة متساهلين بقدْري".

فابتسم الرجل، وأدّى له التحية وانطلق. راقبهم بِن - روي وهم يغادرون، محدِّقاً إلى الخيال الظِّلّي للرأس عبر النافذة الخلفية من دون أن يبارحه شعوره. وبعد ذلك، هزّ كتفَيه وعاد إلى سيارته، وغادر الطريق العام 40، سالكاً الطريق الأصغر المتجه غرباً نحو الحدود المصرية. ولم يكد يجتاز كيلومتراً واحداً حتى خرجت الكلمات من فمه فجأةً: *سالي، كاري، ماري-جاين.*

لقد بدا مُربَكاً للحظات كما لو أن شخصاً آخر يتكلم. وبعد ذلك، أطلق صرخة عميقة مُرفقة بكلمة *تبّاً!* وضغط على المكابح، وفتح حاوية القفازات، وسحب مسدس جريكو، ومن ثم دار بالسيارة وعاد بأقصى سرعة من حيث أتى، وصفارة الإنذار تلعلع.

* * *

حافظ غيدي على سرعة منخفضة حتى غابت سيارة الشرطي عن مرآة الرؤية الخلفية، ومن ثم داس على دوّاسة الوقود إلى أقصى حد، مراقباً أي دلالة على حدوث عملية مطارَدة.

"أظن أننا بخير"، قال غيدي.

"لسنا بخير. إن طريقة نظره إليّ...".

وانحرفت، وأخرجت هاتفها الذي يعتمد تقنية الإرسال الفضائي - الهواتف الأرضية لا تعمل هنا - وطلبت بإبهامها رقماً. فأطلق ثلاث رنّات، ومن ثم:

"فاز، ابدأ بإطفاء كل شيء. ربما اضطُررنا إلى الانتقال".

وأنهت الاتصال، ثم انحنت وسحبت مسدس غلوك من حقيبة ظهرها. على المقعد الأمامي، قامت تامار بالمِثل. وزاد غيدي السرعة حتى تجاوزت 160 كيلومتراً

في الساعة، سالكاً سلسلة طويلة من الانحناءات قبل أن يخفّض سرعته إلى حد كبير ويتوقف في موقف الطوارئ. كانت تامار قد فتحت الباب، وقفـزت وركضـت بأقصى سرعة إلى التلة المشرفة على الطريق العام. وانطلق غيدي حـول الزاويـة، فأصدرت دواليب السيارة صوتاً حادّاً فيما كان يسلك الدرب المؤدية إلى مجمّعهم؛ وانتقلت دينا إلى المقعد الأمامي بمشقّة وطلبت الرقم مجدداً، مترنّحـةً إلى الأمـام والوراء في أثناء ارتجاج اللاندكروزر على الأرض الوعِرة. لقد أطلق الهاتف سـتّ رنّات هذه المرة، ومن ثم سُمع صوت تامار:

"كِدتُ أصل".

وسُمع عبر الهاتف صوت تسلّق، ووقع أقدام، وتنفّس أجشّ.

"حسناً، أنا في الأعلى".

"وماذا؟".

"أنا لا أراه".

واصطدمت اللاندكروزر بأُخدود واستدارت، مما أدى إلى قذف دينا في اتجاه النافذة. فرمت الغلوك إلى المقعد الخلفي، ونقلت الهاتف المحمول إلى يدها اليسرى، وأمسكت مِقبَض التثبيت في الباب لتثبّت نفسها.

"هل هناك أي شيء؟".

"لا شيء".

وترنّحت السيارة بقوة مرة أخرى عندما اصطدمت بمنحـدَر، وانـزلقت، فيما بذل غيدي قُصارى جهده للسيطرة على المِقود والسير في خـط مسـتقيم، وتوجه بسرعة إلى مجموعة من المباني البعيدة.

"ما زلت لا أراه"، قال صوت تامار. "أعتقد أنه ربمـا... تمهّلـي، يمكـنني سماع...".

"ماذا؟".

وساد الصمت.

"ماذا، يا تامار؟".

"صفارة إنذار! إنه قادم".

"تبّاً!".

لوّحت دينا بيدها، حاثّةً غيدي على الإسراع. ومن أعلى التلة، واصلت تامار تزويد دينا بأدق التفاصيل.

"إنه على بُعد كيلومترَين تقريباً... وقادم بسرعة. أصبح عند المنعطف الآن... على بُعد كيلومتر واحد... يقود بسرعة كبيرة في الواقع. أصبح تحتي... ومرّ قربي! لقد أغفل الطريق الجانبية! وهو يواصل السير في اتجاه الشمال".

وصلا إلى المجمّع، وتوقفا بسرعة بجانب غرفة الكمبيوتر المفتوحة. كان فاز يفك الأسلاك بسرعة، ويضع السوّاقات الصلبة في صناديق. فهرع غيدي لمساعدته، وبقيت دينا في اللاندكروزر، وهاتفها المحمول على أُذُنها، والغلوك متدلٍّ من يدها. وظنّت أنها سمعت عويل صفارة الإنذار.

"حدّثيني يا تامار؟". قالت.

"لا يزال منطلقاً".

"ما هي المسافة التي بلغها؟".

"اجتاز كيلومتراً واحداً تقريباً. إنه يصعد الحَيد".

"بالسرعة نفسها؟".

"يبدو الأمر كذلك".

"والآن؟".

"لا يزال يصعد".

وساد الصمت، ومن ثم:

"إنه في الأعلى و... لم أعد أراه".

طقطقت دينا براجمها، فتوقف غيدي وفاز عما كانا يقومان به وخرجا. ولبث الثلاثة ينتظرون، ناظرين إلى بعضهم بعصبية. ومرّت ثلاثون ثانية.

"ماذا يحصل يا تامار؟".

"لا أثر له".

"انتظري دقيقة أخرى".

ففعلت.

"لا شيء. نحن بخير. لقد ذهب".

فأومأت دينا برأسها لغيدي وفاز، وتنفّس الجميع الصُّعَداء.

"لا، لم يذهب. سيعود!".

"تبّاً!".

ودنا منها الاثنان، ورفعت الهاتف لكي يسمع الجميع ما يحدث.

"إنه ينـــزل من الحَيد"، قالت تامار. "بسرعة. وصل الآن إلى المنبسَط... إنه على بُعد أقل من كيلومتر واحد... خمسمئة متر... لقد تخطـــاني لينحـــرف عـــن الطريق. إنه يُبطئ. لقد توقف. إنه... تمهّلي... ماذا يفعل؟! إنه يعود! إنه يســـلك الدرب. قُضي علينا!".

"راقبـــي الطريق"، قالت دينا. "أَعلِمينا إذا كان برفقة أصدقاء. أَبقي رأسك منخفضاً".

أنهت المكالمة، ووضعت الهاتف في جَيبها. كان فـــاز قـــد عـــاد إلى غرفـــة التكنولوجيا، وغيدي ينقّب اللاندكروزر؛ ثم ظهر حاملاً مسدساً صغيراً.

"هل أنت مستعدّ لذلك؟" سألت.

وثبّت مخزن الذخيرة بقوة في مكانه.

"مستعدّ".

"حسناً، لنَقُم بما يتعيّن علينا القيام به".

فضربوا قبضات أيديهم ببعضها واختفوا وسط المباني مع اقتراب صفارة الإنذار.

* * *

خفّض بن - روي سرعته، سالكاً الدرب من الطريق العام في اتجاه الصحراء، ومتحكّماً بمِقود السيارة بيده اليسرى، وحاملاً مسدس الجريكو بيده اليمنى. وبعد 400 متر، هبط الدرب عبر فِلق ضيّق، ومن ثم انحرف إلى اليمين بشـــكل حـــاد. وعلى بُعد كيلومترَين إلى الأمام، رأى مجموعة مبانٍ في الصحراء الصـــفراء المائلـــة للبنّي، فتوقف وأطفأ صفارة الإنذار، والتقط مِنظاره الثنائي، وألقى نظرة.

كانت اللاندكروزر هناك مركونة أمام أحد المباني، وباب السائق مفتوحـــاً، وتوجد عربة ثانية في الظل تحت بناء آخر يقع بجانب المبنى نفسه. وهناك أربعة مبانٍ أخرى، وبعض الألواح الشمسية، وطَبَق كبير لالتقاط الإرسال الفضائي بدا كمـــا لو أنه قطعة أرض مزروعة بالخُضَر. غير أنّه لم يكن هناك أي أثر للحياة.

تفحّص الصحراء المحيطة به، وركز بعد ذلك على المجمّع كما لو أنه يأمـــل في مفاجأة شخص ما على حين غرّة، ولكنه لم يرَ أحداً. فإما أهم رحلوا أو مختبئـــون. هناك ثلاثة منهم على الأقل، وربما أكثر، وهم مسلّحون بالتأكيد. فانطلاقاً مما سمعه، إن نِمِسيس أجندا خطيرة، خطيرة جداً؛ و لم يكن يشك قط في أن هؤلاء الأشخاص منتمون إلى نِمِسيس أجندا. من الأفضل استدعاء الدَّعم. رمى المِنظار داخل السيارة، وأخرج هاتفه المحمول، غير أنه لم تكن هناك إمكانية للاتصال بواسطته أو بواســـطة هاتف السيارة. تبّاً. إذاً، إما العودة إلى الطريق العام ومحاولة إيقاف أحدهم وإرســـاله لإحضار جنود المدرّعات، أو متابعة المهمة بمفرده؛ وهو أمر جنوني.

لقد تابع المهمة بمفرده، وانطلق ببطء أكبر من ذي قبل مســـتخدماً الســـرعة الثانية في جهاز نقل الحركة، ومتوقفاً كلما قطع مئات قليلة من الأمتار لإلقاء نظرة متفحّصة على المباني بواسطة المِنظار، ومسدسه جاهز للعمل. لم يرَ أحداً، و لم يدنُ منه أحد. وتوقف على بُعد مئة متر تقريباً من المجمّع، وترجّل. كان هناك ســـكون تام.

"مرحباً!".

لا جواب.

"مرحباً!".

لقد خنق الحرّ صوته، وجعله خافتاً وغليظاً كما لو أنه يصـــرخ مـــن تحـــت بطانية. انطلق إلى الأمام، وجزمته تُحدث صريراً على الحصى، محرّكاً الجريكو أمامه يميناً ويساراً.

"لقد رأيتُ صورتك في شقتها!". صاح. "شقة ريفكا كلينـــبرغ. كنـــتِ لا تزالين فتاة. لقد احتجت إلى بعض الوقت لأُدرك أنكِ الفتاة التي تظهر في الصورة، ولكنني لا أنسى أبداً أي وجه".

لا جواب، ولا صوت، ولا حركة. وصل إلى اللاندكروزر، والتصـــق بهـــا، وألقى نظرة إلى الداخل. كانت المفاتيح لا تزال في آلية إشغال المحرك. توقف قليلاً، ومن ثم انخفض على ركبتيه، ورفع مسدسه وأطلق طلقة نارية واحـــدة. لم يكـــن هناك أيّ رد فعل. ربما فرّوا هرباً على الأقدام، أو إنهـــم مختبئـــون في الصـــحراء يراقبونه، وينتظرونه.

"لقد قدِمتْ لتراك!". صاح. "قبل أربعة أيام من مقتلها. كانت تقصد هـــذا المكان بشكل منتظم. لماذا؟".

لا جواب.

"هل كانت تساعدك؟ هل هذا هو السبب؟ هل كانت ريفكا كلينبرغ عضواً في نِمِسيس أجندا؟".

لا جواب. هدوء تام، سكون مُطبق، كما لو أن العالم برمّته قـــد جُمِّـــد في جرّة. طرَف بعينَيه، ومسح قطرة عرَق، ووقف، ثم دار حول السيارة، ووصـــل إلى جدار المبنى الأقرب. كان الباب مفتوحاً. وتحقق من السيارة المركونة تحت البنـــاء المجاور، وبعد العدّ إلى الرقم ثلاثة، اندفع عبر الباب. كانت هناك أغراض كمبيوتر مبعثَرة في كل مكان - شاشات، سواقات صلبة، أسلاك، مودِمات - كما لـــو أن هناك من يستعدّ للرحيل على عَجَل. نظر حوله، وعاد إلى الوراء. كانت أبـــواب المباني الأربعة الأخرى مُغلَقة. لقد جال عليها واحداً واحداً، وتوجّه بعد ذلـــك إلى الباحة المركزية. لم تكن المباني الثلاثة الأولى مُقفَلة؛ غرف بسيطة، وغـــير مريحـــة، وفارغة، غير أن الباب الأخير كان مُحكَم الإغلاق. فنظر حوله، وقام بعد ذلـــك بركله، فخرج الإطار بأكمله من الجدار وتطاير وابل من الجصّ المحطَّم.

كان المكان في الداخل مُعتِماً ومائلاً إلى البرودة، والستائر مُسدَلة للوقاية من أشعة الشمس، وتنتشر في الأرجاء رائحة غامضة لعِطر مانع للتعـــرّق. وهنـــاك سرير، وخزانة ملابس، وطاولة، وحمّام وراء باب مفتوح. فتفحّص هذا الأخير، وتحقق مرة أخرى من الباحة، ثم توجّه إلى الطاولة حيث يوجد جهاز كمبيـــوتر حضني شاشته مضاءة، ويظهر عليها مبنى شاهق من الزجاج والفولاذ على خلفيّة سماء زرقاء برّاقة. وفوق المدخل صف من الحروف الذهبية اللمّاعة الـــتي تؤلـــف عبارة بارين كوربوريشن. حدّق بها، ومن ثم جلس على السرير وحـــاول فـــتح دُرج الطاولة. كان مُقفَلاً. فجذبه بقوة ولكن من دون جدوى. وحـــاول مـــرة أخرى. وبعد أن فقد صبره، انحنى، وسدّد، وأطلق النار على القفل. ثم ســـحب الدُّرج وقلّب محتوياته. كان هناك مُشطا ذخيرة، ومغلَّف محشوّ بالرسائل، وجوازا سفر؛ واحد إسرائيلي والآخر أميركي، وكلاهما يحملان صورة المرأة التي رآها في السيارة. وكل منهما يحمل اسماً مختلفاً: دينا لِفي وإليزابيت تيل. نظر إليهما، ومن

ثم أخرج محتويات المغلف، فتبعثرت رسائل وبطاقات بريدية على السرير. كان هناك أيضاً مغلّف أصغر حجماً توجد في داخله صور فوتوغرافية لُفَّت بشريط مطاطي. فحملها، محدّقاً بالصورة الأمامية. إنها امرأة تهدهد طفلاً في مَهْده، امرأة شابة، ممتلئة الجسم، مجعَّدة الشعر، وتجلس على ما بدا أنه كرسيّ خاص بالمستشفى. لقد أخذ منها الزمن كل مأخذ، ولكنه عرفها على الفور، كما كان قد عرفها ببذّتها العسكرية النظامية في صورة لها عثر عليها في شقتها بالقدس. إنها ريفكا كلينبرغ.

"تبّاً لي"، تمتم.

"تحرّكْ مليمتراً واحداً فقط"، قال صوت من جهة الباب، "وثِق بي، هذا ما سأقوم به بالتحديد".

***

ظنّت للحظة من الزمن أنه قد يحاول القيام بأمر ما، وأنظاره تتنقّل بين مسدسها الغلوك والعوزي الذي يحمله غيدي، مقيِّماً الوضع. وبعد أن سلّم بتفوّق السلاح المقابل، هز رأسه ورفع ذراعيه. وبتغطية من غيدي، توجّهت دينا إليه وجرّدته من مسدسه ومن الصور الفوتوغرافية أيضاً التي انتزعتها منه ورمتها على السرير لأنها لم تشأ أن تلمسها أصابعه.

اصطحباه إلى الخارج، وبحثا في ملابسه، وعثرا على مفاتيح السيارة والهاتف المحمول. فاحتفظت بالمفاتيح، ورمت الهاتف لفاز الذي توارى عن الأنظار داخل غرفة التكنولوجيا. ومن ثم اقتاداه إلى سيارته، وقيّداه بالأغلال؛ الرِّسغ الأيمن إلى المِقوَد، والكاحل الأيسر إلى دوّاسة الفرامل.

"أنتِ ابنتها، أليس كذلك؟". قال في أثناء انحنائها للتحقق من أن الأغلال مُحكَمة الإغلاق. "أنت ابنة ريفكا كلينبرغ. كانت والدتك".

"مهما يكن".

بحثت في مختلف أنحاء السيارة للتحقق من عدم امتلاكه أي سلاح ناري مخبَّأ، وفصلت هاتف السيارة عن منصّته، وبعد التحقق للمرة الأخيرة من الأغلال، عادت وغيدي إلى المجمَّع. فتوجّه غيدي إلى إحدى غرف التخزين لإحضار

متفجرات وأجهزة توقيت، فيما توجهت دينا إلى غرفة تخزين أخرى لإحضار صفائح نقل البنزين.

كانوا قد تدرّبوا على هذا الأمر عدة مرات مع أشكال مختلفة للمدة التي تتطلّبها مغادرتهم: هروب مباشَر تاركين كل شيء وراءهم، جمع الأغراض الأساسية على عجَل في مدة دقيقتَين، مغادرة أكثر تنظيماً مع وقت كافٍ لجمع أغراضهم ومحو آثارهم. لم يَرِد أي خبر من تامار الموجودة على التلة، وقد منحهم ذلك المزيد من الوقت قبل المغادرة. كانت سعيدة بذلك. فمن بين كل الأماكن العديدة التي أقامت فيها في حياتها، شعرت بأن هذا المكان أشبه بمنزلها. كانت تعرف على الدوام أنه يتعيّن عليهم المغادرة في مرحلة من المراحل. ولكن، سيتسنّى لهم على الأقل إلقاء تحيّة وداع لائقة.

وبعد فتح غرفة التخزين، سحبت خمس صفائح إلى وسط الباحة، ومن ثم قصدت غرفتها لجمع حاجياتها. لم يكن هناك الكثير منها: بعض الملابس، رسائل والدها، الصور الفوتوغرافية.

كان الماضي حياة مختلفة تعمّدت تناسيه، والرسائل والصور هي الأشياء الوحيدة التي تذكّرها به، إنها قَبَس النور الوحيد في ظُلمة الحياة، إضافةً إلى تلك الكوابيس المزعجة بالتأكيد. ففي تلك الكوابيس، يستيقظ الماضي على الدوام ليقضّ مضجعها.

رمت كل شيء داخل حقيبة، إضافةً إلى ملفَّين مليئَين بالأوراق، وكمبيوتر بارين الحضني. ووضعت جوازي السفر في المرحلة الأخيرة. دينا لِفي وإليزابيت تيل؛ اسمان فقط من الأسماء العديدة التي اعتمدتها على مَرّ السنين. دينا، إليزابيت، سالي، كاري، ماري-جاين؛ كان هناك الكثير منها. إنها الأنا الثانية التي تختبئ وراءها. ودينا هو الاسم الأكثر ملاءمة مع ما يحمله من معانٍ ضمنية لا تقتصر على العدالة والحِكمة فحسب، بل على الانتقام أيضاً.

أسماء عديدة مختلفة، أقنعة عديدة مختلفة، وهويات عديدة مختلفة.

ولكن، في الواقع راشيل هو اسمها الحقيقي الوحيد.

فتحت سحّاب الحقيبة، وألقت نظرة أخيرة على محتوياتها ثم خرجت إلى الباحة. كان غيدي ينتقل من مبنى إلى آخر، زارعاً الشّحنات المتفجرة. لقد أكد

اتصال أُجري مع تامار على التلة أن الطريق العام فارغ، ولا أثر لأي شخص آخر قادم. طلبت منها العودة إلى المجمَّع، ورمت حقيبتها داخل اللاندكروزر، ثم عادت للتحقق من الشرطي. وحالما رآها، شرع بطرح أسئلة عليها حول والدها، ولكنها لم تتكبد عناء الشرح.

"كانت تعمل معكِ، أليس كذلك؟". قال محاولاً حثها على الكلام، ومحـاولاً بدون طائل التخلّص من الأغلال الضاغطة على رِسغه وكاحله. "ريفكا كلينـبرغ كانت جزءاً من نِمِسيس أجندا. لهذا السبب استمرت بالقدوم إلى هنا".

ابتسمت رُغماً عنها؛ ليس لأن محاولاته كانت بعيدة عن الهدف، بـل لأنـه يطلق النار على كل شيء. كان معظم الناس سيلتمسون الرحمة لو كانوا مقيَّدين في سيارتهم في ظل حرارة تبلغ مئة درجة ولا يملكـون أي فكـرة عمـا إذا كـانوا سيعيشون حتى الساعة التالية. ولكن هذا الرجل يستمرّ بمحاولة اكتشاف المزيـد. إنها نقطة لصالحه حتى ولو كان مُخطئاً بذلك تماماً.

" لم تكن لها أي علاقة بنمِسيس أجندا"، قالت معتبرةً أنه يستحق شرحاً جزئياً على الأقل. "كانت تأتي للزيارة وليس أكثر".

"وتقضي بعض الوقت مع ابنتها".

لم تعلّق على الأمر.

"هل كانت تعرف ماذا تفعلين؟". سأل محرّكاً غلال مِعصمه ومُحدِثاً صليلاً.

"بالطبع كانت تعرف. كنت أثق بها".

"ليس بما يكفي لتمنحيها مقابلة"، قال. "منذ ثلاث سنوات عندما أرادت أن تضع مقالة لمجلتها".

نقطة أخرى لصالحه. لقد قام بفرضه المنـزلي.

"لقد انطلقت قبل إشارة البدء في تلك المسألة"، أجابت. "قال لها محرّرهـا إن باستطاعتها إجراء المقابلة من دون الحصول على إذن منا. كانت تمرّ بمرحلة صـعبة في ذلك الوقت بعد فقدانها عملها، ولم تكن تفكر بشكل صحيح. قلتُ لهـا إن في الأمر مجازفة كبيرة. كنا ملاحَقين إلى حد كبير، وعندما تضع مقالة مماثلة ستتعرّض للملاحقة أيضاً، لذلك علينا التوقف عن الالتقاء. ففهمت الوضع، وبعد ذلـك لم تذكر أجندا قطّ مرة أخرى".

"وحتى في زيارتها الأخيرة؟ قبل أربعة أيام من مقتلها؟".

فترددت. وسواء أكانت تلك نقطة لصالحه أم لا، فهو لا يزال شـرطياً، و لم تشأ الانجرار إلى حوار معه. *حافظي على هدوئك، لا تُخبري أحداً، إنـه سـرّنا الصغير*؛ إنه درس تعلّمته بمشقّة. وفي الوقت نفسه، كان هناك جزء منـها يريـد التكلّم، مما يمنحها فرصة معادلة النقاط على الأقل. فشعر بعدم يقينـها وضـغط عليها.

"أرادت منك التسلل إلى ملفات بارين الكمبيوترية، ألـيس كـذلك؟ لهـذا السبب قدِمت إلى هنا في المرة الأخيرة. أرادت منك أن تساعديها على اكتشاف ما تفعله بارين في مصر".

وانقبضت معدتها كما هو الحال على الدوام لدى ذِكر بارين. فحدّقت بـه، محاولةً تصوّر كيفية التعاطي مع الوضع واستنباط أفضل مسار يخدم أهدافها. وبعد التوصل إلى قرار، استلّت الغلوك من الناحية الخلفية لسروال الجينـز. فتصـلّب بِن - روي وحاول التخلّص من الأغلال.

"استرخِ"، قالت. "لسنا قاتلي رجال الشرطة".

ألقت نظرة سريعة على ساعتها، ثم جلست على صخرة موجـودة بجانـب الدرب، ووضعت الغلوك على ركبتها. فعاد إلى الوراء، ودلّك مِعصـمه الـذي اكتسى لوناً أحمر مائلاً للزُّرقة.

"هل أنا مُصيب؟".

وكان هناك توقف قصير، ومن ثم أومأت برأسها.

"قالت لنا إنها عثرت على صلة بين بارين ومقالة كانـت تضـعها عـن الاتّجار بالجنس. كانت تعلم أننا نُخضع بارين لمراقبة مشدَّدة، ولدينا وسـائل للتسلل إلى نظام الشركة الكمبيوتري. لقد أرادت منا الدخول والتحقق مما إذا كان بإمكاننا العثور على أي معلومات عن منجم ذهب في مصر. وعن مينـاء روزيتا، بالطبع".

فارتعشت عيناه.

"هل قالت السبب؟ ما الذي كانت تفكّر فيه؟".

فهزت رأسها.

"لا أعتقد أنها كانت تعرف السبب، وإذا كانت تعرفه فهي لم تُفشِ به. كنـــا على وشك التوجه إلى مكان ما، فقلت لها إننا سنتحقق من الأمر حالما نعود. وبعد قيامنا بذلك، قُتلت".

طأطأت رأسها، ومن ثم رفعت نظرها مجدداً.

"لقد استهدفنا بارين مذاك الحين من دون الحصول على أي شيء. لا روزيتا، لا منجم ذهب، لا شيء. فأيّاً يكن ما تقوم به تلك الشركة فقـــد تمكنـــت مـــن إخفائه".

كان الشرطي لا يزال يفرك مِعصمه، وتغضّن جبينه في أثناء قيامه بذلك.

"هل تعرفين إن كانت قد اتصلت ببارين وفاتحت المسؤولين بأي مـــن هـــذه الأمور؟".

فهزت كتفَيها.

"أشك في ذلك. فهي ما كانت لتواجه أيًّا كان حتى تحصل على دليل دامغ".

"هل تعتقدين أن بارين قد قتلتها؟".

فسخرت من ذلك؛ من سذاجة السؤال.

"بالطبع هم من قتلوها! إنه نوع الأمور التي يقومون بها. لقد كشفت النقاب عن أمر ما في شأنهم فقاموا بذبحها. هكذا يعملون. إنهم قذِرون كالغائط".

"ومع ذلك، لم تتمكني قط من الحصول على أي شيء يُدينهم".

وهزت كتفَيها مرة أخرى.

"إنهم أذكياء. ولكننا سوف نتمكن منهم".

وعلى امتداد الدرب، كانت تامار تقترب مُهرولِة. يكفي كلاماً، حان الوقت للمغادرة. فوقفت.

"أنتَ تحاول من دون جدوى"، قالت له. "فأنت لا تملك أي فكرة البتة عـــن قوة أولئك الأشخاص، وعن مدى... إثارتهم للاشمئزاز. لا أمل لشـــرطي أخـــرق مثلك، متمسك بالقواعد، ويعمل ضمن القانون، بالإمســـاك ببـــارين. فالطريقـــة الوحيدة للإيقاع بشركة مماثلة – والإيقاع بأي من هذه الشركات – هي استخدام الوسائل القذرة التي تستخدمها. لهذا السبب أُنشئت نِمِسيس أجندا لتقـــوم بمـــا لا يستطيع القانون القيام به".

"إذاً، ساعديني"، قال. "زوّديني بما تعثرين عليه".

فهزت رأسها.

"لا تجري الأمور بهذه الطريقة أيها الهاوي. ربما تكون الشرطي الأكثر استقامة في العالم، ولكنك لا تزال مجرد سنّ في دولاب الآلة. والآلة تهتم دائماً بأمثال بارين. إن مسؤولي بارين على درجة كبيرة من الأهمية ومتماسكون جداً. أنت تضيّع وقتك. ولكن، حظاً سعيداً بأي حال".

"على الأقل، أخبريني بما اكتشفته عنهم"، أصرّ محاولاً إبقاء الحديث مستمراً. "كيف تعرفين أنهم قتلوها؟ وماذا تعنين بقولك إنهم *مثيرون للاشمئزاز*؟".

لوّحت بيدها رافضةً الإجابة. لقد قالت كل ما تريد قوله. وحدّقت به - صورة لعجز مُحبط؛ مع رسغ وكاحل مكبلين بالأغلال، وإبطين متعرقين - ووصلت تامار وعادت الاثنتان إلى المجمّع. كان فاز يضع المعدات التكنولوجية في سيارة اللاندكروزر الثانية، فيما أنهى غيدي للتوّ زرع الشّحنات المتفجرة. وفي أثناء قيامه وتامار بجمع أغراضهما، تنقلت دينا من مبنى إلى آخر، ساكبةً النفط وضابطةً أجهزة التوقيت. وبعد انتهائها، قامت بجولة أخيرة في الأرجاء. ومن ثم، فكت سحّاب حقيبتها، وقلّبت أوراق أحد الملفات، وسحبت ورقة. وما إن انتهت من طيّها ووضعها في جَيبها، حتى كانت سيارتا اللاندكروزر قد حُمِّلتا وباتوا جاهزين للمغادرة.

انطلق غيدي وفاز على الفور، وتقدّمت وتامار من سيارة الشرطي وتوقفتا. لقد تركتا له زجاجتَي ماء وصفيحة فارغة للتبوّل فيها. ورمتا هاتفه المحمول، ومفاتيح سيارته، ومفاتيح الأغلال، داخل صندوق السيارة. ومسحتا كل شيء، بما في ذلك الأغلال، كي لا تتركا أي بصمات.

"سنمنح أنفسنا ساعتَين للابتعاد"، قالت له، "وبعد ذلك، سنتصل بشرطة ميتزبي ونُعلمهم بوجودك هنا".

"هذا لطف كبير منك"، تمتم.

"لقد زرعنا متفجرات في كل المباني"، أضافت. "ليست من العيار الثقيل. ولكن لو كنت مكانك لأخفضت رأسي عند الرابعة من بعد الظهر تحسّباً".

ودمدم شيئاً ما. يبدو أنه تخلّى عن مسألة الوالدة.

"لا تتكبد عناء تتبّع لوحات السيارتَين لأننا سنقوم بتبديلها. ولا تتكبد عناء تتبّعنا. نحن شديدو الذكاء ولن تتمكن من ذلك".

أومأ بإصبع يده غير المقيَّدة، مما حملها على الابتسام. مدّت يدها إلى جَيبها، وأخرجت الورقة المطويّة ورمتها في حضنه.

"هذه كل المساعدة التي ستتلقاها منا. إنها قائمة بشركات بارين التي لديها صلات في مصر. ربما يكون هناك أمر ما، وربما لا. أنت حرٌّ، اكتشف الأمر".

واستدارت نحو اللاندكروزر، فنادى.

"ما الذي يجري بينك وبين بارين؟ ما سبب هذا الحِقد؟".

فأبطأت. كيف يمكنها أن تخبره؟ كيف يمكنها أن تخبر أي شخص؟ حتى إن طاقمها لا يعرف الحقيقة. من الأفضل الاحتفاظ بسرّيّة بعض الحوافز، وببعض الهويّات أيضاً. إنها مهمّتها، وهذا كل ما يهمّها، ولا حاجة للشرح.

"لقد ألحقوا الأذى بشخص مقرَّب مني"، تمتمت بصوت منخفض جداً ولم يتمكّن من سماعها. ونادى مجدداً، وكرر السؤال، ولكنها تجاهلته. وبعد أن ألقت نظرة أخيرة على المجمَّع، دخلت اللاندكروزر، وأغلقت الباب. ثم أومأت برأسها لتامار، فانطلقتا بأقصى سرعة وسط سحابة من الغبار.

***

في النهاية، كان أفضل جزء من الساعات الأربع عندما وصلت سيارة من ميتزبي رامون أخيراً لإطلاق سراح بن - روي في أثناء هبوط الشمس وراء الأُفق، وبعد تحوّل مجموعة المباني إلى أكوام من الرُكام يتصاعد منها الدخان، وكان في أسوأ حالة من المِزاج السيّئ.

"أحتاج إلى هاتف"، قال بغضب في أثناء خروجه من التويوتا بمزيد من الجهد، عارِجاً على كاحله المتورّم. "هاتف يعمل هنا في الواقع".

"في سيارتنا"، قالت إحدى الفتيات اللواتي يرتدين البِزّات النظامية، وهي فتاة جذّابة داكنة البشرة لديها قِوام عارضة أزياء، مما جعل الأمر برمّته أكثر إذلالاً بالنسبة إليه.

"اذهبوا إلى هناك علّكم تستطيعون العثور على شيء ما"، قال ملوّحاً لهم في اتجاه أنقاض المباني. كان يريد القليل من الخصوصية أكثر من توقُّعه عثورَهم على شيء ما. "وأزيلوا ابتسامة الرضى عن النفس تلك عن وجوهكم!".

ونظر إلى الفتاة بوجه متجهّم، ومن ثم عرَج في اتجاه سيارة الدورية، والتقط هاتف السيارة بعصبية مِزاج، وأجرى اتصالاً سريعاً بسارة في بادئ الأمر للاطمئنان عليها. لقد بدت مسرورة بسماع صوته، وسألته إن كان يريد القدوم ليجتمعا وحدهما حول مائدة العشاء في الليلة التالية. لو تلقّى العرض في ظروف أخرى لكان مسروراً بالتأكيد. فهي لم تطهُ له العشاء منذ انفصالهما، ولكن في الوقت الراهن كان ضوء الشموع الرومنسي آخر ما يفكّر فيه. فقال إنه يودّ القدوم، ولكن بصوت أقل حماسة مما حاول أن يجعله يبدو. وكان الاتصال الثاني بدوف زيسكي.

"أين كنتَ بحق الجحيم؟". سأل زيسكي. "كنت أحاول الاتصال بك بعد الظهر".

"موثَقاً"، قال بن - روي باقتضاب جافّ. "هل تحدّثتَ إلى بارين؟".

لقد فعل، وحُدِّد موعدٌ للقاء في وقت لاحق من ذلك المساء؛ عند التاسعة ليلاً لتمكين أشخاص عالِي الرُّتَب في هيوستن من المشاركة في الاجتماع.

"ولكن، إذا كنتَ لا تزال في ميتزبي فلن تتمكن أبداً...".

"سأكون هناك"، قاطعه بن - روي مُلقياً نظرة سريعة على ساعته. "هل توصلت إلى أي شيء عن بروسبِكتو؟".

ليس الكثير. فالشركة تابعة لبارين، وتأسست في أواخر التسعينيات بهدف استطلاع فرص ممكنة لاستخراج الذهب في مصر. لقد تمّت تصفيتها بعد عامَين فقط. وكان وليام بارين المدير التنفيذي الأول، وهذا أمر مثير للاهتمام.

كان بِن - روي يصغي، ومن ثم طلب من زيسكي التوجه إلى شقة ريفكا كلينبرغ.

"كنت على وشك مغادرة المكتب في الواقع"، قال زيسكي. "سألتقي...".

"ألغِ الموعد واذهب إلى هناك"، زجر بِن - روي؛ إذ لم يكن في مِزاج مناسب ليلعب دور السيد متفهِّم. "هناك صورة فوتوغرافية في غرفة النوم لفتاة. أعتقد أنها

لابنة كلينبرغ التي تطلِق على نفسها حالياً اسم دينا لِفي وإليزابيت تيل. أنا بحاجة إليك لاكتشاف كل ما يمكنك اكتشافه عنها، وألقِ نظرة على الصورة الأخرى أيضاً، تلك التي تظهر فيها كلينبرغ في أثناء الخدمة العسكرية الإلزامية. كان يُفترض بنا القيام بذلك قبل عشرة أيام".

كان يقصد *كان يُفترض بي* القيام بكل ذلك. لقد جُنّ الرجل لأنه لم يكن دقيقاً وحريصاً كما يُفترَض به أن يكون. وكان مزاجه سيئاً لأنه كُبِّل بالأغلال في السيارة طوال الساعات الأربع الأخيرة، وتبوّل في صفيحة لنقل البنزين.

طلب من زيسكي تدوين تفاصيل عن الاجتماع والاتصال به، ثم نادى عنصرَين من ذوي البزّات النظامية، وزوّدهما بأرقام لوحات سيارتَي اللاندكروزر وأوصاف مالكيهما الأربعة، وطلب منهما تعميم أرقام اللوحات. إن الأمر تضييع للوقت بالتأكيد، ولكن عليه القيام بعمله كما ينبغي. وبعد ذلك، عاد إلى التويوتا بخطى ثقيلة، وأدار المحرك، وانطلق بأقصى سرعة وسط سحابة من الغبار والحصى. وبعد أن اجتاز مسافة مئتَي متر، توقف فجأةً، وفتح باب الركاب، ورمى صحيفة البنزين.

الأُقصُر

"ألم ترَ أي شيء غير عادي هناك؟ ألم ترَ مباني، آلات، شاحنات...؟".
وتردد صدى صوت رجل عبر الخط، مُعلِماً خليفة بأنه لم يرَ شيئاً خارج المألوف. الصخور فقط، الرمال ومزيد من الصخور؛ إنه تماماً ما تتوقع أن تجده وسط الصحراء.

"ولكن، من الإنصاف القول إن المنظر الطبيعي شديد التلوّي وجبليّ".

"والناس؟".

"لا وجود للناس أبداً. لا حيوانات من أي نوع باستثناء الوعول من حين لآخر، وأرنب برّي صحراوي. كانت المنطقة نائية جداً لدرجة أن البدوي لا يستطيع الذهاب إلى هناك".

"هل سمعتَ أي شيء غير عادي؟".

"مثل ماذا؟".

"لا أعلم. هل سمعت أصوات استخراج معادن، أو حفر، وثَقب، وطَرق بالمطارق؟".

"لا يمكنني القول إنني سمعت مثل هذه الأصوات".

"هل أنت متأكد؟".

"متأكد".

شكر خليفة الرجل على وقته متنهّداً، وأنهى المكالمة، ثم توجّه إلى النافذة، وكانت سيجارة كليوباترا متدلّية من زاوية فمه على نحو مُحبط. فالرجل يدير شركة صغيرة لتنظيم رحلات سياحية في الصحراء، ومركزها الغردَقة، وهي إحدى المؤسسات القليلة التي تغامر بالوصول إلى أي مكان قريب من الصعيد الأوسط في الصحراء الشرقية. لقد تحدّث خلال النهار إلى كلٍّ تلك المؤسسات، ويبدو أن أحداً لم يرَ أو يسمع شيئاً يوحي بوجود عمليات ناشطة لاستخراج الذهب. وحصل على النتيجة نفسها من المؤسسات التي تسيّر رحلات عبر الصحراء من الأُقصُر إلى الغردقة وميناء سَفاجا، ومن المؤسسات التي تسيّر رحلات على متن مناطيد وتصطحب سيّاحاً لمشاهدة شروق الشمس فوق جبال البحر الأحمر. ولم تُضف وزارة النفط والموارد المعدنية أي شيء على ما سبق أن تم إخباره به؛ كان لا يزال ينتظر اتصالاً من عائلة الرَّيسولي، عِلماً أنه لم يعلّق آمالاً كبيرة على ما سيقولانه؛ فلو سبق لهما أن رأيا أي شيء غير طبيعي لَذكرا الأمر في أثناء الحديث الذي أجراه معهما في الليلة السابقة.

ولكن، هناك إلماعتان محتمَلتان جديرتان بالبحث. فإحدى مؤسّسات تنظيم الرحلات السياحية أبلغته بأنها صادفت آثار إطارات كبيرة في أحد الوديان النائية في جبل الشَّلول. هذا الأمر بحد ذاته لا يُنبئه بالكثير؛ ففي الهدوء الثابت للصحراء حيث لا شيء يتحرك ويتغيّر، قد تعود هذه الآثار إلى عقود مضت. ولكن، نظراً إلى وجود احتمال بسيط، تحدّث إلى الفريق في جامعة حِلوان الذي يقوم بمسح جوّي للشقوق الناقلة للماء. فبالرغم من عدم رؤية أعضاء الفريق أي شيء يوحي بوجود أعمال استخراج للذهب، إلاّ أن أحد قباطنتهم رأى ما بدا أنه قافلة شاحنات تتحرك غرباً عبر القَفر بين الصعيد الأوسط ووادي النيل. لم يتمكن

القبطان من معرفة المكان الذي كانت قادمة منه أو ذاك الذي تذهب إليه، ولكن كان هناك الكثير من الشاحنات؛ عشرون شاحنة على الأقل، وربما أكثر. أهي معلومة مفيدة؟ أم غير مفيدة؟ لم يكن خليفة يملك أي فكرة. ولكن، هناك أمر أكيد واحد. إذا عثرت بارين على المتاهة وشرعت بالعمل فيها مجدداً، فإنها تحافظ على سرية العملية برمّتها بطريقة عجائبية.

وأطلق تنهيدة أخرى متسائلاً عن سبب ترك هذه القضية تستحوذ عليه؛ فالقضية ليست قضيّته. ومن ثم، وبعد أن سحب آخر مجّة من سيجارته، أسند ذراعَيه على زجاج النافذة وحدّق نحو الخارج. فعلى بُعد خمسمئة متر من منبسَط يحتوي على شُجَيرات وقُمامة مبعثَرة، كان باستطاعته رؤية المجمّع السكني حيث توجد شقته: رثّة، بيضاء، مغطاة جزئياً بأشجار كوزارينا مغبرّة، وتتلاشى وراءها تدريجياً الأطراف الشرقية للمدينة داخل حقول تُفسح المجال لعدميّة الصحراء بلونها الأغبر الداكن. كانت طائرة نفّاثة قد أقلعت للتوّ من مطار الأُقصُر وتتجه جنوباً بانحدار شديد في اتجاه أسوان كما هو مفترَض، أو ربما أبو سِمبل. وفي اتجاه الشرق، بدت الجبال المُقفِرة التي تكاد لا تُرى كضباب بنّي مرتفع في الهواء. وفي مكان ما تحت تلك الجبال...

"أين أنت؟". قال بصوت مرتفع. "أين أنت بحق الجحيم؟".

"أنا واقف وراءك تماماً!".

فاستدار. كان محمد ساريا يقف عند المدخل حاملاً طبَقاً ورقياً مع شريحتَي بصبوصة عليه.

"لماذا تعمل حتى وقت متأخر؟" سأل.

"أتابع أمراً ما فحسب"، قال خليفة. "كنت على وشك المغادرة".

"حسناً، قبل أن تقوم بذلك، يمكنك مساعدتي في تناول هاتَين الشريحتَين".

ورفع ساريا شريحتَي البصبوصة، فاعترض خليفة قائلاً إنه ليس جائعاً، ولكن مساعده أصرّ.

"ستنقذني من نفسي"، وضحك. "أصبحت سميناً جداً".

فَلان خليفة، وجلس الاثنان.

"مع من كنت تتحدث؟". سأل ساريا مسلّماً إيّاه إحدى الشريحتَين، وقاضماً الشريحة الأخرى.

"همم؟".

"أين أنت بحق الجحيم؟".

"آه! صحيح، إنها قصة طويلة".

"كتلك التي لا تريد أن تخبرني عنها؟".

"كتلك التي لا تبدو فيها المكائد مفهومة جداً"، أجاب خليفة، متناولاً قضمة من إحدى زوايا فطيرته. وللحظات، عاد بالذاكرة إلى الماضي البعيد عندما تناول وعلي البصبوصة في مطعم غروبيز في القاهرة. لقد أصرّ علي على تناول شريحة ثانية، ولم يكد يتناول نصفها حتى هرع إلى الحمّام بسبب شعوره برغبة شديدة في التقيّؤ. لقد بقي خليفة مع الذّكرى للحظات، متعلّقاً بها وشاعراً بالحُنوّ، ولكنه تخلّى عنها بعد ذلك، وأخبر ساريا بما اكتشفه في الساعات الأربع والعشرين الأخيرة ملخصاً المعلومات الأساسية فقط: المنجم، الآبار المسمَّمة، نتائج تحليل المياه. ولم يذكر بن - روي أو المرأة كلينبرغ، عِلماً أن ساريا من الأشخاص الأكثر نُضجاً في الشرطة، ولكنّ وجهه سيتجهم بسبب فكرة القيام بعمل تمهيدي لصالح الإسرائيليين.

"هل أطلعتَ عائلة عطيّة على هذا الأمر؟". سأل عندما أنهى خليفة حديثه.

"ليس بعد. كنت آمل توضيح المزيد من التفاصيل أولاً".

"هل تريد مني أن أقصدهم؟ أنا في إجازة غداً، ويُفترض بنا إبلاغهم ربما وإراحة بالهم بأنه ليس عملاً مناهضاً للمسيحيين بالرغم من كل شيء".

"هل تمانع؟".

"إن هذا من دواعي سروري. أيُّ عُذر لعدم قضاء فترة الصباح مع والدة زوجتي مرحَّبٌ به. لقد أخبرتني قصة مُمِلّة جداً في ذلك اليوم لدرجة أنني كدتُ أفارق الحياة".

فابتسم خليفة.

"هل تريد مني أن أذهب إلى بير هاشفا أيضاً؟". سأل ساريا.

"دَع هذا الأمر في الوقت الحاضر. لا أريد التسبب بالذُّعر للناس. دَعني أحاول تتبّع أثر المنجم أولاً، ومن ثم يمكننا الذهاب والتحدث إليهم عندما نكون قد حصلنا على وقائع ملموسة".

فأومأ ساريا برأسه، وتناول قضمة كبيرة أخرى من فطيرته، ثم ساد الصمت، وبعد ذلك:

"بالمناسبة، لقد عثرتُ على تلك العائلة".

لم يعرف خليفة عن أي عائلة يتحدث مساعده.

"كما تعلم، تلك التي كانت تقيم في القُرنة القديمة. عائلة البَدري".

بالتأكيد، عائلة الفتاة التي اغتصبها بينسكر. كان قد طلب من ساريا الاستقصاء عن أفراد العائلة، غير أنّ الأمر لم يعُد يبدو هاماً بصفة خاصة بعد أن اكتشف أمر منجم الذهب.

"وماذا بعد؟". سأل بدافع التهذيب أكثر من كونه بدافع الاهتمام؛ إذ لم يرغب في أن يشعر ساريا بأن وقته ذهب هباءً.

"ليس هناك الكثير"، أجاب الرقيب ساريا بفم مليء بالطعام. "كما قلتَ، لقد انتقل معظمهم إلى الطَّريف عندما تمّ جَرف القُرنة القديمة. وكانت الشقيقة قد غادرت أيضاً".

"الشقيقة؟".

"تلك التي ذكرتَها. إنها تُقيم في قرية قرب إدفو منذ ثلاثين عاماً أو أكثر".

ارتبك خليفة.

"ثلاثة أشقاء وشقيقة"، ذكّره ساريا بلهجة والد يشرح أمراً ما لفتى كثير النسيان. "الأشقاء مدفونون منذ زمن، ولكن شقيقتهم تعيش قرب إدفو".

"إيمان البَدري؟".

"بالتحديد".

فهز خليفة رأسه.

"أعتقد أن هناك تشابهاً في الأسماء يا محمد. إيمان البَدري توفّيت منذ سنوات. لا بدّ أن تكون من تتحدث عنها امرأة أخرى".

"ليس هذا ما قيل لي"، قال ساريا. "كان هناك ثلاثة أشقاء: محمد، وسعيد، وشقيق آخر لا أستطيع تذكّر اسمه. أحمد كما أعتقد. والشقيقة إيمان، وهي تُقيم خارج إدفو تماماً. إنها امرأة متديّنة كما يبدو، وتقضي وقتها في استمطار البرَكات على الوالدات الحوامل".

وهمّ خليفة بالاعتراض، قائلاً لساريا إنه لا بد من أن يكون مخطئاً، ولكنه لزم الصمت بعد ذلك. وبعد أن فكر في الأمر، أدرك أنه لم يُخبره أحد بأن المرأة الـــتي اغتصبها بينسكر متوفّاة.

"ولكن الأمر غير معقول!"، تمتم. "لا بد أنها تخطت المئة".

"في الواقع، عمرها مئة بالتحديد، ولا تزال قوية".

انتقل خليفة من حالة عدم الاهتمام كلياً إلى حالة الاكتراث التام والفجائي.

"هل أنت واثق من ذلك؟".

فرمقه ساريا بنظرة محذِّرة.

"هل تعرف اسم القرية؟".

ممتصًّا العسل عن أطراف أصابعه، التقط ساريا قلماً وكتـــب علـــى ورقـــة. وتفحّص خليفة الورقة، ومن ثم طواها ووضعها في جَيبه.

"هل قلت إنها تقيم قرب إدفو؟".

"على بُعد خمسة كيلومترات إلى الشمال".

نظر خليفة إلى ساعته مُحتسباً الوقت. وبعد ذلك، ربّت على كتف ساريا، ثم وقف وتوجّه إلى الدرج، داسًّا ما تبقى من شريحة البصبوصة في فمه. فإدفو علـــى بُعد ساعة من الزمن بالسيارة، ويبدو أنه العشاء الوحيد الذي سيتناوله.

إسرائيل

في وقت مبكّر من ذلك اليوم، كان بِن - روي قد انطلق بسرعة قُصـــوى في رحلته من القدس إلى ميتزبـــي رامون.

وفي طريق العودة، قاد بسرعة أكبر، مجتازاً المسافة بفارق عشرين دقيقة أقل مما تطلّبته رحلة الذهاب، وصفارة الإنذار محتدِمة غضباً طوال الطريق؛ عاكسةً مِزاجه.

وفي أثناء القيادة، أعاد أحداث فترة بعد الظهر في ذهنه مراراً وتكراراً، محاولاً ربطها بإطار القضية التي يقوم بجمع أجزائها.

إذ إن كَون المرأة المنتمية إلى نِمسيس ابنة كلينبرغ، قد شرح أمـــوراً قليلـــة. ولكن هذا الواقع طرح مجموعة معقّدة من الأسئلة، ومنها على الأقل سبب رغبـــة

كلينبرغ بالاحتفاظ بسرّيّة وجود ابنة لها؛ عِلماً أن محررها لم يقل أي شـيء عـن تشدّدها في الإبقاء على سرّيّة حياتها!

مع القليل من الحظ، سيتمكن زيسكي من استنباط بعض الأجوبة. كـان اهتمام بِن - روي المباشَر منصبّاً على ما قالته له دينا عن شركة بارين، ولا سيما إصرارها على أن من قَتل كلينبرغ شخص يعمل لصالح بارين.

لم يتفاجأ بالفكرة. فكما يبدو، يظهر اسم بارين في القضية منذ البداية. ولكن ما فاجأه هو اقتناعها التام بهوية مرتكب الجريمة. فبالنسبة إلى دينا لِفي - إليزابيت تيل - أو أيّاً يكن اسمها الحقيقي، بارين مُذنبة بدون شك.

كيف يمكنها أن تكون أكيدة إلى هذه الدرجة؟ هل تحتفظ بشيء ما لنفسها، ولا تخبره القصة الكاملة؟ هل اكتشفت نِمِسيس أجندا دليلاً حاسماً من نوع ما؟ ولكن، في هذه الحالة، لماذا لا تكشف عنه؛ إن لم يكن له فمن خلال موقع نِمِسيس على الإنترنت. فنظراً إلى طبيعة علاقتهم مع بارين، يُتوقّع منهم الإعلان عن أي أمر، وإن لم يكن مُديناً إلى حد كبير، لحظة اكتشافه.

لا، لقد اعتبر أنها تقول الحقيقة. وفي ما يتعلق بالدليل، كانوا خاوِي الوفاض على غراره. لذلك، يبقى السؤال: كيف يمكنها أن تكون على هذه الدرجة من اليقين بأن بارين مسؤولة عن مقتل أمها؟ هل كرهها للشركة - أيّاً يكن سببه - هو السبب في عدم تمكّنها من تصوّرها غير مذنبة؟ هل تمارس لعبة مُتقَنة من نوع ما معه، مرسِلةً إيّاه في اتجاهات خاطئة لأسباب تعرفها وحدها دون سواها؟

أم إنها تعرف أمراً آخر عن بارين؛ أمراً قبيحاً جداً، وسيّئاً جداً، ومثيراً *للاشمئزاز*؛ هذه هي العبارة التي استخدمتها لوصفها، ونتيجة لذلك جاء تأكيدها على كون بارين مسؤولة عن مقتل كلينبرغ؛ مما يطرح مرة أخرى مسألة سبب عدم قيام نِمِسيس بالكشف عن ذلك للملأ، إذا كان هناك ما تعرفه.

لم يبدُ الأمر منطقياً. لقد أمضى أربع ساعات موثّقاً بالأغلال بِمقود سيارته، ومتبوِّلاً في صفيحة لنقل البنزين، ومع ذلك إنه لا يزال بعيداً عن معرفة ما يجري. ولكن هناك أمراً واحداً واضحاً على الأقل؛ أيّاً تكن دينا لِفي، فهناك مسألة شخصية بينها وبين بارين، أمر ما يتخطى مجرّدَ كرهٍ مناهِضةٍ للرأسمالية لشركة ضخمة متعددة الجنسيات. لقد رأى ذلك في عينَيها، وفي لغة جسدها، وفي طريقة

انشداد وجهها كلما ذُكر اسم بارين كما لو أن هناك مَن يغرس برغياً عميقاً داخل جمجمتها.

بالنسبة إلى ابنة ريفكا كلينبرغ - إذا كانت كذلك بالفعل - فشركة بارين هي الشر عينه.

وها هو الآن يُسرع في العودة إلى القدس للقاء الشر. فكما قال لزيسكي قبل انطلاقه في الصباح: إنه الوقت المناسب لهما ليكتشفا ما لدى هؤلاء الأشخاص ليقولوه عن أنفسهم.

* * *

كان ممثلو بارين قد طلبوا إجراء المقابلة في فندق الملك داوود، وهو الفندق الأرفع مستوى والأكثر شهرة في القدس. وللشركة جناح هناك كما يبدو، تستخدمه كمكتب إعلامي في القدس، ويحتوي على أجهزة تمكّنهم من التواصل مع مقرّ قيادة الشركة في هيوستن. فالمقابلات التي تتناول التحقيق في شأن جريمة قتل تُجرى في مركز الشركة عادةً، ولكن بن - روي عمل وفقاً لرغبة الشركة. ففي النهاية، يبقى الحديث حديثاً أينما جرى، وما داموا يُجيبون عن أسئلته فهو مستعدّ للقائهم أينما كان؛ حتى لو كان اللقاء في حمّام عام.

لقد وصل قبل دقيقتَين. ففي العام 1946، كان قسم كبير من الجناح الجنوبي للفندق قد دُمّر بمتفجّرة زرعتها منظمة إيرغون؛ أكبر عمل إرهابي أحادي في تاريخ المنطقة. ولا يمكنكم أن تعرفوه اليوم. فالمكان يسوده الهدوء التام، وديكوره المُسرِف وأثاثه الفخم ينقلانكم بعيداً عن العالم الحقيقي. لقد سبق لبِن - روي أن زار الفندق مرات قليلة على مَرّ السنين من دون أن يشعر بالاطمئنان، وكان هذا الشعور أقل هذه الليلة نظراً إلى سبب زيارته. عبر الرَّدهة المكسوّة بالسجاد من دون إلقاء نظرة إلى المُحيط، واستقلّ مِصعداً إلى الطابق الرابع، متشاطراً إيّاه مع ثنائيّ أكبر سنّاً قادمَين من إنكلترا للمشاركة في حفل يُقام خِصّيصاً لحفيدهما.

كان جناح بارين موجوداً في الناحية الخلفية للمبنى، في آخر ممرّ طويل خافت الإضاءة. توقف بِن - روي للحظات في الخارج، مسيطراً على نفسه، ومراجعاً

بسرعة خطة الهجوم لديه، ومن ثم قرع الباب ففُتح على الفور، وتمّت مرافقته إلى الداخل.

كان الجناح مؤلفاً من طابقين؛ ومكوناً من غرفة انتظار ضخمة، وسُلّم يؤدي إلى غرفة النوم، وتُشرف النوافذ الموجودة فيه على مناظر رائعة في الشرق عبر وادي هينوم، ووصولاً إلى جبل صهيون والخليط المغمور بالأضواء في المدينة القديمة. كان هناك خمسة أشخاص ينتظرونه في الداخل، وقد فاجأه العدد المبالَغ فيه؛ رجلان يرتديان بذلتين - لا بد أنهما مديرا بارين التنفيذيان - ورجل وامرأة جالسان بجانب بعضهما على أريكة، وعرف على الفور من ملامحهما الصارمة ونظراتهما المحدِّقة الجافية أنهما مستشاران قانونيان.

إنهم الشخصيات الثانوية الداعمة، والشخص الخامس هو من لفت انتباه بِن - روي على الفور، فمن الواضح أنه المسؤول الكلّي، وحضوره يهيمن على الأجواء؛ حتى وإن لم يكن حاضراً جسدياً. كان وجهه يلوح على شاشة تلفاز عملاقة في الطرف الأبعد للجناح؛ إنه مُلتحٍ، ومتورِّم، وأشيَب، إنه ناتانيال بارين.

"لقد تأخرتَ يا سيدي".

كان الصوت الذي سمعه عبارة عن زمجرة جشّاء، من نوع الأصوات التي يمكنكم أن تتخيّلوها تصدر عن الوجوه في جبل *ريشمور*.

"لا يُعجبني اضطرارنا للانتظار. كان من المفترَض بنا الشروع بالمقابلة عند الواحدة بتوقيت هيوستن".

إنها الواحدة ودقيقتان، ولا يُعتبر هذا تأخيراً كبيراً، ولكن بِن - روي اعتذر بالرغم من ذلك، غير راغبٍ في المواجهة ولم تكن المقابلة قد بدأت بعد. هناك الكثير من الوقت لذلك في ما بعد. رمقه الرجل من الشاشة؛ إنه اختبار مُربك كمن تتمّ مراقبته من قِبَل شخص مميَّز في برنامج تلفزيوني. ومن ثم، أومأ للتحرّي للجلوس.

"عندما قلتُ إنني أريد التحدث إلى شخص ما في الإدارة العليا، لم أتوقّع حضور رئيس الشركة"، قال بِن - روي في أثناء جلوسه على الكرسي الشاغر الوحيد.

وعلى بُعد أحد عشر ألف كيلومتر، تراجعت كتفا ناتانيال بارين قليلاً إلى الوراء، وتغضّنت سترة التويد تحت إبطَيه.

"عندما أُبلغتُ بإمكانية جرّ سُمعة شركة بارين النظيفة إلى استفسار جنائي"، زمجر، "لم أرغب في تفويض شخص آخر للاهتمام بالأمر. ربما أتقاعس قليلاً عن تسيير الشؤون اليومية للشركة، ولكنها لا تزال شركتي وسُمعة عائلتي. أتمنّى أن تتفهّم ما أقوله، يا سيد...؟".

"بِن - روي"، قاطع أحد المديرين التنفيذيين.

"كبير التحرين بِن - روي"، قال بِن - روي. "وأجل، باستطاعتي تفهُّم الأمر".

"أنا سعيد لأن أحدنا يفهم الآخر".

من الواضح أن التكنولوجيا المعتمَدة متطورة جداً لأنه لم يكن هناك أي تأخر زمني - ولو بمقدار ضئيل - في صوت الرجل بالرغم من المسافات، وصورته شديدة الوضوح لدرجة أنه باستطاعتكم رؤية البُقَع البنّية المائلة للحُمرة على يدَيه الضخمتَين. ولاحظ بِن - روي أن اليد اليسرى تُمسك قناع أكسجين بلاستيكياً.

"هل تريد مُرطِّبات، يا سيد بِن - روي؟".

فقال بِن - روي إنه بخير.

"في هذه الحالة، أقترح أن نتطرق إلى الموضوع مباشَرةً. اطرح الأسئلة التي تحتاج إلى طرحها".

كانت أصابع اليد اليمنى لبارين تقرع على سطح الطاولة التي يجلس إليها بإيقاع بطيء. وبالرغم من أن التوقيت في هيوستن يشير إلى أنهم لا يزالون في وقت مبكّر من فترة بعد الظهر، فقد بدت الغرفة حوله - مكتب أو مكتبة - غارقة في الظلام. كان باستطاعة بِن - روي الشعور بوطأة المكان حتى لدى رؤيته من خلال شاشة تلفاز. فرك رِسغه الذي كان لا يزال يؤلمه بسبب الأغلال، وقلّب صفحات دفتر مدوّناته وصولاً إلى صفحة بيضاء، ودخل صلب الموضوع.

"قبل اثنَي عشر يوماً، قُتلت في القدس صحافية تدعى ريفكا كلينبرغ"، استهلّ كلامه. "في دار العبادة الأرمنية الكبرى. لقد خُنقت".

لم يؤدِّ الإعلان إلى أي رد فعل مرئي من قِبَل بارين. كان لا يزال يقرع بأصابعه على الطاولة ويحدّق ببِن - روي بعينَين مرتشحتَين ثاقبتَي النظرات. وكان الآخرون يحدّقون به أيضاً؛ خمسة أزواج من العيون تشق طريقها نحوه من كل

الاتجاهات. ليس الأمر مهدِّداً بالتحديد، ولكنه ليس مُريحاً. يتعيّن عليه القيام بمهمته بحِرص شديد.

"هل صودِف أنك عرفت بحصول اتصال بين السيدة كلينبرغ وشركتك مؤخراً؟" سأل.

على الشاشة، مالت عينا بارين في اتجاه المديرَين التنفيذيَّين اللذَين هزا رأسَيهما.

"من الواضح أنك تعتقد بوجود سبب للاتصال"، قال بارين بصوت أجشّ.

"في أثناء استقصاءاتنا، تبيّن أن السيدة كلينبرغ كانت تُجري بحثاً عن شركة بارين قبل وقت قصير من وفاها"، شرح بِن - روي.

فسأل أحد المحاميَين عن نوع البحث، وأخبرهم بِن - روي عن المقالة التي تتناول منجم الذهب.

"كما كانت أيضاً تُجري بحثاً عن رجل يدعى ساموبل بينسكر. ففي العام 1931، يبدو أن ساموبل بينسكر هذا قد اكتشف مكان منجم ذهب مصري قديم فُقدت آثاره منذ زمن بعيد ويُعرف بمتاهة أوزيريس".

وكانت المحامية حصيفة، وسألت بِن - روي عن علاقة هذا الأمر بشركة بارين، فأسكتها ناتانيال بارين بحركة بيده. إنها الإيماءة نفسها تقريباً التي استخدمها غينادي كريمنكو لإسكات محاميته. رجلان اعتادا أن يُطاعا من دون طرح أي سؤال.

"تابع، يا سيد بِن - روي"، زمجر.

بدّل بِن - روي طريقة جلوسه على مقعده وتابع:

"يبدو أن منجم الذهب هذا كان موجوداً في مكان ما وسط الصحراء الشرقية في مصر. ومنذ مدة غير بعيدة، أجرت شركة تابعة لبارين تدعى بروسبِكتو إدجيبت مسحاً في تلك المنطقة بالتحديد".

وتدخّل المحامي الآخر سائلاً عن علاقة هذا الأمر بالاستعلام عن جريمة قتل تمت في القدس. ومرةً أخرى، لوّح له بارين بيده ليلزم الهدوء.

"هل يمكنك أن تخبرني القليل عن بروسبِكتو؟" سأل بِن - روي.

"ميكي".

وأومأ بارين لأحد المديرَين التنفيذيَّين المرتديين ثياباً رسمية، وهو شاب ماكر ذو عِذارَين محلوقَين بشكل مرتَّب، ويضع في مِعصمه ساعة.

"كانت شركة تابعة صغيرة"، شرح الرجل بصوت منمَّق ودقيق على غرار مظهره. "أشرفت على ترخيص لمدة عامَين للقيام بأعمال استكشاف في جبال البحر الأحمر. وعندما سقط الترخيص بمرور الوقت، حُلّت الشركة".

تماماً كما أخبر زيسكي بِن - روي في وقت سابق.

"هل تمّت إدارتها ككيان منفصل؟" سأل.

"لا"، أجاب الرجل، "لقد تمّت إدارتها من هيوستن مباشَرةً، مع مكتب فرعي في القاهرة".

"هل عثرت على أي شيء؟".

"كميات محدودة من رواسب الزمرّد، من نوعية رديئة جداً لا تسمح بعملياتِ استخراجٍ، إضافةً إلى طبقتَين من الفوسفات غير جديرتين بمزيد من عمليات الاستخراج، والكثير من الرمال والصخور".

"ألم تعثر على الذهب؟".

"لا متاهات أيضاً"، قال المدير التنفيذي الآخر بطريقة ساخرة، متسبّباً بموجة من الضحك. وابتسم بِن - روي، ومن ثم غيّر الحديث.

"أفهم أن استخراج الذهب يُنتج كمية هائلة من النفايات السامة".

مرةً أخرى، همّ المحاميان بالكلام، ومرةً أخرى لوّح لهما بارين لالتزام الهدوء، مما جعل بِن - روي يتساءل عن سبب تكبّده عناء إحضارهما إلى الاجتماع. رافعاً قناع الأكسجين، أخذ الرجل المُسنّ مجموعة من الأنفاس العميقة من دون أن يرفع نظره عن التحري. وبعد ذلك، أنزل القناع وأسند ظهره.

"عليّ أن أعترف يا سيد بِن - روي"، وأزّ في أثناء تنفّسه، "بأنه ليس من الواضح - بالنسبة إليّ وبالنسبة إلى زملائي على حدّ سواء - كيف أن فهماً للأمور التكنولوجية المعقَّدة المرتبطة باستخراج الذهب سيساعدك على تقديم القاتل للعدالة. ولكن، استناداً إلى هذا الفهم الذي سيساعدك، واستناداً إلى علاقاتنا الممتازة والدائمة مع دولة إسرائيل، يُسعدني أن أضع بتصرّفك ما كوّنته من خبرة في هذه الصناعة طوال خمسين عاماً".

لم يكن يبدو سعيداً بصفة خاصة، ولكن بِن - روي لم يشأ التعليق على الأمر.

"إذاً، إجابةً عن سؤالك، أجل، تنجم عن استخراج الذهب كميات كبيرة من الطَّفح السام. لقد تحسّنت المعالَجات على مَرّ السنين، ولكنه يبقى عملاً قذراً أيّاً تكن الطريقة المتَّبعة. لقد كان كذلك على الدوام، وهكذا سيبقى. فعلى غرار كل الأشياء الجميلة، للذهب عيوبه".

"هل الزّرنيخ جزء من العيوب؟".

وراقب بارين عن كثب في أثناء قوله ذلك، باحثاً عن أي رد فعل ملموس. ولكن، لم يكن هناك أي شيء كالسابق.

"إنه أمر ممكن"، أجاب الرجل المُسنّ. "السيانيد هو الناتج الرئيس من عملية استخراج الذهب. ولكن، إذا تمّ استخراج الذهب من بيريت الزّرنيخ، فأجل، ستحصل على كمية كبيرة من راسب الزّرنيخ الذي يصبح على المدى البعيد أكثر ضرراً؛ لأن تحلّل الزِّرنيخ أبطأ من تحلّل السيانيد. هل تمانع قيامي بالتطرق إلى المزيد من التفاصيل؟".

كان هناك أمر ما في لهجته حثّ بِن - روي على التجرّؤ وقول *أجل*. ولكنه لم يفعل، غير راغب في الانجرار إلى محاضرة في الكيمياء. فبعد أحداث اليوم، شعر بالتَّعب يمتدّ إلى عقله ولم يشأ إنهاكه بمزيد من المعلومات. وغيّر الحديث مرةً أخرى.

"وفقاً للمقالة المنشورة في الصحيفة، والتي أشرتُ إليها في السابق، تُنقَل نفايات منجمك إلى الولايات المتحدة".

وكان هناك صمت لفترة قصيرة في أثناء قيام بارين بالنظر إليه، ومن ثم أجاب:

"صحيح".

"هل هذا الأمر ينطبق على النفايات التي تفرزها كل مناجمك؟".

ونجمت عن هذا السؤال همهمة رافضة.

"يتم التخلّص من البقايا الناجمة عن عملياتنا الأخرى في الموقع نفسه؛ وفقاً لقوانين البلد الذي يصادَف وجود الموقع فيه بالطبع. لا نواجه مصاعب إلا مع

منجم دراجس لأن الامتياز يشترط نقل النفايات إلى خارج البلد. يمكنني أن أُضيف أنه شرط لعين ومرتفع التكاليف لجهة الشحن، والتجميد، وطمر النفايات. ولكن، يمكننا امتصاص التكلفة بسبب وفرة الناتج من فلذات الذهب. أربعون مليون أونصة من الذهب بمعدل تركيز يبلغ 35 غراماً بالطنّ الواحد. صدّقني يا سيد بِن - روي، إنه المعيار الرئيس لاستخراج الذهب".

"وبالطبع، يُسعدنا في شركة بارين أن نؤدّي واجبنا في حماية البيئة"، قال المدير التنفيذي الآخر ممازحاً، وهو رجل أصلع ذو عينَين منتفختَين إلى حد كبير، وبطن مميَّز متدلٍّ فوق سروال بذلته من ماركة آرماني. "نحن نتحمّل مسؤولياتنا البيئية بجدّيّة تامة".

"بجدّيّة تامة"، كرر بارين، وأوحت لهجته بأنه يقصد العكس تماماً. حرّك بِن - روي قدمَيه، محدّقاً بالرجل المُسنّ، وشاعراً بأنه يُغفِل خُدعة ما، ومتراجعاً عن طرح الأسئلة التي ينبغي عليه طرحها. ربما يُفترض به إرجاء المقابلة إلى اليوم التالي ليكون أقل إرهاقاً. ولكنه موجود هنا الآن، ويشك في أن تسنح له الفرصة مرة أخرى، لذلك تابع بإصرار.

"هل لشركتكم أي صلات بميناء روزيتا؟" سأل. "على الشاطئ المصري الشمالي".

وشرع بارين ينقر على الطاولة بإصبعه مجدداً.

"لا عِلم لي بذلك"، أجاب. "وبما أن لا شيء يحدث في هذه الشركة بدون عِلمي، فالجواب إذاً هو لا".

ابتسم موظفوه.

"ماذا عن رجل يدعى غينادي كريمينكو؟".

"لم أسمع به قط".

"دينا لِفي؟".

ساد الصمت للحظات وجيزة عابرة لم يتمكن بِن - روي أثناءها من معرفة ما إذا كانت تعني أي شيء، ومن ثم:

"لم أسمع به قط كذلك".

"إنها امرأة".

وهز بارين كتفَيه. فحدّق به بِن - روي، محاولاً قراءة ملامح وجهه ومعرفة إن كان يقول الحقيقة أم إن كان شديد البراعة في الكذب. غير أنه لم يتمكن من اتخاذ قرار. وبعد أن صمت لفترة وجيزة، غيّر الموضوع مجدداً كما لو أنه ملاكم يتحرك بخفّة وسرعة، محاولاً إحداث فتحة في جدار الخصم.

"لِنَعُد إلى بروسبِكتو قليلاً"، قال. "أستنتج أن الشركة كانت برئاسة ابنك يا سيد بارين".

وظهرت القسوة جزئياً في نظرة الرجل المُسنّ؛ كما لو أنه لم يرحّب بذِكر خَلَفه. إنه رد الفعل الأول منذ بداية المقابلة.

"هل ما زلنا نتابع تحقيقك هنا؟". زمجر، وضغط بيده على قناع الأكسجين. "أم إنه اهتمام عام بطريقة إدارتي لأعمالي؟".

تجاهل بِن - روي الملاحظة الجارحة، وأكد له أن لهذا الأمر علاقة وثيقة باستفساره. وحدّق بارين من الشاشة، وبدا أن رأسه الضخم يرتجف قليلاً كصخرة على وشك السقوط، وبدأ يتمايل. وبعد ذلك، شبك يدَيه مهمهماً.

"استنتاجك صحيح"، قال محرّكاً إبهامه حول خاتم زفافه الذهبي الرفيع. "كنا ندرّب وليام آنذاك على الاعتياد على إدارة المؤسسة، وإدارة بروسبِكتو كانت جزءاً من تلك العملية".

فتردد بِن - روي، مخربشاً على دفتر مدوّناته، ومن ثم قال:

"إنه شخص نابض بالحياة، أقصد ابنك".

لقد تعمّد استفزاز بارين، واستجمع قواه عندما قال ذلك، متوقّعاً ردّاً حادّاً. فاقترب المحاميان إلى الأمام ككلبَي دوبرمان يُشدّان بالرَّسَن، ولكن بارين لم يُطلقهما، بل جلس صامتاً للحظات، وابتسم بعد ذلك بطريقة غير متوقَّعة، وارتسمت ملامح مُقلِقة على امتداد أسفل وجهه كجرح منفتح.

"أنا رجل واضح، يا سيد بِن - روي"، زمجر. "لذلك، لنتكلّم أنت وأنا بوضوح. كما تعلم - وهذا أمر واضح - إن ابني لديه... ماضٍ. وبفضل صحافة إثارة الفضائح، لم تعد المعلومات سرّية. واستناداً إلى ذلك الماضي، أنت تعتقد ربما أن بروسبِكتو في أثناء إدارته لها... ماذا؟ أصبحت مخادعة؟ هل اكتشفتَ أمراً أشبه

بكهف علاء الدين، وشرعت باستثماره من وراء ظهورنا، ومن ثم قُتلت الصحافية لأنها اكتشفت الأمر؟ هل هذا ما تعنيه؟".

هناك أمران أعنيهما، فكر بن - روي في سرّه، عِلماً أنه لم يَبُح بذلك.

"حسناً، أحب الوضوح يا سيدي. فالوضوح لا يترك أي مجال للشك. وأنا أقول بوضوح إن لا شيء يحدث في هذه الشركة - لا شيء - من دون أن أعرفه. وثانياً، لا يمكن العمل في منجم ذهب من دون أن يكتشف الناس أمره؛ حتى ولو كان في أبعد صحراء لعينة على الكوكب. وثالثاً، وهذا هو الأكثر أهمية...".

وانحنى أمام الكاميرا مباشَرةً في أثناء قوله ذلك، وملأ وجهه الشاشة.

"... سواء أكان ابني صالحاً أم طالحاً، فهو بالتأكيد ليس شخصاً مماثلاً لآل كابون يهاجم كل من يصادف أنه يسير بجانبه خطأً. إنه ضرب من ضروب الخيال، يا سيد بن - روي. وصدقاً، لقد توقعت أداء أفضل من قِبَل ممثل إحدى أعظم قوات الشرطة في العالم. أرجو أن يكون ذلك قد أوضح وجهة نظري".

فأقرّ بِن - روي بذلك.

"حسناً. إذا قمتَ بإقحام عائلتي في هذا الأمر مجدداً فستنتهي المقابلة، ومهنتك أيضاً إذا اضطُررت لذلك. ستيفن".

قال ذلك للشخص الذي ظهر على الشاشة من يسار بارين منحنياً. إنه خادم خاص من نوع ما؛ بسبب بذلته النظامية قاتمة اللون وسلوكه الممتثِل. وبقي ظاهراً على الشاشة لمدة طويلة بما يكفي لوضع كوب ماء على الطاولة أمام الرجل المُسنّ، والخروج من المشهد والتواري عن الأنظار. رافعاً الكوب، ارتشف بارين الماء وجبينه متغضّن نتيجة شعوره بالغضب.

"هل هذا كل شيء؟". تمتم وعيناه تبدوان من فوق حافة الكوب كزوج ذُبابات زرقاء كبيرة. "أم إن هناك نظريات غير عملية أخرى تريد إتحافي بها؟".

نظر إليه بِن - روي مباشرة رافضاً الترهيب. فهناك عناصر أساسية أخرى يرغب في تغطيتها، كعرض أسعار حقل الغاز المصري الذي تسعى بارين للفوز به مثلاً، وقائمة الشركات التي أعطته إيّاها دينا في وقت سابق. كان باستطاعته الشعور بأنه بات في وقت مستقطَع. وبأي حال، إن التعليق الذي تناول إنهاء مهنته

قد أغاظه. لذلك، بدلاً من مواصلة الوَخز على نحو هامشـــي، لجـــأ إلى الهجـــوم المباشَر.

"سيد بارين، هل تملك أي فكرة عن سبب اعتقاد نِمِسيس أجندا أن شركتك قد قتلت ريفكا كلينبرغ؟".

لقد أدى التعليق إلى تقريع فوري وغاضب من قِبَـــل المحـــاميَين، ولم يعمـــد مستخدِمهما إلى كبح جماحهما. غير أن بن - روي لم يُجـــب؛ مركـــزاً انتباهـــه بشكل ثابت على وجه بارين، ومحللاً تأثيرات كلماته كما يحلل عالِم جيولوجيـــا مؤشرات زلزال ما على أداة قياس قوة الزلازل. لقد غضب الرجل بدون شـــك، ودفع فكّه السفلي إلى الأمام، وتجمّد فمه في عبوس مهدِّد. وفي الوقت نفسه، كان هناك شيء ما في عينَيه لا ينسجم مع ملامح وجهه، ويصعب تحديده؛ فبالرغم من شدة وضوح صورته على الشاشة، إلاّ أن عدم وجوده شخصياً في الواقـــع جعـــل تفسير هذه المؤشرات بالغة الصِّغَر أمراً صعباً بالنسبة إليه. لم يكن ما يـــراه بـــن - روي خوفاً بالتأكيد أو شعوراً بالذَّنْب، بل حذَراً مُدرِكاً من نوع ما كما لَـــو أن التعليق لم يفاجئه على غرار الآخرين المشاركين في المقابلة.

"أَوضِح وجهة نظرك يا سيدي"، قال بغضب.

"بكل سرور"، قال بن - روي. "في وقت مبكّر من هذا اليـــوم، أمســـكت بـــي دينا لِفي تحت تهديد السلاح. وهي المرأة التي ذكرتُها في السابق، ولديّ مبرّر للاعتقاد بأنها ابنة ريفكا كلينبرغ، وهي عضو أيضاً في نِمِسيس أجندا".

لم يقُل بارين شيئاً، بل حملق به مع ذلك الفارق المثير للفضول بـــين وجهـــه وعينَيه كما لو أن الوجه يشير إلى شيء والعينين تشيران إلى أمر مختلف تماماً.

"لقد سمعتَ عن نِمِسيس أجندا كما أعتقد".

وتغضّن قناع الأكسجين تحت ضغط قبضة الرجل المُسنّ.

"أنت مُحِقّ تماماً، لقد سمعتُ عنها. قبل يومَين فقط، عاملوا أحد مـــوظفيّ في القاهرة بوحشية. إذا كنتَ تملك وصفاً لهذه المرأة، فأنا آمل بإخلاص أن تكون قد سلّمته للسلطات المعنيّة".

"*أنا* السلطات المعنية"، قال بن - روي. "وأجل، لقد عُمِّم الوصف".

فجأةً، شعر بأنه مستيقظ تماماً وصافي الذِّهن.

"قبل أربعة أيام من مقتلها"، تابع، "التقت ريفكا كلينبرغ هذه المرأة، وطلبت من نِمِسيس أجندا التسلل إلى ملفات الكمبيوتر الخاصة بشركتك للبحث عن معلومات حول منجم ذهب في مصر، وعن ميناء روزيتا".

ومنحه ثواني قليلة ليستوعب ما يقوله، ومن ثم:

"تعتقد دينا لِفي أن والدها كانت تكتب مقالة يمكنها إلحاق الضرر بشركة بارين. وتعتقد أيضاً – وهذا اعتقادها *الثابت* – أن شركة بارين – أو شريكاً ما لها – قد قتلت ريفكا كلينبرغ لتحول دون نشر المقالة. لذلك، أكرر سؤالي: هل تملك أي فكرة عن سبب اعتقادها هذا".

كان بِن – روي قد تعرّض لنظرات قاسية – بوصفه شرطياً إسرائيلياً في القدس، نادراً ما كان يمرّ يوم من دون التعرّض لنظرات قاسية – ولكن تلك النظرات لا تقارَن أبداً بالنظرات المنبثقة من الشاشة، والتي حملت المحاميَين على التزام الصمت. وخُيّل لبِن – روي أن الغرفة حوله تضيق وتنكمش لدرجة شعوره بأنه وبارين موجودان في الحلبة بمفردهما. كان هناك توقف قصير، ولم يُسمَع سوى صوت أنفاس الرجل المُسنّ الغاضب، والصَّليل المكبوت لعربة خدمة الغُرف في الممر خارج الجناح. وبعد ذلك، أسند بارين ظهره ببطء، وجسمه الضخم المكسوّ بالملابس يملأ الكرسي كدفق من الصُّهارة المتصلّبة.

"يمكنني أن أقول لك بالتحديد سبب اعتقادها هذا يا سيد بِن – روي"، قال بصوت أجشّ كما لو أن حَلقه مسدود بورقة صَقل. "إنها تعتقد ذلك للسبب عينه بالتحديد الذي يجعل الشعب المناهض لدولة إسرائيل يعتقد أن شرطتها تتعمّد إطلاق النار على الأطفال العرب، كما يتمسك المناهضون للساميّة بفكرة قيام اليهود بشرب دماء الأطفال. لأنها وأصدقاءها المصابين بمرض نفسي يكرهوننا؛ ليس بسبب أمر ما قمنا به، انتبه، أو بسبب خرقنا أيّ قوانين، بل بسبب ما نمثّله. وما نمثّله هو انتصار الرأسمالية. المال؛ هذا هو بيت القَصيد يا سيد بِن – روي، وأنا أتكلّم بصراحة ولا أقدّم أي تبريرات. نحن نطيع القانون، وندفع ضرائبنا، ونقدّم دعمنا لمجموعة من القضايا الجديرة بالاهتمام، ولكن النقطة الجوهرية هي أننا نَجني مالاً، ولا يمكنهم تحمّل ذلك. لا يمكنهم أن يتحمّلوا واقع أنني أنام جيداً في الليل ولا أستيقظ في حالة من التعرّق، أو وأنا أشعر بالقلق بسبب سقوط شجرة لعينة ما

وسط الأمازون. لقد أزعجونا طوال الجزء الأكبر من السنوات السبع الماضية، ولم يتكبّدوا عناء تقديم أي دليل عن أيّ إساءة، ولو لمرة واحدة. لـذلك، صـدقاً، لا يفاجئني أبداً قيامهم بإلقاء اللائمة علينا على جريمة قتل لم نرتكبها. أنـا منـدهش لعدم اتهامنا بعد باغتيال كنيدي".

وصمت محاولاً التنفّس بجُهد، واكتسى وجهه لوناً أُرجوانياً داكناً، وظهـرت فُقاعات لُعاب عند زاويتَي فمه، فأخذ عدّة أنفاس من قناع الأكسجين، فيما عيناه تتسعان مع كل شهيق وتنقبضان مع كل زفير. وبعد ذلك، أنـزل القناع، وتقبّل المنديل الذي سُلِّم إيّاه من اليسار من الخادم على الأرجح، الذي كـان لا يـزال واقفاً هناك.

"كنت سعيداً بالتساهل معك يا سيد بِن - روي"، زمجر مربّتاً بالمنديل علـى فمه، "ولكن، بما أننا انتقلنا كما يبدو من عالم الشرطة إلى عالم الافتراء والتلمـيح، فأنا غير مستعد لمتابعة هذه المقابلة. أتمنى لك أفضل حظّ في عملية تتبّـع قاتلـك، ولكنني أشعر بأنه يتحتم عليّ القول إنك لن تتمكن من الإمساك بقاتلك في وقـت قريب استناداً إلى ما سمعته في الدقائق العشرين الأخيرة هذه. وثِق بـي، سـأعبّر لرؤسائك عن وجهات نظري. طاب يومك، يا سيدي".

ورُفعت يده استعداداً لقطع الاتصال الفيديوي، فنادى بِن - روي:

"لديّ سؤال أخير، يا سيد بارين".

فتردد الرجل المُسنّ على غرار بِن - روي الذي لم يكن قد حسم أمره بعـد بشأن السؤال. ربما يُفترض به أن يطرح سؤالاً عن روزيتا، أو أن يضـغط علـى بارين أكثر فأكثر في شأن الاتّجار بالجنس، أو يتحدّاه ربّما مـن خـلال قائمـة الشركات المصرية المطويّة والموجودة في جَيبه. ولكنه عوضاً عن ذلك، ومـن دون أن يعرف السبب، طرح سؤالاً فخاً.

"هل تعتقد أن لنمِسيس أجندا علاقة بوفاة زوجتك؟".

فقبل يومين، أخذ دوف زيسكي غينادي كريمينكو على حين غرّة بسؤال فَخ مماثل، ولكن الحظ لم يحالفه مع بارين. فلقد حملق إليه الرجل المُسنّ عبر الشاشـة، وتبدّلت ملامح وجهه بفعل الغضب، وتحرّك صدره صعوداً ونـزولاً. ومـن ثم، وبعد أن همهم: "أخرِجوه من هنا"، مدّ يده، واسودّت الشاشة.

في أثناء مرافقة بِن - روي إلى الخارج بعد المقابلة التي أجراها مع ناتانيال بارين، كان خليفة في طريقه لإجراء مقابلة مع إيمان البَدري؛ المرأة التي اغتُصبت بوحشية قبل ثمانين عاماً على يد ساموِيل بينسكر.

كان قد وصل إلى قريتها قبل ساعتَين، وأمِل في العودة إلى الأُقصُر أو إلى منزله في وقت قريب. وفي أثناء توقّفه خارج منزلها - منزل منخفض من الآجر الطيني، مع بُرج حمام مثبَّت بجانبه، وحمار ينهق في مكان ما في الناحية الخلفية - لاحظ وجود عشر نساء بملابس سوداء جالساتٍ بالصف على امتداد الناحية الأمامية للمبنى. كان ساريا قد أبلغه بأن ضحية بينسكر قد أصبحت شخصية مهمة من نوع ما، وتبيّن أن النساء مصطفّاتٌ للحصول على بَرَكتها.

في ظروف أخرى، كان سيُشهر شارته ويدخل مباشَرةً، ولكن الفِطرة أنبأته بأن المنحى التعسّفي غير ملائم في هذه الحالة. وبعد أن اتصل بزينَب ليُعلمها بتأخره بالعودة إلى المنزل أكثر من المتوقَّع، جلس في آخر الصف وانتظر دوره، متجنّباً عمداً النّظر إلى النساء كي لا يعرّض سمعتهنّ للشبهة؛ فهذه الأمور هامّة في هذه المناطق البعيدة.

وأخيراً، بعد مرور ساعتَين دخّن خلالهما عشر سجائر كليوباترا، استدعاه صوت امرأة إلى الداخل، وكان الشخصَ الأخير في الصف. فوقف، ونفض سرواله، وملّس شعره حِرصاً منه على مظهره، عِلماً أن المرأة التي يزورها عمياء. وبعد ذلك، دخل المبنى عبر ستارة الخرَز.

كان المكان في الداخل بعيداً كل البعد في مظهره عن الجناح الذي أجرى فيه بِن - روي مقابلته. لا كهرباء، ولا سجاد، ولا تزيين، ولا أثاث مزركش. فعوضاً عن ذلك، وجد خليفة نفسه في غرفة أرضيّتها ترابيّة، وجدرانها عارية ومبنيّة بآجر طيني، وسقفها خشبيّ مسودّ بسبب الدخان. ويؤدي باب في الجانب البعيد إلى غرفة المعيشة في الناحية الخلفية للمنزل، وهناك قنديل كاز يُصدر مقداراً كافياً من النور لجعل الغرفة مرئية من دون إزعاج. وفي ما يتعلق بالأثاث، فالمكان خالٍ منه؛ باستثناء أريكتَين خشبيّتَين بسيطتَين موضوعتَين بمحاذاة الجدارَين الجانبيَّين.

وعلى الأريكة اليمنى، تجلس امرأة هَرِمة شبيهة بدُمية، متربّعة ومُسنِدة ظهرها على الآجر الطيني. وكل شيء، باستثناء وجهها كثير التجاعيد، مغطى بجلباب أسود؛ لدرجة أنه لا يمكن على الفور تبيان حدود انتهاء جسدها وبدء الظلال.

"يُقال إن بركاتي تريح أولئك الحوامل"، قالت بصوت أجشّ ولكنه لطيف على نحو مثير للفضول، ومهدّئ كسُعَف نخل تطقطق في مهبّ الريح. "ولكن، للأسف يا سيدي، أخشى ألا يكون باستطاعتي تقديم أي برَكة تساعدك في حَمْلك".

ابتسمت لدُعابتها، وأومأت لخليفة للجلوس على الأريكة المقابلة. لم يكن باستطاعته أن يعرف كيف تبيّن لها أنه رجل؛ ربما من صوت تنفّسه، أو وقع قدميه. عبر الغرفة نحو الأريكة اليسرى وجلس.

"لستَ من هذه النواحي"، قالت، وأمالت رأسها في اتجاهه.

"أنا من الأُقصُر".

وتوقف قليلاً، ثمّ أضاف:

"أنا شرطي".

أومأت برأسها قليلاً كما لو أنها قد حزرت بطريقة ما. كان قد سبق له أن التقى عمياناً شاحبي العينَين، وقُزحياتهم تفضح حالتهم. أما عيناها فخضراوان كالزمرّد اللمّاع، وبرّاقتان على نحو غير طبيعي، كما لو أن عماها يتجلّى بفرط اللون أكثر منه بالافتقار إليه.

"هل بإمكاني إحضار شيء لك لتشرب؟" سألت. "فالليل حارّ، وقد قطعتَ مسافة طويلة".

كان خليفة يشعر بالظمأ، ولكنه رفض العرض، غير راغبٍ في التسبب لها بأي متاعب. فابتسمت مجدداً كما لو أنها فهمت سبب رفضه، ثم نهضت عن مقعدها، وجرّت خُطاها إلى غرفة المعيشة في الناحية الخلفية للمنزل بحركات بطيئة وواثقة. لو لم يكن يعرف مُسبَقاً أنها ضريرة، لَما حزر ذلك مطلقاً. وعادت بعد دقيقتَين مع كوب شاي.

"لديّ فتاة تساعدني بالمهام المنزلية الروتينية"، شرحت مسلّمةً إيّاه الكوب، وعائدةً إلى أريكتها من دون أن تتلمّس أي شيء في طريقها ولو لمرة واحدة، "ولكن، باستطاعتي تدبّر أمري في الأمور البسيطة. رجاءً، اشرب".

فلبّى خليفة طلبها من دون أن يذكر واقع أنه يتناول الشاي مع السكّر على الدوام. أما الشاي فقد تمّت تحليته بملعقتين من السّكر؛ تماماً كما يحبّه.

"إنه لذيذ"، تمتم.

"عفواً"، أجابت. "أهلاً وسهلاً بك".

وساد الصمت، ومن ثم قالت له:

"آسفة لخسارتك".

فشكرها على مواساتها له، وتناول رشفة أخرى من الشاي، ثم أدرك بعد ذلك - وقد أجفل - أنه لم يذكر لها "علي".

"كيف عرفت؟".

"يمكنك رؤية بعض الأمور حتى بدون عينَين"، قالت بهدوء. "أساك يحيط بك. إنه يتدلى منك كعباءة".

لم يعرف ما يجب أن يقوله.

"إنه ابني"، هذا كل ما تمكّن من قوله.

"آسفة جداً".

وحدّقت به - أو إن هذا ما بدا له على الأقل - بعينَين متلألئتَين بالوهج المتقلّب لقنديل الكاز، والظلالُ تحتشد في أرجاء المكان. وبعد ذلك، أسندت ظهرها إلى الجدار، شابكةً يدَيها في حضنها.

"هناك أمر ما يُزعجك"، قالت. "أمر ما يجعلك مضطرباً في حضوري. رجاءً، أخبرني عن سبب وجودك هنا".

بدّل خليفة جلسته على مقعده قلِقاً. لقد بلغه أن حواسّ العميان قويّة، وباستطاعتهم ملاحظة أمور يُغفلها أولئك الذين يتمتعون برؤية تامّة، ولكن هذا الأمر مختلف. لقد بدا الأمر كما لو أن باستطاعتها رؤية ما يختلج في صدره، ومعرفة ما يفكر فيه ويشعر به. انحنى إلى الأمام، محرّكاً الشاي في كوبه، ومتردداً فجأةً في طرح الأسئلة التي قدِم لطرحها.

"هيا"، ألحّت، "لا يمكن أن يكون الأمر بهذا السوء. قُل ما تريد قوله. سوف تشعر بأنك في حال أفضل. ربما يكون الأمر أفضل لكلينا".

وباعدت يدَيها بما معناه أنه يُفترض به التكلّم. وساد الصمت، وبدت الظلال في الغرفة أكثر قتامة وكثافة. وبعد ذلك، تنهّد:

"كما قلتُ، أنا من شرطة الأُقصُر"، استهلّ كلامه. "أعمل على قضـــية... في الواقع، أساعد في قضية... لقد قُتلت امرأة في القدس. لن أخوض في التفاصـــيل. يبدو أن هناك صلة برجل أعتقد... أنك تعرفينه. رجل إنكليزي يدعى... ساموبل بينسكر".

ارتفع رأسها، ومن ثم انخفض.

"آه!". تمتمت.

كان ذلك ردَّ فعلها الوحيد.

"أعرف ما حدث"، تابع بلهجةٍ حاول إبقاءها لطيفة قدر الإمكان، محـــاولاً إبلاغها أنه لا يفهم ما تشعر به فحسب، بل إنه لا سبب للخجل أيضاً. "رجـــاء، سامحيني لأنني ذكّرتك بالأمر".

"أنت لا تذكّرني"، تمتمت. "التذكير يعني أن أكون قد نسيت. ولكن، لم يمرّ عليّ يوم واحد من دون أن أفكر بذلك في الليل، وفي كل دقيقة من اليـــوم. إنـــه يعيش معي دائماً. ثمانون عاماً مضت على الأمر، ولكنني أشعر كما لو أنه حـــدث يوم أمس".

رفعت يدها ولمست صِدغَيها بأطراف أصابعها، وحدّق خليفة بالأرض. فمنذ دقائق قليلة، بدت الزيارة فكرة جيدة. وها هو الآن في حضورها...

"سامحيني"، كرّر. "لم أشأ أن...".

"لا حاجة بك للاعتذار. لقد قاموا بما قاموا به، ولقد تعلّمتُ العـــيش مـــع الأمر".

لا بد أنه متعب لأن الأمر تطلّب منه لحظات قليلة لاستيعاب ما قالته عن ابنه علي. ورفع نظره عابساً.

"من هم أولئك الذين قاموا بما قاموا به؟".

"الذين ارتكبوا الجريمة".

وازداد وجهه عبوساً.

"لا أفهم، *يا أمي*. ظننتُ...".

"ماذا؟".

"أن ساموبل بينسكر...".

لم يشأ استخدام كلمة *اغتصبك* كي لا يذلّها.

"... كان مسؤولاً".

أنـــزلت يدها، وبدت عيناها وكأنهما تحترقان في الضوء الخافت.

"كان هناك ثلاثة منهم".

وشعر خليفة بانقباض في حَلقه.

"كان هناك ثلاثة مجرمين لم يتم تقديمهم للعدالة مطلقاً. ثلاثة وحوش مـــاتوا بسلام على أسرّتهم في حين أن ضحيّتهم...".

وطأطأت رأسها، وغاب وجهها في الظلام لدرجة أنه بات من المستحيل رؤية تعابير وجهها. جلس خليفة هناك لاعناً نفسه بسبب أنانيّتـــه، ولفتحـــه الجِـــراح الماضية، وجعْله المرأة المُسنّة تعيش مجدّداً حدَثاً بدا أكثر تكديراً مما تصوّر. مـــرت لحظات قليلة، فوقف قائلاً:

"لم يكن يُفترض بـــي القدوم. حدث ذلك منذ زمن بعيد، والأمر لا يعنيني. رجاءً *يا أمي*، سامحيني. سأغادر الآن".

واستدار في اتجاه الباب، ولكن صوتها الحازم على نحو غير متوقَّع أعـــاده إلى الوراء.

"سوف تبقى".

ورفعت رأسها، مُميلةً وجهها نحوه. كان يحمل أخاديد عميقة، لدرجـــة أن التجاعيد بدت أكثر من الجِلد.

"حملتُ هذا السر طوال ثمانين عاماً. حان الوقت لإخبار أحدهم بالحقيقـــة. ساعدني يا الله، كنت سأقوم بذلك من قَبْل لو علمتُ أن هناك مـــن سيُصـــغي. ولكن، أن أكون امرأة في مصر، ولا سيما فلاحة؛ فهذا لا يسمح لي بالتكلّم عـــن هذه الأمور. لا يجدر بـــي التكلّم أبداً إذا كنت أعرف صالحي. وحتى لو فعلـــتُ، لَما أحدث ذلك أي فارق؛ فقد كان أشقائي أذكياء".

وشعر خليفة بانقباض إضافي في حَلقه، وفي معدته أيضاً.

"الله أكبر! أتقولين إن أشقاءك متورّطون في الاغتصاب!؟".

هذه المرة قال ذلك بالفم الملآن. وكان وَقْع الصدمة كبيراً عليه، لدرجة أنه لم يقلق بشأن التفاصيل الصغيرة ذات الدلالات. ابتسمت المرأة المُسنّة، وقد فاجأه ذلك، عِلماً أنه لم يرَ في حياته مطلقاً ابتسامة مع هذا القدْر القليل من حسّ الفُكاهة.

"لم يحدث أي اغتصاب"، همست بصوت أعلى بقليل من هسهسة قنديل الكاز. "لم يمسّني أحد بإصبعه، ولا سيما ساموبل بينسكر".

ولفظت الاسم *سام-وو-يل-بين-س-كر*، ولم يكن اللفظ يحمل أيّ مرارة يمكن توقعها من امرأة هاجمها حامل الاسم، بل بالعكس تماماً: كانت لهجتها توحي بالرّقة وبمشاعر جيّاشة. فتقدّم خليفة خطوة إلى الأمام.

"ولكن، كان هناك شاهد. فتى صغير. لقد رأى...".

"ماذا؟ ماذا رأى؟".

"رأى بينسكر وهو يعتدي عليك". كان باستطاعة خليفة سماع الرئيس صادق وهو يصف الاعتداء. "كنت تبكين، وتناضلين...".

تنهّدت، وهزّت رأسها ببطء.

"نحن لا نفهم على الدوام كل ما نراه أيها المفتش، ولا سيما من خلال عينَي فتى. فعندما يرى طفل دموعاً لا يخطر بباله أنها ربما تكون دموع فرح. وعندما يرى رجلاً يمسك بامرأة، فهو يفترض أنه لا بد أن يكون اعتداء. ما رآه الفتى لم يكن ما ظنّ أنه رآه".

لم يكن هناك أي حِقد في صوتها، بل حزن فقط، حزن غير محدود. وقف خليفة في مكانه للحظات، ومن ثم عبر الغرفة، وسقط على ركبتيه أمامها. كانت صغيرة جداً ومنحنية الظهر، والأريكة منخفضة جداً، لدرجة أن رأسه بقي فوق مستوى رأسها بالرغم من جلوسه.

"ماذا حدث في تلك الليلة *يا أمي؟*".

"ماذا حدث؟ حدث أمر رائع. لقد طلب الرجل الذي أحببتُه الزواج بي، ووافقتُ. كانت أسعد ليلة في حياتي، لفترة وجيزة على الأقل".

وتنهّدت، وأمالت رأسها محدّقةً من فوق كتف خليفة في اتجاه الظلال في الزاوية العليا للغرفة. كانت أفكار خليفة تتزاحم في رأسه، محاولاً الخروج باستنتاج

منطقي. فكل ما سمعه عن بينسكر، وكل ما افترضه في الأيام القليلة الماضية، انهار أمام ناظرَيه كصورة فوتوغرافية تتحول إلى رماد بين أطراف أصابعه. اقترب أكثر من المرأة المُسنّة، وأمسك بيدَيها.

"أخبريني"، قال. "رجاءً *يا أمي*. أريد أن أفهم".

في الخارج، بدأ الحمار ينهَق مجدداً بصوت عال، وبدا مستاءً بطريقة ما كما لو أنه جزء من واقع منفصل. وداخل الغرفة، كان الصمت كثيفاً جداً لدرجة أنه شعر كما لو أنه باستطاعته تذوّقه. ومرت ثوانٍ، أو ربما دقائق؛ فمنذ لحظة دخوله منزلها، بدا له كما لو أنه قد فقد كل حسّ بالزمن. ومن ثم، سحبت يدَيها من يدَيه ببطء ووضعتهما على وجهه، ممرّرةً أطراف أصابعها جيئةً وذهاباً - الفم، الأنف، الخدّان، الأهداب، الجبين - متتبّعةً ملامحه كما لو أنها خطوط مكتوبة بلغة بريل.

"أنت رجل صالح"، همست. "رجل لطيف. سمعت ذلك في صوتك، والآن أقرأه في وجهك. أقرأ الألم أيضاً، والكثير من الغضب، ولكن الطّيبة تتغلّب عليها كلها كما كان حال *سام-وو-يل*. كان رجلاً صالحاً، بل كان أفضل رجل عرفتُه في حياتي. ربما كنتَ الشخص المناسب لسماع الحقيقة".

وأمسكت بوجهه للحظات إضافية. وبعد ذلك، أنزلت يدَيها، وأسندت ظهرها، وأغمضت عينَيها وأخبرته القصة.

لقد أنقذها بينسكر من أشقائها. هكذا بدأ الأمر.

كان يعمل في مدفن في التلال فوق القُرنة القديمة. وذات مساء، كان عائداً إلى بيته مروراً بالقرية، ورآها تتعرّض للصَّفع فتدخل. وفي أثناء المشاجرة، لكم أحد الأشقاء بقوة لدرجة أنه أفقده وعيه (تردد صوت ماري دوفريسن في رأس خليفة بوضوح كما لو أنها جالسة قربه: *لقد دخل عراكاً مع بعض القُرناويين ذات مرة، فطرح أحدهم أرضاً وأفقده وعيه*). وفي وقت لاحق، اكتشفت الفتاة أن بينسكر كان يراقبها طوال عام، ولم تصدر منه أي بادرة بسبب شعوره بالخجل من مظهره.

"كان رجلاً أحمق!". وضحكت. "ما الفارق الذي كان سيشكله ذلك بالنسبة إليّ؟ فما أراه موجود في الداخل. وفي الداخل كان الرجلَ الأكثر وسامة في العالم. إذ لم يسبق لأحد أن عاملني بذلك القدْر من الاحترام والوقار".

وشرع الاثنان بالالتقاء؛ الفلاحة العمياء والإنكليزي مشوّه الوجه. وتطوّرت الصداقة بينهما بسرعة إلى علاقة غرامية في ظل أوقات مختطَفة قضياها معاً، وبسرّيّة قصوى بالطبع. فحتى الوقت الحاضر، يُنظَر إلى العلاقة بين *هاواغا* وفلاحة بعين الرّيبة، هذا إذا لم تتمّ إدانتها على الفور. وفي العام 1931، لم يكن بالإمكان تخيُّل علاقة مماثلة. لقد قال لها بينسكر في مناسبات عديدة إنه يجب على هذا الأمر أن ينتهي خوفاً منه على سلامتها. ولكن مشاعرهما كانت قوية، وحبهما عظيم جداً، واستمرت لقاءاتهما.

"كان في العقد الرابع من العمر، وكنت في التاسعة عشرة من عمري"، قالت. "ولكن علاقتنا لم تكن مجرد مغازلة. كنت أتمتع بحكمة تفوق حكمة من هنَّ في مثل سنّي، وأعرف بالتحديد ما أقوم به. ربما كان أكبر سنّاً مني، ولكن المهم هنا...".

ولمست رأسها بيدها.

"وهنا...".

ونزلت اليد إلى قلبها.

"... كنا متساويَين. وفي معاناتنا أيضاً، فقد شملنا الله برحمته".

ولمست عينَيها ووجهها في إيماءة تشير إلى عماها وتشوّه بينسكر.

"كان مظهره يؤلمه جداً"، قالت بحزن. "كان قوياً، ولكن القوة ليست كافية أحياناً. فالهمسات، والنظرات، والتعليقات كانت تُرهقه. ذات مرة، رأته فتاة صغيرة، *خواجاية*، في مدينة هابو، فزعقت وهربت كما لو أنه مِسخ من نوع ما. لقد بكى عندما أخبرني بذلك، وتلوّى بين ذراعيّ وانتحب كطفل". (صوت ماري دوفريسن مجدداً: *أتذكّره فقط يظهر فجأةً، فأزعق وأهرب، ويتبعني بقناعه المُريع ذاك. لقد انتابتني كوابيس طوال أسابيع بسبب ما حدث*).

كان بينسكر يخرج إلى الصحراء أحياناً، ويتوارى عن الأنظار طوال أسابيع متتالية (أراد خليفة الضغط للحصول على المزيد من المعلومات حول هذا الأمر، ولكنه امتنع عن ذلك). ولكنه كان يعود على الدوام، ويلتقي الاثنان بالحرارة نفسها التي كانا يشعران بها عندما يفترقان لفترة من الزمن.

"كان لطيفاً جداً، ورقيقاً جداً، ولم يستغلّني قط. ولو أراد ذلك لَسمحتُ له، ولكنه كان محترَماً جداً. قال إن الأمر غير صائب. كنت أشعر بالأمان في حضوره،

وبأنني كاملة تماماً. فقبل ذلك الحين، كنت أشعر بأنني غير جديرة بأن أكون نصف إنسان".

وتواصلت المغازلة لمدة عام، وكانت المواعيد السرّيّة تتمّ بين الأطلال القديمة القائمة على امتداد الجبال الطيبيّة. ومن ثم، وبعد غياب أطول من المعتاد (كيف يمكن لخليفة أن يضغط!) التقى العاشقان ذات ليلة في مكانهما المفضَّل على ضفة النيل، وطلب منها بينسكر أن تصبح زوجته.

"لم أستطع التصديق بأن الشعور بسعادة مماثلة أمر ممكن، وظننت أنه يمازحني، وتوسّلت إليه كي لا يلحق الأذى بي، ولا يلعب بمشاعري، ولكنه ضحك فقط، وطلب مني ألا أكون حمقاء إلى هذا الحد. وحتى الآن، يمكنني سماع صوته، وشمّ رائحة جلد معطفه حين كان يضمني إليه، ورائحة الزيت على يدَيه. لقد بكيتُ فرَحاً".

أرادت الفرار معه على الفور، ولكن بينسكر أصرّ على القيام بالأمور بالطريقة الملائمة. لقد أراد الذهابَ لمقابلة والدها في صباح اليوم التالي، وطلب يدها رسمياً. وحتى ذلك الحين، عليها إبقاء خطبتهما سرّيّة، وعدم إخبار أحد بها.

"كنت خائفة"، قالت. "كنت أعرف موقف عائلتي وإمكانية حدوث متاعب. ولكنه كان جديراً بالاحترام، كان الرجل الأكثر جدارة بالاحترام الذي التقيته يوماً. ولو لم يكن كذلك لَعاش ربما".

في تلك الليلة، عادت إلى المنزل وأعدّت أفضل الملابس لديها استعداداً لصباح اليوم التالي. خلدت إلى النوم فرحة، وحلمت *بسام-وو-يل بينسكر* وبالحياة البهيجة التي سيتشاطرانها.

وقبل ساعة من بزوغ الفجر، استيقظت مُجفَلة، وشعرت بألم رهيب في صدرها.

"علمتُ على الفور أن مصيبة ما ألّمت به"، قالت. "مصيبة مروِّعة. لقد بدا الأمر كما لو أن قلبي يصرخ".

وبعد وقت قصير، عاد أشقاؤها إلى المنزل على متن عربة نَقل يجرّها حمار. لقد واجهتْهم وطلبتْ أن تعرف أين كانوا وماذا فعلوا. لقد تمّ التعاطي مع *الخواجا*.

هذا كل ما قالوه لها. و لم تره مجدداً. لم يرَه أحد مجدداً. لقد تمّت مشيئة الله، وتحققت العدالة.

"العدالة!". قالت. "كانوا يعلمون أنه لم يغتصبني. كانوا يعلمون ذلك جيداً حتى قبل أن أصيح في وجوههم مُخبرةً إياهم بالحقيقة. كان عذرهم الوحيد أنهم انتظروا الفرصة المناسبة طوال عام للثأر منه بسبب تصدّيه لهم بشجاعة في ذلك اليوم. وعندما جاء الفتى راكضاً مع قصته، اغتنموا الفرصة. كانوا رجالاً أشراراً وقساة القلوب".

لقد بكت، ولعنت أشقاءها، وهدّدتهم بالذهاب إلى الشرطة. لذلك جرّوها من شعرها إلى الداخل، وأبرحوها ضَرباً؛ لدرجة أنها احتاجت إلى شهر كامل حتى تتمكن من السير مجدداً.

"كنت سعيدة بالألم، وممتنّة له. فقد سمح لي بمشاطرة *سام-وو-يل* أمراً ما مرّ به. كنا معاً في الألم".

لقد تمّ الاحتفاظ بها سجينة فعلاً طوال السنوات الأربعين التالية، ونادراً ما كانت تجازف بالخروج من منزل العائلة، و لم تكن تتكلم إلا نادراً؛ كالميت الحي. وحين عثروا على جثة بينسكر، ماتت مجدداً.

"ما لا أستطيع فهمه هو كيفيّة ارتكاب أشقائي جريمة مروِّعة مماثلة؛ بهذه الوحشية التي لا تُطاق، ومع ذلك يفلتون من العقوبة. ولكن عدالة من نوع آخر تحققت؛ إذ لم يتمكن أحد منهم من إنجاب ذُرّيّة. لقد مات الثلاثة من دون أن ينجبوا أبناء. إن هذا الأمر يمنحني القليل من العزاء".

بعد وفاة آخر أشقائها، غادرت القرية وانتقلت جنوباً، وبدأت حياة جديدة. لقد عملت لكي تحمل السعادة التي حُرِمت منها للآخرين.

"لم أزُر قبره قطّ"، قالت. "لم أرغب في ذلك مطلقاً. فهو لا يزال يعيش هنا...".

ولمست قلبها.

"وبالنسبة إليّ، هذا كل ما يهمّ. فاسمه على شفتيّ عندما أستيقظ في الصباح، وأخلد إلى النوم في الليل، ويكون ملايين المرات على شفتيّ بين الاستيقاظ والنوم. إنه أجمل اسم في العالم. يا زوجي، يا زوجي الحبيب. إنه أفضل رجل عرفتُه يوماً".

ومرّرت إصبعها المجعدة تحت عينَيها لتمسح دموعها، عِلماً أن عينَيها كانتـا جافَّتَين.

"هذه"، قالت، "قصة إيمان و*سام-وو-يل*".

ألقى خليفة رأسه بجانبها. لم يكن يعرف كيف يشعر، فكيف يعرف ما يجدر به قوله؟ كل ما كان باستطاعته التفكير فيه هو جثة بينسـكر المحنَّطـة الملقـاة في الناحية الخلفية للمدفن، وابنه علي الشاحب والمستلقي بلا حـراك علـى سـرير المستشفى بعد إطفاء الجهاز الداعم للحياة. إن حكمة الله غامضة بالفعل، غامضـة جداً لدرجة أنها ليست المرة الأولى في الأشهر التسعة الأخيرة تلك التي يجد نفسـه فيها يتساءل عن ذلك.

"الأمر متعلّق بالمنجم، أليس كذلك؟".

فرفع نظره.

"إنه سبب وجودك هنا". وتحوّلت عيناها في اتجاهه. "المرأة في القدس. علاقة *سام-وو-يل*. إنه المنجم، أليس كذلك؟ منجم الذهب الذي عثر عليه".

مرة أخرى، بدا له أنها تسبقه بأشواط.

"نعتقد ذلك"، أجاب.

"كان *سام-وو-يل* يقول على الدوام إن أي خير لن ينجم إذا انتشر الخـبر. بالنسبة إليه، لم يكن الذهب يعني شيئاً. ولكن، بالنسبة إلى الآخرين... هناك الكثير من الجشع في العالم".

دخل هر الغرفة من الناحية الخلفية للمنـزل متبختراً. وقفز علـى الأريكـة بجانب المرأة المُسنّة وتكوّر قرب قدميها.

"كان شديد الحماسة"، قالت وهي تمدّ يدها وتمرّرها على امتداد عمـود الهـر الفِقري. "في تلك الليلة الأخيرة، عندما عاد أخبرني أنه وجده. كان يبحث عنه طيلة سنوات، شهراً تلو شهر وبمفرده في الصحراء. وأخيراً، في رحلته الأخـيرة... لقـد مكث هناك ثلاثة أشهر، وقال لي إنه لم يستكشف نصفه بعد. إنه أشبه بمدينة تحـت الأرض كما قال، *عالم تحت الأرض*. كان في غاية السعادة. كنا في غاية السعادة".

وابتسمت بحزن ولزمت الصمت. كانت هناك عدة أسـئلة يريـد خليفـة طرحها، وكان بحاجة ماسّة إلى المعرفة، ولكن بعد كل ما سمعـه هـذه الليلـة

يتمكن من إيجاد صوته. وكان الهرّ يخرخر، وقنديل الكاز يهسهس. وانقضت دقيقة تقريباً.

"ما كان اسمها؟". سألت أخيراً. "تلك المرأة التي قُتلت".

فأخبرها خليفة.

"هل كانت إنسانة صالحة؟".

فاعترف أنه لا يعرف الكثير عنها.

"أعتقد أنها كانت صالحة. أظنّ أنها حاولت مساعدة الناس وفضْح الأعمال المسيئة".

"والمنجم، هل هو هام؟ هل يساعدك جمع معلومات عنه على تحقيق العدالة لأجلها؟".

مرة أخرى، لم يكن خليفة واثقاً.

"أعتقد ذلك"، كرر.

وساد الصمت مجدداً، وبدأت المرأة المُسنّة تنطوي على ذاتها كما لو أنها تُمعن التفكير في أمر ما. وبعد ذلك، سحبت يدها ببطء عن ظهر الهر، وبحثت داخل طيّات ثوبها، وأخرجت شيئاً ما لم يتبيّن ماهيّته على الفور، ولم يُدرك أنه دفتر مُدوَّنات إلا عندما سلّمته إيّاه. إنه دفتر مدوَّنات قديم، على غلافه الجِلدي المتغضّن بُقَع، وصفحاته مطويّة الزوايا ومصفرّة بسبب قِدَمها.

"*سام-وو-يل* أعطاني إيّاه"، قالت. "في تلك الليلة الأخيرة، عندما طلب يدي. قال لي إنه لم يكن يملك الوقت لشراء خاتم، ولكنه عِوضاً عن ذلك سيترك معي أثمن شيء يمتلكه دلالةً على صِدقه. إنها مدوَّناته عن المنجم. لا تزال بجانب قلبي منذ ثمانين عاماً. لم يسبق لأحد أن رآها، ولا حتى أنا".

فألقى خليفة نظرة على الدفتر، وارتفعت وتيرة نبضه فجأةً، وتسارع تنفّسه. ووقف بعد ذلك، وتوجّه إلى قنديل الكاز، ووضع الدفتر تحت ضوئه، وشرع بتقليب الصفحات بعناية.

كانت هناك كتابة - متلاشية، عنكبوتية الشكل - وقوائم بأرقام اعتبر أنها لا بد أن تكون قياسات ورسوماً. صفحات من الرسوم: رسوم تقريبية لأدوات قديمة وأغراض منذورة، نسخات لنقوش وكتابات هيريّة، تصميم مَطويّ مُتقَن للمنجم،

أو على الأقل لذلك الجزء الذي تمكّن بينسكر من استكشافه؛ صفوف مُربِكة من الأنفاق والممرات والغرف، وفتحات عمودية للتهوئة؛ كلها تتفرّع من دِهليز مركزي واسع كما لو أنه نظام أوعية تحت أرضي رَحب.

وفي آخر الدفتر تماماً، ورقة أخرى مَطويّة ومُلصَقة على الناحية الداخلية لغلافه الخلفي. إنها خارطة للصحراء الشرقية غير مفصَّلة كالخارطة التي أراه إيّاها صديقه عمر في الصباح، ولكنها مفصَّلة بقدْر كافٍ: النيل، البحر الأحمر، الوديان، الجبال. وهناك، في وادٍ صغير على صورة مِنجل مدسوس تحت الضفة الغربية لجبل الشَّلول، إشارة بالغة الصِّغر مرسومة بقلم رصاص وبجانبها حرفان: *م أ*.

"الحمد لله"، همس خليفة.

ولزم مكانه للحظات، ومن ثم أعاد طيّ الخارطة وأغلق الدفتر.

"أخشى أنني أطلب منك الكثير *يا أمي*، ولكن هل يمكنني...".

"خذه"، قالت المرأة المُسنّة. "مع برَكتي، ومع بركة *سام-وو-يل* أيضاً. هذا ما كان سيريده حتماً. كان تحقيق العدالة هامًّا بالنسبة إليه، وإليّ".

"سأحافظ عليه وأفديه بحياتي"، قال خليفة. "وسأعيده لك حالما أنتهي منه".

فأومأت برأسها. وزن الدفتر بيدَيه، ومن ثم توجّه إليها، وانحنى وقبّلها على خدّيها.

"*شكراً كثيراً، يا أمي*".

"*عفواً*".

وشرع بتقويم وقفته، ولكنها أمسكت يده، وأمالت وجهها نحوه، وجهاً لا يزال يحمل جمالاً مختفياً تحت التجاعيد، بالرغم من سنّها، كما لو أنه يتمّ إلقاء نظرة مُبهَمة على شابة من خلال ورقة رقّ متغضّنة.

"إنه يرقد بسلام"، قالت. "هناك نور ذهبي، وعلي يرقد بسلام داخله. لا تنسَ ذلك أبداً".

وأمسكت يده للحظات إضافية، ومن ثم أفلتتها وأومأت له في اتجاه الباب. و لم يكد خليفة يخرج حتى بدأ يذرف الدَّمع.

رأس الشيطان، خليج العَقَبة

"أيّ واحد منهم؟".

"ذلك الموجود في النهاية".

"لا أصدّقك".

"تحقق من الأمر بنفسك. إنهم عملاء سرّيّون، صدّقني".

وانسلّ الفتَيان على امتداد صف الشاليهات، وأقدامهما تغرق في الرمال من دون إحداث أي صوت. كانت الأمواج تهسهس وتصطدم بالشاطئ إلى يمينهما، ووراءهما، تكاد تُسمَع موسيقى خافتة من المبنى الرئيس للمنتجَع. وباستثناء ذلك، كان كل شيء هادئاً، فيما القمر برتقاليّ اللون يرتفع فوق البحر كميدالية.

وبلغا الشاليه الأخير في الصف - الوحيد المأهول في نهاية قرية الإجازات هذه - وزحفا إلى الناحية الخلفية. كانت هناك سيارتا لاندكروزر، وكانتا مركونتَين جَنباً إلى جَنب في الخليج الذي حُوِّل إلى موقف إسمنتي.

"لقد وصلوا هذا المساء. إنهم أربعة. لديهم أحمال من معداتِ التجسس. انظر".

لم يكن بالإمكان استراق النظر عبر نوافذ الشاليه بسبب الستائر المُسدَلة بإحكام. ولكن، بعد تسلّق مَنفَذ تكييف الهواء - بحذر كي لا يُحدثا أي ضجيج - تمكنا من استراق النظر عبر فتحة ضيّقة بين الزاوية العُليا لإحدى الستائر وإطار النافذة. في الداخل، ومن خلال المثلَّث الضيِّق لزجاج لم تطَله الستائر، تمكنا من رؤية سرير، وبعض الحقائب، وكومة من الصناديق المعدنية، وطاولة. كان هناك شخصان، رجل وامرأة، يحدّقان بجهاز كمبيوتر حضني مفتوح. كانا يضعان سمّاعات رأسية. وهناك رجل آخر راكع على الأرض يعبث بأداة إلكترونية، فيما استلقى الشخص الرابع - امرأة - على السرير، متصفّحةً مجلة، وعلى الوسادة بجانبها سلاح.

"ماذا قلت لك؟" همس الفتى. "إنهم جواسيس".

كان صوته أكثر انخفاضاً مما كان يعتزم، ولكن المرأة على السرير رفعت نظرها، وقالت شيئاً ما. فاستدار رفاقها، وقفز الفتَيان وتواريا بأقصى سرعة بين الشاليهات، مذعورَين جداً لدرجة أنهما لم ينظرا إلى الوراء.

وعندما عادا بعد ساعة، وكان فضولهما قد أخذ منهما كل مأخذ، لم يجدا سيارتَي اللاندكروزر، وكان الشاليه فارغاً كما لو أن أحداً لم يكن موجوداً. تناقشا في شأن إخبار مدير المنتجَع عما شاهداه، ولكنهما قررا عدم القيام بذلك. فقد كانت السياحة في حالة من الركود، وستُلقى اللائمة عليهما بسبب حملهما الزبائن على المغادرة. وبأي حال، قد لا يصدّقهما أحد. لذلك احتفظا بالأمر لنفسَيهما؛ إنه سرّهما. فبعد سبعين عاماً، وعندما يغدوان مُسنَّين ومُحدَودبَين، سيستمران بالاستمتاع بتدخين النارجيلة، ومناقشة اكتشافهما وجود عملاء سرّيين قرب البحر.

القدس

عندما وصل بِن - روي إلى الكيشل عند الساعة السابعة من صباح يوم الثلاثاء، كان في مِزاج جيد، وأفضل بالتأكيد مما كان عليه في اليوم السابق. لقد نام جيداً، وكان الصباح جميلاً، وسيقصد منزل سارة في المساء لتناول العشاء معها. إنها المرة الأولى التي ستطهو له فيها منذ انفصالهما؛ وهذه دلالة جيدة.

ولكن، تبدّل مِزاجه لحظة دخوله المركز.

لقد صادف في بادئ الأمر ييغال دورفمان، وهو المحقق في قضية مقتل أحد طلاب اليشيفا طَعناً. كان قصير القامة، وأشبه بابن عرس، ووغداً مغروراً لا يُطاق في أفضل الأحوال، ولا سيما هذا الصباح عندما ألقى بذراعه على كتف بِن - روي وأعلمه بابتهاج بإقفال قضية مقتل الطالب.

"اعترف فتى عربي قبل ساعتَين"، قال متبجحاً ومدخناً سيجاره. "خبراء جنائيون صارمون في الأدلة الجنائية. المفوَّض سعيد. إهانات قذرة في أرجاء المكان. ولكن، كفى كلاماً عن هذا الموضوع: كيف تسير قضيتك؟".

والمعنى الضمني لهذا السؤال الذي يمكن ملاحظته بسهولة هو: لا تسير بمقدار نصف مسار قضيّتنا.

بعد دقائق قليلة، فيما كان لا يزال يشعر بألم معنوي لاذع، استُدعي إلى مكتب الرئيس غال، ووُبّخ بسبب طريقته في إدارة النقاش مع ناتانيال بارين في الليلة

السابقة. لقد قصد ممثلو بارين ووزارة العدل ومكتب رئيس الوزراء لحظة انتهاء المقابلة، وتقدّموا بشكوى رسمية بسبب منحى الاستجواب الذي قام به بِن - روي.

"لا يمكنك دخول المكان وشتم هذا النوع من الأشخاص"، قال غال بغضب.

"ولكن بارين ماكر يا سيدي. الشركة والعائلة. كلهم متورّطون في هذه القضية".

"إنهم يُقيمون أفضل العلاقات مع نصف الكِنيست اللعين! هل حصلتَ على أي دليل؟ أي دليل حقيقي؟".

فأقرّ بن - روي بأن لا دليل لديه.

"إذاً، أَقلع عن إزعاج الآخرين حتى يصبح لديك دليل. هل هذا مفهوم؟ لقد عانيتُ الأمرَّين بسبب هذا الأمر ولا أريد المزيد. الآن، اخرُج".

عندما اتصل خليفة قبل الساعة الثامنة، كان مِزاج بِن - روي الجيد ذِكرى بعيدة.

"رجاءً، قل لي إن لديك أمراً ما لي"، قال وهو يدير كرسيّه بطريقة تحول دون نظره إلى التّحريَين الزميلَين يوني زِلبا وشيمون لوتزيتش اللذين كانا يرتشفان الشراب ويتباهيان بالنهاية الناجحة لتحقيقهما.

"حسناً"، قال خليفة. "لقد عرفت مكان منجمك".

كان بِن - روي يجلس مترهّلاً على مقعده. ولدى ذِكر المنجم، جلس منتصباً.

"أنت تمزح".

"الشرطة المصرية لا تمزح أبداً".

فابتسم الإسرائيلي لذلك. وفجأةً، شعر بعودة مزاجه الجيد.

"كيف عثرتَ عليه؟".

وأخبره خليفة عن لقائه إيمان البَدري.

"قضيتُ نصف الليل وأنا أراجع دفتر مدوَّنات بينسكر"، قال. "إنه لا يصدَّق. لا يصدَّق البتة. يبلغ عمق الدّهليز الرئيس للمنجم مِيلاً تقريباً، وهناك مئات الفتحات العمودية للتهوئة، والأنفاق، والأنفاق الفرعية. وهذه هي ناحية المنجم التي تمكّن بينسكر من استكشافها فقط".

"والذهب؟".

من المزعج أنه السؤال الوحيد الذي لم تُجب عنه مدوَّنات بينسكر. لقد ذكر قيامه بأخذ بعض العيّنات من صخور المنجم، ولكن من الواضح أنه قُتل قبل أن تتسنّى له فرصة تحليل العيّنات بشكل ملائم. باستثناء ذلك، لم يكن هناك أي ذِكر للموضوع.

"هذا لا يعني أنه لا وجود لأي منه هناك"، قال خليفة. "أخبرني الرجل الذي تحدثتُ إليه على متن اليخت قبل أيام، الإنكليزي، أن بينسكر لم يكن مهتماً بالذهب، بل أراد فقط جمع معلومات عن العمال في الأزمنة القديمة. لذلك، من المحتمَل أن يكون المنجم مليئاً بالذهب. لن نعرف ذلك حتى نقصد المكان".

"اليوم؟".

"لسوء الحظ لا".

"إن العثور على شيء مهم من هذا النوع يرتِّب علينا المرور بالكثير من الإجراءات البيروقراطية"، شرح خليفة. "لقد أبلغتُ الوزارة، وسيرسلون شخصاً ما يوم غد لإلقاء نظرة على دفتر المدوَّنات. ولديّ اجتماع بعد ظهر اليوم مع ممثل المجلس الأعلى للتحف الفنية القديمة. في الواقع، لن تنتهي الإجراءات الروتينية قبل نهاية الأسبوع على الأقل".

"ألا يمكنك الإسراع؟".

"ثِق بي، وفقاً للمعايير المصرية، تُعتبر نهاية الأسبوع بمثابة سرعة الضوء".

فتأفف بِن - روي. إن الأمر مُحبِط، ولكن ليس بيده حيلة. على الأقل، لقد عثروا على المنجم. إنها خطوة كبيرة في الاتجاه الصحيح. في هذه الأثناء، هناك الكثير من الأمور الأخرى التي تشغله وزيسكي. فهما لا يزالان بحاجة إلى حلِّ مسألة فوسغي، وربما مكّنهما ذلك من إلقاء نظرة على وليام بارين عن كثب. ومن ثم، هناك قائمة الشركات المصرية تلك التي أعطته المرأة المنتمية إلى نمِسيس إيّاها: ربما كان بإمكانها إلقاء بعض الضوء على القضية. في الواقع، عندما كان يتحدث إليه عبر الهاتف...

"اسمع يا خليفة، لقد قمتَ بأكثر مما ينبغي. ولكن، هل يمكنني الاستفادة من أفكارك في أمر إضافي".

"بالطبع. أي أمر تشاء".

وأخبر بِن - روي المصري عما مرّ به بعد ظهر اليوم السابق.

"أعطتني تلك المرأة قائمةً بشركات في مصر تُجري معها بـــارين معـــاملات تجارية. يمكننا القيام بكل العمل التمهيدي من هنا، ولكنني أتساءل عما إذا كنـــتَ تعرف أيّاً منها، وذلك بهدف تضييق نطاق البحث قليلاً".

وسحب الورقة من جَيبه، وبسطها على الطاولة. كان هناك نحو أربعين اسمـــاً موضوعاً بالترتيب الأبجدي.

"هل أنت مستعدّ؟".

"أَطلق النار".

"أداراه ترايدينغ".

"لم أسمع بها من قَبل".

"أمسكو".

"لا".

"بنك مصر".

"بالطبع. إنه من أكبر مصارفنا".

"أهو مستقيم؟".

"حتى الآن وفقاً لمعلوماتي. يشتهر بخدمته البطيئة".

فابتسم بِن - روي، وتابع.

"دِلتا سيستمز".

"لا".

"دُرَبـــي".

"لا".

"إغاز".

"إنها شركة الغاز الطبيعي المصرية القابضة"، قال خليفة. "إنها تكتّـــل كـــبير يُشرف على كل احتياطيّنا من الغاز".

ربما تكون هذه الشركة على صِلة بعرض الأسعار الذي تقدّمت بـــه بـــارين للحصول على امتياز في حقل الغاز الصحراوي. فوضع بِن - روي علامة نجمـــة بجانب الاسم، اعتقاداً منه بأن الأمر جدير بالبحث.

"فاوزر إلكترونيكس".

"لا".

"فوزكي مِتالز".

"لا".

"جمالي ليمتد".

"لا".

وتابع في اتجاه آخر القائمة. كان خليفة قد سمع بالقليل من الأسماء، في حين أنه لم يسمع بمعظمها. ولم يلفت أيّ منها انتباهه لجهة تورّطه بمعاملات تجارية ماكرة. وإغاز هي الوحيدة التي وضع بن - روي بجانبها علامة نجمة.

ووصل إلى آخر الصفحة وقلَبها. كانت هناك ثلاثة أسماء إضافية على الجهة الأخرى.

"عُمارة كونكريت"، قرأ.

"لا".

"واستي لوجيستيكس".

"لا".

"زوسِر فريت".

وساد الصمت.

"زوسِر فريت"، كرّر.

"أجل".

"أجل، ماذا؟".

"أجل، لقد سمعتُ بها".

وبدا صوت المصري بعيداً فجأةً، كما لو أن انتباهه قد تحوّل في اتجاه آخر ولم يعُد مركّزاً على الحديث بالكامل.

"وماذا أيضاً؟". سأل بن - روي.

مجدداً، كان عليه تكرار السؤال قبل الحصول على إجابة.

"إنها شركة نقل"، تمتم خليفة. "كبيرة. كبيرة جداً. طرقات، سكك حديد. أنهار، ذلك النوع من الأمور. لديها العديد من الصِّلات مع الحكومة".

"هل هذا كل شيء؟".

"تقريباً، ولكن هناك أمراً واحداً بعد".

"هيا".

وسُمع صوت تنهّد.

"قتل ابني علي بسبب صَندل تابع لزوسِر فريت".

عندما أنهى بن - روي المكالمة، جلس خليفة لمدة طويلة من الزمن محدّقاً بالفضاء، وضارباً بخفّة على الطاولة بعلبة سجائره.

إنها مصادَفة بالتأكيد. فزوسِر شركة ضخمة، ولا شيء غير طبيعي في شأن معاملاتها التجارية مع شركة ضخمة أخرى. ومع ذلك... ومع ذلك...

لقد شعر منذ البدء بأمر ما يتعلق بقضيّة ريفكا كلينبرغ؛ لقد شعر بأنّ جانباً ما من جوانبها يدعوه ويجتذبه. هناك شيء ما يتعلّق بالقضية ويتخطى مجرد الرغبة في مساعدة صديق أو دخول لُبّ لغز مثير للفضول؛ شيء ما جعله يلتزم بالتحقيق، ويواصل التعمّق في القضية، ولا يتجاهلها، شيء ما...

محتَّم. والآن، هذا الأمر يظهر فجأة.

ونقر غطاء العلبة، ثم سحب سيجارة بأسنانه، وتركها تتدلى من دون إشعالها.

لم يتعمّد يوماً تحميل زوسِر مسؤولية الحادث؛ ليس بالكامل، على الأقل. أجل، كان الصَّندل خارج مساره، ولم يقُم الرَّقيب الأمامي بعمله بشكل ملائم، ولكن لم يكن يُفترض بعلي وأصدقائه النزول إلى النهر في المقام الأول.

وها هو يفكر بذلك. والمثير للفضول أنه لم يسبق له أن فكر بالأمر كثيراً، بل تقبّله كما يتقبّل المصريون الكثير من الظُّلم والجَور؛ كما لو أن عدم الإنصاف جزء من حمضهم النووي... وبعد التفكير بالأمر، تفاجأ خليفة بإلقائه اللوم على زوسِر كما لام المحافظة على جَرف نصف الأُقصُر، ومثلما لام النظام برمّته على إدارته ظهره للناس من أمثال عائلة عطيّة والفتى المعوّق في ملجأ الأطفال التابع لدميانا برَكات. لم يلمها على الحادث بحد ذاته، بل على عجرفتها، وعدم مبالاتها، ووفاة خمسة فتيان بسبب أحد صنادلها من دون أن تتكبد عناء إجراء تحقيق داخلي حول الاصطدام. لقد استخفّت بالأمر برمّته، وواصل جميع المسؤولين فيها حياتهم كما

لو أن شيئاً لم يحدث، وذلك على غرار الأثرياء والأقوياء الذين يستخفّون على الدوام بالأثر الإنساني الأشمل لأعمالهم.

وها هو اسمها يظهر فجأةً على رادار التحقيق في قضية جريمة قتل.

هل يعني ذلك شيئاً؟ تساءل، هل هذا القاسم المشترَك غير المتوقَّع بين الحادثتين المنفصلتَين في الظاهر محض مصادفة؟ هل هناك صِلة ما على نطاق أوسع؟

أم إنه يحاول ببساطة استخراج معنى ما من وضعٍ معيَّن، من دون أن يكون هناك أي معنى بالضرورة؟

لم تكن لديه أي فكرة. فأفكاره مشوَّشة ومُربَكة.

وكل ما باستطاعته قوله بالتأكيد - سواء أكان الأمر مصادَفةً أم غير مصادَفة - هو أنه شعر فجأةً برابط شخصي وقويّ مع قضية بِن - روي، كما لو أنه يدلّي قدمَيه على أطراف دوّامة مائية تقوم بسحبه إلى جَوفها.

وشعر أيضاً - لأسباب لم يتمكن من شرحها أو تفسيرها بشكل منطقي - بأن مساعدة بِن - روي على حل قضيّته ستساعده بطريقة ما على التأقلم مع وفاة ابنه على الأقل، إن لم تساعده على تخطّي هذه المِحنة.

يبدو أن طريق العودة إلى ضوء النهار تمرّ عبر المتاهة.

أسند ظهره، وأشعل سيجارة الكليوباترا، ودخّنها حتى عقبها، وحلَقات الدخان تنجرف وتشق طريقها متلوّية فوقه. وبعد ذلك، داس على عَقِب السيجارة، والتقط الهاتف، واتصل بموقف سيارات المركز.

كان قد استأجر في اليوم السابق سيارة فيات أونو متهالكة لقيادتها إلى قرية إيمان البَدري.

ومن أجل الرحلة التي سيقوم بها الآن، سيكون بحاجة إلى سيارة أكثر قوة.

* * *

فكرتُ طويلاً بعملية التطهير الوشيكة؛ إنها عملية العمليات، إذا شئتم. فكرتُ طويلاً لدرجة أن نبأ إخفاقي في العملية السابقة ترك أثراً في نفسي أقل مما لو لم أعمد إلى التفكير مطوَّلاً. لقد هزّني بالطبع نبأ تورّط العائلة وتلقّي التوبيخات؛ عِلماً أنني لم أتفاجأ. فمنذ البداية، كانت لي شكوكي حيال دار العبادة الكبرى. كنت

أعرف أنه لم يكن يُفترض بـي القيام بالأمر قبل الوقت المحـدَّد وفقـاً للخطـة الموضوعة.

ولكن، هذا ما حدث، ولا يمكن إعادة كتابة الماضي. فقدراتي مصبوبة الآن على المهمة قيد التنفيذ. احترم الماضي، ولكن لا تدَعْه يصرف انتباهك؛ إنه درس آخر تعلّمته من والدَيّ. أنا أنظر إلى المستقبل؛ مستقبلي ومستقبل العائلة.

كلوريد البوتاسيوم احتمال، والإنسولين أيضاً. والدقة أمر أساسي، والأمران لا يمكن اقتفاء أثرهما. ولكن ضيق الوقت قد يكون مشكلة.

سأُولي الأمر مزيداً من التفكير. ووفقاً لطبيعة الأمور، أميل إلى البساطة. لا إِبَر، لا حقائب، استخدمْ فقط ما لديهم في الغرفة. لقد أجريتُ بعض التمارين بواسطة مِعصمَيّ وذراعَيّ، وحدّدتُ أفضل وضعية لممارسة الضغط من دون ترك أي رُضوض. للتوازن الدقيق دور أساسي، ولكن يُفترض بـي أن أكون قادراً على إنجاز المهمة، وسيجنّبني ذلك النظر إلى الوجه. في العادة، لا تعتريني أي توجّسات من هذه الأمور، ولكنها عملية تطهير غير عادية. إنها نقطة تَحوّل كما يُقال.

وفي أثناء تحدّثي عن الأمر، آمل ألا أبكي. لست شخصاً عاطفياً بشكل صريح - لا يدخل ذلك حساباتي - ولكن، لا يمكنني التغاضي عن الاحتمال نظراً لضخامة الخطوة التي أنا على وشك القيام بها. فأيّاً يكن الدافع، لا يزال هناك رابط لن يكون من السهل قطعه بالرغم من ضرورة القطع.

سأُضيف أنسجة إلى عدّتي. آمل ألا أُضطر لاستخدامها، ولكنكم لا تعرفون ما قد يحدث. إنها أوقات متقلِّبة، والاستعداد هو الأساس.

* * *

عندما طار الغراب، كان لا يزال هناك أقل من 140 كيلومتراً بين الأُقصُر وجبل الشَّلول. ولو كانت هناك طريق مباشَرة لوصل خليفة إلى هناك في غضون ساعة.

لم تكن هناك طريق مباشَرة، بل دروب قليلة قيّمة: قَفْر مترامي الأطراف من الجبال، والجروف، وأغوار من الحصى، ووديان حوّلت الشمس لونها. إنها متاهة طبيعية مُفزعة تحمي متاهة *الشِموت نِت وسِير*. ستكون رحلة عسيرة ومحفوفة

بالمخاطر أيضاً حتى مع قيادة لاندروفر ديفِندر، وهي عربة مصمَّمة خصّيصاً لتحدّي الأراضي الوعِرة خارج الطرقات العامة، خارقاً بذلك أول قاعدة للسفر عبر الصحراء: لا تعبر الصحراء بمفردك أبداً.

ولكن، كان عليه المحاولة، و لم يستطع انتظار البيروقراطية المصرية لإنهاء مسارها اللامتناهي. أراد أن يعرف ما يحدث في المنجم، كان بحاجة إلى معرفة ذلك. وإذا ازدادت الأمور صعوبة، فباستطاعته العودة. كان قد اقترض أحد الهواتف العاملة بنظام الاتصال عبر الأقمار الاصطناعية ليقوم باستخدامه عندما يواجه متاعب حقيقية. سيكون *كل شيء بخير*، قال لنفسه. *الأمر صعب، ولكن كل شيء سيكون بخير.*

قبل الشروع في رحلته، توقف قرب شقته، وشرح لزينَب أنه يتعيّن عليه الذهاب إلى مَرسا علَم بسبب العمل، ومن المحتمَل ألا يعود إلى المنزل حتى وقت متأخر. إنها كذبة، ولكنه لم يشأ إقلاقها. فبوجود هاتف يعمل بنظام الاتصال عبر الأقمار الاصطناعية، أم لا، لا يزال الناس يموتون في الصحراء الشرقية، ولقد فقدت زينَب ابنها مؤخراً.

كان عليه التوقف في محطتَين للتزوّد بالمؤن – وقود إضافي، ماء، مصباح كهربائي للجَيب، سجائر، جبن، طعميّة، خبز بلَدي – وانطلق إلى وُجهته. على المقعد بجانبه توجد خارطة صديقه عمر للمرتفعات الوسطى في الصحراء، إضافةً إلى دفتر مدوَّنات ساموِيل بينسكر.

لم يكن تحديد مكان المنجم هو المشكلة، بل يكمن التحدي في الوصول إلى هناك.

وتمثّلت خطته بقطع أطول مسافة ممكنة على الطريق المعبَّدة، عِلماً أن ذلك يتطلّب منه قطع ضعف المسافة المطلوبة. لذلك، توجّه جنوباً أولاً نحو إدفو، وسلك الطريق العام 99 شرقاً نحو مَرسا علم وشاطئ البحر الأحمر. وفي منتصف الطريق، كان الطريق يلتفّ 99 بحدّة في اتجاه الشمال. وباندفاعه بقوة من الرأس المدبَّب لذلك الالتفاف، افترض أنه يتوجب عليه قطع مسافة تقلّ عن خمسين كيلومتراً في الصحراء قبل الوصول إلى محيط المنجم. لا تزال الطريق طويلة نظراً إلى طبيعة الأرض، ولكن كل كيلومتر يجتازه يزيد من فرص نجاحه في بلوغ مَقصده.

وهناك سببان آخران أيضاً لاختيار تلك الطريق بصفة خاصة. فوفقاً لـدفتر المدوَّنات، إنها الوُجهة التي سلكها ساموئيل بينسكر للوصول إلى المـنجم. وقافلـة الشاحنات التي رصدها من الفضاء فريق المسح التابع لجامعة حِلوان مرّت في تلـك الناحية من الصحراء بالتحديد. لم يكن يملك أي فكرة عمّا إذا كـان للقافلـة أي علاقة بالمتاهة، ولكن وجودها يوحي بأنه بالإمكان القيادة في تلك المنطقـة ولـو جزئياً.

كانت حركة المرور على الطريق 2 أكثر بطئاً من مساء اليوم السابق، واحتاج إلى ساعتَين تقريباً لبلوغ إدفو. ولكن، عندما استدار ليسلك الطريق 99 في اتجـاه الشرق، لم يكن هناك أحد على الطريق العام أو خارجه؛ فقط شريط من الإسفلت الأسود المتلألئ يتعرّج عبر قَفر من الرمال والصخور التي حوّلت الشمس لونها. مرّ بحاجز تفتيش للشرطة خارج إدفو تماماً، وبمسـتوطنتَين صـغيرتَين في الكنـايس والبرّاميّة؛ مجموعات سكنية مُهمَلة من الإسمنت والآجر الطيني عند جانب الطريـق العام تبدو كما لو أنها تتمسّك بالحياة العزيزة بقوة. باستثناء ذلك، لم تكن هنـاك أي دلالة على التدخّل البشري. وفي الساعة التي قضاها لبلوغ منعطف الطريق العام المتجه شمالاً، لم يصادف سوى عربة واحدة؛ شاحنة إيسوزو خفيفة مليئة بالأغنام. ربما كان على سطح المرّيخ.

في النهاية، وبعد الساعة الحادية عشرة بقليل، أبطأ وتوقف. فوفقـاً لخارطـة عمر، بات الآن عند النقطة الأقرب إلى جبل الشَّلول. فترجّـل ونظـر في اتجـاه الشمال، حاجباً الشمس عن عينيه. كانت أمامه رُبى صغيرة من الرمال التي تشكّل تلالاً منخفضة ترتفع بدَورها على صورة منحدرات عالية من الصخور البنّية المائلة للصُّفرة. وتزداد المنحدرات ارتفاعاً وانحداراً كلما نظـرتم إلى الشـمال، وتـزداد صعوداً حتى تندمج أخيراً مع القَفر الأوسط الجبلي المحظَّر.

أشعل سيجارة، متسائلاً عما إذا كان ما يقوم به فكرة سيّئة، عالِماً أنّه فكرة سيّئة. ومن ثم، ومخافة تراجع احتمال القيام بذلك كلما فكّر فيـه، مـلأ الخـزّان بالوقود، وأخرج القليل من الهواء من كلٍّ من إطارات اللاندروفر لتعزيـز قـدرتها على السير، وخرج من الطريق العام إلى المجهول. كان أحدهم قد تـرك *كاسـيت* محمد منير في مسجّلة الستيريو، فشغّلها لإبقاء معنوياته مرتفعة.

في الكيلومترات العشرة الأولى، كان تقدّمه سهلاً على نحو غير متوقَّع. فشقّ طريقه عبر التلال محتفظاً بسرعة بطيئة، قبل أن يسلك وادياً فسيحاً في الاتجاه المطلوب. وارتفعت التلال من حوله، وكانت هناك موجات من الصخور المَهيبة في كلا الجانبَين. وبقي قعر الوادي منبسطاً عملياً، فاجتاز مسافة طويلة خالية من المصاعب.

ولكن ذلك لم يدُم. فقد أظهرت خارطة عمر الوادي منفتحاً على وادٍ أكثر اتساعاً ينحني غرباً قبل التوجه مجدداً إلى الشمال، غير أن جلاميدَ ضخمةً مبعثَرة على امتداد الطرف العُلوي للوادي أعاقت تقدّمه كما لو أنها أعمدة لمنع المرور. حاول إبعاد جلمودَين من دون جدوى. ومع عدم تمكّن اللاندروفر من عبور الوادي، لم يكن أمامه سوى خيار العودة من حيث أتى ومحاولة العثور على طريق أخرى.

وبعد أربع ساعات، كان لا يزال يواصل المحاولة فيجد نفسه مراراً وتكراراً في وادٍ يبدو كما لو أنه يأخذه في الاتجاه الصحيح، ولكن سرعان ما يصل إلى شِقّ ضيّق لا يمكن النّفاذ منه، أو يجد نفسه في مواجهة جدار صخري عمودي، أو يستدير مئة وثمانين درجة ليجد نفسه في وُجهة مختلفة عن وُجهته الأساسية. وفي إحدى المراحل، غرقت إطاراته في كثيب رملي، وتعيّن عليه قضاء ثلاثين دقيقة في الحفر للخروج منه؛ لقد عاد مرتَين إلى الطريق العام ليواجَه بالمشكلة نفسها من نقطة انطلاق مختلفة. لم يكن دفتر مدوَّنات بينسكر ذا فائدة - فهو يشير فقط إلى أنه بلغ المنجم من الجنوب - وكانت خارطة عمر تتناقض باستمرار مع الوقائع على الأرض في ما يتعلق بالتفاصيل الطوبوغرافية. ومع انقضاء فترة بعد الظهر ببطء ومواجهته عقبات مستمرة، وجد نفسه يفكر في ضرورة التخلّي عن الأمر برمّته والعودة إلى المنزل وترْك المهمة للخبراء.

قُرابة الساعة الثالثة، وبعد تقدّمه خمسة عشر كيلومتراً، ظهر أمامه ممرّ واعد كما يبدو، ولكنه تلاشى شيئاً فشيئاً وصولاً إلى كثيب رملي يرتفع أربعين متراً ولا يمكن اجتيازه. فأوقف اللاندروفر، وخرج. مدّد ساقَيه وقام بحركات رَكل بواسطتهما، وتناول جرعة كبيرة من الماء، ومن ثم أحضر منظاراً ثنائياً وحقيبة الطعام التي اشتراها في الأُقصُر، وكدّ في السير في اتجاه أعلى أقرب حَيد لإلقاء نظرة على طبيعة الأرض.

كان موجوداً غرب المكان الذي غامر في بادئ الأمر للوصول إليه داخل الصحراء. وإلى الجنوب، يتعرّج الشريط المعبَّد للطريق 99 في اتجاه الشاطئ، وإلى الشمال ينتأ القفر الأوسط شيئاً فشيئاً بعيداً؛ قلعة متلألئة من الصخور البنّية الضبابية التي لم تصبح أقرب مما كانت عليه قبل أربع ساعات. وبين المنطقتين، وفي أثناء تحديقه بالناحية العُلوية لمتاهة ضخمة، رأى بحراً من الحيود والجروف والمنحدرات وأعالي التلال، من دون وجود ممرّ واضح في اتجاه الجبل العالي وراءها.

"تبّاً لعينة"، تمتم.

وعاين المنظر الطبيعي بيأس. ومن ثم جلس على الأرض متربّعاً، ووضع لِفاعاً على رأسه يقيه من حرارة الشمس، وشرع بإخراج الطعام. فكّر في قضاء ساعتَين إضافيّتَين محاولاً الدخول من اتجاه آخر، ومن ثم سيتخلى عن الأمر. حلّ الليل في الصحراء بسرعة، وبالرغم من تجهيز اللاندروفر بزوج من الأضواء الكشّافة إضافةً إلى مصابيحها العاديّة، لم يحبّذ فكرة البقاء في المكان بعد حلول الظلام.

فلفّ بعض الجبن بقطعة من الخبز البلَدي وتناول لُقمة، متتبّعاً بنظره العدَم القاحل قبل الهبوط في الوادي في الجانب الآخر من الحَيد. إنه يقوم بموازاة الوادي الذي ترك فيه اللاندروفر، عِلماً أنه أكثر اتساعاً ويمتدّ نحو الشمال مباشَرةً، ويستدير في اتجاه الشرق. كانت هناك شجرة أَقافيا ذات جِذع حلَزونيّ الشكل، وظلّتها التي تشبه طبقاً تميل وفقاً لزاوية توحي بعدم الاستقرار كما لو أنها مُنهَكة بسبب الحر. إنها الدلالة الأولى على الحياة التي رآها هنا، ووجد نفسه يحدّق بها في أثناء مضغه شطيرته، ممتنّاً لوجود شيء ما يركّز عليه غير الغبار والصخور. لقد أُخذ بالمشهد تماماً، متسائلاً عن مدى قِدَم الشجرة، وكيف نجت في هذه الظروف الطبيعية التي لا ترحم، ولم يشاهد الآثار على امتداد الأرض في الجانب المقابل للوادي إلا بعد مرور عدة دقائق. الكثير من الآثار. آثار عميقة، ومتلاصقة، ومستقيمة؛ كما لو أن شخصاً ما قد خدش الرمال بشوكة ضخمة.

إنها آثار إطارات.

وقف ورفع المِنظار الثنائي. كانت الأرض متماوجة لدرجة أنه يستحيل معرفة اتجاه الوادي. أمعن النظر إلى أعلى الحَيد، باحثاً عن طريق عبر الوادي الذي ترك فيه اللاندروفر، ولكن من دون أن يتمكن من العثور على أي طريق. فالأمر أشبه

بوجود طريقين يفصلهما جدار مرتفع، ولا يوجد طريق فرعي يصل بينهما. ركّز على الآثار. إنها عريضة – تشير إلى عربة رباعيّة الدَّفع أو إلى شاحنة خفيفة – وعلى جانبَيها حافّة مرتفعة بشكل ملحوظ كما لو أن الإطارات التي أحدثتها تمتاز بسماكتها. إنها شاحنات بدون شك. شاحنات كبيرة. الشاحنات نفسها التي رصدها فريق المسح التابع لجامعة حِلوان؟ لا فكرة لديه البتّة عن سبب وجودها، ولكن الأمر جدير بإلقاء نظرة على المكان الذي تؤدّي إليه. ونزل إلى اللاندروفر، وأدار المحرك، وعاد إلى الوادي، باحثاً عن فجوة في الجدار.

كان عليه قطع أربعة كيلومترات قبل أن يعثر على الفجوة. إذ ينخفض الحَيد فجأةً عند هذه النقطة، مشكِّلاً منحدراً عميقاً. وهناك كثيب رَملي متنامٍ على جانب المرتفَع مع انحناءة سَلِسة يمكنه العبور باللاندروفر من خلالها. لقد تطلّبه الأمر أربع محاولات للوصول إلى الأعلى بسبب انزلاق الإطارات على الرمل، ولكنه نجح في النهاية وتمكن من نزول المنحدر الصخري في الجانب البعيد والوصول إلى الوادي المجاور.

بعد ذلك، تحسّنت رحلته إلى حد كبير. فأيّاً يكن ما قامت به هناك، فقد بدا الأمر كما لو أن الشاحنات قد استخدمت الوادي مراراً لأن آثارها كانت متلاصقة على نحو كثيف. لقد وفّر لنفسه أرضيّة جيدة للقيادة أشبه بطريق لائقة بعد اتخاذه الأثلام مساراً لإطارات اللاندروفر. وتمكن من رفع سرعته إلى خمسين كيلومتراً في الساعة، متنقّلاً بين سرعات جهاز نقل الحركة، والألحان العَذبة لمحمد منير تخرج بخفّة من جهاز الستيريو في السيارة. وبعد أن اجتاز مسافة عشرة كيلومترات في الوادي، ولج وادياً آخر، ومن ثم عبر وادياً تِلوَ الآخر، مُقحماً نفسه في شبكة عنكبوتية متزايدة التعقيد من مجاري المياه الجافة كان سيضيع داخلها لولا الآثار التي تقوده. وكل وادٍ كان أضيق قليلاً من سابقه، وغدت المنحدرات أكثر ارتفاعاً من الجانبَين، وضاق المنظر الطبيعي من حوله شيئاً فشيئاً. وكان يجد نفسه أحياناً منعطِفاً إلى الغرب، وأحياناً أخرى إلى الشرق. ولكن الاتجاه كان إلى الشمال باستمرار، وإلى عمق أعماق القلب السرّي للكتلة الجبلية، مقترباً أكثر فأكثر من هدفه، ومبتعداً أكثر فأكثر عن ازدحام الطريق العام. لقد شعر بأنه صغير ووحيد على نحو متزايد، وعصبيّ المِزاج أيضاً. فإذا كانت الآثار تؤدي إلى المنجم –

باجتياز كيلومترٍ تِلوَ الآخر، ينخفض أكثر فأكثر احتمال أن يؤدي هذا الدرب إلى مكانٍ آخر غير المنجم - وإذا كان المنجم يشهد أعمالاً غير قانونية، فإن بُعد الموقع سيكون آخر اهتماماته. فأطفأ جهاز الستيريو، وتحقق من صلاحية الهاتف العامل بنظام الاتصال عبر الأقمار الاصطناعية بجانبه، ومن جهوزية مسدسه حِلوان من عيار 9 مليمترات.

ومع استمرار تقدّمه، كان ضوء النهار ينحسر من حَوله، وتطول الظلال، حتى انحرفت في النهاية آثار الإطارات إلى اليمين، بعد المرور في وادٍ آخر متعرّج، واختفت داخل ممرّ ضيّق بين جُروف عالية. فأبطأ، وتوقف، وأوقف عمل المحرك. مدّ يده إلى دفتر مدوَّنات ساموپل بينسكر، وقلّب صفحاته وصولاً إلى رسم شاحب بقلم الرصاص توجد تحته عبارة: *ممرّ المتاهة*. ورفع الدفتر، مُقارناً الرسم بالمنظر أمامه. كانا متطابقين.

لقد نجح في مسعاه.

جلس لدقيقة يُصغي السمع، مُميلاً رأسه إلى الأعلى، ومحاولاً التقاط أي صوت. لم يكن هناك أي شيء ما لم يُعتبَر السكون بحد ذاته صوتاً. مكتفياً، أعاد تشغيل محرك اللاندروفر وعاد مسافة مئة متر إلى خارج الوادي حيث ركن السيارة بمنأى عن الأنظار تحت جزء صخري ناتئ، ثم خرج واتصل ببِن - روي، وحصل على بريد صوتي.

"أنا في المنجم"، قال غير مضيّعٍ الوقت في الشرح. "سأُلقي نظرة. أتصل بك مجدداً بعد ثلاثين دقيقة".

ورمى الهاتف داخل السيارة - لا جدوى من اصطحابه لأنه لن يكون هناك أي إرسال تحت الأرض - أخرج مصباح الجَيب الكهربائي من صندوق السيارة. ومن ثم، وبعد التحقق من جهوزية مسدس حِلوان للاستخدام، عاد إلى الوادي وتتبّع الآثار مجدداً.

لقد أدّت إلى ممرّ ضيّق يقلّ عرضه عن عشرة أمتار ويكاد يكون كافياً للاتساع لشاحنة واحدة. وعلت جدران الصخور فوقه مُحدَودبة، ملاءات من الحجر الجيري أشبه بشراع ترتفع وتدور كالأمواج في اتجاه شريط أزرق باهت من السماء قائم فوقها على مسافة عالية. كانت طيور الخطّاف تنساب ذهاباً وإياباً.

وبالرغم من تأخر الوقت، كان الهواء لا يزال مُثقَلاً بالحرارة. كوّر يديه حول فمه وصرخ.

"سلام-لام-لام-لام-لام".

وتردد صدى صوته في الوادي الضيّق، مرتدّاً من جدار إلى جدار، ومتكــرراً لمدة من الزمن قبل أن يختفي ويعود السكون. ونادى مرة ثانيةً، وثالثــةً، ومـــن ثم شرع بالسير وإصبعه منثنية بإحكام حول زِناد حِلوان. استدار الممر إلى اليســار، ومن ثم إلى اليمين، وإلى اليسار مرة أخرى وبحدّة. وفي هذه الأثناء، غابت الجدران فجأةً، ووجد نفسه واقفاً على حافة مساحة مفتوحة ضخمة مُحاطــة بجُــروف؛ مُدرّج طبيعي فسيح تحت الضفة الجنوبية لجبل الشَّلول.

"الله أكبر"، تمتم.

في أعلى الجبل، كانت القمم لا تزال تتوهّج بلون برتقالي دافئ تحت أشعة الشمس في وقت متأخر من بعد الظهر. وفي الأسفل، حلّ الغسَق وساد اللـــون الرمادي الشاحب المائل للصُّفرة، وسُدّت الشقوق والصدوع بالظلال. كانت هناك أكوام من حُطام الصخور والحصى مكدَّسة عند قاعدة الجُروف؛ اعتبر أنه حُطام خمسة قرون من التعدين. وإلى يساره مباشَرةً مجموعة مبعثَرة على نحـــو يكاد يكون متماثلاً من كتل صخرية توحي بأنها بقايا مآوٍ قديمـــة. وباســـتثناء الكثير من كِسَر الخَزَف الممزوجة برمل أرضيّة المُدرَّج، لَم يكن هناك أي شيء آخر. لا مباني، لا آلات، لا معدات، لا دلالة على أي نوع من أنواع النشـــاط الصناعي مؤخراً.

لا منجم أيضاً حتى تلك اللحظة. فالآثار تنبثق من الممر وراءه، وتلتفّ حول نفسها على صورة سباغيتي متشابكة على أرضية المُدرَّج، فالشاحنات التي أحدثتها استدارت على الأرجح، وخرجت مجدداً. لا وجود لأي سبب واضح لوجودها.

تفحّص المنظر الطبيعي الذي يحيط به، محاولاً اكتشاف ما يجري، ومن ثم سار إلى الأمام كما لو أنه نملة في ملعب كرة قدم، ووصل إلى وسط المكان. لقد اعتقد للحظات وجيزة أنه سمع أزيزاً بعيداً لآلات، دمدمة تكاد تكون مســـموعة عنـــد حدود مدى السَّمْع. وزال الصوت عندما حاول التوجه نحوه. فمدّ رأسه مُصـــغياً، غير أنه لم يتمكن من التقاطه مجدداً، وافترض أنه من صنع خياله. رافعـــاً عينَيـــه،

تفرّس بالناحية الخارجية للصخور. لا شيء. لا مداخل، لا كهوف، لا فتحات من أي نوع. مجرّد صخور فحسب.

دار حول نفسه 360 درجة، ومن ثم توجّه إلى الجانب البعيد للمكان كادّاً في السير، وتسلّق بمشقّة إحدى أكوام الصخور ليحصل على منظر أفضل للأرض. من الأعلى، تمكن من رؤية آثار إطارات في كل مكان مركَّزة كما يبدو حول جُــرف في الجانب الجنوبــي للمُدرَّج. فحدّق في ذلك الاتجاه، مُلقياً نظرة متفحّصة داخل الظُّلمة المتزايدة. لم يتمكن من رؤية أي شيء يشرح سبب وجود الشاحنات هنا. مرّت دقيقة، وكان على وشك الاستدارة عندما لفحت ريح خفيفة فجائية وجهه، ومرّت عبر الوادي الضيّق. وسمع صوت اهتزاز ناجم عن حركة - أم إنه اعتقــد ذلك على الأقل - لم يدُم ذلك سوى جزء من الثانية، وساد السكون مجدداً. فانحنى إلى الأمام، وعيناه تبذلان جهداً لالتقاط مشهد ما. وكانت هناك لَفحــة أخــرى، واهتزاز آخر عند أسفل الجُرف كما لو أن الصخرة تتحرّك وتتماوج.

"ما الذي...؟".

ونـــزل عن المنحدر وتوجّه إلى الجُرف من دون أن يكون متأكداً مما إذا كان قد رأى أي شيء في الواقع، أم إنها خُدع الغسَق. وتوقف على بُعد ثلاثين متراً من الجُرف ونادى.

"سلام-لام-لام-لام!".

وتردد صدى صوته في مختلف أنحاء المُدرَّج. لم يتلــقَّ أي جــواب. وســاد السكون مجدداً، عِلماً أنه أصبح قريباً لدرجة أنه لم يلاحظ وجود جزء مستطيل من الجدار عند أسفل الجُرف مختلف قليلاً في اللون عن بقيّة الجدار؛ نسيج مختلف قليلاً أيضاً، كما لو أن أحدهم...

"ذكي. *شديد* الذكاء".

داسّاً مسدس حِلوان في الناحية الخلفية لسِرواله، تقدّم في اتجاه الجُرف وأنعــم النظر إليه. وبعد ذلك، مدّ يدَيه ووضعهما حولَ الصخرة وجذب. وسُمع صــوت خفيف في أثناء انفصال الغطاء المصنوع من الخَيش عن سِناداته وســقوطه علــى الأرض عند قدمَيه. وراءه، كان هناك بابان فولاذيّان كبيران مُقفــلان بواســطة سلسلة وقِفل، ومخفيّان بشكل غير مُتقَن ولكن بفعالية؛ فلدى النظر إليها مــن أي

مكان غير قريب منها جداً، لا يمكن تمييز المادة المائلة للصُّفرة عن الصخور المُحيطة. وفي أعلى الصخرة كان هناك نَقش عميق لكلمة واحدة. لم تعُد معرفة خليفة بالرموز الهيروغليفية كما كانت عليه في السابق، ولكن هذا الرمز لم يكن صعباً، ولا سيما بوجود عنصر حاسم.

وِسير. أوزيريس.

"نلتُ منك"، همس.

وسحب البابَين بقوة، ومن ثم أخرج مسدسه، وسدّد وأطلق النار على القفل. فدوّى الصدى بين الجدران الصخرية المُحيطة، مما دفع عدداً من طيور الخطّاف إلى الارتفاع نحو السماء مذعورة. وللحظة وجيزة، اعتقد أنه سمع صوت آلات مرة أخرى، أو صوت محرك؛ صوت شيء ميكانيكي. كان من الصعب عليه تحديد مكان صدوره، والتأكد إن كان صادراً من مكان ما بالفعل وليس مجرّد تخيّلات. أصغى من دون أن يتمكن من سماعه مجدداً؛ إنه مجرّد تخيُّلات. إنّه كذلك بدون شك. فهز رأسه، وأمسك مِقبض أحد البابَين وسحب.

وتدحرج اللوح الفولاذي وانفتحت المتاهة أمام ناظرَيه.

القدس

عندما اتصل خليفة، كان بِن - روي يتحدّث إلى سارة عبر الهاتف ليسألها إن كانت تريد منه إحضار أي شيء معه وهو في طريقه لتناول العشاء.

وعندما تلقى الرسالة الصوتية من المصري، ضغط على زرّ طلب الرقم، وها هو هاتف خليفة في صيغة البريد الصوتي. كانت التحية بالعربية، صوت امرأة - لا بد أن خليفة قد استعار الهاتف - وعرف بِن - روي أنه يعمل وفقاً لنظام الاتصال عبر الأقمار الاصطناعية لأنه يتلقى إشارة وسط الصحراء. فترك له رسالة، معبِّراً عن قلقه من أن يكون قد قصد المنجم بمفرده، حاثّاً إيّاه على الحذر وعدم القيام بمجازفات غير ضرورية.

"طمئنّي حالما تتلقى هذه الرسالة"، اختتم. "حالما تتلقّاها. سأكون في الانتظار".

وأقفل الخط. في الناحية المقابلة من الغرفة، كان دوف زيسكي قد أنهى استفساراته عن دينا لِفي، واستدار لينظر إليه وجهاً لوجه.

"ما سبب كل ذلك؟".

فشرح له بن - روي، ورفع زيسكي حاجبَيه.

"أتعتقد أنه سيكون بخير؟".

"آمل ذلك. إنه صديق وفيّ وأكره التفكير...".

لم يقُل بِن - روي ما الذي يكره التفكير فيه. وألقى نظرة سريعة على ساعة الجدار - لقد تخطت السادسة - وشبك ذراعَيه. موعده في منزل سارة بعد ساعة ونصف، وكان يتوقع تلقّي اتصال من خليفة قبل حلول الموعد.

وفي الناحية المقابلة من الغرفة، استدار زيسكي، ومدّ يده إلى هاتفه، وشرع بإدخال رسالة نصّيّة.

مصر

دخل خليفة المنجم، وأضاء مصباحه، ووجّه شعاع الضوء في أرجاء المكان.

كان في غرفة كبيرة، غرفة ضخمة، عميقة وأشبه بكهف، عِلماً أن التموّجات التي أحدثها إزميل العصور القديمة على السقف والجدران تشير إلى أن المكان من صنع الإنسان وليس الطبيعة. وكان رَوثُ الخفّاش يغلّف الأرض بقشرة يابسة؛ وهناك رائحة نُشادر قوية. فسحب منديلاً من جَيبه، ووضعه على أنفه، وخطا إلى الأمام خطى قليلة.

كانت هناك أنفاق إلى اليسار واليمين، ستة من كل جانب؛ أنابيب كالحة السواد تنتشر من القلب الأوسط للغرفة كما لو أنها دودات عملاقة تشقّ أنفاقاً داخل الصخور بحثاً عن طعام. بعضها على مستوى الأرض، والبعض الآخر على مستوى أعلى. وتحت أحد الأنفاق العُلوية، كان لا يزال هناك سلّم موضوع على الجدار. فسلّط خليفة الضوء على درجاته الجِلديّة الموثّقة. لقد بدت قويّة كما كان حالها عندما داست آخر الأقدام عليها قبل ثلاثة آلاف عام. وسلّط الضوء على

الممرّ تحته. كانت هناك ثلاثة مداخل، الكثير من المداخل. عدّ تسعة منها قبل أن يبتلع الظلام شعاع الضوء. فوفقاً لرسوم بينسكر التوضيحية، تؤدّي هذه المداخل إلى منطقة مكتظّة بالغرف والحُجَيرات كانت مأوى لعمال المنجم العبيد. إنه انعزال كابوسي عن العالم حيث لا تتعدّى حياة المرء أشهراً إن لم يكن أسابيع. وحرّك خليفة المصباح الكهربائي بشكل دائري، متعرّفاً إلى خربشات جدرانية قديمة، وصفٍّ من جرار التخزين الفخارية، وسلّة موضوعة رأساً على عقِب. وبعد ذلك، وجّه شعاع الضوء عبر الغرفة نحو الفجوة المستطيلة في الجانب البعيد.

إنه مدخل الدّهليز الرئيس للمنجم.

باستثناء البابَين المنزلقَين، لم يرَ أي شيء يوحي بنشاط حديث في المنجم. وهنا، عند فتحة الدّهليز، يوجد دليل واضح، ولكنه ليس من النوع الذي يتوقعه. واصل ضغط المنديل على وجهه، وعبَر الغرفة، شاهراً المصباح أمامه، وأكوامُ البراز ترتفع من الجانبين.

وكانت منصّة فولاذية كبيرة تَشغل معظم مساحة الفتحة. أول فكرة تبادرت إلى ذهنه هي أنها حوضٌ للتحميل بما أنها بارتفاع مؤخر شاحنة تقريباً، وتمرّ آثار الإطارات عبر بابَي المنجم وصولاً إليها. وفي أعلى المنصة سكّتا حديد على شكل L تفصل بينهما مسافة مترَين، وتنحدران إلى أرض الدّهليز - كما لو أنهما *زُحلوقتان* بدون قَعر - وتتوجهان إلى الظُّلمة.

مرّر خليفة ضوء المصباح في أرجاء المكان، ومن ثم نزل تحت المنصة، ووقف في الفجوة بين سكّتَي الحديد اللتَين تمتدان بجانب جدران الدّهليز. لقد بدا له أن شيئاً ما يُنقل من الأسفل، ويُسحب على السكّتَين، ويوضع على المنصة، ومن ثم يوضع على متن الشاحنات، ويُنقَل إلى الخارج. أهو معدن خام؟ ذهب؟ لا فكرة لديه مطلقاً. وخطا خطى قليلة إلى الأمام. لقد خنقه السواد؛ سواد كثيف لدرجة أنه كان باستطاعته الشعور به كما لو أنه يشق طريقه عبر خيوط عنكبوت. وكانت هناك أشكال تنساب وترفرف؛ خفافيش أجفلتها الإضاءة الفجائية. وتواصَل امتداد سكّتَي الحديد. فتقدّم خطى قليلة أخرى، واستمرّ امتداد سكّتَي الحديد. لقد جاب بينسكر الدّهليز وقدّر أنه يمتدّ مسافة مِيل. هل تمتد سكّتا الحديد وصولاً إلى الأسفل؟ لا فكرة لديه، عِلماً أن شيئاً ما يُنبئه بأنه واقع الحال. فأيّاً يكن

ما يُنقَل إلى الأعلى فهو يأتي من المستويات الأكثر عمقاً للمنجم. ولاكتشاف ما يتمّ نقله، يتعيّن عليه النزول إلى هناك.

عاد إلى الوراء. كان قلبه يخفق بقوة، ونفسه يضيق، ويلهث بسرعة.

لم يكن يجفل بسهولة. فالظلام والمساحات الضيقة لم تكن تُقلقه قط. لقد قام مرات عديدة باستكشاف المدافن الأكثر ظُلمة، بمفرده، في التلال المحيطة بوادي الملوك؛ مدافن لم يزُرها السيّاح قط ويتعيّن النزول إليها دبيباً على اليدين والركبتين، هذا إن لم يكن زحفاً على البطن. كان عادة يستمتع بالإثارة.

ولكن، ليس اليوم، لأنه يجفل بسهولة بخلاف أي وقت مضى. هناك أمر بغيض في شأن السواد، والصخور المحيطة به، والأنفاق والسراديب المُربِكة التي توحي ببؤس بشري. إنها أكثر من كونها بغيضة؛ إنها مهدِّدة. فالمنجم برمّته يبدو... أنه يُضمر السوء.

عاد إلى الوراء أكثر فأكثر، إلى خارج الدّهليز وإلى مدخل المنجم، ومن ثم توجّه إلى البابَين.

ففي الدقائق العشر التي قضاها في الداخل، أصبح المكان في الخارج أكثر ظلمة بشكل ملحوظ. كان لا يزال يبدو مناراً مقارنةً مع السواد الذي خبره للتوّ. وتنشّق الهواء.

لم يتمكن من القيام بذلك. لم يستطع النزول إلى الأسفل. ليس بمفرده. كانت الأمتار الخمسة سيّئة بما يكفي، أما النزول مسافة مِيل فأمر مستحيل. سيقصد المنزل ويعود في يوم آخر مع زملاء، ودعْم. إنه يعرف الآن مكان المنجم، ويعرف كيفية الوصول إليه. ريفكا كلينبرغ، شركة بارين، زوسِر فريت؛ باستطاعة الأجوبة أن تنتظر. سيكون عليها الانتظار لأنه من المستحيل...

وعاد إلى الداخل، وتوجّه إلى المنصة، ونزل تحتها وصولاً إلى الدّهليز مجدداً. لقد بدت الظُّلمة أكثر إيذاناً بالسوء كما لو أن الجوّ نفسه يُنذره بضرورة المغادرة. حرّك المصباح جيئةً وذهاباً، شاقّاً الظلام، ومتسائلاً عن كيفية تعاطي ساموئيل بينسكر مع هذا الوضع بنجاح. أي نوع من الجنون الهاجسي سحب الإنكليزي إلى داخل المنجم، وأبقاه هناك في الأسفل بمفرده طوال أسابيع متتالية، زاحفاً وسط

ظلام دامس، وباذلاً جهداً كبيراً لوضع خارطة للمكان؟ إن التفكير بذلك جعل خليفة يشعر بالغثيان.

حرّك المصباح مجدداً، فكشفت الجدران والسقف عن نفسها قبل أن تغرق مجدداً في ظلام لا يمكن اختراقه. ومرت دقيقة، ومن ثم دقيقتان، ولم يكن يسمع سوى تنفّسه الأجشّ وصوت رفرفة أجنحة الخفافيش من حين لآخر تحته. وبعد أن أجفل كما لو أنه على وشك الدَّفع بيده إلى داخل شُعلة، وضع المنديل في جَيبه، وأخرج مسدسه من الناحية الخلفية لسرواله، وانطلق إلى الأمام بين سكّتَي الحديد.

"الله يحميني"، أنشد، "الله يرعاني، الله نوري".

تقدّم بحذر في بادئ الأمر، وهو يخطو ببطء، ويجرّ قدمَيه بتردد على منحدر الدّهليز. كان يستدير مراراً وينظر إلى الوراء، إلى همس النور الذي يكاد يكون محسوساً عند مدخل المنجم، وكل خليّة في جسده تحثّه على الاستدارة والركض بأقصى سرعة في اتجاهه. لقد قاوم هذا الحثّ وتابع سيره. وعندما اختفى النور بعد نحو مئتَي متر، زاد من سرعة تقدّمه بهدف الوصول إلى المكان الذي تؤدي إليه سكّتَا الحديد، والعودة بأقصى سرعة ممكنة.

"الله يحميني، الله يرعاني، الله نوري".

وانفتحت أنفاق وممرات أخرى على الجانبَين. حاول عدّها، ولكنها كانت عديدة لدرجة أنه سرعان ما تخلّى عن المحاولة. فبعضها يميل إلى الأعلى، وبعضها ينحدر نزولاً، والبعض الآخر واسع بوسع الدّهليز الرئيس، ويكاد سواها لا يتّسع إلا لشخص واحد فقط. فوفقاً لدفتر مدوَّنات بينسكر، إنها تتفرّع وتنقسم إلى أنفاق وممرات أخرى تتفرّع وتنقسم بدَورها مع شَقّ المتاهة طريقها عبر الصخور، متنامية ومنتشرةً ومتضاعفةً ككائن حيّ هائل من نوع ما يتضاعف ذاتياً. لقد جعله التفكير بهذا الأمر يرتعد. فالوضع في الدّهليز المستقيم كان سيّئاً بما يكفي، فكيف سيكون في الأنفاق والممرات المتداخلة. إن فكرة المجازفة خارج الدّهليز الرئيس، وفقدانه نقطة انطلاقه في شبكة الممرات المعقّدة هذه... وأخرج السيناريو من رأسه. ربما كان بينسكر مجنوناً بما يكفي لاستكشاف المكان، ولكن خليفة لن يحيد سنتيمتراً واحداً عن هدفه. كان ينزل، ويصعد، ويخرج مجدداً. كلما كان الأمر أسرع كان ذلك أفضل.

"الله يحميني، الله يرعاني، الله نوري".

لقد عبرت سكّتا الحديد عدة مرات غرفاً كهفية كتلك الموجودة عند مدخل المنجم؛ غرفاً تحت الأرض واسعة مع أعمدة منحوتة في الصخر، وسقوف لا تزال تحمل بُقع دخان المشاعل القديمة. وفي أثناء عبوره دِهليزاً جانبياً عميقاً، لمح حفرة في الأرض أشبه ببركة حبر أسود (لقد أشار بينسكر إلى هذه الحفرة؛ فقد أنزل حبلاً داخلها ليسبر أغوارها، فلم يصل الحبل الذي يبلغ طوله مئتي متر إلى قعرها).

لقد فكر في أكثر من مناسبة بالعودة؛ إنه الشعور بالهلع المتنامي في داخله. وكان باستطاعته الشعور بوجود أمر سيئ بانتظاره هناك في الأسفل، أمر شرير لا يُفترض به السير في اتجاهه. وعاد على أعقابه مرتَين، وهَمّ بالعودة إلى سطح الأرض، ولكنه كان يُرغم نفسه على العودة ومواصلة النزول.

وكان الظلام يلفّه باستمرار، والصخور تضغط عليه، وسكّتا الحديد تواصلان النزول أعمق وأعمق إلى جوف الأرض.

"الله يحميني، الله يرعاني، الله نوري".

وبدأ الدّهليز بالانحدار أكثر فأكثر. وأصبح الهواء أكثر سخونة، وظهرت قطرات ماء غريبة على الجدران. وامتزجت رائحة معدن صدئ مُبهَمة مع رائحة النّشادر اللاذعة المنبعثة من رَوْث الخفافيش.

وانبعثت أيضاً رائحة أخرى لم يتمكن من تحديدها على الفور، ولم يتمكن من معرفتها إلا بعد أن ازدادت حدّتها؛ إنها رائحة ثوم. وكلما نزل أكثر فأكثر، ازدادت حدّةً، مالئة مِنخَرَيه، ومتغلّبةً على أي رائحة أخرى. عندما كان فتى يترعرع في ظلال الهرَم، اعتادت والدته تعليق الثوم فوق بابهم الأمامي. وباستطاعته الآن شمّ رائحته هنا في الأسفل، في منجم حيث لا سبب البتّة لوجوده. لقد أجفله وجوده أكثر مما أجفله السواد ومتاهة الممرات والأنفاق المُربِكة، وأَفقده القدرة أيضاً على معرفة الاتجاه، وجعله يتساءل عمّا إذا كان قد بدأ يفقد اتّزانه، وإن كانت هذه الرائحة مجرد رائحة خادعة ناجمة عن الذُّعر.

وعندما بدأ يشك في نفسه في ما يتعلق بهذه المسألة، انتابته شكوك أخرى. ما هذا النَّقر الخافت الذي يسمعه في الأعماق، أم إنه صدى وَقع خُطاه ليس إلا؟ أهي همسات في الظلام، أم تسارع تنفّسه ببساطة؟ وظنّ مرة أخرى أنه يسمع صوت

آلات. وفي مرات عدة، كان واثقاً تماماً من رؤيته أشخاصاً يتحركون في الأنفاق الجانبية، أشكالاً طيفيّة غير محدَّدة تنسلّ عند أطراف مدى البصر. وعندما يحاول مفاجأتها بواسطة ضوء مصباحه، تختفي. وتكرر الأمر عندما حاول التركيز على الأصوات. وحدها رائحة الثوم صمدت. إنها هناك بلا ريب، وهو لا يتخيّلها بالتأكيد. فهي تزداد قوة على غرار نَبْض صِدغَيه، وخفقان قلبه المكتوم، واقتناعه بأن شيئاً مُرعِباً ينتظره في الأسفل هناك في الظلام.

ومع ذلك واصل السير، مقاوماً أفكاره المُحبِطة كلما تقدّم بوصة بِحَثٍّ من رغبته في معرفة ما يجري، والتي فاقت شعوره بالخوف الهائل. واصل نزوله في المنجم حتى وقع ضوء مصباحه فجأةً على شيء ما أمامه، بعد مضيّ ما خُيِّل إليه أنه ساعات، وتبيّن له أنها أقلّ من ثلاثين دقيقة وفقاً لساعته.

كان الدّهليز ينحدر بقوة، حيث إن هناك دَرَجاتٍ قد حُفِرت في الصخر للمساعدة على النزول. فتوقف عن متابعة تقدمه، ثم جلس القرفصاء. ومدّ مصباحه وحرّك شعاع ضوئه، محاولاً اكتشاف ما يوجد في الأسفل. وأيّاً يكن ما هو موجود، فقد كان عند حدود متناول المصباح تماماً، ولم يستطع رؤيته بوضوح.

"مرحباً!".

وبدا صوته خافتاً كما لو أن شيئاً ما يُعيق مروره ويمنع أي صدى.

"مرحباً!".

لا شيء.

تقدّم خطوتَين أخريَين جارًّا قدمَيه. وأصبحت رائحة الثوم قوية جداً لدرجة أنه وجد صعوبة في التنفس. من الأفضل إبقاء المنديل على فمه وأنفه، ولكن لم يكن بإمكانه حمل المنديل والاحتفاظ بمسدسه مُشهَراً في آن واحد، سيّما وأنه لم يكن يعتزم ترك نفسه بدون حماية، لذلك تحمّل الرائحة الكريهة.

"مرحباً!".

حتى ذلك الحين، لم يكن قد اتّضح له بعد ما يوجد في الأسفل، عِلماً أنه كانت هناك أشكال من نوع ما، حافّات مقوَّسة تلوح في الظُّلمة. لقد بدا الأمر كما لو أنها تملأ الدّهليز بأكمله من الأرض إلى السقف، وسكّتا الحديد تمرّان وسطها. أهذا انهيار صخري؟ ونزل دَرَجة إضافية، محاولاً التغلّب على دَفع

السواد له إلى الوراء. ووقع شعاع الضوء على شيء ما مستدير كالعجلة، وعلى خطّ كفافي لحافّة أو إطار متغضّن. إنه من صنع الإنسان، ولا يمكن الإخطاء في ذلك.

"ما...؟".

ومدّ قدمه في اتجاه الدَّرَجة التالية بتردد كما لو أنه يغمس إصبع قدمه في مياه مثلّجة. وفي الوقت نفسه، قوّس جسده إلى الوراء مخافة طيران شيء ما من الأسفل في اتجاهه. ولكن شيئاً لم يحدث. فاطمأنّ، وشرع بالانحناء إلى الأمام، ولكنه شعر بالتوتر فجأةً. فدار حول نفسه، وسقط على ركبته، مُصوِّباً مسدسه إلى الظلام.

وسمع في مكان بعيد في الأعلى صوت آلات، أو محرّك؛ صوت شيء ميكانيكي.

كان قد سمع أصواتاً غريبة هنا من قَبْل، ولكنها تبخّرت لحظة محاولته التقدّم في اتجاهها. ولكن، هذه المرة، استمر الصوت الذي أجفله؛ دمدمة غامضة ومخيفة كما لو أن المتاهة نفسها تئنّ. فأصغى بتركيز، وشعاع الضوء ينتفض بسبب ارتعاد يده. لقد كان من المستحيل تحديد مصدر الصوت. إنه صادر من الأعلى، هذا كل ما استطاع تأكيده، ومن الطريق التي قدِم عليها. أصغى لمدة دقيقة من الزمن بنفَس ثقيل تارةً وبلُهاثٍ غير منتظم طَوراً. وبعد ذلك، وقف وهمّ بالعودة، غير آبهٍ بما سبّب الانسداد وبأي شيء آخر سوى الخروج من المنجم.

اجتاز عشرين متراً وتوقف. كانت الدمدمة لا تزال مسموعة بالوتيرة نفسها. واصل السير، ثم توقف مجدداً. كان لا يزال يسمعها، عِلماً أنها مَصحوبة بصوت آخر: طقطقة مكبوتة هادرة من نوع ما كما لو أنها عَجَلات بعيدة تسير على سكك حديد. فحرّك ضوء مصباحه بسرعة في اتجاه الظلام، محاولاً اكتشاف ما يجري، ولاعناً نفسه لنزوله إلى الأسفل. بدا له أن صوت الطقطقة يزداد ارتفاعاً شيئاً فشيئاً. وقف للحظات مسمَّراً في مكانه ومشدود الأعصاب لدرجة أنه شعر بأن كل جسده سينهار. وبعد ذلك، خطا في اتجاه اليمين، ووضع قدمه على سكّة الحديد. لقد ارتفعت ذبذبة خفيفة على امتداد ساقه. وفعل الأمر نفسه على السكة الثانية. هناك أيضاً بدا المعدن يئزّ تحت حذائه. هناك شيء ما متّجه نحوه، شيء كبير بسبب الارتفاع المطّرد لصوت تقدّمه. فتراجع، وصوّب مسدسه، ووضع

قدمه على السكة مجدداً. لقد ازدادت الذبذبة قوة في غضون خمس دقائق. أيّاً يكن هذا الشيء، فهو ينـــزل بسرعة.

"الله أكبر"، هسهس.

وحرّك مصباحه في الاتجاهَين. إلى يساره جدار صـــخري، وإلى يمينـــه ممـــر جانبـــي، وهو أحد الممرات الأكثر ضيقاً، ولا يزيد عرضه عن متر واحد، ويكاد لا يتسع له في الارتفاع. تساءل عما إذا كان يُفترض به الاختباء فيه، ولكنه بـــدا ضيّقاً جداً، ومُسبِّباً لرُهاب الأماكن المُغلَقة كثيراً، ومُضمِراً السوء إلى حد كـــبير، لدرجة أنه لم يتمكن من حمل نفسه على القيام بذلك. لم يتمكن من حمل نفســـه على القيام بأي شيء سوى الوقوف هناك بين سكتَي الحديد، والمسدس والمصباح مصوَّبان إلى الأمام، مسمَّراً في مكانه كأرنب بين مجموعة من مصابيح الســـيارات الأمامية. وبجانبه، بدأت السكتان تهتزّان.

"توقف!". صاح. ومن ثم، بصوت أعلى: "توقف! الشرطة!".

كان ما يفعله أمراً مثيراً للسخرية، ومُضحكاً بسبب عـــدم فائدتـــه. لقـــد أصبحت الطقطقة مرتفعة جداً لدرجة أنه لم يتمكن من سماع صـــوته. وإذا كـــان هناك أشخاص على متن ذاك الشيء الذي ينـــزل - مقطورة قطارٍ كما اعتقـــد - فلن يكون هناك أي أمل بأن يسمعوه. وإذا فعلوا، فما الذي سيقومون بـــه؟ هـــل سيتوقفون ويرفعون أياديهم، ويقولون إنهم آسفون، ويضعون أنفسهم رهن تصرّفه لاعتقالهم؟ يا للسُّخف! ولكن الذُّعر يحملكم على القيام بأمور سخيفة. وصاح مرة ثانيةً وثالثةً، ملوّحاً بالمصباح، وأملاً في أن يروا شعاع الضوء ويتيقّنوا من وجـــود شخص ما هنا.

"النفق مسدود!". صاح. "توقفوا الآن! الشرطة! إنه مسدود!".

لا شيء. وغدت الطقطقة أعلى، وازداد صوتها ارتفاعاً حـــتى غـــدا مُصـــمَّ للآذان كما لو أن قطار شَحن بأكمله ينطلق بسرعة فائقة على المنحدر في اتجاهه. وتماوجت السكّتان، متلهفتين للإفلات من مسامير الرَّبط التي تثبّتـــهما بأرضـــية الدّهليز. وبات ذاك الشيء قريباً، قريباً جداً. ومع ذلك، صـــاح مجـــدداً وبـــأعلى صوته. شاعراً باليأس، أطبق إصبعه حول زِناد حِلوان وأطلـــق النـــار في الظـــلام. مسدِّداً على الناحية السُّفلية. ومع ذلك، استمر ذاك الشيء بالتقدم. أطلق عيـــار

نارياً آخر من دون الحصول على أي نتيجة. كان الدّهليز يهتز بأكمله. وبدت الظُّلمة أمامه تنتفخ كموجة مرتفعة. طلقتان إضافيتان ورأى حركة عند حدود شعاع ضوء مصباحه. لم يكن لديه سوى جزء من الثانية ليشاهد ما بدا كأسطوانة كبيرة أو مِحدَلَة تندفع نزولاً على سكّتَي الحديد قبل أن يقفز جانباً إلى داخل النفق الضيّق.

لقد أساء تقدير المسافة، وعلق طرف حذائه بالسكة، فتعثّر وسقط إلى الأمام داخل فتحة النفق. وعلى نحو فطري، مدّ يده لإيقاف عملية السقوط، فأفلت المصباح من قبضته، وغرق في الظلام. بحث عن المصباح باضطراب بواسطة كفَّيه. وعلى بُعد سنتيمترات قليلة وراءه، مرّ ذلك الشيء بسرعة كبيرة مصدراً هديراً راعداً.

ولكنه لم يكن قد تجاوزه بعد، بل استمر بالمرور، لا بل استمرّ المزيد منه بالمرور. في الظلام، لم يكن باستطاعته معرفة ما إذا كان ما يمر أمامه شيئاً واحداً أو سلسلة كاملة من الأشياء؛ الواحد تِلوَ الآخر. وللحظات وجيزة ومضطربة، وجد نفسه يفكر في أنه ربما يكون جهازاً ضخماً للجَرف أُرسل لإزالة العقَبة في الأسفل. فإذا كان الأمر كذلك، فهو لم يتمكن من إتمام المهمة لأن دويّاً سُمع بعد أربع ثوانٍ؛ اصطداماً يصمّ الآذان حصل لدى ارتطام هذا الشيء – أو الأشياء – بالعقَبة وجهاً لوجه. وبدا الأمر كما لو أن المنجم يتأرجح بأكمله. وتطاير عليه وابل من الغبار وحطام الصخور. وازداد الصوت حدّة مقارَنةً مع ما كان عليه عندما مرّ هذا الشيء قربه، فقد اصطدم بالرُّكام وتحطّم في الدّهليز. أُصيب خليفة بالذُّعر، وفشل في العثور على المصباح الكهربائي، مرّر يده باضطراب على الأرض ذهاباً وإياباً، متوسّلاً إلى الله لمساعدته للعثور عليه. ولكن أدعيته لم تُستجَب، وبارتداد أصوات الاصطدام ببطء في اتجاهه، لم يكن أمامه سوى خيار التخلي عن المصباح وجرّ نفسه إلى عمق الدّهليز لتجنّب التعرّض للأذى.

وبعد اجتيازه أمتاراً قليلة، تدحرج ووقف على قدمَيه بصعوبة. كان السواد يلفّه. تلمّس بيده جدار الدّهليز، وضغط عليه لتثبيت نفسه، ووقف هناك مُصغياً في أثناء تردّد صدى الصَّخَب المكتوم للمعدن المتحطّم في المنجم. لم يكن يملك أي فكرة عمّا يجري، فقد كان ضريراً مثل إيمان البَدري. كل ما باستطاعته تأكيده هو

قدوم شيء ما - أو أشياء كثيرة - من الأعلى وتحطّمه، وتحرُّك الأشياء في اتجاهه مع امتلاء الدّهليز بالحُطام بسرعة. كان ذلك الشيء يقترب منه أكثر فأكثر، وصوته يعلو أكثر فأكثر، فيما ارتجاجات الصخور تزداد حدةً تحت قدمَيه كما لو أنه يقف معصوب العينَين بجانب طريق عام يشهد أكبر حادث اصطدام جماعي للسيارات.

ومن ثم أصبحت الأصوات أكثر انخفاضاً، وابتعدت إلى يمينه بعيداً عن الدّهليز، وتراجعت الارتجاجات بالتدريج، وخفت الصوت، عِلماً أنه لا يزال موجوداً.

تسمّر خليفة في مكانه لمدة دقيقة تقريباً، محنَّطاً بالسواد. وبعد ذلك، تقدم خطى قليلة، مرتعداً ومختنقاً من رائحة الثوم الكريهة التي أصبحت قوية جداً وجعلت الدموع تترقرق في عينيه، ومدّ يده، فلمس شيئاً معدنياً.

"الله أكبر".

تلمّسه صعوداً، ومن ثم نزولاً. إنه متشابه؛ نتوءات وحروف، إضافةً إلى نوع من الغبار الدقيق كالبودرة ينسكب من الشقوق في المعدن.

إنها براميل، براميل ضخمة. لقد تدحرجت من الناحية العُلوية، واصطدمت ببعضها، وتغضّنت، وتمزّقت، وأُريقت محتوياتها.

كانت فتحة الدّهليز قد سُدّت بسببها من الأعلى إلى الأسفل، ومن الجانبَين. من دون وجود أي شقّ يمكنه تمرير أصابعه عبره. إنه باب زنزانة مُقفَل في سجن يحظى بحراسة أمنية مشدَّدة.

كان بمفرده، خائفاً ومسجوناً في سواد المتاهة.

القدس

عند السادسة وخمس وأربعين دقيقة، بدأ القلق يعتري بن - روي، فاتصل بخليفة، وحين ردّ عليه بريد صوتي، ترك رسالة. واتصل مجدداً بعد خمس عشرة دقيقة، ثم مرة ثالثة بعد عشرين دقيقة، تاركاً رسالتين في الاتصالَين من دون الحصول على أي إجابة.

وعندما وصل إلى منـــزل سارة عند السابعة وخمس وأربعين دقيقة مســـاءً، ازداد قلقه بشكل جدّي.

"هناك رائحة زَكية"، قال في أثناء مرافقتها له إلى داخل الشـــقة، ومُختلســـاً نظرة إلى هاتفه المحمول.

"شولِنت بلحم الضّأن".

"يوم الثلاثاء؟".

"إذا كنتَ ستصبّ كل انتقاداتك على الطّبَق، فسأطلب البيتزا".

فأمسك بذراعها، وأدارها نحوه، وقبّلها على أنفها. فالشولِنت بلحم الضَّـــأن طَبَقه المفضَّل. كانت قد بذلت جهداً ليس بالطهو فحسب، بل لتبدو رائعة أيضاً؛ إذ كان شعرها مُسدَلاً وممشَّطاً، وقد وضعت القليل من العطر، فيما ظهر انتفـــاخ الحَمْل تحت قماش فستانها. إنها جميلة كما اعتاد رؤيتها على الدوام. كان يعتـــزم بذل جهد أيضاً. كانت قد اشترت له قميص تيد بايكر بمناسبة ذكـــرى مـــيلاده الأخيرة، وخطّط لارتدائه، ورشِّ القليل من عطر ما بعد الحلاقة المفضَّل لديه أيضاً. ولكنه لم يحظَ بالوقت الكافي للذهاب إلى المنـــزل وتبديل ملابسه بسبب انشـــغاله بخليفة. حتى إنه لم يتمكن من شراء أزهار لها. وألقى نظرة سريعة على هاتفـــه. لا شيء. ماذا يحدث بحق الجحيم؟

"هناك شراب في الثلاجة"، قالت في أثناء مرورهما بالمطبخ.

ففتح الثلاجة وأخرج زجاجة شراب وسألها: "أتريدين واحدة؟".

فرمقته بنظرة، وأشارت إلى الانتفاخ.

"بالطبع، آسف".

فتح الزجاجة وتناول جرعة. كانت سارة في حركة ناشطة حـــول جهـــاز الطَّهو، والموسيقى تعزف في غرفة الجلوس؛ جوني ميتشل، أوّل سي دي اشتراه لها. إنها تبذل جهداً في الواقع، وحاول التركيز.

"هل البوبو بخير؟". سأل.

"كل شيء بخير. هل تريد أن...".

وأدارت بطنها في اتجاهه. فدنا منها وضغط بيده عليه.

"كلما فكرتُ بذلك الاسم الذي اقترحتَه، أعجبني أكثر فأكثر"، قالت.

"وأنا أيضاً".

"ماذا عن اسم آيريس إذا كانت فتاة؟".

وانقبض، فآيريس هو اسم المومس التي تحدّث إليها في نيفي شَعَنان.

"ربما لا"، قالت قارئةً تعابير وجهه. "سأواصل التفكير".

وضغطت بيدها على يده، والتقت نظراتهما وابتسمت.

"من الجيد أن تكون هنا يا آري".

"من الجيد أن أكون هنا. يُسعدني ذلك حقاً".

لزما مكانَيهما للحظات، في حين كان بِن - روي يُمسك بإحكام، وعلى نحو لا إرادي، الهاتف المحمول الموضوع في جَيب سرواله. وبعد ذلك، دنت منه على أطراف أصابعها وقبّلته؛ إنها قُبلة خفيفة وسريعة، ولكن على شفتَيه. ثم استدارت نحو جهاز الطَّهو وحرّكت محتويات القدر.

"لماذا لا تخرج إلى الشرفة؟ أكاد أنتهي من عملي هنا. باستطاعتك إضاءة الشموع في أثناء وجودك هناك".

ورمت له علبة ثِقاب، فالتقطها وأعرب لها مجدداً عن مدى سعادته بسبب وجوده معها - آملاً أن يعوّض التكرار واقع عدم تكبّده عناء ارتداء ملابس نظيفة - وخرج. كانت هناك طاولة مرتَّبة مع أزهار وشموع، ووعاء زيتون، وسلّة خبز بيتا. ولدى النظر إلى الطاولة، تبيّن له أنه ليس الوحيد الذي يفكّر في عودتهما إلى بعضهما.

تناول حبّتَي زيتون، وأضاء الشموع، واحتسى شرابه. وبعد ذلك، أغلق الباب بقدمه ببطء، وأخرج هاتفه المحمول وطلب رقم خليفة مجدداً.

"يعتريني القلق عليك. أنا شديد القلق. اتصل بي حالما تتلقى هذه الرسالة. هل اتفقنا؟".

وأنهى الاتصال في اللحظة التي خرجت فيها سارة.

"يبدو أنك تشعر بالذّنب"، قالت.

"فقط لأن أفكاراً غير ملائمة تعتريني حيالك"، قال كاذباً، وداسّاً الهاتف في جَيبه الخلفي.

فضحكت، ووضعت ذراعَيها حول عُنُقه.

"أعتقد أنها ستكون أُمسية جيدةً".
"وأنا أيضاً. أُمسية جيدة حقاً".
وعانقها بدَوره، وضمّها إليه، مُعرِباً لها عن مدى جمالها.
في هذه الأثناء، كان يفكر في المتاهة، ويرغب في أن يرنّ هاتفه المحمول.

المتاهة

قضى خليفة ثلاثين دقيقة، محاولاً إبعاد البراميل التي تسدّ مدخل النفق، وراكلاً إيّاها. ولكنه لم يتقدّم بوصة واحدة. لقد أدخلتها قوة الاصطدام ببعضها، صاهرةً إيّاها معاً. ولو تمكّن من إبعاد أحدها بأُعجوبة، لَما أحدث ذلك فَرقاً كبيراً. وأنبأه الصوت المتواصل لتصادم المعدن - كان لا يزال مسموعاً ولو قليلاً - أن الدّهليز الرئيس المؤدي إلى المنجم لا بد أن يكون قد سُدّ مسافة مئة متر على الأقل، إذا لم يكن أكثر، من مكان وجوده. لقد احتجزته مئات، وربما آلاف البراميل، في الداخل. سيكون عليه العثور على طريق أخرى للمغادرة.

إذا كانت موجودة.

"النجدة!". صاح شاعراً بحريق في حَلقه بسبب رائحة الثوم اللاذعة القادمة كما يبدو من داخل البراميل. "النجدة! رجاءً، النجدة! النجدة!".

ولكن، من دون جدوى. كان يدرك تماماً أن الأشخاص اليائسين يقومون بأمور لا جدوى منها. وكانت فكرة شق طريقه عبر المتاهة، من دون أن يرى أي شيء، لا تُحتمَل...

فاستدار في مواجهة النفق. كان الظلام كثيفاً لدرجة أنه لم يكن يحمل أي لون ولا يمكن اختراقه. فَراغٌ تامّ بدا أمامه اللونُ الأسود الأكثرُ قتامةً باهتاً. لوّح بيده مرةً، ومرتَين، وثلاث مرات. ومن ثم، شرع بجرّ قدمَيه ببطء إلى الأمام، وبدا صوت اصطدام البراميل البعيد الإيقاعي كما لو أنه يردد صدى نبضات قلبه.

فتحاته عميقة جداً، أروقته عديدة جداً، إنه مُربِك بتعقيده، لدرجة أن المرء يضيع كلّياً عندما يلج مدخله، ويحيّر ديدالوس نفسه.

كان يتقدّم خطوة خطوة، ناقراً الأرض بقدمه، وخائفاً من وجود حفرة أخرى كتلك التي رآها لدى عودته إلى الدّهليز. كان النفق ضيّقاً ويتراوح عرضه بين متر ومتر ونصف، ولا يزيد ارتفاعه عن المترَين. مدّ يده اليسرى إلى الأمام متلمّساً، وممسكاً بمسدس حِلوان بيده اليمنى. إنه لا يرى أي شيء بالتأكيد، ولكن إدراكه أنه يحمل المسدس يمنحه القدْر اليسير من الارتياح. ففي مأزقه الحالي، إنه بحاجة إلى كل ما يمكنه الحصول عليه.

كان الممرّ مستقيماً، والأرض مسطَّحة، وبدت الجدران منقوشة بترتيب على غرار المدافن في وادي الملوك. لم تكن هناك أنفاق جانبية، أو إنه لم يتمكن من العثور على أيّ منها. لقد شعر جزء منه بالارتياح؛ فالأنفاق الجانبية تعني اتخاذ قرارات، وتعقيدات، واحتمال أن يتوه في شبكة المتاهة الخبيثة.

وكان جزء منه قلِقاً، ويزداد هذا القلق مع كل خطوة مترددة يقوم بها. فمن الأهمية بمكان التمسك بأي أمل للخروج، لذا شق طريقه عبر المتاهة، وبقي على أقرب مسافة ممكنة من سكّة الدّهليز الرئيس، ولكن النفق بدا كما لو أنه يُبعده عن تلك السكة أكثر فأكثر في اتجاه المجهول.

لم يكن هناك الكثير مما يستطيع القيام به، وهكذا شق طريقه ببطء وهو لا يسمع سوى صوت تنفّسه المذعور، والاهتزاز المتواصل للبراميل في مكان ما بعيداً. لقد لمست يده فجوة قليلة العمق بحجم قبضة يد في الجدار المسطَّح بخلاف الجدران الأخرى. وبعد اجتيازه مسافة قصيرة، تحطّم تحت قدمه شيء ما تبيّن له عندما انحنى للتحقق منه أنه كِسَر جرّة محطّمة أو إناء محطَّم. وعدا عن ذلك، لم يواجه أي معالم أو أشياء أخرى؛ لا شيء سوى الأرض، والجدران. والظلام الخانق، والغامر.

وبعد ذلك، انتهى النفق فجأةً.

"آه، يا الله! لا".

داسّاً مسدس حِلوان في الناحية الخلفية لسِرواله، تلمّس المكان بكلتا يدَيه. أمامه، كانت هناك صخرة صلبة. فربّتَ على الجهة اليسرى، واليمنى. وعلى السقف. لم تكن هناك أي فجوات، ولا حتى أيّ تصدّع. إنه طريق مسدود.

وربّت مرة ثانية، وثالثة مستكشفاً كل بوصة من الجدار. ومـــن ثم اســـتدار. وأسند ظهره على الجدار، وانـــزلق على الأرض. وفي أثناء قيامه بـــذلك، توقـــف أخيراً الصوت المكتوم الصادر عن اصطدام البراميل ببعضها. وساد سكون أشـــبه بسكون القبر. فثنى ركبتَيه نحو الأعلى ووضع ذراعَيه حولهما.

لقد دُفِن حيّاً.

القدس

شملت المقبِّلات التي أعدّتها سارة في المنـــزل طبَق بابا غنّوج، وهو من أطباق بن - روي المفضَّلة. أطفآ أضواء غرفة الجلوس، وجلسا على الشرفة علـــى ضـــوء الشموع. كانت هناك نجوم في السماء، وعبير زهر المغنوليا يصل إليهما من الحديقة في الأسفل. وحلّ إِتي أَنكري مكان جوني ميتشل.

كان الأمر سيبدو مثالياً لو لم يكن قلِقاً إلى هذه الدرجة.

"يبدو أن مشروع المسرحية قد توقف"، قالت ملتقطةً قطعة خبز بيتا من السلة وقاسمةً إيّاها إلى نصفَين.

كان قد استرق النظر إلى الهاتف المحمول في يده تحت الطاولة، واختلس نظرةً إلى شاشة العرض. ولكنه رفع نظره لدى سماعه ذلك قائلاً:

"آه لا!".

وحرّكت سارة خبز البيتا بشكل دائري في سائل التغميس.

وسمعنا اليوم أن مانحنا الرئيس قد أوقف تمويله".

"ألا تستطيعون إيجاد مانح آخر؟".

"ليس في الجوّ السائد. لقد أُسقطت المصالحة من الحساب".

"آسف".

فهزّت كتفَيها، وقضمت زاوية البيتا.

"إن جزءاً مني يشعر بالارتياح، وهذا إحساس شديد الغرابة. الأمر أشبه بمراقبة شخص ما تحبه وهو يموت ببطء. من الأفضل وضع حد لمأساته. لدينا مهلة شـــهر تقريباً، ومن ثم سوف...".

ودوّت موسيقى *هافا ناجيلا* في حضن بِن - روي، فرفع هاتفه على الفـــور، مركّزاً على الشاشة. لم يكن سوى صديقه شْمول. فنظرت إليه سارة عبر الطاولة، غير غاضبة، ولا متضايقة؛ وإنّما... خائبة الأمل.

"آسف"، قال تاركاً الهاتف ينتقل إلى صيغة البريد الصوتي.

فمدّت يدها، وشبكت أصابعها بأصابعه.

"ظننتُ أنك ستوقفه عن العمل هذه الليلة فقط يا آري. لقد قمتَ بـــذلك في السابق. أنت قويّ بما يكفي. أعرف أنك كذلك. هيا، قاوم رغبتـــك الشـــديدة. قاوم! قاوم!".

كانت تحاول جعل الأمر يبدو كدُعابة، مما جعله يشعر بسوء أكبر. فضـــغط على يدها.

"اسمعي يا سارة. لا أريد تضخيم المسألة، ولا أريد لهـــذا الأمـــر أن يُفســـد أمسيتنا، ولكن أعتقد أن صديقي خليفة في مأزق. سأضع الهاتف هنا...".

ووضعه وسط الطاولة.

"وإذا اتصل أي شخص آخر باستثنائه، *أي شخص*، فأنا أُقسم بالله إنني لـــن أُجيب. وبعد أن يتصل، سأوقف الهاتف عن العمل، ويمكنك أن تفعلي بهذا الشيء اللعين ما تريدين. لا أُبالي حتى إذا ألقيتِه في المِرحاض وأغرقته".

وظهر شيء ما في عينَيها يقول إنها سمعت كل ذلك من قَبْـــل، و لم تصـــدّقه. ولكنها أزالت هذا الانطباع وارتسمت ابتسامة مصطنَعة على وجهها.

"تبدو لي صفقة عادلة".

وضغط على يدها مرةً أخرى. وبعد ذلك، وقف جزئياً، وانحنى فوق الطاولة، وقبّل رأسها.

"شكراً لك لأنكِ امرأتي"، قال.

"شكراً لك لأنك رجلي؛ حتى إن كنتَ الرجل الأكثر إغضاباً الذي التقيتُـــه يوماً".

وضحك بسبب هذا التعليق وجلس. وفي أثناء قيامه بذلك، ألقى نظرة سريعة على شاشة الهاتف بهدف التحقق.

"كُل"، قالت، "وإلا احتاج الطعام إلى إعادة تسخين".

المتاهة

لم يكن خليفة يملك أي فكرة عن المدة التي قضاها جالساً هنـــاك في آخـــر النفق، ضاغطاً رأسه على ركبتَيه، وشابكاً ذراعَيه حول ساقَيه، واليأس يغمره تماماً كما يغمره سواد المنجم. ربما مضت دقيقتان، وربما ساعتان، وربما يومان. هنـــا، يبدو أن لا معنى للوقت.

في النهاية، سحب ذراعَيه، ورفع نفسه على قدمَيه. وقـــف للحظـــات، وفي هوامش ذاكرته يتردد صدى مقطع صغير من حديث كان قد قاله لشخص مـــا في وضع موحِش كهذا الوضع (*ثِقي بالله يا آنسة مولاري. ثِقي بالله ولا تيأسي أبداً*).

ومن ثم استدار، وشرع مجدداً بالتربيت بيديه على الصخر في نهاية النفق. إلى الأعلى، إلى الأسفل، من جانبٍ إلى آخر. إنه صَلب كما كان منذ وقـــت طويـــل عندما ضربه بقوة للمرة الأولى. لا شقوق، لا فجوات، لا سبيل لعبوره. إنه طريق مسدود بكل معنى الكلمة.

ووجّه ضربة بقبضته إلى الصخر (*لو كان هذا المشهد في فيلم*، فكر في سرّه، *لَفُتح مدخل مخفيّ من نوع ما في هذه المرحلة*). وبدأ يتلمّس طريقه بموازاة جانـــب النفق، ممرّراً يدَيه بشكل منهجي من الأرض إلى السقف علّه أغفل ممرًّا جانبياً وهو في طريقه إلى المكان. كان يعرف أنه لم يُغفل أيّ ممرّ لأن الجدران متقاربة إلى حـــد كبير ويستحيل عليه ألا يتحسس فتحةً إذا كانت موجودة؛ حتى لو كان الظـــلام دامساً. ولكن القيامَ بأي شيء أفضلُ من الجلوس هناك عادّاً الدقائق والســـاعات والأيام حتى يوافيه الموت ويضع حداً لبؤسه؛ على غرار ساموئيل بينسكر الـــذي لا بد أن يكون قد عدّها. لم يشأ أن يموت مثل ساموئيل بينسكر. لم يشأ أن يمـــوت، نقطة على السطر.

ودخل إيقاعاً من نوع ما؛ كان يجرّ قدمَيه بضعة سنتيمترات، ثم يركع، ويضـــع راحتي يدَيه على الجدار، ويتلمّس طريقه بأطراف أصابعه، ثم يلمس السقف. ثم يجـــرّ قدمَيه سنتيمترات قليلة، ويركع، ويضع راحتَي يدَيه على الجدار، ويتلمّس طريقه...

لم يكن بحاجة إلى هذا المقدار من الدقة لاستكشاف كل مليمتر من الصخر، ولكن هناك عنصراً مهدّئاً في هذه الحركة. فبقيامه بذلك ببطء، كان يُرجئ اللحظة

التي يُقرّ فيها للمرة الأخيرة بأنه حُكم عليه بالهلاك. وما دام هناك جدار لاستكشافه، فسيكون هناك أمل مهما كان ضئيلاً، وهو أَمَل بالرغم من كل شيء. وعندما يغطّي كل بوصة من النفق من دون العثور على سبيل للخروج فسيستسلم حينذاك لليأس.

كان يجرّ قدمَيه سنتيمترات قليلة، ثم يركع، ويضع راحتَي يدَيه على الجدار، ويتلمّس طريقه...

وصل إلى حُطام الآنية المبعثَرة التي صادفها من قَبل - كِسَر سميكة ومحزَّزة مصدرها جرّة تخزين كبيرة من نوع ما كما هو مفترَض - ومن ثم، وعلى بُعد أمتار قليلة، وفي أثناء تمريره يدَيه من الأرضية في اتجاه أعلى الجدار، عثر على فجوة ضحلة في الصخر. كان قد صادف فجوة مماثلة في أثناء نزوله النفق، ولكنه تذكّر أن تلك الفجوة كانت بارتفاع الكتف، في حين أن هذه الفجوة بمستوى ركبته، أم إنها الفجوة نفسها ربما وتخونه الذاكرة؟ كان من المستحيل بالنسبة له التأكد من أيّ من أحاسيسه في هذا السواد الجحيمي. توقف، مستكشفاً الفَجوة بأطراف أصابعه. لم يكن عمقها يتخطى سنتيمترَين، وهي عبارة عن ثُلم أكثر من كونها فجوة، وانتابه شعور ما حيال ذلك. لقد تذكّر أن الفجوة الأخرى كانت أكثر عُمقاً وغير مستوية، مما أكد له أنهما مختلفتان. حرّك يدَيه إلى مكان أعلى في الجدار فلمستا ثُلماً آخر بارتفاع الورك، وآخر بارتفاع الصَّدر، ورابع بارتفاع كتفه تقريباً. إنه ذاك الذي لمسه من قَبل، كان متأكداً من ذلك؛ العُمق نفسه، الملمس نفسه عند حافّته السُّفلية. أربعة أثلام في الجدار المسطَّح المنحوت بإتقان، واحد فوق الآخر. إنه أمر مثير للاهتمام.

وتلمّس بيده الناحية العُلوية، وصولاً إلى السقف حيث عثر على... فجوة.

وفجأةً، بدأ قلبه يخفق بقوة. فوقف على أطراف أصابع قدمَيه، وتلمّس الخط الكفافي للفجوة بأطراف أصابعه. إنها مربّعة الشكل بقياس نصف متر تقريباً لكل من أضلاعها، محفورة بأناقة، وموجودة وسط السقف، وأشبه بالطرف السُّفلي لَمسرب مِدخنة. لا بد أن يكون قد مرّ تحتها مباشَرةً عندما نزل النفق من قَبل.

قفز محاولاً توجيه ضربة بيده لناحية الداخلية للفجوة، ولكنه لم يتمكن من لمس الصخرة. وتلمّس الأرض في اتجاه أسفل الممر، وعاد مع حَفنة من كِسَر الخزَف، رماها في اتجاه الأعلى واحدةً تلو الأخرى. المَسرَب يمتدّ مسافة إلى الداخل كما يبدو. أهو طريق مسدود آخر؟ أم مَسلك للفرار؟ لقد أدرك بعد موجة من الحماسة أنه ما من وسيلة لدخول المَسرَب، في كلا الحالَين.

ما لم...

وعبر إلى الجدار المقابل، ومرّر يدَيه على صفحته وصولاً إلى الأسفل، حيث تلمّس بأطراف أصابعه أربع حُفَر أخرى بحجم تلك الموجودة في الجهة المقابلة نفسه، وقائمة على الارتفاع نفسه.

والتمع في ذاكرته أمر ما رآه قبل ست سنوات أو سبع في وادي الملوك. كان صديقه غينغر، وهو عالِم في الآثار المصرية، قد اصطحبه مع ابنه علي في جولة خاصة على المدافن المُقفَلة. وفي أثناء مرورهم وسط الوادي، توقف غينغر ليشير إلى فتحة عمودية للتهوئة تابعة للمدفن كيه في 56، كان فريق من علماء الآثار البريطانيين قد اكتشفوه مؤخَّراً. لقد أُحدثت حفر صغيرة في الجدران الصخرية على جانبَي فتحة التهوئة.

"إنها مواطئ قدَم"، شرح لهما غينغر عندما أشار إليها خليفة. "كان العمال القدماء يقفون منفرِجي السيقان تحت فتحة التهوئة، ويستخدمونها للتسلق والنزول كالعناكب في أنبوب. الأمر سهل إذا كانت لديكم سيقان طويلة".

لم تكن ساقا خليفة طويلتَين. ولكن ما يفتقر إليه في البنية الجسدية كان يعوِّض عنه في تهوّره الأعمى. فدسّ مسدس حِلوان عميقاً تحت سرواله، وجرّ قدمَيه حتى انفرجت ساقاه ولامست قدماه جداري الممر. لقد مدّد ساقَيه إلى أقصى حد، ولو كان النفق أعرض بسنتيمترات قليلة لما تمكن من القيام بذلك. ثبّت طرف حذائه الأيسر داخل الفجوة اليسرى الأكثر انخفاضاً. وبعد ذلك، ضغط بأصابعه على الصخر لتحقيق التوازن، وتمتم بدعاء سريع ورفع قدمه اليمنى بسرعة. لقد أغفل الفجوة المقابلة فكبا إلى الأمام. حاول مرة ثانيةً، وثالثةً، ونجح أخيراً في المحاولة الرابعة. وقف هناك للحظات وقدماه مثبَّتتان على جدارَي النفق كما لو

أنهما جسر يصل بين الجهتَين، وعضلاته تصرخ احتجاجاً لأنه غير معتاد على ذلك. وبعد ذلك، ترنّحت قدمه اليسرى في اتجاه الفتحة التالية في الأعلى، ولكنه فقد توازنه ووقع.

"هيّا!". هسهس، مُدركاً أنها فرصته الوحيدة في الواقع للخروج من النفق، وإذا لم ينجح في ذلك فسيلقى حتفه. "هيّا!".

وفي المحاولة التالية، صعد ببطء قبل أن يقع. وفي المحاولة اللاحقة، تمكن في الواقع من وضع ذراعَيه ورأسه داخل الفتحة قبل أن تستسلم ساقاه ويقع أرضاً. رافضاً تقبُّل الهزيمة، انطلق في محاولة أخرى، متجاهلاً الألم في فخذَيه، ورائحة الثوم الكريهة. كان يركّز كل جهوده على مهمة الصعود، معتمداً على الفتحات في الجدارين، وهدفه دخول فتحة التهوئة.

وهذه المرة نجح وبلغ موطئ القدم الأعلى، ووجد أُخدوداً محفوراً داخل الجدار، فرفع نفسه. ووجد أُخدوداً آخر، ومن ثم آخر، وهكذا كان يرفع نفسه ويتسلّق. وبعد ذلك، خرج من النفق إلى داخل المَسرَب.

"الحمد لله، الحمد لله، الحمد لله".

منح نفسه لحظات قليلة، مُسنداً ساقَيه على جدار المَسرَب، ومن ثم شرع بالتسلّق. لقد حُفرت دِعامات في الجدارين على مسافات متماثلة، فتمكّن من الصعود بدون الكثير من العناء، منتقلاً من أُخدود إلى آخر كما لو أنه يصعد سُلّماً، ولم يبارحه الخوف من أن تؤدي فتحة التهوئة إلى طريق مسدود آخر. ولكنه لم يُطِل التفكير بذلك، بل واصل شقّ عباب السواد ببطء، متحققاً من كل دعامة قبل أن ينقل وزنه إليها؛ مُدركاً أن سقوطه قد يعني كَسر أطرافه والموت المؤكد. لقد طار خفّاش ذات مرة من الأعلى مباشَرةً إلى وجهه. وشعر مرة أخرى بأنه يندفع عبر شيء طريّ ورقيق افترض أنه نسيج عنكبوت. وباستثناء ذلك، كانت فتحة التهوئة نظيفة. وبعد أن تسلّق عشرين متراً إضافياً، غابت الجدران فجأةً عن أنظاره، ووجد نفسه يخرج إلى مساحة مفتوحة. وبعد أن زحف مسافة متر تقريباً، هبط على أرضية مسطّحة ومغطاة بالغبار، وشعر بالارتياح بسبب خروجه من الممر، ولكن هذا الارتياح كان لا يزال مَشوباً بإدراكه أنه لا يزال سجين المتاهة.

حاول بن - روي. لقد حاول حقاً. فهي تعني له الكثير، وقد بذلت جهداً كبيراً لجعل الأُمسية مميَّزة، ولتمنحهما - لا بل ثلاثتهم - فرصة أخرى.

ولكن خليفة كان كل ما يفكر فيه. وعندما كانت سارة تتحدث إليه، وتطلعه على أمر ما له علاقة بالجنين؛ أمر شخصي وحميمي، كان يعود بنظره على الدوام إلى شاشة الهاتف، راغباً في أن تُضاء. وعندما كانت تُدير ظهرها لدخول المطبخ وإحضار شيء ما، كان يحمل الهاتف المحمول بيده ويوجّه رسالة أخرى لخليفة، ملتمساً منه الاتصال به.

لقد حاول، لقد حاول حقاً. ولكن اهتمامه كان في مكان آخر، وتمكنت سارة من ملاحظة ذلك بوضوح كما لو أنه يومض من إطار لوحة إعلانات مُضاء بالنّيون فوق رأسه. لم تقل أي شيء أو تُصاب بسَورة غضب. ولكن، قرابة الساعة التاسعة والنصف، وفي أثناء قيامها بإزالة فَضَلات الكعكة باللوز التي أعدّتها خصّيصاً له - وهي من أطباقه المفضَّلة - قالت له:

"عُد إلى المنزل يا آري، أو اذهب إلى المكتب، أو قُم بنزهة سيراً على الأقدام. اذهب إلى مكان ما يمكنك التركيز فيه على ما تحتاج إلى التركيز عليه".

"ولكن الوقت مبكّر. اعتقدتُ أنه يمكننا...".

"أنتَ لستَ هنا يا آري. إذا كان صديقك يواجه المتاعب، فأنا أعتقد أنه يُفترض بك أن تكون حيث يمكنك التركيز على هذا الأمر وليس الجلوس من دون التحدث إليّ إلا نادراً".

حاول الاحتجاج وإقناعها بأن تسمح له على الأقل بالبقاء لمساعدتها على غسل الأطباق، ولكنها أصرّت بمرارة وليس بغضب. لم يسبق له أن رآها حزينة على هذا النحو. لقد أنبأه شيء ما بأنه فقد الفرصة؛ الفرصة الأخيرة.

فوضع هاتفه في جَيبه، ورافقها إلى الباب الأمامي. وعندما فتحت له الباب حاول أن يقبّلها، ولكنها أدارت وجهها عارضةً عليه خدّها.

"آسف"، قال.

"وأنا أيضاً".

"لقد أمضيتُ وقتاً ممتعاً".

لم تصدّق ذلك. وسمحت له بتقبيل بطنها، وأعربت عن أملها في أن يكون خليفة بخير. وبعد ذلك، عادت إلى الوراء، وأغلقت الباب.

"سأتصل بك"، صاح.

لم يتلقَّ أي إجابة، ولم يكن واثقاً من سماعه نشيجاً مكتوماً صادراً من الداخل.

المتاهة

"سلام!".

وتردد صدى صوت خليفة. وفقاً للصدى، كان في كهف أو غرفة كبيرة كتلك التي مرّ بها في أثناء عبوره الدّهليز الرئيس للمنجم. طأطأ رأسه، محاولاً تذكُّر أي شيء مماثل في رسوم بينسكر التوضيحية من دون أن يُفلح في ذلك. فجرّ قدمَيه بضع خطوات إلى الأمام، وذراعاه ممدودتان أمامه كما لو أنه رجل ضرير، ولكنه عاد بعد ذلك إلى الوراء. وبحث في جَيبه، وأخرج منديله وبسطه على الأرض بجانب حافة فتحة التهوئة. فعندما تسلّق من الأسفل، كان ينظر في اتجاه الدّهليز، فوضع منديله عند حافة فتحة التهوئة بطريقة تشير إلى ذلك الاتجاه. في النفق، كان من السهل عليه تتبّع وُجهته انطلاقاً من المِحور الأوّلي للمنجم، وذلك بسبب وجود جدارَين مستقيمَين من الجانبَين. أما هنا، فسيكون الأمر أكثر صعوبة عليه مع عدم وجود معالم مباشَرة تُوجّهه. سيكون المنديل مرجِعاً على الأقل.

ربّت على المنديل، متحققاً من عدم إمكانية وجود أي إبهام في شأن الجهة التي تقع فتحة التهوئة بجانبها. وبعد ذلك، قوّم وِقفته، وانطلق إلى الأمام مجدداً، ملوّحاً بيدَيه عبر الظلام، ومتتبّعاً اتجاه الممر تحته الذي يؤدي إلى الدّهليز الرئيس.

وبعد عشرين خطوة اصطدم بصخرة.

فتلمّس المكان في الأعلى والأسفل، وبدأ يجرّ قدمَيه في اتجاه اليمين. كانت الجدران صلبة، وواصل تقدّمه ببطء في أرجاء الغرفة، أو الكهف، أو أيّاً يكن. كان

الظلام دامساً جداً لدرجة أنه فقد كل حسّ بالاتجاه، وبمكان وجود فتحة التهوئة. وبعد قيامه بخطى معدودة، اصطدم برُكام من الحجارة، فالتقط مجموعة من الحجارة الصغيرة، وشرع برميها في الفراغ في اتجاه الناحية العُلوية. وتردد صدى طقطقة خافتة فوقه. المكان مرتفع، ولكنه لم يتمكن معرفة مدى ارتفاعه. رمى حجراً آخر بشكل أفقي، وسُمعت طقطقة أخرى. أهي على بُعد عشرة أمتار أم عشرين متراً؟ من المستحيل تحديد المسافة. رمى أربعة أحجار أخرى ليكوّن صورة تقريبية عن أبعاد المكان - إنه كبير، هذا ما تمكن من التوصل إليه - وواصل تقدّمه في الأرجاء وصولاً إلى الجدران. لقد صادف قِدرَين خزفيّتين كبيرتين جداً وبارتفاع خصره. وعلى مَقرُبة منهما، داس على شيء ما تبيّن له بعد التحقق منه عن كثب أنه عظام حيوان صغير.

لم يعثر على أي مداخل أو فتحات، ولم يعثر على مَخرج للمكان، وبدأ يشعر بالذُّعر ويفكر في أن النفق وفتحة التهوئة والغرفة ربما تكون جزءاً من الطريق المسدود نفسه. وحينذاك اصطدم بشيء ما مُسنَد إلى الجدار.

إنه سُلّم.

مرّر يدَيه عليه؛ قائمتان عموديتان، دَرَجات، ربطات جلدية، لقد بدا متيناً. اختبر الدَّرَجة السُفليّة، إنها متينة. وشرع بتسلّقه بحذر، درَجةً درَجة. وبعد ثلاث درَجات، اكتشف وجود فُتحة واسعة في الجدار مماثلة لتلك التي رآها في مدخل المنجم.

"*سلام!*".

وترددت الأصداء. إنه نفق آخر، طريق إلى الخارج. ولكن، أيّ طريق هو طريق الخروج؟ وهل هو الطريق الوحيد، أم إن هناك خيارات أخرى؟

نزل، وواصل السير إلى اليمين، جارًّا قدمَيه قرب جدران الغرفة حتى بلغ رُكام الحجارة مجدداً. لم تكن هناك أي فتحات على مستوى الأرض، ولا زوايا أيضاً، مما أنبأه بأن المكان مستدير، فتلمّس طريقه في اتجاه السلّم. ركع، ودبّ عبر الغرفة بشكل مستقيم قَدْر الإمكان، ماسحاً الأرض بيدَيه بَحثاً عن أعلى فتحة التهوئة. وبعد دقائق قليلة، اصطدم بالصخر. تبّاً! لقد أغفلتها! وقف، وتلمّس طريقه في اتجاه السلّم مجدداً، ثم ركع. وزحف، مائلاً قليلاً إلى يسار

وُجهته السابقة. هذه المرة، عثر على الفتحة. كان المنديل عند جانبها البعيد، وقد أنبأه ذلك بأنه في اتجاه الدّهليز الرئيس. وكرر العملية للتأكد من أنه في الاتجاه الصحيح، ثم عاد إلى السلّم. خلع حذاءه، وأسنده إلى الجدار للإشارة إلى موقع السلَّم (إنه لَموقف هزلي ألاّ يكون الوضع ميؤوساً منه كثيراً). ومن ثم، جال على امتداد جدار الغرفة، عارجاً على قدم واحدة؛ متسلّقاً ونازلاً، وباحثاً عن أي فتحات أخرى. لم يجد أيّاً منها، أم إنه لم يتمكن من اكتشافها؟ أكمل دورته ووصل إلى الحذاء مجدداً، فانتعله. لقد اتخذ قراره، تسلّق السلَّم، ودخل النفق بمشقّة، وشرع باجتيازه ملوّحاً بيده أمامه، ومُبقِياً رأسه منخفضاً لتفادي صدمه بالسقف.

وبعد أن قطع مسافة عشرين متراً - ربما أكثر، وربما أقل؛ فقد علق في عالَم حيث كل شيء مُبهَم وغير محدَّد على نحو ميؤوس منه - وصل إلى مكان منبسط وتمكّن من الوقوف. وبعد اجتيازه مسافة مماثلة، وصل إلى مكان حيث يتشعّب من النفق فرعان. فالمفترَق الأيسر منحدر، في حين يتجه الأيمن صعوداً. اختار الأيسر، حارِصاً على تذكُّر الفَلَق كي يستعين به إذا أراد اقتفاء أثر خطواته. نزل، ووصل إلى مجموعة درَجات صعدت به مرة أخرى، وبلغ مفترَق طرق من نوع ما مع أنفاق أخرى متجهة إلى اليسار أو اليمين. مرة أخرى، اتجه يساراً، معتبراً بعد احتساب المسافة أنه لا بد من أن يكون بموازاة الدّهليز الرئيس، وإن كان فوقه. وكان النفق الجديد يمتد بشكل مستقيم قبل أن ينحدر فجأةً ويلتفّ على نفسه، ووجد خليفة وفقاً لحساباته - أصبح أقل تأكداً أكثر فأكثر من تلك الحسابات مع كل خطوة يخطوها - أنه يعود إلى داخل المنجم بدلاً من التوجه إلى المدخل. وانفتح ممر إلى يمينه فسلكه، ودخل ما بدا أشبه بغرفة مليئة بالأعمدة، وهناك مداخل في كل من جدرانها. المزيد من الممرات، المزيد من القرارات، المزيد من التعقيد، المزيد من الإرباك.

"آه يا الله! ساعدني"، وغصّ. "أرجوك يا الله ساعدني. أرجوك. أرجوك".

وكان الظلام الدامس لا يزال في عينَيه، والسكون في أُذُنَيه، والمتاهة تطوّقه بلا رحمة بشكل تدريجي كما لو أنها تلتفّ عليه.

عاد بِن – روي إلى منـــزله، وحاول تحديد خطواته اللاحقة في شأن خليفــة *وسارة*.

سيتصل بها في اليوم التالي، ويحمل لها الأزهار، ويتوسل إليها لمنحه فرصة أخرى؛ فرصة أخرى *إضافية*. كان هناك شيء ما يُنبئه بأن ذلك لن يحدث، وأنه أفسد الأمر بطريقة حاسمة. بالتأكيد، لديه عُذر ليكون مشتّت التفكير على هذا النحو، ولكنه يواجهها بالأعذار باستمرار. هناك شيء ما على الدوام؛ سببٌ ما يحول دون أن يكون لها كليًّا. وإذا لم يكن خليفة هو السبب، فأزمــة أخــرى ربما. إنها حال التحرّي الميداني. لم يكن باستطاعته التخلي عن خط المواجَهــة والحصول على عمل مكتبــي في مكان ما، و لم تكن بيده حِيلة لتخطي المأزق. إنها بحاجة إلى المزيد منه، وهي تستحق المزيد، وهو لا يستطيع تقديمه لها. إنــه ـجه مأزقاً.

منح نفسه لحظات قليلة مفكّراً في دوافعه ومشاعره بندم. بعد ذلــك، ســلّم بعدم تمكّنه من القيام بأي شيء حيال الأمر في هذه الليلة، وأبعد سارة والطفل عن رأسه، وركز على أولويّته المباشَرة؛ خليفة.

لقد حدث أمر ما لصديقه، أمر سيّئ. كان واثقاً من ذلك. ولا وجــود لأي تفسير آخر لعدم اتصاله به، وبِن – روي هو المسؤول، فهو من ورّط المصــري في القضية، ويشعر الآن بتأنيب الضمير.

ذارعاً شقته ذهاباً وإياباً، أجرى اتصالاً آخر به عبر الهاتف العامــل بنظــام الاتصال عبر الأقمار الاصطناعية، وترك رسالة أخرى. ثم اتصل به عــبر الهــاتف العادي أيضاً علّه يُوفَّق في التحدّث إليه. وبعد ذلك، شــغّل جهــاز الكمبيــوتر الحضني، ووجّه له بريداً إلكترونياً أيضاً. وهكذا يكون قد استخدم كل الوســائل المتاحة.

ماذا بعد؟ لم يكن يملك رقم هاتف منــزل المصري، إذ كانا يتواصلان علــى الدوام عبر الهاتف المحمول أو البريد الإلكتروني. وحتى لو كان يملكه، فهــو لــيس واثقاً من مدى فائدته. فهو يكاد لا ينطق بأي كلمة عربية، وإذا كان هناك مــن

يتكلم الإنكليزية في العائلة، فما الذي سيقوله لهم؟ آسف لإزعاجكم، أردتُ فقط التحقق مما إذا كان زوجك/والدك ليس مَيتاً؟ لديهم ما يكفيهم من أسى، ولم يشأ زيادة الأمر سوءاً. باستطاعته الحصول على الرقم والاتصال به عندما يستنفد كل الوسائل الأخرى. في الوقت الحالي، إنه لا يريد إقلاقهم.

فكّر في الاتصال ببارين، ولكنه تخلى عن الفكرة. فبالتأكيد لن يساعدوه في العثور على شخص ذهب للتحقق من منجمٍ أنكروا معرفتهم به.

وبدلاً من ذلك، أجرى مكالمة هاتفية مع داني بيرلمان، وهو صديق له يعمل ضابط ارتباط بين أقسام قوات الشرطة في مقر قيادة الشرطة الوطنية في جبل سكوبس. فبيرلمان الذي يتكلم العربية بطلاقة يَدين له بخِدمة - عدة خدمات في الواقع - وقام بِن - روي هذه الليلة بطلب خِدمة في المقابل. فتذمّر بيرلمان وتأفف، وسأل إن كان بإمكان ذلك الانتظار حتى اليوم التالي، ولكن بِن - روي ألحّ عليه، فوافق في النهاية على الاتصال بمعارفه في الشرطة المصرية، والحصول على أسماء وأرقام في الأُقصُر، ورؤية ما يمكنه القيام به.

"سأتصل بك متى بلغني أي شيء"، قال، "ولكن، لا تعتبر الأمر منتهياً. فالمصريون كابوس لعين".

فأكد بِن - روي على المَطلَب المُلِحّ، وشكره، ثم أنهى المكالمة.

شغّل التلفاز، وتابع لمدة دقيقتَين برنامجاً وثائقياً عن أمور عدة، ولا سيما عن مجموعة رجال علِقوا في منجم في الصين، ثم أوقفه عن العمل، وتحقق من بريده الإلكتروني، وبعد ذلك عاود الاتصال بخليفة. وبسبب عدم وجود أي شيء بإمكانه القيام به، أخذ بنصيحة سارة وخرج في نزهة سيراً على الأقدام.

فأي شيء أفضل من جلوسه في شقته بمفرده متأملاً بواقع أنه لم يُنهِ علاقة فحسب، بل خسر صديقاً أيضاً.

المتاهة

إن الأمر الحاسم بالنسبة إلى خليفة، والخيط بالغ الصِّغَر الذي يتأرجح عليه أي أمل بالبقاء، هو عدم فقدانه الصلة بموقعه الذي يربطه بالدّهليز الرئيس للمنجم.

فما دام قادراً على تحديد موقعه ومعرفة اتجاهه، فإن فرصة، ولو ضئيلة، تتوافر له للعثور على مَخرَج من خلال تلمّس طريقه.

ولكن، بعد عشرين دقيقة من مغادرة الغرفة الكهفية، انقطع الخيط وضاعت الفرصة.

لقد تاه. كان تائهاً تماماً على نحو ميؤوس منه، من دون أن يكون بإمكانه تحديد موقعه.

حاول اقتفاء أثر خطاه، وتلمُّس طريقه للعودة إلى الغرفة، ولكن خارطة الطريق في ذاكرته أصبحت متشابكة على نحو ميؤوس منه. إلى اليسار أو إلى اليمين هنا؟ إلى الأعلى أو إلى الأسفل؟ الممر الثاني أو الثالث؟ لَكان الأمر صعباً بما يكفي لو كانت المتاهة مُضاءة بنور كشّاف، فكيف الحال وهي غارقة في ظلام دامس؟

تعثّر وهو لا يرى شيئاً، ويشعر بأنه عاجز، ويائس. لقد وصل عدة مرات إلى أماكن ظنّ أنها مألوفة: امتداد شديد الانحدار لدَرَجات، ممرّ ضيّق بصفة خاصة، أرضية مغطاة بأوانٍ خزَفية محطَّمة، وصف من السلال المليئة بالأوساخ. لقد فقد الإحساس بما هو مألوف: متى كان هنا؟ من أين أتى قبل ذلك؟ إلى أين ذهب بعد ذلك؟ هذا إذا كان هنا في الواقع، ولم يكن هذا الجزء جزءاً مماثلاً من المنجم. لقد بدا كل شيء مختلطاً ببعضه، وكل النقاط المرجعية تلاشت في الظلام كورقة في أسيد، مخلّفةً وراءها وَحلاً أسود بدون معالم مميّزة.

عبر جسراً خشبياً من نوع ما فوق حُفرة عميقة، وسمع هسيساً في الأسفل، وصوت ارتطام أجسام منزلقة. وبعد قليل - أو ربما بعد فترة طويلة، أو ربما قبل ذلك؛ لم يَعُد للوقت أي معنى هنا منذ مدة طويلة - وجد نفسه يندفع عبر ما اعتبره في البداية، وفي خِضمّ تشوُّشه، ستائر ثقيلة من الخَرَز. وبعد أن تفحّصها عن كثب، أدرك أنها هياكل عظمية مدلاّة من عارضة في السقف.

وقبل أو بعد ذلك، سمع صوت مياه جارية، فحاول تحديد مصدرها، ولكنه كان تائهاً في الفراغ.

أم إن كل هذه الأمور موجودة في رأسه ليس إلا. لم يكن بإمكانه معرفة الحقيقة، والتمييز بين ما هو واقعي وما هو من نَسج الخيال. لقد بدت

السيناريوهات الأكثر غرابة معقولة، كما لو أنها أسوأ الكوابيس التي انتابته يوماً، مع فارق وحيد وهو أنه عادة يستيقظ من النوم فتنتهي الكوابيس.

فكّر في عائلته؛ زينَب، بطّاح، يوسف. كيف سيواجهون مسألة فقدانه من دون أن يعرفوا أبداً كيف ولماذا فقدوه؟ (أرجوك يا الله لا تدَعهم يظنون أنني هربتُ وتخلّيتُ عنهم!). إن قضيّة ساموِيل بينسكر، وبن - روي، وإيمان البَدري، وديغبي غيرلينغ، وعائلة عطيّة تنتهي بموته هنا في الأسفل.

لقد فكّر بابنه علي أكثر من سواه، ابنه الحبيب، حين كان وحيداً وعاجزاً ومتأرجحاً في أعماق النيل السوداء كما يتأرجح هو أيضاً. غريب كيف تكرّر الأمور نفسها.

وجرّ قدمَيه بدون توقّف مُنهَكاً، وظمآن. كان يصيح طلَباً للمساعدة، ويتوسّل إلى الله ليساعده شخص ما، أيّاً يكن هذا الشخص وينقذه، حتى أُنهك صوته في النهاية وساد الصمت.

القدس

"سآوي إلى الفراش".

"حسناً".

"هل ستنام باكراً؟".

"بعد قليل".

رافعاً نفسه عن الأريكة، عبر جويل ريغيف الغرفة، وانحنى فوق كتف دوف زيسكي. كانت الأوراق والصور الفوتوغرافية متناثرة على الطاولة أمامه. وعلى شاشة الكمبيوتر شعار الجيش الإسرائيلي المكوَّن من نجمة، وسيف، وغصن زيتون. وفي أعلى الشاشة عنوان: سجلات التجنيد للعام 1972.

"تبدو قضية مثيرة".

فهمهم زيسكي.

"أهي قضية دار العبادة الكبرى نفسها؟".

"دائماً قضية دار العبادة الكبرى".

"هل توصّلتُم إلى شيء؟".

"ربما".

لزم ريغيف الصمت للحظات، ومن ثم ضغط على كتف زيسكي، واستدار وخرج من الغرفة.

"لا تعمل بكدّ مُفرط"، نادى من المدخل.

فلم يُجب زيسكي. كان منحنياً إلى الأمام، ومحدّقاً بشاشة الكمبيوتر. فهناك قوائم بأسماء وتواريخ ولادة في أربعة أعمدة على امتداد الصفحة. رافعاً يده، مرّر إصبعه فوق كل من الأعمدة، مُداوَرةً. وتوقف في منتصف العمود الرابع، وتجهّم وجهه، وقلّب الصفحات على الطاولة، ثم سحب صورة فوتوغرافية تظهر فيها مجموعة من النساء المنتميات إلى الجيش الإسرائيلي اللواتي يرتدين بزّات الخِدمة العسكرية ويعتمرن قبّعات مزوَّدة بأغصان للتمويه. قلبها، وقرأ الإهداء على الجانب الآخر بصوت عالٍ. "للعزيزة ريفكا. أياماً سعيدة! أل إكس".

نظر إلى الشاشة مجدداً، ومن ثم إلى الصورة، متحققاً لمرتين متتاليتَين. وبعد ذلك، أطلق ضحكةً.

"نلتُ منك!". همس.

في مكان ما في الخارج، سُمع صوت إطارات سيارة وإطلاق لبوق السيارة.

* * *

صدر الصوت من سيارة بِن - روي التي أُجبرت على الانحراف عندما اندفعت دراجة نارية من شارع جانبي أمامها من دون استخدام الإشارات. مدّ بِن - روي يده على نحو فطري نحو صفارة الإنذار، معتزماً إيقاف الرجل وتوجيه كلام صارم له. ولكنه تخلّى عن الأمر واكتفى بشتمه، مُطلقاً صرخة عميقة، ومطلقاً العنان لبوقه مرة أخرى، ثم واصل طريقه.

لقد تخطى الوقت منتصف الليل. كان قد قام بنزهة سيراً على الأقدام لمدة ساعتَين، جائلاً على غير هُدى في منطقة رِهافيا، مروراً بمتنزّه رِهافيا، وبالمتحف والكِنيست الإسرائيليّين، وحديقة ساشِر. لم يكن قد بلغه أي شيء من خليفة أو من صديقه داني بيرلمان على حد سواء. وفي النهاية، عاد إلى الشقة، مُسلِّماً بأنه

ليس باستطاعته القيام بالمزيد في تلك الليلة، وقرر الخلود إلى النوم.

خلع ملابسه وصعد إلى السرير. استلقى هناك في الظلام طوال عشرين دقيقة محدقاً بالسقف، ومُمسكاً هاتفه المحمول بيده. ومن ثمّ، تبادرت إلى ذهنه فجأةً فكرة وجود أمر إضافيّ آخر يمكنه القيام به. إنّه مجرّد تكهُّن، ولكنه علم منذ البداية أنها ستكون مفتاح كل الجوانب الغامضة في القضية. فارتدى ملابسه مجدداً، وأسرع على الدَّرَج في اتجاه السيارة، وانطلق بأقصى سرعة في اتجاه المدينة القديمة.

بعد خمس عشرة دقيقة من الحادث الذي كاد أن يصطدم خلاله بالدراجة النارية، رَكْن التويوتا في موقف سيارات الكيشِل. كان بن - روي واقفاً خارج البوابة الخشبية الثقيلة للمجمَّع الأرمني حيث بدأ الأمر اللعين بكامله.

مدّ يده وطرق الباب.

كانت هناك فترة صمت، وبعد ذلك فُتح الباب، ورأى رجلاً جسيماً، يعتمر قلنسوة مسطَّحة وسترة صوفية واقفاً هناك، وتتدلى من زاوية فمه سيجارة. إنه أحد الحرّاس الذين رآهم بن - روي عندما قدِم لمعاينة جثة كلينبرغ.

"المجمَّع مُقفَل"، زمجر.

فشهر بِن - روي شارته.

"أحتاج إلى التكلّم مع رئيس الأساقفة بتروسيان".

"أوى غبطته إلى الفراش. يتوجب عليك العودة في ما بعد".

وشرع الرجل بإغلاق الباب، فمدّ بِن - روي يده للحؤول دون إغلاقه.

"أحتاج إلى التكلّم مع رئيس الأساقفة بتروسيان"، كرر مُدركاً العداء الذي أصبح موجوداً بين الأرض ورجال الشرطة بسبب اعتقال رئيس الأساقفة، وأضاف: "رجاءً، أحتاج إلى مساعدته. الأمر مُلِحّ، إنه مُلحّ جداً".

فنظر إليه الرجل وشفتاه تضغطان على طرف السيجارة، وسُحب الدخان تنجرف خارج مِنخَرَيه. ومن ثم، أشار لبن - روي بإصبعه كي ينتظر، وأغلق الباب وتوارى عن الأنظار. بعد دقائق قليلة، ساد خلالها السكون المدينة القديمة كلّيّاً كما لو أنها مدينة أشباح، فُتح الباب مجدداً، وأومأ له الحارس بالدخول.

"سيراك غبطته".

وأغلق الباب وأقفله. تقدّم بِن - روي على امتداد ممر المدخل المقبَّب، ودخلا باحة صغيرة مرصوفة مواجِهة لدار العبادة الكبرى سانت جيمس، فأومأ له الحارس في اتجاه مدخل إلى اليمين.

"هناك. إنه في الأعلى".

فشكره بِن - روي وعبر في اتجاه الباب. في الداخل، أوصلته مجموعة من الدَّرَجات الصخرية شديدة الانحدار التي يقوم على جانبها درابزين إلى بَهو طويل مبلَّط حيث توجد ثُريّا زجاجية مدلاّة من السقف، ولوحات زيتية كبيرة معلَّقة على الجدران. كان رئيس الأساقفة بتروسيان واقفاً عند أحد المداخل، مُرتدياً ثوباً طويلاً أسود عاديًّا. سار بِن - روي في اتجاهه، وحذاء الرياضة الخاص به يَصرّ على البَلاط المصقول.

"آسف لأنني أيقظتُك".

فرفع بتروسيان يده رافضاً الاعتذار.

"أنا رجل عجوز لا أنام كثيراً. تفضّل رجاءً".

وأفسح المجال لبِن - روي كي يدخل مكتباً صغيراً. بخلاف بقيّة المجمَّع، كانت الغرفة عادية وبسيطة؛ فلا زينة مزخرَفة فيها، ولا أثاث مزركَش. كانت هناك طاولة، وهاتف، وجهاز كمبيوتر، وكرسيّان جلديّان، ورفوف تحمل ملفات وصوراً فوتوغرافية موضوعة في أُطُر. ولاحظ أن بتروسيان يظهر في إحداها مصافحاً البابا بندكتوس. أومأ له رئيس الأساقفة بالجلوس، وجلس وراء الطاولة.

"أبلغني مارديغ بأن الأمر مُلحّ"، قال واضعاً يدَيه على الطاولة، وخاتم المنصب المصنوع من الجَمَشْت يومض تحت ضوء المصباح. "أخبرني، كيف يمكنني المساعدة؟".

كانت نبرة صوته ثابتة وخافتة. ولم يبدُ عليه الغضب بسبب الطريقة التي عومل بها في أثناء التحقيق. أمسك بِن - روي ذراعَي الكرسي، وقال له بشكل مباشَر وبدون موارَبة.

"أحتاج إلى العثور على الفتاة فوسغي".

فأطلق بتروسيان ابتسامة اعتذارية.

"كما قلت لك صباح أمس، آسف لأنني لا أعرفها".

"وكما قلت لك صباح أمس، أعتقد أنك تكذب".

أمال الرجل المُسنّ رأسه، وفتح يدَيه كما لو أنه يقول *ماذا يمكنني أن أقول؟* فيما انحنى بِن - روي إلى الأمام. لم يكن يستجوبه الآن، بل كان يتوسل إليه.

"أحتاج إلى التحدث إليها"، قال باذلاً قُصارى جهده لإبقاء مستوى صوته منخفضاً. "لا أعرف ما الذي يحدث معك، ولا أعرف لماذا تكذب. صِدقاً، لا أُبالي. ما أعرفه حقاً هو أنك تعرف مكانها، كما تعرف كل ما يحدث هنا. وأحتاج إلى أن تُخبرني عن مكانها. إن حياة رجل تعتمد على ذلك؛ حياة رجل صالح".

واصل بتروسيان الابتسام، عِلماً أن شيئاً ما في تعابير وجهه بدا فجأةً متعمَّداً كما لو أنه يبذل جهداً للإبقاء عليه.

"لقد أخبرتِ الفتاةُ ريفكا كلينبرغ أمراً ما"، تابع بِن - روي. "لقد التقتا، وأخبرتها أمراً ما عن منجم ذهب، وعن شركة تدعى بارين. بسبب تلك المعلومات قُتلت ريفكا كلينبرغ. والآن، الأمر نفسه على وشك الحدوث مع رجل بريء. إنه صديقي. وربما يكون قد مات، لا سمح الله. عليّ أن أكتشف ماذا يجري. إنها الأمل الوحيد لديّ لإنقاذه. رجاءً، قل لي أين فوسغي. ساعدني".

بالرغم من ذلك، لم يقل بتروسيان شيئاً، و لم يكشف عن أي شيء. كان باستطاعة بِن - روي ملاحظة قلقه وصراعه مع ذاته من خلال ارتعاش أجفانه، وطريقته في تثبيت إبهامه وسبّابته بإحكام حول حجر الجَمَشْت أرجوانيّ اللون. وانحنى بِن - روي إلى الأمام، مُلقياً يدَيه على الطاولة، وضاغطاً على الرجل المُسنّ.

"لم يعُد الأمر مرتبطاً بامرأة متوفاة"، تابع، "وبجريمة قتل حدثت، وبأمر ما لا يمكن تغييره. بل إنه مرتبط *بالحؤول* دون ارتكاب جريمة أخرى، وبإنقاذ حياة؛ حياة مصري مسلم إذا كنت غير راغبٍ في إنقاذ حياة إسرائيلي".

للمرة الأولى، كان هناك رد فعل مرئي. إذ تأفّف بتروسيان، وهز رأسه.

"الحياة حياة أيها التحري. كلهم عزيزون ومتساوون. لا علاقة للدِّين والقومية في ذلك".

كان على وشك الانهيار، لقد شعر بِن - روي بذلك. فأيّاً يكن ما يُخفيه. لقد بدأت التصدّعات بالظهور. فحيث فشل التحقيق، نجحت مناشدةٌ مباشَرة لإنسانيّته كما يبدو. وضغط للمرة الأخيرة.

"رجاءً، ساعدني لأساعد صديقي. أخبرني أين فوسغي. دَعني أتحدث إليها وأعدك بألا أعود إليك مجدداً".

ففكّر بتروسيان بذلك مليًّا، ضامّاً أطراف أصابعه، ومحدّقاً ببِن - روي من فوقها. كان هناك صمت، ومن ثم قال:

"وإذا كنت قد ألحقتُ بها الأذى، فهل ستبقى على وعدك بعدم العودة؟".

كان السؤال غير متوقَّع، فتردد بِن - روي، مُمسكاً حافة الطاولة بيدَيه.

"هل ألحقتَ بها الأذى؟".

وتلألأت عينا رئيس الأساقفة. كان باستطاعته قراءة الارتياب في تعابير وجه بِن - روي، فقال:

"الأمر صعب أليس كذلك؟ كما قلتُ لك عندما تحدّثنا يوم أمس، الضمير سيّد لَعوب. وها أنت تطلب مني خيانة ضميري. ومع ذلك، عندما أطرح عليك مُعضلة مماثلة - مقايضة العدالة بالمعلومات - أجدك غير متأكد. لذلك، أسألك مجدداً: هل تضمن لي عدم اتخاذ أي إجراء ضدي أو ضد أيّ من زملائي إذا كانت الفتاة قد تعرّضت للأذى؟".

بدّل بِن - روي جلسته، وأسند ظهره. لقد ظنّ قبل لحظات أنه متمكّن من الوضع، ولكن الأمر فاجأه.

"لا يمكنني أن أضمن لك ذلك"، قال.

نظر إليه بتروسيان، وقد اخترقت نظرته المحدِّقة بِن - روي في الصميم. وفي مكان ما في الخارج، بدأ جرس يُقرع. وكانت هناك فترة صمت أخرى، وبعد ذلك أومأ الرجل المُسنّ برأسه.

"أنا سعيد بسماع ذلك. لم تكن خبراتي مع الشرطة الإسرائيلية إيجابيةً تماماً، ولكنني أشعر بأنك رجل شهم وكريم الأخلاق. قبل انتهاء الليلة، ستخضع تلك الميزات للاختبار. ولأطمئنك فقط، لم يحدث أي أذى من أي نوع للفتاة".

"هل ستصطحبني إليها؟".

"في حال نسيتَ ذلك، أنا قيد الإقامة الجَبرية، ولا يُسمح لي بمغادرة المجمَّع".

"سأؤمّن وصولك إليها".

فكر بتروسيان بهذا الأمر. ومن ثم، وبعد إيماءة بالرأس، التقط الهاتف وطلب رقماً. لقد تكلم بسرعة بلغة افترض بِن - روي أنها الأرمنية. وبعد إعادة الهاتف إلى مكانه، وقف وأومأ للتحري بأن يتبعه.

"تعال. ورجاءً، تذكّر ما قيل للتوّ عن الشهامة وكرم الأخلاق".

وغادرا المكتب وتوجها إلى الأسفل.

* * *

كانت قد حضرت إلى المجمَّع قبل خمسة أسابيع على نحو غير متوقَّع، وهي مذعورة ومجروحة المشاعر، والشرطة الإسرائيلية على وشك ترحيلها وإعادتها إلى أرمينيا؛ مباشَرةً إلى أيدي الأشخاص الذين استغلّوها في البداية. كانت يائسة والتمست تأمين ملاذ لها.

"نحن عائلة هنا ونهتمّ بشعبنا. لقد سبق لها أن عانت على نحو يفوق قدرتها على التحمّل. لم نتمكن من رفض قبولها. فمن واجبنا مساعدتها".

كان رئيس الأساقفة يشرح لبِن - روي الأمر برمّته في أثناء عبور الاثنين الحيّ الأرمني بخطى واسعة، والشوارع الضيّقة المُقفِرة تُردّد صدى خطواتهما.

كانوا قد اصطحبوا فوسغي إلى منزل آمن، ووفّروا لها الحماية من السلطات الإسرائيلية أولاً، وممّن قتل ريفكا كلينبرغ بعد وقوع الجريمة في دار العبادة الكبرى ثانياً.

"لقد أدركت السيدة كلينبرغ أن الفتاة إذا فرّت يوماً فستقصد أبناء شعبها"، قال. "لقد اتصلت بي وسألتني إن كنت قد رأيتها، وإن كنت أعرف أين يمكن العثور عليها. ولو أخبرتُها الحقيقة لحلتُ دون موتها. ولكنني لم أُخبرها. لقد أنكرتُ كل معرفة لي بها. وهكذا، بدأت تتردد على دار العبادة الكبرى، وتتسكّع في محيطها، آملةً في رؤية الفتاة. موتها عبء على ضميري كما قلت، ولكن لم يكن لديّ أي خيار. لم تكن فرداً من جاليتنا، ولم أكن أعرف إن كان باستطاعتي الوثوق بها أم لا".

ووصلا إلى تقاطع الطرق في نهاية شارع سانت جيمس، واستدارا إلى اليمين في اتجاه شارع أرارات. سُمع صوت تعارك فوقهما، وقفز هرّ فوق الجدار بعد أن أجفله وجودهما.

"هل عرفتَ اسم كلينبرغ عندما اتصلتْ؟". سأل بِن - روي. "وهل عرفت أنها هي التي وضعت المقالة عنك في السبعينيات، ودمّرت مسيرتك المِهنية".

فانحنت كتفا بتروسيان.

"بالطبع تذكّرتُها. رجاءً، صدّقني عندما أقول إنني لا أكنّ لها أي حقد. لقد أَثِمتُ، والخطأ خطئي وحدي. لم تكن سوى الإنسانة التي أعلنت الخطأ. لقد حزنتُ كثيراً لوفاتها".

وصلا إلى أسفل أرارات، واستدارا مجدداً، وسلكا زُقاقاً ضيّقاً هذه المرة يوجد في آخره باب خشبي. دنَوا منه، وكان هناك هاتف داخلي فيديوي ولوحة من السيراميك تحمل اسم ساباردیان. ضغط رئيس الأساقفة على زرّ الهاتف.

"إنها مجرد طفلة"، قال محدقاً ببِن - روي عندما تردد صدى سحب المزاليج من الداخل. "طفلة عانت أهوالاً لا يمكنك تخيُّلها. لا تزال هناك فرصة لتشفى وتنشئ حياة خاصة بها. ولكن، إذا رُحِّلتْ، وإذا عثر عليها المتّجرون بالجنس مجدداً...".

وفُتح الباب إلى الداخل، وظهر رجل يضع مسدساً تحت حزامه.

"إنها مجرد طفلة"، كرر بتروسيان. "أطلب منك ألا تنسى ذلك، وألا تتطرق إلى تفاصيل مرتبطة بمقتل السيدة كلينبرغ. فوسغي تعرف أنها ماتت، ولكننا أخفينا عنها التفاصيل الأكثر تكديراً. فهي مذعورة بما يكفي".

وحدّق بعينَي بِن - روي للتحقق من فهمه للموضوع، ثم دخل، وتبعه بِن - روي. وأُغلق الباب وراءهما وثُبِّتت المزاليج. كانا في غرفة واسعة بيضاء تحتوي على أثاث بسيط مبعثَر، وهناك رجل آخر جالس إلى طاولة ويحمل بندقية صيد. وفي الجانب البعيد للغرفة مجموعة من الدَّرَجات الخشبية المؤدية إلى رِواق منخفض مع أربعة أبواب مغلَقة. عبر بتروسيان الغرفة، ونظر إلى الأعلى، ونادى برِقّة. لم يفهم بِن - روي ما يقوله، بالرغم من سماعه كلمة بدت شبيهة بكلمة فوسغي.

كانت هناك فترة صمت قصيرة، ومن ثم فُتح الباب الأبعد، وخرج إلى الرِّواق شخص قزَمي، داكن الشعر. فتصلّب فكّ بِن - روي السُّفلي وكوّر قبضتَي يدَيه بطريقة غير مقصودة.

كما لو أنه يُدير مفتاحاً.

* * *

بكلمة من بتروسيان، توارى الحراس الأرمن داخل غرفة جانبية، فيما توجه بتروسيان وبِن - روي إلى أسفل الدَّرَجات. مدّ رئيس الأساقفة يده، فنزلت الفتاة بتردد.

كانت أكثر نُحولاً مما اعتقد بِن - روي وفقاً لصور الرأس الفوتوغرافية التي سبق له أن رآها. لم يكن طولها يتجاوز خمس أقدام، وكانت أكثر جمالاً. عيناها لوزيتان كبيرتان، وملامحها رقيقة وصبيانية في آن واحد. من المستحيل معرفة عمرها، عِلماً أن الانطباع المهيمن هو أنها صغيرة في السن؛ صغيرة جداً. التمعت في ذهنه ذكرى مقابلته المومس في نيفي شَعَنان، وما قالته عنها وعن مشاركتها في مشاهد إباحية؛ إنها ناضجة وصغيرة، أستاذة وتلميذة في الوقت نفسه. وشعر بأن حَلْقه جاف، وتناسى الحديث لأنه كان زبوناً أيضاً، ولكن بطريقته الخاصة؛ فهو رجل آخر يريد منها شيئاً ما. ووقف ويداه متدليتان إلى جَنبَيه، مفكراً في ما أمل أن تكون عبارة تعاطف.

وصلت الفتاة إلى أسفل الدَّرَج، ونظرت إلى بِن - روي، ومن ثم إلى رئيس الأساقفة، باحثة عن الاطمئنان. فأمسك الرجل المُسنّ يدها، وانحنى نحوها، وقال شيئاً ما. مرةً أخرى، ارتفعت عيناها في اتجاه بِن - روي، وأومأت برأسها. بلطف، اصطحبها بتروسيان إلى أريكة، وجلس بجانبها. وجلس بِن - روي على الكرسي المقابِل، محاولاً عدم التحديق برسغَي الفتاة اللذين يحملان آثار ندوب عميقة. وحين لاحظت اتجاه نظره صالبت ذراعَيها أمام صدرها بإحكام، داسّةً رسغَيها داخل قماش التي-شيرت الرمادية الفضفاضة. وكان طرف إبهامها الأيسر يتحرك جيئةً وذهاباً على رمز النصارى الديني الفضّي المتدلي من عنقها.

"فوسغي تفهم العِبرية قليلاً"، استهلّ رئيس الأساقفة كلامه "ولكنها لا تجيد التكلم بها. سأترجم لك إذا كان ذلك مقبولاً".

"بالطبع"، قال بِن - روي.

وهمس بتروسيان للفتاة، فتمتمت بجواب ما، وثبّتت نظرها على الأرض المبلَّطة.

"بإمكانك البدء متى شئت"، قال الرجل المُسنّ. "ورجاءً، تذكّر ما قلتُه عندما دخلنا. حاول أن تكون...".

وأومأ بيده بإشارة تهدئة.

"بالطبع"، كرر بِن - روي.

وانحنى إلى الأمام، مُسنداً كفّيه على ركبتَيه. كان قد أجرى مئات المقابلات على مَرّ السنين، ولكنه لم يشعر قَطّ بهذا المقدار من القلَق. فقضية كلينبرغ - وربمـا حيـاة خليفة - تتوقف على هذا اللقاء المتميِّز، وهذه المرحلة المتميِّزة. لقد بدا الأمر كما لـو أنه يقف أمام باب، ومن شأن فتحه أن يغيّر كل شيء. *عالِج الأمر بروّية*، قال لنفسه. *لا تجذب المِقبض بقوة بسبب توقك إلى اكتشاف ما يوجد في الجانب الآخر*.

"مرحباً، يا فوسغي"، قال.

كانت الفتاة تحدّق بالأرض.

"أُدعى آري بِن - روي. أنا تحرٍّ في شرطة القدس. بإمكانك أن تدعيني آري إذا شئتِ، لا بل أَري أيضاً".

لم تؤدِّ محاولته لتهدئة مزاجها إلى أي رد فعل مرئيّ، ربما لأن صوته كـان لا يزال يبدو رسمياً وفظاً، بالرغم من بذله أفضل جهوده لتعديله، كما لو أنه يتحدّث إليها في غرفة لإجراء المقابلات في قسم الشرطة. *سابرا* نموذجي لعين.

"شكراً لك لأنك وافقتِ على التحدث إليّ"، تابع. "ودعيني أؤكد لك منـذ البداية أنه لا علاقة لهذا اللقاء بطلب الإقامة الذي تقدّمتِ به. أَعِـدك بـذلك. لا حاجة للخوف من ذلك. هل فهمتِ ذلك؟".

فهزّت الفتاة رأسها في إيماءة تكاد تكون غير واضحة.

"أحتاج إلى التحدث إليك عن امرأة تدعى ريفكا كلينـبرغ. أعتقـد أنـك تتذكرينها. لقد زارت ملجأ هوفيش قبل أسابيع قليلة".

رفعت نظرها، ثم أنـزلته وقالت شيئاً ما.

"إنها تسأل إن كنتم قد عثرتم على الأشخاص الذين قتلوا السيدة كلينـبرغ"، ترجم بتروسيان.

"نحن نقترب من ذلك"، قال بِن - روي، "نقتـرب كـثيراً. بإمكانـك أن تساعدينا للاقتراب أكثر فأكثر. هل ستساعدينا يا فوسغي؟".

غمرت بيدها رمز النصارى الديني الفضّي، متشبّثةً به كما لو أنه حَبـل نجاة. وتكلّمت مجدداً. كان صوتها أكثر انخفاضاً بقليل من ذي قبل، وأسـرع

بقليل، مما يُلمح إلى ارتفاع درجة توتّرها. فوضع بتروسيان يده على ركبتها، مهدّئاً إيّاها.

"تقول إنها لا تريد التقدّم بشهادة"، ترجم.

"لا أحد يطلب منك التقدّم بشهادة، يا فوسغي. أحتاج فقط إلى أن تجيبيني عن أسئلة قليلة. هل يمكنك القيام بذلك برأيك؟".

كانت لا تزال متشبّثة بالقلادة. وكان هناك توقّف قصير، ومن ثم تنهّدت وأومأت برأسها.

"شكراً لك"، قال بِن - روي. "سأُسرع قَدر استطاعتي".

لقد بدا كما لو أنه طبيب على وشك إجراء حُقنة. فشبك يدَيه، وأطلق ما أمل أن تكون ابتسامة مطمئنة.

"عندما قدِمت السيدة كلينبرغ إلى الملجأ، تحدّثتِ إليها. هل تتذكرين؟".

"كِن"، تمتمت. *أجل*.

"هل قلتِ لها شيئاً ما عن منجم ذهب؟".

فهزت الفتاة رأسها.

"منجم ذهب في مصر".

هزة أخرى بالرأس.

"هل أنت متأكدة؟ خُذي وقتك".

وتمتمت ببضع كلمات.

"إنها متأكدة"، نقل رئيس الأساقفة.

"ماذا عن شركة تدعى بارين. إنها شركة أميركية كبيرة".

لو. لا.

وكرر الاسم ببطء، مهجّئاً إيّاه علّها لم تفهم اللفظ. غير أن رد الفعل كان نفسه. وبذل جهده للمحافظة على حياديّة تعابير وجهه وعدم إظهاره خيبة أمله. كان يأمل في إصابة عين الثور مباشَرةً، وادّخار بعض الوقت، وتجنيبها مقابلة طويلة. ولكن ذلك لم يحدث. سيكون عليه توسيع رقعة الاستهداف.

"هل باستطاعتك أن تقولي لي عما تحدّثتما يا فوسغي؟" سأل.

فوضعت قدمها اليمنى تحت ركبتها اليسرى، وتمتمت بالمزيد من الكلمات.

"تقول إنها أخبرت السيدة كلينبرغ عن المكان الذي قدمتْ منه"، جاءت الترجمة. "قريتها، عائلتها. ومن ثم... عما حدث لها".

فتح بِن - روي يده، طالباً المزيد من التفاصيل. فتلمّست الفتاة رمز النصارى الديني. وعندما أجابت، كان صوتها أكثر انخفاضاً، فاضُطر رئيس الأساقفة لإمالة رأسه ليسمع كلماتها.

"تقول إنها كانت في الرابعة عشرة من عمرها عندما أخذوها"، ترجم. "كانت عائدة إلى المنزل من المدرسة سَيراً على الأقدام. لقد اختطفاها عن الطريق. كانا رجلَين لا تعرفهما. ربما كانا أذربيجانيَّين، فقد كانت قريتها على الحدود تماماً".

وارتسمت صلة في ذِهن بِن - روي؛ شيء ما كشفه زيسكي في مرحلة مبكّرة من التحقيق في شأن بارين التي تستثمر منجم ذهب في أرمينيا الشرقية قرب الحدود مع أذربيجان. وشرح الأمر لفوسغي، وسألها إن كانت تملك أي معلومات عن ذلك. فأجابت بالنّفي. لم تكن هناك مناجم حيث تُقيم. لا شيء البتّة باستثناء الجبال والأنهار ومصنع الدجاج حيث كان والدها وأشقاؤها يعملون. فتجاهل بِن - روي هذه المعلومات، وأومأ لها لتتابع. فأمسك بتروسيان بيدها الطليقة.

"اقتاداني إلى منزل"، ترجم عندما شرعت بالكلام مجدداً. "ومن ثم إلى منازل أخرى. كانت هناك فتيات أُخريات. لقد حملونا على... أعتقد أننا نُدرك ما أرغموها على القيام به".

والتقت عينا رئيس الأساقفة عينَي التحرّي، وأومأ بِن - روي برأسه، مشيراً إلى أنه ليس من الضروري أن تعيش فوسغي مجدداً التفاصيل الدقيقة لما مرّت به.

"هل تعرفين أين كنتِ؟" سأل.

فهزت فوسغي كتفَيها.

"تمّ نقلي إلى أماكن عديدة"، نقل بتروسيان. "أعرف أنني كنت في تركيا، وكنت أستطيع سماع أصوات خارج النافذة. لقد عرفتُ اللهجة. وعندئذٍ، تمّ بيعي إلى أشخاص آخرين قاموا بإقلالي على متن سفينة إلى مكان يوجد فيه...".

فقاطعها بتروسيان، وسأل عن أمر ما. فشرحت له الفتاة.

"سيّاح"، تابع."شبّان من بلدان مختلفة. ألمان ربما، وإنكليز. ليست متأكـــدة. ونُقلت إلى تركيا مرة أخرى. مدينة كبيرة. كنت في طابق سُفلي، وكان المكـــان مُظلِماً. لقد اعتادوا الاصطفاف في طابور".

وغدا صوت الفتاة أكثر ارتفاعاً بقليل بسبب ارتياحها لعمليـــة السَّـــرد. وفي الوقت نفسه، أصبحت النّبرَة خالية من أي تعبير، ومتجرّدة، كما لو أنها لا تصف نفسها بل شخصاً آخر. وتذكّر بن - روي ما أخبرته به مايـــا هيلِـــل في ملجـــأ هوفيش عن اعتماد الفتيات أسماء افتراضية: *يساعدهنّ ذلك على إبعاد أنفسهنّ عما فُرض عليهنّ القيام به، ويسمح لهنّ بالاعتقاد بأن شخصاً آخر، ولسنَ هنّ، من قام بما قُمن به.*

"أعتقد أنني بقيت في المدينة طوال عام تقريباً"، تواصلت الترجمة. "بعد ذلك، ذهب قسم منا على متن سفينة أخرى. ومن ثم، اصطحبنا أشخاص عـــرب عـــبر صحراء، وهكذا قدِمتُ إلى إسرائيل. كنا ثلاث فتيات، لا بل أربع فتيات في شقة واحدة. كانوا يراقبوننا طوال الوقت. وأحياناً، كانوا يصـــطحبونني إلى الخـــارج ويُرغمونني على...".

فرفع بِن - روي يده في إيماءة للكفّ عن الكلام. كان يرى وقائع القصـــة في مخيّلته، وعاد بالذاكرة إلى الوراء.

"هل يمكنك العودة إلى ما قلتِه منذ لحظات"، قال. "قلتِ إنـــك كنـــتِ في تركيا، في مدينة...".

وأومأت فوسغي برأسها.

"وتمّ نقلك على متن سفينة".

إيماءة ثانية بالرأس.

"هل نُقلتِ إلى ميناء؟".

فعبستْ، والتفتت نحو رئيس الأساقفة، وقالت شيئاً ما. فأصغى، ومن ثم أومأ برأسه.

"ليس ميناء كبيراً"، قال، "بل صغيراً. يحتوي على حَوض واحد. كان الوقت ليلاً وتوجد رافعات".

ومن دون أن يدرك، بدأت قدم بِن - روي بالنّقر على الأرض.

"هذا المكان"، قال، "هذا الحَوض، هل أخبرتِ ريفكا كلينبرغ عنه؟".

فأومأت برأسها.

"هل هو في بلدة تدعى روزيتا؟".

فهزت كتفيها، غير واثقة.

"هل هو في مصر؟".

هزة أخرى للكتفَين.

"لم أعرف قطّ أين كنا"، ترجم بتروسيان. "طلبوا منا النظر إلى الأرض. لذلك لم نتمكن من رؤية المكان".

"ولكن، بعد وصولك إلى ذاك الحَوض، تمّ نقلكم عبر صحراء إلى داخل إسرائيل".

فهزت رأسها.

"وضعونا في عربة نقل مُقفَلة في بادئ الأمر" - ظلّل صوت بتروسيان صوتها - "وساروا بنا حتى الفجر. وبعد ذلك، صرنا في منزل ما، مع رجال عرب. لقد...".

من طريقة إمساكها القلادة بقبضتها، اتّضح له ما قام به الرجال. فلوّح بِن - روي بيده ليُظهر لها أنها ليست مضطرة لإطالة التفكير بالأمر.

"في الليلة التالية، نقلونا في سيارات جيب. وكان علينا السير بعد ذلك لمدة خمس ساعات تقريباً. كان الطقس بارداً. حاولت إحدى الفتيات الفرار فأطلقوا النار عليها. ومن ثم أقلّتنا سيارات أخرى، ودخلنا إسرائيل".

كانت قدم بِن - روي تنقر الأرض بسرعة أكبر في أثناء عودة فوسغي بالذاكرة إلى الوراء. لقد أُدخلت إلى إسرائيل عبر الصحراء. لا بد أن تكون سيناء. وتمّ اصطحابها من ميناء، رصيف، أيّاً يكن ما تريد تسميته، إلى سيناء. لا بد أن يكون في روزيتا حيث كانت ريفكا كلينبرغ ذاهبة ليلة مقتلها. وتمّ تهريبها إلى روزيتا على متن سفينة. كان باستطاعته الشعور بأن الأجزاء تتحرك، وتتخذ مكانها في الأُحجية، عِلماً أنه لا يزال يناضل لإيجاد رابط بين العنصرَين الرّئيسين في هذه القضية: بارين والمتاهة. *بروّية*، قال لنفسه. *تطرّق إلى زوايا القضية كافة*.

"هل تعرفين من هرّبك؟" سأل.

لم تكن تعرف. رجال، هذا كل ما تمكنت من قوله. كانوا رجالاً عنيفين.

"غينادي كريمينكو؟ هل سمعتِ به يوماً؟".

لو.

وكرّر السؤال، وحصل على الجواب نفسه. وجاء جوابها بالنفي أيضاً عندما سألها عن زوسِر فريت. كان باستطاعته الشعور بأنه قريب من أمر ما، قريب جداً، ولكنه لم يصل إليه بعد.

"هل يمكنك إخباري المزيد عن تلك السفينة التي كنتِ على مَتنها؟". سأل محاولاً التطرّق إلى زاوية أخرى من القضية. "السفينة التي أقلّتك من تركيا".

فعضّت شفتها، وكانت يدها تضغط على رمز النصارى الديني وترتخي. وبعد مرور دقيقة تقريباً، استعادت صوتها الطبيعي أخيراً. وعرف بِن - روي من تجعُّد جبين الرجل المُسنّ وطريقته في تقليب عينَيه أنه يُصدم بما يسمعه. كانت صدمته أكبر مقارَنةً مع ما مرّ به حتى ذلك الحين.

"يا الله!" همس. وبعد ذلك: "لقد وضعنا في حاوية. حاوية للشحن البحري. كنا ثلاث عشرة فتاة، لمدة أربعة أيام. كانت هناك شبكة معدنية لإدخال الهواء. فُرش، بطانيات، دَلو ماء للتخفيف من وطأة الحرارة في المكان. وكل ليلة، كان يتم نقل بعضنا واصطحابنا إلى حُجَيرات، فيقوم البحّارة...".

وغصّت الفتاة، فأفلت بتروسيان يدها، ولفّ ذراعه حول كتفَيها، مواسياً إيّاها. وفي الوقت نفسه، التقت أنظاره أنظار بِن - روي، ورفع حاجبه ليسأل عما إذا كان هذا النوع من الاستجواب ضرورياً حقاً. فأومأ بِن - روي جزئياً بطريقة اعتذارية، مشيراً إلى أنه كذلك. ففي مكان ما من قصة فوسغي تكمن المعلومات التي يحتاج إليها كإبرة ضائعة في كومة قش؛ إنه الجزء الرئيس الذي يُكمل أُحجية الصور المقطّعة ويكشف عن الصورة أخيراً. وللعثور على ذلك الجزء، يتعيّن عليه البحث في كل الكومة، حتى لو عنى ذلك إرغام الفتاة على العودة إلى كابوس أَسرها.

"هل يمكنك أن تخبريني عن السفينة عينها؟" سأل محاولاً مساعدتها. "هل كانت كبيرة أم صغيرة...؟".

فترددت، ومن ثم مدّت ذراعَيها. كبيرة.

"أهي سفينة للركاب؟ أم لصيد الأسماك؟ أم للشَحن؟".

لصيد الأسماك كما تعتقد، أو ربما للشحن. لم تتسنَّ لها فرصة رؤية نواحٍ عديدة منها؛ فقط الجانب الذي مكثنَ فيه، ومن ثم الحاوية، والحُجرة التي اغتصبوها فيها.

"ماذا عن الطاقم؟ هل كان أفراده مصريين؟ عرباً؟ هل كانوا داكني البشرة؟".

ليس أولئك الذين رأتهم؛ أولئك الذين كانوا يُحضرون لهنّ الطعام، ويمكثون معها في الحُجرة كانوا شاحبي البشرة. إنهم روس، كما تعتقد، فظّون جداً.

كانت قد بدأت بفقدان رتابة صوتها، وانزلقت عبره غصّات انفعال. وظهر كَرْب متزايد من خلال لغة جسدها: الإمساك برمز النصارى الديني أكثر فأكثر، وطريقة وضعها يدها الطليقة حول معِدتها بإحكام كما لو أنها تحميها. لو كانت هناك طريقة أخرى للحصول على المعلومات، لاعتمدها بِن - روي بسرور، ولكنها الطريقة الوحيدة. فالفتاة تعرف شيئاً ما، وعليه التوصل إليه. الآن. الليلة. ومرةً أخرى، انتابته فكرة أنه ليس أفضل من الرجال الذين استغلّوها، وأزال هذه الفكرة من رأسه، وواصل الاستجواب.

"الأشخاص الذين وضعوك على متن السفينة في تركيا"، قال. "هل يمكنك أن تُخبريني أي شيء عنهم؟".

لم تتمكن من ذلك، باستثناء أنهم أتراك. لقد تمّ اقتيادها إلى السفينة، وتسليمها للطاقم، وزجّها في الحاوية. كنّ ثماني فتيات هناك. وقدِمت أربع فتيات أُخريات في وقت لاحق. هذا كل ما استطاعت تذكُّره.

"ماذا عن لحظة نزولك من السفينة، على ذلك الرصيف. ماذا حدث حينئذٍ؟".

بدأت تلهث بسرعة وعدم انتظام.

"ماذا حدث على الرصيف، يا فوسغي؟".

كان الجواب تمتمة مصحوبة بذَرف الدموع، وذَقنها يضغط على صدرها كما لو أنها تحاول الاختباء. فترجم بتروسيان بتردُّد، وأشارت نظراته لبِن - روي إلى أنه لن يسمح باستمرار هذا الوضع لمدة أطول.

"لقد حملونا على الاصطفاف، وطلبوا منا خلعَ ملابسنا، كل شيء، لنغــدو عاريات، ووضْعَ أيدينا على رؤوسنا. أيها التحري، يجب عليّ في الواقع...".

"انقُل لي ما تقوله فحسب"، قال بِن - روي بجِدّة.

قرّب الرجل المُسنّ الفتاة منه، وهمس بكلمات مواساة.

"كانت هناك سيارة"، تابع. "سيارة كبيرة سوداء. وكان هناك رجل داخلها، على المقعد الخَلفي. قال أشياء، أصدر أوامر. لم أفهم. وبعد ذلك، ارتدينا ملابسنا مجدداً. كانت هناك حافلات صغيرة. لقد انطلقوا بنا طوال الليل إلى المنــزل...".

"الرجل في السيارة"، قاطعه بِن - روي بنبرة حادّة ومُلِحّة. "أخــبريني عــن الرجل في السيارة. كيف كان يبدو؟".

وشرعت بالبكاء، متأرجحةً إلى الأمام والوراء. وكرر بِن - روي الســؤال، كارهاً نفسه لأجل ذلك، ومُدركاً أنه الجزء المفقود الذي يحتاج إليه.

"لم أتمكن من رؤيته جيداً"، ترجم بتروسيان، وكانت الكلمات تخرج من فمه بطريقة عاطفية في أثناء نشيج الفتاة. "كان المكان مُظلِماً، والأضواء مسلَطة علينا. كان يجلس وسط المِقعد، بعيداً عن النافذة".

"لا بد أن تكوني قد رأيتِ شيئاً ما".

فهزت رأسها.

"هل رأيت شيئاً ما؟ لا بد من وجود شيء ما!".

"لم أرَ شيئاً"، صاحت بلغة عِبرية متلعثمة. "لم يكن جالساً قرب النافــذة. لم أرَه".

"بأي لغة كان يتكلم؟".

"لا أعرف. لقد قلتُ لك. لا أعرف!".

رفع بتروسيان يده لبِن - روي، وراحة يده موجَّهة نحو التحرّي، مشيراً لــه بالتوقف. فتجاهل بِن - روي ذلك.

"فكّري يا فوسغي، أرجوك، فكّري! لا بد من وجود شيء ما تتذكرينه".

"لا، أرجوك. أقول الحقيقة!".

"فكّري!".

"أيها التحري، حدث ذلك منذ مدة طويلة...".

"فكّري يا فوسغي! الرجل في السيارة. كيف كان يبدو؟".

"أيها التحري!".

"لم أرَ وجهه"، صاحت. "قلتُ لك، قلتُ لك! كل ما رأيتُه هو ذراعه عندما رمى السيجارة من النافذة. رأيتُ الذراع للحظة مع... مع...".

ولوّحت بيدَيها نائحةً، ومكافحةً للعثور على الكلمة التي تريدها.

"مع ماذا، يا فوسغي؟ ذراع مع ماذا؟".

"مع... مع...".

وكانت قبضتا يدَيها تتكوّران وتنفتحان. وتمايلت، وحدّقت ببتروسيان بتوسل وغضب، وصاحت أمراً ما بالأرمنية.

"ماذا؟". صاح بِن - روي بعينَين متوهّجتَين. "ذراع مع ماذا؟ ماذا قالت للتوّ؟".

"وشم"، ترجم بتروسيان. "كان للرجل وشم على ذراعه. وهذا كل ما سأسمح به، أيها التحري. لقد طلبتُ منك بصفة خاصة عدم...".

وخبا صوته مع تركيز بِن - روي على شيء ما رآه قبل أربعة أيام. سجن، زنزانة، مجموعة من الجواهر الذهبية الثقيلة، رجل يدعونه *ها-ميناهيل*؛ المدرّس. وعلى ساعده، بحبر أخضر وزهريّ...

وجلس على الحافّة الأمامية للمقعد، ونبضه يتسارع، وجسده مشدود كوتر قوس.

"الوشم، يا فوسغي. هل كان لـ...".

ورسم في الهواء شكل امرأة. فترددت مرتعِدة، ومن ثم أومأت برأسها.

"وهل كانت المرأة...".

وفتح يدَيه كساقَين منفرجتين، فأومأت برأسها مجدداً.

إنه غينادي كريمينكو منذ البداية.

"شكراً لك، يا فوسغي"، قال. "هذا كل ما أحتاج إليه. لست بحاجة إلى التسبب لك بالمتاعب بعد الآن".

تلوّت بين ذراعَي بتروسيان، مرتعِدةً بطريقة لا يمكن التحكم فيها. وفكّر بِن - روي بالتوجّه إليها، ووضع يده على كتفها، مُعرِباً لها عن أسفه لما عرّضها

له. غير أنه شعر أن ذلك لن يُجدي نفْعاً. فآخر ما تحتاج إليه الآن هو تمتمة اعتذار من قِبل شرطي يهودي سيّئ. وعوضاً عن ذلك، وقف وتحقق من هاتفه المحمول – لا رسالة من خليفة – ثم توجّه إلى الباب الأمامي.

"أعتقد أنه يُفترض بك البقاء معها هنا"، قال في أثناء شروعه بسحب المزاليج. "سأُبلغ المركز بأن لا علاقة لك بالموضوع، وسأوضح لهم المسألة. باستطاعتك العودة إلى المجمَّع متى شئت".

والتفت بتروسيان. كان الرجل المُسِنّ يحدّق به، وتصعب قراءة تعابير وجهه: إنها وقائية ربما، لا بل أبويّة. لم يكن غاضباً، وقد فاجأه ذلك نظراً إلى تخطّي بِن – روي الحدود المتّفَق عليها. نظرا إلى بعضهما للحظات. ومن ثم، وبإمالته رأسه – لشكره من ناحية، والاعتذار منه من ناحية أخرى – سحب بِن – روي آخر مِزلاج وفتح الباب. كان على وشك الخروج عندما خطر له أمر ما فاستدار.

"سؤال أخير يا فوسغي. الصورة التي كنت ترسمينها مع ريفكا كلينبرغ، المرأة شقراء الشعر، من هي؟ أهي فتاة من أولئك اللواتي تمّ الاتجار بهنّ وكنّ برفقتك؟".

فرفعت الفتاة نظرها، ولزمت الصمت للحظات. وبعد ذلك، تحدّثت إلى بتروسيان بالأرمنية. فأصغى، وأومأ برأسه، ونقل الجواب لبِن – روي.

"لم تكن حقيقية. إنها مجرّد صورة نقلتها عن جانب السفينة. صورة حورية ماء".

"آه"، قال بِن – روي.

واستدار نحو الباب، فناداه صوت رئيس الأساقفة.

"سؤال أخير لك أيضاً أيها التحري. تعرف أين هي الآن، وتعرف وضعها. هل بإمكاني أن أسأل عما تعتزم القيام به؟".

"في الوقت الحاضر، التوجه مباشَرةً إلى تل-أبيب للتحدث إلى رجل يدعى غينادي كريمينكو".

"تعرف ما أعنيه. في شأن فوسغي".

ثبّت بِن – روي نظره على عيني الرجل، ومن ثم هزّ كتفَيه قائلاً:

"أخشى أن تكون مخطئاً. لا أعرف أحداً يُدعى فوسغي".

وغمز، وأومأ برأسه، ثمّ غادر المنزل.

المتاهة

هناك طفل يبكي في مكان ما. كان خليفة على ثقة تامة من ذلك. في مكان ما من المتاهة طفلٌ تائه على غراره. لم يكن يتخيّل ذلك. لم يكن متوهّماً بسبب السواد. هناك طفل ما يواجه المتاعب.

"لازم مكانك!". قال بصوت أجشّ بسبب العطش والإجهاد. "لازم مكانك وسأعثر عليك. لا تخفْ. سنخرج، أعدك!".

وأخذ يتعثّر في مشيه، متلمّساً طريقه على امتداد الجدران الصخرية، ومحاولاً الاقتراب من الصوت الذي يتبدل مكانه باستمرار. فتارةً يكون أمامه، وطَوراً يكون وراءه، وأحياناً بعيداً جداً، وأحياناً أخرى قريباً على نحو معذِّب.

"أرجوك، لازم مكانك! إذا تحركتَ فسأخفق في العثور عليك. لازم مكانك وسأعثر عليك!".

خرج الصوت من نفق إلى يمينه؛ نحيب نائح مذعور. من المستحيل أن يعرف إن كان فتى أو فتاة. إنه طفل، هذا كل ما يعرفه، طفل تائه، وعليه العثور عليه لأنه إذا كان هو نفسه خائفاً فأي شعور ينتاب ذاك المسكين؟ طفل مسكين. طفل صغير مسكين عاجز.

"أنا قادم، لا تخف، أنا قادم!".

وتلمّس طريقه حتى آخر النفق، ونزل مجموعة من الدرجات، ووجد نفسه في غرفة منخفضة. كانت الخفافيش تصطدم بوجهه زاعقةً، وهناك شيء ما يركض على الأرض. الكثير من الأشياء. فوق حذائه، وعلى سرواله. فحرك ذراعَيه كطاحونة هوائية وركل بساقَيه، وابتعد عن المكان في الظلام الدامس. وصل إلى جدار، وربّت على امتداده، وعثر على فتحة ممرّ آخر؛ ممرّ كبير بعد التحقق منه. كان الطفل في مكان ما في الأسفل.

"اِبقَ حيث أنت! أنا قادم. سيكون كل شيء بخير. أنا قادم".

وشرع بعبور الممر. كان صوت النشيج مسموعاً بوضوح في الظُّلمة أمامه، عِلماً أنه كان يخبو شيئاً فشيئاً.

"أرجوك!" توسّل. "لازم مكانك. إذا تحركتَ فلن أعثر عليك أبداً".

وحثّ الخُطى، وقد تغلّبت رغبته الشديدة في الوصول إلى الطفل على خوفه من التعثر أو الاصطدام بشيء ما. كان الممر ضيّقاً ومرتفعاً، وأرضه مسطَّحة كالإسمنت المصقول. شرع بالسير بخطوات واسعة، ومن ثمّ بالهرولة، متنقّلاً بسرعة وبلا مبالاة في الفراغ، ناسياً كل شيء في أثناء إسراعه للوصول إلى الفتى الصغير أو الفتاة الصغيرة قبل اختفاء الصوت مجدداً. شرع بالركض، ودبّت في أوصاله طاقة شديدة، واندفع اندفاعة أخيرة مسعورة قبل أن يخبو الصوت بعيداً، في سعي مجنون للوصول إلى...

واصطدمت قدمه بشيء ما، فتعثّر ولوّح بيدَيه كما لو أنه يتخبّط في الماء، واستعاد توازنه جزئياً، غير أنه تعثّر بشيء آخر - بدت الأرض مليئة بصخور صغيرة أو حجارة مبعثَرة - فسقط على وجهه. وللحظات وجيزة، تردد صدى بكاء الطفل بعيداً، ومن ثم تلاشى، وساد السكون.

استلقى لمدة وجيزة، ورأسه وذراعاه متدلّية فوق حافة درجة من نوع ما، وأُذُناه تترصّدان أي صوت. لم يكن هناك المزيد من البكاء. لا أصوات من أي نوع باستثناء تنفّسه الأجشّ. ربما تخيّل كل ذلك. ربما جُنّ.

"ساعدني يا الله"، تأوّه.

رفع نفسه على ركبتَيه، وربّت محاولاً العثور على الدرجة التالية وتبيان ما يوجد أمامه، غير أنه لم يتمكن من تلمّس أي درجة أخرى. لم يتمكن من الشعور بأي شيء. هناك مساحة فارغة ليس إلا. انحنى إلى الأمام، ومدّ يده نحو الأسفل، ومطّ ذراعه. لا شيء. فعاد إلى الوراء، وتلمّس أرض النفق بين جدارَيه؛ كلها متشابهة. ولكن الأرض تنتهي في ما يشبه فتحة التهوئة. مسح الأرض بذراعه، وعثر على أحد الحجارة التي تعثّر بها (مستدير، ثقيل، حجر مِطرقة ربما). فرماه في الحفرة، ومرّت لحظات طويلة قبل أن يتردد صدى ارتطامه بالقعر. كانت لحظات طويلة جداً لدرجة أنه بدأ يتساءل عما إذا كان هناك قعر في الواقع. وأجفل، مُدركاً مدى قُربه من السقوط فيه، وارتعد أيضاً. ربما كان بكاء الطفل مفتعَلاً من الشرّير بهدف إغوائه لملاقاة حَتفه.

"أرجوك يا الله ساعدني"، كرر.

ورمى حجرَين آخرَين، ورمى بعد ذلك حجراً إلى الأمام، محاولاً تحديد مدى اتساع الفتحة، فسُمعت طقطقة مع اصطدام الحجر بشيء صلب - الجدار المقابل

لفتحة التهوئة كما يُفترَض - وتردد في ما بعد صدى اصطدامه بأسفل الفتحة. رمى حجراً آخر بقوة أكبر. هذه المرة، سُمعت طقطقةٌ مع ملامسة الحجر امتداد الجدار. لا بد أن النفق يمتد في الجانب الآخر للفتحة. وقام برمية أخرى، وكان هناك صدى طقطقة أخرى. نفق عريض مع حفرة في وسطه...

وفجأةً، شعر بأن أفكاره تتّضح، ونبضه يتسارع. ربما لم يكن ذلك من عمل الشرير بالرغم من كل شيء. ربما كان لصالحه.

متلمّساً محيطه، جمع كومة صغيرة من الحجارة، وشرع برميها الواحد تِلوَ الآخر بأقصى طاقته عبر فتحة التهوئة وصولاً إلى تتمّة الممرّ المقابل. طقطقة، طقطقة، طقطقة، طقطقة...

صليل.

هناك شيء ما في الأسفل كما أمِل.

قذف ثلاثة أحجار إضافية، وسمع صليلاً. ليس صوت اصطدام صخر بصخر. إنه صوت اصطدام صخر بمعدن. معدن يتردد صداه، معدن يطنّ، معدن يُصدر رنيناً متذبذباً، كما لو أنه...

سكة حديد.

ما لم تكن هناك أكثر من سكة حديد واحدة في المنجم، وهذا أمر غير مُحتمَل، فإنه سيتمكن من العودة إلى الدّهليز الرئيس.

أطلق صيحة فرح جشاء. لم يكد الصوت يخرج من فمه حتى خبا وزال لأنه لم يعُد بعد. فبينه وبين طريق العودة حفرة، حفرة كبيرة. تلك التي لمحها للحظات وجيزة عندما كان في طريقه إلى داخل الدّهليز. الحفرة التي أنزل فيها ساموبل بينسكر حبلاً مزوَّداً بأثقال بطول مئتَي متر من دون أن يصل إلى قعرها.

وضع يدَيه على رأسه، وأغمض عينَيه، وحاول أن يتصوّر دفتر مدوَّنات بينسكر. ما الذي قاله عن الحفرة؟ إنها في دِهليز جانبي وسط الدّهليز الرئيس تقريباً. إنها مربَّعة الشكل، وتمتد وصولاً إلى الممر؛ على غرار فتحات التهوئة في بعض المدافن في وادي الملوك. لقد أخذ الإنكليزي قياسات، ولكن خليفة بذل قُصارى جهده من دون أن يتمكن من تذكّر القياس الحاسم: المسافة التي تمتد عبر فتحة التهوئة. فكّر مليّاً من دون جدوى. ففتح عينَيه، وشرع برمي الحجارة مرة

أخرى، محاولاً تحديد اتساع الفتحة من خلال الصوت. وأفضل ما توصّل إليه هو امتدادها مسافة تتراوح بين ثلاثة أمتار وخمسة، وهو خطّ فاصل كبير. ربما يكون قادراً على القفز مسافة ثلاثة أمتار، ولكن يستحيل عليه قفز مسافة خمسة أمتار. إنه الخط الفاصل بين الحياة والموت.

استدار وتلمّس طريق العودة من حيث أتى، باحثاً عن ممر جانبي، عن طريق يقع إلى جانب فتحة التهوئة. ولكنه لم يعثر على أي شيء. وبلغ الغرفة التي تحتوي على خفافيش وعبَرها، وصعد بضع درجات، وسلك ممراً آخر، مبتعداً أكثر فأكثر عن خط الدّهليز. فوصل إلى مفترَق طرق، ووجد نفسه أمام خيارين؛ إمّا الاتجاه يميناً أو يساراً، أو مواصلة السير بشكل مستقيم. فاختار اليمين. وبعد عشرين متراً، وصل إلى ثلاثة دروب على صورة شوكة. فتوقف، وفكّر في الأمر، ومن ثم دار على عقِبه وعاد من حيث أتى. لم يستطع ببساطة المجازفة بالضياع مرة أخرى. لقد حظي بطريق للخروج وسوف يسلكه.

لقد ارتاب في إمكانية تقديم المتاهةِ فُرصاً ثانية.

بعد عودته إلى فتحة التهوئة، رمى المزيد من الحجارة، محاولاً رسم صورة في مخيّلته عن القفزة التي سيقوم بها بالاستناد إلى الصدى. وبعد ذلك، دبّ على الأرض في اتجاه بداية الممر، باحثاً عن الحجارة الصخرية، ومُبعِداً إيّاها عن طريقه.

فإذا كان لديه أي أمل بالقيام بالقفزة، فسيكون بحاجة إلى مسافة تمهيدية طويلة وخالية من أي عقبات.

تل-أبيب

كان الوقت قد تخطى الرابعة صباحاً عندما توقف بِن - روي خارج سجن *أبو كبير*. فالتقاه صديقه السجّان آدَم هيبِر عند البوّابة.

"على مسؤوليتك يا آري"، قال متقدّماً إيّاه في اتجاه مجمَّع الزنزانات. "هل اتفقنا؟ لا فكرة لديّ عما ستقوم به".

"على مسؤوليّتي"، قال بِن - روي.

ودخلا المجمَّع. كان المكان في سكون تام. اصطحبه هيبِر عبر ممـرّ، وصعدا مجموعة من الدرَجات إلى الطابق العُلوي. وفي منتصف ممرّ آخر، توقف أمام باب معدني، وأخرج مجموعة مفاتيح، وأدخل أحدها في القفل بعناية، وفتح الباب.

"كم ستبقى؟".

"سأبقى عشرين دقيقة، أو ثلاثين دقيقة كحدّ أقصى".

"احرصْ على عدم إحداث ضجيج مرتفع. وتذكّر، لا فكرة لديّ. صحيح؟".

"صحيح".

وقف جانباً، وسمح لبن - روي بالمرور.

"أَعطِه واحدةً منّي، منّا كلّنا".

وأُغلِق الباب، وأُدير المفتاح، واختفى وَقع خُطى هيبِر في الممر.

ألقى بِن - روي نظرة في أرجاء الزنـزانة. كانت هناك طاولة، وكرسي، ومِغسلة، ومِرحاض، وسرير قابل للطيّ يستلقي عليه غينادي كريمينكو، وعيناه مغطّاتان بغطاء للعينين من الساتان ليَقيه الضوء المنبعث من المصابيح في الخارج. كان يشخر بصوت مرتفع.

متحرّكاً بحذر كي لا يوقظه، دنا بِن - روي من رأس السرير. وانزلقت الذراع اليسرى للقوّاد من تحت الأغطية، ولامست أطراف أصابعه الأرض، فمرّ الضوء على الوشم على ساعده. حدّق بِن - روي بالصورة، مفكّراً بفوسغي وبمعاناتها، وبمعاناة ضحايا كريمينكو. وبعد ذلك، مدّ يده فوق الطاولة، وتناول إبريق ماء بلاستيكياً، وأفرغ محتوياته على وجه كريمينكو.

فاستيقظ القَوّاد مُنحنياً كمِدية جَيب، وخرجت زمجرة اعتراض من رئتَيه. قاطع بِن - روي الزمجرة على الفور بلكمة قويّة على المعدة. ولكمه ثانيةً على فكّه السفلي هذه المرة، ومن ثم أطبق بذراعه على عُنُقه وجرّه إلى المِرحاض، ووضع وجهه داخله، وأطلق دَفق الماء بركبته. فتدفّق الماء بشكل دائري حول الرأس الأصلع للقَوّاد، غامراً إيّاه. قفز هائجاً وقاوم، ولكن بِن - روي شرطي جسيم، وغاضب، وذو لياقة بدنية، وأهل للصراع. أطلق دَفق الماء مرة ثانيةً، وثالثةً، مثبّتاً وجه كريمينكو في أسفل المِرحاض. ومن ثم، وبعد أن شعر بأنه بدأ ينهار وتخور قواه، رفعه، وطرحه على ظهره، وأطبق بيده على حَلْقه، ودفعه بقوة في اتجاه

الأرض. وسحب مسدس الجريكو من سرواله، ووجّه ضربة قوية للقَـوّاد علـى جانب رأسه، وسدّد الماسورة بين عينَيه المنتفختَين مباشَرةً.

"ليست هذه سوى مقدِّمات، أيها السافل السمين"، هسهس. "سوف تُخبرني الآن بكل ما تعرفه عن شركة بارين، وريفكا كلينبرغ، والسفينة التي توجد عليهـا صورة حورية ماء. وإذا أخبرت أي شخص بأي كلمة عما يحدث الآن، فسـأقتلع عينَيك اللعينتَين. هل فهمت؟".

"أجل، يا سيدي"، غصّ كريمينكو.

"جيد، أنا أصغي".

المتاهة

كان خليفة يعلم أنه إذا فكر كثيراً في الأمر - الإمكانية الكبيرة لفشل القفزة في الظلام الدامس، مع عدم وجود أي فكرة واضحة عن المسافة التي يمكنه اجتيازها في حالة من الإجهاد الجسدي والعقلي - فإنه لن يجد الشجاعة أبداً للقيام بها مهما كان موقفه صعباً.

لذا، لم يفكر في ذلك. فبعد أن أزال الصخور والعقبات من الممـر، قضـى خمس عشرة دقيقة في قياس المسافة التمهيدية حتى حافة الفتحة، مـراراً وتكـراراً، للتأكد من بعدها؛ فإذا كانت قصيرة جداً فلن يتمكن من عبور الفتحة، وإذا كانت طويلة جداً فسيسقط في الهوة على رأسه.

وبعد رميه مسدس حِلوان إلى الجهة المقابلة لتخفيف وزنه، وتأديته صـلاة لله تعالى، اتخذ موقعه في نقطة الانطلاق، وحاول النجاح بكل طاقته.

أجهض المحاولة الأولى في منتصف المسافة المؤدية إلى الفتحة لأن حاسّة سادسة أنبأته بأن خطواته أوسع من المطلوب. وحدث الأمر نفسه في المحاولة الثانية. وبدت المحاولة الثالثة جيدة فواصل الركض، عادًّا خطواته، وزائداً السرعة باستمرار عـبر السواد. كانت لديه تسع وعشرون خطوة لبلوغ السرعة القصوى قبل القفـز في الخطوة الثلاثين. وفي الخطوة السادسة والعشرين، نبّهه شيء مـا في رأسـه إلى أن اتساع خطواته غير ملائم مجدداً. كان قد استجمع قَدْراً كبيراً من الزَّخم، وكـان

قريباً جداً من الحافة، فلم يتمكن من القيام بأي شيء حيال ذلك، و لم يكن لديه الوقت الكافي للتفكير، فقال: "يا الله ساعدني!". ومن ثم، قفز على الأرض بقوة في الخطوة الثلاثين وأطلق نفسه في الفراغ، هاتفاً بيأس: "الله أكبر!".

لقد أدرك على الفور أنه هلك. كان باستطاعته الشعور، وإن كان وسط السواد، بأنه لن يبلغ حافة فتحة التهوئة بسبب عدم ارتفاعه في الهواء المسافة التي توصله إلى الجهة الأخرى. لقد بدا الأمر في لحظة عابرة كما لو أنه عبر إلى واقع منفصل، إلى بُعد بديل لا يتألف إلا من الفراغ؛ حيث لا ضوء، ولا شكل، ولا وزن، ولا زمن.

بعد ذلك، اصطدم بشيء صلب.

فتحسّس محيطه باضطراب، وكانت يداه وذراعاه على صفحة مسطَّحة، وساقاه وقدماه على صفحة عمودية، فأدرك أنه اصطدم بالحافة المقابلة. تلمّس بقدمه نتوءاً من نوع ما، فضغط عليه، ولكنه زال، فشرع يركل الفراغ بساقَيه، وشرع بالخَدش والضرب؛ باحثاً عن مِقبض، عن شيء ما يتمسك به. ولكن، لم يكن هناك أي شيء، فالأرض مسطحة ومكسوّة بالغبار ليس إلا. وشعر بأن قدمَيه تزلّان.

"أرجوك يا الله، أرجوك يا الله!".

حاول أن يثبت نفسه إلى الأرض بواسطة منكبيه وساعدَيه ورَفْع نفسه، ولكنه لم يكن يملك القوة للقيام بذلك. وحاول تعليق ساقه بطرف الحافّة ولكنه لم يتمكن من بلوغها. وكشطت أظفاره الصخر، وشرع بالركل بقدمَيه على جدار فتحة التهوئة. لقد شعر بأنه ينزلق. "قُضي عليّ"، قال لنفسه. "انتهى الأمر. قُضي عليّ".

ولكنه واصل محاولات التشبّث بالجدار، وكان يتنفّس بصعوبة، وقبضته تضعف شيئاً فشيئاً. وببذل جهد أخير ويائس، فرَج ساقه إلى اليسار فاصطدمت بشيء صلب ومعدني. أهو تُرس صغير؟ مِسمار؟ لم يكن يملك أي فكرة، و لم يُبالِ. فكل ما يهمّه هو أنه موطئ قدم يمكنه تحمُّل وزنه. فأسند قدمه عليه، وكانت عضلاته تؤلمه وذراعاه وأصابعه على وشك الاستسلام، وتمكّن من رفع نفسه بطريقة ما، مستخدِماً يدَيه، وناضل لشق طريقه إلى الأعلى في اتجاه حافّة الحفرة

وصولاً إلى الأرض المسطَّحة. ثم تدحرج بعيداً عن الحفرة لاهثاً، واستلقى على أرض النفق، ووجهه إلى الأسفل.

"شكراً لك يا الله"، لهث. "شكراً لك، شكراً لك، شكراً لك".

استلقى هناك لدقائق قليلة، سامحاً لقلبه بالعودة إلى حالته الطبيعية؛ مكدَّراً ومغتبطاً في آن. وغير راغب في البقاء في المنجم لمدة أطول، بحث في المحيط عن مسدسه، ثم وقف وتلمّس طريقه عبر النفق. وبعد أن اجتاز مسافة ثلاثين متراً، شعر بأن الجدران تختفي من الجانبَين. وعندما اصطدم كاحله بالسكة الحديدية، شمّ رائحة ثوم بعيدة.

لقد عاد إلى الدّهليز الرئيس.

وخطا فوق السكة، واستدار إلى اليمين، وشرع بالصعود. عندما سلك هذه الطريق من قَبل - بدا الأمر كما لو أنه قام بذلك منذ أيام، أو أسابيع، فقد شعر أنه قضى كل حياته في الأسفل - شعر بالهلَع الذي كان يزداد مع كل خطوة. أما الآن فهو يشعر بأن هلعه يتناقص. صعد شيئاً فشيئاً، مقترباً من المدخل ومبتعداً عن الأمور المُرعبة، حتى انبسطت الأرض في النهاية، ولامست أصابعه إحدى قوائم منصة التحميل المعدنية. مرّ من تحتها، وجرّ خُطاه نحو الغرفة الكهفية في أعلى المنجم، واصطدم بالبابَين المعدنيَّين المنزلقَين.

عندما دخل المنجم، كان قد تركهما مفتوحَين، ولكنهما الآن موصدان بإحكام من قِبَل الذين دحرجوا البراميل في اتجاه السكة الحديدية، كما يفترض. أدخل أصابعه في الفجوة بين الألواح، غير آبهٍ بما إذا كان هناك أشخاص في الخارج، وغير آبهٍ بأي شيء آخر باستثناء رؤية السماء وتنشّق هواء نقيّ.

انفصلت الألواح عن بعضها مسافة بوصة واحدة. وفجأةً، رأى الضوء. كان مُعتِماً، وغير واضح، وبنّياً. ارتبك في بادئ الأمر، ولكنه أدرك بعد ذلك أنه لا بد أن يكون السبب هو الغطاء المصنوع من الخَيش الذي أُعيد وضعه في مكانه لإخفاء البابَين. فوكزه وشعر بأنه ينتفخ حاملاً معه ريحاً خفيفة من الهواء النقيّ. ووكزه مجدداً. بعد ذلك، عاد إلى الوراء، وصوّب مسدسه عبر الفجوة، وأطلق النار على القفل الجديد الذي أُحكم بواسطته إقفال البابَين. ثم أزال السلسلة، وفتح البابَين، وانحنى ورفع هُدب الغطاء، فسطع النور في وجهه، مُعشياً بصره.

فكبا وسقط على رُكبتَيه، ورفع ذراعَيه نحو السماء، شاكراً الله على مساعدته.

بعد ذلك، وقف مجدداً، وركض في اتجاه سيارته.

إسرائيل

كان بِن - روي في منتصف المسافة التي تفصله عن القدس، ولا يزال يستوعب ما أخبره به غينادي كريمينكو، عندما رنّ هاتفه المحمول. وما إن رأى رقم المتصل حتى كاد ينحرف عن الطريق العام.

"خليفة!". صاح، واضعاً السمّاعة على أُذُنه بقوة. "هل هذا أنت؟".

إنه هو.

"*تودا لاعِل*! الشكر لله! أين كنتَ؟".

"إنها قصة طويلة"، بدا صوت المصري خشناً وأجشّ. "سأطلعك على كل شيء في ما بعد. اسمع، لقد عرفت ما الذي يجري. كنت في المنجم. إنهم لا يستثمرونه. إنهم...".

"يرمون المواد السامّة داخله".

وكانت هناك فترة صمت قصيرة.

"أنت تعرف؟".

"إنها قصة طويلة أيضاً". وتوجّه بِن - روي إلى مَسرَب السرعة المنخفضة، وخفّض سرعته. "اكتشفتُ ذلك قبل أربعين دقيقة فقط. بارين تستخدم المتاهة كمستودع للمواد السامّة. فهي تعمل في منجم ذهب في رومانيا، ومن المفترَض بها نقل كل النفايات السامة إلى الولايات المتحدة، ولكنّها تدوّر الزوايا وتطمرها في المنجم بدلاً من ذلك. إنهم يشحنونها إلى مصر، وينقلونها عبر النيل على متن صنادل تابعة لزوسِر، ومن ثم يشحنونها إلى المنجم. إنهم يقومون بذلك منذ سنوات".

وحتى في أثناء قيامه بوصف الوضع، كان بِن - روي يناضل لاستيعاب مدى جسامة الفضيحة.

"شقيق ربّان الناقلة التي تنقل النفايات قَوّاد كبير في تل-أبيب. إنه رجل يدعى غينادي كريمينكو. كان الاثنان يسيّران خطاً جانبياً للاتجار بالجنس، ويتخذان من أعمال بارين تغطيةً لعمليّتهما. فهما يقومان بنقل فتيات من رومانيا على متن السفينة، وينزلاهن مع النفايات في روزيتا، ويهرّباهنّ عبر الحدود إلى داخل إسرائيل...".

"يا الله القدير!".

"أوقفت العملية برمّتها بعد اعتقال كريمينكو منذ شهرَين، ولكن ريفكا كلينبرغ التقت إحدى الفتيات اللواتي تمّ الاتجار بهنّ وحصلت على القصة بكاملها. وبارين على وشك عقد صفقة بملايين الدولارات مع الحكومة المصرية في ما يتعلّق بحقل غاز. وإذا أعلنت كلينبرغ ما اكتشفته فستفشل الصفقة، وستتشوّه صورة بارين، وستخسر كل شيء. لذلك عمدوا إلى قتلها. لا يزال هناك العديد من الفراغات لملئها، ولكنها الصورة الأساسية. الآن، أخبرني ماذا جرى لك؟ لقد...".

"أنت وأنا. بارين وزوسِر. باستطاعتنا النَّيل منهما. أعرف مكان المنجم. لقد رأيته. هناك ملايين البراميل. باستطاعتنا النَّيل من الأوغاد!".

وفجأةً، بدا صوت خليفة منفعلاً، أم إنه كان ثملاً.

"يمكننا التحدث بالموضوع في وقت لاحق"، قال بِن - روي. "أرى أنك متعب...".

"لستُ مُتعَباً!". وبدت السمّاعة كما لو أنها تقفز بسبب حدّة ردّ المصري. "لم يسبق لي في حياتي أن شعرت بقلّة تعَب مماثلة. لقد قتلوا ابني، والآن باستطاعتنا تقديم المذنبين للعدالة".

"هيا يا خليفة، لا نعرف...".

"بالطبع نعرف. قُتل ابني بسبب صَندل ينقل نفايات بارين السامّة، والآن باستطاعتنا النَّيل منهم. للمرة الأولى منذ تسعة أشهر، أشعر في الواقع بأنني مستيقظ!".

كان يثرثر، وصوته مضطرب بسبب الغبطة العارمة التي يشعر بها، وكان يحبس أنفاسه. فطلب منه بِن - روي أن يهدأ، ولكن خليفة قاطعه مجدداً.

"عليّ أن أتصل بزينَب، وبعد ذلك سأعود إلى الأُقصُر. سوف أتصل بك بعد ظهر هذا اليوم، ويمكننا التخطيط لما يتعيّن علينا القيام به. باستطاعتنا النَّيل منهم يا بِن - روي. أنت وأنا. نعمل معاً. فريق النُّخبة. كما في الأيام الماضية!".

وسُمع ما يبدو أنه انفجار للضَّحك، ثم تمّ إنهاء المكالمة بعد ذلك. ومن وراء بن - روي، أُطلق بوق بقوة مع قيام سائق شاحنة بتحذيره لأنه كاد أن يخرج من المَسرَب.

مصر

ربما كان الإنهاك هو السبب في ما يشعر به، وربما التجفاف، وربما الصدمات التراكمية لكل ما عانى منه في المنجم. لم يحلل خليفة ذلك، ولم يعِ أن عليه تحليل أي شيء. لقد قتل صَندل نهري تابع لزوسِر ابنه، وثبُت في النهاية أن تلك الصَّنادل النهرية عينها استُخدمت لنقل نفايات سامّة عبر النيل، لطمرها بطريقة قانونية. إذاً، قُتل ابنه بواسطة صَندل محمَّل ببراميل تحتوي على تراب ملوَّث. الأمر جليّ وواضح كضوء النهار. لهذا السبب، منعت زوسِر إجراء أي تحقيق بالحادث. ربما لم يكن حادثاً. ربما قُتل الفتيان عَمداً لمنعهم من اكتشاف ما يوجد على متن الصَّندل. كل شيء متشابك في رأس خليفة، ولكن كل شيء يتّضح شيئاً فشيئاً. لقد قتلوا "علي". بارين وزوسِر هما المسؤولتان. والآن، سيقوم وبِن - روي بالكشف عن الفضيحة برمّتها للعَلَن. إنه ظُلم مروِّع. لن يذهب موت ابنه عبَثاً.

فاتصل بزينَب، وابتكر لها قصة تعطّل السيارة في الصحراء.

"أنا في طريق العودة الآن"، أكّد لها بصوت بدا غير مألوف بالنسبة إليه كما لو أن شخصاً آخر يتكلم. "سيكون كل شيء بخير. سيكون كل شيء على ما يُرام".

حاولت الاستفهام عن سبب عدم اتصاله بها على الأقل - "كنت شديدة القلق، يا يوسف!" - ولكنه اختصر الحديث بحدة ربما؛ فهناك أمور عليه القيام بها. ابتلع محتوى قنّينة كاملة من مياه البَرَكة، وحشا فمه ببعض الجبن والعَيش البلدي. وبعد ذلك، أدار محرك اللاندروفر، وانطلق بسرعة عبر الصحراء على امتداد آثار الإطارات في اتجاه الطريق العام 99 والحضارة.

تسعة أشهر من العذاب، والآن، ستتحقق العدالة أخيراً. لقد شعر بأنه بخير تماماً.

القدس

كانت الساعة لا تزال الثامنة صباحاً عندما عاد بِن – روي إلى القدس. فكر بالذهاب إلى المركز؛ فقد رغب في إحراج بوم ودورفمان، وإخبارهما بأنه حلّ القضية، ورؤية تعابير وجهَيهما. ولكنه قرر أن ذلك باستطاعته الانتظار. كان مُتعَباً ولا يستطيع التفكير في استجواب شخصي طويل محتمَل. وعِوضاً عن ذلك، عاد إلى المنزل، وشغّل جهاز الكمبيوتر المكتبي، وقضى ساعة في تدوين الأمر برمّته: بارين، المنجم الروماني، المتاهة، فوسغي، ريفكا كلينبرغ.

كانت هناك ثغرات؛ أمور لم يستطع كريمينكو إطلاعه عليها، أجزاء من القصة بقيت غامضة. وفي حين كان واثقاً تماماً بأن بارين عثرت على المتاهة عندما كانت تُجري مسحاً في تلك الناحية من الصحراء، لم يكن بِن – روي متأكداً من تاريخ اتخاذها القرار بالشروع باستخدامه لطمر النفايات السامّة، ومَن الشخص الذي اتخذ القرار. ومن جهة ثانية، لم تكن الخطوات الدقيقة التي اتخذتها ريفكا كلينبرغ للكشف عن اللغز واضحة، فكيف عرفت بأمر ساموويل بينسكر؟

لقد بقيت ثلاثة أسئلة بصفة خاصة من دون إجابات. أولاً، كيف اكتشفت بارين أن كلينبرغ تتحرى عنها؟ كان بِن – روي قد افترض أن كريمينكو قد زوّد بارين بمعلومات عن زيارة كلينبرغ للسجن، ولكن القَوّاد أصرّ على أنه لم يُلمح لها بأي شيء (كيف يكون من زوّدها بالمعلومات، قال مُجادِلاً، *في حين أنه وشقيقه يخدعان بارين من خلال الاتجار بالفتيات عبر إحدى سفنها؟*).

ثانياً، من الذي أصدر الأمر بقتل الصحافية؟ أهو ناتانيال بارين؟ أم ويليام بارين؟ أم إنه فريق ثالث داخل الشركة قام بمبادرة خاصة؟

ثالثاً، والأهم من ذلك، من الذي نفّذ جريمة القتل؟ من هو ذاك الشخص الملفّع الذي تتبّع كلينبرغ في شوارع المدينة القديمة وإلى داخل دار العبادة الكبرى حيث خنقها؟ من القاتل؟

هناك الكثير من أطراف الخيوط التي يتعيّن وصلها (وهناك أيضاً مسألة جانبية تتمثل بنمِسيس أجندا التي يتعيّن التعاطي معها؛ فقد اعتقلوه تحت تهديد السلاح، وبدا غبيّاً. لذا، لن يدعهم وشأنهم).

ولكنه خطا خطوة هائلة في اتجاه حلّ الأمر برمّته. فأنجز تقريراً من خمس صفحات، وراجعه، ثم أرسل عبر البريد الإلكتروني نسخات منه لليه شاليف، والرئيس غال - ليغيظه ليس إلا - وللضابط المسؤول بوم أيضاً. وبعد ذلك، توجّه متمهّلاً إلى داخل غرفة النوم، وركل حذاء الرياضة خالعاً إيّاه، وارتمى على السرير، ووجهُه إلى الأسفل.

واستغرق في النوم بعد ثلاثين ثانية.

مصر

هناك عادة مثيرة للفضول في تَحوّل الأكاذيب إلى حقيقة.

لقد ثَبُتت صحة ذلك في الكذبة التي أطلقها خليفة حين قال لزوجته كاذباً إن سيارته قد تعطّلت. كان يندفع إلى الأمام عبر الصحراء بسرعة، وقدماه ويداه تهتز بقوة على أجهزة التحكم باللاندروفر، وعدّاد السرعة يشير إلى 70 كيلومتراً في الساعة في أثناء عبوره الآثار الأكثر تراصّاً للشاحنات، عندما أساء تقدير زاوية وانزلق. بذل قُصارى جهده للتحكم بالمِقوَد، مناضلاً لاستعادة السيطرة على السيارة. كان يقود بسرعة كبيرة، فانزلقت اللاندروفر، واصطدمت بعقبة غير مرئية، وتأرجحت، ودارت حول نفسها، واستقرّت جانبياً بمعدّل إمالة بلغ 45 درجة في منخفَض أشبه بخندق.

"تبّاً! تبّاً!".

خرج بمشقّة. كان البخار يتدفق من تحت غطاء المحرّك، وتبيّن له أن الإطار الخلفي الأيسر قد انفجر، وكان ناتئاً وفقاً لزاوية غير طبيعية، فعرف أن مِحور الدولاب قد التوى. لقد أُرجئ كل ما كان يعتزم القيام به في ذلك الصباح لأنه لن يتمكن من مواصلة القيادة.

"تبّاً لعينة!".

ركل المِصَدّ، وبعد ذلك، جمع كل ما يحتاج إليه لاصطحابه معه: الماء، السلاح، دفتر مدوَّنات ساموبل بينسكر. وأعدّ حقيبة بديلة مُرتَجَلة بواسطة بطانية عثر عليها في الناحية الخلفية للاندروفر، فربطها، وانطلق سَيراً على الأقدام. في اليوم السابق، كان احتمال قطعه مسافة عشرين كيلومتراً في الصحراء الخاوية سَيراً على الأقدام أمراً مرعِباً. ولكن، بعد ما مرّ به في المنجم، شعر بأن رحلته هذه أشبه بنزهة في الحديقة العامة.

القدس

كان بِن - روي قد نام بضع دقائق فقط عندما رنّ هاتفه المحمول. فتدحرج بوَهَن على ظهره، وسحب الهاتف من جَيبه وأجاب. إنها ليه شاليف.

"ماذا يجري بحق الجحيم، يا آري؟ أين كنت؟".

"أونه. ماذا؟".

فرك بِن - روي عينَيه مُرتَبكاً.

"كنت أحاول الاتصال بك طوال فترة بعد الظهر؟".

فرفع معصمه ونظر إلى ساعته. إنها الرابعة من بعد الظهر. وما ظنّ أنها دقائق قليلة كانت في الواقع سبع ساعات.

"تبّاً. آسف، يا ليه. كانت ليلة طويلة".

ناضل للجلوس، ورفع قدمَيه عن الأرض بحركة متأرجحة. كان رأسه ينبض، وشعر وكأن فمه مليء بالتراب.

"هل تلقيتِ تقريري؟" سأل.

"أجل. نحن بحاجة إلى التحدث".

بعد أن استعاد إدراكه، لاحظ أنها ليست على طبيعتها. هناك اقتضاب في نبرتها، ورتابة.

"هل كل شيء بخير؟".

"نحتاج إلى التحدث"، كررت متهرّبةً من السؤال. "تعالَ إلى المركز الآن. وإلى مكتبي".

"ماذا يجري؟".

ولكنها كانت قد أنهت المكالمة. جلس للحظات يدلّك صدغَيه، وشعر بانكماش في تجويف معِدته بسبب القلق الذي انتابه. وقف بعد ذلك، ودخل الحمّام، ثم وضع رأسه تحت دَفق من المياه الباردة.

وصل إلى الكيشِل بعد عشرين دقيقة. ووفقاً للتعليمات، ركن سيارته في الباحة في الناحية الخلفية للمبنى، وذهب مباشَرةً إلى مكتب ليه شاليف. كانت جالسة وراء طاولتها، وأصابعها تلهو برزمة صغيرة ملفوفة بورق رقيق للتغليف. وعندما رأته ابتسمت، عِلماً أنها أرغمت نفسها على ترك انطباع جيد. لقد بدت قلقة وشاحبة جداً، فظنّ أنها ربما تكون مريضة.

"هل أنت بخير، يا ليه؟".

"أَغلقِ الباب فحسب واجلس يا آري".

ففعل.

"إذاً، ما الأمر؟" سأل.

فالتقت عيناها عينَيه للحظات وجيزة قبل أن تُشيح بنظرها في اتجاه الناحية الأخرى للغرفة.

"حِمل كبير من الغائط"، تمتمت.

"أيرجع السبب إلى تقريري؟".

فأومأت برأسها.

"إن إرسال نسخة منه لبوم لم يكن فكرة جيدة على الأرجح. لقد تسنّت للرئيس فرصة معالجة المسألة بالرغم من موقفنا".

وهز كتفَيه.

"لم أستطع مقاومة الفكرة. كان بحاجة إلى تلقينه درساً في عمل الشرطة الصحيح. ليس سوى القليل من الغائط يتظاهر بالنّباهة".

في العادة، كانت شاليف تضحك لدى إهانته بوم؛ تماماً كما يضحك عندما تقوم بالمِثل؛ مؤامرة عصيان صغيرة. ولكنها لم تشارك في مرحه، بل جلست هناك تلهو بالرزمة الورقية.

"إذاً؟" سأل.

"إذاً، لقد أرسل ذاك الغائط الذي يتظاهر بالنّباهة التقريرَ إلى معارفه في الوزارة، وقاموا بدورهم بإرساله إلى المراجع العُليا مباشَرةً".

فربّت بن - روي على رأسه.

"من الجيد أن يكون هناك جمهور".

"آه، بات لديك جمهور يا آري، صدّقني. فجأةً، بات هناك عدد كبير من الأشخاص في مناصب ذات نفوذ يُظهرون اهتماماً كبيراً بهذه القضية. *الكثير* من الاهتمام".

لقد توقّع منها الشعور بالسرور بسبب هذا الاهتمام، فهي التي تقود الفريق الذي ينظر في هذه القضية بالرغم من كل شيء. ولكنها لم تكن مسرورة.

"إذاً؟" كرّر.

مجدداً، نظرت إليه قليلاً قبل أن تُشيح بنظرها عنه.

"إذاً، لقد أُحيلت القضية إلى قسم التحقيقات الخاصة".

لقد تطلّبه الأمر لحظات ليستوعب الأمر.

"أنتِ تمازحينني".

"هل يبدو ذلك على وجهي يا آري؟".

لا. يبدو وجهها كوجه شخص مُحبَط بجدّيّة، ومُثار. فلم يصدّق بِن - روي ما يسمعه.

"ولكننا حللنا عملياً هذه القضية البغيضة. أصبحنا نعرف سبب مقتلها، ونعرف من يقف وراء ذلك، ونعرف أنهم طمروا ملايين الأطنان من النفايات السامة في منجم في مصر بطريقة غير قانونية...".

كان يُدير إصبعه مع كل نقطة، رافعاً صوته.

"لقد قضينا وقتنا في العمل بكدّ على هذه القضية يا ليه. لم يتبقَّ أي شيء سوى التفاصيل. فلماذا تُحال إلى قسم التحقيقات الخاصة لإتمامها بحق الجحيم؟".

لم يكن باستطاعتها النظر إلى عينَيه. وساد الصمت، وصار الجوّ في الغرفة مُثقَلاً بالتوتر ومشحوناً. بعد ذلك، تكوّرت قبضة يد بِن - روي فجأةً عندما أدرك الحقيقة.

"لن يُنهوا القضية، أليس كذلك؟ سيتمّ وضعها على الرف".

لم تقُل شيئاً، وفي ذلك دلالة على الموافقة.

"لا بدّ أنك تمازحينني يا ليه، قولي لي إنك تمزحين!".

كان فمها مُطبَقاً، وأصابعها ترتجف. لقد بدت عصبية المِزاج.

"كما قلتُ، لا يبدو المُزاح على وجهي".

"ولكن، لماذا؟ لماذا؟".

ووقف.

"نعرف أن بارين هي التي قامت بذلك يا ليه! ونعرف سبب قيامها بذلك. باستطاعتنا عملياً نقل القضية كما هي إلى المحكمة!".

"لن تذهب إلى أي مكان يا آري. لقد أُقصينا عن التحقيق".

"ولكن، لماذا؟ قولي لي لماذا؟".

لم يتمكن من الكفّ عن طرح السؤال.

"لدينا قضية فُتحت ثم أُغلقت، ويتم التخلّي عنها الآن! وأنا أريد أن أعرف السبب!".

"لأنّ المعنيين ذوو نفوذ". وعندما حدّق إلى عينيها هذه المرة لاحظ احمراراً فيهما كما لو أنها بكت في وقت من الأوقات. "إنهم يملكون النظام يا آري، أو على الأقل يملكون الأشخاص الذين يُديرون النظام، والأمر لا يختلف. هم يحرّكون الخيوط فترقص الدُّمى. واستكمالاً لمزيج استعاراتي، هذه الدُّمى موجودة في القمة تماماً، والأمر صادر منها. لا يمكن المَساس ببارين، وقد تمّت تنحيتنا".

تكوّرت قبضتا بِن - روي بشدّة، لدرجة أن برجماته بدت كما لو أنها ستشقّ بشرته وتخرج منها.

"أتقولين لي إن باستطاعتنا مقاضاة كاتزاف، رئيسنا، ولكننا لا نستطيع مقاضاة شركة متعددة الجنسيات تملك ملايين الدولارات؟".

مرةً أخرى، كان الصمت جوابها.

"لا أصدّق أنني أسمع هذا الكلام! أعتقد أنك قلت لي إننا ما زلنا نلتزم بالقانون في هذا البلد".

"يبدو أن بعض الأشخاص فوق القانون"، قالت بهدوء. "لدى بارين العديد من الأصدقاء".

"يا الله! يا الله!".

وارتمى على الكرسي. لقد شعر كما لو أنه تلقى لكمة على أمعائه. كانت شاليف تلهو بالرزمة الورقية. ففتح بِن - روي يده وفرك عُنُقه. وكان هناك صمت آخر.

"هل ستتخلّين عن القضية؟". سأل أخيراً.

"ثِق بي، أشعر بالسأم بقدْرك".

"ولكنك ستتخلّين عن القضية".

واحمرّ وجهها خجَلاً وليس غضباً، وهذا ما صدمه.

"الأمر صادر من رأس الهرم يا آري. كما قلت لك في السابق، لقد عملتُ بكدّ لأصل إلى ما أنا عليه، ولا يمكنني رمي كل شيء بهذه البساطة".

"والرئيس؟".

وتنهّدت.

"غال سيستقيل في غضون خمسة أشهر. زوجته ليست بخير، وابنه ينتقل إلى وزارة العدل. لذا، لن يضحّي بكل شيء".

"لا يمكنني تصديق ما أسمعه!".

فهزّت شاليف كتفيها بوَهَن.

"إذاً سأنقل القضية إلى الصحافة".

"ما كنت لأقوم بذلك لو كنت مكانك".

"ماذا تعنين بأنك ما كنتِ لتقومي بذلك؟".

"إذا أعلنتَ الأمر على الملأ، فستقحم عدداً كبيراً من الأشخاص الذين لا ترغب في إقحامهم. لديك طفل على الطريق...".

فاستشاط بِن - روي غضباً.

"هل تهددينني يا ليه؟".

"أنا أقول لك فقط...".

"هل أصبحتِ فجأةً الناقلة الصغيرة لرسائلهم؟".

وحان دور شاليف للاحتدام غضباً.

"لا تجرؤ على معاملتي بترفّع يا آري بِن - روي. هل سمعتَ؟ الأمر صعب بما يكفي بدون تلميحاتك التهكمية. سنترك قاتلاً بدون محاكَمة، هل تعتقد أن شعوري إيجابي حيال ذلك؟ أشعر باشمئزاز عارم لم يسبق لي أن شعرتُ به في حياتي. ولكن، هكذا تجري الأمور. نحن مرؤوسون نتلقى الأوامر كما تلقّينا هذا الأمر. ربما سيتغيّر الوضع مع مرور الوقت وستتحقق العدالة - أرجو من الله أن يتمّ ذلك - ولكن، في الوقت الحاضر، ينبغي أن نعضّ على الرصاصة ونأتمر بأوامرهم؛ إن لم يكن لأجلك فلأجل من تحبّهم. لأنك إذا عصيتَ أمرهم - صدّقني - فسيسعون وراءك كما يسعى ابن آوى وراء جثة".

وحملقت به، متنفّسةً بصعوبة، وقد تحوّل الكحل في عينها اليسرى إلى ما يشبه لطخة فحمٍ تحت عينها. ومن ثم، انحنت إلى الأمام، ووضعت رأسها بين يدَيها. ففي السنوات الخمس التي عملا فيها معاً، إنها المرة الأولى التي تظهر فيها أمامه على هذا النحو.

"آسفة يا آري"، تمتمت. "لم أقصد أن...".

"لا، أنا آسف. ما كان يُفترض بي قول ذلك".

جلست هناك للحظات، داسّةً وجهها بين يدَيها. وبعد ذلك، رمت رزمة ورقية نحوه.

"إن هذه من المفوَّض؛ لتعلم أنه تمّ تقدير جهودك".

فتح بِن - روي الرزمة. كانت تحتوي على ميدالية من النيكل مع شريط أزرق وأبيض. إنها ميدالية الشرطة الإسرائيلية.

"أعتقد أن التنويه هو التالي: *لأجل مساهمته المتميّزة في تحقيق أهداف الشرطة*"، قالت، "أو هراء مشابه".

"سأحتفظ بها"، تمتم بِن - روي.

"هناك أمر آخر".

"كلّي آذان صاغية".

فترددت كما لو أنها تشدّد عزيمتها لتقول أمراً ما لا تريد قوله، ومن ثم:

"هناك منصب معروض في أكاديمية الشرطة. إلقاء محاضرات في التحقيق المتقدّم. لا أعرف كل التفاصيل، ولكنْ من الواضح أن الأَجر ضعف أَجرك الحالي لقاء أربعة أيام عمل فقط في الأسبوع، بالإضافة إلى منزل مدعوم مالياً، وتقاعد مبكّر مع راتب تقاعدي كامل. قيل لي إنك إذا تقدّمتَ بطلب رسمي للحصول على هذا المنصب فستكون مرشَّحاً مضمون الفوز".

فهمهم.

"إنها رشوة ليضمنوا صمتي".

"أظن أن التعبير الدقيق كان *اعترافاً بالقدرات الفريدة لبن - روي في مجال التحقيق*. ولكن، أجل، إنه صرف من الخدمة للتخلص من المتاعب".

"وأنتِ؟ ما الذي ستحصلين عليه؟".

واحمرّ وجهها مجدداً.

"ترفيع إلى منصب ضابط مسؤول".

فهز رأسه.

"تبّاً لذلك يا ليه. لم أظنّ قطّ أنني سأصل إلى هذا اليوم".

"وأنا كذلك"، تمتمت. "ولا في كوابيسي الأكثر جموحاً".

وساد الصمت. لم يكن أيّ منهما يعرف تماماً ما سيؤول إليه الحديث. وبعد ذلك، قُرع الباب.

"*راك ريغا*!" نادت شاليف.

وبذلت جهداً للنظر إلى عينَي بِن - روي.

"فكّر في الأمر يا آري، رجاءً. فكّر جيداً، ليس لأجلي وليس لأجلك، بل لأجل سارة والطفل. الوضع دقيق هنا. بإمكانك ربما محاولة إنقاذ أمر ما".

"لأشعر بالندم والغثيان بقيّة حياتي؟".

"أقلّه، ستكون لديك حياة متبقّية".

نظرا إلى بعضهما، مُطبقَي الشفاه، ومنحنيَي الظهر؛ كلاعبَين في فريق عانى للتوّ من هزيمة مُذِلّة. وبعد ذلك، وقف بِن - روي وتوجّه إلى الباب، فنادته.

"طالما كان لديّ شعور سيّئ حيال هذه القضية".

فتوقف واستدار. وقُرع الباب مجدداً، ومن ثم:

"ورطة مع الغائط".

فهزّ رأسه، وفتح الباب، ومرّ بجانب شرطي يرتدي بذلة نظامية في الممر.

الأقصُر

"هل تحاول قتلي يا خليفة؟ هل تحاول؟ لأن افتتاح وادي الملوك سيجري في غضون أربع وعشرين ساعة، والهاتف يرنّ من دون توقّف، وها أنا أكتشف أنك تعمل في قضيّتين إحداهما للإسرائيليين اللعينين!".

جرّ خليفة قدمَيه، ممسكاً دفتر مدوَّنات سامويل بينسكر. فبعد خمس ساعات من السير في الصحراء، أقلّته شاحنة خفيفة تابعة للشرطة، ثم عربة نقل مُقفَلة تابعة لشركة الهاتف مِناتيل، وبعد ذلك شاحنة نقل تابعة لزوسِر محمَّلة بأنابيب إسمنتية؛ أكثر المصادَفات إثارة للسخرية. كان قد وصل إلى الأُقصُر منذ أربعين دقيقة، فعرّج على المنزل، واستحمّ وبدّل ملابسه، وصارح زينَب. وبعد ذلك، توجّه إلى المركز، غير راغبٍ في التحدث إلى بِن - روي قبل مراجعة رئيسه.

حينذاك، رآه الحسَني على الدَّرَج وطلب منه الصعود إلى مكتبه على الفور.

"اتصلوا بي إلى المنزل!". قال بشكل مسرحيّ، ووجهه متّقد بلون الشمندر المخلَّل. "يهودي ما قويّ الشخصية من مقر قيادة الشرطة في إسرائيل. في منتصف الليل، وعلى رقمي الخاص!".

لم يكن هناك مشي على أطراف الأصابع حول مرؤوسه في فترة بعد الظهر هذه، أو مناداة بالاسم الأول، أو استعمال لغة متحفّظة. إنه الحسَني القديم؛ متنمرّ، ومولَع بالمواجهة، وبُركاني الطباع.

"أراد أن يعرف إن كنت أعرف مكانك. فقلت: *لا أقصد الإساءة أيها الزميل. ولكن، ما شأنك أنت في مكان وجود أحد عناصري؟* فقال لي إنك كنت تساعد زميلاً له في أحد التحقيقات، وهناك إمكانية بأن تكون في خطر. ماذا يجري بحق الجحيم يا خليفة؟ أريد أن أعرف ماذا يجري!".

حدّق خليفة بدفتر المدوَّنات. لم يكن قد نام طوال ست وثلاثين ساعة، وبدا مُرهَق الأعصاب. وبالرغم من أنه شعر كما لو أن جسده يخصّ شخصَين مختلفَين، فقد كان يشعر بنشاط مثير للفضول. سيحقق العدالة لابنه!

"سأقدّم تقريراً..." استهلّ كلامه.

"ستقوم بذلك بكل تأكيدا". وتردد صدى ضرب الحسَني على الطاولة بقبضة يده. "ولكن، قبل ذلك، ستُخبرني هنا، والآن، ووجهاً لوجه بما يحدث. ماذا يجري يا خليفة؟ لماذا أتلقى اتصالاً من شخص يهودي على رقمي الخاص؟".

"للأمر علاقة بتسميم الآبار يا سيدي".

"ماذا؟".

"تلك التي أخبرتك عنها. في الصحراء الشرقية".

"آه! ليس الآبار المائية القبطية اللعينة مجدداً. أعتقد أننا اتفقنا على جعل هـــذا الأمر من آخر أولوياتنا".

"هناك منجم ذهب يا سيدي، بجانب جبل الشلول. منجم قديم...".

"ها هو!". صاح الحسَني. "ها هو! لقد قلت ذلك: *قديم*! إنه أمر مُضـــحك، ولكنني علمتُ أن الإشاعات ستتناوله بطريقة ما. لا يُفترض بك العمل أبـــداً مـــع أشخاص جديرين بالازدراء، لا سمح الله!".

قاوم خليفة الإغراء بتصحيح النّعت الذي استخدمه الرئيس. فعندما يكون الحسَني في هذا المِزاج، لا تبدو فكرة قيامه بذلك جيدة أبداً. وزوّده بالخطوط العريضة للوضـــع ببطء وعناية – ريفكا كلينبرغ، شركة بارين، زوسِر، المنجم، طمر النفايات السامّة – مُشيراً باقتضاب إلى علاقة إسرائيل بالقضية، ومشدداً على الصلة المصرية. كان يفضّـــل التحدث إلى بِن – روي أولاً، وإيضاح الدليل، وتنظيم أفكاره، ولكنْ إذا أراد الحسَني أن يعرف في الحال فلا يمكنه الامتناع عن إخباره. ربما كان ذلك لصالح القضية. فكلما أسرع في وضع رئيسه في الصورة، تمكنوا من الشروع بمواجهة المذنبين بسرعة.

كان الرئيس يصغي إليه وتعابير وجهه تدل على عـــدم تجاوبـــه، وقبضـــتاه مكوَّرتان بإحكام على الطاولة كما لو أنه تمثال فرعوني. وعنـــدما أنهـــى خليفـــة كلامه، نهض وتوجّه إلى النافذة، وحدّق نحو الخارج بمبنى وزارة الداخلية الموجـــود على بُعد عشرة أمتار. وبعد مرور أقل من دقيقة، عاد إلى مكانه.

"إذاً؟" سأل.

"آسف".

"إذاً"، كرر الحسَني بنبرة لطيفة على نحو غير متوقَّع كما لو أن خليفة قد أطلق للتوّ دُعابة مُفرِحة. لم يكن ذلك رد الفعل الذي يتوقعه خليفة، فاقترب إلى الأمام.

"إذاً، هناك شركة أميركية متعددة الجنسيات، بمساعدة إحدى شركاتنا الكبرى وبتحريض منها، تطمر بشكل غير قانوني نفايات ملوَّثة في الأراضي المصرية. والنفايات المذكورة تترشّح إلى داخل النظام المائي وتتسبب بضرر بيئي على نطاق واسع".

لقد حاول تفصيل الأمر من دون أن يبدو كما لو أنه يعامل الحسَني بتفضُّل. مرة أخرى، لم يكن رد فعله كما كان يتوقّعه، أو يأمله. فقد هزّ الرئيس كتفَيه بطريقة مبالَغ فيها، ورفع يدَيه كما لو أنه يقول: "هل يُفترض بذلك أن يعني لي شيئاً؟". كان باستطاعة خليفة الشعور بزيادة حدّة غضبه.

"سيدي، إنها فضيحة جنائية كبيرة. نحن نتكلم عن آلاف، وربما عشرات آلاف براميل النفايات السامّة. لقد كنت هناك ورأيتها".

والتمعت ذكريات المنجم في ذِهنه: الظلام، رُهاب الأماكن المُغلَقة، رائحة الثوم الكريهة والغامضة، وقد افترض أنها على علاقة بالتلوّث الناجم عن الزّرنيخ.

"لقد خرق أولئك الأشخاص القانون"، تابع متخلّياً عن تلك الذكريات. "لدينا الدليل، ونحتاج إلى التحرك...".

فرفع الحسَني إصبعه، مُسكِتاً إيّاه. ولوّح بإصبعه الثابتة والمهددة في وجه خليفة كهِراوة.

"دَعني أوضّح لك بعض الحقائق المحلية يا بُنَيّ"، قال، وبدا غضبه المكبوت في كل كلمة ينطق بها. "نحن شرطة الأُقصُر. شرطة *الأُقصُر*. لدينا منطقة عمل، ونتعاطى مع الجرائم التي تُرتكب في تلك المنطقة. قتل امرأة يهودية في القدس لا علاقة لنا به أيضاً، ناهيك عن أن موت صهيونية مَدعاة للاحتفال. ومنجم مهجور في العدَم – لا علاقة لنا به البتّة. سواء أكانت هناك أشياء مرتبطة به أم لا. أمّا مسألة البئر المسمَّمة على طرف منطقة عملنا، فربما نُبالي بها. ولكن، كما سبق لي أن قلت لك، سوف نولي المسألة المزيد من التفكير بعد الانتهاء من مسألة افتتاح

المتحف. وفي ما يتعلق بالمومِسات في روزيتا، والمنجم في رومانيا، وكل هراء آخر غير قابل للتصديق، فلا علاقة لنا بذلك. أكرر، لا علاقة لنا بذلك".

"لا أصدّق أنني أسمع هذا الكلام"، تمتم خليفة، غير عالِمٍ بأنه يردد صدى ما كان بِن - روي يقوله لرئيسته بالتحديد، وفي الوقت نفسه، على بُعد 700 كيلومتر في القدس. ومن ثم قال بصوت عال:

"سيدي، لا يمكنني ببساطة أن أسمح...".

فاحتدم غضب الحسَني.

"ماذا؟ لا يمكنك أن تسمح بماذا؟ هل أقوم بشرح أسس الشرطة المصرية لك؟!".

"بارين وزوسِر...".

"هما، على التوالي، شركتان مقرّهما أميركا، ولا سلطة قضائية لنا عليهما؛ كما أنهما من الشركات الأكثر نفوذاً في مصر".

"صودِف أنهما ساعدتا على طمر مئات آلاف البراميل المليئة بالتراب الملوَّث...".

"قبل دقيقة كانت ألف برميل".

"مئة، ألف، مئة ألف، لا يهمّ؛ زوسِر خرقت القانون!".

"لا أهتمّ؛ حتى لو خرقت أنف السِّفِنكس اللعين!". وضرب الحسَني النافذة بقبضته، وبدت الغرفة برمّتها كما لو أنها تهتز بسبب قوة الضربة. "أيّ منهما لم ترتكب جريمة في منطقة عملنا يا خليفة. وحتى لو ارتُكبت جريمة، فلا سبب يدعونا للتورط فيها. يا الله القدير! ستطلب مني بعد ذلك فتح ملف قضية لأن أحد الفتيان سُرقت دراجته الهوائية في أستراليا".

تكوّرت قبضة خليفة فيما كان يناضل لكبت غضبه.

"إذاً، هل ستغضّ الطَّرْف ليس إلا؟".

"لن أولي المسألة أي اهتمام. ليست من شأننا. هل فهمت؟ لم تحدث في منطقة عملنا، وليست من شأننا!".

"إذاً سأنقل المسألة إلى خارج منطقة عملنا. سأتخطاك وأذهب إلى مدير الشرطة".

وأعدّ نفسه لسَورة غضب أخرى، ولكن الحسَني أطلق ضحكة مُجلجِلة بدلاً من ذلك.

"لا مشكلة لديّ"، صاح. "إلى الجحيم. حتى إنني سأعطيك الرقم الخاص بالمدير. في الواقع، لماذا التوقف هنا؟ لماذا لا تذهب إلى رأس الهرم؛ إلى وزير الداخلية نفسه الذي يشغل شقيقه منصب رئيس مجلس إدارة زوسِر، وسيكون ليلة غد هنا في وادي الملوك يصافح بسعادة رئيس شركة بارين. شركة بارين نفسها التي تضخّ حالياً عشرات ملايين الدولارات في الاقتصاد المحلي! إذاً، هيا اذهب واتصل به يا خليفة. ولكن، لا تعُد إليّ باكياً عندما تُطرَد من الشرطة، وتُطرد عائلتك من شقتها الجديدة".

فانتصب خليفة على قدمَيه، فاقداً السيطرة على نفسه.

"هل هذا تهديد؟". صاح، مردداً أيضاً صدى المواجهة بين بِن - روي وليه شاليف. "هل تهددني؟".

فتقدّم الحسَني بضع خطوات بمَنكبَين مشدودَين، وذراعَين مثنيّتَين عند المِرفقَين كما لو أنه ملاكم على وشك الانقضاض على خصمه. وكان هناك صمت بعد أن واجه أحدهما الآخر. ومن ثم، بدا الأمر فجأةً كما لو أن الرئيس قد استنزف كل رغبة لديه في القتال، فأنزل ذراعَيه، ومشى بخطوات ثقيلة في اتجاه طاولته.

"لا، أنا لا أهددك"، قال مرتمياً على مقعده. "أنا أذكّرك بكيفيّة حصول الأمور في هذا البلد. هناك أشخاص لا يجوز لك المساس بهم سواء أحدثت ثورة أم لا. إذا رغب الإسرائيليون في التقدم بطلب حكومي رسمي للتعاون، حينئذٍ ربما ستدور بعض العجَلات. ولكن، بالرغم من ظنّنا بأن الإسرائيليين فائقو القدرة، لن تكون لهذا الطلب أي فائدة ما لم يحظَ بدعم الأميركيين. إذاً، لِمَ لا تذهب وتُجري حديثاً مع رجلك اليهودي الصغير. وإذا وصلَنا الأمرُ بمباشرة التحقيق، فسنحقق. وحتى ذلك الحين، لن أحرّك ساكناً في ما يتعلق بهذه المسألة. وإذا كنت تعرف مصلحتك، فلن تقوم بذلك. الآن، إذا لم يكن لديك مانع، لديّ أمور أهتمّ بها. واحرص على إغلاق الباب وراءك".

وانتزع سماعة الهاتف، وأدار كرسيه، مُديراً ظهره لخليفة. فلزم التحري مكانه للحظات، مقاوماً رغبته في الاندفاع وضرب كتفَي الحسَني بقبضتَيه، والصياح:

"لقد قتلوا ابني! لقد قتلوا ابني!". كان يعلم أن ذلك لن يُجدي نَفْعاً. فاستجمع قوته، وخرج من الغرفة متبختراً، مُغلِقاً الباب وراءه بقوة. إذا كان الحسَني يريد طلباً رسمياً من الإسرائيليين، فهذا ما سيحصل عليه بالتحديد. فبن - روي يعرف ما يتعيّن عليه القيام به. لم يكن بن - روي تحرّياً جيداً فحسب؛ تحرّياً جيداً لعينا فقط، بل صديقاً أيضاً. إنه صديق جيد لعين. سينتصران معاً ويحرصان على تحقيق العدالة. إنهما فريق النُّخبة، كما في الأيام الغابرة.

وتوجّه إلى مكتبه، نازلاً الدَّرَج درجتَين درجتَين.

القدس

إن الأمر الذي أزعج بِن - روي أكثر من أي أمر آخر ليس عرض رشوة رسمية عليه للتخلي عن قضية قتل، بل تفكيره فيه مليّاً في أثناء عودته إلى جناح التحرين في الكيشل.

كان يُفترض به رفضه بدون إبطاء. فهو مناقض لكل مبدأ أخلاقي لديه، ولكل ما يمثّله ويناضل لأجله. حسناً، ربما لم يمارس مهنته على الدوام حسب القواعد، وربما كان يطلق العنان لقبضتَيه قليلاً ويؤوّل ما يُسمح له بالقيام به في أثناء تطبيق القانون، ولكنه يستطيع التفريق بين الصواب والخطأ، ويعرف أنه وإن تخطى الحدود أحياناً - كما فعل في الليلة السابقة مع غينادي كريمينكو - فستبقى هناك حدود دائماً؛ خط فاصل وواضح بين الأشخاص الصالحين وأولئك السيّئين. وبالرغم من كل أخطائه، بقي على الدوام في الجانب الصحيح من ذلك الخط الفاصل، و لم يَخْطُ قطّ إلى الجانب الآخر. لقد ناضل على الدوام للحرص على تحقيق العدالة.

والآن، يُطلَب منه أخذ مِمحاة ومحو الحدود، والادعاء بأنها غير موجودة. وإدارة ظهره لكل ما آمن به.

كان يُفترض به أن يطلب منهم الذهاب إلى الجحيم، وتسليم كل شيء لناتان تيرات ليسطع نجمه على الصفحة الأمامية لهآرتس.

ومع ذلك، ومع ذلك...

وصل إلى جناح التحرين، ودخل مكتبه. لم يكن هناك أحد. المكان برمّته هادئ وساكن على نحو غير طبيعي. فأعدّ لنفسه القهوة، وأوقف هاتفه المحمول عن العمل، ثم ارتمى على كرسيّه.

لم يكن خائفاً. إنه شخص شديد الاحتمال وقادر على الدفاع عن نفسه. فرؤساء بارين والسياسيون لا يُخيفونه.

ولكنه لم يكن غبيّاً. فبارين تتمتع بنفوذ؛ نفوذ جدّي. ومواجهتها ستسبب له المتاعب، متاعب جدّية، ليس له فحسب، بل لسارة أيضاً والطفل على الأرجح. لقد سبق لهم أن قتلوا شخصاً، وربما قتلوا عدداً كبيراً من الأشخاص. *إذا عصيتَ أمرهم - صدّقني - فسيسعون وراءك كما يسعى ابن آوى وراء جثة*. لم يكن المعنيّ الوحيد بذلك، بل هناك اعتبارات على نطاق أوسع.

أخذ رشفة من كوبه، وربّت بهاتفه المحمول على فخذه.

إذا أفشى الأمر، فما الذي سيحققه؟ سيدمّر حياته المِهَنية ويضع نفسه والأشخاص الذين يحبهم في مرمى النار. ولأجل ماذا؟ بارين تطمر النفايات السامة بالتأكيد، ولا يوجد رابط مباشَر بين الشركة ومقتل ريفكا كلينبرغ، بل إنه دليل ظَرفي. وسيُثبت محامو بارين أن الدليل الظرفي بمثابة عدم وجود دليل. تبّاً، حتى إنهم قد يحرّفون الوقائع ويَنحون باللائمة على طرف ثالث، أو يتملّصون من التُّهمة. في أفضل الأحوال، سيُحكَم عليهم بغرامة مالية وستتشوّه سمعتهم، وربما سيفقدون صفقة حقل الغاز المصري. سيكون الأمر مزعجاً ولكنه ليس كارثياً؛ ليس بالنسبة إلى شركة كبيرة كبارين. وبالنسبة إليه... إنه يقف على ميزان ذي كفّتين غير متوازنتَين، والأمور ليست لصالحه.

الوضع دقيق هنا. بإمكانك ربما محاولة إنقاذ أمر ما.

نفخ على قهوته، وتناول رشفة أخرى، وحدّق بالخارطة على الجدار المقابل، وهو مشتَّت الفكر.

إنه عرض جيد بالتأكيد. رشوة، مكافأة، سمّوها ما شئتم، ولكنه عرض جيد لعين إذا كان باستطاعتكم تجاهل المبدأ الأخلاقي. إذ ستتبدل حياته، وسيحصل على راتب مضاعَف، وعلى عمل أقل، ومنزل منخفض الإيجار، وتقاعد مبكّر. ومع قُرب انتهاء عرض مسرحية سارة، لن تعود مقيَّدة بالقدس. باستطاعتهما

الانتقال إلى كِريات عطا في الشمال حيث توجد أكاديمية الشرطة، وسيجدان ربما مكاناً قرب البحر، ويبدآن مجدداً، ويمنحان طفلهما - أطفالهما، ربما - حياة أفضل مما هو الحال في القدس حيث تتشوّه المبادئ. سيكونان أقرب إلى عائلتيهما أيضاً - فعائلته تقيم شمال هاديرا في سهل شارون، وعائلتها قرب الجليل - كلما فكّر بذلك أُعجب به أكثر فأكثر كما يبدو.

لو كان باستطاعته التعاطي مع الجانب الأخلاقي، مع واقع إبقاء القاتل حراً طليقاً...

إن وضع قضية على الرف ليس مماثلاً لإلقائها في وعاء القُمامة، بالرغم من كل شيء. وكما قالت ليه شاليف، الظروف تتبدّل، وقد يضعف نفوذ بارين. ربما يكون الأمر أشبه بإرجاء تطبيق العدالة بدلاً من التخلي عنه. وتوسُّعاً بمشابَهة التحرر من المشكلة، هناك أسماك تسحبونها لحظة شعوركم بأنها ابتلعت الطُّعم، في حين تستخدمون الخِنكة مع أخرى وتُرخون لها الصنّارة قبل اصطيادها. أما النتيجة النهائية فواحدة. لا تزال لديكم تروتة على العشاء. إنها مسألة توقيت ليس إلا.

أم إنه يخدع نفسه ربما، ويحاول تجميل واقع قيامه بلعب دور فوستوس وبيع روحه للشرير.

لم يكن يعلم، لم يكن يعلم فحسب. قلّب الأمور في رأسه، محاولاً التوصل إلى قرار. وفي أثناء ذلك، كان باستطاعته سماع صوت سارة في مؤخر رأسه وهي تقول له يوم انفصالهما: *يجب التضحية بأمر ما يا آري*. لقد بدت له هذه المعادلة صحيحة الآن أكثر من أي وقت مضى. سيكون عليه التنازل عن أمر أساسيّ لأجلها. لقد اختُزلت مُعضلة السنوات الأربع بأكثر المعادلات الثنائية صعوبة: إعطاء الأولوية لأولئك الذين يحبهم أم لنداءات ضميره؟ أسود أم أبيض؟ طُرّة أم نَقش؟ لا خيارات بديلة.

ومع ذلك، لم يتمكن من اتخاذ قراره، وكان لا يزال يشعر بأن اتجاهات مختلفة تتنازعه، فيميل في هذا الاتجاه تارةً وفي ذلك الاتجاه طَوراً، عاجزاً عن اختيار اتجاه محدَّد. أخيراً، وكما لو أنه تعب من عجزه عن اتخاذ القرار، أخذت يده المبادرة بإرادتها، ورفعت الهاتف الخلَوي وأعادت تشغيله. كانت هناك رسائل.

ولكن أصابعه طلبت رقماً بدلاً من وضعه على صيغة البريد الصوتي. وضع الهاتف على أذنه فسمع صوت سارة على المُجيب الآلي. ارتفع حاجباه كما لو أنه تفاجأ بسبب حمله الهاتف بطريقة غير متوقَّعة.

"سارة"، قال بعد توقف الإشارة الصوتية. "مرحباً. هذا أنا. أنا... أمم... أمم... أنا آسف في شأن الليلة الماضية... أردتُ أن... أمم...".

وتلعثم للحظات، معتذراً مجدداً، ومُعرِباً عن مدى استمتاعه بالعشاء، وعن مدى جمالها، حتى طقطق شيء ما فجأةً، وقرّر وضع حدّ لذلك.

"اسمعي يا سارة، أحتاج إلى التحدث إليك. ليس عبر الهاتف، بل وجهاً لوجه. هناك أمر أريد استشارتك في شأنه. لقد عُرضت عليّ وظيفة، وظيفة جيدة، وظيفة جيدة حقاً، في حيفا، بعيداً عن الخطوط الأمامية. أعني، بداية جديدة لنا، لثلاثتنا. أعتقد أنني سأقبلها. أريد أن أكون معك يا سارة، أكثر من أي شيء آخر في العالم. معك ومع البوبو، في عائلة لائقة. لا شيء آخر يهمّني. لا شيء. هل يمكنني المرور في وقت لاحق؟".

وتردد، ثم أضاف: "أحبك كثيراً"، وأقفل الخط.

إنه العمل الصحيح. كان يعرف ذلك. صحيح أن جزءاً منه سيشعر بالسوء على الدوام، ولكن عائلته هي المكافأة. باختصار، إن سارة والطفل هما اللذان يهمّانه، ولكن عليه التعاطي مع الشعور بالذَّنْب. ويأمل أن يوقعوا بيارين ذات يوم، ولكن ليس اليوم. فكما قالت ليه شاليف: نحن مرؤوسون نتلقى الأوامر. وهذا هو الأمر. في النهاية، هو يقوم بما يُطلب منه القيام به.

وأسند ظهره، شاعراً بهدوء مثير للفضول، كما لو أن عبئاً قد رُفع عن كاهله. رنّ هاتفه، فانحنى إلى الأمام على الفور. مفترضاً أنها سارة، أجاب على المكالمة حتى من دون النظر إلى الشاشة. ولكنها لم تكن سارة.

"بِن - روي هذا أنا. كنت أحاول التحدث إليك. علينا التحدث".

فجأةً، عاد العبء إلى كاهله مجدداً. في هذا الوقت بالذات، باستطاعته الاستغناء عن هذا الحديث.

كان خليفة جالساً على حافة طاولته كشخص يستمد حيويته من عصبية مِزاجه.

"إذاً، هذا هو الوضع في النهاية"، شرح وهو يشعل سيجارة كليوباترا. "إذا كنا سنواجه هاتَين الشركتَين، فسيتوجّب عليك التقدّم بطلب رسمي للتعاون. وإذا كان باستطاعتك إشراك السلطات الأميركية في هذا الأمر، فسيكون ذلك أفضل".

في الجانب الآخر من الخط، لزم بِن - روي الصمت.

"أعرف أن الأمر جنوني"، تابع خليفة مسيئاً تفسير عدم إجابة الإسرائيلي، "ولكن، هكذا تجري الأمور في هذا البلد. بارين وزوسِر لديهما علاقات عديدة. نحتاج إلى... كيف تقول ذلك... المهاجمة على مستويَين. إذاً، هل تملك أي فكرة عن الوقت الذي يتطلّبه الأمر لتحصل على الطلَب؟".

لا جواب أيضاً. فكرر خليفة السؤال معتقداً أن أمراً ما يشتت انتباه بِن - روي. فسمع تنفّساً عميقاً - شيئاً بين التنهيدة والتأوّه - ومن ثم:

"نحتاج إلى التحدث عن هذا الأمر".

"أعرف أننا نحتاج إلى التحدث عن الأمر. لهذا السبب اتصلتُ!".

وضحك خليفة. كان هناك هوَس في صوته. غير أنّه لم يكن هناك ما يشير إلى السرور في الجانب الآخر من الخط.

"بِن - روي؟".

"اسمع يا صديقي، هناك بعض التعقيدات...".

فقطّب المصريّ حاجبيه.

"*تعقيدات*؟ ماذا تعني؟".

"كل ما في الأمر...".

وسُمع صوت تنفُّس آخر كما لو أن بِن - روي يختار كلماته بعناية.

"حسناً، خلاصة القصة أن قسماً آخر تولى القضية لأن بارين أميركية وما شابه ذلك. لديها صِلات كثيرة هنا أيضاً، ولذلك يجب معالجة المسألة بحذر".

لقد أطلق شيءٌ ما في نبرته أجراسَ التنبيه في رأس خليفة.

"لا أفهم ما تقوله".

"لقد أصبحتُ خارج القضية. لم أعُد أعمل عليها".

فانـــزلق خليفة عن الطاولة، ورماد السيجارة يتساقط على الأرض. كانـــت الأجراس تقرع بصوت أكثر ارتفاعاً.

"هل ما تُخبرني به دُعابة؟".

فهمهم بِن - روي.

"كما تقول رئيستي، وجهي لا يشير إلى أنني أمازحك".

"هل تمّ إبعادك عن القضية بكل بساطة؟".

"هكذا يبدو الأمر".

"ولكن، لماذا؟ لماذا يفعلون ذلك؟ لقد أخبرتني هذا الصباح أنك حللتَ القضية عملياً".

فتمتم بِن - روي شيئاً ما.

"ماذا؟".

"قلت: هذه الأمور تحدث".

"ألستَ منـــزعجاً من الأمر؟".

"بالطبع أنا منـــزعج".

"لا تبدو لي منـــزعجاً".

"ثِق بـــي يا خليفة، أنا منـــزعج، ولكن ليست بيدي حيلـــة. الآن انظـــر، سأكون ممتنّاً لك على الدوام...".

"إذاً، اطلب من القسم الآخر أن يتقدّم بالطلب".

"عفواً؟".

"اطلب من القسم الآخر أن يتقدّم بالطلب. لا يمكنني القيام بأي شيء بـــدون طلب رسمي للمساعدة من قِبَلكم".

"لسوء الحظ، ليس الأمر بهذه البساطة".

"ما هو هذا الأمر غير البسيط؟ بإمكانك أن تخبرهم وتشرح الوضع...".

"ليس الأمر بهذه البساطة"، كرر بِن - روي، وبدا الانـــزعاج واضـــحاً في صوته، بالإضافة إلى أمر آخر أيضاً. وبالرغم من أن خليفة لم يكن بإمكانه التأكـــد

من الأمر الآخر، فقد بدا بوضوح أنه الإحراج. انتزع خليفة السيجارة من فمه بقوة، وحاجبه مرتفع نحو الأعلى، وسأله:

"ماذا يحدث؟".

"لا شيء يحدث".

"لقد تمّت تنحيتك ببساطة عن قضية قتل، وأنت تقول لي الآن إن شيئاً لا يحدث".

فساد الصمت.

"هل نال منك أحدهم؟ هل هذا هو الأمر؟".

"لا أفهم ماذا تعني؟".

"هل هناك شخص ما يؤثّر فيك؟".

"لا أحد يؤثّر فيّ بأي طريقة".

"إذاً، لماذا سُلِّمت القضية لقسم آخر؟".

"لقد قلتُ لك السبب!". وبدا الانزعاج واضحاً. "بارين شركة أميركية، ولديها العديد من العلاقات هنا، هناك طرائق معيَّنة لمقاربة...".

"إذاً، أعطني اسماً ورقم هاتف وسأتكلم مع القسم الآخر على الفور".

"لا تجري الأمور على هذا النحو. لا يمكنك الاتصال بشكل مفاجئ...".

"كما اتصلتَ بي! هل تتذكر؟ هكذا بدأ كل شيء. لقد اتصلتَ بي بشكل مفاجئ وطلبتَ مساعدتي. وها أنا أطلب مساعدتك. لديّ منجم مليء بنفايات سامة، ومياه آبار تتسمّم، وصنادل تجوب النيل ذهاباً وإياباً... لا أستطيع اتخاذ إجراءات بحقّ الأشخاص المسؤولين ما لم تطلب حكومتك من حكومتي...".

"لا ترفع صوتك في وجهي يا خليفة".

"أنا لا أرفع صوتي!".

"بل إنك ترفع صوتك! ولا يُعجبني ذلك. لا أعرف ما الذي حدث لك في الليلة الماضية...".

"ما حدث لي في الليلة الماضية، يا *صديقي*، هو أنني كدتُ أموت داخل منجم لأنك طلبتَ...".

"لم أطلب منك القيام بأي شيء!".

"طلبتَ مني أن أساعدك في قضية قتل! وساعدتك بالفعل. وأنا أساعدك الآن. بارين قتلت امرأة في القدس...".

"لا نعرف إن كانت وراء قتلها".

"لقد قتلتها بالطبع. لقد أخبرتَني بذلك هذا الصباح".

"*ربما* قتلتها".

"لقد قتلتها! تعرف أن بارين مسؤولة عن قتلها. لقد اكتشفت ما يقومون به في المنجم...".

"لا دليل ماديّ لدينا...".

"ما الذي تتكلم عنه بحق الجحيم؟ لديّ منجم مليء بالأدلة! مليون برميل من الأدلّة! لم يسبق لي أن عملتُ في قضية تحتوي على هذا الكَمّ...!".

"ليست قضيتك!".

"إنها قضيتي. لولاي ما كنت لتعرف شيئاً عن ساموبل بينسكر، والمنجم، وزوسِر...".

"وأنا ممتنّ لذلك، لقد قلتُ لك. ولكن الكرة في ملعبنا الآن. إنها قضية إسرائيلية. وأنا أقول لك إن مساعدتك لم تعُد مطلوبة".

"إنها مطلوبة!". وأخذ خليفة مجّة من سيجارته بغضب، ويده ترتجف. "إنها مطلوبة لأنه من الواضح أنك لست رجلاً بما يكفي...".

"ماذا؟ ماذا قلتَ لي للتوّ؟".

"لستَ رجلاً بما يكفي لتنفذ إلى كُنه التحقيق وتلاحق المجرمين".

"كيف تجرؤ!؟".

"أحدهم يؤثّر فيك يا بِن – روي".

"لن أجلس هنا...".

"بارين أثّرت فيك".

"لا تعرف ما الذي...".

"بارين أثّرت فيك! ولهذا السبب انتقل التحقيق إلى قسم آخر. لقد ساعدتُك يا بِن – روي. لقد حللتُ القضية لأجلك، وخاطرتُ بحياتي. وها أنت تتصرف كيهودي يتدبّر المكائد...".

"ماذا؟ ماذا؟ كيف تجرؤ يا ذا الرأس الشبيه بالخرقة القذِرة...".

"لقد قتلوا ابني!".

"لا تكن لعيناً...".

"لقد قتلوا ابني الصغير!". كان خليفة يُطلق صرخات عميقة. "صَندل تابع لزوسِر محمَّل بنفايات بارين السامة. لقد قتلوا "علي". لقد قتلوني. والآن، لن تساعدني على تقديمهم للعدالة لأنك خائف. أيها الوغد! أيها اليهودي الوغد الجبان!".

وركل سلّة المُهمَلات بجانب طاولته، مدحرِجاً إيّاها على أرض الغرفة. وفي الجانب الآخر من الخط، كان باستطاعته سماع بِن - روي وهو يتنفس بصعوبة. وساد الصمت، ومن ثم سُمع صوت الإسرائيلي. من الواضح أنه كان يناضل للسيطرة على نفسه.

"آسف لِما حدث لابنك يا خليفة. أنا آسف بصِدق. وأنا ممتنّ لكل ما قمتَ به. ولكن، لا يمكننا الاستمرار. لقد انتهى الأمر. هل تفهم؟ لقد انتهى الأمر".

وساد الصمت مجدداً، ومن ثم سُمع صوت آخر. ليس صوت بِن - روي، بل صوت أُنثى.

"لا، لم ينتهِ. لم ينتهِ بتاتاً. في الواقع، لقد بدأ للتوّ".

القدس

"ما...".

أبعد بِن - روي الهاتف عن أُذُنه مصدوماً، ومن ثمّ أعاده بقوة. لقد عرف الصوت على الفور. إنها المرأة التابعة لِنمسيس أجندا، ابنة ريفكا كلينبرغ، دينا لِفي أو أيّاً يكن الاسم الذي تعتمده الآن. كانت على الخط تتنصّت على حديثهما، كما لو أنهما كانا يتحدثان سرّاً في غرفة وقفزت فجأةً من خزانة الملابس.

"كيف...؟".

"لقد وضعنا جهاز تنصّت سرّياً في هاتفك"، قاطعت مستبِقةً السؤال. "في ميتزبي رامون، أداة صغيرة ذكية تسمح لنا بالتنصّت ليس على اتصالاتك فحسب بل على كل ما يدور حول الهاتف بشعاع خمسة أمتار".

لقد تطلّب منه الأمر لحظات لاستيعاب المعاني الضمنية لذلك. وبعد ذلك، اسودّ وجه بِن - روي.

"اخرُج من الخط، يا خليفة. اخرُج الآن".

فتجاهله المصري.

"من أنت؟". قال بغضب. "وماذا تعنين بقولك إنّ الأمر لم ينتهِ؟".

كرّر بن - روي طلبه، ولكن أيّاً منهما لم يتوجّه إليه بأي كلمة. وكطفل طُرد من الزُّمرة، كل ما استطاع القيام به هو الجلوس هناك وهو يصغي بعجز في أثناء قيام المرأة بتزويد خليفة بمعلومات عن نِمِسيس أجندا وعن إنجازاتهم.

"تمارس بارين ضغوطاً"، شرحت. "الإسرائيليون يدفنون التحقيق. صديقك تلقى رشوة للتخلي عن القضية".

"إنها كذبة لعينة! لا تُصغِ...".

"كما قلت له عندما التقينا قبل أيام قليلة، القانون لا يطال شركات مثل بارين، أو زوسِر. لا يطال أيّاً منها. والطريقة الوحيدة للتغلّب عليها هي في اتّباع أساليبها".

"إذاً، أخبريني كيف". قال خليفة فجأةً بصوت مليء بالحماسة والإلحاح. "قولي لي ماذا يمكنني أن أفعل؟".

"هل أنت مجنون يا خليفة؟ حتى إنه لا يجب عليك التفكير...".

"قولي لي ماذا يمكنني أن أفعل؟".

"يمكنك أن تساعدنا"، قالت المرأة.

"أجل، سأفعل. أي شيء".

"حبّاً بالله، يا خليفة!".

"ستصل شُحنة نفايات الليلة. لقد تسلّلنا إلى ملفات جهاز الكمبيوتر التابع لزوسِر، وحصلنا على كل التفاصيل. سترسو سفينتهم على رصيف شمال روزيتا؛ عند مصبّ النيل تماماً، وسيتمّ إفراغ الشُّحنة قرابة منتصف الليل. نحن في طريقنا إلى هناك الآن. سنقوم بتصوير الأمر برمّته، وربما سنستجوب فردَين من الطاقم. ومن ثم، نحتاج إلى الذهاب إلى المنجم. هل يمكنك اصطحابنا إلى هناك؟".

"بالطبع!".

"خليفة!".

"سنوجّه لك رسالة نصّيّة من رقم هاتف آمن. أَعِد الاتصال بنا عليه وسنتّفق على المكان الذي...".

"سأذهب معكم إلى روزيتا". صاح خليفة. "لقد قتلوا ابني. أريد المشاركة في الأمر".

"آسف، ولكننا لا نعمل...".

"أنا ذاهب إلى روزيتا. هذا هو الاتفاق. أريد التحقق من الأمر بنفسي. سأقصد روزيتا، ومن ثمّ سأُرشدكم إلى المنجم. هذا أو لا شيء".

وكان هناك صوت همس مكبوت كما لو أن المرأة تتداول مع شخص آخر، ومن ثم، وبعد تردد قالت له:

"حسناً، إلى روزيتا. هل لديك دفتر المدوَّنات؟ ذلك الخاص بالمنجم؟".

أجل، جاء الجواب.

"اصطحبه معك. ربما تمكنّا من استخدامه. نحن نرسل لك رسالة نصّية الآن".

"حبّاً بالله، أصغِ إليَّ يا خليفة، هؤلاء الأشخاص...".

"ماذا؟ أيّ نوع من الأشخاص هم؟".

إنها المرة الأولى في غضون دقيقتَين التي يكفّان فيها عن تجاهل بِن - روي.

"قل لي أيّ نوع من الأشخاص هم يا بِن - روي؟".

"إنهم متهوّرون! إرهابيون!".

"وأنت كاذب وجبان! وأنا أعرف جيّداً من يتعيّن عليّ العمل معه في الحال. لقد حظيتَ بفرصتك يا بِن - روي، واخترتَ تلقّي الرشوة والتخلّي عن الأمر. لم يعد ذلك من شأنك. سأتصل بكِ حالما أتلقّى الرسالة النصّيّة".

قال ذلك للمرأة. فصاح بِن - روي، وطلب من خليفة عدم القيام بذلك، قائلاً له إن الأمر جنوني، وإنهم لن يتمكنوا أبداً من بارين، وإن عليه ربما تقبُّل الواقع أيضاً. كان يتكلم مع نفسه لأن المكالمة كانت قد قُطعت. فرمى الهاتف عبر الغرفة. وفي أثناء قيامه بذلك، رأى شخصاً واقفاً عند المدخل، نصفه إلى الداخل، والنصف الآخر إلى الخارج، وهو متصلّب الفكين.

"هل كنتَ تسترق السَّمع، يا دوف؟".

الأُقصُر

كانت الرسالة النصّيّة في انتظار خليفة حالما أقفل الخط. إنه رقم هاتف خلوي مصري كما يبدو. فاتصل، وأجابت المرأة. *إنهم على بُعد ساعتَين من روزيتا تقريبًا*، قالت له. وسألته إن كان باستطاعته الوصول إلى الشاطئ. *لا مشكلة*، قال. فهناك رحلات جوّية منتظمة من الأُقصُر إلى الإسكندرية مروراً بالقاهرة.

"عِلماً أنه لا يمكنني نقل مسدسي معي على متن الطائرة حتى مع وجود شارة الشرطة".

"انسَ الأمر"، قالت. "لدينا قوة نارية كافية. وجِّه لنا رسالة نصّيّة على هذا الرقم حالما تعرف رقم الرحلة الجوّية التي ستكون على متنها. ولا تفكّر في خداعنا".

لم يفهم خليفة معنى الجملة، ولكنه فهم الفَحوى. وشرع بطمأنتها بأن شيئاً من ذلك لن يحدث، ولكنها كانت قد أنهت المكالمة. جلس للحظات، وكان هناك ضوء تحذيري بالغ الصِّغَر يومض في مكان ما داخل رأسه. كان منفعلاً جداً لدرجة أنه لم يلاحظ الأمر. فالعدالة هي كل ما يأبه له، تحقيق العدالة من أجل ابنه. ولم يكن يهتمّ بكيفية تحقيقها. لذا، وضع كل شكوكه جانباً، وتلقّف الهاتف واتصل بشركة الخطوط الجوية المصرية (إدجيبت إير) لحجز مقعد له على متن الرحلة المتوجّهة إلى الشمال.

القدس

"هل كنتَ تسترق السمع؟". كرر بِن - روي عاجزاً عن إخفاء نبرة الاتهام في سؤاله. فلم يُجب دوف زيسكي، بل وقف هناك محدّقاً إليه من وراء نظارته ذات العدستين المستديرتين من دون أن يرفّ له جَفن، ممسكاً برزمة أوراق بيده.

"دوف؟".

"هل سندع بارين تنجو بفعلتها؟".

"إذاً، كنتَ تسترق السمع".

"كنت أنتظر لإعطائك هذه". ورفع زيسكي الأوراق. "كنتَ تصيح".

وساد صمت مُرِبك. بعد ذلك، همهم بِن - روي ولوّح بيده غير راغبٍ في دخول جدال آخر.

"إنه خطئي. يُفترض بي أن أتعلّم إبقاء صوتي منخفضاً".

وإذا كان يأمل في التخفيف من حدة التوتر، فهو لم يُفلح في ذلك. وتقدّم زيسكي خطوة إلى الأمام.

"لماذا؟". سأل. "ظننتُ أننا...".

"ستزوّدك ليه شاليف بالمعلومات"، قال بِن - روي مقاطعاً إيّاه. "القضية في طريقها إلى قسم التحقيقات الخاصة، و لم تعُد لدينا علاقة بها. هذه الأمور تحدث. الآن، ماذا لديك هناك؟".

لم يكن زيسكي راغباً في تغيير الحديث.

"ولكن، لا يمكننا...".

"لا تقل لي ما يمكننا وما لا يمكننا القيام به يا دوف". كانت نبرته أكثر جفاءً مما أرادها أن تكون، ولكنه بدا عصبيّ المِزاج بعد المواجهة التي حصلت بينه وبين خليفة، وغير راغبٍ في معاوَدة الكرّة. أنت *كاذب، جبان، لستَ رجلاً بما يكفي*. كانت كلمات المصري لا تزال ترنّ في أُذُنَيه بطريقة جارحة لأنه يعلم في قرارة نفسه أنها صحيحة. أجل، فعل ذلك لأجل سارة والطفل وليس لأنه خائف، ولكن الواقع يبقى أنه تخلّى عن القضية وتلقّى رشوة للقيام بذلك. قبل عشرين دقيقة، تخيّل أن باستطاعته التعاطي مع الشعور بالذَّنْب، ولكنه لم يعُد متأكداً الآن، و لم يكن بحاجة إلى زيسكي لزيادة شكوكه.

تقدّم الشاب خطوة أخرى إلى الأمام في اتجاهه.

"آري، اسمع...".

"عليك أن تتوجّه لي بلقب سيدي".

"ولكنني عثرتُ على شيء ما يتعلق ببارين، أعتقد...".

فأجاب بِن - روي بحدّة:

"لا أريد أن أسمع أي شيء عن بارين. هل تفهم؟ نحن خارج القضية، لقد أصبحت بين يدَي مرجع أعلى، نقطة على السطر. أيّاً يكن ما حصلتَ عليه.

اتركه على الطاولة فحسب، ومن ثم اغرُب عن وجهي. أرغب في القليل من الخصوصية".

وقف زيسكي أمامه، مُطبِقاً شفتيه بإحكام للسيطرة على انفعاله، وكانت ملامح وجهه تشير إلى أن أصابع الاتهام موجَّهة إلى بن - روي. وبعد ذلك، مشى متبختِراً، وألقى رزمة الأوراق على حافة الطاولة بقوة، واستدار وخرج. سقطت الأوراق على الأرض وتبعثرت قبل أن يتمكن بِن - روي من الوصول إليها.

"تبّاً!" هسهس. "تبّاً!".

جلس للحظات، مُطبِقاً قبضة يده وفاتحاً إيّاها، وشاعراً بالخِزي لأنه بدا مشابهاً للضابط المسؤول بوم في تعليقه حول ضرورة مخاطبة مرؤوسه له بكلمة *سيدي*. من ثم، وقف وتبع زيسكي بهدف الاعتذار منه بسبب سَورة غضبه، ولكنه لم يتمكن من العثور عليه. وبعد البحث في أنحاء المركز لمدة خمس دقائق، عاد إلى المكتب. كان هاتفه المحمول محطَّماً في الزاوية البعيدة للغرفة. لم يكن يملك أي فكرة عن شكل جهاز التنصّت السرّي، ولم يتكبد عناء البحث عنه. وبعد إنقاذه بطاقة سيم، حمل القطع المتبقّية إلى غرفة المراحيض والمغاسل، ورماها داخل المرحاض. ولدى عودته إلى المكتب، فتّش طاولة زميله يوني زِلبا، وأخذ جهاز النوكيا القديم الذي كان يحتفظ به هناك، ووضع البطاقة فيه، وشحن الهاتف بالكهرباء. ثم شرع بجمع الأوراق المبعثَرة. كانت كلها على الأرض وتحت الطاولة، وتعيّن عليه الركوع للوصول إلى الورقة الأبعد، وقد فاجأه اعتبار ما يقوم به ملائماً. جمعها بدون ترتيب، وكان على وشك وضعها على صينية البريد، سَئماً من الأمر اللعين برمّته، عندما لفت انتباهه أمر ما على إحدى الأوراق. إنه اسم بحروف سوداء عريضة: دينا لِفي. وتذكّر أنه طلب من زيسكي جمع معلومات عنها قبل يومَين بعد أن سجنه أفراد من منظمة نِمِسيس. إنه تقرير زيسكي كما هو مُفترَض، عِلماً أنه لم يُشر إلى ذلك...

جلس متجهّم الوجه. لم تكن الأوراق مرتبة بالتسلسل، ولم تكن هناك أرقام على الصفحات، وقد احتاج إلى مدة من الزمن لترتيبها. كانت هناك صورة طِبق الأصل لبريد إلكتروني من السفارة الإسرائيلية في الولايات المتحدة يوجد في أعلاها

لوغو الجيش الإسرائيلي، ونسخةٌ مسحوبةٌ على طابعةٍ لمقالة صحفية عن فتاة اعتُقلت في أثناء أعمال شغَب مناهضة للعولمة في هيوستن (أليست هيوستن مقرّ قيادة بارين؟) مجموعة لا بأس بها من المعلومات. من الواضح أن زيسكي كان يعمل بكدّ، مما حمله على الشعور بالسوء أكثر فأكثر بسبب طريقة تكلّمه معه. ففرز الأوراق، ووضعها في مجموعة مرتَّبة، ثم أسند ظهره وشرع بقراءتها من بدايتها ببطءٍ في بادئ الأمر، ومن ثم بشكل عاجل مع بدء أجزاء القضية بالتجمّع، واتّضاح الصورة برمّتها. وعندما بلغ النهاية، شحب وجهه وظهرت قطرات تعرَق على جبينه.

"آه يا الله!"، همس. ومن ثم قال بصوت مرتفع: "خليفة!".

الأقصُر

لم تكن هناك مقاعد متوافرة لدى إدجيبت إير في تلك الليلة في الدرجة الاقتصادية، ولا حتى في درجة الأعمال، مما جعل خليفة أمام خيار وحيد ألا وهو إفراغ الحساب المصرفي اليسير التابع للعائلة لشراء بطاقة في الدرجة الأولى. كان الشعور بالذَّنْب سيسحقه في أي ظرف آخر، ولكنه لم يُعِد النظر بقراره هذه الليلة. فابنه المقتول هو كل ما يهمّه.

تأكد من مواعيد الرحلات؛ السابعة وخمس دقائق إلى القاهرة، مع توقف انتقالي في الإسكندرية، والوصول عند الثامنة وخمسين دقيقة. وكما تقتضي التعليمات، وجّه رسالة نصّيّة لأفراد منظمة نِمِسيس، وجاء الرد على الفور: **اتصل عندما تهبط وسنُعلمك بما يجب أن تقوم به.** مجدداً، ومض ضوء التحذير في مكان ما في رأسه. ومرة أخرى، لم يُعِر الأمر أي اهتمام. اتصل بالمنزل، ولفّق لزينَب قصة أخرى عن العمل حتى وقت متأخر. ومن ثم، ومع تبقّي القليل من الوقت قبل التوجّه إلى المطار، أحضر خارطة لمنطقة الدلتا، وقضى خمس عشرة دقيقة في الاطلاع على وضعية الأرض التي سيغامر بدخولها.

فروزيتا، أو رشيد كما تُعرَف عموماً، تقع قرب لسانَي البحر الداخلَين في البَرّ، والقائمَين في أقصى الغرب حيث يتفرّع النيل في أثناء دنوّه من الساحل.

فالبلدة متجمّعة على امتداد الضفة الغربية للنهر. وعلى بُعد كيلومترات قليلة في اتجاه مصبّ النهر، توجد قلعةُ قايتباي التي تعود للعصور الوسطى، وحيث اكتشفت قوات نابوليون المجتاحة في العام 1799 حجر روزيتا الشهير. لم يكن خليفة مهتمّاً بأي من هذه الأمور. كان اهتمامه منصبّاً فقط على الرأس الرملي القاحل شمال قايتباي حيث يُنهي النيل رحلته البالغة 6,700 كيلومتر ويصبّ في المتوسط. والمنطقة مُشار إليها بأنها محميّة طبيعية ومنطقة عسكرية في آن؛ مما يعني أن أحداً لا يمكنه الدخول باستثناء أولئك الذين يملكون تفويضاً. هناك يقع رصيف زوسِر - بعيداً عن العيون التي تريد استراق النظر - ويوجد طريق واحد فقط لبلوغ المكان. لذلك، سيكون عليهم الذهاب سيراً على الأقدام، أو استخدام شارة الشرطة. باستطاعة القرار النهائي الانتظار حتى يصلوا إلى المكان. في الوقت الحاضر، إنه بحاجة إلى معرفة ما الذي يخططون له.

لقد تلقّى أربعة اتصالات من بن - روي في أثناء تمعّنه في الخارطة. وكان في كل مرة يوجّه الاتصال إلى صيغة البريد الصوتي، ومن ثم يمحو الرسالة من دون الإصغاء إليها. من الواضح أن الإسرائيلي يعمل وفقاً لجدول أعمال مُضمَر، ولم يكن مهتمّاً بسماع المزيد من أكاذيبه وأعذاره. لقد حظي بفرصته. فما شرع به وكفّ عن إتمامه سيقوم هو، خليفة، بإنهائه بمساعدة نِمسيس أجندا. فليذهب بِن - روي إلى الجحيم. إنه يهودي وغد جبان.

ألقى نظرة أخيرة على الخارطة، وقبل الساعة السادسة مساءً، نزل إلى الطابق السفلي، مُصطحباً معه دفتر مدوَّنات ساموِيل بينسكر. في منتصف الطريق، سمع صوت الرئيس الحسَني في الرَّدهة في الأسفل، يوبّخ شخصاً ما بسبب التدابير المتَّخَذة لافتتاح وادي الملوك في الليلة التالية. غير راغبٍ في مواجهة ثانية على غرار مواجهتهما السابقة، تريّث لمدة خمس دقائق على فسحة الطابق الأول حتى خبا الصوت أخيراً لدى مغادرة الرئيس المبنى. فمكث ثلاثين ثانية إضافية للتحقق من مغادرته. ومن ثم، أسرع إلى الخارج كي لا يفوته موعد الرحلة. وعندما كان يستدير إلى اليسار في اتجاه شارع المدينة المنوّرة، ويستعدّ لإيقاف سيارة أجرة تُقلّه إلى المطار، سمع صوتاً يناديه؛ إنه صوت مألوف.

إنها زينَب.

كانت واقفة في الجانب المقابل من الشارع، بجانب الأرض البُور المواجِهة لمركز الشرطة والمكسوّة بشُجيرات ملتفّة. فألقى نظرة سريعة على ساعته - إنها السادسة وعشر دقائق، بدأ الوقت يضيق - وهرول في اتجاهها.

"ماذا تفعل هنا؟".

كان حجابها مرفوعاً على رأسها، وهناك عرَق على جبينها، كما لو أنها كانت تركض.

"زينَب؟".

"قلتَ إنك ستعمل حتى وقت متِأخر".

"أنا أعمل حتى وقت متأخر. أنا... خارج لإحضار شيء ما".

لقد مضى على زواجهما عشرون عاماً، و لم يسبق له أن كذب عليها ولو لمرة واحدة. ولكن، يبدو أنه يُطلق سلسلة من الأكاذيب في الساعات الست والثلاثين الأخيرة. فمدّت يدها ولمست ذراعه، ونظرت إليه مباشرة. لم تكن بحاجة لقول أي شيء. كان كل شيء ظاهراً في عينَيها، وكانت تعلم أنه لا يقول الحقيقة. مرّت بضع ثوانٍ، ومن ثم سحبت يدها، وخطت إلى الوراء، ووجّهت نظرها إلى الأرض.

"هل هي جميلة؟".

احتاج خليفة إلى لحظات قليلة ليفهم ما تعنيه.

"آه، يا زينَب!". قال بصوت مشبع بالخوف والاستحسان الكئيب. "زينَب!".

واقترب منها، وأمسك ذراعها، واصطحبها إلى الأرض البُور بعيداً عن الناس المصطفّين على امتداد جانب الشارع.

"كيف يمكنكِ التفكير في أمر كهذا؟".

"أعرف أنني لم أكن زوجة صالحة يا يوسف، في الأشهر التسعة الأخيرة هذه، منذ...".

وطرفت عينَيها للتخلص من الدموع.

"لا ألومك. لا ألومك حقاً".

"توقفي عن التفوّه بمثل هذا الكلام يا زينَب. توقفي الآن".

ووضع دفتر المدوَّنات في الجَيب الداخلي لسترته، وأمسك يديها الجميلتين؛ يديها اللتين لن يتعب أبداً من الإمساك بهما ما دام حيّاً.

"أنتِ حبّ حياتي. طوال السنوات التي قضيناها معاً، لم أنظر ولو لمرة واحدة إلى امرأة أخرى. فلماذا سأقوم بذلك عندما تكون أجمل امرأة في العالم واقفة هنا بالذات بجانبي؟".

"إذاً، لماذا يا يوسف؟ لماذا تكذب عليّ على هذا النحو؟ أسمع الكذب في صوتك، وأراه على وجهك. أعرفك تماماً".

وها هما عينا خليفة تنظران إلى الأرض الآن.

"أين كنتَ في الليلة الماضية؟" تابعت. "لم تتصل بي. وعندما عدتَ إلى المنزل، كانت ملابسك متّسخة. لم تنَم، وكانت هناك دماء على ذراعك، كنت تبدو كالشبح...".

كانت يداها ترتجفان.

"ماذا يحدث يا يوسف؟ أخبرني".

"أعمال في مركز الشرطة... ليس إلا"، تمتم مجرجراً قدمَيه، ولاوياً مِعصمه جزئياً لإلقاء نظرة خاطفة على ساعته. "إنه الأمر المتعلق بوادي الملوك، الرئيس الحسَني...".

أبعدت يديها عن يديه ووضعتهما على وجهه.

"رجاءً يا يوسف، كفى أكاذيب. أعرف كم اعتمدت عليك منذ أن فقدنا "علي"، وكم كان عليك أن تتحمّل إضافةً إلى حزنك، وكم كنتُ عبئاً...".

"لا تقولي ذلك يا زينَب. لم تكوني عبئاً مطلقاً. أنت زوجتي...".

"إذاً، أخبر زوجتك بما يحدث. رجاءً، أتوسّل إليك! أتوسّل إليك!".

كانت الدموع تتجمع في عينيها، متساقطةً على خدَّيها.

"في هذه الأيام القليلة الأخيرة، وللمرة الأولى شعرتُ... فكّرتُ في أنه ربما يكون هناك بعض الضوء في نهاية النفق. ولكنني لا أستطيع القيام بذلك بدونك يا يوسف. هناك خَطْب ما، أشعر بذلك. أحتاج إلى معرفة الحقيقة، لأن فقدان زوج بعد... بعد...".

لم تستطع إتمام الجملة، فأمسك خليفة كتفَيها، مختلساً نظرة أخرى إلى ساعته، وكارهاً نفسه بسبب ذلك. ولكن، لم يكن لديه إلا القليل من الوقت للّحاق بالرحلة الجوّية...

"لن تفقدي زوجك يا زينَب. أنا أحبك، أنا هنا لأجلك، دائماً، دائماً. كل ما في الأمر هو أنه يتعيّن عليّ الليلة الذهاب إلى الإسكندرية...".

"الإسكندرية!".

"لا شيء يدعو للقلق...".

ورفعت يدَيها عن وجهه، وخطت إلى الوراء مجدداً.

"ما الذي لا تُخبرني به يا يوسف؟".

"لا شيء...".

"ما الذي لا تخبرني به؟".

"الأمر معقّد".

"إذاً اشرحه!".

"هناك شيء ما عليّ... بعض الأشخاص... إنها قضيّة تخصّ بِن - روي...".

"أخبرني!".

"علي، الأمر مرتبط بعلي!".

قال ذلك بصوت أكثر ارتفاعاً مما أراد، من دون أن يبلغ حدّ الصراخ. وفي الشارع وراءهما، استدار الناس للتحقق من سبب الضجيج، فتجاهلهم خليفة.

"الأمر مرتبط بابننا"، كرر مناضلاً لإبقاء صوته ثابتاً. "فتانا. لا وقت لديّ للتطرّق إلى التفاصيل، فالتفاصيل لا تهمّ. كل ما تحتاجين إلى معرفته هو أنني سأحقق العدالة لأجل علي".

فلم تقل شيئاً، بل حدّقت به فحسب، واضعةً يدها على حَلْقها، وعيناها البنّيّتان دامعتان بسبب الخوف.

"لقد قتلتاه يا زينَب. زوسِر وشركة أخرى. لقد قتلتا "علي"، وسأوقع بهما، وأعاقبهما. هناك أشخاص سيساعدونني. أشخاص صالحون. لا شيء يدعوك للخوف. سيكون كل شيء على ما يرام، وسنحقق العدالة لأجل فتانا. سننال من الأوغاد!".

كانت تهز رأسها.

"لم أعُد أعرفك"، همست. "عشرون عاماً مضت على زواجنا، وفجأةً لم أعد أعرف زوجي".

"ما الذي لا تعرفينه؟". وارتفع صوته مجدداً، وهناك شيء ما يلتهب داخلــه. "لقد قُتل ابننا وأريد تحقيق العدالة! ما الذي لا تعرفينه إذاً؟".

"هذا الغضب. هذا... هذا... الجنون".

"إنه الجنون الذي يريد العدالة".

"أنت تترك زوجتك، وعائلتك، وتذهب في مهمة عقيمة...".

"ليست مهمة عقيمة. لا تقولي ذلك! القانون لن يمسّهما، لــذلك علــيّ القيام بذلك بنفسي! يُفترض بك أن تشكريني! هل سمعتِ؟ اشــكريني، أيتــها الجاحدة...".

وصمت بشكل مفاجئ، محدّقاً بذُعر بكفّه التي رفعها في اتجاه وجه زوجتــه، وذلك للمرة الأولى طوال كل تلك السنوات التي قضياها معاً. مرّت ثوانٍ قليلــة، وخليفة يتأمل قبضته من دون أن يشعر بها. وبعد ذلك، سقطت يده كما لو أنهــا حجر.

"آه يا الله! آسف"، قال. "رجاءً، لم أقصد... أنا آسف".

فحدّقت به زينَب مصدومة، وتردد صدى أذان العشاء من مكبِّر الصــوت في مئذنة المسجد القائم على مَبعُدة منهما في الشارع نفسه. وبعد ذلك، فعلت أمراً لم يسبق لها أن فعلته في السنوات التي أمضياها معاً. فقد دنت منه، وســقطت علــى ركبتَيها أمام خليفة، وشبكت يدَيها في إيماءة توسّل.

"زوجي"، همست، "حبــي، نوري، حياتي. لم أقف في طريقك يومــاً، ولم أطلب منك أي شيء مطلقاً. ولكنني الليلة أناشدك: أيّاً يكن ما تفكر في القيام به، اصرفه من ذهنك. أتوسّل إليك، اصرفه من ذهنك".

فانحنى، وحاول أن يرفعها مُدركاً أن الناس ينظرون إليهما ويشيرون بالبَنــان. هزّت كتفها لتُبعد يدَه، ودنت منه أكثر فأكثر وهي تجرّ رُكبتَيها حــتى لامســته، والدموع تسيل على خدَّيها.

"إذا كان باستطاعتك إعادة فتانا بطريقة ما، فاذهب مع كل بركــة يمكــنني منحك إياها"، وغصّت. "سأرافقك حتى نهاية الأرض ومــا وراء الأرض. ولكــن ذلك لن يُعيد "علي". إنك تسعى للثأر بسبب حادث رهيب...".

"لم يكن حادثاً يا زينَب. لقد قُتِل. أنتِ لا تعرفين القصة...".

"أعرف أن ابني مَيت. وإذا كان غير موجود هنا الليلة، فزوجي لن يكون موجوداً أيضاً! ألم تعانِ عائلتنا من مِقدار كافٍ من الألم؟ إذا لم يكن لأجلي، فلأجل ابنك وابنتك؛ يوسف وبطّاح اصرف ذلك من ذهنك. لقد سبق لهما أن فقدا شقيقاً. أرجوك، أرجوك، لا تُضِف والداً إلى القائمة!".

"لن يفقدا...".

"بلى يا يوسف. أعرف ذلك، أنا أشعر بذلك. لقد وقفتُ بجانبك في كل الأمور المجنونة والخطيرة التي قمتَ بها في السنوات التي قضيناها معاً لأنك ألطف رجل في العالم، وأعلم أن ما تقوم به نابع من الصلاح في قلبك".

وضربت صدرها بيدها.

"ولكن هذا الأمر، يا يوسف، هذا... أيّاً يكن ما تخطط له، فهو لا ينبع من الصلاح. أرى ذلك في عينَيك. إنه نابع من الغضب، والكره، والألم، ولا يمكن إلا أن يؤدّي إلى المزيد من الألم. إذا كان ما تقوله صحيحاً، فالله سيعاقب المسؤولين عن موت ولدنا. فهو، سبحانه وتعالى، سيعاقبهم، وليس أنت. سينتهي الأمر بمأساة يا يوسف. أعرف ذلك، أعرف ذلك. ولا يمكنني تحمّل مأساة إضافية في حياتي. أيٌّ منّا لا يستطيع تحمّل ذلك".

وشرعت بالنشيج، متمسكةً بساقَيه كما يتمسك طفل خائف بوالدَيه.

"أتوسّل إليك يا يوسف، من زوجة لزوجها، من والدة لوالد، من صديقة لصديقها: لا تذهب الليلة. أتوسّل إليك. لا تذهب. لا تتركني. ابقَ! ابقَ!".

على بُعد عشرة أمتار، تجمّع حشد صغير بجانب الشارع، مراقبين المشهد الدرامي. وكان أحدهم يحمل هاتفاً محمولاً ويصوّر المشهد. فلم يُعِرهم خليفة أي اهتمام، وهدّأ من رَوع زينَب، ثم ركع ورفعها.

"لا بأس"، همس، "لا بأس، يا حبيبتي. كل شيء بخير".

هدأت ببطء، فعاد إلى الوراء، ورفع وجهها، وأخرج منديلاً من جَيبه ومسح الدموع عن خدَّيها. مرّت لحظات قليلة أخرى وكانا لا يزالان راكعَين هناك، ممسكَين ببعضهما، وكل شيء خارج عالمهما المباشَر يخبو ويختفي؛ بقيا بمفردهما في فُقاعتهما الخاصة. وبعد ذلك، ساعدها على الوقوف برِفق، وشرعت بالابتسام، مفترضةً أنه تخلّى عن إصراره، ثم رأته ينظر إلى ساعته.

"آه يا الله! يوسف، ظننتُ...".

فرفع إصبعه ولمس شفتَيها، مُسكِتاً إيّاها. ففي أي وقت آخر من السنوات العشرين الأخيرة الماضية، كان توسّلُها هذا سيؤدي إلى ثَنيه عن مأرَبه بدون شك، والقيام بما تريده، والقفز عن جَرف إذا طلبت منه ذلك. ولكن أمراً ما أصابه في المنجم، وتغيّر شيء ما في داخله، و لم يعُد الشخص الذي كانه؛ لقد تبدّل وقسا.

"أحبك يا زينَب"، وغدا صوته فجأةً فاتراً وخالياً من الإحساس، "أكثر من أي شيء في العالم، ومن ابنَينا. أنت كل شيء بالنسبة إليّ، ولكنْ عليّ القيام بذلك لأجل علي. ولن يردعني عن القيام بذلك أي شيء تقولينه أو يقوله أي شخص آخر. سأعود صباح غد. إنه وعد".

ثم انحنى وقبّلها على جبينها. وبعد إلقائه نظرة أخرى على ساعته - إنها السادسة وثمانٍ وعشرون دقيقة؛ سيقوم باختصار المسافة - سحب دفتر مدوَّنات بينسكر من جيب قميصه وانطلق مُهروِلاً. وراءه، مدّ الرجل الذي يحمل الهاتف المحمول ذراعه وقرّب الصورة، مصوِّراً زينَب وهي تسقط على ركبتَيها وتغطي وجهها بيديها.

إسرائيل

"مرحباً يا آري. تلقّيتُ رسالتك. لقد وُعدتُ بتناول العشاء في مطعم رينات، ولكن يمكنك المرور بي في وقت لاحق إذا كنت تريد التحدث، ويمكننا تناول الفطور معاً إذا شئت. إذا كنتَ جدّيّاً في شأن العمل الجديد، والانتقال إلى حيفا... فسنناقش ذلك. أنا أنتظر اتصالاً منك. شالوم".

سمع بِن - روي البريد الصوتي عبر الهاتف، ممسكاً الهاتف بيده اليسرى وباحثاً بيده اليمنى عن لوحتَي السيارة الحمراوَين الخاصّتَين بالشرطة في صندوق التويوتا، ومن ثم شغّل الرسالة التالية.

"بيي. أس. *غام أني أوهيفيت أوتشا*. أحبك أيضاً، أيها الرجل الكبير، بالرغم من بذلي أفضل الجهود كي لا أحبك".

أغلق الصندوق، وباب السيارة، وألصق إحدى اللوحتَين الممغنطتَين على الهيكل الخلفي للسيارة، محاولاً في الوقت نفسه تصوّر أفضل طريقة للإجابة على الرسائل؛ أينقل لها أنه وبالرغم من حبه لها أكثر من أي شيء آخر، فهو سيخذلها مرة أخرى. لم يكن باستطاعته التفكير ملياً بالكلمات المناسبة ليبدو أنه لا يخذلها؛ عذر آخر. ومع تبخّر الوقت، قرر إرجاء الموضوع حتى يصبح على متن الطائرة. وحاول الاتصال بخليفة للمرة الأخيرة، ومن ثم وضع الهاتف في جَيبه، وألصق اللوحة الأمامية، وانطلق بأقصى سرعة في اتجاه قاعة المغادرين في مطار بِن-غوريون الدولي.

إنه عمل جنوني أخرق، ولكنها الخطة الوحيدة التي استطاع وضعها في هذا الوقت القصير. لم يكن المصري يردّ على اتصالاته. وينطبق الأمر نفسه على صديقه داني بيرلمان، ضابط الارتباط بين أقسام الشرطة، مما يعني أن لا اتصال مباشَر لديه مع السلطات المصرية. وحتى لو تمكن من الاتصال بها، فما الذي سيقوله لها؟ إن مجموعة مناهضة للرأسمالية على وشك شنّ هجوم على الأرض المصرية؟ بمساعدة أحد ضباط الشرطة لديها، وبتحريض منه. لم يظنّ أن هذا الأمر سيكون لصالح خليفة، حتى لو أنقذ حياته.

في النهاية، شاعراً باليأس، وعاجزاً عن التفكير في أي بديل آخر، اتصل بشركة طيران العال. كانت لديها رحلة جوّية أسبوعية واحدة إلى الإسكندرية؛ تلك التي حجزت ريفكا كلينبرغ مقعداً على متنها. ولكنها ستنطلق في الليلة التالية، مما يعني أن الشرَك سيكون قد أطبق على خليفة وتلقّى رصاصة في رأسه. الخيار الوحيد الآخر المتاح له هو السفر باعتماد شركة النقل المصرية، إير سيناء، وهي شركة تابعة لإدجيبت إير. فاتصل بها، غير معلّق آمالاً كبيرة. ولكن تشاؤمه كان في غير محلّه بفضل وجود رحلة في تلك الليلة عند السابعة وعشر دقائق مساءً تصل إلى الإسكندرية عند الثامنة وخمس وأربعين دقيقة مساءً. حاول باضطراب التفكير بطريقة سهلة لمساعدة صديقه. فهو لم يتوجّه إلى الجدار الغربي للتعبد، ولم يتوصّل إلى فكرة مناسبة، ومع تكتكة الساعة ومرور الوقت، حجز مقعداً له. لقد جاب أرجاء المنزل للحصول على جوازه، ومن ثم قاد كالمجنون إلى مطار اللّد، ووصل قبل سبع عشرة دقيقة من الإقلاع. ربما كان الإسراع أمراً جيداً. فعلى

غرار خليفة الذي دخل المنجم من دون استعداد، ما كان بِن - روي لِيقوم بهـذه الخطوة مطلقاً لو فكر مليّاً في ما سيقوم به.

كانت كل طاولات التفتيش التابعة لإير سيناء فارغة لأن النداء الأخير لموعد الانطلاق أُذيع منذ فترة طويلة. وما كان شخص مدني ليتمكن مطلقاً من بلـوغ الطائرة، ولكنه تمكن من القفز فوق الشريط الأحمر وعبور البوّابة، مستعيناً ببطاقة التعريف التابعة للشرطة. وتوقف عند الفتاة التي تتفحص بطاقات ركوب الطائرة، والتي لم تسمح له بالمرور إلا بعد أن اطلعت على المعلومات المرتبطة بـه علـى الكمبيوتر وطابقتها مع جواز سفره. وفي النهاية، تمكّن من حملها على الإذعـان. وكان لا يزال يربط الحزام في مقعده - بين امرأة عربية أكبر سنّاً ورجل مُفرط في الوزن يضع ذراعه تحت الحزام - عندما توجهت الطائرة إلى المدرج.

أخرج هاتفه المحمول. يمكن للأمور أن تصبح محمومة عندما يهبط في مصـر ويواجه عوامل إلهاء عديدة. وإذا كان يريد الردّ على رسالتي سارة، يُفتـرض بـه القيام بذلك في الحال. فأخفض رأسه وشرع بطلب رقمها بسرعة، آملاً ألا يـراه طاقم الطائرة، ولكنه بدّل رأيه وانتقل إلى صيغة الرسائل النصّـيّة. ولسـبب مـا يجهله - الضغط بسبب الوضع على الأرجح - بدت له صياغة الرسالة ذات أهمية كبيرة. لقد تطلّب منه الأمر التفكير بالكلمات طوال فترة استعداد الطائرة للإقلاع، ولم يبدأ بإدخال النص إلا بعد إقلاعها.

أحبكما كليكما. أكثر من أي شيء في العالم. أعد بأن أبقى علـى الـدوام لأجلكما. سأتصل غداً. سنكون أسعد عائلة على الإطلاق.

كان لديه وقت محدود لإضافة القُبُلات والضغط على زر الإرسال في أثنـاء هدير الطائرة على المدرج. وبعد ذلك، ارتفعوا عن الأرض وغادر الوطن الأم.

"لا يُفترض بك القيام بذلك"، حذّره الرجل الجالس بجانبه. "قد يشوّش ذلك أجهزة التحكم في الطائرة".

"أنت مُحِقّ"، قال بِن - روي. "آسف".

وأوقف الهاتف عن العمل، وأسند ظهره، وحدّق بالسقف، وشـعر بـوخز الدموع في عينَيه بطريقة لا يمكن تفسيرها.

* * *

كان وليام بارين يحدّق أيضاً بسقف الطائرة، ولكنها إحدى طائرات الشركة من طراز غولفستريم جي650 أس، و لم يكن يشعر بالتأكيد بوخز في عينَيه بسبب الدموع، بل كان يشعر بأنه أفضل مما كان عليه طوال حياته. فلحظة الذُّروة تقترب بسرعة. سيبلغ الأمر الذُّروة أخيراً... بعد كل تلك السنوات من التخطيط، وتدبُّر المكائد، والمناورة، سيكون هذا أفضل مما أنجزه مع أولئك المومِسات اللواتي لم يبلُغنَ السنّ القانونية في وسط مدينة هيوستن. إنها مُتعة مؤجَّلة.

وحرّك كوبه المليء بالشراب بشكل دائريّ. فبالرغم من أن حضوره لم يكن مطلوباً بقوة، شعر فجأةً بأنه يحتاج إلى أن يكون بجانب الحدث. ليس وسطه بل بجانبه؛ فالآخرون سيقومون بالعمل القذر. قبل ساعات قليلة، كان مسترخياً في ظُلّته، وها هو الآن في طريقه. هذا ما كانت الشركة بحاجة إليه منذ مدة طويلة، القليل من العَفوية. فالإجراءاتُ التي يتّبعها والده لاتخاذ القرارات جليدية، و لم يكن يرتجل. لكن كل ذلك سيتغيّر عندما يصبح، هو وليام، في سُدّة المسؤولية. القليل من الأعمال التلقائية العفوية، والقليل من المرونة. ففي ظل قيادته، ستكون بارين شركة مختلفة. ولكن، لا يزال هناك حيوان مفترس، وبعض الأمور لم تتغيّر. بعض الأمور لا تتغيّر بسهولة.

ارتشف شرابه، ووضع هاتفه المحمول على ذراع المقعد، فيما دنا منه أحد أفراد الطاقم وزوّده بمعلومات عن الرحلة. سيصلون قبل عشرين دقيقة من الوقت المحدَّد. فشكره وليام وغاص مجدَّداً في الجِلد الأبيض، محملِقاً بالهاتف، الهاتف الخاص، ذلك الذي سيتلقى عليه الاتصال في وقت قريب.

بعد ثمانٍ وأربعين ساعة ستسوّى كل أعمال العائلة. فابتسم وتناول رشفة أخرى، وكانت الحُجرة تتذبذب برِفق من حوله. إنه يشعر بأنه أفضل مما كان عليه طوال حياته.

مصر

لو رفع خليفة نظره في أثناء توجهه بخطى واسعة إلى داخل محطة الواصلين بعد التاسعة مساءً لرأى شخصاً مألوفاً يحتجّ لدى مسؤولي الأمن في الجانب البعيد من القاعة. ولو توجّه إلى ذلك الشخص وتحدّث إليه لَتجنّب الكثير من الغَمّ.

لكنه لم يرفع نظره. كان شديد الانشغال بهاتفه الخلوي، وهو يُصغي إلى التفاصيل التي تزوّده بها المرأة المنتمية إلى نِمسيس حول المكان الذي سيلتقونه فيه. وعندما أنهت المكالمة، كان يعبر بوابة الخَروج من المطار، وأُغفلت الفرصة العابرة الوحيدة لتفادي المأساة.

خارج المحطة، لوّح بيده لسيارة أجرة، وطلب من السائق - وفقاً للتعليمات - أن يُقلّه إلى الشرق في اتجاه روزيتا. حاول الرجل التحدث إليه، سائلاً إيّاه عن عائلته، وعمّا يفعله في هذا الجزء من العالم، وعن رأيه بالحكومة الجديدة. كانت إجابات خليفة تمتمات متذمّرة، وبعد اجتياز كيلومترات قليلة، شهر شارة الشرطة بعد أن سئم من أسئلة الرجل.

لقد احتاجا إلى بعض الوقت للخروج من المدينة. وما إن عبرا جسراً طويلاً فوق بحيرة يقوم على أطرافها نبات قصَب حتى أصبحت الشقق والمعامل ومصافي النفط وراءهما؛ مفسحةً المجال لمنظر طبيعي مؤلَّف من شُجَيرات ملتفّة حمراء مائلة للاصفرار، وحقول قطن، وغَيضات نَخيل وحمضيات. كان خليفة يدخّن ويحدّق خارج النافذة، ويفكّر بابنه.

في منتصف الطريق إلى روزيتا - كما جاء وصف المرأة المنتمية إلى نِمسيس تماماً - مرّا بمحطة نفط موبيل مُضاءة بالنّيون، تلتها سياجات خشبية عملاقة للإعلانات قائمة إلى جانب الطريق يحمل أحدها إعلاناً لأحذية بيار كاردان، والآخر إعلاناً لكيه أف سي. فطلب من السائق التوقف، ودفع له التّعرفة، ثم خرج، وسار مسافة خمسين متراً على الطريق، ووقف بجانب كومة من القصَب المقطوع على صورة خيمة مخروطية الشكل. مرّت ثلاثون دقيقة. ومن ثم، انحرفت سيارة تويوتا لاندكروزر بيضاء خارج الطريق العام، وتوقفت فجأةً أمامه. وفي الوقت نفسه، كان هناك صوت وَقع أقدام في غَيضة نَخيل وراءه، وظهرت شابة من الظلال.

"إلى الداخل"، قالت مشيرةً بيدها في اتجاه الباب الخلفي المفتوح للاندكروزر.

فقام خليفة بما طُلب منه. وانزلقت المرأة على مقعد الركاب الأمامي، وأعادهما السائق إلى الطريق العام؛ رجل نحيل ذو مظهر عربي مع سيجارة متدلّية من زاوية فمه.

"كنت قد بدأت أظنّ أنكم لن تأتوا"، قال خليفة بعد أن انطلقوا بأقصى سرعة.

"كنا بحاجة للمراقبة قليلاً"، شرحت المرأة، دائرةً نحوه لتنظر إليه وجهاً لوجه، "والتأكد من أنه ليس هناك من يتبعك".

ومدّت يدها.

"دينا، وهذا فاز. أنا سعيدة لأنك استطعتَ الانضمام إلينا".

فصافحها خليفة.

"يوسف خليفة".

"أعرف"، قالت. "كنا نُصغي إلى اتصالاتك، هل تتذكّر؟ أهذا هو دفتر المدوَّنات الذي كنتَ تتحدث عنه؟".

وأشارت إلى الدفتر الجلدي الذي يظهر جزء منه خارج سترة خليفة. فأومأ برأسه.

"حافظ عليه. سنقرر في وقت لاحق ما سنفعله به".

"أنتما فقط؟".

"الآخران عند الشاطئ يستطلعان الحوض".

"ما هي الخطة؟".

فهزتّ كتفَيها بطريقة ملتبِسة.

"في الوقت الحاضر، ليست هناك خطة. من المتوقع وصول السفينة في منتصف الليل. واستناداً إلى المعلومات التي جمعناها من نظام زوسِر، إنها تأتي مرةً واحدة كل شهر، وتُفرغ حمولتها من النفايات، ثم تغادر بعد ذلك لإحضار المزيد، في حين تقوم صنادل زوسِر بالعمل بالتناوب ناقلةً عبر النيل ما تمّ تسليمه. وفقاً لما تبدو عليه العملية برمّتها على الأرض في الواقع...".

وهزّت كتفَيها مجدداً وتابعت:

"سنضع المخطط شيئاً فشيئاً".

واستدارت، وبحثت داخل صندوق القُفّازات، وسلّمت خليفة مسدساً.

"أتعرف كيف تستخدم هذه المسدسات؟".

"بالطبع".

"آمل ألاّ نكون بحاجة إليها. ولكن، لا يمكننا القيام بأي مجازفة. لا نعرف ما الذي سنصادفه هناك".

وزن خليفة المسدس بيده. إنه غلوك وفقاً لمظهره. فراقبته، ووجهها الشاحب ينتقل بين الظل والنور مع مرورهم تحت أنوار مصابيح الطريق العام. وساد الصمت، ومن ثم:

"أنتَ تجازف بالقدوم إلى هنا وبربط مصيرك بمصيرنا. فكما قال صديقك، نحن خطيرون ومتهوّرون".

"صديقي السابق"، صحّح خليفة، واضعاً المسدس جانباً، وساحباً علبة سجائر كليوباترا. "وسأجازف".

والتقت أنظارهما للحظات. وبعد ذلك، وبإيماءة بالرأس، استدارت إلى الأمام. فأنزل خليفة زجاج نافذته وأشعل سيجارة. لم يُقَل أي شيء طوال ما تبقّى من الرحلة.

دخلوا روزيتا بعد عشرين دقيقة، وكانت الساعة قد تخطّت العاشرة والنصف. وبدا الأمر كما لو أن فاز يعرف المكان الذي يقصدونه، سالكاً بثقة شبكة معقّدة من الشوارع الوضّاءة وكثيرة الصخَب، وخارجاً إلى الجانب الآخر من البلدة، حيث سلكوا طريقاً ضيّقاً معبَّداً، وتوجهوا شمالاً نحو الشاطئ. كان النيل يتتبّعهم إلى اليمين؛ واسعاً وأسود ومرقّطاً بمراكب وعوّامات مَزارع السمك العائمة. وهناك منازل وأهراءات مبعثَرة في الطرف المقابل، وتقوم على امتداد خط الشاطئ سلسلة من المصانع المبنيّة بالآجر، وتظهر إزاء سماء الليل المداخن المسودّة بفعل الدخان كما لو أنها بقايا غابة مدمَّرة. وبعد مرورهم بقرية قايتباي، اختفت المباني، وظهرت حقول الذُّرة بعيداً، وغَيضة نخيل غير عاديّة، وتوهّجٌ غير واضح على صورة قُبّة يوحي بوجود تجمّع أضواء في مكان ما قرب مصبّ النيل. *إنه حوض زوسِر*، قال خليفة لنفسه، وتسارع نبضه.

قطعوا بضعة كيلومترات إضافية، متيقّظين، ومُطفئين مصابيح السيارة، وسائرين بسرعة منخفضة، والتوهّج يزداد بريقاً باستمرار. وبعد ذلك، عندما ظهرت نقطة أمنية مُضاءة في الأمام، غادروا الطريق، سالكين درباً ضيّقة. وبعد بضع مئات من الأمتار، نفذ فاز تدريجياً إلى بَراح وسط غَيضة نَخيل. لقد بدا

المكان كما لو أنه رُتِّب مُسبَقاً لأن سيارة لاندكروزر أخرى كانت في انتظارهم، ويقف شخصان بجانبها: رجل ذو لياقة بدنية، وامرأة قصيرة الشعر. فتوقفوا وراءهما وخرجوا، وجرت عملية التعريف.

"إذاً، ما هو وضعنا؟" سألت دينا.

"وضعنا ليس سيّئاً"، قال الرجل، "عِلماً أننا نحتاج إلى المزيد من الوقت".

"ليس لدينا متسع من الوقت. فإما الليلة أو سيتوجب علينا الانتظار شهراً آخر".

فسلّم الرجلُ بوجهة النظر هذه، ولوّح لهم في اتجاه جهاز كمبيوتر حضني موضوع على غطاء محرّك اللاندكروزر الثانية، وعلى الشاشة فسيفساء من أربع عشرة صورة فوتوغرافية، هي على الأرجح ثمرة مهمة الاستكشاف التي قام بها مع المرأة قصيرة الشعر. كبّر الصورة الأولى؛ النقطة الأمنية التي كانوا قد رأوها، فظهر سياج مرتفع ممتدّ من الجانبَين تعلوه لفافات وأسلاك شائكة. وفي الخلفية، في اتجاه النهر، ظهر ما بدا أنه صف من المستودعات التي تظهر فوقها الأجزاء العُلوية لرافِعات.

"السياج يلتفّ حول الموقع"، استهلّ كلامه. "ثلاثة حراس عند البوّابة...".

"هل هناك عناصر من الجيش؟" سأل خليفة.

فأومأ الرجل برأسه.

"إنهم مجنَّدون يراقبون التحرّكات ليس إلا".

"هذا ما يبدو عليه الأمر بالتأكيد. فأحدهم نائم والآخران يشاهدان التلفاز، وهناك شخصان يقومان بدَوريات في الداخل، ولكنهما لا يبدوان مهتمَّين بصفة خاصة، وتفصل بينهما مسافة بعيدة. السياج غير مكهرَب، ولا نرى كاميرات أمنية. يمكننا اختراق السياج بدون مواجهة أي مشكلة".

"كم يَبعد الرصيف؟" سألت دينا.

"نحو 750 متراً. إنه أرض مفتوحة، ولكنْ هناك الكثير من الكُثبان الرملية والشُّجَيرات الملتفّة التي توفر غطاء مناسباً. يمكننا العبور بدون أي متاعب".

وعرض صورة أخرى لرصيف إسمنتي ممتدّ تقوم على أحد جانبَيه مستودعات، وعلى الجانب الآخر مياه متموّجة تحت ضوء القمر حيث يصبّ النيل في البحر.

وعلى بُعد مئة متر من الشاطئ، توجد مكعَّبات إسمنتية ضخمة أُغرقت لإحداث حاجز أمواج وقائي. وعلى الرصيف نفسه ثلاث رافعات عملاقة ذات أذرع بارزة ممتدة فوق الماء.

"كما يمكنكم أن تروا، إن المكان مُضاء جيداً، وهناك أشخاص في مختلف أرجائه. عمّال في الحوض بصورة رئيسة، وبعض عناصر الأمن".

وضغط بالفأرة مرة أخرى، فظهرت على الشاشة صورة تليفوتوغرافية لرجل قويّ البنية يرتدي سترة جِلدية، ويحمل مدفعاً رشّاشاً يدويّاً من طراز هيكلر إند كوش أم بيي5.

"إنه حارس خاص وفقاً لمظهره. ليس هناك شيء لا يمكننا التعاطي معه. توجد مواقع جيدة للتصوير هنا، في الجانب القريب من الرصيف...".

وعاد إلى الصورة السابقة.

"وهنا بين هذه المستودعات...".

وعرض ثلاث صور فوتوغرافية إضافية: صورة لمجموعة رافعات بعيدة مجمَّعة في فجوة بين مبنيَين من المستودعات، وصورة مكبَّرة للرافعات، وصورة ملتقَطة من وراء الرافعات للناحية الوسطى للرصيف في اتجاه الماء.

"الأمر برمّته قابل للتنفيذ بطريقة مُتقَنة، ولكن المشكلة تكمن في الاقتراب من السفينة. يمكننا التقاط الصور عن بُعد، ولكن الصعود على متنها والقبض على أحد أفراد الطاقم سيكونان عسيرين نظراً لكمية الأضواء المُسلَطة. ربما تكون هناك طريقة لفعل ذلك، ولكننا لن نعرف بالتأكيد حتى ترسو السفينة ونتبيّن ما يمكننا القيام به. حتى ذلك الحين، نحن نتوقّع فقط".

فأومأت دينا برأسها مُلقيةً نظرة سريعة على ساعتها، ثم انحنت إلى الأمام فوق غطاء محرك السيارة وشرعت بتقليب الصور واحدة تلو الأخرى، معوّدةً نفسها عليها. وانضمّ إليها أصدقاؤها. وبقي خليفة وراءهم على بُعد خطوة واحدة. إنهم الخبراء، أما هو فموجود لتقديم المساعدة.

مرت دقائق عدة، واهتزّت سُعَف النخل فوقهم مع هبوب ريح خفيفة آنيّة تحمل معها رائحة مِلح متميِّزة. ومن ثم، وقفوا معاً بشكل مستقيم.

"حسناً، لِنقُم بذلك"، قالت دينا.

واستدارت نحو خليفة.

"سنكون بحاجة إلى شخص ما يقف قرب السياج، ويحمي ظهورنا عندما تبدأ العملية. هل يمكنك القيام بذلك؟".

"سأتوجّه إلى الرصيف"، قال خليفة مُدركاً أنه بدا كفتى سريع الغضب، ولكنه راغب في أن يكون في قلب العملية، لا بل *يحتاج* إلى أن يكون في قلب العملية. فابتسمت، وفاجأه الأمر.

"توقعت بطريقة ما أنك ستقول ذلك. حسناً، فاز، أنت ستقف في الخلف لحمايتنا. غيدي، تامار، تمركزا في نهاية الرصيف. وأنا ومجنّدنا الجديد سنتّخذ من المستودع موقعاً لنا. هذا ما يمكننا التخطيط له في الوقت الحالي. عدا عن ذلك، سيكون علينا الارتجال".

أنزلوا تجهيزاتهم - كاميرات، أجهزة لاسلكي، مِدفعان رشاشان يدويان من طراز عوزي - ووزعوها على بعضهم. وبعد ذلك، أقفلوا السيارتين وانطلقوا سيراً على الأقدام، وكل منهم يحمل حقيبة ظهر، وأياديهم ووجوههم ممرَّغة بتراب مبتَلّ ليكونوا أقل عُرضة للمشاهدة. كان خليفة سيسخر من نفسه لو لم تكن الرهانات مرتفعة. وفي مكان ما من النهر، سُمع صوت بوق صَندل. فلوى إصبعه على زِنبرك الغلوك وصرف أسنانه، مقتنعاً بأنه يقوم بالصواب.

بعد عشرين دقيقة، كان كل منهم في موقعه. أمّا هو ودينا فقد عبرا السياج بدون أي متاعب، والتفّا وراء المستودعات من الخلف، وتسلّقا مجموعة صناديق الشحن البحري، وثبّتا الكاميرا الفيديوية. أمامهما، كان الرصيف مغموراً بالأضواء، أما الرافعات فموجودة في الخلف وغارقة في الظلال. لقد شعر خليفة بالأمان على نحو مثير للفضول. كان يراقب كل ما يحصل كما لو أنه غير موجود هناك في الواقع. واتصل الثنائي الآخر عبر جهاز اللاسلكي ليقولا إنهما باتا في موقعهما أيضاً في الطرف البعيد للرصيف. كانت الساعة هي الحادية عشرة واثنتين وأربعين دقيقة، وفقاً لساعة خليفة. وكل ما عليهم القيام به هو الانتظار.

"أتعتقدين حقاً أن باستطاعتنا النَّيل منهم؟" سأل محدِّقاً برصيف الميناء. "هل سيكون لكل هذه الاستعدادات أي فعالية؟".

"ما كنتُ لأقوم بذلك لو لم تكن ذات فعّالية".

وأخفضا رأسَيهما مع مرور شاحنة عملاقة ذات رافعة شـوكية أمامهمـا. وعندما رفعا رأسيهما مجدداً، شعر بيدها على ذراعه.

"كان يُفترض بـي قول ذلك منذ البداية. آسفة لما حصل لابنك".

لقد بدا الأمر كما لو أن ملامح وجهها لانت للحظات، عِلماً أن عينَيها بقيتا باردتَين لا تلينان. وبعد ذلك، أنـزلت يدها وأشاحت بنظرها.

عند مصب النهر، كان الضباب قد بدأ بالتجمّع، منجرفاً فوق الماء كهبّـات البخار.

***

نفق ضوء؛ هذا ما يبدو لي عندما أقترب من تنفيذ عملية تطهير. نفق طويـل من الضوء عند أحد الطرفَين، والهدف عند الطرف الآخر، وكل شـيء آخـر في الخارج. إنه تركيز تامّ حتى إتمام العملية، وبعد ذلك يمكنني الخـروج مـن النفـق والعودة إلى الإدارة اليومية للأمور.

بالطبع، هناك فوارق هذه المرة. فأنا لست بمفردي كمـا جـرت العـادة. والفوضى التي يتعيّن إزالتها أقرب إلى المنـزل. إنها *في المنـزل* إلى حد ما، بالرغم من المسافات القائمة. ومن الطبيعي أن تكون لديّ مهام أقوم بها، وإلهاءات، وهـي أمور تنفرد بها عملية التطهير هذه.

بالرغم من ذلك، أجد نفسي في النفق داخل رأسي. لا مزيد من الشكوك، لا مزيد من الأسئلة، لا مزيد من القلق. أرى هدفي بوضوح - كيف لا وهو خلفـي مباشَرةً - وأتوجّه إليه باطّراد. سينتقل إلى مكان قريب ما بين بين، وسيكون بمأمن حينها، عِلماً أن ما يوجد هناك يبقى غير مرئي. إنه نظام مختلف بالتأكيـد. مـن يعلم؟ حتى إنه قد يكون هناك أطفال؛ وقع أقدام بالغة الصِّغَر. آمل ذلـك. لقـد أحببت الأطفال على الدوام، فهم يثيرون شعوري بـ... الطِّيبة.

ولكن، عليّ الاستمرار لمدة أطول بلعب دوري، والالتزام بالتمثيلية. لن تعرفوا أبداً من ملامح وجهي ما سأقوم به بعد وقت قريب، ولا بعد مليون عـام. طالمـا كنت، وما زلت، المؤدّي البارع.

***

في النهاية، رست السفينة قبل الواحدة بقليل. كانت هناك سلسلة من الأبواق البعيدة، وازداد النشاط على الرصيف فجأةً، وسُمع صوت بوق كهربائي، وشُغِّلت المحرّكات، وكان عمّال الرصيف يتنقّلون بسرعة ذهاباً وإياباً.

قُبالة الشاطئ، كانت سماكة الضباب تزداد باطّراد، وتوارى مصبّ النهر وراء حجاب رمادي أشبه بالشاش لا يمكن اختراقه. كانوا يراقبون ازدياده بقلق، خائفين من قيامه بغمر الرصيف وجعل التصوير أمراً مستحيلاً. ولكنهم شعروا بالارتياح بعد تراجعه، مُرسِلاً خُصَلاً قليلة إلى اليابسة لامست الأرض المحاذية للرصيف البحري، والتفّت حول قاعدة إحدى الرافعات. كان معظم الضباب فوق الماء، وسيختلف الوضع إذا هبّ الهواء، ولكن رؤيتهم واضحة في الوقت الحاضر. رفعت رفيقة خليفة جهاز اللاسلكي إلى فمها، وضغطت على زرّ التحدّث.

"هل الجميع جاهزون؟".

جاهزون، جاء الجواب.

"فاز؟".

وأعلن صوت فظّ أن قافلة من الناقلات العاملة بالمازوت قد عبرت البوّابة الرئيسة للتوّ، وباستثناء ذلك كل شيء هادئ وراءهما.

"حسناً، استعدّوا".

تواصل إطلاق البوق؛ خُوار غامض ومخيف صادر من داخل الضباب كصوت وحش بحريّ بدائي. ومرّت خمس دقائق. ومن ثم، انشقّ الضباب كما لو أنه تمّ استخدام فأس عملاقة، وظهرت مقدّمة سفينة عملاقة إلى يسارهم، وانزلقت ببطء في اتجاه الناحية الأمامية للرصيف كجدار شاهق من الفولاذ الأسود، وبقي الجزء الخلفي منها ضائعاً في الظلمة حتى بعد أن بلغت مقدّمتها الشاطئ. واصلت التقدّم، وتواصل ظهور المزيد منها، وبدت كبيرة ومهدِّدة، إلى أن انزلق برج الربّان أخيراً خارج الضباب، وظهرت السفينة كلها. فبطول ثلاثمئة متر وارتفاع مجمَّع سكني، بدا كل شيء تحتها صغيراً؛ ولا سيما عمّال التحميل والتفريغ المستعجلين الذين كانوا أشبه بالنمل. وعلى مقدّمتها صورة حورية بحر بشعرها المنساب كما لو أن الريح تعبث به. وبجانب الصورة اسم السفينة بحروف بيضاء: عذراء المحيط.

أصدرت الكاميرا الفيديوية أزيزاً مع شروع رفيقته بتسجيل المشهد.

اندفعت السفينة باتجاه الرصيف يقطرها زورقان. ودارت المحركات بصورة معكوسة، وأُلقيت الحبال إلى الأسفل ورُبطت، وأُنزلت السلالم من مقدّمة السفينة إلى مؤخرها، وسُمع هدير الهيدروليكا بالتزامن مع انفتاح كُوّات على ظهر السفينة وانغلاقها. وتحرّكت آلات الرَّفع في الرافعات إلى مكانها وانخفضت.

مرّت ثوانٍ قليلة أخرى. وبعد ذلك، بدأت براميل معدنية بالظهور ببطء، وكانت موضوعة بترتيب على منصات فولاذية نقّالة ضخمة تحتوي كل منها على مئة برميل. كانت الرافعات الشوكية تنقلها تحت جُنح الظلام في اتجاه الشاطئ وتُنزلها على الرصيف.

"هل تصوّرين هذا المشهد؟" طقطق جهاز اللاسلكي.

"بالتأكيد"، أجابت رفيقة خليفة، مقرّبة الهاتف من فمها ليُسمَع صوتها. "كل ما نحتاج إليه هو ابتعاد الضباب قليلاً، ومن ثم تغطيته المكان برمّته. وبهذه الطريقة، ربما سنحظى بفرصةٍ للصعود إليها".

وفي أثناء تحدّثها، شعر خليفة بالنسيم يلفح وجهه، ومن ثم اختفى، وما لبث أن عاد بقوة أكبر، نافشاً شعره، وحاملاً الضباب أمامهما على الانتفاخ والانجراف كستارة متماوجة، وعلى الزحف فوق السفينة.

"دقائق قليلة إضافية فقط"، همست رفيقة خليفة. "دقائق قليلة إضافية فقط وعندئذٍ يمكننا...".

لم تُنهِ الجملة. فقد كانت بجانبه منذ لحظة، وفي اللحظة التالية طارت عن صندوق الشحن البحري الذي كانا يقفان عليه، فاستدار. كانت الأرض موجودة وراء مجموعة الرافعات في الظل، ولم يتمكن من رؤية ما يحدث على الفور، باستثناء وجود شخصَين هناك: المرأة وشخص آخر أكبر حجماً منها يثبّتها على الأرض. فقفز، ورفع الغلوك استعداداً لضرب المهاجم على رأسه، ولكنه تسمّر في مكانه عندما ناداه صوت مألوف.

"تراجع يا خليفة. هذا أنا".

وظهر وجه عريض الفكين، لم يرَه منذ أربع سنوات، ولكنه عرفه على الفور. والتفت الوجه إلى المرأة.

"الآن يا *راشيل*، أعتقد أن الوقت قد حان لتخبري صديقنا عمّا تفعلينه هنا في الواقع".

* * *

كانت خطة بِن - روي - هذا إذا كانت لديه خطة - الوصول إلى الرصيف بأسرع وقت ممكن، وتحديد مكان خليفة، وإخراجه من هناك قبل أن يُصاب بأي أذى.

غير أن الأجهزة الأمنية في الإسكندرية كانت لديها أفكار أخرى. فقد احتجز لأكثر من ساعتَين، بعد الارتياب به بسبب كونه إسرائيلياً، ولأن موعد رحلة العودة في اليوم التالي، ولأنه لم يحجز في فندق، وبالإضافة إلى كل ذلك لأنه لا يملك تأشيرة دخول رسمية. كان باستطاعته أن يُخبرهم بالحقيقة، وبأنه شرطي موجود هنا لمساعدة أحد رجال الشرطة لديهم الذي يسير بشكل أعمى في اتجاه الشّرك. لقد شعر أنه من شأن هذا الأمر أن يعقّد المسائل ويورّطه في شبكة لا نهاية لها من الشرح. وعوضاً عن ذلك، ادّعى الغباء وتمسّك بقصته قائلاً إنه يريد لقاء صديق قديم من الأُقصُر، وقد تمّ تدبّر الأمر برمّته في الدقيقة الأخيرة، وكان واثقاً أنه باستطاعته الحصول على تأشيرة دخول مؤقتة لدى وصوله. كان العُذر واهياً إلى أقصى حد، وخشي ألاّ يصدّقوه وأن يعتبروه جاسوساً. وكان أمله الوحيد أن يتحققوا من يوسف خليفة ويدركوا أن شخصاً ما بهذا الاسم قد طار بالفعل من الأُقصُر في تلك الليلة، فتثبُت صحة قصته. وبعد انتظار مؤلم، قاموا خلاله بتحرّياتهم كما يبدو. كانت هناك تمتمة مثيرة للشك ونظرات عابسة - مثال بسيط عما يواجهه المسافرون العرب في إسرائيل - ولكنهم ختموا جواز سفره في نهاية المطاف وسمحوا له بمواصلة رحلته.

"احرص على أن تكون على متن تلك الرحلة غداً"، كان أحد مسؤولي الأمن قد قال له ذلك بطريقة تهديدية. "ثِق بي، كلما أسرعت بالخروج من هنا كان ذلك أفضل"، جاء جواب بِن - روي بصوت منخفض.

كان قد سحب رزمة من المال من صرّاف آلي تابع لأحد مصارف الإسكندرية، واستقلّ سيارة أجرة إلى روزيتا، ومن ثم إلى الشمال في اتجاه مصبّ

النيل حيث يوجد الرصيف الذي كانت المرأة المنتمية إلى نِمِسيس قد حدّدت مكانه. وفي أثناء اقترابهما من الشاطئ، بدأ السائق يثرثر بالعربية، قائلاً إن الطريق مسدود ولا يؤدي إلى أي مكان، وإنه يُفترض بهما الاستدارة والعودة. فلوّح له بن - روي برزمة من المال وطلب منه مواصلة السير. وبلغا المكان الذي بدا منه المركز الأمني التابع للجيش. فتوقف السائق ورفض التقدّم.

"نهاية المطاف"، قال. "يوجد جندي. الأمر ليس جيداً".

فدفع له بن - روي التعرفة كاملةً وخرج. وفيما كانت سيارة الأجرة تستدير مغادرة هز السائق رأسه كما لو أنه يتعامل مع رجل مجنون. وكشفت مصابيح السيارة الأمامية عن درب ضيّق متّجه نحو غَيضة نَخيل، ومن داخل الغَيضة ظهر وميض أبيض، فتوجّه بن - روي إليه، ووجد سيارتَي تويوتا لاندكروزر مركونتَين تحت الأشجار؛ إنهما السيارتان اللتان كان قد رآهما في ميتزبي رامون بالتأكيد؛ عِلماً أنهما تحملان لوحات مصرية.

كانت نمِسيس هناك.

"أرجوكَ يا الله لا تجعلني أتأخر كثيراً"، تمتم.

وشقّ طريقه عبر الغَيضة، وخرج على بُعد عشرين متراً من سياج مرتفع. كانت هناك أنابيب من الأسلاك الشائكة في الأعلى تطرح نقطة استفهام كبيرة حول إمكانية تسلّقها. لا بد أن يكون أعضاء نمِسيس قد مرّوا عبرها، ولكنه قد يقضي دَهراً في البحث عن الفُتحة، وهو لا يملك الوقت الكافي للقيام بذلك. لذا، عاد نحو المركز الأمني، متتبّعاً حافة الغَيضة، ومنحنياً، ومفكراً في أنه ربما يكون بإمكانه الانسلال من دون أن يراه أحد. وفي تلك الأثناء، سُمع هدير محركات قافلةٍ من عشر ناقلات تعمل على المازوت على امتداد الطريق، وتوقفت أمام البوّابة. كانت الأخيرة قريبة منه، فقرر المجازفة. متخفياً بالظلال، دار حول الناقلة، وصعد السلّم الموجود في مؤخرها، واستلقى على سطح الناقلة المقوّس. أُطلق البوق، وبدأت القافلة بالتحرك.

لقد عبر.

وبعد دقائق قليلة، توقفت وراء المستودعات، فنزل بن - روي السلّم واندمج بالظلال. كان المكان برمّته أكبر مما توقّع، وخشي من أن يتطلّبه الأمر ساعات لتحديد مكان خليفة. فحينئذٍ سيكون الأوان قد فات لإنقاذه.

كان قد بلغ أحد أطراف الرصيف بعد أقل من عشرين دقيقة، وراقب السفينة وهي ترسو وراء رَبوة من السلاسل الصدئة، ومن ثم انكفأ عائداً من الطريق الأخرى. عثر على باب في الناحية الخلفية لأحد المستودعات، ففتحه وألقى نظرة سريعة داخله، كان المكان في الداخل شديد السواد مع رائحة قوية لزيت محركات. مُغلِقاً الباب، تَقدّم إلى الطرف البعيد للمستودع. كان المستودع الآخر على بُعد خمسة أمتار، وبين المستودعين ممرّ مُعشَوشب عريض يمتد حتى الرصيف، وقد سُدّ آخره بمجموعة من الرافعات يقف عليها شخصان. من الصعب التأكد تماماً من هويّتهما من هذه المسافة لأن أضواء الرصيف جعلتهما صورتَين ظلّيّتين، ولكن شيئاً ما أنبأه بضرورة مطاردة فريسته. ففكّر في الصراخ وتحذير خليفة، ولكنه كان يعلم أنها مسلَّحة، وفي الأمر مجازفة كبيرة. لذلك، اتجه نحوهما بحِرص شديد، وطقطقة الآلات وهديرها تغطي صوت وَقع خطاه. وحين أصبح على بُعد عشرين متراً، استدار أحد الشخصَين في اتجاه الآخر وتأكد من أنها هي. فتسمّر في مكانه، والتصق بجانب أحد المستودعات. وبعد أن أشاحت بنظرها، واصل تقدّمه ووقف وراءهما تماماً. لا إجراءات غير عادية. لا مُقدِّمات. لا تردُّد. مدّ يده، وأمسك حزامها وجذبها نحوه.

* * *

"ما الذي تفعله بحق الله يا بِن - روي؟ أفلتها. اذهب من هنا!".

أمسك خليفة وجه بِن - روي، فنطح بِن - روي يده ليُبعدها، وانتزع المسدس من يد المرأة، ورماه وراءه، ورفعها على قدمَيها ودفعها في اتجاه الممرّ إلى داخل الظلال بين المستودعات بعيداً عن الرصيف، فتبعهما خليفة، محاولاً الإمساك بذراعَي بِن - روي. هاجم بِن - روي المصري بقدمه وأصابه في ركبته، موقعاً إيّاه أرضاً.

"تراجع أيها الأحمق اللعين. سأشرح لك كل شيء. تراجع فحسب".

كانت المرأة تناضل وتركل، ولكنه كان يُمسكها بإحكام، واضعاً إحدى يدَيه حول ياقتها، وضاغطاً بالأخرى على ذراعها اليمنى وراء ظهرها. دفعها مسافة عشرين متراً، ومن ثمّ أوقعها أرضاً. كان خليفة قد وقف على قدمَيه، ومشى بخطى متعثّرة حتى أصبح وراء بِن - روي، ودسّ فوهة الغلوك في مؤخّر عُنُقه.

"أَفلتها!". صاح بغضب. "هل تسمعني؟ اتركها وإلا فليساعدني الله، سأطلق النار!".

"ليست كما تظنّ يا خليفة!".

"أَفلتها!".

تحته، كانت المرأة تقاوم وتتحرك كالسوط.

"اقتله!". قالت بغضب. "حباً بالله. سيُسلِّمنا!".

"لن أحذّرك مجدداً يا بِن - روي!".

"أصغِ إليّ!". هسهس الإسرائيلي. "لقد خدعت الجميع؛ أنتَ، جماعة نمِسيس... إنها مدسوسة. إنها عميلة بارين في الداخل!".

"إنه مجنون لعين!".

ورفعت نفسها بجهد، محاوِلةً تحرير نفسها. ولكن بِن - روي كان قوياً جداً. وألقى بكل وزنه عليها لإبقائها ممددة على الأرض، متنفساً بصعوبة. أدار وجهه، ومرّت فوهة الغلوك على امتداد فكّه السفلي واستقرّت عند ذقنه. كانت عيناه تشتعلان في الظلام.

"لقد مررنا بهذا الموقف من قَبل يا خليفة"، زمجر. "هل تتذكر؟ ألمانيا؟ كنتَ ستقتلني أيضاً حينذاك. ومن كان مُحِقاً آنذاك؟".

وحملق بالمصري.

"أصغِ إليّ. هذا كل ما أطلبه. اسمعني لمدة دقيقة فقط لأنك تحتاج إلى معرفة من تكون، وما تفعله. وإذا أردتَ أن تطلق النار عليّ بعد ذلك، فافعل".

كانت يد خليفة ترتجف. صحيح أنه لم يُبعد المسدس، ولكنه لم يضغط به بقوة على وجه بن - روي. لم يكن يثق بالإسرائيلي. لم يكن يثق به البتّة. فقد أهمل التحقيق، وتلقى رشوة للتخلي عن القضية. وفي الوقت نفسه، كان هناك شيء ما في نبرته وفي تعابير وجهه غير المتناسقة يحمله على التمهّل؛ لقد اتصل به من قَبْل. وساد الصمت، وتسمّر الثلاثة في أماكنهم كما لو أنهم مشهد في إطار؛ بن - روي يمسك بالمرأة، وخليفة يصوّب المسدس نحو بِن - روي. وبعد ذلك، أومأ خليفة برأسه قليلاً، مشيراً إلى أنه سيُصغي.

"كل الأمر متعلّق بالعائلات"، استهلّ بِن - روي كلامه، موجّهاً نظره إلى الأسفل، ومن ثم إلى الأعلى. "لقد أخطأتُ في شجرة العائلة. لقد اعتقدتُ أنها ابنة ريفكا كلينبرغ. لقد تطلّب الأمر تحرّياً أفضل منّي لاكتشاف الحقيقة. لقد ثُبت أنها ليست ابنتها على الإطلاق. إن ريفكا كلينبرغ عرّابتها. أليس كذلك يا *راشيل*؟".

ودفعها بخشونة، مشدّداً على الاسم مجدداً من دون أن يُشيح بنظره عن خليفة.

"كانت والدها وكلينبرغ صديقتين حميمتين، وقامتا بالخدمة العسكرية معاً، وبقيتا على اتصال حتى عندما حصلت والدها على عمل في الخارج؛ في السفارة الإسرائيلية بواشنطن في قسم الشؤون الثقافية. وهكذا، لفتت انتباه صناعي أميركي من أصحاب البلايين، رجل كريه يدعى...".

وتلكأ قليلاً.

"ناتانيال بارين".

توترت المرأة تحته، ومن ثم هدأت. واستمر خليفة بوضع إصبعه بإحكام حول الزِّناد، وعقله يئزّ، محاولاً فهم ما سمعه للتوّ.

"هي...".

"بالتحديد، ابنة بارين. اسمها الكامل راشيل آن بارين، وعلى غرار شقيقها، تلقّت علومها تحت اسم مستعار، وأُبقيت بعيدة عن أضواء الشهرة. ومع ذلك، إنها من عائلة بارين. إنها الابنة المطيعة، وعلى غرار كل البنات المطيعات، يبدو أنها تسعى وراء مصالح العائلة".

ولاحظ خليفة أن قبضتَي المرأة مكوّرتان بإحكام كالصوّان.

"هل هذا صحيح؟" قال بصوت أجشّ.

لا جواب، كان هذا هو الجواب الذي يحتاج إليه. وفجأةً، شعر بجفاف كبير في حَلقه. أرخى خليفة إصبعه عن الزِّناد، وأبعد بِن - روي المسدس عن ذَقنه. فسمح له خليفة بالقيام بذلك. وخبا صوت الهدير والقعقعة المحيط بهم كما لو أن باباً أُغلق بينهم وبين حوض السفن شيئاً فشيئاً.

"إنه أمر مثير للفضول، ألا تعتقد؟". تابع الإسرائيلي كلامه، متوجّهاً إلى نفسه أكثر من مخاطبته المرأة وخليفة. "رغم استهداف نِمِسيس كل تلك الشركات

الماكرة متعددة الجنسيات على مَرّ السنين، ورغم كل تلك الهجمات على الملفات الكمبيوترية، وكل غارات حرب العصابات الجريئة تلك، ظلّت هناك شركة وحيدة لم يتمكنوا قطّ من كشف أي حقارة ترتكبها ألا وهي بارين. ما السبب برأيك؟ ليس لأنها نظيفة الكفّ بالتأكيد. إذاً ما السبب؟ لماذا تفوح من بارين دائماً رائحة الورود؟ هل تمكنت من استباق الأمور؟".

لا ردّ. لقد بدا الأمر كما لو أن هناك ثلاثة ممثلين على المسرح، ونسي اثنان منهم حوارَيهما.

"حسناً، إليك سؤالاً آخر"، قال بِن - روي. "كيف اكتشفت بارين أن ريفكا كلينبرغ تتحرّى عن أعمالها؟ لقد راودني هذا السؤال منذ مدة. فهي لم تتصل ببارين، وتجنّبت الأضواء، باحثةً عن دليلها بهدوء. شخصان فقط كانا يعرفان أنها بدأت بكشف صِلة بارين بما يجري. أحدهما القَوّاد الذي أخبرتك عنه، غينادي كريمينكو، والذي أَقسم إنه لم يبُح بأي شيء. ونظراً إلى وجود سلاح مصوَّب إلى حَلقه في ذلك الوقت، أميل إلى تصديقه. ويبقى لدينا...".

ووجّه للمرأة الموجودة تحته دَفعة خشنة أخرى.

"إنها متورطة بذلك حتى أُذُنَيها يا خليفة. لم أجمع كل النقاط بعد، ولم أكتشف القصة بأكملها، ولكن بارين أدخلتها بطريقة ما إلى نِمِسيس أجندا، وهي تحمي الشركة من الداخل مذاك الحين. لهذا السبب كانت حريصة جداً على لقائك. لهذا السبب أرادت منك أن تحضر دفتر مدوَّنات سامويل بينسكر معك. لأنه بدونك وبدون دفتر المدوَّنات، لن يعرف أحد مكان المنجم. وبدون العثور على المنجم، لن يعرف أحد ما الذي تفعله بارين هناك. كانت ستدمّرك كما دمّرت عرّابتها. أليس هذا صحيحاً، يا راشيل؟ لقد قتلتِها. أنتِ التي قتلت ريفكا كلينبرغ".

على الأرض، تمكنت المرأة من إدارة رأسها بطريقة ما، وتمكنت من النظر إليه جزئياً.

"أنت أبله لعين حقاً"، قالت بغضب. "أكثر بلاهةً مما اعتقدتُ. عندما قُتِلت ريفكا كلينبرغ كنتُ على بُعد خمسمئة ميل وسط الكونغو. ولو أردتُ أن أقتله...".

وحرّكت كتفها في اتجاه خليفة.

"... لَقمتُ بذلك في أي وقت من الساعات الثلاث الأخيرة. كما كان باستطاعتي وضع رصاصة في رأسك في ميتزبي رامون. لا عجب أن تتمكن شركات مثل بارين من النجاة بفعلتها عندما تكون أنت - أيها اللعين - أفضل ما لدى القانون ليتولى مهمة التحقيق".

فوقها، ظهر على وجه بِن - روي وَميض شك عابر. فأزال هذا التعبير عن وجهه، ورفعها على قدمَيها.

"كما قلتُ، لم أحصل على كل الأجوبة. بإمكان الأجوبة أن تنتظر. في الوقت الحاضر، سنخرج من هنا. وأنتِ سترافقيننا...".

وقوطِع بتشويش فجائي صادر من جهاز اللاسلكي الذي تركوه مُلقى على الرافعات. كان أشبه بفرقعةِ طلق ناري تلاه صوت، صوت امرأة مبحوح بسبب الخوف.

"اهربي يا دينا، إنه شرك. كانوا في انتظارنا. اهربي! اهربي! إنهم يعرفون أننا...". وابتُلع الصوت بعد أن سُمِع طلق ناري آخر. مُجفلاً، وغير واثق مما يجري، تراخت قبضة بِن - روي آنيّاً، فركلت سجينته كاحله بقوة، مُفلِتةً في الوقت نفسه من قبضته. ودارت حول نفسها، وركلته بركبتها عند التشعّب بين ساقَيه، فانحنى، ومن ثم وجّهت للجانب السفلي من فكّه ضربة بأسفل راحة يدها وأسقطته أرضاً. حاول خليفة الإمساك بها، ولكنها ركضت عبر الممر في اتجاه الرافعات في آخره.

"أَطلِقِ النار عليها"، قال بِن - روي بغضب، رافعاً نفسه على قدمَيه، والدم يسيل من ذقنه. "أَطلق النار على العاهرة!".

وبشكل تلقائي، رفع خليفة الغلوك، مُمسكاً رِسغه الأيمن بيده اليسرى لتثبيت عملية التصويب. كانت هدفاً سهلاً بالرغم من الظلال؛ إذ إن المستودعات قد ضيّقت نطاق حركتها، وجعلتها أضواء الرصيف هدفاً واضحاً. تعقّبها بماسورة المسدس، لاوياً إصبعه على الزِّناد، ولكنه لم يتمكن من حمل نفسه على الضغط عليه. بلغت فتحة الممر، والتقطت مسدسها عن الأرض حيث رماه بِن - روي، وقفزت من فوق أقفاص الشحن كما لو أنها تقفز فوق مجموعة من الأَدراج. في

الأعلى، توقفت واستدارت، والتقت نظراتُها نظراتِ خليفة للحظة وجيزة. لم يكن واثقاً من الأمر، ولكنه ظنّ أنها هزّت رأسها، عِلماً أنه لم يفهم معنى ذلك. ومن ثم، التقطت جهاز اللاسلكي والكاميرا الفيديوية، وقفزت عن الأقفـــاص وغـــادرت. فأنـــزل مسدسه.

بجانبه، كان بِن - روي واقفاً على قدمَيه.

"لماذا لم تُطلق النار عليها؟". وسعل. كان صوته غليظاً كما لو أن أحدهم قد حشا فمه بإسفنجة مبلّلة.

"لم أستطع"، تمتم خليفة. "ليس على امرأة. ليس في الظهر".

ولزم مكانه لعدة ثوانٍ مذهولاً، وعقله مشغول. وسُمع صوت طلـــق نـــاري آخر، ولكن وراءهما هذه المرة في محيط السياج، وشعر بيد الإسرائيلي على كتفه.

"علينا الخروج من هنا".

فاستدار خليفة. لم تكن لديه أي فكرة عما يجري، وعمّن يُطلق النار، وعـــن سبب إطلاق النار، و لم يكن متأكداً إن كان بِن - روي مُحِقاً أم لا في شأن المرأة. فما يعرفه هو أن الإسرائيلي قطع مسافة طويلة وعرّض نفســه للخطـــر لأجـــل مساعدته، وهذا على الأقل يستحقّ بعض العِرفان بالجَميل. شرع بقول شيء مـــا، ولكنه توقف عاجزاً عن إيجاد الكلمات المناسبة. وبدلاً من ذلك، رفـــع ذراعـــه، وربّت بكمّه على فم الرجل الملطّخ بالدماء.

"تبدو في حالة من الفوضى أيها اليهودي الوغد المتعجرف".

فهمهم بِن - روي.

"وتبدو كما أنت بالتحديد؛ مسلماً وقحاً يحمي النساء".

وأومآ لبعضهما، وشبكا يديهما، وانطلقا عبر الممر بعيداً عن الرصيف. ومـــا إن قطعا بضعة أمتار حتى ظهر أمامهما فجأةً بضعة أشخاص. وأُطلقت النار بـــين أقدامهما.

"ارميا سلاحيكما، وضعا أيديكما على رأسَيكما!". أمر صوتٌ أجشّ بلهجة أميركية. "لن أكرر الأمر".

فرُمي السلاح ورُفعت الأيدي.

* * *

لقد دُفعا على امتداد الناحية الخلفية للمستودع وصولاً إلى الرصيف.

كان الضباب قد انتشر بشكل ملحوظ في الدقائق العشرين الأخيرة. وكانت السفينة أمامهما مغطاة بحجاب كثيف من البياض جعل خطَّها الكفافي مُبهَماً وغير واضح كما لو أن 60,000 طنّ من الفولاذ تزول ببطء. كان البخار ينتشر على امتداد الرصيف كثلج جاف، فيما الرافعات العملاقة تختفي وسط الظلام. كان المشهد أشبه بحُلم غير حقيقي بطريقة غريبة، ما لبث أن تفعّل مع إطلاق البوق وتوقُّف عملية الإفراغ فجأةً. إذ توقفت المحركات عن العمل، واختفى عمّال الرصيف، وأظلم المكان، وأصبح كل شيء ساكناً وجامداً بشكل مخيف.

تبادل بن - روي وخليفة نظرة سريعة، ولكنهما لم يقولا شيئاً.

لقد تمّ اقتيادهما عبر الرصيف إلى مؤخر السفينة. كانت هناك سيارة فخمة سوداء مركونة عند أسفل المَعبر، يقف بجانبها ثلاثة أشخاص مفتولي العضلات، وذوي وجوه عابسة، ويرتدون سراويل جينز، وسترات واقية، وينتعلون جزمات مناسبة للصحراء. كانوا يحملون أسلحة من طراز هيكلر إند كوش أم بيي 5، وأسلحة يدوية من طراز سيغ سوير. لم يظهر على وجوههم أي اهتمام ملموس في أثناء مرور التحريَين أمامهم في اتجاه المَعبر الجسري للسفينة.

صعدا إلى السفينة، وكانت الدَّرَجات المعدنية تصدر صوتاً تحت أقدامهما. في الأعلى، عبرا ممرّاً ضيّقاً قائماً حول برج السفينة. كان الضباب أكثر كثافة هناك كما لو أنهما دخلا سحابة، وأعلى البرج مختفياً في الظُّلمة. في مكان ما فوقهما، كان باستطاعتهما سماع أصوات أشخاص يتكلمون لغة لم يفهموها. لقد اعتقد بن - روي أنها روسية. وشعر بشيء ما يلامس وجهه، وأدرك أنه رماد سيجارة منهمر، فلم يتكبد عناء التعبير عن تذمّره.

ملوّحين بأسلحتهم، أومأ آسرو التحريَين لهما بالانعطاف يميناً حول قاعدة البرج نحو الجانب الأبعد. وفي الناحية الخلفية لسطح السفينة، كانت هناك حاوية تخزين مستطيلة الشكل، *كتلك التي تمّ تهريب فوسغي والفتيات الأخريات المسكينات داخلها*، كما فكر بن - روي. وفُتحت أبوابها الفولاذية. كان الظلام دامساً، فلم يتمكنا من رؤية ما يوجد داخلها باستثناء بعض الفُرش الإسفنجية الموضوعة على الأرض، وشمّا رائحة بَوْل ومعدن صدِئ حادّة.

لُوِّح لهما للوقوف بمحاذاة الحاوية، تحت بقعة من الضوء الخافت الصادر عن مصباح في البرج فوقهما. وأمامهما، توارى داخل الضباب جسر رافعة متنقلة ضيّق يُستخدم كممر بين العنابر المفتوحة التي توضَع فيها الحُمولات. وخطا الحراس إلى الوراء، وهم يدفعونهما بأسلحتهم.

مرّت بضع دقائق، والحراس واقفون هناك، وخليفة وبن - روي ينظـــران إلى بعضهما من حين لآخر من دون التفوّه بأي كلمة، غير متأكدَين مما يجري. ومـــن ثم، شعرا بالتوتر فجأةً. لقد سمعا صوتاً واهناً أمامهما؛ في مكان ما وسط الضـــباب على امتداد جسر الرافعة المتنقلة؛ صوتاً حاداً إيقاعياً شبحياً. تكـــوّرت قبضـــاهما بطريقة تلقائية، فيما تحوّلت أنظارهما إلى داخل الظلام، محاولَين اكتشاف مصـــدر هذا الصوت. وتواصل الصوت، ودنا. هناك أمر ما في شأنه غير مـــريح ويُضـــمر الشر. فطريقة صدور الصدى من الظلام توحي بزحف كائن مفترس في اتجاههما، ناخراً على امتداد جسر الرافعة بنيّة شريرة.

"ينتابني شعور سيّئ حيال هذا الأمر"، تمتم خليفة، والتصق بجانب الحاوية.

"لا تُشِر إليه"، جاء ردّ بن - روي.

اقترب الصوت أكثر فأكثر، وازداد ارتفاعاً، وبات مُرفَقاً بوَقع خطى؛ خطى بطيئة تُحدث صوتاً مكتوماً على المعدن المشبَّك. ولاح ظل مُبهَم داخل الضـــباب، ونتأ وازداد دُكنةً مع ظهوره شيئاً فشيئاً أمام أعينهما حتى اتخذ شكل رجل؛ رجل جسيم، أشيب، مُفرط في الوزن، يجرّ قدمَيه وراء إطارٍ للمشي ثلاثيّ العجلات.

إنه ناتانيال بارين.

وتقدّم إلى داخل دائرة الضوء.

"عمتما مساءً أيها السيدان".

كان صوتُه بمثابة زمجرة عميقة وخشنة. وتوقف عن الكلام قليلاً فيما كـــان ينظر إليهما، ومن ثم قال:

"إنها سفينة كبيرة ومثيرة للإعجاب، ألا تعتقدان ذلك؟ كنت أقوم بجولة على امتداد سطح السفينة. يجب إصلاح هذه العجَلة".

وأشار إلى أحد الدواليب الصغيرة.

"القليل من الزيت يفي بالغرض".

وهمهم ورفع يده مشيراً إلى الحراس بالتراجع، فانسحبوا حتى حافة الضباب؛ بعيداً بما يكفي لإخراجهم من المشهد، وقريباً بما يكفي لإبقاء السجينَين في مرمى أسلحتهم.

"في العادة، نترك المسائل الأمنية لزملائنا المصريين"، قال الرجل المُسنّ، معدّلاً ثِقله على إطار المشي. "ولكن، أعتقد أنه من الأفضل إشراك بعض رجال الأمن الخاصين بنا أيضاً في هذه الليلة لتعزيز الأمن قليلاً. وهم يقومون بعمل جيد".

وأومأ برأسه موافقاً. كان هناك قناع بلاستيكي مُدلّى من حبل حول عُنُقه، ويخرج منه أنبوب رفيع في اتجاه أسطوانة أكسجين موضوعة تحت إطار المشي ومثبتة إليه بحزام.

"عليّ التوجه إلى مصر بأي حال"، تابع وهو يسحب منديلاً من جَيبه ويربّت به على فمه. "لافتتاح ذاك المتحف اللعين غداً مساءً في الأُقصُر. يبدو أنه من المنطقي التوقف هنا أيضاً. إصابة عصفورَين بحجر واحد".

أمامه، كان خليفة وبِن - روي يقفان ملتصقَين بجانب حاوية الشحن، وعينا خليفة مثبّتتان على بارين وهما تشتعلان كُرهاً، في حين أن نظرات بِن - روي تميل إلى أن تكون استجوابية. فداخل رأسه، كانت تدور أسنان الدولاب، محاولاً جمع كل الخيوط واكتشاف ما يجري بالتحديد؟

"لقد التقينا ابنتك للتوّ"، قال لامساً فمه المتورّم بيده.

"التقيتماها الآن". وابتسم بارين. "إنها سيدة صغيرة مُذهلة، ألا تعتقد ذلك؟".

"كانت تعمل لصالحك طوال الوقت؟".

واتّسعت الابتسامة.

"كما قلتُ، إنها سيدة صغيرة مُذهلة، ولكنها عاصفة أيضاً. أنا فخور بها جداً".

"هل هي التي أعدّت هذا الشرك؟". سأل خليفة بصوت خالٍ من أي تعبير على نحو مثير للفضول وقد شحب وجهه. "هل هي التي أحضرتْ أعضاء نِمِسيس إلى هنا كي تتمكن من قتلهم؟".

جرّ بارين قدمَيه وتمايلت كتفاه، معدِّلاً ثِقله على إطار المشي.

"لِنقُل فقط إنه من المريح جداً أن أعرف أن العائلة والشركة ستكونان في يدٍ أمينة عندما أرحل".

وضحك مُصدِراً صوتاً جافّاً وغير مُستساغ كنُباح كلب. وربّت على فمه مجدّداً، ثم وضع المنديل في جَيبه. في عقل بِن - روي، كانت أسنان الدواليب لا تزال تدور. بطريقة ما، لم تُجمَع الخيوط بعد، وإنّما كانت أطرافاً مُدلاّة.

"أولئك الأشخاص... كانوا جزءاً منها فقط"، قال. "مجموعة صغيرة، خليّة. لا تزال نِمِسيس أجندا موجودة. وأنتم لم تتخلّصوا منها".

وكانت هناك ضحكة أخرى.

"شيئاً فشيئاً، أيها التحرّي. خطوةً خطوة. ثِق بي، نحن نسيطر على الوضع تماماً".

"وماذا عن ريفكا كلينبرغ؟". ظنّ بِن - روي أن باستطاعته توضيح الصورة قدْر المستطاع قبل حدوث المحتوم. "من قتلها؟ أهي راشيل؟".

فلوّح بارين بيده، ساخراً من السؤال.

"قتلها شخص ما يضع مصالح الشركة في قلبه"، قال. "في ظل هذه الظروف، لا أعتقد أنه من المستحسَن أن أكون أكثر تحديداً. عِلماً أنني أعترف لك بما حققتَه، وقد أبليتَ بلاءً حسناً باكتشاف بقيّة التفاصيل بشكل جيد. اطّلعتُ على نسخة من التقرير الذي وضعتَه. إنه عمل جيد يقوم به تحرٍّ".

ورفع يداً متورّمة ومنقّطة بلونٍ بُنّي مائل للحُمرة، وأدّى لبِن - روي تحيّة مثيرة للسخرية.

"كما خمّنتَ، تعثّرنا بالمنجم عندما كنا نضع تصوّراً لذلك الجزء من العالم. لم أُعره اهتماماً كبيراً في ذلك الوقت. ولم نَعِ أنه مُنشأة تخزين جاهزة لبعض النفايات التي أُرغمنا على شحنها إلا بعد أن مُنحنا امتياز دراجس".

هبّت عَصفة ريح؛ فجعلت وجهه الكبير المماثل ليقطينة غير واضح المعالم مؤقّتاً وراء حجاب من الضباب.

"ولكن، كان هذا التفصيل هو الوحيد الذي أخطأتَ فيه"، تابع مع زوال الضباب. "فنحن لا نطمر *كل* النفايات في الواقع، بل ربعها فقط. وتعود الكمية المتبقية إلى الولايات المتحدة لإعادة معالجتها وطمرها في الأرض. إنه عمل مكلف لعين كما قلتُ لك عندما تحدّثنا في تلك الليلة. إذ تخفّض هذه العملية هوامش أرباحنا. ولكن، بطمر خمس وعشرين بالمئة منها فقط نوفّر مئات الملايين من

الدولارات كتكلفة شحن، مما يعني أرباحاً إضافية تقدَّر بملايين الـــدولارات. وفي النهاية، هذا كل ما يهمّنا، أليس كذلك؟ زيادة هوامش الربح، وجَني المزيـــد مـــن المال".

وتقوّس حاجباه الكتّان الرماديان كما لو أنه كان يتوقع مـــن بِـــن - روي وخليفة التعبير عن موافقتهما على تحليله. ولكنهما لم يفعلا، بـــل وقفـــا هنـــاك صامتَين. ولم يبدُ بارين منـــزعجاً بصفة خاصة من عدم حدوث رد فعل.

"بالمناسبة التقيتُها مرات قليلة"، أضاف. "أقصد تلك المرأة كلينبرغ. كانـــت صديقة زوجتي العزيزة الراحلة. لا يمكنني القول إنني كنت أستلطفها على الـــدوام، وأعتقد أنها كانت تبادلني ذاك الشعور أيضاً. إنه أمر غريب كيف تظهر المصادفات الصغيرة في الحياة".

وابتسم ابتسامة عريضة، وتغضّنت تعابير وجهه على الفور عندما فاجأته نوبة من السعال. فتحركت كتفاه صعوداً ونـــزولاً، وانتفخت عيناه المرتشحتان في أثناء نضاله من أجل الحصول على الهواء. أمامه، كانت عينا بِن - روي يقظتين وهـــو يفكر في الفرص المتوافرة للتغلب على الحراس. ولكنه اعتبرها غير كافية، بل إنهـــا قليلة جداً.

"إذاً، ماذا الآن؟". سأل عندما استعاد بارين عافيته.

"الآن؟". وانفتحت يدا الرجل المُسنّ، ثم أطبقتا على المِقبضَين المطاطيَّين لإطار المشي. "الآن، أعتقد أننا سننتظر انقشاع هذا الضباب لإنهاء تفريغ الحُمولة. وبعـــد ذلك، سيقوم القبطان كريمينكو وطاقمه بإصلاح الفوضى التي تسبّبوا بها بســـبب عملية تهريب المومِسات، وذلك باصطحابكما أيها السيّدان إلى وســـط المحـــيط، وتقطيعكما إرَباً إرَباً، ورميكما للأسماك. والأمر نفسه ينطبق على جثث قـــاطعي الطرق أولئك التابعين لنمِسيس، والتي يتم جمعها الآن في أثناء تكلُّمي كما أعتقد. لا يمكنني القول إنني سأذرف أي دمعة عليهم، غير أنّ قتل رجال الشرطة لم يكـــن قطّ عملاً مُرضياً لضميري. ولكن ماذا يمكنني أن أفعل؟".

وهزّ كتفَيه بطريقة تشير إلى عجزه؛ كما لو أن الأمر برمّته مفروض عليه.

"كان يُفترض بك قبول الرشوة أيها التحري. القاعدة الأولى للأعمـــال: إذا عُرضت عليك صفقة جيدة، فتشبّث بها".

فاجأته نوبة سعال أخرى، فاكتسى وجهه لوناً أُرجوانياً في أثناء تثبيته قناع الأكسجين على وجهه، ونضاله من أجل التنفّس. بجانب بِن - روي، كان خليفة يدرس فُرص الإطباق على الحراس. وعلى غرار الإسرائيلي، اعتبر أن الفرص معدومة تقريباً. فعلى بُعد أمتار قليلة فقط، يقف الرجل الذي يُعتبر مسؤولاً عن وفاة ابنه - محور القوة المسيطرة الذي حطّم عالمه برمّته - من دون أن يتمكن من الوصول إليه. وشعر بفراغ في صدره بسبب إحباطه.

"بأي حال، أيها السيدان"، تابع بارين أخيراً، مُنزلاً القناع، ومنحنياً إلى الأمام على إطار المشي. "أنا رجل أدخل صلب الموضوع مباشَرَةً، وأردتُ الوقوف هنا أمامكما والنظر إلى أعينكما، وتوضيح أي تساؤلات لديكما. أما وقد قمت بذلك، فلم أعُد أجد أي فائدة من إطالة اللقاء، لذلك إذا لم يكن لديكما مانع...".

ونقر برأسه في اتجاه الحراس الذين تقدّموا بضع خطوات، مسدّدين مدافع هيكلر الرشاشة نحوهما، ووجوههم خالية من أي تعبير كما لو أنهم روبوتات. وأومأوا للتحريَين بأسلحتهم لدخول حاوية الشحن.

" لم أكن قطّ أُجيد التمثيل على المسرح"، قال بارين بعد أن توجّها إلى الداخل المُنتِن، واستدارا، "ولكن، عليكما الإقرار بوجود بعض... ما هي الكلمة؟ التزامن في الأمر برمّته. بدأت مشاكلنا مع الحاوية، وهنا ستنتهي بالتحديد. إنه حسّي بالإتقان".

وابتسم، ثم أومأ للحراس، فشرعوا بإغلاق بابي الحاوية. وضع خليفة قدمه في الخارج، مُعيقاً أحد البابَين، ومُبقياً إيّاه مفتوحاً.

"لقد قتلتَ ابني"، قال محدّقاً ببارين. "لقد قتلتَ ابني، وسوف أقتلك".

فاندفع الفك السفلي للرجل المُسنّ إلى الأمام.

"هل ستقوم بذلك الآن؟ حسناً...".

فرفع معصمه وتفحّص ساعته.

"... لديك أربع ساعات للقيام بذلك. وبعد ذلك، ستكون في طريقك إلى قعر المحيط والسرَطانات تمضغ عينَيك. لذلك، لو كنت مكانك لأسرعتُ".

وأطلق إحدى تلك الضحكات التي تُصدر أزيزاً، فيما دُفع خليفة إلى الوراء، وأُغلق باب الحاوية بقوة في وجهه. وسُمع صوت معدني لدى إحكام القفل -

للمرة الثانية في غضون أربعٍ وعشرين وساعة، وجد نفسه واقعاً في شرَك سواد لا يمكن اختراقه – وصريرُ إطار المشي في أثناء جرّ بارين قدمَيه. وبعد ثوانٍ قليلة، زال الصوت وساد الصمت، ومن ثم:

"مرحباً يا أبي. مرّ زمن طويل".

مكوِّراً قبضته، وجّه خليفة ضربة قوية إلى الناحية الداخلية للباب صائحاً:

"كاذبة! كاذبة، كاذبة، كاذبة!".

* * *

في اللحظة التي سمعت فيها راشيل صراخ تامار على جهاز اللاسلكي – "اهربي! إنه شرَك!" – علمت أنه موجود في مكان ما على الرصيف. لم تتمكن من شرح ذلك، ولم تتمكن من تحليل الأمر. كانت قد عرفت ذلك للتوّ، وشعرت بحضوره فجأةً داخل عظامها، وفي تجويف معدتها؛ في أعمق أعماقها، تماماً كما كانت تشعر في طفولتها عندما يكون جالساً في سكينة في مكتبته في أعلى منزله الفخم، وعندما يقترب كسحابة عاصفة في الممرات المضاءة بنور خافت. كان بعيداً كل تلك السنوات، وها هو والدها *العزيز* يقترب مجدداً سعياً وراء ابنته الصغيرة. لقد عرفت على الدوام أنه سيقوم بذلك، وستُعيدها المتاهة على الدوام لتغرق فيها.

فبعد إفلاتها من الشرطي الإسرائيلي، قفزت فوق صناديق الشحن البحري، وشرعت بالركض على الرصيف بأقصى سرعة، متجاهلةً صيحات عمّال التفريغ والتحميل، وملوّحةً بالغلوك في وجه كل من يقترب منها. لقد بدا الأمر كما لو أنها وسط كابوس؛ فكل شيء مُبهَم وغير محدَّد بسبب الضباب. كما أن توقّف كل الحركات فجأةً وسيادة السكون ساهما في ذلك. كانت قد نادت في جهاز اللاسلكي، مراراً وتكراراً، صائحةً بأسمائهم – "غيدي، تامار، فاز!" – ولكنها علمت أنه لا جدوى من ذلك. وأخيراً، وضعت جهاز الاتصال جانباً، والكاميرا الفيديوية أيضاً، حتى إنها لم تعرف سبب تكبّدها عناء اصطحابها معها. لم تكن تعرف أي شيء باستثناء أن الآخرين لقوا حتفهم، وأنها تركض، ووالدها هنا، وها هي الأمور تتسارع أخيراً، وكانت تنتظر تسارعها في السنوات الإحدى عشرة

الأخيرة. يمكن لرغبتها هذه أن تتحقق ما دام بإمكانها صَدّ الماضي ودفن الكثير من ذاتها.

أَبقيني مخبَّأة، لا تدَعي أحداً يرى.

والآن، أصبح الماضي حاضراً، وكل الألغاز تُحَلّ.

كان عدد من الرجال قد ظهروا مرتَين من العدَم وألقوا القبض عليها، وسمعت مرّتَين أصواتاً تأمر بإطلاق سراحها.

"إنها هي. دَعوها تذهب".

أنتِ ذلك الشخص يا راشيل. طالما كنتِ ذلك الشخص.

لقد دفعتهم بخشونة، وواصلت الركض.

في نهاية الرصيف، كان الضباب سميكاً وأشبه بالحليب. فتسلّقت الجدار الإسمنتي بمشقة، ونزلت إلى الصخور في الأسفل، وتلمّست الأرجاء بحثاً عن تامار وغيدي وعن المكان الذي ثبّتا فيه كاميراتهما. لم يكن بإمكانها القيام بأي شيء لتغيير ما حدث، ولكنها كانت بحاجة إلى رؤيتهما بأُمّ العين، وإلقاء تحية الوداع عليهما على الأقل، ولا سيما على تامار، قبل أن تذهب للعثور عليه. لقد خرقت القاعدة الذهبية مع تامار، وأصبحتا مقرَّبتَين؛ تماماً كما خرقت القاعدة مع ريفكا، ومع والدتها أيضاً. وعندما تخرقون القاعدة تحدث أمور سيئة على الدوام.

"ليس خطئي"، وغصّت. "ليس خطئي. ليس خطئي".

فبعد كل تلك السنوات، كان لا يزال في أعماقها جزء منها يتساءل عما إذا كان ما يحصل أو ما قد حصل خطأها، وعما إذا كان باستطاعتها القيام بالمزيد للمقاومة، وعما إذا كانت عاهرة في الواقع.

"آسفة. آسفة".

وتلمّست المكان لفترة وجيزة، ومن ثم أُدير محرك في مكان ما إلى يمينها بعيداً عن النهر. إنه محرك شاحنة. ورأت أضواء وسط الضباب. فتوجّهت إليها بخطى متعثّرة، ووجدت نفسها على رمال حَصَوية. ورأت آثار دواليب. لم يكن أي شيء يبدو واقعياً، فيما الضباب يبدو ممزّقاً أمامها. وعلى بُعد خمسة أمتار، رأت الناحية الخلفية لشاحنة خفيفة. كان هناك رجلان يجلسان على الجانبَين، يرتديان ملابس مماثلة لملابس أولئك الذين ألقوا القبض عليها على الرصيف: سراويل جينز،

وسترات واقية، وينتعلون أحذية مناسبة للصحراء. وعند أقدامهما علـى أرضـية الشاحنة، ثلاث جثث مُلقاة: ذكران وأنثى. كانت عيوهُم مفتوحـة ومضـرَّجة بالدماء. لقد سمعت صرخة، وتطلّبها الأمر لحظات لتُدرك أنها صادرة من فمهـا. مدّت يدها نحوهم ولكن الشاحنة كانت قد انطلقت. لوّح أحد الرجلَين بيـده في اتجاه السفينة، ولفظ شيئاً ما ربما يكون "إنه هناك". ومن ثم، تجمّع الضباب مجدداً، واختفت الشاحنة.

أصبحت بمفردها كما كان حالها على الدوام. وحدها في الضباب مع ظلمـة خجَلها.

اقتفت آثار خطاها كرجل آلي، وعادت إلى الصـخور، إلى الرصـيف، وإلى السفينة، والغلوك متدلٍّ من يدها. لقد بدا الأمر كما لو أن كل شيء يحدث بحركة بطيئة، وكما لو أنها شخصية في فيلم سينمائي بطيء. بلغت المَعـبر الجسـري في مقدّمة السفينة، وصعدت إلى السطح، وتبعت جسر الرافعة المتنقلـة وصـولاً إلى وسط السفينة حيث عنابر الحُمولات تقوم على الجانبَين كبِرك سوداء.

لقد غدا حضوره أقوى مع كل خطوة تخطوها إلى الأمـام. كانـت هنـاك جاذبية خفيّة تشدّها إليه بشكل لا يلين.

ثم ظهر أمامها فجأةً وهو يجرّ قدمَيه بجانب الطرف البعيد لحاوية شحن كبيرة. كان كما تتذكّره تماماً؛ ظلاً منتفخاً ومتثاقل الحركة يلوح عبر الضباب.

لا بد أن يكون قد شعر بوجودها أيضاً لأنه توقف واسـتدار. والتقـت أنظارهما. أطلق الوجه الأشيب الدُّبّي ابتسامة. حينئـذٍ، دار الفـيلم بسـرعته العادية، ولم يعُد الأمر أشبه بحُلم. فجأةً، أصبح كل شيء في الـزمن الحاضـر وحقيقياً. وانقبض قلبها، وكذلك معدتها، وعاد ذلك الألم الذي تشعر به بـين ساقَيها.

"مرحباً يا أبـي. مرّ وقت طويل".

* * *

بدا الأمر بالنسبة إلى بِن - روي وخليفة كما لو أنها تحية ابنة مُحِبّة؛ عـودة الابنة الضالّة.

ولم يتمكّنا – وهما مسجونان في ظلمة الحاوية، ويفصلهما جدار من الفولاذ عن الخارج – من رؤية النظراتِ المعبِّرة على وجهها.

نظرات كره بَحت لا لُبس فيها. كره يبلغ حدّ الجنون كما لو أنها تواجه شيئاً مثيراً للاشمئزاز، شيئاً مقيتاً إلى حد كبير لدرجة أنها كانت على وشك السقوط على ركبتَيها والتقيّؤ.

وقفت هناك للحظات، مسمَّرة في مكانها، فيما يتردد صوت قرع قبضات أيدٍ على الناحية الداخلية من الحاوية، وصرخات "كاذبة". ومن ثم، تقدّمت بضع خطى إلى داخل دائرة الضوء، وإصبعها مُحكمة الإطباق حول زِناد الغلوك. أمامها، كان بارين يجر إطار المشي ويتقدّم نحوها أيضاً، ملوّحاً للحراس بالابتعاد عن سطح السفينة، وبقيا هناك وحدهما، وجهاً لوجه، الأب والابنة، بعد كل تلك المدة.

"مرحباً يا عزيزتي راشيل". كانت عيناه المرتشحتان رطبتَين ومتلألئتَين، وفمه مُقوّساً بابتسامة هائمة بالحب. "مرّ وقت طويل بالفعل. لقد افتقدتُك أكثر مما يمكنني التعبير عنه".

ومدّ يداً مرتجفة نحوها فلم تتحرك. فبعد مرور كل تلك السنوات، كانت الكراهية التي تشعر بها تجاهه أكثر شدّة من أي وقت مضى.

"تبدين رائعة"، قال بصوت يئزّ وهو يحدّق بها بإعجاب من الأعلى إلى الأسفل. "لقد كبرتِ وأصبحتِ امرأة جميلة الآن. أرى والدتك فيك؛ الكثير مما لدى والدتك. أنت تجعلينني فخوراً بك جداً".

وهمّ بجر قدمَيه في اتجاهها، ولكنها رفعت المسدس في وجهه.

"لا تفعل".

فتوقف، وصدره يتحرك صعوداً ونزولاً في أثناء نضاله لسحب أنفاسه بصعوبة بسبب رئتَيه المريضتَين. قست ملامح وجهه لجزء من الثانية، ثم استرخت على الفور.

"آسف بشأن أصدقائك"، قال، ثم عاد التعاطف إلى ابتسامته. "آسف حقاً. أعرف أن الأمر يزعجك، ولكنْ كان لا بد من القيام بذلك. لقد حان الوقت كما ترَين. حان الوقت لتعودي إلى المنزل. والدك بحاجة إليك. *عائلتك* بحاجة إليك".

حدّقت به فحسب بوجه شاحب كالضباب. كان باستطاعتها اشتمام رائحة عطر ما بعد الحِلاقة؛ قويّة، وكثيرة الزيت، وحادّة على نحو مُبهَم. إنه أمر صغير يحمل معه أموراً كثيرة أخرى؛ أصواتاً: وقع أقدام على السجادة، وصرير مقبض الباب، أحاسيس: وزن، ضغط. الأمور التي تراها في كوابيسها، الأمور التي كانت تهرب منها طوال حياتها.

"لم يكن الأمر سهلاً؛ أقصد عدم وجودك هناك. أصبح المنزل فارغاً جداً بغيابك، ولا سيما منذ وفاة والدتك...".

"لم تتوفَّ *بطريقة طبيعية*". كان صوتها خالياً من أي تعبير على نحو مثير للفضول. "لقد قتلت نفسها. أنت تعرف ذلك".

انحنى بارين إلى الأمام على إطار المشي، هازّاً رأسه بأسى.

"أعرف ذلك يا راشيل، أعرف ذلك، ولكنني حاولتُ...".

"قتلت نفسها لأنها اكتشفت الحقيقة. لأنني أخبرتها بما حدث".

مجدداً، تصلّبت ملامح الرجل المُسنّ للحظات. لقد دام ذلك لمدة أطول هذه المرة.

"بات ذلك من الماضي يا راشيل. لا يُفترض بنا إطالة التفكير بالأمر. فما يهمّ هو الحاضر، والمستقبل. مستقبل عائلتنا. لهذا السبب، حان الوقت لوضع حدّ لكل هذه...".

وحرّك ذراعه بشكل مستدير.

"عودي إلى المنزل. لقد منحتُك حرّيتك وسمحتُ لك بإخراج هذا الأمر من حساباتك. لقد حان الوقت الآن للعودة إلى حيث تنتمين، وللاضطلاع بمسؤولياتك".

حدّق بها للحظات، ومن ثم أنزل رأسه بعد نوبة من السعال مزّقت صدره. فتلمّس قناع الأكسجين، وثبّته بقوة على فمه. ومرّ القليل من الوقت قبل أن يتمكن من استعادة عافيته.

"والدك ليس بصحة جيدة، يا راشيل"، قال بصوت أجشّ، وعيناه تنتفخان فوق حافة القناع، وصوته مكتوم بسبب القطعة البلاستيكية الشفافة. "الأطباء منحوني ستة أشهر؛ اثني عشر شهراً على الأكثر. عليّ التفكير بموضوع من سيخلفني في إدارة الشركة، من سيقود العائلة ويدير الأعمال. وليام...".

لقد تسبب ذكر الاسم بنوبة سعال متجددة، فاهتزّ جسده بأكمله، وانتفخت عيناه بقوة لدرجة أنهما بدتا كما لو أنهما ستخرجان من مِحجرَيهما كما تخرج الفَلّينة من القنّينة.

"وليام... حسناً، كلنا نعلم ما هو حال شقيقك. إنه متوهِّم أفسدته المخدرات، ويتّجر بالمومِسات، ويعيش في عالم أحلام لعين. يعتقد أنه الرجل الكبير، ويعتقد أنه سيتسلم زمام الأمور ويستولي على كل شيء بطريقة عدائية بواسطة انقلاب. إنه هنا! كل شيء موجود هنا".

وربّتت أطراف أصابعه بقوة واستهزاء على جانب رأسه.

"إنه قَزم. كان كذلك على الدوام وسيبقى كذلك. لقد عرفتُه لحظة رؤيتي إيّاه. لا قوة، لا ذكاء. أما أنت...".

وأنزل القناع، وكان صدره يتحرك بقوة صعوداً ونزولاً تحت سترة التويد.

"أنت يا راشيل أمر حقيقي. أنت بارين حقيقية. فلديك شجاعة وتصميم وذكاء أكثر مما سيحصل عليه شقيقك ذاك في حياته كلها. كل شيء لك يا راشيل، وأنا الآن بحاجة إليك للشروع بتولي زمام الأمور. أحتاج إلى عودتك إلى المنزل لتقومي بما وُلدتِ للقيام به".

ومدّ يده نحوها مجدداً. فحدّقت بها هازّةً رأسها، وتلوّى وجهها، وفتحت فمها غير مصدِّقة.

"أنت مجنون"، تمتمت. ومن ثم قالت بصوت أكثر ارتفاعاً: "أنت مجنون".

وانتفخ صدر الرجل المُسنّ كثعبان كوبرا يستعد للهجوم.

"أعرف أنك تتألمين يا راشيل...".

فانفجرت غضباً.

"أنت مجنون لعين!". فجأةً، تدفّق الانفعال من صوتها. "أعود إلى المنزل! بعد ما فعلتَه بي! بعد ما فعلتَه بالتحديد! ما الذي حملني في المقام الأول على الخروج من المنزل برأيك؟ وعلى الابتعاد قدْر المستطاع، وعلى تغيير اسمي، وهويّتي، وقضاء كل ساعة أكون فيها مستيقظة لمواجهة أشخاص مثلك؟ ما الذي حملني على بذل قُصارى جهدي لقهر بارين؟ كما قهرتَ...".

"راشيل...".

وانتفض رأسها إلى الوراء.

"كنت طفلة أيها الحيوان اللعين!". كانت تصيح غاضبة، والألم بادٍ في عينيها، مُطلِقةً قطرات من اللعاب من فمها. "كنت في العاشرة من عمري! كل ليلة! سرّنا الصغير! حب الوالد الخاص! لأُظهر فقط مدى اهتمامي. لا تقلقي إذا آلمك ذلك قليلاً! إنه أمر طبيعي، طبيعي تماماً! أيها الكريه، الكريه...".

"كفى يا راشيل!".

"أعود إلى المنزل وأتسلّم زمام الأمور! بعد ما حصل مع ريفكا؟ بعد الليلة؟ أيها المجنون اللعين المضلَّل...".

كان صوتها يخرج بشكل متقطّع، والكلمات تعلق في حَلقها، ونفَسها يخرج في لُهاث قصير يائس.

"لن أعود أبداً! هل تفهمني؟ أبداً. أبداً. لن أتورّط في ذلك أبداً. ولن أعمل أبداً لصالح بارين. ولن أكون أبداً جزءاً من حياتك المقيتة المنحرفة...".

كانت يدها اليسرى قد بدأت تخدش فروة رأسها، على غرار ما اعتادت القيام به عندما كانت صغيرة في السنّ، عندما كان يغتصبها فتشدّ شعرها بقوة كما لو أنها تحاول بلا أمل سحب نفسها بعيداً عنه.

وبالحركة نفسها، رفعت يدُها الأخرى الغلوك وصوّبته على رأسه. هذا ما جاءت للقيام به هنا في المقام الأول؛ هذا ما كان يُفترض بها القيام به منذ زمن بعيد، وما كانت تخطط له طوال السنوات الإحدى عشرة الأخيرة في أثناء كل المسيرات والاحتجاجات وأعمال الشغب وأفعال نِمِسيس؛ مُرجئةً، ومستعيضة - مهما كانت تسمية الأمر - ومتجنّبةً ما هو حتمي.

وحان الوقت الآن، كما قال والدها.

حان وقت الحقيقة، وقت العقوبة.

أمامها، ثبّت بارين القناع على وجهه بقوة، وسحب سلسلة أنفاس بطيئة صافرة، مثبّتاً نظره عليها، وظهرت على القناع البلاستيكي حول فمه غشاوةٌ في أثناء سحبه الأكسجين عبر الأنبوب من الخزّان في الأسفل. وبعد ذلك، أنزل القناع ببطء.

"آه، يا راشيلتي"، قال. "يا حبيبتي، يا راشيل الحبيبة".

لم يكن هناك أي شعور بالذَّنْب في صوته، عِلماً أنها ما كانت لتتوقّع ذلك، فوالدها ليس رجلاً يلوم نفسه، ولا يحسب للأخلاق أي حساب. و لم يكن يشعر بالخوف أيضاً، بالرغم من وجود مسدس مصوَّب إلى عينَيه مباشَرَةً. وبدلاً من ذلك، كان هناك نوع من التسامح المُرعِب والتأنيبي. كما لو أنه والدُ طفلٍ أساء التصرف، ولكنه يحب ذلك الطفل كثيراً ولا ينزعج كثيراً مما يقوم به.

وشعرت بالغثيان.

"أعرف مدى صعوبة ذلك عليك يا راشيل، وأعرف العبء الملقى على عاتقك. إنه الواجب، القدَر. طالما كنتِ روحاً حرة. لن يكون الأمر سهلاً أبداً. ولكن، عليك أن تفهمي أن قيادة العائلة والشركة أمرٌ مقدّرٌ لك. لا يمكنك الفرار من قدرك بعد الآن، كما لا يمكن للدم الفرار من أوردتك. أنت من عائلة بارين سواء أأعجبك ذلك أم لا. أنت جزء من العائلة. هذا ما أنت عليه. أما بالنسبة إلى العمل لصالحنا...".

وابتسم.

"حسناً، أنتِ تقومين بذلك مسبقاً، ولن يكون الأمر مختلفاً كثيراً".

ارتعشت عيناها، غير واثقة مما يعنيه. ومدّ عُنُقه في اتجاهها فوق إطار المشي، وعيناه تلمعان. وبعد أن صمت لفترة قصيرة تابع:

"وصلت الرسالة"، قال برفق، "العرض مقبول. نقاتل معاً".

فبدا وجهها الشاحب كما لو أنه يكتسي شحوباً أشبه بشحوب الموت. وتحرّك فمها للحظات قبل أن تتمكن من إخراج أي كلمة.

"ماذا تقول؟ كيف فعلتَ...؟".

"آه يا راشيل! ألم تفهمي؟".

إنها نبرة تسامح تأنيبي مرة ثانية.

"نحن نِمِسيس أجندا. نحن شركة بارين. نحن الذين نديرها".

وساد الصمت لفترة وجيزة تغمره الرهبة. وبعد ذلك، شعرت بأن ساقَيها تضعفان، وتعثّرت إلى الوراء، وتردد صدى أنين وحشرجة اختناق من فمها.

"لا"، همست. "أنت تكذب. أنت تكذب".

عِلماً أنها كانت ترى في عينَيه أنه لا يكذب، وتــرى الابتســامة العريضــة، والقسوة المنتصرة؛ تماماً كما كان عندما اعتاد دخول غرفتــها لــيلاً، وســحب أغطيتها، و... ببراعة تامة.

"آه يا الله! لا"، همست. "آه، أرجوك يا الله، لا".

ومدّ يدَيه. إنهما يدان مبقّعتان، قاسيتا الجِلد، ضخمتان كقفّازَي بيسبول.

"نحن نملكها كلها يا راشيل. نحن نتحكم بها، وبكل شيء. هذا ما هو عليــه حال بارين؛ التحكّم".

"آه يا الله! لا".

"لم أتخيّل قطّ ولو للحظة واحدة بأنها ستصبح بهذا الحجم. كان من المفترَض أن تبقى صغيرة. عَمَل لمرة واحدة لا يتكرر. مناورة صغيرة ماكرة للــتخلص مــن بعض منافسينا. لقد اقترح أحد الأشخاص في الشركة إنشاء موقع علــى شــبكة المعلومات الدولية، والبحث عن بعض القذارات ونشرها على الموقع، وحمْل العــالم على الاعتقاد بأن الموقع تابع لإحدى المجموعات المناهضة للرأسمالية".

وهز رأسه.

"لقد انطلق الأمر برمّته مذاك الحين، معتمِدين روح العصر على نحو غــير معقول. لدينا شخصان متفوّقان ينسّقان الأمر برمّته في هيوستن، وشبكة دولية من الناشطين الذين يزوّدوننا بالمعلومات، معتقدين خطأً أنهم يساعدوننا بطريقة ما على إسقاط النظام. ويتعيّن علينا دفع ثروة طائلة لمســاعدينا كــي يُبقــوا أفواههم مُطبَقة. ولكن، صدّقيني، إن الأمر جدير بذلك فعلاً. بواسطة نِمِسيس، يمكننا تشويه سمعة أي منافس بكبسة زر، كاصطياد سمكة في برميل. إنه أمــر لعين لا يصدَّق!".

وكانت هناك هزة رأس أخرى.

"من الواضح أنه يتعيّن علينا التزام الحذَر؛ ليس من المنافسين المستهدَفين *فقط*، وذلك لأن ما نقوم به قد يفضح أمرنا. لذلك، قمنا باستهداف أنفسنا مرات قليلة. لم تكن هجمات كبيرة، بل ما يكفي لتضليل الآخرين. والمثير للسخرية أن نمِسيس قد تطورت لتغدو معياراً مشوَّهاً لنــزاهة الشركات. فلم يعد أحد يثــق بمنظّمــي الأعمال الأذكياء بل بنمِسيس أجندا؛ فما تقوله هذه المجموعة صحيح بدون شك.

ولم تجد أجندا أي مساوئ ارتكبتها بارين. لم أعِ قطّ كم يمكن للإنترنت أن تكون قوة للخير!".

وأطلق ضحكة أشبه بالنعيق. كان رأسها يهتزّ، وعلى وجهها أمارات الانسحاق.

"وماذا حدث بعد ذلك؟ وردت رسالة بشكل غير متوقَّع إلى موقع نِمِسيس من ابنتي الصغيرة، أميرتي راشيل، تسأل عما إذا كان بإمكانها الانضمام إلى القوة، والعمل لصالح أجندا. ما كان الأمر ليكون أكثر إتقاناً حتى لو قمتُ بكتابة السيناريو بنفسي، السيناريو الحُلُم. عليكِ إطلاق بعض البخار، والقيام بمغامراتكِ الصغيرة، وخوض معركة الخير، في حين أنكِ كنت تعملين لصالح الشركة. أي إنك عدت إلى حظيرة الخراف مجدداً، عدت إلى حيث تنتمين".

كانت ترتعد وقد أصبح وجهها بلون الرماد، والغلوك متدلٍّ إلى جانبها كما لو أنها لم تعُد تملك القوة لحمله. لقد بدا الأمر كما لو أنها عادت إلى المنزل الفخم مجدداً، وكما لو أنها مستلقية على السرير وقد التفّت حول نفسها صغيرةً، وضعيفة، وعاجزة، ووالدها يعتدي عليها مع استحالة المقاومة.

"وتبقى حقيقة أنه أيّاً يكن ما أحببتِ أن تفكري فيه، فأنت لم تخرجي من الحظيرة قطّ". تابع محرّكاً إطار المشي إلى الأمام نصف خطوة، والدولاب يصرّ في أثناء دورانه. "في الحقيقة، كنا نراقبك على الدوام، يا راشيل. فمنذ لحظة مغادرتك المنزل، لم تمرّ لحظة واحدة من دون أن أعرف بالتحديد مكانك وما تفعلينه ومن الذي تتحدثين إليه أيضاً. في كل تلك المجموعات التي انضممتِ إليها، وتلك المسيرات التي شاركتِ فيها، كان هناك أشخاص يراقبونك عن كثب. وفي مغامراتك الصغيرة في نِمِسيس، كان هناك على الدوام خبراء على أتمّ الاستعداد للتدخل عندما تسوء الأمور. ملاذك في النقب زُرِع بالميكروفونات والكاميرات السرّية من الأعلى إلى الأسفل. هكذا اكتشفنا أمر ريفكا كلينبرغ. ليس هناك شيئاً قلتِه أو فعلتِه لم أسمعه أو أراه. لقد سمعتُ ورأيتُ كل شيء يا راشيل. *كل* شيء. أنتِ...".

وتحرك صدره صعوداً ونزولاً، وبدا الأمر كما لو أن أهدابه تخفق.

"يا الله! كم أنت جميلة! أنت جميلة جداً يا حبيبتي. لا فكرة لديك عن مدى رغبتي في...".

فانحنت وتقيّأت على الأرض الفولاذية لسطح السفينة. وهمّ بجر قدمَيه إلى الأمام مرة أخرى، ولكنها رفعت المسدس وصوّبته نحوه.

"لا تقترب!". صاحت. "لا تقترب، أيها اللعين الكريه...".

وتقيّأت مجدداً.

"دعيني أساعدك، يا راشيل، رجاءً".

"لا تقترب".

وهز رأسه في ما يشبه معارَضة والدٍ متألّم.

"أعرف أن الأمر صعب يا حبيبتي. ولكنه واقع الأمور. كما قلتُ، نحن نملك كل شيء، ونراقب كل شيء. لا فائدة من مواجهة الأمر. لا فائدة من المقاومة. إنه قدَرك. لا يمكنك الفرار من قدَرك. ستعودين إلى المنزل يا راشيل. رجاءً، لا تصعّبي الأمر على نفسك. اقبلي واقعك. عانقيه".

فانتصبت أمامه، ماسحةً فمها بكمّها. وللحظات، وقف الاثنان وجهاً لوجه، بارين يبتسم بلطف، وابنته محطَّمة ووجهها شاحب. وبعد ذلك، وبإيماءة بالرأس، رفعت المسدس وسدّدت وأطلقت النار.

وحدث انفجار معدني مع تحطّم قفل الحاوية.

"ما...".

شرع بارين بالاستدارة وهو يجرّ قدمَيه، محاولاً التحقق مما حدث. فدارت حوله، ودنت من الحاوية، ونزعت القفل المحطَّم وفتحت البابَين. أمامها، كان بِن - روي وخليفة واقفَين جَنباً إلى جَنب، مُربَكَين.

"اخرجا!". أمرت.

فترددا، غير واثقَين مما يتعيّن عليهما القيام به.

"اخرجا!".

فأذعنا.

"راشيل، ماذا...؟".

وسُمع وَقع خطوات راكضة مع قدوم الحارسين من وراء برج منصة ربّان السفينة، بعد سماعهما صوت الطلقة النارية. فوقفت جانباً، وصوّبت عليهما، ثم أطلقت النار بدقةٍ متناهية في أثناء خروجهما من الضباب، فتلقى أحدهما

رصاصة في جبينه والآخر في عينه، وسقطا جثتَين هامدتَين. توجهت إليهما، وانتزعت مدفعَي هيكلر الرشاشَين من أيديهما، ورمتهما للتحريَين. وسُمعت صَيحات في الأسفل، ووَقع خُطى رجال ينتعلون جزمات ويركضون في اتجاه المَعبر الجسري.

"غادرا المكان، من ذلك الاتجاه. فليس هناك حراس".

وأومأت بيدها في اتجاه مقدّمة السفينة. تردد التحرّيان مجدداً، فكرّرت الأمر للمرّة الثانية.

"تعالي معنا"، صاح بن – روي.

"اذهب، أيها المعتوه اللعين!".

أمسكت قميصه وسحبته عبر سطح السفينة، وتبعهما خليفة. وفي أثناء مرور هذا الأخير بجانب بارين، صوّب الهيكلر على الرجل المُسنّ. ودخل نزاعاً مع نفسه، محاولاً اتخاذ قرار بشأن إطلاق النار عليه مع وجود فرصة سانحة. فعرفت ما يدور في ذِهنه ودفعت الفوّهة بعيداً.

"دَعه لي"، قالت. "اذهبا. الآن".

والتقت نظراهما لجزء من الثانية. ومن ثم، وبإيماءة بالرأس تمتم: "شكراً لكِ". وانطلق وراء الإسرائيلي. استمرت بمراقبتهما حتى ابتلعهما الضباب، وعادت بعد ذلك إلى والدها.

"راشيل، لم يكن يُفترض بك في الواقع...".

"اخرس".

اقتربت منه شاهرةً سلاحها. كان وَقْع الأقدام المُسرِعة يقترب، غير أن هذا الأمر لم يكن يعني أي شيء لها. إنها في غرفة مع الوحش، وكل شيء آخر في الخارج، وهذا حالها عندما كانت فتاة صغيرة. دنت منه مباشَرةً، ووضعت فوّهة الغلوك على جبينه، فوقف هناك فحسب، منحنياً على إطار المشي، ومُميلاً رأسه قليلاً، وعلى وجهه مسحة لَهو وليس الخوف.

"آه يا راشيل، يا راشيل! هل هذا ما تريدينه حقاً؟".

إنه ذلك الصوت الرقيق المهدّئ نفسه الذي اعتاد استخدامه في أثناء اعتدائه عليها. إنه صوتُ إساءةِ المعاملة.

"هل هذا ما تريدينه يا راشيل؟ إذاً، رجاءً، تابعي إذا كان هذا الأمر سيشعرك بالتحسّن يا حبيبتي. اختلقي كل أنواع الخطايا التي تعتقدين أنني ربما أكون قد ارتكبتها. لا أُبالي بذلك. لا أُبالي البتة. فكما قلتُ لك، العائلة هي ما يهمني. ومعك، أعرف أن العائلة ستكون بين يدين أمينتين. أفضل الأيدي. إذاً، تابعي يا راشيل. أَريحي قلبك المتألم. اطرُدي شياطينك. وبالنسبة إليّ، سأموت سعيداً لمعرفتي أنني أُورث بارين من خلالك مستقبلاً زاهراً. يا الله! أنت تجعلينني أفتخر بك".

ونظر إليها بوجه مُشرق.

كان هناك توقف قصير عملت خلاله على تقوية عزيمتها، وتَقبُّل واقع أن لا سبيل آخر لديها للخروج من هذا الوضع، وأنه يتعيّن عليها القيام بذلك إذا كانت تريد التحرر من الشبكة العنكبوتية التي حاكها حولها. وبعد ذلك، نظرت إليه بوجه مُشرق؛ على نحو غير متوقَّع.

كان هناك ظل من الشك في عينَيه.

"راشيل، ما...؟".

"وداعاً يا أبي العزيز".

لقد بدا مُربَكاً للحظات. ومن ثم، اتسعت عيناه فجأةً من فَرط الذُّعر عندما رفعت السلاح عن جبينه، وطوت ذراعها، ودسّت فوهة المسدس في فمها.

"آه، يا الله! راشيل، لا تجرؤي...".

ودوّى انفجار مُصِمّ للآذان، وتلوّث وجه الرجل بكِسَر العظام والدماء، فيما سقط جسدها بعيداً عنه؛ مُحدثاً صوتاً مكتوماً على سطح السفينة.

* * *

كان خليفة وبن - روي في منتصف المسافة التي تفصلهما عن آخر السفينة، ويلفّهما الضباب، عندما دوّى الطلق الناري وراءهما. وسُمع الهتاف العالي "راشيل!"، تلته صرخة عميقة تعبّر عن الألم؛ كما لو أنها زئير حيوان مُصاب بجراح مميتة.

فتوقفا وتبادلا النظرات، غير متأكدَين مما حدث. وسُمعت صرخة عميقة أخرى، ومن ثم نداء تردّدت أصداؤه في الأرجاء كما لو أنه يُطلق عبر مكبّر صوت: "اعثروا عليهما! اعثروا على الحيوانَين القاتلَين!".

وشرعا بالركض.

وحين بلغا مقدّمة السفينة، تلمّسا طريقهما في اتجاه المَعبر الجسري. وما كادا يسلكانه حتى سمعا صَيحات في الأسفل ووَقع أقدام. لقد أرشدهما المرأة إلى مكان غير مناسب للهرب. كان هناك عدد كبير من الحراس الذين بدأوا يصعدون من الأسفل.

تراجعا، منسحبَين إلى المثلّث على سطح السفينة المؤلَّف من مقدّمتها والكُوّات الأرضية لمستودعات الحُمولات. كانت الرؤية في الضباب لا تتعدّى بضعة أمتار قليلة، ولكنهما لم يكونا بحاجة للتحقق من أنهما قد وقعا في شرَك. وسُمِعَت صيحات ووقعُ خُطى إلى يسارهما. وكانت هناك أصوات مماثلة أمامهما تقترب على امتداد جانبَي السفينة.

"اعثروا عليهما! اذبحوهما!".

نظرا إلى بعضهما، ومن ثم انفصلا تلقائياً من دون قول أي شيء. فتوجّه بِن - روي إلى اليسار مغطّياً أعلى المَعبر الجسري والقناة الضيّقة على سطح السفينة بين الدرابزين الجانبي للسفينة وعنابر الحُمولات المفتوحة. وتولّى خليفة مهمة مراقبة القناة القائمة بجانب الميناء.

حدّقا بالظلمة وقد شهر كل منهما مدفع هيكلر الرشاش، مُميلَين رأسَيهما إلى الأعلى، ومُصغيَين. مرّت عشرون ثانية مكدِّرة من التوتر، دنت خلالها أصوات خطوات الرجال منهما أكثر فأكثر، فيما ضاق الخناق حولهما بلا رحمة. وبعد ذلك، لاح شخصان فجأةً في أعلى المعبر الجسري، فأطلق بِن - روي النار عليهما من مسافة قريبة جداً وأرداهما. ورأى خليفة حركة أيضاً وأطلق رَشقاً من الطلقات. فاستعر إطلاق النار حولهما، وكان الجوّ يتذبذب بأزيز الطلقات النارية وصليلها لدى اصطدامها بالمعدن، فيما شقّت شُهُبٌ بيضاء ناجمة عن فرقعات عابرة حجاب الضباب. فاحتمى التحريّان وراء الجدار الفولاذي الوقائي والكُوّات الأرضية لمستودعات الحُمولات، وكانا يمدّان رأسَيهما لإطلاق النار ثم يحتميان مجدداً. وبتقدّم رجال بارين على امتداد جانبَي السفينة وعلى المَعبر الجسري فقط، تمكّن الاثنان من الاحتفاظ بموقعَيهما بالرغم من أن المهاجمين يفوقونهما عدداً إلى حد كبير. باستطاعتهما القيام بذلك ما دامت الذخائر متوفرة لديهما، ولكنها تتناقص بسرعة.

"غطِّني!" صاح بِن – روي.

مُطلِقاً رَشقاً أخيراً على امتداد جانبه من السفينة، انتقل خليفة إلى جانب بِن – روي وواصل إطلاق النار، فيما ركع الإسرائيلي، وتدحرج على سطح السفينة وصولاً إلى أعلى المَعبر الجسري، وتمسّك بإحدى الجثث الممدَّدة هناك وسحبها ووضعها وراء الكُوّة الأرضية. وكرر العملية مع الجثة الثانية، فيما الطلقات النارية تصلصل في الأرجاء. وتدحرج خليفة ليغطّي القناة القائمة إلى الجانب الأيمن، وربّت بِن – روي على الجثّتَين. كان كل من الرجلين المقتولين يحمل أم بيي5 مع قِراب مسدس، وسلاحاً يدويّاً من طراز سيغ سوير، إضافةً إلى مِمشطَي بندقية هيكلر موضوعَين في جيوب سُترتَيهما الواقيتَين، يتّسع كل منهما لثلاثين رصاصة. إنها ترسانة قليلة جداً. رمى مدفع هيكلر الرشاش نحو خليفة مع مِمشطَي ذخائر، واحتفظ بمماشط احتياطية لنفسه، ثم أطلق رَشَقاً آخر من الطلقات.

باستطاعتهما الصمود في الوقت الحاضر على الأقل، وسيحاولان في هذه الأثناء وضع تصوّر لكيفية الخروج من السفينة.

تواصل تبادل إطلاق النار لدقائق إضافية قليلة، والتحريان في مأزق حرِج، ورجال بارين عاجزون عن الاقتراب منهما. وبعد ذلك، سُمع صوت أقدام منسحبة، وساد صمت مخيف.

"ماذا سيفعلون؟". همس خليفة.

لم يكن بِن – روي يملك أي فكرة.

"لن يسمحوا لنا بالمغادرة، إنه أمر مؤكَّد".

وضعا أذنيهما على معدن الكُوّات الأرضية، وقلباهما ينبضان بسرعة، وهما يحاولان بيأس وضع خطة.

"هل يمكننا القفز برأيك؟" سأل بِن – روي.

"هل أنت مجنون؟ إن القفز عن ارتفاع أربعين متراً فيه الكثير من الخطورة. فالرصيف في أحد الجانبين، والصخور في الجانب الآخر، فيما زورق القطْر إلى الأمام. سنكون محظوظَين إذا كسرنا ظهرَينا فقط".

لم يتكبّد بِن – روي عناء مناقشة الأمر.

"نحن في مأزق"، كان ذاك تخمينه الوحيد.

واستمر الصمت عشر دقائق تقريباً في أثناء قيام متعقّبيهما بدراسة خياراتهم كما هو مُفترَض. ومن ثم، تردد فجأةً صدى ذلك الصوت الغاضب عبر سطح السفينة. إنه صوت بارين.

"لا أُبالي. أريدهما مقتولَين الآن! الآن، هل تسمع؟ قُم بذلك! اقتلهما! الآن! اقتلهما! إنه أمر!".

تبادل الاثنان النظرات، غير واثقَين مما يعنيه. وجاء الجواب على الفور. إذ سرعان ما شعرا باهتزاز عميق يُنذِر بالسوء، وبدأ فولاذ سطح السفينة بالتذبذب تحت أقدامهما مع تشغيل محركات السفينة. وفي الوقت نفسه تقريباً، هدرت الرافعة، وبدأت صناديق الشحن التي تحميهما بالانخفاض على غرار كل صناديق الشحن الأخرى على امتداد سطح السفينة، وانطوت فوق العنابر كصف من أحجار الدومينو الساقطة. تراجع الاثنان، وجثما وراء صاري الملاحة بالأقمار الاصطناعية عند مقدّمة السفينة تماماً، الذي يوفر لهما القليل من الحماية. وبينهما وبين برج منصّة الربّان، حيث تجمّع رجال بارين، مساحتان فارغتان بطول ملعبَي كرة قدم، لا يحجبهما أي شيء سوى الضباب.

"إنهم يتوجهون إلى عرض البحر"، قال بِن - روي. "وعندما تتوضح الرؤية سنصبح هدفَين سهلَين. سينالون منا من حيث يقفون على منصة الربّان. ستكون مباراة في الرماية على الديوك الرومية الحية. علينا المجازفة! علينا النزول على الدَّرَجات!".

وشرع بالاقتراب من درابزين المَيمَنة. وفي تلك الأثناء، سمع صيحات بالإضافة إلى هدير المحرك على الرصيف في الأسفل، ومن ثم سُمع صوت اصطدام مُصِمّ للآذان وصرير معدن منحرف. شيء ما - من المستحيل معرفة ماهيّته بالتحديد - انتزع المَعبر المتحرك من جانب السفينة، قاطعاً عليهما طريق الفرار الوحيد.

"قُضي علينا". قال بِن - روي.

ازداد صوت المحركات ارتفاعاً، كما ازداد اهتزاز سطح السفينة تحت أقدامهما، وازدادت أيضاً سماكة الضباب، ولم يُدركا أنهم يتحركون فعلاً إلا عندما بدأت أنوار مصابيح الرصيف تخبو شيئاً فشيئاً، منزلِقين بعيداً عن المَرسى في اتجاه

البحر. وعندما تجدّد إطلاق النار، وانهمر وابل متواصل وعشوائي من الرصاص على امتداد سطح السفينة، التزم الاثنان مكانيهما في مخبئهما الضيّق وراء صاري الملاحة.

"إلى أي مدى يمتدّ الضباب برأيك؟" سأل بِن - روي.

"كيف لي أن أعرف؟!".

أطلق خليفة وابلَين من الطلقات النارية من الهيكلر. كان باستطاعتهما الشعور بأن السفينة بدأت تتموّج، وأنبأهما الرَّفعات التي لا تلاحَظ بسهولة بأنهما يبتعدان عن الشاطئ في اتجاه أمواج أكبر حجماً. فبالاعتماد على صوت المحركات، كانت سرعتهما في ازدياد، والسفينة تجري في الاتجاه المعاكس؛ لن يضيّع رجال بارين الوقت في تحويل مسار السفينة. كانت أمامهما دقائق قليلة ربما، أو أقل.

"علينا أن نقفز"، قال بِن - روي.

لم يُجب خليفة، بل كان يراقب غرفة التحكم بالسفينة بواسطة الهيكلر.

"علينا أن نقفز"، كرر الإسرائيلي. "إنها فرصتنا الوحيدة".

"إنها قفزة من ارتفاع أربعين متراً! سوف نُقتَل!".

"سوف نُقتَل إذا بقينا هنا! علينا القيام بذلك".

"مستحيل! سنحسم الأمر بالقتال!".

"لا يمكننا حسم المسألة أيها الغبيّ اللعين! هناك عدد كبير منهم. لديهم قوة نارية كبيرة جداً. علينا أن نقفز قبل أن نخرج من الضباب. هيا بنا!".

وأمسك سترة خليفة، ولكن المصري أبعد يده.

"اقفز إذا كنت تريد ذلك، أما أنا فسأجازف هنا".

"خليفة!".

"لن أقفز!".

"علينا القيام بذلك!".

"لا!".

"لم نبتعد ميلاً واحداً عن الشاطئ بعد. سوف...".

"لا! لا!".

"باستطاعتنا أن نسبح...".

"تبّاً، لا أُجيد السباحة! هل تسمعني؟ لا أُجيد السباحة. وأنا أخاف الماء".

ورمق بِن – روي بنظرة ذليلة غاضبة، ومن ثم استدار وأفرغ محتويات مِمشط الهيكلر.

"اذهب أنت، أما أنا فسأبقى"، تمتم مُخرِجاً مِمشط البندقية الفارغ وواضعاً مِمشطاً مليئاً. "لا تقلق في شأني. هيا، اذهب".

حدّق به بِن – روي للحظات. وبعد ذلك، انتزع الهيكلر من قبضته ورماه جانباً.

"ماذا تفعل بحق الله!؟".

أمسك الإسرائيلي سترته بإحكام، وقرّب وجهه من المصري.

"سنقفز يا خليفة. هل تفهم؟ أنا سبّاح جيد. قُم بما أطلب منك القيام به، وسنكون بخير. إذا بقينا هنا فسيقضى علينا بالتأكيد. على الأقل، لدينا فرصة للنضال في البحر".

فتح خليفة فمه، مستعداً للاعتراض، وسرعان ما أطبقه مجدداً. وارتدّت رصاصة على صاري المِلاحة على بُعد سنتيمتر واحد من رأسه. ومرّت ثوانٍ عديدة، ومن ثم سأل خليفة:

"هل ستُمسك بي؟".

"بالتأكيد".

فرمقه خليفة بنظرة غير متحمسة. وبعد ثوانٍ قليلة، مدّ يده إلى داخل سترته، وأخرج دفتر مدوّنات سامويل بينسكر الذي كان يضعه طوال الوقت في جيبه الداخلي.

"خذ هذا. ربما لن أتمكن من... تعرف... إنه يُشير إلى مكان...".

فأخذ بِن – روي دفتر المدوّنات، وأعاده إلى داخل سترة خليفة.

"سوف نحيا يا خليفة. ثِق بي. سنعود معاً إلى منزلَينا. الآن، عندما نصطدم بالماء لا تقاوم، اتفقنا؟ استرخِ فحسب ودعني أوجّهك. اخلع حذاءك".

خلعا حذاءيهما. وهدأ إطلاق النار بشكل مفاجئ من الجانب الآخر للسفينة. مستفيدَين من ذلك، وقفا وتسلّقا درابزين مقدّمة السفينة. تحتهما، كان هناك فراغ من الضباب مع هدير مياه مُزبدة.

ألقى بِن – روي الهيكلر من يده، وأمسك سترة خليفة.

"سأعدّ إلى الرقم ثلاثة. اقفز إلى أبعد مسافة ممكنة. هل اتفقنا؟".

"تقريباً".

"واحد...".

"الله أكبر!".

"اثنان".

وتجدّد إطلاق النار.

"ثلاثة!".

وقفزا. في أثناء ابتعادهما عن سطح السفينة، شعر بِن – روي بضربة حادة وحارقة في الناحية الخلفية لساقه اليسرى، بين أُربيّته والناحية الداخلية لرِدفه. وفي لحظة من الإرباك، ظنّ أنها لسعة حشرة كبيرة. لم يكن يملك الوقت الكافي للتحقق من ذلك لأنهما كانا يهويان في الظلمة في اتجاه البحر تحتهما. وفي أثناء سقوطهما، تخيّل خليفة أنه لا يزال في المنجم، وأنه لم ينجح في القفزة ويندفع بسرعة إلى أسفل الفتحة، وأن كل شيء وكل ما حدث مذاك الحين مجرّد حُلُم؛ الرصيف، السفينة، المرأة المنتمية إلى نِمِسيس، بارين. وكان هناك تشوّش أخير في مخيّلته قبل أن يصطدم بأسفل فتحة التهوئة وتنطفئ أضواؤه إلى الأبد.

وبالنسبة إلى بِن – روي، لم تجد الفكرة الوقت لتتجذّر. فقد كانت هناك فترة مرحلية من التشوّش الكامل، وبدا كل شيء – الضباب، المياه المُزبدة، هدير المحرِّكات، فرقعة الطلقات النارية، الريح في وجهَيهما – مشوَّشاً مع أي شيء آخر؛ لدرجة أنه استحال عليه جمع الخيوط المنفصلة.

ومن ثم، في أثناء صرير عظامهما، وترنّح معدتَيهما، اصطدما بالماء وغطسا.

لقد فصلتهما قوة الاصطدام عن بعضهما، دافعةً بِن – روي في اتجاه، وخليفة في اتجاه آخر. وللحظات وجيزة ومشوَّشة، سمح المصري للبحر بجرفه، وكان جسده يغوص في ما شعر بأنه عمق هائل، فيما كانت المياه تغمره وتغطي وجهه وفمه وعينَيه، وتُحرّك شعره كدوّامة، وتبدو كما لو أنها تدفعه وتسحبه في آن. بعد ذلك، وبالرغم مما قاله بِن – روي له، استيقظت الرغبة في الحياة لديه، وشرع بالنضال، فلوّح بذراعَيه وساقَيه، راكلاً المياه، ومحاولاً بهَياج إبعادها عنه، وسَحْب

نفسه إلى الأعلى في اتجاه سطح الماء. كانت الفقاقيع تتدفق من فمه، ورئتاه تعملان بجهد، ودبّ فيه الذُّعر. كان باستطاعته سماع نفسه وهو يصرخ - صراخ مكبوت ملأ أُذُنَيه ورأسه - والشعور بنفاد قوته لدى تحريكه أطرافه لدرجة أن حركاته بدأت تتباطأ ما إن شرع بالنضال. واستمر بالنضال، محاولاً التشبّث بالفراغ، ومتحركاً بشكل لولبي، ومنعطفاً حتى فقد كل قدرة لديه على تحديد الطريقة المناسبة التي ترفعه ليصل إلى الهواء. خارت قواه أخيراً، وساد هدوء غير عادي. فتدفقت مياه البحر إلى داخل حَلقه، وأصبح ذهنه ضبابياً، وامتلأت عيناه بخليط من الألوان، وشعر بيدَيه وقدمَيه تنجرف بعيداً عنه كما لو أنه يتحلل ببطء.

"هذا ما حدث لعلي"، وجد نفسه يفكر. "فما مرّ به ابني أختبره الآن. أنا ذاهب إلى فتاي الصغير. سنكون معاً مجدداً".

لقد منحته الفكرة شعوراً غريباً بالاكتفاء، فاستسلم لقدره، وغرق في ملاذ عقله بينما كان يغرق في أعماق البحر، وعندها شعر بشيء ما يمسك ياقته. وكانت هناك عملية جَذْب كما لو أنه يُنتزع من نوم مريح. وفجأةً، خرج رأسه من تحت الماء، وسعل وغصّ في أثناء محاولته تنشّق الهواء.

"لا تقاومني يا خليفة!". وبدا صوت بن - روي بعيداً على نحو غريب كما لو أنه صادر من مكان ناءٍ. "استرخِ. استرخِ فحسب. أنت بخير. لقد أمسكتُ بك".

وبطريقة ما، وضع الإسرائيلي ذراعه تحته، وجعله يعوم، مُبقياً رأسه فوق سطح الماء في أثناء لهاثه ونضاله للتمكن من التنفس، وإخراج الماء من فمه ومنخريه.

"برِفق. دَعني أحملك. ثِق بي. أنا أُمسك بك. أنت في أمان".

وبدا الصوت أكثر قُرباً الآن. كان لا يزال يسعى للتنفس، ولاستعادة وعيه الكامل.

"أمسك بي يا بن - روي. رجاءً، أَمسك بي!".

وتمسّك بالإسرائيلي، غير آبه بمدى ظهوره بمظهر مثير للشفقة. كان يائساً كي لا يعود إلى تحت الماء مرة أخرى.

"استرخِ بحق الجحيم! رجاءً، عليك أن تسترخي وتساعدني وإلا لن أتمكن من القيام بالأمر بمفردي. استلقِ على ظهرك برِفق. أنا أُمسك بك. أنت في أمان".

قالباً إيّاه، وضع بِن – روي ذراعه تحت حلق خليفة، وطفا الاثنان على سطح الماء، وساقا الإسرائيلي تتحركان تحته. هناك شيء مطمئِن في الحجم الكبير للرجل وقوته، وبدأ خليفة يهدأ، سامحاً لبِن – روي بالإمساك به وتوجيهه.

"جيد. استرخِ فحسب. واصل التنفس".

كان لا يزال باستطاعتهما سماع هدير محرّك السفينة وفرقعة الطلقات النارية من حين لآخر. كانت الأصوات تزداد بُعداً شيئاً فشيئاً، وبِن – روي يتحرك في الاتجاه المعاكس. كانت المياه غير باردة كثيراً، وتلاطم الأمواج عالياً من دون أن يكون البحر هائجاً. لقد ساعدهما الضباب. ولو تمكن خليفة من رؤية الأضواء على الشاطئ ومدى بُعدهما عنها لأُصيب بالذُّعر. ولكن مدى الرؤية لم يكن يتخطّى أمتاراً قليلة في مختلف الاتجاهات، فهدّأ نفسه متوهِّماً أنّ برّ الأمان ليس بعيداً جداً.

"أعتقد أنه قد يكون باستطاعتنا القيام بالأمر"، قال.

"باستطاعتنا القيام بذلك بالتأكيد. أنت وأنا. فريق النُّخبة".

"آمل ألاّ تعود السفينة وتمرّ فوقنا".

"فلنعالج مشكلةً تِلوَ الأخرى".

جذّف بِن – روي برِفق لدقائق قليلة، ومن ثمّ أبطأ وتوقف، محرِّكاً قدمَيه في الماء، ومناضلاً لإبقاء خليفة طافياً.

"هل أنت بخير؟". سأل المصري.

"أنا ألتقط أنفاسي قليلاً. إذا كان باستطاعتك تحريك ساقَيك قليلاً، فإن ذلك قد يساعدني".

حاول خليفة الركل بقدميه، فانتهى به الأمر متخبّطاً في الماء، وجارّاً بِن – روي معه تحت سطح الماء.

"لا تقلق"، سعل بِن – روي وهو يعود إلى سطح الماء. "ربما يكون من الأسهل لو تركت لي مهمة القيام بذلك".

وواصل التجذيف برِفق، ساحباً خليفة معه، وساقاه تركلان، عِلماً أنه بدا لخليفة أن إحدى ساقيه تتحرك بصعوبة أكثر من الأخرى. انقضت دقائق قليلة أخرى، وبعد ذلك أبطأ الإسرائيلي وتوقف مجدداً وهو يلهث.

"ما الأمر يا بِن – روي؟".

"أعتقد أنني أُصبت برصاصة عندما قفزنا. لا شيء يدعو للقلق. إنها تسبّب لي القليل من الألم. لو كان باستطاعتي التقدم ببطء...".

وتمايل للحظات مهمهماً، ومناضلاً لإبقاء نفسه وخليفة فوق سطح المـــاء، ثم واصل التجذيف مجدداً. هذه المرة، تمكّن من الصمود لمدة دقيقة واحدة فقط قبل أن تخور قواه.

"آسف، يا خليفة، أحتاج فقط إلى...".

ونـــزل رأسه تحت الماء، ثم ظهر مجدداً. حاول خليفة مســـاعدته، وركـــل بساقَيه، ولكنه كان يزيد الأمور سوءاً. لقد سعلا وغمغما، وعادا للتمـــدد علـــى ظهرَيهما مجدداً بطريقة ما، وأحدثا رذاذاً لمدة ثلاثين ثانية أخرى قبل أن يتوقـــف بِن - روي مرة أخرى. كان يناضل بشكل سيّئ.

"دعكَ مني"، قال خليفة. "انجُ بنفسك. دعكَ مني فحسب".

"لا تكن سخيفاً".

"لا تسير الأمور بشكل جيد يا بِن - روي. نحن بعيدان جداً. أَنقذ نفســـك على الأقل".

"أنا بخير، لو كان باستطاعتك فقط...".

وشرع خليفة بدفعه، محاولاً إرغامه على الذهاب بمفرده، ولكن بِـــن - روي لم يسمح له بذلك. وناضلا للحظات، وكانت الأمواج المتلاطمة تبتلعهمـــا تـــارةً وتلفظهما طَوراً، وهما يلهثان ويتخبّطان. وبعد ذلك، تسمّر بِن - روي في مكانـــه فجأةً.

"ما هذا؟!".

كان هناك شيء ما يلوح خارج الضباب؛ شيء ما كبير وداكن، كبير جداً، ينساب في اتجاههما على سطح الماء. فظنّ خليفة مذعوراً، أنه قرش أو حوت، ومدّ ساقَيه إلى الأمام لركله. وفي أثناء قيامه بذلك، ارتفع ذاك الشـــيء علـــى إحـــدى الموجات وتوجّه نحوهما مباشَرةً.

"ورد النيل!". صاح، وتحوّل خوفه إلى سعادة. "الحمد لله، ورد النيل!".

لم يكن بِن - روي يملك أي فكرة عما يعنيه ذلك، ولم يأبَه به. فكل ما يهمّه هو أنه بساط كبير عائم من النباتات ظهر بأعجوبة من العدَم؛ تشابك كثّ مـــن

الجذور والأوراق بدا قابلاً للعوم على سطح الماء عندما ضربه بيــده. إنــه أشــبه بطَوف. متنهّداً ومتخبّطاً ولاهثاً، ويشعر بنوبات من الألم في ساقه المُصابة، تمكّــن بطريقة ما من رفع خليفة في اتجاهه، وبذل المصري قُصارى جهده لوضع جســده بأكمله حتى ركبتَيه على الطَّوف. ثم شقّ بن - روي طريقه إلى الجانــب الآخــر، ورفع نفسه في اتجاه الطَّوف، متمسّكاً به ومتسلّقاً إيّاه بصعوبة إلى أن خرج مــن الماء حتى مستوى خصره.

"الحمد لله".

لقد استلقيا هناك للحظات، ملتقطَين أنفاسهما، والنباتات تتمــاوج برِفــق تحتهما كما لو أنها فرشة لايلو كبيرة، وهدير السفينة لا يزال مســموعاً وبعيــداً؛ عِلماً أن الطلقات النارية توقفت كما يبدو. وبعد ذلك، بذل بن - روي جهــداً للاستدارة، وتحسس الناحية الخلفية لفَخذه. كان هناك ثقب في سروال الجينــــز، وشعَر بتدفق الدماء. لم تكن إصابته بالغة، وقد أراحه ذلك. لم يستطع إيجــاد أي جرح آخر يشير إلى خروج الرصاصة.

"هل أنت بخير؟". سأل خليفة.

"أفضل بكثير الآن بعد انتهاء درس السباحة".

"لقد أُصبت بالتأكيد. أليس كذلك؟".

فأكد له بن - روي ذلك، ولكن الإصابة لم تكن بالغة جداً.

"أعتقد أن الرصاصة ما زالت في الداخل، ولكنني لا أفقد الكثير من الــدماء، ولا أشعر بألم قويّ كما في السابق. باستطاعتي وضع مِرقأة* حولها...".

متلمّساً بيده، غرق وجهه في بساط الأوراق، وتمكن من انتزاع حِزامه ولفِّــه حول الناحية العُلوية لفَخذه. عاد بالذاكرة إلى الوراء للحظــات عنــدما ظــنّ أن موتهما محتوم. أما الآن، فها قد خرجا من الماء - جزئياً - وشعر باطمئنان أكبر. لا يمكن أن يكونا بعيدَين جداً عن الشاطئ، وعندما تنقشع الرؤيــة فباســتطاعتهما الركل معاً وشق طريقهما على متن الطَّوف، وإلا فسينتظران ليتمّ انتشالهما. كــان قلقه الوحيد أن تعود السفينة وتمرّ فوقهما، ولكنه بحر فسيح وسيكونان بخير كمــا

* شريط مطاطي يلفّ بإحكام حول موضع الإصابة لوقف سيلان الدم.

يُؤمل. فكما سبق له أن قال لخليفة، فلنعالج مشكلةً تِلوَ الأخرى. إنّــه بأمــان في الوقت الحاضر، وشعر باسترخاء غير عادي، وبأنه مُستنــزَف القــوى، ولكنــه مسترخٍ ومبتهج تقريباً. وشدّ الحِزام بإحكام.

"كانت نمِسيس أجندا تلك منبِّهاً لنا إلى حد ما، أليس كذلك؟" همهــم رابطــاً الحِزام. "لقد أخطأتُ التقدير، ولا أعتبر ذلك تزكيةً لتدريس أصول التحقيق المتقدّم!".

لم يكن خليفة يعرف ما يتكلم عنه بِن - روي، ولم يتكبد عناء الاســتفهام، بل استلقى على بطنه، ومدّ يده وأمسك يد الإسرائيلي.

"شكراً لك لإنقاذك حياتي مرةً أخرى".

فلوّح بِن - روي بيده.

"الفاتورة في مركز الشرطة".

تمايلا لفترة وجيزة، مشبوكَي اليدَين، والضباب يلفّهما كبطانية، ولم يســمعا سوى صوت الماء في أثناء قيامهما بالتجذيف. ومن ثم:

"قلتُ بعض الأمور يا بِن - روي، عبر الهــاتف. بعــض الأمــور الســيّئة. رجاءً...".

"كلانا قلنا بعض الأمور السيئة. لننسَ ذلك".

وبعد لحظات:

"مُحِب للنساء".

"وغد".

وضحكا، وقهقها كزميلَين قديمَين. كانت ساق بِن - روي قد بدأت تنبض بالألم مجدداً، وبقوة، ولكنه لم يبدُ مهتمّاً. كان يشعر بالسعادة. ما هذا الجنون؟

"سأقوم بكل ما يلزم للمساعدة"، قال بِن - روي. "في شأن بارين وزوسِر. سنتمكن منهما معاً. أعِدك. لأجل علي".

واشتدت قبضة المصري على يد بِن - روي.

"شكراً لك، يا آري. أنت صديق مُخلص".

"وأنت أيضاً، يا يوسف. إنك الأفضل".

فطوال مدة معرفتهما ببعضهما التي امتدّت أربع سنوات، كانت تلك هــي المرة الأولى التي يستخدمان فيها اسمَيهما الأولَين؛ حتى إنهما لم يلاحظا ذلك.

وساد صمت طويل آخر، وهبت ريح خفيفة بدّدت الضباب. ومن ثم، رفع بِن - روي رأسه بعد أن تبادرت إلى ذهنه فكرة فجائية.

"اسمع، ربما ليس هذا هو الوقت المناسب لذلك، ولكنني كنت أريد أن أطلب منك أمراً ما، معروفاً صغيراً لأجل الطفل. لا أعرف إذا كنتَ تريد أن..." ولم يُنهِ الجملة. فقربه كان هناك صوت شخير منخفض، والمصري نائم.

"تبّاً"، تمتم بِن - روي.

وهزّ رأسه، ووجّه صفعة لَعوب لرفيقه على خدّه، ومن ثم تلوّى واستلقى على ظهره، وساقاه متدلّيتان في الماء، وذراعاه ممدودتان في اتجاه اليمين واليسار. لقد شعر بأن النَّزف يزداد قوة حتى بوجود المِرقأة، ولكنه لم يكترث. لماذا القلق؟ إنه على الطَّوف، وصديقه بجانبه، وكلاهما حيّان، والمياه ليست باردة جداً، وحركة البحر تبدو جيدة تحتهما.

مرّت دقائق إضافية أو ربما ساعات، لا فكرة لديه، ولم يهتم. وهبّت الريح مرة أخرى، أكثر قوة هذه المرة، فضحك بصوت مرتفع لأن فجوة فُتحت في الضباب فوقه مباشَرةً وتمكن من رؤية النجوم. عناقيد سحرية مُفرحة من نجوم زرقاء متلألئة شبيهة بذبابات سِراج الليل. إنه أجمل شيء رآه يوماً. ورفع يده في اتجاهها.

"سأكون هناك"، همس. "أعدك. كنت موجوداً على الدوام لأجلك، يا فتاي الصغير، أو يا فتاتي الصغيرة. لن أخذلك أبداً. أعدك".

وابتسم مع انقشاع الرؤية، وظهور المزيد من النجوم في كَبِد السماء وامضة ومتلألئة؛ درب من الأضواء يدعوه للعودة إلى الوطن حيث الذين يحبهم.

وبدأ يدندن.

في وقت متأخر من صباح اليوم التالي، تمكّن خليفة أخيراً من العودة إلى الأُقصُر.

كان بِن - روي قد طار إلى هيوستن مباشَرةً لتحريك الأمور ضد بارين. ولكن خليفة أراد أن يكون مع عائلته، فأبلغ الإسرائيلي بأنه سيكون على متن رحلة جوّية تُقلع في وقت متأخر.

وحالما رأى زينَب واقفة خارج مجمَّعهم السكني، علم أن أمراً ما حدث في غيابه. فحاول أن يسألها عما يجري، ولكنها أسكتته ولوّحت له في اتجاه الأعلى.

"تعالَ بسرعة"، قالت. "عليك أن ترى".

تبعها إلى داخل الشقة. كان دي في دي ماري بوبينز الخاص بعلي مُشغَّلاً بأعلى صوته في غرفة الجلوس على أغنية *لنذهب ونطيّر طائرة ورقية* بكلمات الترجمة المصرية: *سنرسل طائرتنا الورقية إلى السماء*. وشرع يطلب منها تخفيض الصوت كي لا تُزعج المرأة في الطابق السُّفلي، ولكنها أسكتته مجدداً.

"عليك أن ترى"، كررت. "لن تصدّق ذلك".

ودنَوا من باب الحمّام، وسمع صوت مياه جارية في الداخل.

"هيا، يا زينَب، كفى عبَثاً. ما...".

وعلقت الكلمات في فمه في أثناء قيامها بفتح الباب. كان صنبور الدُّشّ مفتوحاً، ورذاذ الماء يتطاير على الأرض. وتحت الدُّشّ اندفع رأسه المبتلّ إلى الوراء ضاحكاً...

"علي"، غصّ خليفة، واستند إلى إطار الباب. "ابني! ابني!".

وقف هناك للحظات. ومن ثم صرخ صرخة عميقة وجامحة ومبتهجة، وهرع إلى داخل الغرفة، وقفز إلى تحت الدُّشّ بملابسه، ضامّاً ابنه في عِناق مِلؤه الغِبطة، مُجهِشاً بالبكاء من شدة الفرح. وسقطت المياه كالشلال على شعره ووجهه، مبلّلةً إيّاه تماماً، وداخلةً إلى عينَيه وأنفه وفمه، وجاعلةً إيّاه يسعل ويغرغر، من دون أن يأبه بذلك.

"علي!". صاح. "علي! علي!".

واستيقظ.

إنه الفجر. كان في فمه مَذاق الملح، وملابسه مُشبَعة بالماء، وحوله بحر أزرق مائل للخُضرة ممتدّ في كل اتجاه. استلقى للحظات مربكاً. ومن ثم، وبعد أن استفاق جيداً، بدّل وِضعته ومدّ رأسه. وفي أثناء قيامه بذلك، ارتفع ورد النيل على الأمواج المتلاطمة، ورأى خطاً ساحلياً أصفر على بُعد كيلومتر واحد، وربما أكثر قُرباً. لم يرَ أي أثر للسفينة ولا حتى للرصيف. لا بد أنهما انجرفا على امتداد الشاطئ في الليل، عِلماً أنه لم يكن يملك أي فكرة عن المكان الذي يتواجدان فيه.

"آري".

واستدار نحو الإسرائيلي، غير أنه لم يكن هناك.

"آري؟".

لا جواب.

مُفترضاً أن صديقه قد علِق في مكان ما داخل أوراق ورد النيل، كما علق علي، رفع نفسه بضع بوصات، مُلقياً نظرة على امتداد طَوف النباتات جيئة وذهاباً.

لا أثر له. فشعر برعدة ذُعر.

"آري! بِن - روي!".

لا شيء.

حاول رفع نفسه أكثر فأكثر، ولكنه أضاف وزناً على الطَّوف واندفعت ذراعاه عبر نسيج جذوع النباتات، وسقط على وجهه وامتلأ فمه بالماء. ربما سبح الإسرائيلي في اتجاه الشاطئ؟ لقد ذهب لإحضار مساعدة بعد تبدُّد الضباب. أجل، لا بد أن يكون هذا واقع الحال. لقد تركه نائماً وسبح نحو الشاطئ. يا للغبي المجنون! وحاول مجدداً رفع نفسه، فاندفعت ذراعاه مجدداً عبر الطَّوف إلى مياه البحر تحته. وفي الوقت نفسه، ارتفع ورد النيل ورأى شيئاً ما إلى يمينه على بُعد عشرين متراً تقريباً. في البداية، لم يتمكن من التحقق من ماهيّته، ولم يعرف جينز بِن - روي وسترته إلا بعد أن رفعته دفعةٌ أخرى من الأمواج المتلاطمة. كان طافياً هناك، ذراعاه مفتوحتان إلى الجانبَين، ووجهه إلى الأسفل، يحدّق في الأعماق.

لا بد أن خليفة لم يكن مستيقظاً تماماً لأن الفكرة الأولى التي تبادرت إلى ذهنه هي أن الإسرائيلي يبحث عن السمك. لقد تطلّبه الأمر بضع ثوانٍ ليدرك أن الفجر قد بزَغ. حينئذٍ، أطلق هتافاً يائساً.

"آه يا الله! لا، أرجوك يا الله، لا! آري! آري!".

وحاول الركل بساقَيه والتجذيف بإحدى ذراعَيه لدفع ورد النيل في اتجاه بِن - روي، ولكن بدون جدوى. وكل ما كان باستطاعته القيام به هو الاستلقاء هناك مراقباً جثة صديقه وهي تتحرك صعوداً ونزولاً، فيراها تارةً وتغيب عن ناظرَيه طَوراً، منادياً اسمه مراراً وتكراراً.

"آري! آري!".

ونادى ابنه أيضاً. فكلاهما يتماوجان معاً ويسبّبان له حزناً لا يُحتمَل.

"آري! علي! آري! علي!".

وظلّ على هذه الحال لمدة ساعة تقريباً، منادياً بصوت أجشّ. وبعد ذلك، كان هناك تلاطم أمواج مرتفعة بصفة خاصة، واقتربت جثة بِن - روي منه فجأةً، وباتت على بُعد بضعة أمتار. طفت هناك للحظات، وبدت إحدى ذراعَيه ممتدة في اتجاه خليفة - "كما لو أنه يُلقي عليّ تحية الوداع"، كما وصف المصري في وقت لاحق - قبل أن ينزلق صديقه ببطء وسلام تحت الأمواج ويختفي إلى الأبد.

"آري! علي! آري! علي!".

* * *

لقد تمّ انتشاله بعد ثماني ساعات، وفي وقت مبكّر من بعد الظهر، من قِبَل مركب صيد خرج من روزيتا. لقد طرح عليه الصيادون الكثير من الأسئلة عما يفعله على جزيرة من ورد النيل. وإجابةً عن أسئلتهم، أخرج محفظته المنتقِعة بالماء وشهر بطاقة الشرطة.

فأعطوه بعض الملابس الجافة وتركوه بمفرده.

كان التيار قد دفعه إلى الغرب، وتطلّبهم الأمر ساعة تقريباً ليبلغوا مصبّ النيل. فجلس على كومة من الشباك، يدخّن سجائر حصل عليها من الصيادين واحدةً تِلوَ الأخرى، محدّقاً بخط الساحل، وواضعاً في حضنه دفتر مدوَّنات ساموي بينسكر الذي أتلفته الماء وتحوّلت أوراقه إلى كتلة عجينية لا تُقرأ بسبب مياه البحر. كان يُفترض به الشعور بالذَّنْب بسبب ذلك. كان يُفترض به الشعور بالكثير من الأمور، ولكنه لم يشعر بشيء.

لقد بقي شيء واحد فقط؛ يقين تام لا يتزعزع بما يتعيّن عليه القيام به.

أنا أذكّرك كيف تجري الأمور في هذا البلد، يا خليفة. هناك أشخاص لا يجوز لك المساس بهم سواء أحدثت ثورة أم لا.

سيهتمّ بذلك.

بلغوا مصب النيل، واستداروا جنوباً متجهين إلى وسط النهر. كان رصيف زوسِر مرئياً بوضوح على الشاطئ الغربي. لا أثر لسفينة الشحن، بل هناك صَندلا نيل راسيان على امتداد الواجهة الأمامية لرصيف المرفأ، وتقوم الرافعات

العملاقة بتحميلهما بالبراميل ببطء. راقب للحظات، غير آبه بالأمر برمّته على نحو غير عادي؛ الأُقصُر هو المكان الذي يحتاج إلى أن يكون فيه. فاستعار أحد هواتف الطاقم الخلَوية وأجرى ثلاثة اتصالات.

لقد اتصل أولاً بزينَب وأبلغها أنه بخير. وبدا في صوتها غضبٌ بسبب الطريقة التي عاملها بها، وارتياحٌ لأنه سالم. لم يكن باستطاعته تحديد الشعور الذي يطغى على الآخر، ولم يتكبد عناء اكتشاف ذلك. فأخبرها أنه سيعود إلى المنزل في وقت متأخر من ذلك المساء، وأنهى المكالمة.

أجرى الاتصال الثاني بالسفارة الإسرائيلية من دون ذِكر اسمه. أبلغهم بوفاة أحد مواطنيهم في حادث، شرطي يدعى آري بِن - روي، من القدس. ولم يُضِف أي شيء، وقال إنه سيتصل في وقت لاحق لتوفير المزيد من التفاصيل.

وكان الاتصال الثالث والأخير بالعريف أحمد مِهتي في حقل الرماية التابع لمركز شرطة الأُقصُر. شرح له ما يحتاج إليه، وقال إنه سيمرّ به عند السابعة مساءً إذا تمكّن من ذلك. وقال له إنه إذا كان باستطاعته تأمين حقيبة نَقل، فسيكون ذلك أفضل.

وبعد ذلك، جلس صامتاً وهو يقلّب الأمور في رأسه، محاولاً تصوُّر الخرائط التي عرضها الرئيس الحسَني عليهم في الأسابيع القليلة الأخيرة، وعمليات الانتشار بالضبط. هناك ثغرة، وكان واثقاً من ذلك، قرب تَحتمِس الثالث، إضافةً إلى طريق تمتد من الجانب الجنوبي للكتلة الجبلية. من الممكن إحكام القبضة في الدقيقة الأخيرة، وإغلاق الثغرة، ولكن عليه المجازفة.

القانون لا يطال شركات مثل بارين، أو زوسِر. لا يطال آيّاً منها. والطريقة الوحيدة للتغلّب عليها هي اتّباع أساليبها، وتوجيه الضربة.

رسوا في روزيتا قبل الثالثة من بعد الظهر بقليل. مُحتفظاً بالحذاء الذي أعطوه إيّاه، استبدل ملابسه المقترَضة بملابسه القديمة غير الجافّة، ونزل إلى الشاطئ، غير متكبّدٍ عناء شكر الطاقم. سار كملاّح آلي، واشترى علب دخان كليوباترا من بائع متجوّل، ودخل وسط البلدة سَيراً على الأقدام، واستقلّ سيارة أجرة إلى الإسكندرية. وصل إلى المطار بعد ساعة. وبعد ثلاث ساعات، أُعيدت له تذكرة العودة إلى الأُقصُر.

كان يفكر طوال الوقت بعلي، وبِن - روي، والمنجم المليء بالنفايات السامّة، وبالثغرة الموجودة قرب تَحتمِس الثالث، وبالمِحور الذي يحقق التوازن لكل عالمه.

وصل إلى حقل الرماية التابع للشرطة عند السابعة وعشرين دقيقة.

"لا يُفترض بهذا الشيء مغادرة المكان من دون تفويض رسمي"، حذّر العريف مِهيَ، مُسلِّماً إيّاه حقيبة خَيش كبيرة. "ولكن، بما أنك من...".

فقبل خليفة الحقيبة، ودسّ دفتر مدوَّنات بينسكر في أحد جيوبها المزوَّدة بسحّابات، ووقّع على استمارات التسلّم. لم يقدّم أي شرح، ولم يطلب منه مِهيَ ذلك. فهما يعرفان بعضهما منذ مدة طويلة، وكان العريف يثق به. وأمل خليفة ألاّ يُقحم الشرطي القديم في المتاعب، ولكن إذا حدث ذلك... حسناً، لا يمكن إصلاح الأمر. لا يمكن إصلاح أي شيء بعد الآن. ولا شيء يهمّ بعد الآن، باستثناء الثغرة. أرجوك يا الله لا تدَعهم يُحكِمون الطَّوق.

حمل الحقيبة، واستقلّ سيارة أجرة حتى النهر، ومن ثم ركب زورقاً آلياً في اتجاه الضفة الغربية، وبعد ذلك استقل سيارة أجرة أخرى إلى أسفل التلال الطيبيّة. وفي الجانب البعيد لتلك التلال يقع وادي الملوك في الكتلة الجبلية كما لو أن شوكةً ضخمة قد استُخدمت لحفره. وبسبب افتتاح المتحف الليلة بحضور شخصيات هامة، سيكون كل درب في الوادي مضاءً بأنوار كشّافة ومليئاً برجال الشرطة. ولكن، بالاتجاه جنوباً على امتداد السلسلة الجبلية، مروراً بمدينة هابو، وحقل ملقاطا حيث الأنقاض والخزَفيّات المبعثَرة، ودير *دير المهرِّب* بقببه المماثلة لخليّة النحل وجدرانه المبنيّة بآجر طيني، افترض أنه سيكون قادراً على المرور بجانب النِّطاق. وهكذا كان. لقد سلك درباً غير معروف في اتجاه الناحية الخلفية للتلال، ودار حولها، وشقّ طريقه نحو الجُروف عند رأس الوادي، والشِّقّ الذي يتوارى في داخله مدفن تَحتمِس الثالث. وإلى يسار ذلك الشقّ، تنتأ من الجُروف قائمةٌ فيل ضخم تخطو، وأرضٌ مرتفعة ومسطّحة تُشرِف على منظر مباشَر لا يعيقه عائق، ويمتد من الوادي حتى وسط المتحف. إنها نقطة الضعف؛ الثغرة. إنه المكان الذي لم يقلق أحد بشأنه لأن أحداً لا يمكنه الوصول إليه بسبب تغطية كل الدروب القائمة فوق التلال. ولكنه وصل إليه، وسيقوم باستخدامه.

تمهّل للحظات، معايناً المنحدرات، ومتأكداً من عدم قيام أحـــدهم بمراقبـــة الأرض المرتفعة الناتئة، ومن ثم واصل سيره. وصل إلى جدار صخري منخفض يمتد حول حافة الأرض المتقوّسة؛ مِصدٌّ للريح يعود تاريخه إلى ثلاثة آلاف عام استخدمه حراس الوادي الأقدمون. فجثم وراءه. وأمامه، على بُعد أقل من ثلاثمئة متر، كان صفّ من الأنوار الكشّافة يُضيء الواجهةَ الزجاجية والحجرية للمتحف الجديد. إنه متحف بارين في نِكروبوليس الطيبيّة.

وأمام المتحف، ظهرت بوضوح المنصة الخشبية التي تَجمّع عليهـــا الوجهـــاء لمشاهدة احتفال افتتاح المبنى.

وفي مكان ما وسط أولئك الوجهاء...

أخفض رأسه، وفتح سحّاب الحقيبة، وأخرج البندقية بهدوء. إنها بندقية قنّاص من طراز دراغونوف أس في دي 7.62 ملم، من تصميم روسي وصناعة مصـــرية، مداها الفعلي 1300 متر، أي أكثر مما يحتاج إليه بألف متر. فوضع المِمشط الـــذي يتّسع لعشر طلقات - أكثر مما يحتاج إليه بتسع طلقات - ورفع رأســـه مجـــدداً، وتمركز، واضعاً ذراعه اليسرى على أعلى الجدار، ومثبّتاً المِقبض الخشبـــي علـــى كتفه اليمنى. لافّاً إصبعه على الزِّناد، وضع عينه على مِنظار التصويب. فجأةً، زالت المسافة الفاصلة، ووجد نفسه هناك مع الوجهاء على المنصة.

فالرئيس الحسَني هو أول شخص رآه. كان شبيهاً بالثور ومتعرّقـــاً، ويجلـــس على مقعد في الناحية الخلفية للمنصة، وعُنُقه ينتأ خارج ياقة قميص بيضاء ضـــيّقة جداً. وبهمهمة خالية من أي حسٍّ بالفكاهة، تساءل عما إذا كان يُفترض به إرداءه أيضاً سيّما وأن الفرصة مُتاحة له. ووجّه البندقية إلى اليمين، معايناً المنصـــة. لقـــد عرف وجوهاً قليلة من مصلحة التُّحف الفنية القديمة: مصطفى أمين؛ رئيس المجلس الأعلى للتُّحف الفنية القديمة، الدكتور مصري المصري؛ مدير مصلحة التُّحف الفنية القديمة في الجبال الطيبية الغربية، والذي يشغل منصبه هذا منذ مدة طويلة، إضـــافةً إلى عدد قليل من المسؤولين الحكوميين المحليّين. فالصف الأمامي هو ما أثار اهتمامه في الواقع، وقد ثبّت مِنظار التصويب عليه، متتبّعاً خط الوجوه. وزيـــر الداخليـــة، الحاكم الإقليمي، رئيس بلدية الأُقصُر، زاهي حوّاس، شخصان أجنبيان، أحـــدهما السفير الأميركي كما اعتقد.

وفي وسط الصف ناتانيال بارين الجسيم والمتجهّم والذي يرتدي بذلة تويد ثقيلة بالرغم من حرارة المساء، وقناع الأكسجين مثبَّت كالبَطلينوس على وجهه. كان قد خشي من قيام بارين بالامتناع عن حضور الاحتفال بسبب أحداث المساء السابق، ولكنه موجود ويهيمن على المشهد كتمثال فرعوني ضخم متأمِّل أنهكته عوامل الطبيعة.

واضعاً الرأس الأشيب ضمن بؤرة مِنظار التصويب، شدّ خليفة إصبعه، وعاد الزِّناد إلى الوراء.

سيتم القبض عليه بدون شك. فلحظة إطلاقه العيار الناري، ستُحكم حلقة من أربعمئة شرطي الخِناق عليه كأُنشوطة جلاّد. وإذا لم يُطلقوا النار عليه لدى رؤيتهم إياه، فسيُجرّ بعيداً ويُعدَم رَمياً بالرصاص أو شنقاً في وقت لاحق. وإذا لم يتم إعدامه، فسيصدر بحقه حكم بالسجن لمدى الحياة وبتحطيم الصخور في مقالع طرّة، وهو أشبه بحكم الإعدام. وستتحمّل عائلته أيضاً - زينَب، بطّاح، يوسف الصغير - وِزر عمله. سيُطرَدون من شقتهم، ويُنبَذون نظراً إلى كونهم أنسباء مجرم شهير.

لم يكن يُبالي، حتى إنه لم يكن يفكر في ذلك. فكل ما يفكر فيه هو قتل الرجل الذي قتل ابنه، وصديقَه، وقتله أيضاً بطريقة ما. الرجل الذي يُعتبر رمزاً لكل أمثاله الأثرياء كثيري النسيان؛ الأشخاص الفاسدين الذين لا يجوز المَساس بهم، مسيئي المعاملة المتمتعين بامتيازات، مسبِّبي المآسي. فعلى غرار مُدمن مخدرات يتحرّق لتناول جرعته التالية، لم يكن احتمال فقدانه المال يعني له شيئاً، حتى إن ذلك لم يُحدث أي انطباع في نفسه. فكل تركيزه منصبّ على عملية الإطلاق؛ الضغط على الزِّناد، ثقب الإبرة، لحظة زوال السواد وعودة كل شيء في العالم إلى الطريق القويم مجدداً.

أرى ذلك في عينَيك يا يوسف. إنه نابع من الغضب، والكره، والألم، ولا يمكن إلا أن يؤدّي إلى مزيد من الألم.

ولكن، قد لا يعود هناك المزيد من الألم. لقد عانى الكثير، متاهة من الألم، وهذا هو المخرج الوحيد.

... استخدام الوسائل القذرة التي يستخدمونها.

وضغط إصبعه نصف درجة إضافية، مُعيداً الزِّنبرَك إلى الوراء، وبؤرة مِنظار التصويب مركّزة على وسط رأس بارين الأكبر حجماً من المعتاد. كان باستطاعته سماع عزف الموسيقى، *بلادي، بلادي، بلادي*، النشيد الوطني المصري. وفي الناحية الأمامية للمنصة، كان أحدهم يُلقي خُطبة يُطري فيها على شركة بارين، ممتدحاً فضائل الشركة، وشاكراً لها سخاءها الرائع مع شعب مصر.

الله سيكون قاضي هؤلاء الأشخاص. فهو، سبحانه وتعالى من سيعاقبهم، وليس أنت.

إنّ القانون عاجز بالتأكيد في وجه هؤلاء. فالأولوية لأمثال بارين في هذا العالم الذين يدوسون على أمثال خليفة، وبن - روي، وريفكا كلينبرغ - وعطيّة، وحِلمي، وساموئيل بينسكر، وإيمان البَدري - بدون أن يلتفتوا أو يكترثوا. هل هناك وسيلة أخرى يمكنه اتّباعها؟ كيف يصوِّب الأمور بطريقة أخرى؟

سأقاتل إذا اضطُررت لذلك. ربما أكون فقيراً، ولكنني لا أزال رجلاً.

وطرَف عينَيه لإبعاد قطرة عرق، وسحب الزِّناد مقدار ربع مليمتر إضافي وصولاً إلى حافة إطلاق النار. لقد بدا الأمر كما لو أنه يقف أمام جدار من الزجاج الرقيق برِقّة الورقة قد يتمزّق مع أخف نسمة.

وقف بارين محرّكاً نفسه على ساقَين منتفختَين، وهو يجرّ خُطاه في اتجاه الناحية الأمامية للمنصة بمساعدة إطار المشي. وكان هناك تصفيق وتنحنحٌ أجشّ وسعال مع إنزال الرجل المُسنّ قناع الأكسجين، وزعيق تشويش في أثناء ضبط *الميكروفون*. وشرع بالكلام.

ولكنه لم يكن يتكلم، أو على الأقل، إن ما سمعه خليفة ليس صوت بارين. راكعاً هناك والبندقية مثبَّتة على كتفه، وإصبعه ملتفّة بإحكام حول الزِّناد، وكل عالمه مركَّز في مسافة الأمتار الثلاثمئة التي تفصل بين البندقية والهدف، وعلى بُعد جزء من اللحظة من إطلاقه الرصاصة، رنّ فجأةً في أُذُنَيه صوت آخر، وبوضوح.

التقطني يا أبي! ارمني إلى الأعلى والتقطني!

أغمض عينيه وفتحهما مجدداً.

أدِرني! أدِرني!

وهز رأسه، محاولاً التخلص من الصوت والمحافظة على تركيزه.

سأكون حارس المرمى يا أبـــي. اركُل.

لم يتمكن من إسكات الصوت.

رجاءً، هل يمكننا الذهاب إلى ماكدونالدز! رجاءً! رجاء!

انحنى رأسه إلى الأمام، وأُرخيت إصبعه. ومنح نفسه لحظات، والعرَق يلسع عينَيه، وقلبه يخفق بقوة، ونفَسه يندفع بسرعة. وبعد ذلك، رفـع نظـره مجـدداً، وسدّد، لافّاً إصبعه حول الزّناد.

فزتُ بجائزة في المدرسة!

وتشنّج جسمه.

أنت أفضل تحرٍّ في مصر، يا أبـــي!

كان هناك شيء ما في صدره وحَلْقه، صوتٌ نابع من عُمق داخلـه. لـيس نشيجاً أو غصة، بل شيئاً أكثر عُمقاً نابعاً من عُمق أعماقـه. وناضـل لقمعـه، وسحب رأسه إلى الأعلى، وصوّب على بارين مجدداً. ولكـن أصـواتاً أخـرى ظهرت. كانت تملأ رأسه وتناديه.

لم أعُد أعرفك. عشرون عاماً، وفجأةً لم أعد أعرف زوجي.

حماية عائلتي وأطفالي. إنه أعظم واجبات الرجل.

أنت الأفضل يا أبـــي.

يا حبـــي، يا نوري، يا حياتي.

التقطني!

أفضل رجل في العالم.

أدرني!

ما تقوم به نابع من الصلاح في قلبك.

لا أستطيع تناول شطيرتَي ماكس كبيرتَين!

ومن ثم، انطلق الصوت الأعلى بوضوحٍ وسط تلك الأصوات:

إنه يرقد بسلام. هناك نور ذهبـــي، وعلي يرقد بسلام داخله. لا تنسَ ذلك أبداً.

وتمايل شيء ما داخله. أهو ذلك الصوت مجدداً؟ باستثناء أنه لـيس صـوتاً فحسب، بل أكثر من ذلك... إنّه بُخار، سواد حالك بمقدار السواد داخلِ المتاهـة

يتموّر داخله. ورفع جسده، وفتح فمه كما لو أنه يريد التقيّؤ، عِلماً أن شيئاً ملموساً لم يخرج. في الوقت نفسه، شعر كما لو أن كل شيء يخرج، واحداً تِلوَ الآخر، وهناك المزيد، دَفق من السواد الكالح لا يمكن إيقافه يتدفّق من داخله كتدفق النفط من البئر.

وبعد ذلك، انتهى كل شيء كما بدأ. كان راكعاً هناك والبندقية في يده، وإصبعه حول الزِّناد، وبؤرة مِنظار التصويب مصوبة إلى وسط رأس بارين الشبيه بجُلمود، كما كان الحال في السابق، وفي الوقت نفسه، بخلاف كل ما كان في السابق. لقد استُنزف شيء ما. رافعاً إصبعه عن الزِّناد، أدار البندقية بتأنٍّ ووضعها على الأرض، وطرف عينَيه بسرعة كما لو أنه قد استيقظ للتوّ من حُلم جليّ، غير واثق من حدوث ما ظنّ أنه حدث.

ركع هناك للحظات عدة، وزمجرةُ صوتِ بارين المشوَّشة والمكبَّرة تنجرف صعوداً من الوادي، ويبدو القمر في توازن على قمة القُرن في الأعلى. ومن ثم، فكّ مِنظار التصويب ببطء، وأخرج المِمشط وأعاده مع البندقية إلى حقيبة الخَيش. وأقفل السحّاب، ووقف.

لقد حدثت جرائم مروِّعة، ولن تتحقق العدالة أبداً على الأرجح ما لم يُخرج الله شيئاً ما مدهشاً من القبّعة. فالعالم مكان مُظلِم أكثر من أي وقت مضى.

وعلى غرار طَوف ورد النيل الذي ظهر من العدَم لينقذ حياته – وليس حياة صديقه العزيز – فوجئ بوجود قَبَسٍ من نور، وأمل؛ منارة تُرشده في ظُلمة الليل. كان يعرف أيضاً المكان الذي يبحث عنه فيه.

معلّقاً الحقيبة على كتفه، أدار ظهره للوادي وانطلق في رحلته الطويلة إلى المنزل.

القدس

انحنى جويل ريغيف إلى الأمام عندما عرض البرنامج كلمة المرور التي يحتاج إليها: مينوراه3. لم تكن كلمة مرور بسيطة، ومع ذلك تمكّن البرنامج من كشفها في أقل من خمس دقائق. ربما تعتقدون أن الشرطي يَعي هذه الأمور، ولكن ريغيف

لم يكن يهتم بها. لم يكن مهتماً بأي من هذه الأمور. كان يقوم بهذه المهمة لأن دوف التمس منه القيام بذلك، قائلاً إن الأمر هام. أدخل كلمة المرور، وضغط على زر المتابعة.

"لديك عمل"، نادى عندما ظهرت الشاشة.

فقدم زيسكي من المطبخ حيث كان يُعِدّ القهوة، وأخلى ريغيف الكرسي له.

"لا حاجة لي لأقول لك إن التسلل إلى ملفات الكمبيوتر التابعة للشرطة عمل غير قانوني كلّيّاً".

"لدقائق قليلة فقط. أحتاج إلى التحقق من أمر ما".

"حسناً، تحقق منه بسرعة. لقد تمكنتُ من تأخير عملية تعقّبنا، ولكنني لا أزال غير راغبٍ في المجازفة".

فرفع زيسكي إبهامه وانحنى في اتجاه الشاشة، ونظّارته ذات العدستين المستديرتين تتوهّج في الضوء المحيط. وتركه ريغيف لعمله.

لقد مات بِن - روي. تلك هي الأنباء التي كانت قد وردت إلى المركز في وقت متأخر من بعد الظهر. لم يكن هناك تأكيد مُطلَق أو تفاصيل باستثناء اتصال مجهول الهوية تمّ تلقّيه من شخص ما في مصر. لم يكن زيسكي بحاجة إلى تفاصيل. فالأمر متعلق بقضية كلينبرغ بدون شك، القضية التي تناولتها الصحف المصرية وطفت على واجهة الأحداث، وعلى نحو غامض، بعد ظهر اليوم السابق. لم يكن أحد يعرف السبب، ولكن كان باستطاعته وضع تخمينِ شخص مثقّف. لقد بلغه سرَيان شائعة عن قيام بِن - روي بتوجيه بريد إلكتروني أزعج البعض مما أدّى إلى إيقاف التحقيق في القضية.

كان بحاجة إلى رؤية البريد الإلكتروني. لهذا السبب، قام باستدراج جويل ليقوم باستخدام مهاراته في ميدان أمن شبكات الكمبيوتر بهدف ولوج حساب بِن - روي. محرّكاً الفأرة بشكل دائري، ضغط على أيقونة البريد الإلكتروني، ومن ثم على أيقونة البريد المُرسَل. كانت أولى الرسائل المُدرَجة وآخر رسالة هي تلك التي وجّهها بِن - روي لليه شاليف، كما أرسل نسخة عنها للرئيس غال والضابط المسؤول بوم، وتحمل عنوان: حُلّت القضية.

مزيلاً المشابك التي تثبّت قبّعته، وهي القبّعة التي يعتمرها الرجال اليهود، أسند ظهره وقرأ.

لقد جُرحت مشاعره بسبب طريقة تكلّم بِن – روي معه في لقائهما الأخير – "عليك أن تتوجّه لي بلقب يا سيدي!" – ولكن ذلك لم يقلّل من إعجابه بالرجل بأي حال. ففي قوة شرطة معظم أفرادها من المتعصّبين والأغبياء، أثبت بِن – روي أنه من الأشخاص الصالحين، لا بل الأفضل. ولهذا السبب، شعر بالانزعاج بسبب عدم قيام بِن – روي بإشراكه في التحقيقات في الأيام العشرة الأخيرة ("ولكن، ليس بذلك المعنى!" كان باستطاعته سماع صوت بِن – روي تقريباً وهو يقول ذلك).

ولهذا السبب أيضاً، كان لديه شعور غريب بأن بِن – روي يوافق على ما يقوم به الآن، ويحضّه بطريقة ما ومن مكان ما. فعلى غراره، كان الرجل الجسيم يضطلع بالأمور على طريقته الخاصة. لقد شكلا فريقاً جيداً، وكان بإمكانهما تشكيل فريق رائع.

قرأ التقرير حتى النهاية، وكان اندهاشه يزداد مع كل صفحة. وأُعجب أيضاً بطريقة بِن – روي في ربط كل الأمور ببعضها. وبعد ذلك، مدّ يده وتحسس بأصابعه البَندول الفضّي الذي يحمل عبارة ماغِن دافيد والمتدلي من سلسلة يضعها حول عُنُقه، وحاول تبيان ما يتعيّن عليه القيام به لأنه يجب عليه القيام بأمر ما. لم يكن يستطيع تناسي الأمر. فهو يدين بذلك لبِن – روي، ولوالدته أيضاً.

"سأكون شرطياً جيداً"، كان قد وعدها في تلك المرة الأخيرة في المستشفى، ممسكاً بيدها، وممرِّراً يده بنعومة على رأسها الذي صَلع قبل الأوان. "حاول على الدوام القيام بالأمر الصائب، وتقديم فاعلي السوء للعدالة".

فكر لدقائق قليلة، لاهياً بالقلادة. ومن ثم، أومأ برأسه وابتسم، وبحث عن اسمَين في محرك البحث غوغل. ضاغطاً على زر *في اتجاه الأمام* الخاص بالبريد الإلكتروني، نسخ العنوانَين المتعلقَين بموضوع البحث: natan-tirat@haaretz.co.il، و mordechaiyaron@gmail.com. وكتب كلمة سكوب في خانة الموضوع، وضغط على كلمة *أرسل*، وانتظر حتى تأكد من إرسال البريد، ومن ثم أطفأ الجهاز ودخل المطبخ، متسائلاً عن نوع القنبلة التي فجّرها.

"هل تريد كوباً من الشراب؟".

الأُقصُر

كان ناتانيال بارين واقفاً على شرفة جناحه في فندق وينتر بـــالاس، حانيـــاً جسمه الضخم المصاب بمرض الاستسقاء على الدرابزين الحجري، ومحدّقاً بالنيل في اتجاه التلال الطيبيّة الحدباء.

كان قد قام بما يلزم في وادي الملوك، وعاد إلى الفندق، وتناول العشاء بمفرده. لن تعرفوا أبداً من ملامح وجهه إذا كان حزيناً أم لا. وحدهما يداه تُلمِحـــان إلى انـــزعاج عميق وإلى مناجاة أكثر عَصفاً. كان قد كوّر قبضتي يديه، فيما أظفـــاره المصفرَّة تخدش جدار الشرفة المنخفض كما لو أنها خُطّافـــات جـــزّار تنغـــرس في ذبيحة.

وقف لمدة ثلاثين دقيقة تقريباً، مهدهداً إلى الأمام والوراء، وأبواق السيارات تلعلع من دون توقف في الأسفل، إضافةً إلى ثرثرات العائلات المتنـــزّهة على امتداد الكورنيش. وبعد ذلك، تنهّد وعاد إلى داخل الغرفة، جارّاً قدمَيه.

"سآوي إلى الفراش الآن يا ستيفن".

خرج الخادم من الظلال، وبعد إيماءة مُذعنة بالرأس، شرع بإعـــداد ســـيده للاستلقاء على السرير. فساعده على خلع ملابسه وارتداء ثياب النوم، وأمســـك ذراعه في أثناء تثبيته جسده الضخم على الفراش، وحمل له صينية الدواء؛ صفّاً من الحبوب المختلفة الملوَّنة الموضوعة بترتيب، والتي يتناولها واحدةً تِلوَ الأخـــرى مـــع حليب قليل السخونة. وبعد تناولها، أبعد الصينية، وساعد الخادمُ بارين على إلقـــاء ظهره على كومة من الوسادات، وسحب الأغطية حتى وسط صدره، وسلّمه قناع الأكسجين، وتفحّص الخزان للتأكد من سلامة تدفّق الأكسجين. وبعد إطفاء كل الأضواء باستثناء المصباح الموضوع على الطاولة بجانب السرير، تمنّى لســـيده ليلـــة هانئة وانسحب.

عندما أصبح بمفرده، حدّق بارين بالسقف. كان صدره يتحرك صـــعوداً ونـــزولاً كمنفاخ حدّاد، والغرفة تردد صدى غرغرة تنفّسه الأجـــش. مـــرت دقيقة، وبدأت عيناه تغمضان، وانـــزلق جفناه ببطء فوق قُزحيّتَـــي عينَيـــه. وعندما لم يتبقَّ سوى خط أبيض رفيع، أمسكت يداه فجأةً قمـــاش الأغطيـــة

بإحكام وهمس شيئاً ما، كلمة واحدة كتَمها قناع الأكسجين. لقد بدت كما لو أنها "عنصري".

ومن ثم أُغمضت عيناه ونام.

* * *

ها أنا أنتظر نصف ساعة قبل العودة إلى الجناح. وكما توقعتُ، لقد نام نوماً عميقاً. لم يكن العقار المهدّئ الذي أضفتُه إلى الحليب ضرورياً على الأرجح – فنومه عميق على الدوام – ولكن في هذه الحالة، عليّ أن أكون أكثر احتراساً من العادة. لم أُطِق فكرة استيقاظه وقد تمّ تطهيره جزئياً، ليرمقني بإحدى نظراته تلك؛ إذ سيكون الأمر مُحرِجاً للغاية. ما كنت لأقوم بذلك قطّ.

لازمت الغرفة لمراقبته لفترة قصيرة. أنا أختبر شعوراً لا يرقى إلى مستوى الخوف. لقد أدّيتُ خدمتي لدى العائلة لمدة ثلاثين سنة، كما فعل والدي قبلي. ربما تظنون أن هذا الرَّدْح الطويل من الزمن – نصف حياتي تقريباً – يولّد شعوراً أكبر. ولكنني أكاد لا أشعر بشيء. فكل عذابي قد انتهى، وأصبحت الشكوك ورائي. وها أنا أقف الآن في النفق، نفق الضوء، وكل ما يشغلني هو عملية التطهير والقيام بعملي باذلاً أقصى قدراتي.

عبرت الغرفة نحو خزانة الملابس، وأخرجت إحدى الوسادات الاحتياطية الجميلة، والقاسية. وبعد ذلك، توجّهت إلى السرير، ورفعت قناع الأكسجين ووضعته جانباً، وأمسكت جانبَي الوسادة بإحكام من دون جَلَبة، ووضعتها على وجهه ممارساً ضغطاً كافياً ليختنق من دون ترك علامات محسوسة.

لقد استخدمتنا العائلة على الدوام للقيام بأعمال تطهير خاصة، تلك التي تتطلب دقة وحصافة وتحمل معنى خاصاً لخير العائلة (هذه العملية تحمل معنى أكبر!). قيل لي إن والدي كان يتمتع بمهارة عالية في التطهير. وأنا على غراره أيضاً، ولكن بطريقتي الخاصة. لقد نسيتُ عدد المرات التي استُدعيتُ فيها لإزالة حالةٍ ما من الفوضى من شأنها أن تُحدث ضرراً.

لديّ عمل صغير آخر لك يا ستيفن. التفاصيل في المغلّف.

في الواقع، لمْ أنسَ عدد العمليات قطّ. فالحصيلة تبلغ اثنَتَين وثلاثين عمليـــة، وتصبح ثلاثاً وثلاثين إذا احتسبتم عملية الليلة. وهذا ما سأقوم به بالطبع. فمصلحة العائلة هي مصلحة العائلة أيّاً يكن من يُصدر الأمر.

ناضل أقل مما تصوّرتُ. إنه يكاد لا يناضل في الواقع: محاولة لتقويس الظهر، ومِقدار قليل من الارتعادات، ولكنه همد بعد عشرين ثانية. واصلت الضغط، غـــير راغب في المجازفة، عادّاً حتى المئتَين، لضمان تنفيذ العملية فحسب. ومن ثم رفعـــت الوسادة. هناك دهشة على وجهه تبلغ حد الغيظ، ويعود سبب ذلك على الأرجح إلى فتحه عينَيه وفمه. أرخيت جفنيه وأغلقت فمه فتبدّل تعبير وجهه. إنـــه يـــنعم بالراحة الآن، لا بل إنه هادئ؛ كما تتوقعون تماماً من رجل سيّئ يموت بســـلام في أثناء نومه.

لا أشعر بأي نوع من الأسى، أو الندم، أو الحزن. لقد انتقلت عصا البَـــدَل، وانتقل معها ولائي. يبدو أن لا حاجة للأنسجة.

وضعت قناع الأكسجين مكانه، وملّست الوسادات تحت رأسه، ونفضـــت وسادة التطهير وأعدتها إلى الخزانة. وتحققت للمرة الأخيرة، ثم التقطـــت الهـــاتف المحمول، وطلبت الرقم ونقلت النبأ السارّ.

كنت أرى شيئاً ما على الدوام في السيد وليام، شيئاً ما تعمّد والده تجاهلَـــه كما يبدو. الموهبة. القدرة. كانت السيدة راشيل امرأة جيدة على طريقتها، ولكنها لم تكن لتصبح المستقبل قطّ. برأيي، كان السيد وليام الطريق الوحيـــد المضـــمون للمضيّ قدُماً.

لهذا السبب، عندما دنا مني وشرح لي أن الوقت قد حان لبدء فصل جديـــد، وطلب مساعدتي، لم يكن القرار صعباً. فالعائلة، كما ترون، كل شيء بالنسبة إليّ، وأهمّ من مجموع أفرادها. هذا ما علّمني إيّاه والدي. وهذه هي العقيدة التي عشتُ حياتي في ظلها. فبسبب مرض السيد ناتانيال، كان يجب ضمان الخلافة، وحمايـــة مستقبل العائلة. والسيد وليام هو المستقبل.

ليس القرار صعباً أبداً.

وعندما أخبرتُه أن الأمر قد تمّ، أفرط السيد – السيد *الجديد* – في كَيل المديح لي. لا يُفترَض بـــي التَّوق إلى ذلك – إنه عملي بالرغم من كل شيء – ولكنني لا

أتمالك نفسي عن الشعور بنشوة الرِّضى. وها هو يقترح أن أعتبر نفسي في إجازة، وأذهب حيثما أشاء، فكل النفقات سيتم تسديدها. ولكن، لماذا أرغب في القيام بذلك؟ فمكاني هو مع العائلة، في قلب العائلة، أخدم بأي طريقة ممكنة.

ألقيتُ نظرة أخيرة على المكان - لا يسَعكم إلا الاحتراس حيث تجري عمليات التطهير - ومن ثم انسحبتُ إلى غرفتي. لستُ شخصاً مُسرِفاً، ولكنني أعتقد أنني قد أطلب شيئاً من جناح خدمة الغرف في هذه المناسبة، كوب شاي لذيذاً ربما، مع قطعة بسكويت تساعدني على ابتلاع الشاي.

فالمستقبل يبدو مُشرِقاً، كما أعتقد.

الخاتمة

بعد ثلاثة أشهر

وفى كبير التحرين آري بِن – روي في مركز شرطة القدس بوعده.

لن يعرف أحدٌ كيف وصل إلى هناك. لا بد أن التيارات في تلك الناحية من المتوسط قد سحبته في اتجاه معاكس تماماً. ربما حملته موجة غريبة. ربما علق في شبكة مركب صيد. ربما – وهذا ما اختار خليفة أن يصدّقه – ساعد الله ذاك الرجل الجسيم لأنه كان يملك قلب شخص صالح، ومستقيم؛ بالرغم من شخصيته المغيظة، وهو أحد أفضل أصدقاء خليفة الذين حظي بهم يوماً. فالله يرى كل شيء.

الله يرى كل شيء.

أيّاً تكن الحقيقة – موجة، شبكة صيد... – قرابة الساعة السادسة والنصف من صباحٍ دافئ واضح الرؤية، وبينما كان الزعيق يعلو في جناح الولادة في مستشفى هداسا في القدس، رأى شخص يسير مع كلبه على الشاطئ، جنوب بات يام، شيئاً طافياً في الماء. فاقترب من حدود حركة المدّ والجزر، وشاهد الأمواج تدفعه في اتجاه الساحل. لقد اقترب شيئاً فشيئاً، وعلا الزعيق أكثر فأكثر، حتى أُطلقت صيحة ارتياح جشاء ومُرهَقة، ووُلد طفل صحيح الجسم، مُعافى، وأخذ أول نفَس في اللحظة نفسها بالتحديد التي رفعت فيها الموجة الجثة ووضعتها برِفق على الرمال. كان جسده محفوظاً تماماً بالرغم من وجوده في الماء لمدة طويلة، وترتسم على وجهه ابتسامة واسعة.

عاد آري بِن – روي إلى الوطن.

كان خليفة يعرف كل ذلك لأنه تلقى بشكل مفاجئ اتصالاً من سارة. كانا على تواصل في الأشهر السابقة، وقد وجّه لها خليفة رسالة شرح فيها ظروف وفاة بِن – روي. في هذه الحالة، وبوجود طفل عليها الاعتناء به، لم تتحدّث لمدة طويلة، بل زوّدته بآخر التطورات، وطلبت منه خدمتين. أن يكون حاضراً في جنازة بِن – روي. وأن يكون عرّاب ابنهما حديث الولادة.

بالطبع، أجاب خليفة. يُشرّفه أن يُلبّي الطلبَين.

لذلك، تمّ حجز مقاعد على متن الرحلات الجوية وأماكن في الفنادق بسرعة (بالرغم من اعتراضات خليفة لأنه لم يُسمح له بتسديد أي نفقات).

ووقف وعائلته على سفح تلة مُشرِفة على المدينة القديمة للقدس، في حين تمّ إنزال نَعش خشبي بسيط إلى داخل الأرض، وترنّم حاخام عميق الصوت ببطء ترنيمة *كاديش* الجنازية اليهودية.

ييسغادال فييسكاداش شْمِيْ رابوه.

وفي أثناء إصغائه، مطأطئ الرأس، أمسك بإحدى يدَيه يد زينَب، ولفّ باليد الأخرى بطّاح ويوسف بطريقة وقائية. وجد خليفة نفسه يفكر في كل ما حدث في الأشهر الثلاثة الأخيرة، وفي كل ما تغيّر.

لقد تناولت الصحافة قصة بارين/طمر النفايات السامة، بدءاً بإسرائيل، وانتشرت بسرعة على الصفحات الأمامية في مختلف أنحاء العالم. وبخلاف ما يكون عليه الوضع في هذه القضايا، لم تكن هناك أي محاولة للنفي أو التهرّب من المسؤولية، بل بالعكس. فقد نشر الرئيس الجديد للشركة، وليام بارين، إدانة علنية، وقدّم اعتذاراً بسبب طريقة والده الراحل في إدارة الشركة. لقد وعد بأن الأمور ستكون مختلفة في ظل قيادته، بدءاً بتأسيس صندوق مالي لإزالة الفوضى التي خلّفها والده، ونقل البراميل، وتنظيف المَكمَن المائي، والتعويض على كل أولئك الذين عانوا بسبب التلوث بمبالغ كبيرة. لم يكن خليفة يملك أي فكرة عما إذا كان ذلك حقيقياً أم مجرّدَ خطوة ساخرة لتحسين سمعة الشركة المشوَّهة. فما يعرفه بالفعل هو أن عائلة عطية لن يتوجب عليها القلق في شأن المال لمدة من الزمن.

أما بالنسبة إلى زوسِر فريت، فقد غُرِّمت بمبلغ مالي كبير، وأُخضع كل أعضاء مجلس إدارتها للتحقيق الجنائي، بمن فيهم شقيق وزير الداخلية. لم يتمكن خليفة قطّ من التأكد مما إذا كان الصَّندل الذي قتل ابنه أحد تلك الصّنادل التي كانت تنقل النفايات السامة، ولكنه شعر بقليل من العزاء عندما تيقّن من أن إخضاع شركة كبيرة تتمتع بالنفوذ مثل زوسِر للقانون بشير ولادة مصر جديدة.

كان وزينَب لا يزالان يشعران بالأسى لموت ابنهما، وسيبقيان كذلك على الدوام. وفي الوقت نفسه – ويصعب شرح ذلك لمَن لم يختبر ما عانياه – انفتحت حياتهما بطريقة ما في هذه الأشهر القليلة الأخيرة. وبقي حزنهما شديداً، ولكن

الأمر بدا كما لو أن دائرةً تتّسع حوله باستمرار كمكان تتجذّر فيه أمور أخرى وتزدهر. لم يعُد الألم مهيمناً، ودار حديث حول محاولة إنجاب طفل آخر، عِلماً أنه لا دلالة على الحَمْل بعد. سيحين الوقت إن شاء الله.

كانت إحدى أولوياته بعد الليلة التي قضاها على متن السفينة إعادة دفتر المدوَّنات التالف العائد لساموويل بينسكر. لذا، توجّه جنوباً لزيارة إيمان البَدري في أول فرصة سنحت له. لقد قام بذلك بقلب مُثقَل بالأسى لأنه لم يفِ بوعده لها. ولدى وصوله، أُبلغ بأن المرأة المُسنّة قد توفّيت بسلام في أثناء نومها قبل أسبوع، أي ليلة قدومه لرؤيتها، كما لو أنها انتظرت طويلاً بما يكفي للقيام بتلك المهمة الأخيرة المتمثلة بمشاطرة أحدهم دفتر المدوَّنات، ومن ثم سمحت لنفسها بالاستراحة. لقد زار قبرها، وأحدث حفرة صغيرة في التراب من دون أن يراه أحد، ووضع دفتر المدوَّنات فيها. وبعد أسبوع، اقتفى آثار مدفن ساموويل بينسكر في القاهرة حيث أفرغ مِنديلاً مليئاً بالتراب حصل عليه من قبر إيمان البَدري. إنها بادرة صغيرة ولكنه أمِل أن تعني لهما شيئاً. لم تكفّ زينَب عن تذكيره بمدى لطفه.

أُلغي بهدوءٍ عرضُ الأسعارِ المتعلق بحقل الغاز الصحراوي الذي كانت بارين تسعى للحصول عليه، واختفت صفحة الويب التابعة لنمسيس أجندا بطريقة مُبهَمة، ومن دون وجود أي سبب وجيه. لقد ظهرت تخمينات في غرف تبادل أطراف الحديث على الإنترنت تشير إلى تورّط السي آي أيه، والموساد، ووجود مؤامرة رأسمالية دولية. ولم يتمّ التثبّت من صحة أيٍّ من هذه الادعاءات التي فقدت أهمّيتها على المدى البعيد. كانت أجندا منارة ألهبت مخيِّلة كل أولئك الذين وثقوا بعالم أكثر عدالة. ولكن مجموعات أخرى ستواصل عملها، وستتمّ محاسبة المسيئين.

في ما يتعلق بقصة راشيل بارين المأساوية، لم يتم الكشف عن أي شيء بطريقة علنية، أم إن شيئاً لم يبلغ مسمعي خليفة على الأقل في هذا الشأن. لقد أمِل ودعا لكي تكون في سلام حيثما وُجدت.

وتلقى خليفة رسالتَين عبر البريد الإلكتروني يفصل بينهما يوم واحد، إحداهما من صديق الطفولة محمد عبد الله الذي أصبح على درجة كبيرة من الأهمية في ميدان صناعة الإنترنت، والأخرى من كاثرين تايلر، وهي روائية أميركية ثريّة ربطته بها صداقة عابرة قبل سنوات قليلة عندما كانت تُجري أبحاثاً في الأُقصُر لأجل كتاب جديد. كان قد نسي تماماً رسالتي البريد الإلكتروني اللتين وجههما لهما، لذلك بدا

الأمر بمثابة مفاجأة سارّة بالنسبة إليه عندما أعربا عن سرورهما بالمساعدة على تمويل ملجأ الأطفال التابع لدميانا بركات. وذهب محمد عبد الله أبعد من ذلك، عارضاً دفع النفقات الكاملة لرحلة يقوم بها الأطفال إلى القاهرة لزيارة حديقة الأحلام، ومسرح الدُّمى، وقرية الدكتور رَجَب الفرعونية. طالما وجد خليفة القرية عديمة الذَّوق، ولكنه اعتبر أنه من الفظاظة قول ذلك في الظروف الراهنة.

أمّا ريفكا كلينبرغ، فمقتلها مسألة إسرائيلية، والمعلومات المتوافرة لدى خليفة حول هذه المسألة مُستقاة من الإنترنت. وفي حين يبدو تورّط بارين في مقتلها أمراً لا نـزاع فيه، لم يكن الإسرائيليون قريبين من الإمساك بالقاتل الفعلي. فعندما دخل الموقع في المرة الأخيرة، كان التحقيق يركّز على خَيط جديد مرتبط بقاتل تركي محترِف. وانتظر التطورات باهتمام.

وأشارت تمتمة *آمين* إلى انتهاء المراسم، وأُخرج من حُلُم اليقظة. أمامه، انتظم رجال العائلة في صف، وتقدّموا واحداً تِلوَ الآخر لإفراغ مِلء مِجرفة من التراب في القبر. ونظراً إلى كونه مسلماً، لم يكن خليفة واثقاً مما إذا كان يُفترض به المشارَكة. ولكن، كان هناك كاهن في الصف - رجل قصير ممتلئ الجسم يرتدي رداء أسود، ويضع خاتماً أُرجوانياً في إصبعه، ورمز النصارى الديني الفضي يتدلى من قلادة يضعها حول عُنُقه - لذلك قرر أنه لا بأس بذلك. انضم إلى الصف، ووقف وراء شاب نحيل يضع نظارة ذات عدستين مستديرتين ويعتمر قلنسوة زرقاء مُحاكة.

"مع السلامة يا صاحبي"، همس في أثناء إفراغه مِجرفته.

ومع انتهاء الجنازة وشروع الحشد بالتفرّق - حشد كبير جداً - دنت من عائلة خليفة امرأةٌ تحمل طفلاً، وعرّفت بنفسها. كانت رحلتهما الجوية قد أُرجئت فوصلا إلى المقبرة في الوقت المحدَّد تماماً، وهكذا، كانت تلك هي المرة الأولى التي يتحدث فيها إلى سارة.

"قُل مرحباً لعرّابك"، قالت مسلّمةً إيّاه الطفل. فتجمّعت زينَب، وبطّاح، ويوسف حولهما في أثناء هدهدته الطفل.

"إنه وسيم"، قال.

كان ذلك صحيحاً. فهناك نعومة في قسَمات وجهه، وبَريق في عينَيه، مما يوحي بأنه ورث من والدته أكثر مما ورثه من والده. وكان بِن - روي سيقرّ بنفسه لو كان موجوداً أن هذا ليس أمراً سيئاً.

"حتى إنني لا أعرف اسمه".

"لقد أطلقنا عليه اسم إيلي". قالت ساره. "إيلي بِن – روي".

فشعر خليفة بغصّة في حلقه.

"إنها مصادفة رائعة! ابني... لقد فقدنا ابننا... اسمه علي. إيلي، علي. إنهما الاسم نفسه تقريباً".

وابتسمت سارة ووضعت يدها على رِسغه في إيماءة تريد بها القول: "لم يكن الأمر مصادَفة".

فطرف خليفة عينَيه، وكان عليه الإشاحة بنظره. ساد الصمت، ومن ثم انحنت زينَب وهمست في أُذُنه. "بالطبع، بالطبع".

متحكّماً بمشاعره، قبّل جبين الطفل وأعاده لوالدته. ومن ثم، وضع يده في جَيبه وأخرج علبة بلاستيكية صغيرة.

"منذ سنوات قليلة، عندما التقيتُ آري للمرة الأولى، أعطاني هذه"، قال. "لقد احتفظتُ بها مذاك الحين. والآن، أعتقد أن هناك مكاناً أفضل لها".

وفتح العلبة. في الداخل، وعلى قطعة من القماش، كانت هناك مينورا فضيّة صغيرة تتدلى من سلسلة. إنها المينورا التي اعتاد آري بِن – روي نفسه وضعها. مُخرِجاً إيّاها، مرّرها خليفة برفق من فوق رأس الطفل.

"أرأيتِ، مثل والده تماماً".

وشرع الطفل بالبكاء.

"مثل والده تماماً"، قالت سارة.

وقفوا للحظات في أثناء قيامها بتهدئة الطفل. وبعد ذلك، شاعرين بأنها بحاجة إلى الانفراد للحظات بطفلها وبذكرياتها مع بِن – روي، استأذنوا وغادروا. كانت هناك طريق تمرّ بجانب المقبرة، فقرروا سلوكها وصولاً إلى أعلى التلة التي تُشرف على المدينة القديمة وتُطِلّ على منظر مُدهش. توقّفت بطّاح ويوسف للتحديق بحديقة في الأسفل تحتوي على قفص كبير مليء بعصافير مرفرفة. وواصل خليفة وزينَب السير قبل أن يجلسا على جدار. أمامهما، كانت قُبّة الصخرة تشتعل تحت شمس الصباح، وتطوّقها جدران المدينة الحجرية العملاقة، إضافةً إلى سطوحٍ وقببٍ وأبراج، وتقوم أشجار السرو بجانب بعضها بإحكام، حيث إنه يستحيل معرفة

مكان انتهاء إحداها وبدء الشجرة المجاورة.

هناك توتر في الأسفل، كان خليفة يعرف ذلك. غضب وامتعاض ومرارة وكره. كانت لديه آراؤه في الأمور الصائبة والخاطئة المرتبطة بالوضع. ولكن كل شيء يبدو هادئاً ومسالماً من الأعلى.

وأيّاً تكن الأمور الصائبة والخاطئة، كان بِن - روي صديقاً، صديقاً مقرَّباً. هناك عِبرة في ذلك، وأمَل أيضاً.

جلسا هناك بصمت لدقائق عدة، سيقاهما متدلّية، وهما يراقبان مجموعةَ أشخاص يرتدون معاطف سوداء وهم ينحنون إلى الأمام والوراء أمام مدفن. وبعد ذلك، لفّ خليفة ذراعه حول خصر زوجته وقرّبها منه.

"أنا أفتقده"، قال بهدوء. "علي. لقد أحببته كثيراً".

"أحبّه كثيراً"، صحّحت له زينب وهي تستكين على صدره. "إنه هنا. سيكون هنا على الدوام".

فأومأ خليفة برأسه، وقرّبها منه أكثر فأكثر.

"نحن بخير، أليس كذلك؟".

"بالطبع نحن كذلك. نحن فريق خليفة".

وابتسم لما قالته واستدار ليقبّلها، ولكنه قوطع بحركة وراءهما مع اقتراب بطّاح ويوسف. فاكتفى بالهمْس في أُذُن زينَب. وانضمّ الابن والابنة إليهما، وشبكوا أيديهم ببعضها. وساد صمت آخر، ولم يكن أحد يشعر بالحاجة إلى التكلم، بل كانوا سعداء جميعاً لوجودهم مع بعضهم. ومن ثم، رفع يوسف يده وأومأ.

"انظر يا أبي. هناك من يطيّر طائرة ورقية".

في المدينة القديمة، كان هناك مثلّث أحمر صغير يخفق ويتحرك فوق مزيج متنوّع من السطوح. راقبوه لفترة قصيرة، ومن ثم شرعوا بالغناء معاً بصوت واحد.

نُطلق طائرتنا في السماء،

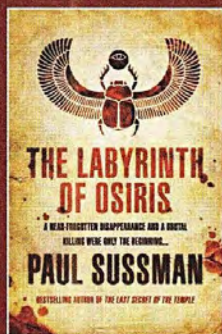
ونجعلها ترتفع عالياً.

كانت ترجمة ارتجالية غير بارعة. وبعد أن ترجموا نصف بيت من الشعر، انفجر الأربعة في نوبات من الضحك.

نبذة عن المؤلف

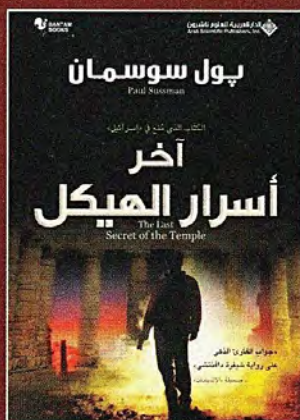
صحافي وعالِم آثار ميداني سابق، يُقيم بول سوسمان في لندن مـــع زوجتـــه وابنَيه. شهدت رواياته الثلاث رواجاً كبيراً على الصعيد الدولي، وتُرجمت إلى أكثر من ثلاثين لغة.

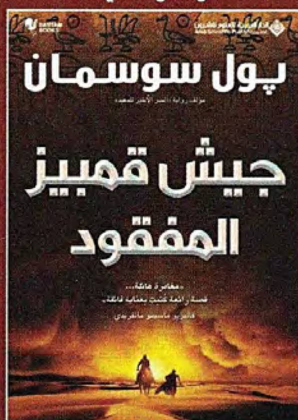
تُقتل صحافية إسرائيلية معروفة باستقامتها في ظروف غامضة، ويتمّ العثور على جثّتها في دار عبادة أرمنية. يقود البحث والتحقيق التحرّي بن - روي إلى سلسلة معقّدة من الحوادث التي تعود به في الزمن إلى الوراء؛ إلى ماضي مصر العريق، وإلى الاتّجار بالجنس، وإلى مؤامرات حيكت بمهارة. وعندها، يُضطر إلى الاستعانة بصديقه المصري خليفة للكشف عن ملابسات تلك الجريمة.



في عالمٍ تختلط به أحداث الماضي بالحاضر، نسج بول سوسمان خيوط روايته الأخيرة التي انتهت بحادثة مأساوية أسدلت الستارة على سلسلة روايات رائعة، وعلى حياة مؤلّف خصب الخيال؛ حثّنا على التفكير، وعلى دخول متاهات نضيع فيها في عالم غامض، وننتقل معها إلى الزمن الماضي.

صدر للمؤلف أيضاً:









الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.
www.asp.com.lb - www.aspbooks.com


ISBN 978-614-01-0639-0